

الملجأ الأخير

-رواية-

الطبعة الأولى 2023 م



زاد ناشرون وموزعون

عمان-المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف: 00962 79 7241272 هاتف: 00962 79 9303338
zad.pub@hotmail.com – zad.publishers@gmail.com



www.facebook.com/زاد ناشرون وموزعون

www.zadpub.com

رقم الأيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2022/4/2140)

الرقم المعياري الدولي: 3-45-779-9923-978

الواصفات: الروايات العربية//الادب العربي//العصر الحديث/

ميع الحقوق محفوظة_ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو استنساخه أو نقله كلياً أو جزئياً_ في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف: هاشم سوالمه

التنسيق الداخلي: سمر كاتوت

الملجأ الأخير

-رواية-

تأليف :

سارة محي الدين



زايد ناشرون وموزعون

القسم الأول

قد يحبك الناس
وأنت تملك كل شيء
لكن كم عدد الذين يحبونك وأنت لا تملك شيء؟.

ستشرق
الشمس من جديد

إِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُ
وَيُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ
وَيُرِيدُ أَنْ يَغْفَرَ

الفصل الأول

عندما دَقَّت الساعة الخامسة، و بينما كانت شمسُ الأصيلِ الدافئةُ الرقيقة، تغمُرُ الحجرة ذاتِ الجدرانِ الصفراءِ الفاتحة، كانت أثيلُ تحدِّقُ بإجلالٍ إلى الرجلِ عريضِ الفكِّينِ شَفُوقِ الملامحِ، في الصورةِ ضمنِ إطارِ خشبيِّ عريضٍ منقوشٍ عليه في الأسفلِ، عندِ أقصى الجانبِ المائلِ إلى اليمينِ، بحروفِ سوداءِ صغيرةٍ اسمَه و كُنيتُه بينِ نافذتينِ عديمتيِ الستائرِ، وكانت قد حوَلتُ بصرها إليه بصورةِ آليَّة. عندما باشرتُ العجوزُ صفيةَ التكلُّمِ عنه كالتزامٍ تقليديٍّ ضروريٍّ لزوجِةٍ وفيَّةٍ مخلصِة، عقبَ انتقادها لسلوكِ جارها الذي تحسَّنَ مزاجُها عندما وصفتهُ بالمختلِ، ونعتتُ زوجتهَ بالمُهَرَّجةِ، وعقبَ توضيحِها السببَ الفعليَّ وراءَ زيارتها المباغتِة لشقيقتها الصغرى، رغمَ أن هذه لا تستطيعُ الترحيبَ بأيِّ إنسانٍ ما لم يُسبقِ الزيارةَ بموعدِ، وإن كان هذا الإنسانُ إحدى شقيقاتها الأربعِ العزيزاتِ على روحها. و إن كانت أثيلُ قد استوعبتُ أن صفيةَ ترحبُ بوجودِ سميحةٍ في بيتها، لأنهما تتشاطرانِ الآراءَ السياسيةَ ذاتها، لولا أنها تخبرها كلِّما رأتها أنَّ عينيها مفرطتانِ في الكِبَرِ، تشبهانِ عيونَ البقرِ. فإبداً انزعاجِها من هذه الوقاحةِ مطلقاً لا يفوتها التطرُّقُ إليه.

قالت صفيةٌ بدافقٍ من الإشادةِ بخصالِ زوجها المتوفَّى، وهي تضعُ فنجانِ القهوةِ المملوءِ إلى نصفه على المنضدةِ المصنوعةِ من خشبِ السنديانِ، مُحدِّقةً إلى صورةِ زوجها على الحائطِ المقابلِ للكنبةِ التي تجلسُ عليها

_"كان رجلاً رائعاً و شفوفاً، لقد دام زواجُنا ثلاثين سنة. إن قلتُ أنَّها سعيدةٌ كلُّها، فعلى الأرجحِ سأبدو لكِ أني أبالغُ".

ثم تخلَّلَ صوتها العميقُ حسرةً مضاءً

_"لو أنه شخَّصَ ذاكِ المرضَ الخبيثَ في مراحلهِ الأولى، لكان في هذه الدقيقةِ جالساً مكانك، يدُمُّ قراراتِ الحكومةِ. إنها حكومةٌ مسعورةٌ. هكذا كان سيُعبَّرُ. رحمةُ الله، ورحمَ اللهُ والدكُ و جميعَ الموتى".

_"أمين" قالت أثيلُ بصوتها الرخيمِ .

_"هل كنتِ تعرفينِ يا أثيلُ أنه عُرضَ عليه منصبُ عضوٍ في البرلمانِ؟، ورفضه دون تفكيرٍ، بل وشعرٍ بالإهانة".

كانت أثيلُ في الواقعِ تعلمُ، حيثُ أنَّ صفيةَ التي أضحت ذاكرتها تخذلها بصفةٍ متكررةٍ، كانت

قد أضافت إلى معارفها أنّ زوجها قد رفض منصباً مهما كعضوٍ في البرلمان، لكنّ أثيل لا تستطيع إلا أن تنبهر لهذه الأنفة المترفعة و الزهد الرشيد، كأنها تطرق سمعها للمرة الأولى، موظّفةً مصطلحاتٍ جذابة تحث صافية على التبتّم بافتخار.

ـ "ألم أخبرك أنه رجل رائع، ليس من عبث يا حبيبتى. ففي الوقت الذي كان حُلماً كبيراً الحصول على منصب تحت قبة البرلمان، رفضه بإباء كما يرفض قطعة حلوى، قائلاً: إن المسؤولية صعبة، و اكتفى بمعاش قليل. المهم أن يعيش مرتاح البال هانئ الضمير، كما كان بمقدوره أن يتزوج امرأة أخرى غيري، تهبّه أطفالاً، يسمعهم ينادونه: "أبي" مثلما يريد كلُّ الرجال، غير أنه فضل أن لا يجرّح شعوري. اعتاد القول: إن الحبُّ أهمُّ من الأولاد. وإني أعوّضه عن أطفال الدنيا. لا تستغربي يا أثيل، هناك صنفٌ من الرجال يصعب أن تفيّه كلمة "مخلص" حقّه الكامل".

ران الصمت لدقيقة، عندما تجلجلت عيناها نحو الصورة، وتضعضت دموع التأثر بين أهدابها الطويلة المقوّسة .

ـ "أثيل" قالت مُستأنفةً الحديث " كيف والدتُك و شقيقتك، هل أمورهنّ بخير؟ أعتقد أن شقيقتك الصغرى كانت متوعكة، هل تحسّنت؟".

أجابت أثيل عاقدةً يديها على حجرها:

ـ "إنهنّ بخير، أجل لقد تحسّنت بعد أن كدنا نفقد الأمل في ذلك، إنها أفضل الآن بفضل رعاية أمي"

وهاهي الآن تتوقُّ إلى المغادرة. إنّ والدتها ينتابها القلق، حينما تتأخّر عن العودة في الوقت المحدّد. ولقد شعرتُ بوخز الضمير لأنّها لم تنبئها بعزمها على زيارة صافية.

ـ "أسكبُ لك مزيداً من القهوة؟"

اقترحتُ صافيةً عندما رأيت الفنجان فارغاً.

رفضتُ أثيلُ شاكراً، ليست ترغب في المزيد.

ـ "و كيف صحّة أمك، أرجو أنّها لا تعاني أيّ مضاعفاتٍ جرّاء إجراءاتك العملية الخطيرة التي حدثتني عنها، رغم مرور سنواتٍ عليها، لكنّ الإنسان يشعر بالخطر دوماً، بعد أن يعيش وضعا حرجاً كالذي مرّت به والدتُك "

مس قلبها لذعة من ألم واستحوذ على أثيل شعورٌ مفاجئٌ بالمرارة، وأحدث هذا الاستفسار ضيقاً غامضاً في نفسها، وانقلبت تقاسيمٌ وجهها إلى منقبضة كامدة، عندما استدعى عقلها من الزوايا السحيقة، تلك المرحلة العسرة. كان قد مرّ على تلك العملية ست سنوات، وبالنسبة إلى

أثيل التي ما انفكت ترتجف خوفاً من فقدان والدتها، كأنها حدثت منذ أسبوع، إذ أنها بالكاد استطاعت تجاوزَ صدمة فقدانِ والدها في حادثِ عملٍ مؤسف. و ما عتَمَت أن نَبَدَتِ الذِّكْرَى المشؤومة.

_"هي بخير" أجابت بارتياح، أملهً لو أنّ صافية لم تتطرقَ إلى تلك الذكرى الحزينة.
_"الحمد لله، كوني شاكراً لله يا أثيل، لقد أجرئها في الوقت المناسب. أتمنى لو أتعرفُ عليها يوماً. أتصوّر أنها سيّدةٌ عظيمة، لأنها استطاعت مواجهة تقلبات الحياة وحدها، بعد وفاة والدك، وتوليها مسؤولية ثلاث فتيات صغيرات، لا سيما مع عدم وجود أقاربٍ يساعدون. ليس من فطرة النساء أن يتحمّلنَ ذاك العبء الثقيل وحدهنَّ إلا إذا كانت المرأة عظيمة كأملك."

ابتسمت أثيل عن نثيتها و سطعت عينها كمصباحين متلألئين لاعتزازها بوالدتها.
_"أجل، يا سيدة صافية إتها كذلك. وإني لأرغب في دعوتك إلى بيتنا للتعرفُ عليها إن كنت لا تمانعين."

_"سيكون شرفاً لي، بيد أنني لا أحبذ الخروجَ من بيتي في فصل الصيف. انتظري إلى أن ينتهي، لا سيما أن صيفَ هذا العام شديدُ القيظ."

وجذبت الوسادة داسّةً إياها بين ظهرها و الكتبة، شاكيةً من آلامٍ في خرزات الظهر السفلية، مُصدرةً صوتاً قريباً إلى التأوه، و سرعاناً ما عدلت جليستها. و تدرك أثيل أن هذا التعديل استعداداً صريح لإسداء النصائح، وشأنها كالسيدات المُسنّات، كانت صافية تحب تقديمها وإن لم يطلها أحد.

_"أثيل، أودُّ أن أقدم لك نصيحة جيدة"

قالت أثيل بأدب جَم:

_"تفضلي يا سيدة صافية، إنني أسمعك"

تنحنحت صافية ثلاث مرات تلتها بنظرة مقتضبة إلى خارج النافذة، ثم شرعت تقول وحدثتها تشتعلان بوميض الحسرة:

_"لم أرزقُ أطفالاً كما تعلمين. كان زوجي يقول: إنّ الله حرماناً منهم، لكنه منحنا المودّة والرحمة والراحة النفسية.. كان أكثر من زوج يا أثيل."

تملكت أثيل الحيرة، لماذا تلوك صافية نفس الموضوع؟، بينما هي تتحرّق إلى الانصراف، ليس بوسعها مقاطعتها. إنها مضطرة أن تنتظرَ حتى تختمَ هذه السيرة، ثم تستأذنَ منها لتذهب.

_"كان زوجي و أبي و أخي، و أيّ شيء تريدان، كان الرجل الذي عوّضني عن فراق والدي،

والحائط الذي أستند عليه. كلُّ امرأةٍ تحتاج رجلاً في حياتها، ليس فقط من أجل إنجاب الأولاد، والاعتناء بهم.." ومدت يدها ثم تناولت فنجان القهوة، واحتست رشفة. وبينما هي تعيده إلى مكانه أردفت بنبرة رخوة:

_"أشعريا أثيل، كما لو أنك لا ترغبين في الزواج. ها أنتِ قد بلغتِ السادسة والعشرين، وهو سنٌّ مناسبٌ لذلك، ولو أردتِ لتزوجتِ قبل الآن بوقتٍ طويل. فلا يُعقل أن يتجاهلَ الرجالُ صبيةً فاتنةً مثلك. وبالإضافة إلى جمالك فأنتِ فتاةٌ مهذبة، مؤدبة، طيبة وמתزنة، إلى الحد الذي يسوقني إلى الاعتقاد أنكِ في السابعة والأربعين، ورفيقتكُ سميحة في السادسة والعشرين، إنها طائشة كمرأهة. لا تخبريها بذلك."

ابتسمت صافية ابتسامة مشرقة تنم عن انتصارٍ. إنها تُسرِّي عن نفسها بوصف سميحة طائشة، وتردُّ لها الصاع لوصف عينيها بعيون البقر.

_"أرجو أنني لم أزعجك بتدخلي في أمورك الخاصة. تعلمين أنني أريد مصلحتك."

هزت أثيل رأسها نافيةً، فتحتمست صافية مدفوعةً بمُتعةٍ شردت عنها في الأسبوع الذي لم يزرها فيه أحد، على أنَّ غايها الحقيقية كانت نُصحَ الفتاة الغريرة، وكانت نبيها سليمةً، وقلها نقيًا صادقًا، كانت العجائز اللاتي تعرفهن أثيل، وتدأب على زيارتهن يقدرنَّها ويُحببُنَّها كابنة حقيقية، وإن كُنَّ غير جاهلات أنَّ الزواج سيصرفها عن زيارتهن، إلا أن مصلحتها تتصدر القائمة. تناولت يدها برفق ثم استطرقت:

_"حبيبتي، لقد اضطلعتِ بمسؤوليات رجلٍ، منذ أن مرضتِ والدتك. لقد توليتِ واجباتها، واعتنيت بها وبشقيقتك. والنساء اللاتي يحملن عبئًا ثقيلًا يُصبحن قوياتٍ جدًّا، ويسهل اقتناعهن بالتخلي عن حاجتهن للرجل. يفكرن أنَّ لا ضرورةً إليه، طالما يستطعن الإنفاق على أنفسهن، وليس من السليم أن تتخلى المرأة عن فطرتها. لقد خلق الله النساء ضعيفاتٍ سريعاتِ الانفعال والبكاء، وخلق الرجل أقوى منها، ليتحمَّل، ليعتني بها، لتستند عليه، وتضع رأسها على كتفه، ليشغل بجدِّ، ويُعيِّلها. هذه سُنَّة الحياة يا أثيل. استبقي لنفسك تلك الحاجة، فأنت امرأةٌ مهما عظمت قوتك، تحتاجين وجودَ رجلٍ في حياتك، رجلٍ كزوجي ووالدك المتوفَّى. إن أمك تعلمُ هذه الأمور أكثر من الجميع. لا تسمحي أن تُدسَّ تلك الثقافة العصرية السامة الدخيلة على مجتمعنا في رأسك. فالرجل ليس آلهً لإلقاء الأوامر، وليس كائنا متسلطًا يحدُّ من حريتك، كائنا يسهل الاستغناء عنه إذا امتلأت جيوبُ المرأة بالمال، لأنه سيأتي الوقت الذي لا ينفعها فيه كل أموال الدنيا. فالمال لا يشتري الدفء العائلي والمودة والرحمة، المال لا يشتري الكتفَ القوية التي تسندين عليها رأسك المُثقل بالهموم.

ثقافة الاستقلالية هي العدو اللدود للمرأة. لن تشعرى أنك صغيرة عندما تمدين يدك له لتطلبى نقودا، بينما يشعر هو أنه كبير، كبير جدا ومهم، يشعر أنه رجل، أنه القائد، والرجال يحبون أن يكونوا قادة، لأنهم خلقوا لهذه المهمة، مهمة القيادة. حسنا، سنتفق أن الظروف أجبرت على التنازل لفطرتك، وكنت تكدحين لأجل عائلتك، ولكن الظروف تغيرت، فقد استعادت أمك صحتها وكبرت شقيقتك. لهذا يا حبيبتي، إذا ما تقدم رجل حسن فلا ترفضيه، امنحيه فرصة ربما تنعمين بزواج موفق".

غشيت عيني أثيل نظرة حزينة، بينما نطق وجهها بتعبير مهم، وشهقت شهقة مكتومة. كانت صفة تجهل أكثر مما تعرف، وإذا ما عرفت، فلن تفهمها، فتركت نفسها تستجيب وتوافق وتظاهرت بالتأييد المطلق، وسرعان ما جهزت الجواب الملائم على قدر إلحاحها المحموم على الانصراف.

_"إنني أوافقك. كل ما في الأمر أن الرجل المناسب لم يأت بعد"
علقت صفة على الفور، وبرزت على زاوية فمها ابتسامة ماكرة.
_"أشعر أنه موجود. إن عينيك تفصحان بهذا، لكنك مترددة بسبب اعتيادك على الاعتماد على نفسك.. إنك تحبينه بيد أنك تخافين الزواج منه".
ارتفعت حرارة الانفعال إلى وجني أثيل فطفقت تعبت بثوبها، ولكنها حافظت على التزامها، على الرغم من ارتباكها.

_"لا، لا يوجد شيء من هذا، أؤكد لك" وأسرت بالقول قبل أن تأخذ صفة على عاتقها
نصحتها نصيحة أخرى، فاستدارت بخفة إلى الساعة الدقاقة المعلقة على الحائط خلفها:
_"سيده صفة، أخشى أن الوقت قد تأخر، وأخشى أن تكون أمي الآن في غاية القلق والارتباك"

_"ليتك أخبرتها" قالت صفة بلهجة أسفة "أوليتك أتيت باكرا".
_"لم أستطع. فقد أنهيت العمل عند الساعة الرابعة. لا يسمح السيد إبراهيم بترك العمل قبل هذه الساعة. أعدك بزيارة قريبة" وسرعان ما استوت واقفة على نحو رصين "هل تريد شيئا مني".
ختمت صفة بامتنان جزيل

_"لا أسألك إلا أن تقومي بزيارتي كل فترة، رغم أنه لا تربطني بك أي صلة دم، ومع هذا، تكلفين نفسك عناء زيارتي، والاطمئنان علي، وتجلسين، وتحدثين إلى عجوز مثلي. أشكرك

على رعايتك."

_"لستِ مُضطرَّةً لشُكري يا سيِّدةِ صفية. إنَّ من دواعي سروري أن أزورك وأتحدث إليك. عني مساءً."

طبعْتُ أثيلَ قُبلةً على وجنتها المُترهِّلة بعدما شيعتها صفية إلى الباب، ثم اتَّجَّهت العجوز مُتناقلةً بخطى مكتومة نحو النافذة لتراقبها وهي تختفي عن ناظرها، مُفكِّرةً أنَّ جوهرهً ثمينه كَأثيل، لا يليق بها إلا رجلٌ شهيم أصيل كزوجها المُتوقِّ.

كانت أثيل ذاتُ السادسة والعشرين خريفا فتاة جميلة جمالا باهرا يستغني عن التجمُّل والتبرُّج ورثته عن أمِّها قرويةِ النشأة، ذاتِ العينين السوداوين، وإن كانت أمنيَّةً قلبها أن توزع جمالها الخلاب على بناتها الثلاث، فإنَّ حكمةَ الله شاءت أن تحظى به ابنتها الكبرى فقط. ولم يكن سِرُّ فتنتها يكمنُ في بشرةِ وجهها البيضاء، بلونُ الزنبق الأبيض بلامحه الرقيقة المتناسقة فحسب، بل في قوامها الممشوقِ وشعرها الأسود الكثيفِ الناعم، بلونُ الأبنوس، وذقنها البارز المُحدَّد، و الذي يشكل مع شفها السُّفلى المُمتلئةِ الحمراء المُدبَّبة خطأً جدًّا في وجهها المستدير. أما ابتسامها فإنها تبرز غمَّازتين عميقتين مُثيرتين مُلفتتين للنظر.

كانت عيناها السوداوان الواسعتان المرحتان غارقتين في جاذبية أنثوية مثيرة، كتلك المُترصدَّة بعيون جميع النساء على اختلافهنَّ، على أنَّها فاقتهنَّ ببريق خلاب ساحر، تلوهما أهدابٌ كثيفة سوداء وحاجبان دعجاوان ثخينان مُسَّقان، عينان بريئتان تشيَّان بنوع ساحر عميق من العطف، تعكسان رحمةً أصيلة في قلبها، وعذوبةً جامحة في داخلها، ثم اتَّزانا صافيا طاغيا في شخصها الرقيق. ولو أنَّ أنفها الصغير القائم في وجهها الطفوليِّ والذي تُحدده وجنتان مورَّدتان كان أكبر بقليل، ربما انبعث من وجهها بعضُ الفتنة اليسيرة، ولكنَّه كان مندسقا بشكل دقيق أسبغ على وجهها رواءً متفردا، ولو أن عينها خَلَّتْنا من اللمعان المحمود المستحبِّ لما ظفرت بتلك الفتنة الطاغية.

ولم تكنِ السحنة التي تتردى في عاطفة جياشة صادقة، والعينان التي يتغزل بهما دفاء الطبيعة الربيعيِّ، إلا ليمنحها مكانا مُبجلا في قلوب من حولها، ويرفع قيمتها في نظرهم من حيث ارتفعت كفةُ جمالها، ويوفِّقها لنيل احترامهم، ولم تجعل منها إلا كائنا أهلا لأن يُشغف به ويُحبُّ حُبًّا رقيقاً.

ورغم هذا، نظرتُ أثيل إلى الهبة الإلهية بتواضع هادر، ونفسٍ ناضجة مترقعة عن الغرور، بعيدة عن حى الخيلاء بامتلاك ما سمح الله وحده بمنحه، لا يدُ الإنسان، فساقطها نزعتها المستكينة العذبة لتتواضع مع هذا القدر المُغالي من الحسن. فالرحمة أقدُر من الجمال،

والعطف أحسنُ من البريق، والتسامح أعرق من الجاذبية.

ولو أنّ الأمنية العريضة الحسودة تتماوج في أعماق قلوب النساء لحيازة وجهٍ جذاب كوجهها، وقوامٍ أنثوي خلابٍ رشيق كقوامها، ولو بنصيب ضئيل ممّا يُخوّل لهن الاستمتاع ببعض الذي تتمتع به هي في ثنياه البديعة، من شعورها بالتكبر، واعتقادهن متوهّماتٍ بإحساسها المتقدّأبدا بالعجرفة، وطبعاً وضعها يدا مغرية على قلوب الرجال، استحالت من الجمر يكتنفه الرماد نارا لصدّته بغصّة خرساء تؤلم قلبها، وتمرّق أوصالها لأن سرا دفيناً مظلماً ينام بين دهاليز روحها.

وعلى الرغم من شهرة الفتيات الجميلات الواسعة في ميدان القسوة والأناية وحيث أنها جمعت خصائص ناعمةً رحيمة وناضجة في باقة واحدة، أحبّها سكان الحي المرمل من الصغير إلى الكبير، يحدوهم طبعها الرزين، وعقلها الراجح إلى التحدّث معها كلّما جمعتهم بها صدفةٌ عرّضية صباحية أو مسائية، أو ترتيب مُسبق، وإن كان سنّها الصغير لا يبشّر بتجارب منيعة واعدة. فإنّ استشارتها لا تقابلها نقيضةٌ في نفوسهم حتى وإن بلغت أعمارهم ضعف عمرها. وكان ذكاؤها العجيب، ونباهتها السريعة تُخرّضهم على الالتماس منها مساعدة أطفالهم في حلّ المسائل البسيطة، والمُعقّدة، حيث أن طفلاً غيبياً بلدياً كان أكثر من أن تحتمله نفقات زائدة على عاتق العائلة الفقيرة، وإن تدمرت أمّها من اكتظاظ البيت بالأطفال، فإنها تلجأ إلى بيت جارهم سميحة، التي لو قدّر لها أن ترفض لها طلباً؛ فهو مخاصمتها والانفصال عنها رغم أنها تخاصمت مع كل إنسان تقريباً.

وقد يتذكّر الناس أصوات فتياتهم ارتفعت، وعتفت، وصرخت، غير أن صوت أثيل منذ طفولتها على نفس الوتيرة؛ هادئ ناعم، لئن يخاطب الجميع من الطفل إلى العجوز بنبرة حنونة مؤدبة تنطوي على احترام أبيّ لكل إنسان، حتى وإن كان مجنوناً أو عصبياً، لا ترفع صوتها، ولا تصيح، تزيّن كلماتها بميزان تربيتها الرّصينة، وليدّة اجتهاد واهتمام والديه البالغ .

كانت تتقدّ بشعلة الحماس، وتتصدّى بعزيمة فذة لعوامل الإحباط، قاذفةً بالتصريحات المُنبّطة، أو النظرات المنتقصة من شقيقتها الوسطى ميرنا إلى مستودع التجاهل، أو ركن الإهمال، وكانت على قدر كبير من الاتزان ورجاحة العقل، كأنّها مثالٌ رائعٌ عن العجائز اللاتي خبّرن مَحَن السنين، فصنّعن من ارتعاشة الصبّا وطيّش الشباب نساءً راكنات إلى الوقار الحنيف، والتمرس الورع في حسن التعامل، بالإضافة إلى قدرتها المتفتّنة على الصّفح، ما لم يتخطّ الذنب في حقها حدّاً سحيقاً من التنافي والغفران. تسوس حياتها كما ينبغي منظّمة أوقات عملها بحذق فائق، وبالرغم من ذلك، كان يتلصّص عليها تبرّم من رتابة الحياة على وتيرة

ثابتة لا تتغير.

لم تظفرْ أثيل بكلّ هذا النعيم الداخلي، إلا لكون والدها المتوفى يملك منه أفضل ما يمكن لإنسان أن يحوز. فقد استلهمت الفتاة من صفات أبيها أحسنها، وَوَرِثَتْ عن أمها الغالب من ملامح وجهها الحسنة، علاوة على هذا كان الأب قبل أن يخطفه الموت يميل إليها أكثر من أيّ إنسان آخر. كان رجلا طيبا كَيَسَّ الأخلاق، وإن بدت عيناه مخيفتين قاسيتين، تلمعان بنظرات الصرامة العنيفة، فتمنحان الرائي انطبعا متأرجحا عن كونه رجلا متشددا ذا كفاءة شمولية وسلطة أبوية قاسية.

ولم تكن لتنعَمَ بخطيب، لأنّ لها في الماضي غير البعيد قيودا صدهة، كَبَلَتْ أحلامها وأسْرَتْها داخل قفص مغلق. لقد أمضتْ صفقةً غيرَ مُنْصِفة، جُرِدَتْ على غرارها من حقها الكامل في امتلاك زوجٍ أو خطيبٍ مُعلن .

وإن لم يكن الأمرُ قد أقلقها، فمن المؤكّد أنه لم ينخفض إلى درجة هيّنة ضعيفة، بحيث لا يُقلق شقيقتها ميرنا التي كانت تنتظر بنفاد صبر محموم زواجها، لتتمكّن من الزواج هي الأخرى، كونها لا تستطيع أن تتحدّى غريزة الرجال المتحيزة لاختيار الفتاة الكبيرة لجمالها الفائق. فكانت هذه القاعدة تُعزّز في قلبها كسكين حادٍ يعصر آمالها ويُقوّض حظوظها كما يُقوّض البيتُ المُتداعي.

كانت ميرنا ذات المزاج المتقلّب و الطبع الفظّ العنيد المتصلّب، والتي وُلِدَتْ بعد أربع سنوات من ولادة أثيل على قدر قليل من الجمال، جرّها إلى الاعتراف ساطخةً أنّها لن تحظى إلا برجل بسيط منكوب الوضع، لا يُليّ بأيّ حال تطلعات قلبها الحاملة، ولا ينتشلها من وَهْدَةِ الفقر المدقع. إنّها تشعر بانعدام الرضا عن حياتها المُصْفرة، وعن منظر البيت الكريه الباهت المناسب مأوى للمتشردين، الذي تلف طلاؤه بسبب الرطوبة، والذي يحلو لها وصفه بقطعة فارة من الأزمنة المظلمة، والذي لا تفوق مساحته مئة مترا مربعا. يحوي طابقه السفلي مطبخا ذا نافذة مربّعة صغيرة، مُطلّة على الشارع، لا توفر تهوية جيدة لاكتظاظها بأصص نبات الثعبان بأوراقه الكبيرة الرّمحية، و نبات الصبّار بأوراقه العريضة الدهنية. كان متهاكّا متأكّل الجدران، كثير الشقوق، مُعطلّ الحنفيات غالبا، تعوزه الوسائل العصرية ليصبح مرضيا عنه. تفوح منه رائحة الرطوبة المنفّرة، وتُعجّ ثقوبه العشوائية بالصراصير المُقزّزة، ترافقه حجرة واحدة كبيرة بشكل غير مناسب، باهتة الجدران، متعدّدة الوظائف. فهي في النهار غرفة للطعام، واستقبال الضيوف، ومشغل لخياطة الستائر والأثواب، وفي الليل غرفة نوم أمها. أمّا الطابق العلويّ؛ فيحوي ثلاث غرفٍ ضيقةٍ مُهشّمة المظهر، تحتاج حاجةً مُلحّةً إلى إصلاح سُقوفها المتصدعة

المُسَيَّبَةِ فِي غرقِ الغُرفِ بِالمِياهِ فِي فَصلي الخَريفِ وَ الشِتااءِ.

هي فتاة عجفاء القوام تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما، ذات عينيْن بندقيتيْن جاحظتيْن تُنمَّانِ عَنِ القِسوةِ وَحبِ الذاتِ، تَتوهَّجانِ بِالضُجرِ وَالضَغينةِ، تُخْزِرانِ عَندما تَنظُرُ إِلى أَثيلِ بِنَظرةِ قاتمةِ غامضةِ، وَالتي لا تَستطيعُ أَن تَحدثَ إِليها دونِ مَقاطعِها وَتَجاهلِها وَالاستخفافِ بِأرائِها مَتمعدمةِ إِهانِها، أَمَّا تَفسيرُ ذلكِ فلا أَحَدَ يَعرفُ كُفَّهُ إِلا اللهُ، وَ مِيرنا الناقمةُ عَلى كُلِّ إِسانِ. وَ كانتِ ذاتِ وَجهِ قَلبيِّ وَوَجنتيْنِ بارزتيْنِ بِروزا قَبيحا، مَرَقَطَتيْنِ بِبُقَعِ داكنةِ وَ بثورِ قَبيحةِ مِثَلِ صَفوفِ مِنَ الجِزْرِ المَنتقارِيةِ، يَكسو رَأسَها شَعْرُ كَستنائيِّ عَكِشُنْ، أَمَّا فَمُها الكَبيْرُ المُتَعَبُ بِشَكلِ جِناحِ التَّورسِ، فَإِنَّه يَكشِفُ إِذا ما ابْتَسَمتِ عَلى مَضَضِ اسنانا غَيرِ مَتناسِقةِ.

وَفي المَناسباتِ القليلةِ التي تَجمَعُها بِجيرانِها، قَلَمَّا فَشَلتِ غرائِزَهمِ وَ قوَّةِ مَلاحظَهمِ فِي اِكْتِشافِ مِثالِبِ جَديدةِ بِسَهلوةِ فائِقةِ تَضافُ إِلى القَديمةِ التي يَعرفونها، مِثالِبِ تَدفِيعِهمِ إِلى تَجنِبِها وَ النُفورِ مِنا، وَ كانتِ تَبادلِهمِ الشَعرورِ وَتَجاهرِ بِرَأياها إِزاءَ لَهجَهمِ المَطاطةِ وَ لا تَمانعِ إِبداءِ انزِعاِجِها وَ نُفورِها مِنا، وَ مَعامَلِهمِ بِطَريقةِ جافةِ غَيرِ وِديةِ مَتنَشِّعةِ بِذرائِعِ سَخيفةِ كَعدمِ انسِجامِ أَفكارِها وَ أَفكارِهمِ وَ اِختلافِ ثقافتِها عَنِ ثقافتِهمِ. وَ هَكَذا لَم تَعطِهمِ اسبابا لِيعيروا نَظَرِهمِ نَحوِها وَ أَصَبِحَ تَحاشيِ تَعاَطيِ أَحاديثِ مَعاها يَسرَهمِ بِقدَرمِا يَسرَها.

إِنَّ بِمَقدورِ مِيرنا أَنَّ تُجِبَّ شَقِيقَتَها الكَبرى أَثيلِ، وَ أَنَّ تَعلَلَّ لَها بِعَضَ ما نَجَحتِ فِي سَئِرِها عَنِ مَعرِفَةِ الأَخرينِ، مَندَ فَتَرةِ غَفلتِ عَنِ تارِخِها الأَوَّلِ، أَنَّ تَشفقَ عَلِها عَلى ضِوءِ كَشفِها لِسرِها العابِثِ، لَولا أَنها عَقبَةُ بارزةِ بائِسةِ فِي طَريقِ زَواجِها، وَعَندما أَعلَنتِ نَزَعَتُها بِضَجيحِ هائِلِ عَنِ رَغبِها فِي الازتِباطِ بِالشابِّ الَّذي وَقَعتْ فِي هِيامِها مَؤَخَرا، تَفاقَمَ بِغَضُها حَيتِ أَصَبِحَ أَمْرُ إِخمارِها صَعبا لِلغاِيةِ؛ لِأَنها تَجزُمُ مَغتَمَّةُ أَنه إِذا ما رَأى شَقِيقَتَها سِميَلِ إِلى الإِعجابِ بِها هُوَ الأَخرِ شَأْنه كَمَن سَبِقوهُ، وَان لَم يَفعلِ سَتقومُ أُمُّه بِأداءِ المَهْمَةِ بِدَلا عَنه. وَ الأَمهاتُ يَنجِحنِ دوما فِي التَأثيرِ عَلى أَبنائِهنِ.

أَقَرَّتْ مِيرنا فِي وَقتِ مَباكَرِ مِنَ مَراحِلِ عَمرِها أَنه يَعوَزمُها الوَجهُ الجَميلِ، وَ العَينانِ الجَذابَتانِ، وَ القَوامُ البَديعِ كَصفاتِ أساسِيةً، وَالتي كانَ جَليًّا أَنها تَبعدُ عَنها أَميالًا مَديدة، تَفنى رُوحُ المَراءِ قَبلِ قَطعِها، لِتَحتَظيَ يَوما بِعَريسِ يَخطِطُها مِنَ جِوِ الفاقَةِ وَ البُؤسِ. وَهَكَذا غالِبِ السَخطُ فِي قَلبِها النَزعةُ الأَخويةِ الحَميمَةِ، وَعَصَّتْ هَذهِ الفِكرةُ الثابِتةِ، وَعَرفتْ أَثيلَ أَنَّ غَلَّ شَقِيقَتِها اللافِحِ سِيتَضاعِفُ لِيسَ لِأَنها العائِقُ فِي طَريقِ زَواجِها فَحَسَبِ، بَل هَناكَ سَببٌ أَقوى تَجهلُه رَغمَ نَباهِتها.

كانتِ فَكرةُ إِعلانِ تَدْمُرِها وَاستنكارِها وَالبُوحِ بِمَكنوناتِ صَدرِها نَتيِجةُ اقْتِناصِها بِعَض

الخفايا الدنيئة الفاضحة، أقبَحَ بكثير من الصمت النائم في قرارة نفسها، وقد غدَّت مشاعرُها الصمَّاء، أقوى من كتماها في صدرها الصاحبِ بضجيج الازدراءِ النائم في أعماقها، كلُّ هذا دون أن تخرج عن طورها، أو تنخرطَ في شجار غير مسبوق، أو تواجهها ببواعث نفسها الحقيقية.

وبالنسبة إلى الشقيقة الصغرى ياسمين ذات السادسة عشرَ عاما، والتي كانت ملامحها خليطا غير متكافئ بين ملامح أمِّها و والدها، تنزاح بإخلاص إلى أثيل، و توليها من الاحترام والتقدير ما لم يزد في قلب ميرنا إلا حقدًا ملتبها على كليتهما، لأنها كثيرا ما قرأت في عيون أختها الصغيرة ازدراءً مقنعا بالواجب الأخوي. فحتى هذه الماكرة الصغيرة لم تتمكن من كسب ودها، رغم أنها لم تركز في مضمار استدراج بُغضها أو بذل مجهود ولو زهيد لنيل تجاهلها.

تتميز مليكة: والدهن التي تحيط بها هالة من الاستقامة والالتزام بأنها امرأة فارعة الطول مكتنزة الجسم، يقدرها المرء ضخمة الجثة، تعابير وجهها حازمة متردية في نفوذ نسوي صارم دقيق. إنها امرأة شديدة صلابة كالصخر، لأن الحياة ألقَتْ بعِملها الثقيل على أكتافها، بعد قضاء زوجها في حادث عمل مأساوي. لقد وجدت نفسها وجهًا لوجه تصارع دنيا ظالمة مُسندةً نفسها بنفسها، التفتت يمينا و شمالاً فلم تجد كتفا قوية تتكىء عليها، وأضحت للمرة الأولى تتحسّر كمدا لعدم وجود شقيق أو أب أو ولدٍ يحمل عنها فيخفف جِملها، أو يربّت على كتفها فيواسي، أو يبسط أجنحة الهيبة على امرأة و ثلاث فتيات وحيدات. ومع أن الشقيقة كانت موجودة قبل عشر سنوات، قبل أن يتخطّفها الموت، وتقطع كلَّ صلة متينة بأولادها. وبالرغم من امتنانها أيام شبابها لعدم اكتسابها شقيقا ذكرا، إذ كانت كلما التفتت حولها توسّمت نوازع الذكورة تقرّم حرية نظيراتها، رغم أن الحرية كانت تستخدمها للمكوث بين جدران المنزل. أما وبعد فقدانها زوجها المكين فليس لها إلا أن تحسدهن على نعمة الأخ، وتلعن ذلك الامتنان القديم..

بقدر ما كانت حريصة على تربية بناتها الثلاث، كانت المخاوف تنقضُّ عليها من كل جانب، إثر ملاحظاتها المكدرّة لتربية الجيل الجديد من الفتيات. و بقدر ما كانت التربية الناقصة تُفضُّ مضجعها، كانت الملامح الجديدة المخزية في المجتمع تُغرّز في عقلها مثل أشواك مؤلمة. فبنات هذا الجيل على حدّ تفكيرها خليعات سيئات التربية، مهووسات مطبوعات بطباع أجنبية صفيقة، حتى غدّت معظمهن يدخن السجائر جهارا كأنهن مداخن مصانع كثيرة النشاط، ويرفّلن في ثياب مبهجة فاضحة، تبرز مفاتهن، و يتمايلن بمُجون في الطرقات كأنهن هررّ مشردة لا يمتلكن مأوى. علاوة على أن بعضهن يقفلن راجعات إلى بيوت أهلهن مخمورات سكارى. أما الضيق الذي يخامرها دونما حاجة فهو ناجم عن تفكير تلك اللاتي يجلبن أقدانهن

لتوثيق المعرفة المذمومة بالأهل. أليس كلّ هذا وليدَ التربية الناقصة المبتدلة، واللين المفرط في التعامل مع البنات داخل البيوت؟ لا، بل وإن البعض قد ذهب بهم الطريقُ المخزي إلى نهاية مفصولة عن الحشمة فيرضى مبتهاجاً مفتخراً مزهواً بأساليب ابنته الحياتية، وقد بعث الأمرُ في نفسه عتواً ومفخرةً جزاءً سلخ جلدته و زرع أخرى تتناسب و التفكيرَ الجريء المتناسق والخلاعة.

كانت سيدة عملية، تحتفظ بمستوى معين راكد من القلق الرشيق المغلّف بالهدوء المتوتر. إنها من النساء اللاتي يُكرّرَن ذات السؤال عن نفس الأشياء، يراوغن لسحب الاعترافات من أفواه أطفالهن. لقد بذلت جهداً لتُنتج نسخة ثانية من زوجها الميت، كما تفعل معظم الأرامل، كانت لا ريبَ سيدةً رحيمةً يكمن في شخصها آتزان ووقار، ولكنها اكتسبت نزعة متسلطة أفقدتها عذوبة السلوك النسوي الرقيق، خوفاً من استهتار بناتها. وكانت قبل أن تُنكب بكارثة موته تختلف عنه في نعومة أسلوبها، كلامها السلس، وتعاملها المتسامح مع الأمور حولها. راحت تتجنّد صلبة لتبرير سلوكها وتعزو تصرفها المغالي في التزمّت إلى القصص والحكايات التي تشرعها الألسن في الهمهمات الخافتة و تتلقاها الأعين الكاشفة الفاحصة "إن الفتيات أصبحن منحللات، و التحكم فمِن أضحي أصعب من التحكم في ذكر متمرّد لا سيما دون وجود رجل صارم يحكم قبضته عليهن".

عرّفت موقفها من الدنيا قبل أن تسلم بوفاة زوجها، أدركت أنه ينبغي عليها الخروج للعمل، وهي المرأة التي كانت تسبق جولةً قصيرةً رفقة زوجها و بناتها بتخطيط مدرّوس يدوم أسبوعاً، وإن ما قضتها متدمرة شاكية تحنّ إلى جدران البيت فذلك ليس ذنبها، فالبيئة الريفية المنطوية التي ترعرعت فيها خصمت من وجدانها حب الطواف والتلذذ بالحياة في الخارج، وإن كانت تكثرث لكلام الناس فيما مضى و تجري حواراً ذاتياً معتمّاً حول أفكارهم ومواقفهم، فلا تستطيع الآن إلا تجاهلهم وإجابتهم الجواب المناسب مع أنهم لم يُبدوا يوماً استنكارهم لعملها خارج المنزل.

وقنعت البنات بقلق والدتهن الدائم، ولو أن أسلوبها يتخلله إفراط منقّر، إلا أن الأم الصارمة لم يسترع انتباهها إلا صورة البنات المنتزعات من أحضان التربية الصالحة والمنغمسات في أحضان الأخرى المضطّدة، ولو أنها كانت أمّاً لينةً كيسةً لما استجلبت إلا معاملة الند بالنند والاستهتار بوجودها، مثل زمرة من الأصدقاء المقربين، لا يُميّز الصغير عن الكبير. وقلّما عجزت هذه الأم القلقة عن إقحام نفسها في دوامة الخوف على مستقبل فتياتها الثلاث اليتيمات. فشغلت لياليها المسهّدة بالتخطيط الخائب و التفكير العقيم و الزفير اليائس.

في ذلك المساء، جلست ميرنا في ناحيةٍ مقابلةً لأُمها في المطبخ الضيق، حاجبة يديها بين ركبتيها، ووجهها الموشى بملامح الغرام الناصع الغارق في الحب حتى الثمالة تغمّره فرحة عارمة، وقد قرّرت رأيها على اتّخاذ هذه الخطوة الضّروريّة. عازمة عزمًا عنيفًا مزدانًا بولعها المغناج برجل أحبّته على مفاتحة والدتها بخصوص مسألة عاجلة، فما لم تفعل سوف ينصرف هوى الشاب المتقدّ عنها إلى أختها إذا ما وقعت عيناه عليها، كما حدث مع من سبقوه عهدًا.

ومنذ قبضت عليه يهمس في أذن شقيقته بخصوصها، طفق قلبها يبتهج و عيناها تنضحان بدموع الفرح و عقلها يتورّط في رسم مشاهد حاملة و راحت أحلامها الوردية بحجم المحيطات ترتفع وخيالها يتوسّع و أنامله ترسم و تتفنّن محفزا شفيتها على التبسم و معنوياتها على التحليق و دافعا ببصرها إلى الشرود الأبله، فتارة تتخيّله يفصح عن عظيم حبّه لها بينما تختلج عيناها وترتفع الحمرة سريعا إلى وجهها من شدة الخجل، و كنتيجة لهذا الإطراء الوهومي تطرف عيناها طرفا خجلا مغريا كبرهان على حياها، و تارة تتخيله يحاول الإمساك بيدها بعد إعلان خطوبتهما طبعًا فليس من اللائق لفتاة محترمة أن تسمح لرجل غريب عنها بمثل هذه الوقاحة، وبذلك الخجل الطري تسحبها و تتركه في شوق و رغبة دائمين، و بحثت عن طرق أخرى لإبداء اهتمامه بها، فلم تجد خيرا من تحسّسه جبينها بسبب سعالها العنيف إثر نوبة مرض مفاجئة، فيعاتبها لإهمالها صحتها كما يعاتب الطفل الصغير، ملقيا أوامره كقائد عسكري صارم بوجود زيارة طبيب و التزام الفراش. و حدث أن شردت في مشهد دلال مغناج أنيس فتتخيله يطير صوابه من غيرته عليها و ينجم عن هذا أن يظلمها بسوء ظنه ثم سرعان ما يكتشف خطأه الفادح في حقها فيهرع لطلب السماح منها و يتوسلها أن تعفو عن جرائمه المجنونة، بيد أنها تمتنع عن مسامحته بسهولة، و تقرر إرهاقه لنيل غفرانها و يتحرق قلبها لسماح المزيد من الاعتذارات، و جلب المزيد من باقات الورد والهدايا المتملّقة لاسترضائها و الاعتكاف أمام المعهد الذي تدرس فيه مثل عاشق يائس. و أخيرا عندما تتيقّن غايتها في تشريدته، تتنازل و تقدم الصفح مثل ملكة تعفو عن مجرم محكوم عليه بالإعدام فيقدرها كجوهرة غالية و ترتفع قيمتها في نظره. و لكي تتحوّل الأحلام إلى حقيقة ينبغي أن تبقى أثيل بعيدة عن متناول ناظره .

و هكذا سوّغت و عزمت ، رغم كدر أمّها المبلبل الذي يحول دون وصول تدمرها الساكن المغلول تحت وشاح الرضا المتصنّع، إلّا أنّ البليّة لن تتكرّر هذه المرة، لا شكّ أنّ ذلك الرجل القاطن في أحد الأحياء القريبة هائم في حياها هي، إذ لم تعجز ملاحظاته الأريبة عن اكتشاف تربيها العزيزة، التي تجري في مضمار الرفعة الخالصة، رغم حظوتها بشيء يسير من الجمال الوجهي، ولكن الاحتياط واجب، فلا يستطيع المرء أن يحزر تصرف الرجل عندما يرى فتاة

أَحَاذَةَ لِلغَايَةِ مِثْلَ أَثِيلِ .

_ "أُمِّي، هَلْ سَتَطْلِبِينَ مِنْهَا ذَلِكَ؟" نَاشَدَتْ مِيرِنَا لِلْمَرَّةِ الْخَامِسَةِ، وَقَدْ افْتَرَشَ وَجْهَهَا تَعْبِيرٌ مَتَوَسِّلٌ نَاعِمٌ، وَكَانَتْ قَدْ قَضَتْ الْأَيَّامَ السَّالِفَةَ تَحُومَ حَوْلَ أُمِّهَا مَتَحِينَةً فِرْصَةً لِلانْفِرَادِ بِهَا وَانْتِرَاعَ الْمَوَافِقَةِ عَلَى رِجَائِهَا.

فَأَطْلَقَتْ الْأُمَّ زَفْرَةً قَصِيرَةً، وَتَقَلَّصَتْ شَفْتَاهَا، بَيْنَمَا تَضَاعَفَتْ سُرْعَةُ يَدَيْهَا فِي تَقْشِيرِ الْخَضَارِ أَمَامِهَا، وَقَدْ غَمَرَ نَفْسَهَا انْفِعَالٌ شَدِيدٌ نَاجِمٌ عَنِ تَبْرُمِهَا، فَلَمْ تَرْفَعْ بَصَرَهَا إِلَى وَجْهِ ابْنَتِهَا، فِي حِينِ احْتَفَظَتْ مِيرِنَا بِنَظْرَةِ الْاسْتِعْطَافِ ذَاتِهَا، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ تَعِيدَ عَلَى مَسَامِعِهَا الرِّجَاءَ ذَاتَهُ مَدْفُوعَةً بِإِرَادَةٍ صَلْبَةٍ مَتَحِدِيَةٍ لَا تَخْضَعُ.

_ "أُمِّي، أَرَجُوكِ انْظُرِي إِلَيَّ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ تَطْلُبِي إِلَيْهَا بَلِيُونَةَ عَدَمِ حُضُورِ الْخُطْبَةِ، سَأَكُونُ مَمْتَنَةً لَهَا إِنْ فَعَلْتَ، آخِرَ مَرَّةٍ سَحَبْتَ الرَّجْلَ مِنْ يَدِي " وَاسْتَحُودَ عَلَى وَجْهِهَا مَسْحَةً مِنْ الْأَسَى وَشَابَ صَوْتُهَا نَغْمَةً مَتَبَرِّمَةً وَاضِحَةً أَفْقَدَتْ الْأُمَّ قُدْرَتَهَا عَلَى الصَّمْتِ، فَأَحَدَتْ إِلَيْهَا النَظْرَ مَتَجَهِّمَةً لِهِنْمَةٍ ثَمَّ أَجَابَتْ:

_ " مَا ذَنْبِهَا، لَقَدْ التَزَمْتَ الصَّمْتَ وَلَمْ تَرْفَعْ عَيْنَيْهَا إِلَى أَحَدٍ " وَتَوَقَّضَتْ الْأُمَّ عَنِ الْعَمَلِ الْمُنْهَمِكَةِ فِيهِ يَدَاهَا، ثَمَّ أَرْدَفَتْ بِصَوْتِهَا الْعَاطِفِي الْمَعْتَادِ، وَأَحْسَتْ أَنَّهَا سَتَكُونُ غَيْرَ مَنْصَفَةٍ فِي حَقِّهَا إِنْ هِيَ عَاتَبَتْهَا عَلَى إِصْرَارِهَا

_ " حَسْبُكَ يَا مِيرِنَا، أَخْشَى أَنَّ ذَلِكَ سَيُؤَلِّمُهَا، مَاذَا أَقُولُ لَهَا؟ إِنَّ شَقِيقتَكَ لَا تَرِيدُ نَزُولَكَ لِتُرَافِقِي الضِّيُوفَ، وَأَنْ تَلْتَزِمِي غُرْفَتَكَ إِلَى حِينِ مَغَادِرَتِهِمْ، اسْمَعِي يَا طِفْلَتِي، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ وَأَهْلُهُ يَرِيدُونَكَ أَنْتِ حَقًّا، فَلَنْ يَسْتَرْعِيَهُمْ وَجُودَ شَقِيقتَكَ " أَصْدَرَتْ مِيرِنَا تَهْيِيدَةً مَلُؤَهَا السَّخَطُ، وَتَدَقَّقَتْ إِلَى وَجْنَتِهَا حَرَارَةَ الْغَضَبِ النَّزِقِ ثَمَّ قَالَتْ مَلُوحَةً بِيَدَيْهَا فِي الْهَوَاءِ الْبَارِدِ الَّذِي غَمَرَ غُرْفَةَ الْمَطْبَخِ

_ "كُلَّ مَرَّةٍ تَمْطُرِينِي بِذَاتِ الْأَعْدَارِ، فِي حِينِ أَنَا لَا أَجْهَلُ الْحَقِيقَةَ، إِنَّكَ تَضْرِبِينَ مِشَاعِرِي عُضْرَ الْحَائِطِ كَيْلًا تَتَغَضَّنَ مِشَاعِرَ شَقِيقتِي الْوَقُورَةَ، لَسْتُ فِي صَدَدِ تَبْدِيدِ فِرْصَةٍ أُخْرَى لِأَجْلِهَا، إِنْ الشَّابُّ مَنَاسِبٌ، وَمُحْتَرَمٌ أَيْضًا، إِنَّهُ يَعْجِبُنِي وَأَنَا لَمْ أَعُدْ صَغِيرَةً، أَضْرِبْ لَكَ مِثَالًا بَسِيطًا، ابْنَةُ السَّيِّدَةِ نِيرَمِينَ فِي مِثْلِ سَيِّ وَهِيَ أُمَّ لَطْفَلِينَ " وَانْخَفَضَتْ حِدَّةَ صَوْتِهَا الْجَزَعِ إِلَى أَنْ تَلَاشَتْ فِي السَّكُونِ الْمَشْبَعِ بِالْحَنْقِ، عِنْدَمَا وَجَّهَتْ إِلَيْهَا وَالدَّتْهَا نَظْرَاتٍ حَادَّةٍ، كَانَتْ أَحَدًا مِنْ نَصْلِ الْمَقْصَلَةِ الْجَاهِزَةِ لِفَصْلِ الْجَسَدِ عَنِ الرَّأْسِ فَاسْتَحَالَتْ لِلهَيْجَةِ الْعَاطِفِيَّةِ الْأَنْيَقَةِ إِلَى زَجْرَتَائِرِ

_ " يَعْجِبُكَ إِذَا ! أَلَمْ تَقُولِي أَنَّكَ لَا تَعْرِفِينَهُ أَمْ أَنَّكَ تَكْذِيبِينَ، إِنْ مَا اكْتَشَفْتَ أَنَّ صَلَةً مَا تَرِبْتُكَ

به سأدفك حيّة"

وأدركت ميرنا زلّة لسانها "يعجبها! فأزبد وجهها، إنّ أمّها لا تتقبّل بأيّ وجهٍ من الوجوه أن تحبّ إحدى بناتها أيّ رجل، ما أسوأ ما تلقّظت به لتوّها، ينبغي عليها أن تبتدع كذبة سريعةً بضميرٍ باردٍ، فأسرعت تصحّح زلّتها قبل أن تغدو نظريّةً مسلّماً بها ولذلك سرعان ما اغتصبت شفتيها الباهتتين ابتسامةً خفيفة وامتشقت وداعتها المتصنّعة من غمدها.

_ "أمّي، كيف تتوهّمين ذلك. إنّك من زرع فيّ التربية الصالحة، لا أقصد أنّي هائمة به، لقد سبق ووضّحت لك، هو شقيق إحدى الفتيات اللاتي أدرس معهنّ، وإنّها لفتاةٌ رائعةٌ مهذبةٌ، وليس من الغريب في شيء أن تتحدّث عن شقيقها أمامنا، هي لم تعرض عليّ الزواج منه بل سألتني بعض الأسئلة العادية وقالت بغير تحليل أن تتوقّع زيارتهم لنا. بناءً على ذلك، استنتجت منها أنّهم يودوننيّ، حسنا لست أنكر أنّي رأيته مرات عديدة، كما أنّه يلمحني بدوره عندما يأتي لاصطحابها من المعهد إلى البيت. لم يحاول قط التكلّم معي، يبدو في الواقع رجلاً رصيناً ومحترماً، هذا كل ما في الأمر، ولكن يا أمّي أخشى أن يغيّر رأيه إن رأى أثيل، أو تنجح أمه في التأثير على موقفه كما حدث المرة السابقة، لهذا أسالك أن تطلبي إليها عدم الانضمام إليهما وأن تلزم مخدعها إلى أن يغادروا، أتفعلين؟"

_ "أطلب إليها! أطلب إليها! كرّرت الأمّ مُقَطَّبَةً ما بين حاجبيها، يلوح في وجهها اضطراب مسعور، إذ استعصى عليها سؤال ابنتها الرهيفة طلباً غريباً كهذا.

وفجأة داهمت عقل ميرنا فكرةٌ مجيدةٌ، فكرةٌ ستؤتي أكلها، وتستدرّ عاطفةً أمها النسويّة الضعيفة، فاستشرت في وجهها الماكر تعابير ألم مصطنع مرير خادع، كما يستشري الطاعون في المدينة وتلألأت الدموع في عينيها ثم نكست رأسها بنظرةٍ بأئسة.

_ "حسنا، أعلم تماماً ما تبغين، أنت تفضّلين ابنتك الكبرى، إنّك تتحرّزين إلى مراعاة شعور غاليتك أثيل أمّا أنا،،،" وصممت لثوانٍ خائبة ثم أردفت "من يكثرث لما أريده أنا، ما الذنب الذي ارتكبته بطلي هذا، على أيّة حال، لن أفاتحك بالموضوع مرّةً أخرى، أشكر لك دعمك" دفعت كرسيها، وما لبثت أن انتصبت على ساقين نحيلتين كأعواد الثقاب، ثم أدارت ظهرها متوجّهةً إلى غرفتها، ضاغطة يدا مرتجفة على وجه يائس.

_ "انتظري يا ميرنا" صاحت الأم دافعةً كرسيها إلى الخلف هي الأخرى، في محاولة لتثمّ جنايتها الأموميّة الدفاعيّة عن أثيل، بعد أن زال الوهج الساخط من وجهها متحوّلاً إلى حنان دفاق وانكسرت النظرة المتبيّسة ثم ذهب في إثرها بخطواتٍ خفيفةٍ. وعندما استوعبت ميرنا إبداع خطّتها إبداعاً مهلهلاً، تمهلّت الخطى واستدارت ثم خاطبتها بأدبٍ جمٍّ وتعابيرٍ البؤس المغشوش لاتزال قابضةً على وجهها، بينما لهجة النحيب لم تنفك تغزو صوتها.

_ "لا عليك يا أمّي، أنا أتفهم أحاسيسك، ليس عليك أن تقلقي سأكون بخير"

_ يا عصفوري الصغير "قالت الأم قارصةً ذقنَ ميرنا "كيف يسعك الاعتقاد أنني أفضل إحدى بناتي على الأخرى، إنكن ثلاثتكن بذاتِ المنزلة، والآن "أضافت رافعةً الرأس المنكس "إنني أعدك، سأطلب إليها ذلك "

فتمللت أسارير قلبها حبورًا، وزحف من عينها بريقٌ متألّق، أكثر تألقًا من النجوم في سماء صيفية صافية، وما هي إلا ثوانٍ حتى فتحت ذراعها تعانق والدتها بحجم الفرحة النابضة في أعماق وجدانها، و فيما راودتها أحلام الصبايا الصغيرات، انتعشت معنوياتها طروباً ملونةً بألوان بهجتها الحلوة.

_ "أشكرك يا أمي، إنك الأروع على الإطلاق، لكن...." تثنّت قسمات وجهها قليلا، و فارقت الابتسامة الوهاجة شفتيها متقلبةً إلى أخرى باهتة يعوزها لطف الابتهاج الساحر.

_ "أفضل بقاءها عند السيدة سميحة، أخشى أن يحببوا التعرف إليها "

ثم قالت بنبرة تنم عن حذرو فطنة " لا أريد تكرار المأساة السابقة "

_ "سأبذل جهدي" أفصحت الأم قابضةً برقةً على يديّ ابنتها، وقبل أن تتم عبارتها المطمئنة، سمعت الباب يطرق طرفًا خفيًا ناعمًا، فأدركت أنّ ابنتها الكبرى قد عادت من عملها متأخرةً بعض الوقت، السلوك الذي لم تستحسنه قوانينها الحريصة سيرفعها إلى سقف أصناف التصرفات غير المقبولة في ديوان أحكامها.

_ "لقد عادت ابنتك المحبوبة أخيرا "أعلنت ميرنا بازدراء، زامةً شفتيها في حركة مستهجنة "لا شك أنّها كانت تتسكّع في بيت إحدى العجائز التافهات قصد توفير مساعدة جمّة، إنَّها فائقة الرحمة كملاك طاهر."

بيد أن الأمّ لم تلق بالا لملاحظة ابنتها التي يقطر منها اشمئزاز بحت، وبعد أن أفلتت يديها توجّهت نحو الباب فاتحةً إياه بصورة محتدّة، وبرزت أثيل أمام الباب وفي عينها اعتذار صامتٌ، تنطبع على ثغرها ابتسامة مهذّبة، فأومأت لها أمّها بحركة من رأسها لتدخل بسرعة، وقد اكتسحت وجهها سحابة من الحنق، وعندما دلفت أثيل إلى داخل الممر الضيق، قيّد بصرها وجه شقيقتها ذي التقاطيع القاسية وضياءً، كأنه قنديلٌ قوّي النور، ولم تسعفها فطرتها البريئة إلا أن تقرأ فيه نوعا من الحسد الغريزيّ بين أطواق من الغيرة النسوية الفيّاضة المبرّرة، وألقت هذه الأخيرة نظرةً أقلّ ما يقال عنها أنّها زريّة، كانت تراها في منتهى السذاجة والغباء في مثابرة منها للتكفير عن ذنوب لا يكفي لغسلها الاهتمام بكل عجائز الدنيا، كأنّها تقامر على ورقة خاسرة، ثم شدّت جسدها في تكبر و رفعت رأسها عاليا لشعورها بالرفعة الطاهرة والكبرياء المنتفخ، وأدارت ظهرها، تلا ذلك صعود السلم ببطء عاقدةً ذراعها تحت صدرها الضامر، قاصدةً غرفتها في الطابق الأوّل ذات الأثاث القديم المهترئ الرث، الذي ضاقت به ذرعا فيما وجّهت الأمّ سؤالاً حازما إلى ابنتها، ولكنّ عاطفةً محدّدة طوّقت صوتها.

"أثيل، حدّرتك مرارا أنّه يمنع عليك البقاء خارج البيت إلى هذا الوقت" والتفتت متضايقةً موجّهةً نظرها صوب الساعة البرونزية المعلقة على الحائط القريبة إلى السقف والتي تشير عقاربها إلى السادسة.

"أين ياسمين؟" استوضحت أثيل، مشرّبةً بعنقها تنقل بصرها في غرفة الضيوف
"إنّما في الأعلى ترتّب غرفتها، لماذا تسألين عنها؟" هزت الأمّ رأسها مبديةً تعبيراً قلقاً في وجهها
"لا تحاولي الإفلات من السؤال، أخبريني أين كنت؟"

"في منزل السيّدّة صفية" ولاحت في عينيها السوداوين عاطفةً ناعمةً فأضفت عليها مسحة من الاعتذار، واتّخذت لهجتها طابعا معمّقا من العطف الفاخر، فيما أفصح وجه والدتها عن بعض القبول والرضوخ، رغم أنّ عينيها ظلّتا محتفظتين بذات النظرة المحتدّة.

"لقد ساعدتها قليلا في تنظيف المنزل، ورتّبت لها أغراضها المبعثرة هنا وهناك، ثمّ أفضت إليّ ببعض الدّي يقلقها، وجرى حديث عن زوجها الراحل، وهكذا مرّ الوقت دون أن أنتبه إنّ من الصعب أن تعيش عجوز في مثل سنّها وحيدة."

"من الجميل أن أعلم أن ابنتي تساعد أحدا ما بحاجة إليّ" علقت الأمّ بمرونة متأثّرةً بصنيع ابنتها الكريم" ولكن ليس سليما أن تعودني متأخّرة إلى المنزل، عزيزتي إنّك تعلمين أنّي أبقى قلقاً عليك عندما تطيلين البقاء في الخارج، يمكنك زيارتها بعد انقضاء فترة العمل الصباحيّة أو بوسعك ترك العمل بوقت مبكّر، أشكّ أنّ السيّد إبراهيم يمانع مغادرتك لمساعدة عجوز مثله"

"لا يمانع!!! طبعاً إنّهُ يمانع" هزّت أثيل رأسها هازئةً تقريبا، واسترجعت في خيالها هيئة إبراهيم بقسمات وجهه المكفّهرة المظلمة، تتميز دائرة فمه بوجود خطوطٍ تدلّ على تشدّد طبعه، أمّا الخطّ البارز العميق؛ فيقع بين حاجبيه جزاء عقدهما بصفةٍ مستمرة "إنّهُ لا يغفر أن أتأخّر دقيقة واحدة، أو أغادر العمل قبل الوقت المحدّد"

فربتت الأمّ على ذراع ابنتها مبديةً شيئا من التسامح الواسع، لقد كانت تفتخر بها أكثر من فخر أيّ أمّ أخرى في الدنيا؛ لأنّها مهذّبة مطيعة، خالصة كالذهب، مشحونة حيوية ونشاطا، حباها الله بقلب نقيّ شفاف كالماء، رحيمة كالطّيور، مزملّة في رداء اللباقة المشرقة، ذات نزعة خيرة خفّاقة، وديعة كحمل صغير، شديدة التواضع كشجرة معمرة، رقيقة المعاملة، لطيفة المعشر، صادقة المشاعر، يتنافر ميولها وشقيقتها ميرنا، فضلا عن أنّ جسدها المعافي كامل الصحة لشاهد قديم دائم على عطاء ابنتها.

الفصل الثاني

تطابقت عقارب الساعة عند الرقم تسعة، و كانت إحدى ليالي يونيو الحارة كأنها حممٌ منصهرةٌ محمّرةٌ تتدفّق من باطن البراكين، و كان الهواء الساخن مفعماً بالرطوبة يُستنشق بصعوبة مسبباً موجة من السعال الحادّ. تحلّق أفراد العائلة حول الطاولة الخشبية البيضوية الخشنة، والتي تآكلت زواياها من شدة قديمها، وخيم الهدوء على الغرفة الواسعة المنسّقة شحيحة النور، ذات الجدران الرمادية الشاحبة، و الستائر الزرقاء الضاربة إلى البنفسجي المنسدلة القصيرة، في زاويتها آلة الخياطة، وبجانها صندوق خشبي مفتوح، ترامت على أطرافه أصناف ملونة من الأقمشة، وفي الزاوية المقابلة سرير معدني ضيق.

تصدّرت الأمّ ذات القسّات العابسة الطاولة كما هو مألوف، واضعة مسبحة الخرز جانباً، فيما اتّخذت أثيل مكانها المعتاد إلى يمينها وميرنا إلى يسارها، و جلست ياسمين المشاكسة الضاحكة بجانب أثيل لا تصدر أيّ ضجّة فيما عدا بعض الضحكات المكتومة و الحركات ذات المعنى بالنسبة لها بعد تشديد الأمّ تعليماتها الصارمة فيما يتعلّق بتحاشي إثارة انفعالها، كانت تبدي شيئاً من الطيش الصبباني المناور ثم تبتسم موزّعة نظراتها بين الثلاث عشوائياً، جالبة الابتهاج إلى نفسها يتبع ذلك قرص أثيل من حين لآخر تحت الطاولة.

كما هي عاداتها لم تكن أمّها لترفع عينها عنها ساخطة لائمة، ومعيدة إيّاها إلى الهدوء إن ما تعدّى همسها الحدّ المعقول، أو تجاوز سلوكها اللباقة المطلوبة، حيث لم تكن تستحبّ عادة الحديث أو الضحك حول مائدة الطعام، أمّا ميرنا و على غير عهدا الفظّ، أشرق وجهها بانتظار إعلان أمّها نبأ خطوبتها، و شعرت بحنان مفاجئ نحو الجميع، لقد لمحت والدّة الشابّ تغادر منزلهم بعد ظهر اليوم.

كان يضطرم في عينها الحالمين الجاحظتين وميضٌ مثيرٌ متجّهةً بكل تفكيرها إلى مرادها، إذ ما انفكت تتحقّق من هيامها بالشابّ المتقدّم إلى طلب يدها، فطفح قلبها بسرورٍ فاره، واعتزتها سعادة نابضة. أضفت على وجهها سحرا و فتنة تفتقد إليهما، فاقت القدر المعتاد، كانت عينها ترصد بدقة متناهية وجه والدتها عديم التعبير، تحدوها الرغبة في إغاضة شقيقتها، ولا سيّما الملعونة الصغيرة التي تعيّرها كلّما أُتيحت لها فرصة.

_"أمي، أليس هناك نبأ ينبغي أن تعلنيه" قالت ميرنا بعد أن تداعى صبرها، تبتسم مزهوّة بصيدها رجلاً وسيماً من عائلة ذات نسب.

_"ليس الآن، سنتحدّث فيما بعد" أجابت مليكة بحزم دون أن ترفع بصرها ثمّ ملأت فمها بملعقة من الحساء."

_"لماذا، إنّنا متحلّقون حول الطاولة وإنّنا لفرصة مناسبة، لماذا لا تخبرين شقيقي أنّ عائلة محترمة عازمة على طلب يدي؟"
فرفعت لها أمّها عينين متأسّفتين، وقالت:

_"إنّه غير مناسب لك، لقد قابلت أمّه بعد ظهر اليوم، وتبدو عجوزًا متسلّطة، لن يناسبك الزواج من ابنها."

هزّت ميرنا كتفها استهجانًا

_"وما علاقتي بها، لن أتزوّجها هي، سأتزوّج ابنها، هل تخفين عني شيئًا؟"

تدخّلت ياسمين بعفويّة طفوليّة وبشكل دّفاعي مآكر، ترتسم على شفيتها ابتسامة النكايّة، موجّهة ضربة موجعة لشقيقتها "لا شيء إلّا أنّهم طلبوا يد أثيل"

وسرعان ما حدثت مليكة ابنتها الصغرى بنظرة مؤنّبة قاسية، وبنبرة أمرة ألزمتها الصمت و إلّا نالها منها عقابها العسير، وهي تعرف طبيعة هذا العقاب، فانكمشت مثل سلحفاة، أمّا ميرنا المصدومة؛ فقد أظلم وجهها حنقا و انعقدت أمام بصرها سحابة قاتمة من الخذلان الفاجع، وسرعان ما عصّت شفيتها بفعل غيظ حبيس، و عادت إلها ذكرى الهمسات الخادعة من حبيبها الوهيمي، و ذكرى أحلام النهار الساذجة التي راودتها، فأحست بكرامية سوداء تستقر في أعماقها لكليهما، وأرسلت نظراتها المعتمة إلى أختها، راشقةً إيّاها بعينين تقدحان شزرا، عينين ملتفتين تتلظيان حقدًا، كأنّهما فوهتا بركان، تكتسح سحنتها دلائل بغضها الأول، ثم راحت تضغط بأصابعها على جبينها المتغصّن، كانت تلك النظرة كفيّلة لجعل الكون كله يطفح شزرا .

أمّا أثيل؛ فإنّ إنقاذ نفسها من نظرات أختها، كان أصعب عليها من إنقاذ نفسها من برائن نمرة هائج، ولذلك تحاشت النظر إلها، فطفقت ترفع الملاعق المتلاحقة إلى فمها دون أن تستبد بها رغبة في ازدياد المزيد من الطعام، وبدت للعيان كأنّها لم تتذوّق الطعام منذ أيام، ثم ما عتمت أن وضعتها جانباً بعيداً عن متناول يدها، لأنّ الفرار بعينها ليس بالمجدي، مغيّبةً يديها تحت الطاولة، موزّعةً نظرات حائرة بين ياسمين وأمّها، متسائلةً في سرّها عن السبب الأخرق الذي دعا شقيقتها الصغرى لزعّ هذا التصريح على طاولة العشاء، وما إن استقرت عينها على وجه ميرنا حتّى قبضت عليها ترميها بنظرات قاتلة مثل رصاصة من فوهة مسدسٍ آلي، وكان وجهها المكشّر مثل ثمرة فجّة وقد تجمّد الدم في عروقها.

إنَّ ما حدا ميرنا إلى الامتعاض، كون شقيقتها تتصرّف كأكثر الفتيات طهارة وحشمة وعقّةً، فيما هي مطلّعةٌ على الحقيقة التي تنطوي عليها هذه الهيئة البريئة النقيّة، وفضحت عيناها البندقيتان عمق العصبية الشوهاء التي عصفت بها، إنّ امتلاك شقيقة كأثيل ليس مكسبا، بل لعنةٌ شريرةٌ، وفيما لا تزال نظرها مسمرّةً عليها قالت الأمّ بصوت خافت هادئ الرنة يشي بمواساة:

_ " أنصتي يا ميرنا ،لم أكن أودّ إطلاعك، و لكنّ لسان شقيقتك ينفلت منها " وثانية رمقت باسمين بنظرة توبيخ " ليس لأثيل أيّ ذنب، من البداية لم تكوني أنت من وقع عليها اختيار ذلك الشاب. لقد التبس الأمر عليك، زارتني والدته تحاول إقناعي أنّها تريد ابنتي الكبرى تنفيذاً لرغبة ابنتها الملحاحة، ووضّحت لها بفائضي من الاحترام أنّ أثيل ترفض الزّواج الآن، اقترحت اسمك دون المسّ بكرامتك ، ولمحت الى قبولي المضمّر على تزويجك، إلاّ أنّها كانت مصرّة على طلب يد أثيل، وهكذا غادرت المنزل خائبة، كقي عن رشق أختك بهذه النظرات، فليس لها يد في رغبة الشابّ وأمه " نطقت أمرها الأخير بجزم وبشكل منفصل.

ما أشدّ وطأة هذه العبارة الخالية من أيّ منطق سليم، المفتقدة أبداً إلى روح العدل الرشيدة، كيف ترتفع إلى شفيتها بهذه السهولة؟، ولولا أنّ تلك الشقيّة الصغيرة فتحت فمها لما كانت لتعرف بسرقة شقيقتها الكبرى فرصة أخرى من بين يديها، قالت كاظمة غيظها بكبرياء مشروخ، معدّلةً من وضعية جلوسها، حيث رفعت ذقتها في حركة توشي بشموخ متكلف

_ "حسنا يا أمّي، إن كانوا لا يريدونني، فأنا أيضا لا أريدهم، ولكن أرجوك أن تسألني شقيقتي لربّما هي موافقة"

_ "لست موافقة" أجابت أثيل بسرعة وقد تولى وجهها تعبيراً مرتبك

_ "ولماذا؟ هو شابّ جيّد يا أثيل "عبّرت بحقد ممزوج بالسخرية "عليك أن تعطينا أسبابا مقنعة لعدم رغبتك في الزّواج، لا تقولي إنّك ربّ الأسرة وتتحجّجني بإعالتنا، فنحن لم نعد بذلك المستوى من الفقر، إنّ بوسعنا الآن تدير أمورنا من دونك، نوّد معرفة أسبابك يا شقيقتي، من غير المعقول استمرارك دون زواج إلى الأبد، كلّهم يريدونك كما ترين "وابتسمت بخبث " وكلّ العجائز الطيّبات يملن إليك، أرجوك أن تشرحي أسبابك."

احمرّت وجنتا أثيل توتراً، فقد استدلت على السخرية في حديث ميرنا، ثم أجابت متلعثمة
_ "يا سي لا تزال صغيرة... كما أتني...." وبالنظر إلى أسلوب الفخاخ المتبع من طرف ميرنا، لجمت لسانها وعجزت كلماتها عن الشرح.

_ "كما أنك ماذا؟" صمّمت ميرنا على استزلالها، مراقبةً شفيتها لتحرجها ،بينما قلبها يستعر

غضبا هامدا .

"إنّها جوهره" تدخّلت ياسمين ثانية بلطف" وهؤلاء الرجال لا يليقون بها، يجب أن تتزوَّج رجلا فذاً، لطيفا مثلها."

_ "اها!! إنّها جوهره حقًا" قالت ميرنا بعينين عصبيتين ولهجة مفعمة بالاستخفاف.

_ "كفّي عن استجواب شقيقتك، فإن ما سألتها شيئاً آخر لن أغفر لك" قالت الأم بانزعاج ثم ختمت الحديث

_ "والآن لا أريد جدالا حول الموضوع، لقد انتهى النقاش، إنّ الباب يدقّ، لا شك أنّها السيّدة نظيرة، تأخّرت عليها فجاءت تستعجلني، وعدتها باختيار القماش سوياً، سأعود بسرعة، ياسمين إلى غرفتك فوراً، و أنتما إلى غرفتيكما أيضاً سأتولّى التنظيف و رفع الصحون بنفسي بعد عودتي " وعلى الفور نهضت ياسمين طائعة، وعبرت الغرفة ثم الممرّ وهي ترنّم نشيدا ثم سرعان ما تلاشى صوتها الشجيّ.

ما إن غابت قامة والدتها الفارعة خلف جدار الغرفة، و سُمع صوت إغلاق الباب خلفها، تخلّت ميرنا عن هيئتها المستكينّة القانعة وثارّت بواعثها الوجدانية منعكسة على وجهها الملتهب غيظا، العاجز عن إخفاء الاحتقار والكراهية، مصطبغا بلون الخيبة المزّة، يتقاطر حقدتها كدهن لحم مشوي، و كأنّ شيطاناً رجيماً استبد بها، وهاهو رأسها قد أضحى مرفوعاً بصورة تشي بالحنق الوثّاب، مسمّرة عينها على الجدار المقابل لها مكوّمة فمها، في الوقت الذي خامر أثيل إحساس سقيم بأنّ الغرفة ذات الجدران الصمّاء صغيرة جداً ليسعها تحمّل الثورة الكامنة في ثنايا هذا الجسد النحيل، و أقدمت على حركة مواسية إيقاعية ندمت عليها ندماً جامحاً، حيث أنّها قالت بلهجة مشفقة و صوت زاخر بالعاطفة "ميرنا...لا تحزني...."

وما إن أحست هذه الأخيرة بمواساتها الوقحة، حتى احتقن وجهها بغضاً واستفحل جنونها، فرمقتها بنظرات خبيثة تشي باللاتهام كاشفة غيظها العاصف وراء قلاع الصمت الملتاع، وكانت نظرتها في الواقع رحيمة أنيسة إذا قيست بما يملأ قلبها من السواد المستشري، مما جعل أثيل تتراجع عن خطوة المواساة تلك.

_ "أتعرفين يا أختي" نطقت ميرنا بقسوة، و قد طبعت شبه ابتسامة لثيمة على زاوية فمها، وراح الاحتقار يغالب الاشمئزاز في صدرها، واعتراها إحساس مفحم بكرهيتها لشقيقتها من صميم قلبها

_ "إنّني شاكرة لفضلك لأنّني سأبقى عانسا ما حييت، رأيت!! ليس من فرق بيننا طالما أنّ مقصّلتك الظالمة حكمت على كلتينا بالذنب، أنت لم تعدّي أمامنا ذنوبك إلى الآن، إنّ خدمة

العجائز الهرمات وهذا الوجه البريء المتصنّع لن يكفّر عن خطاياك، إنك تفترضين أنني لا أعلم سرّك الدفين، ذاك السرّ المقزّز الذي يمنعك من الزّواج، رغم أنّك فارهة الحسن، والرجال يتهافون لنيلك.

كسف وجه أثيل واتّسعت عينها مذهولة، وهي التي تظن واهمة أن سرّها في مأمن مؤصد، فيما تابعت ميرنا بنبرة ناقمة ترتجف من الغضب الثائر

_ "لقد مزقت نفسك لأجلنا، كنّا عبئاً ثقيلاً عليك كما ترجّحين، ما أشدّ ما ظلمتك الدنيا؛ لأنّ الأفواه الجائعة كانت تنتظرُك لتطعمها والأجساد المريضة لتعالجها، أليس كذلك؟"
تجرّعت أثيل ريقها بصعوبة وجمدت مقلتها، وخافت خوفاً مميتاً تغلغل إلى أحشائها مفكّرة ببؤس "إنّها تعلم"، لكنّ، لا، لا يعقل أن تعلم، لقد حرصت على دفنه وكتم صوت فداحته.

_ "إنّ من المشين أن أخبر عارك لأحد، فكما لطّخك سيلطخي أيضاً، سيلتصق بجسدي كما التصق بجسدك، وستوجّه إلينا أنا وياسي أصابع الاحتقار والوضاعة ما حيننا، سيقولون، إنهما مثل شقيقتهما، لا تنخدعوا بوجهيهما البرينين، إنهما عاهرتان ماجنتان أيضاً، ألم تكوني عاهرة يا أختي؟"

أحسّت أثيل أنّها تلاشت، زالت من الوجود، تبعثرت في الأثير الرحب، أحشاؤها ذابت، وعيها تبخّر، أفكارها تعثّرت وسقطت، فلم تجد جواباً كأنّها تواجه معضلة معقّدة لا حلّ لها، جلست متيبّسة مثل صنم حجريّ، ليس إلا خفقات قلبها المتسارعة مؤشّر حيويّ، يدلّ على بقائها حيّة، فضلاً عن ارتعاد يديها، واطّراد أنفاسها، خسف لون وجهها خسوفاً تاماً، وابتضّت شفاتها الجاقّتان بياضاً مريعاً حتى غدتا مثل غطاء الطاولة الأبيض، وسرت في جسدها رعشة قويّة، وحاولت أن تعثر على صوتها لتسأل وتتفاعل وتدافع عن نفسها، فلم تجده، لقد اضمحلّ وتهشّم، واستولى عليها ذهول كامل فمضت تحملق إلى ميرنا كما يحملق اللّصّ المبتدئ المقبوض عليه في مسرح الجريمة.

لا تعرف ما ينبغي قوله بمناسبة حلول هذه الكارثة المدمّرة، لا، لا يعقل أنّ ما سمعته حقيقيّ، ربّما ميرنا تنوح فارسها المغوار وأحلامها المغتالة فحسب، ولكنّ جرساً ربّاناً أرغمها على عدم الفرار من الواقع، عاهرة، نعم قالت عاهرة، فلا سبيل للشكّ إذا، لقد عرفت وشعرت كما لو أن العالم بأسره، باستثناء أمّها مطّلع على مخازنها الموءودة، جميع الأصدقاء والجيران تذكّرتهم في شريط سريع مفزع، فزاد من رعيها، بينما توغّلت كراهية جارفة إلى الوجه المفوؤد بسرقة الحبيب فأضافت ميرنا

_"من الظلم أن نقسر على دفع التّمن معك، نتيجة بيعك نفسك لعدد من الرجال، الله يعلم كم عددهم، ربّما عشرة أو عشرون، ااه أعرف، أعرف، لا تفسّري. كنت مضطّرة فأمنّا كانت على فراش الموت، ونحن كنا صغاراً، وليس بوسعي أنا الفتاة الأنايية تفهّم أسبابك، أنا التي لم تخدعني مظاهرك البرّاقة يوماً، لم يخدعني تقمّمك دور الملاك الشريف، في حين دوّخت الجميع، إنّما أنت كذبة جميلة يا أثيل، بل سلسلة من الأكاذيب، كلُّ شيء فيك مغشوش، أخلاقك الرفيعة، طهرك المقدّس، لباقتك الخادعة، شغفك الوحيد هو إغواء أكبر عدد من الرجال وجمعهم حولك، يُشعرك هذا بالتفوّق، بالعظمة، بإرضاء غرورك بفتنتك، عندما تسليين رجلاً من امرأته، أنت الآن لا تجهلين أسباب كراهيتي، لقد دفنت دوافعي في قلبي لوقت طويل، وأنا أعيش تحت سقف واحد مع عاهرة"

في اللحظات الأولى، لم تصدّق أثيل أن شخصاً ما على سطح هذه الأرض كشف مصيبتها، بيد أنها الآن وقد ابتعدت عن هول الصدمة، أدركت أنّ ما تسمعه صادر عن فم بشريّ ناقم تماماً كصاحبته

_"أرجوك" قالت بعد استعادتها صوتها الحبيس بين قضبان فزعها، والتقطته ميرنا خافتاً محطّماً "لا تتلفّظي بهذه الكلمة" توسّلت وعبرت عيناها، لم تشعر في حياتها بالبؤس كهذه اللّحظة.

أطلقت ميرنا تأوها عميقاً هازناً

_" ااه، لا بأس نهبيني دائماً يا شقيقتي، سأعمل على تحسينها وتزيينها لأجل قلبك المزهّف، عاهرة شريفة، أيناسبك؟ فأنت لم تمارسي عهرك تحت سقف بيوت الدعارة، بل كنت تذهبين إلى شقق محترمة، تغرين رجلاً فاضلين متزوّجين وعزّاباً، لا تبيكي أرجوك، فقد اهتديت إلى التوبة في الوقت المناسب، وغدت مساعدة العجائز والناس كقارة رائعة وهكذا، هكذا "وفتحت ذراعها مثل ممثل شرّير بارع في مسرحيّة حزينة" تحوّلت داعرة الشقق إلى فتاة محترمة عفيفة في أعين النّاس، هل تشعرين ببعض الراحة؟، لديك أسبابك، كنت تتقنين الدور بمهارة، مسكينة، تقمع الجوع والمرض، كان طرفهما على الباب عنيفاً"

وانحرفت لهجتها الساخرة إلى غلظة خشنة

_" إنّ أمي إذا علمت في هذه اللّحظة أنّك عالجتها من ممارسة العهرا لتأت الموت، ولهذا أنا أستنكف عن إخبارها، لا تعتقدي أبداً أنّي أسدي معروفاً لنجسة مثلك، لست إلّا نجسة، ولن تكوني جوهرة، الجواهر غالية أمّا أنت أنت....."

_"أتوسّل إليك، توقّفي" تضرّعت أثيل بصوتٍ منتحبٍ يئنُّ بنقل المارة "كيف علمت، لقد مرّت

ثلاثُ سنواتٍ على ذلك "

"حتّى لو مرّت قرون يا شقيقتي، هناك أمران لا يسعنا إصلاحهما مهما فعلنا، الزجاج المحطّم والشرف المثلوم، و الأمور التي لا تُصَلح، لا تنسى ببساطة، أمّا كيف علمت؛ فاسمحي لي بالاحتفاظ بحق الصمت فيما يتعلّق بالمصدر، على أن أسري عن خاطرك المفجوع بقضيّة أنّ سرّك لا يزال مدفوناً بالنسبة للآخرين، و هو من حسن حظّ عائلتنا المحافظة. بهذه المناسبة الحارّة، وكوني أكاشفك بمكنونات روعي "و بدت و كأنّها تتلذذ بإهانتها، تستطيب ماء عينيها المنهمر، تطرب لعذابتها هذا الذي كان مسطوراً بجلاء على وجهها الأبيض المتسربل بسربال الفاجعة، فاجعة أنّ شقيقتها تعرف مخازنها المدفونة تحت ثرى تعاقب السنون.

"دعيني أعرب عن انبهاري بك، أفلحت في هذه المسألة، واستطعت بتكتمّ ماهر حفظاً نفسك وحفظنا بعيداً عن صيت الفضيحة، أحمد الله لعدم علم أحد، وإلا لاضطّررنا إلى التّزام البيت، سيرجمنا النّاس بنظراتهم قبل ألسنتهم، وكنا سنجبر على ترك المكان والانتقال إلى حيث يجهل النّاس ماضيها المعيب، و علاوة على هذا، يتعيّن عليّ شكرك؛ لأنّك لم تلطّخينا بأطفال السّفاح، إنّ أمّي المسكينة السّادجة لا تسمح لنا بالعودة متأخّرات إلى المنزل، وتمنعنا من النوم في بيوت صديقاتنا، وهي جاهلة أنّك قضيت ردحا طويلاً في أحضان الرجال، اعذرهما يا شقيقتي، لو أنّها تمتلك بعض الحدق والنباهة، لانتهت إلى ما كنت تفعلينه خلف ظهرها" فخفضت أثيل رأسها وعصرت عينيها عصراً عنيفاً، تنسلخ روحها كشاة مذبوحة عاجزة.

"وحيث أنّها تثق فيك ثقةً عمياء، وكما هو مدرج لك، الشرفاء جدا لا ينساقون إلى قراءة انعدامه عند الآخرين، لا سيما إذا كانت ابنتها التي قوّمت تربيتهما و طالما تلت على مسامعها ضرورة المحافظة على الشرف نظيفاً، لقد كانت تتصوّر أنّك بالإضافة إلى الدراسة تعملين عملاً محترماً، وأنّك سلخت نفسك في العمل، ويا الله لو تعلم ماذا كان ذاك العمل، ستموت من العار سيكون أسوأ عليها من سكرات الموت " تأجّجت نار الحقد في قلبها لأنّه وجد مرتعاً خصباً، ولأنّ الصدمة خنقت صوت أثيل، فهي لا تقول شيء و تكتفي بالإنصات مرغمة، إنّها لم تنظريوما إلى فعلتها من هذا المنظار، بل كان ضميرها على الدوام يتحرّز ليسوّغ لها، أمّا في هذه اللّحظة البشعة الممضّة، فتستطيع تكوّن صورة تامّة لكيفيّة تصرّف النّاس معها عندما يعلمون، فإذا كانت أختها، هذه التي انتفعت من تضحيتها وتواجهها بهذا القمع فماذا إذا سيفعل الغرباء حيال عارها، ومنهشها الألم وأرمض الأسي فؤادها بينما كانت عيناها ساجية لا تطرف، و بينما تصبّبت الأحاسيس الجزعة، تتدافع كجيش فارّ ولكنّ أين عساها تفرّ.

_"وعندما كانت أمي تحدثنا مطمئنة عن الشرف و الرجال، وأنه ليس من اللائق لنا كفتيات محترمات قبول هدايا منهم أو التحدث معهم، أو قبول أن يقلنا أحدهم بسيارته، وإن كان الوضع يحتم علينا، كانت عيناى تتسمران تلقائيا على وجهك لأتوغل في تعابيره و أتبين احتمال شعورك ببعض الإثم بصورته التي ينبغي بروزه عليها، ولكن عبثا بحثت، كنت دائما تبدين كطفل مؤدب شغوف، يستمتع برواية أمه لقصة مثيرة، وكأنك كاملة الشرف، لست أقلل من شأنك، بل إنني أطريك مغالية، ينبغي أن أنحني إجلالا لبرودة أحاسيسك وأصق لك تصقيق الجمهور المنمهر بعرض ممثل مسرحي مبدع"

فجأة انقلبت السخرية في وجهها النحيل إلى سخط جامح فتجعدت تعابيره، وغازبت الابتسامة المهكمة في ظلمة الروح السوداء، وأضحى ظاهرا أن ما قيل سيبدو رحيفا إذا ما قيس بالقادم

_"وأفضل فكرة زرعتها في رأس أمي، كون الزواج لديك قضية ليست بالمهمة، لأن ياسي لا تزال صغيرة والبيت الخالي من شخص الرجل يحتاجك،ها كما أنك لست متعجلة، لا أستطيع إلا القول أنك موهوبة يا شقيقتي في خلق الأعدار الملائمة كل الملاءمة للمناسبات الرفضية، فالיום هذا عذرك، و غدا تتذرعين بأنك تخلّيت عن فكرة الزواج نتيجة تقدّم عمرك، ثم في المستقبل تضحّين أعدارا أقدرها من الآن بالمتازة، أعدارا تنجّيك من مغبة الجواب، فأنت تدركين أن الرجال لا يغفرون مثل هذه الخطايا، وإن اتفق وعرف أحدهم لن يقبل حتى النظر إلى وجهك، حتى مع هذه الفتنة التي يتردى بها، سترزح تحت وطأة الاحتقار، وتلك العجائز الخرفات الوحيدات، إن خانك الحظّ و عرفنّ، لن تقبل أيّا منهنّ استقبالك، لن يرضين أن تدنّس أقدامك بيوتهنّ المباركة، فالمجتمع يا غالية أمي لا يرحب بتعاطي حرف واحد مع ساقطة، وأنت بالطبع تشاركيني الرأي " و ارتفع صوتها الجارح كأنه صوت سفاح يقتل أعصاب الضحية قبل ذبحها

_"ليرحم الله أبي، عندما عرفت، شكرت الله لأنه مَيّت و ليس موجودا بيننا وإلا كيف سيرفع رأسه بين الناس مجددا، وأنت من أنت؟ لتحطّي شرف أبي، من أنت لتلوّثي اسم عائلتنا؟، لقد ضقت ذرعا، بعد أن تجمّلت بالصبر، ضقت بك ذرعا توهمين كل الخلق بفضيلتك، تخنقيني وأنت تبسّمين وتعيشين حياتك بطريقة طبيعية في حين ينبغي أن تموتي خجلا، سئمت من اغتصابك كل رجل أريده، إنك تقطعين السبيل أمامي كل مرة للظفر برجل، أنت التي تتعلّقين بحبال فلاحك في إغواء أيّ رجل وأسرّه بمفاتنك، أنت أيّتها الملوّثة، يا من تتلفعين بشال الطهر والطيبة، إنّ الشيطان لا يصحو أبدا من نشوة الاعتزاز بك، وإنّه ليتخذ

ظلاً مترنحاً سكيراً خلف نفاقك، والآن،،،" ووقفت شامخة ثم انحنت نصف انحناء وقالت بصوت حزين يصحبه ازدراء

_ "أنا أكبر مواهبك الفدّة" وعندما انتصبت ثانيةً انبثق من الحدقتين البندقيتين كراهية نكراء ممزوجة بألم حتمًا الخائب المطعون وأملها العائر المسحوق ونحيب قلبها المسكين ثم أضافت

_ "إنّ ما يجلب العزاء إلى قلبي، أنّه يوما ما عندما تحبّين رجلا حبًا صادقًا، لن تظفري به، بل ستتحطّمين من بعيد مثل منفيّ عن الوطن، ستمزّقين إربا إربا مثلما مزّقت قلبي مرارا، مرارا "

دفعت كُرسِيها بعنف حتّى ارتطم بالأرض محدثا صوتا مدوّيًا، و الدّم الثائر يغلي في عروقها غليانا شديدا، ثمّ اندفعت خارج الغرفة حانقةً مسرعةً ناهيةً الأرض تحت قدميها إلى أن غابت هي الأخرى عن مرأى أثيل، ممتصّة هذه المكاشفة الحقودة جزءا ليس باليسير من ثورة الغضب المستشرية فيها، وسمعت أثيل الباب ينفّح، فأدركت عودة أمّها من الزيارة المقتضبة وسمعتها تنادي شقيقتها، فأسرعت تنسّق تعابير وجهها وتكفّف دمعها، إنّ من شأنها فقط إظهار نفسها أمامها برياطة جأش، من شأنها فقط عدم استعراض كآبتها، واضطراب معالم وجهها أمام ناظرها أو أن تخلف في عقلها نوعا من الحيرة التي سرعان ما تتحوّل إلى استجواب عمليّ، مؤنب، بناء ومرعب. وإن ما استخلص عقلها شيئا من الحقيقة، فإنّها لن تغضّ الطرف عن فعلتها التي ستشينيها عارا وهوانا.

لقد عرفتها منذ نعومة أظافرها امرأة مستقيمة ً روحاً وجسدا استقامة حقّة، الفضيلة والشرف و الطهارة تعاليمها المقومة التي لا تتجرّأ عنها، ولن تغفر لها إن ما أماطت الستار عن خزيها، ستموت كمدا. من المرجّح أنّها ستقدم على قتل نفسها، لأنّ أثيل هرعت إلى ذاك الطريق لتنقذها من براثن الموت، وهي أكثر من أيّ إنسان آخر تعترف بحقيقة تفضيل أمّها الموت على الحياة طالما كان الثمن المدفوع بيع ابنتها لجسدها، نعم، ستكفر بنعمة الحياة.

هذه المرأة التي علق بذهنها قصّة ابنة قريتها عندما كانت فتاة عزباء لم يتجاوز عمرها الخامسة عشرة، ابنة القرية عديمة العقل التي أقدمت على الفرار مع عشيقها، والتي لم تشفق هي الطيّبة العظوفة عندما جُرّ اسم الفتاة خارج دفتر العائلة وتمّ التبرؤ منها أمام الجميع رغم علمهم بزواجها الشرعيّ

_ "أيّ تفسير يعلّل شناعة فعلتها، أنّها وقعت في حبّ الرجل؟" تلت على مسامع أثيل ذات يوم لما قبض الحقد عليها لتدنيس الفتاة شرف العائلة رغم تورّعها عن الخوض في الأعراض"

ليلعنه الله من شعور بذية قبيء، ليلعن الله كل امرأة لا تمنح الحب لرجل سوى زوجها، لن تعيش تلك الفتاة سعيدة يوماً لتفضيلها ندلاً جباناً على شرف عائلتها الطاهر". وما فتأ أن تدقق الارتياح إلى أعصابها المتشنجة و تنفست الصعداء لذهاب أمها في أعقاب ميرنا المتفجرة غضباً.

فيما استمرت هي لوحدها جالسة إلى الطاولة، متسمرّة في مكانها كوتد مرزوز بعناية في عمق الأرض، مرسخةً بصرها على باب الغرفة، ينبجس من عينها ألم عنيف بأدق تفاصيله، وعصف بها إحساس خانق من الضيق الفاتر الذي لا قبل لها بتحملة، آملةً لو بوسعها الفرار إلى حيث لا يعرفها أحد.

كان بوسعها ترجمة نظرات أختها الذميمة إلى عشرات المعاني والفرضيات. بيد أنها لم تكن قد أدركت من قبل أنّ الترجمة الحقيقية تتدبّر برداء الحقد الدفين حتى سمعتها تنطق بلسانها السليط، كانت قاسية مسمومة العبارات، هوت على نفسها كما يهوى السكّين على قلب ليطعنه، كأنها صفتها صفة غليظة غير متوقّعة. على نقيض ما توهمت إمكانية التصبّر، لم يسعها تحمّل هذه القسوة، ففاضت الدموع على وجنتها مع اختلاف انبعاثها من مكان سحيق أسود من قلبها، وتحققت من تحطيم المعرفة ما تبقى من كيانها وهدّت كل زاوية من زوايا روحها، بل وذهب مداها إلى تحوير رأيها حول كل شيء.

استقطبت في تلك الثواني القليلة أكبر كمّ من الألم، الذي لم تعلم سابقاً بوجوده بهذا الحجم الذي لا يطاق، لقد كفر إيمانها المضغّي الصادق بضميرها الهائئ المرتاح، شعرت أنّه انتفض على غرار حروف تلك الكلمات المتدافعة الفعالة فراح يقرعها ويركلها ويقاضبها، وفجأة هرمت كل تعابير وجهها بضربة واحدة حتى طرق تفكيرها صيرورتها عجوزاً ناهزت السبعين..

حزّ في قلبها و أثر فيها أنّها لم تقصد يوماً أن تكون عائناً في طريق سعادة شقيقتها، إنّ الأمر برمته مرهون بعقول رجال لا تولي لهم أدنى اهتمام، لو كانت القضية بيدها لوجّهتهم إليها جميعهم و اكتفت بمراقبتها مسرورة، محلّقة في فضاء السعادة.

بمشقة كبرى وقفت على ساقين منهوكتين بعد أن مسحت الدموع المناسبة متوجهة بأقدام متهادية و خطوات متناقلة إلى غرفتها و الألم ما عتم يضرب على أوتار قلبها كيد ماهرة تعزف على أوتار الكمان، وما إن عبرت الغرفة وبلغت بسطة السلم حتى انخلع قلبها من مكانه، وذعرت ذعر فأر بين قبضة قطّ شرس، عندما صفع أذنهما حواراً أختها مع والدتها، كان باب الغرفة مفتوحاً وصياح أختها الساخط مرتفعاً والكلمات ترتفع إلى لسانها متلاحقة خاطفةً من قلبها نبض الحياة الرتيب، لو أنّ مليكة ينقر تفكيرها لوهلة أنّ أثيل مصغيةً لصنعت أبواباً متراصّة

من حديد بدل الباب الواحد، ولكنها افترضت جلوسها في مكانها وأنها لم تبرحه بعد، هذا الحوار مرصع الأحقاد، متفق البواعث، جعل جسدها يكتظ ذعرا.

_ "إلى متى يتوجّب عليّ تحمل هذا الوضع" صاحت ميرنا بصوت عال صدح في البيت الكبير قويا عنيفا بلهجة غير محترمة يشوبها تهكم مطبق " إنها تخطف مني كل فرصة، طبعاً فهي لا شك جميلة أخاذة وأيضا طيبة كملاك، ناعمة كالحرير، غالية كالجواهر، هي المرة...نسيت عدد المرات من كثرتها "

_ "ااا، ليتها لا تفقد صوابها " تمتت أثيل بصوت مرتعش مستنجدة برحمة الله " يا الله، يا الله ليتها لا تجنّ فإن كان غضبها قد أخرجها عن طورها وكاشفتني، فلا غرابة أن تفضح كل شيء أمام أمي حتى تنتقم مني، احفظ لسانها في حلقها يا الله، لا تجعل أمي تكتشف الضربة القاضية".

رفعت رأسها إلى السماء في دعاء ضارع، ويدها ترتجفان رجفان عصفور في القفص ثم ما عتمت أن تقدّمت خطوات أكثر لترهف السمع، فعانق مسامعها دمدمة والدتها محذرةً ميرنا من المضيّ في حديثها

_ "اخفزي صوتك وإلا صفعتك، إنك تقللين من احترامي، أيّ ذنب أنت كي توجّهي لها اللوم، أتساءل دائما عن السبب الذي يجعلك تمقتينها، طبعاً لن يفوتني ملاحظة تفتنك في ذلك. "

_ "يا الله ستخبرها " همست أثيل محتبسة النفس، متمسكة بالدرابزين كأنه سيغى عليها وتقريبا تبخّرت نبضات قلبها، على أنّ شقيقتها دائما لا تسرّب فورة غضبها إلا التلميح المهم، ذاك الطراز من التلميح الذي يفضي إلى الشكّ

_ "لست أمقتها، ولكن يا أمي إنّ هذا غير منصف، لماذا لا يحبّني الآخرون كما يحبّونها؟ ليست متفوّقة عليّ في شيء؛ بل أنا أحسن منها على الأقلّ من بعض الجوانب، بماذا هي أفضل مني؟ "كان يشوب صوتها غصّة حزينة "الجميع دون استثناء يميلون إليها، لا سيما السيّدة سميحة، أحسّ أنّها تتعوّذ مني كلما مرّرت إزاءها، ولست أفضل منزلة في قلوب الرجال، فهاهم يتجاهلونني الواحد تلو الآخر، وما إن يراها أحدهم حتى يهرع لطلب يدها، وهي لن تتزوج أبداً، لن يسعها أن تتزوج "

_ "لماذا ليس بوسعها أن تتزوج؟" سألت الأمّ مرتابة والشكّ في صوتها يغالب التأثر

_ "أتوسّلك يا الله امنع معرفتها، ستخبرها، ستخبرها الآن" قبضت يد الرعب على قلبها، وأخذ ارتجاف عام يتصاعد من قدمها إلى صدرها، أمّا ركبها فشعرت أنّها متخشّبتان، فأسندت ثقل جسدها على الدرابزين، وبدا كأنّ سؤال أمها طرح منذ دهر طويل، فيما لاذت

ميرنا بالصمت، بماذا تراها تفكر في هذا الوقت الحاسم؟، لو أن ياسمين تنقذها بإحدى دعاباتها الصببانية السخيفة، لو أن هذا البيت لا يتسم بالسكون الهاجع، لو أن سميحة تطرق الباب ببديها الملحاحتين، لو أن ميرنا لا تكرهها، لو أنها كانت قبيحة المنظر. لو أنها قبيحة ستحل كل مشاكلها، وتفك كل عقدها من الألف إلى الياء، وما عتمت أن انطفأت مخاوفها عندما استأنفت ميرنا الحديث، فهذه على الأقل كانت تحب إنسانا واحدا على وجه الأرض تحب أمها، ولن يسعها تحطيم قلبها.

_ "ألا ترين يا أمي، هي تفكر بمستقبل ياسي وتفكر فينا، تمرق نفسها لأجلنا كما تعلمين، ولهذا لن تتزوج مطلقا، الجميع يعلم بالتزامها مبدأ التضحية بنفسها لأجلنا " كانت أثيل تدرك ملسوعة أن شقيقتهما تسخر منها، ولكنها لا تحفل البتة، لتسخر إن شاءت ولتضحك ملء قلبها، ولتبصق على وجهها كلما رأتها، عدم معرفة أمها هو الأولوية.

_ "أتراك تسخرين!!! "قالت الأم متكدرة " أتكرين عليها الذي فعلته لأجلنا؟ لقد أفنت أجمل سنوات عمرها تعمل في سبيلنا، أتدسين يا ميرنا؟ لقد عملت بجداً، و يعود لها الفضل في كوني معافاةً سليمة بينكم، تلك المسكينة، إن نسي العالم بأسره معروفها فلن ألود أنا بالنسيان"

وفجأة أخذت ميرنا إلى الصمت ولم تتابع قول شيء، على أن ما تفوهت به على طاولة العشاء علق في ذهن أثيل كبقعة حبر، وهزها محدثا موجات من التمرق شبيهة بموجات حجارة ملقاة في مياه راكدة أو صدى صوت مرتفع في غرفة مهجورة، كان قلبها ينفطر ألما وقد تفرق النور الساطع أمامها وحل محله ظلام دامس، محاطة بزرافات من الغربان السوداء. ماذا تعرف أختها عن الجحيم الذي تمرغت فيه؟، ماذا تعرف عن الإهانات التي تلقتهما، عن الأجساد العفنة التي استلقت بجانبها؟ أترها تعتقد أنها كانت سعيدة وهي تجرد جسدها مقهورة من الثياب على مرأى رجال غرباء، ثم ترتعي في أحضانهم، وتلبّي نزواتهم، وتشبع نهم شهواتهم، كل هذا وهي كائن ممرق مكدود، كل هذا وهي مثخنة بالجراح فيما كانت ميرنا تفرقر مع صديقاتها في حلقات زاهية منتشية بأحاديث الصبا المبتهج، أما هي؛ فقد خرج الصبا من قلبها مدحورا منبوذا مغتالا، وبالكاد استطاعت الاحتفاظ بروحها طاهرة على ضوء تلوث جسدها، بالكاد استطاعت الاحتفاظ بنبل قلبها، ورغم ذلك ليس بوسعها إلا أن تكن الحب لها، لأنها من لحمها ودمها، لأنها امرأتان ولم يكن إلا الفقر والحاجة من نصيبهما، لأنها نكبتا بمصاب فقدان الأب منذ خمسة عشر عاما، لأنها تشاركتنا الأيام الصعبة، رغم أن نصيبها كان أضخم من الماسي والأعباء.

بيد أنّها لسبب ما لا تملك مثقال ذرة من الرحمة، و لا ثقافة أحسن من ثقافة بغل عن الحياة الفارهة، نصيبها كبير من قلة الإدراك، يعوزها امتلاك إنسانية رحيمة أو نزعة خيرة جليلة، ولن تنظر إليها إلا بالقدر الذي يجعلها تشفق عليها لأنانيتها وقسوتها، ولو أنّها تقاعست عن التصدّي بجسدها للمأزق لربما كان موقفها أوفر إنصافا منه الآن.

تابعت أثيل سيرها تكتنف وجهها تعابير مريرة، و توقّفت على بضع خطوات خارج غرفة شقيقتها، فيما قطعت هذه الأخيرة حبل صمتها بعد أن هدأت لبرهة متهدّدة بعمق و تكاثفت نبرة السخبط على صوتها فأضافت محتدّة

_ " يا لسوء حظّي، اه" تأوّثت بجزع" أريد أن أحظى بزوج وأطفال صغار كما من يماثلني سنا، إنّ ابنة البومة المشؤومة عديلة ليست أفضل مني لتؤسّس بيتا بينما أنا لا، لقد لمّحت البارحة عندما اجتمعنا في صدفة سيئة إلى استحالة زواجي لدرائتها أنّ جميع المتقدمين يميلون إلى أختي، قالت: إنّني بلا حظّ..."

_ "اصمتي" قاطعتها أمّها بسخبط نافذة الصبر "من يسمعك يظنّ أنّك شارفت على الأربعين، وأنت لا تزالين في الثانية والعشرين، ثم كّفّي عن التقليل من شأن أختك، كيف تتمادين في الحديث عنها بهذه الصورة المجحفة، أنت سيئة التربية، ليس ذنبا إن كانوا يميلون إليها، هل جرّهم زجرا ليطلبوا يدها!، ما خطبك إنّ الرجال كالأيام يذهب واحد ويأتي آخر، سيأتيك نصيبك في الوقت المناسب، كّفّي عن التذمّر"

_ "أحقا!" علقت ميرنا بلهجة تنم عن عدم اقتناع "سيأتيك إذا في الوقت المناسب!!! ومتى يحلّ هذا الوقت المبارك يا أمّي، بعد أن أغدو عانسا، إنّ نظرة الرجال لا تتجاوز جلود النساء كما تعلمين"

_ "إنّك لا تعرفين شيئا عن الرجال، أتظنّينهم حمقى؟ إنّ لهم عقولا إن كنت تظنّين نقيض هذا؟؟ ليست الوجوه فقط من تجذبهم، بل الأخلاق و التربية الصالحة، والآن سنتوقّف عند هذه النقطة، و لا تدعيني أسمع تذمّر مرة أخرى، وإلا جعلت أيّامك جحيما، ستزّوجين عندما يحين أوان ذلك، وأختك أيضا ستزّوج رجلا مناسب لها، رتبي هذه الفوضى حالا، لا تستطيعين حتى ترتيب غرفتك و تريدين الزّواج!!، ماذا سيفعل الرجل مع فتاة مهملة غير مسؤولة مثلك. انظري، أغراضك مبعثرة بكل مكان كأنّ كلب الشرطة كان يبحث عن الممنوعات بها، أشكّ أنّ أحد سيبالي بالزّواج بك إذ ما عرف الكيفيّة التي تعيشين بها "وأدارت ظهرها لتتصرف تهمهم ببعض الكلام غير المفهوم معلنة نهاية الحديث و عبرت الباب إلى الممر.

ما إن وضعت قدما خارج الغرفة حتى لمحت أثيل واقفة مرخية يديها، يجثم على وجهها ألم ضليع، ويشع من أعماق عينها السوداوين جزع أسدلت عليه ابتسامتها الخفيفة نوعا من عدم الاكتراث المتعمد، و تبادلتا لنصف دقيقة نظرة أسف قصيرة ثابتة، وعجزت الأم عن تقدير المدّة الزمنية التي وقفت خلالها أثيل تصغي إلى هراء أختها، والذي من الطبيعي أن يلحق بها ألما جبارا، ويشعرها بالهشاشة القلبية.

ساد الصمت لبرهة ، حتى قرّرت أثيل التحرك صوب غرفتها و الابتسامة الرضيّة لا تزال أبدا تحوم حول شفيتها نتيجة انشراحها بعدم فضح سرها "ما أرحم الله بها " واجتاحها شعور بالشفقة نحو هذه المرأة الكليلة التي نكبت بوفاة زوجها، و خاضت غمار الفقر الكؤود والعوز المرير وحيدة، إنّ بمقدورها أن تصبر متجلدة إزاء هذه النكبات كلّها، أمّا اطلاعها على قضية الشرف المهذور فذلك ما لن تتحمّله بأيّ وجه.

في الحال شيعتها والدتها، كانت الغرفة تسبح في ظلام دامس قبل إنارة المصباح، وبأثانها المعهود جلست على الكرسي مطأطأة رأسها جامعة يديها بين ركبتيها، كان آخر ما تريده الآن أن تجري نقاشا أيّا كان صنفه مع أيّ أحد وعلى وجه الخصوص والدتها، ليس من شيء أصعب من النظر في عينها الحنونتين، هذه التي كانت تدافع عنها بثقة منذ قليل، إنّ شقاء هذه المرأة الناجم عن فرضية إدراكها للقضية المعيبة يفوق بلوغته أيّ محاولة تصبو إلى إنهاكه أو إنزال رتبته من القمة إلى أسفل القاع، وإنّ أيّ مجازفة لمحاولة تبرير الإثم ستزيد من بشاعته أكثر. حبّذا لو أنّها تنصرف دون قول شيء ،على أنّ الجزع المقروء في عينها لن يدفع الأمّ إلا للمكوث والمواساة، ولا مليون عذر سيجرّها خارج هذه الغرفة.

- "عزيزتي" أنشأت بصوت حنون عقب جلوسها على حافة السرير ثم تناولت يدي أثيل قابضةً عليهما برقة.

- "لا أعرف ما سمعته، ولا أريدك أن تشغلي عقلك بهلوسات أختك، تعلمين حجم تهورها عندما تغضب، هي حمقاء كما تدرين وعلاوة على هذا، تطلق أيّ سخافة في ساعة الغضب، أرجوك لا تتضايقي منها "

على أنّ أثيل لم تقل شيء ، و اكتفت بتقليب شفيتها في نصف ابتسامة على مضض مضن، محاولة جرّ وجهها إلى سحنة أفضل كي لا تضاعف قلق والدتها و رفعت الأم يدي ابنتها عاليا تتأملهما

- " بهاتين اليدين أنقذتنا وهذا البيت من التداغي، والصحة التي أتنعّم فيها هي شهادة على تضحيتك، لقد كنت قائد البيت و تولّيت مسؤولية رعايتي أنا وشقيقتيك فيما كنت لا تزالين

صغيرة، عندما أتذكر ماذا فعلت لأجلنا أشعر بالمرارة؛ فتلك في الواقع كانت وظيفتي أنا وليست وظيفتك."

أفلتت يديها ثم ضغطت يدها على قلب ابنتها، كانت ضرباته بطيئة بينما كانت أنفاسها عميقة "ليس كل البشر يملكون قلبا مثله، أريدك أن تثقي بأنني أفتخر بك أكثر من أي ابن من أبنائي "

_ "أفديك بعمري يا أمي، أشعر بالخجل فأنا ربما خيبت ظنك ولم أمنحك رعاية أفضل، أنت التي حملت كل الأعباء لوحيدك منذ أن قضى والدي في ذلك الحادث المشؤوم "أجابت أثيل بصوت هسّ مهترئ، ويدها تعبت بحافة المكتب فيما كان بصرها موجّها إلى تلك النقطة متحاشية النظر إلى والدتها "أريد أن تظفرن بالأحسن، أن تحصلن على أي شيء تنشدهن، ثقي دائما أنني فعلت ما بوسعي لأوفر لك الأفضل، وكانت خياراتي محدودة. بل أستطيع الجزم أنّ خيارا واحداً كان متوقّرا "أضافت عبارتها الأخيرة بمرارة

_ " لا تكوني سخيفة يا ابنتي " اعترضت مليكة بارتباك شقوق "لقد قدّمت أفضل ما لديك، بل أفضل ممّا كان يتوقّع منك، خصوصا أن العمل الشريف صعب العثور عليه هذه الأيام، وقد استطعت المحافظة على نفسك، إنّ هذا لوسام يحثني على التفاخر بك بين الناس " أغمضت أثيل عينها، وجرت دمعة حارقة على وجنتها ترافقها شهقة ساحقة ثم عضّت شفتها السفلى متنفسة بعمق

_ " ليس من داع مطلقا لتعتذري إليّ، لا تبكي يا حلوتي، فدموعك تقهرني وأرجو أن تقذفي بهراء أختك بعيدا عن ذهنك، أراهن أنّها قالت الكثير عندما كنت في منزل الجارة، أجل، لقد جرحتك، ماذا قالت بالضبط؟ ماذا قالت؟ لقد جرّبت أن أغرس فيها ما غرسته فيك، ولكن حظّي من التوفيق كان غير مبارك، إنّ ترويض البغال العنيدة أيسر بكثير من ترويضها، دعنا نتفق على أنّ ما تقوله شقيقتك مجرد تنفيس عن الغضب، هي عنيدة نوعا ما، منطلقة بصورة غير مستحبة، يقفز أمامها باستمرار هاجس عدم إمكانية ظفرها بشابّ آخر، كل النساء يعتقدن أنّ الدنيا ستتوقف إن لم تزوج رجلا بعينه، وكلهنّ يفترضن أنّ الاحترام والشهامة تولد وتنتهي عند ذلك الرجل وتفشل في ولادتها مع آخر "

تجاوبت بنظرة التهمّ المكتوم، ثمّة حقيقة قاتمة وراء دموعها، ما أسدج الذين يفترضون أنّها فتاة عفيفة طاهرة، الله وهي فقط يعلمان عدد المرات التي انفردت بها برجال قذرين تحت سقوف بيوت غريبة عنها، وحدهما يعلمان عدد الأماكن التي عزلت نفسها وإياهم في الزوايا تمارس معهم مجونهم الخليع، ومع أنّ شقيقتها كانت تدري فقد بدا لها مشينا أكثر منه مهينا

لكرامتها أن تصارحها بمخازنها الجسيمة بتلك الطريقة القاسية. لقد أفلحت في إخفاء آثامها جميعا و لولا محبتّها لوالدتها وحرصها الأنانيّ على مصالحها بفعل أن العار سيشملها لما استنكفت مزهوة عن رجمها مع الآخرين إذا ما لاحت في الأفق معالم الفضيحة العلنيّة أو استشرت رائحة العار حولها. ولن تهتم ميرنا بلجم ألسنة الناس في الخارج في حال أخذوا على عاتقهم إدانتها والتحدّث عنها بسوء حيث لا تستطيع سماعهم يمرغون شرف أختها دون إبدائها امتنانا مبطنًا بالسرور، فهي تراها تستحقّ وقد تبين أنّها غاضبة جدا من خيارها في حلّ المشكل القديم.

– "حسنا يأمّي أنا أسوّغ غضبها في الواقع" قالت كاذبة " لم تقل شيئا يسيء إلي، ولم أسمع سوى كلمات قليلة، فالباب كان مفتوحا جزئيا، وأنا لن ألقى أذانا صاغية لأرائها المتسرّعة" وعلت شفيتها ابتسامة مزيفة عريضة "تبقى شقيقتي وأنا أحبّها كثيرا "

– "ابنتي المخلصة " لمعت في عينها إشراقة امتنان يجلّمها الفخر " هذه هي ابنتي التي أعشقتها وأفتخر بها، هل أسرّح لك شعرك؟"

– "لا، لا " هزّت رأسها معترضة، عقب ذلك ضغطت بقبلة حارة على يدي أمّها بالتناوب، رغبت بإلحاح في الخلود الى الوحدة "سأفعل ذلك بنفسي، لا أرى أي داع لبقائك هنا، سأنزل بعد قليل لمساعدتك في رفع الصحون وجليها ."

– "لن تنزلي، سأتولّى ذلك بنفسي، اخلدي إلى النوم، كان يوما طويلا، أنت مرهقة " و أفلتت يدها ثم انتصبت واقفة، وعندما أصبحت عند عتبة الباب استدارت جزئيا لتضيف شيء "أثيل ستحظين برجل فدّ رائع، يقدّر روحك الجميلة، لا تنسي هذا"

فأطرقت أثيل برأسها موافقةً و تالألأ في عينها سرور واهن، و في اللحظة التي انسلت الأمّ خارج الغرفة عاودها أمّها الأول، على أنّ عقلها قدّر بإجلال محاولة والدتها لرفع معنوياتها المقموعة وترتّب عن ذلك إحساس دافئ جلب بعض الطمأنينة إلى فؤادها المنكوب.

لكن من الآن فصاعدا سيغدو سرّها المضغوط بين يديّ أختها سلاحا فتّكا ضدّها، فهذه قد صرحت علانية بكرهيتها، أمّا ما يختلج قلبها فمن العسير عليها التنبؤ به والله وحده يعلم متى تنفجر في إحدى نوبات غضبها فتجنّ، وتتبرّع هانئة مغتبطة بما سيسوق إلى القضاء عليها، ترافقه لذّة الانتقام العظيمة، وما أكثر ما ستجنّ دون سابق انذار مثل اليوم كأنّ عفريتاً تملكها أروحا شريرة استبدّت بها.

في غضون دقائق تمدّدت في سريرها على ظهرها، بعد أن أطفأت الأضواء. كانت تودّ إغراق الغرفة في الظلام الأسود على أنّ شعاعا من ضوء القمر انساب بين ثنايا الستائر البيضاء ثم

انبسط على سريرها.

وبعد أن أضحت وحيدة وفي الضوء الباهت جحظت عينا ذاكرتها مسافرة بها إلى الورا، واستعرض ذهنها بإحساس مضطرم ذكرى بعيدة هاجمتها وزعزعتها، الذكرى الأولى التي سلّمت فيها جسدها، إنّ من المشقة كبح جماح انفعالها كلما تذكّرت وجهه، وفي أوج الصمت الأجوف برزت صورته كاملة مقززة، كان رجلا طويلا، نحيل البنية، عيناه مخيفتان مهيبتان ، محتقتان بلون الدم، ووجهه طويل يشي بالاستهتار المنقّر وهيئته غامضة، إذ لا يستطيع المرء مهما بلغت نباهته أن يتنبأ بخطوته القادمة، لكن كانت لديه ميزة واحدة مكشوفة، توّسمت فيه أثيل سيماء النعمة والغنى.

عندما بلغت باب الشقة في الطابق الثالث، تردّدت مرارا وعادت أدراجها لتقف في منتصف السلم تترنّج مذعورةً بين مشهدين مقرّحين كل منهما أسوأ من الآخر، واحد أمامها وآخر خلفها، مشهد أمها السقيمة بأنيتها القاصف وأوجاعها المكتومة وجسدها العطيل المضطجع على السرير ذي الشراشف العتيقة المهترئة، هي بكتفها الصغيرتين ويديها العاجزتين الخاليتين من أيّ مقدرة خارقة على توفير المال والدواء والطعام لشقيقتيها المذعورتين ومن جهة أخرى مشهد الرجل الغريب عنها ينتهك عفافها ذاك الذي ليس بزوجها، الذي لن تراه ربما لأكثر من مرة أو مرتين، مالم تحدوه الخسة لنيلها مرات أخرى.

مكثت في السلم دقائق تتجاوز العشر والحيرة تنخر خيالها بساقين تبغيان الفرار و عقل مشوش ينشد الحكمة الضالّة، و قلب متورّم بفاجعة الأمّ العليلة المشاركة على الموت، وأخيرا اتّخذت قرارها واستقبلت الواجب بالغشاوة الرعناء، فاستدارت وتقدّمت نحو الباب ثم طرقت طرقا خفيفا وسرعان ما فتح لها الرجل ذو الهيئة الغامضة ثم بنظرة طويلة وقحة، مفزعة زحفت عيناه من قمة رأسها إلى أخمص قدميها مرورا بشفتيها وتديها ثم خصرها الهفهاف وأخيرا قدميها، فجرت رجفة مزلزلة في جسدها، رجفة لا سبيل إلى السيطرة عليها، وتحزّقت برغبة نهّاشة إلى الانصراف، وبخفة مدّ يده فجذبها وأضحت بالداخل الآن وليس من فرصة للتراجع ثم بلهجة أمرة طلب إليها أن تمشي في إثره فنقّدت الأمر كارها و تبعته بخطوات متردّدة وثيدة إلى أن بلغا غرفة ذات نافذة بستائر كاكية مسدلة.

كانت غرفة كبيرة تكاد تكون خالية من الأثاث، تنشر الشمس أشعتها من خلال نافذتها الواسعة ، تضم سريرا كبيرا وفي الزاوية خزانة من خشب الرّان ذات بايين، وكنبة جلس عليها ومدّ ساقيه الطويلتين مخرجا من العلبة سيجارة أشعلها بنزق ثم طفق ينفث منها الدخان بطريقة بعثت الرعب فيها، بجانب الكنبّة منضدة مستديرة خشبية موضوع عليها كأس فيها

شراب أصفر مائل إلى الحمرة متوّج برغوة بيضاء، ملأ الغرفة برائحة كريهة منفرة، أفرغه في جوفه بحركة واحدة ثم طافت حول شفثيه ابتسامة ماكرة، أما عيناه فكانتا تتقدان بشبق ذكوريّ شهوانيّ محموم لم تستطع تحليله في المسار الصحيح، نظرا لانعدام خبرتها، ووضّح لها ببعض النفور أنّ فستانها ليس باللائق وأنه إن دلّ على شيء؛ فإنّه يدلّ على انتمائها إلى الطبقة الدنيا المسحوقة، ثم عقب بتعليق مستخف مفاده أنّ السيّدة كارمن أحيانا تحدوه إلى الانهيار، ولولا أنّها كانت ضائعة مذعورة لربّما أدركت قصده.

ما انقضت دقائق حتى تضاعفت ارتعاشة جسدها وطفقت تبكي. كانت كارمن التي أمّنت لها الزيون، والذي دفع لها مبلغا معتبرا يحلّ ربع مشكلتها قد أوعزت لها بأوامر مشدّدة تحاشي البكاء أمام الرجال؛ فذلك يترتب عنه نفورهم منها، ويتوجّهون بضجرهم إلى الاقتناع أنّ الفتاة لن تشيع نهمهم بالصورة المطلوبة، لكن رباطة جأشها لم تسعفها و خانها مبادئ الطفلة البريئة التي تنفرد لأول مرة برجل غريب عنها، و تاقّت إلى أحضان أمّها الآمنة بعد أن سحقتها رعدة الجسد المذعور.

قذف بعقب السيجارة على نحو عرضيّ، ثم وقف منتصبا على ساقين طويلتين وبينما هو يتقدّم نحوها، تفحصتها عيناه بدقّة كمن يشتهي التهامها دفعة واحدة، وما هي إلا ثوان قليلة حتى أضحى أمامها، عيناه الحمراوان تواجهاان عينها السوداوين المتسعتين في نظرة مراوغة. وعلى نحو مفاجئ أخذها بين ذراعيه بكيفية أبويّة هدأت مخاوفها قليلا و راح يمرّر يده على شعرها الأسود بلطف نزيه، لا يفعل هذا إلا الآباء المتيمّون بحب بناتهم، إذا فالنتيجة ممتازة، هذا الرجل لن يؤذيها، و علاوة على هذا سيسمح لها بالانصراف محمّلة بكيس النقود لعلاج أمّها "شكرا يا الله لا يزال هناك رجال شرفاء، لا يزال هناك رجال فاضلون، ستخبره، نعم ستحكي له عن مرض أمّها وانعدام حيلتها".

لقد أدرك الرجل بحصافته الشاسعة أنّها فتاة مسكينة بأئسة، ساقتها الحاجة القاهرة إلى أحضان الضعة المشينة و طالع في عينها الزائغتين المذعورتين، طالع جزعها، ثم سألها بصوت هادئ لطيف عن اسمها فأجابت بنغمة ضعيفة "أثيل " و تفاجأت به يوضّح لها معنى اسمها بشيء من الأصاله "إنّ اسمك جميل، أعتقد أنّ معناه الفتاة الأصبيلة والعريقة، ذات المجد ألسنت مصيبا؟".

كان قد اجتاحتها هدوء غرّار، و هو يسرد عليها معناه بدقّة، إنّها لم تكن تعبا بأيّ وجه من الوجوه بمعرفة معناه الحقيقي، ولم تستوقفها حاجة أو موقف بعينه يوما لمعرفة ذلك، فجميع سكّان الحي يخبرونها باستمرار أنّ اسمها جميل، وكانت قد سميت بهذا الاسم نظرا لإصرار

جَدَّتْهَا الحنونة على توليها مَهْمَة تسمية أوّل حفيده، على الرغم من اعتراض أمّها الشديد، كانت والدتها ترغب في تسميتها خديجة على اسم والدتها المتوفاة، أما والدها فكتّم رغبته الأثيرة في تسميتها فيروز تباديا لإثارة عصبية والدته، ورضخ الأبوان في النهاية لسلطة العجوز رغم أن والدة أثيل كانت تتميز غيظا من تدخلها الدقيق في شؤونهم الخاصة، وأعلنت بارتياح مزيف أنّ للعجوز الهرمة ذوقا فريدا في انتقاء أي شيء، حتّى أسماء الفتيات، لاعتنة إياها في سرّها قبل موتها، وبعد مفارقتها الحياة كانت على غرار عدم نضحها المترّب عن سنّها الصغير، تعدّد عيوبها أمام الجميع ما عدا زوجها كثرأ عادل يستصرخها البوح، زوجها الذي لو اتّفق أن سمعها تذكر والدته بسوء لطلقها فورا حتى مع ثلاث بنات.

ما عتم أن خاب رجأؤها، خاب بصدمة دامغة ونازلة بترأ؛ لأنّ الرجل طوق خصرها على حين غزّة محكما قبضته عليه بيد من حديد، وباليد المكدودة الأخرى رفع يدها وراح يقبلها ثم زحفت شفتاه إلى ذراعها النحيلّة موضّحا لها بأنفاس سريعة حازة أنّها حسناء جميلة، وأنّ كارمن أسدت له معروفا جليلا لإرسالها إليه، فتخدّرت أعضاؤها وشلّت حركتها، لكنّها عندما جوبهت بمجريات النكبة وأتاها التقرير الأوّل عن نيّة الرجل، تلوّت لتفلت جسدها عقب بزوغ الفكرة الجديدة الطارئة التي غزت تفكيرها "إنّها لا تريد ماله، لا تريد أن يلمسها فلمساته تولّد الاشمئزاز فيها وأنفاسه الحارّة تحمّها على الغثيان".

عبثا حاولت بفعل تمكّن طاقة الرجل الوحشيّة منها، فانهارت مقاومتها، هاهو ذا يطبق فمه على فمها و يقبلها بوحشيّة ثم يتزلق لتقبيل رقبتها انتهاءً إلى ثديها، وأرادت أن تصرخ غير أنّ الطاقة القليلة التي تحوزها غير كافية لإنجاز كل المهام اللازمة، ليتها يتركها وشأنها، حبذا لو تنقذها معجزة، حبذا لو تموت الآن، حبذا لو يمكنها ضربه بأداة ما فتحطّم جمجمته ثم تغرقه في بركة من الدماء القرمزية القاتمة، ودت بقوة لو تضربه وتبصق على وجهه، على أنّ الغرفة كانت تفتقر وجود قطعة معدنية تكافئ الغرض، وما هي إلا دقائق حتى انتهى كل شيء ونهش الكلب الوضع عفاها.

بينما كانت ترتدي ثيابها خائرة القوى، فاترة الهمة، شاحبة الوجه كالأموات، وضّح لها بخسّة أنّ ذلك طبيعيّ، لأنّها المرة الأولى، وليس أكثر وضاعة من وضعه في حوزة معلوماتها أنّه يعشق المرات الأولى، فالفتاة تفقد بريقها بعد تلك المرة، وتغدو أقلّ رواءً وجاذبيّة، بيد أنّها نالت استحسانه و سيدفع مبلغا مضاعفا لينالها مرة ثانية فلا يستطيع إلا القول أنّها أكثر الفتيات جمالا وأبدعهن حسنا، وإن هي بذلت جهدا لتحسين سلوكها البارد، وخضعت للنظام الذي يقتضي ولاءها لرغباته، فسيصنع منها فتاة غنية، وكان ذلك نسبيا إطرأ لها، لكن لم تزد على

نيزه والاشمئزاز منه.

وكانت قد عزمت رأبها بصلافة على عدم ارتكاب هذا الإثم الخطير مرة أخرى، قبل اكتشافها أنّ المبلغ المدفوع لا يفي بالغرض، و كنتيجة مكذّرة لذلك، وافقت مكرهة قبل أن تخطو خارج الشقة على مرة ثانية وثالثة، بعدها لم يعد يرغب فيها أكثر مما ترغب فيه هي. أجرت أمها العمليّة ونجت من مخالب الموت، و بسبب أنّها كانت عليلة لم يعد في وسعها العمل كعاملة نظافة كما كانت، فلزمت الفراش على مضض منها، و باتت أثيل ترزح تحت أعباء فتّاكة، كان من مسؤولياتها تأمين الأدوية و الطعام، و تولّي مهام والدتها جميعا دون تدمّر، و أثقل ما كان ينهش عاتقها إبقاؤها لحقيقة وضعها الراهن بعيدا عن تناول أمها وشقيقتها والجيران والمعارف، لم تجرؤ حتى على التفكير بعواقب المعرفة، فراحت بالفرد المستطاع تختلق أكاذيب ناجعة عن طرق تدبيرها المال، شاكرة بحماس مستعر، معروف الجمعيات الخيريّة وآباء صديقاتها لأنّ لهم الفضل في مواجهة الأزمة عن طريق دعمها، و مدّ يد العون لها، وإنّ الله برحمته الواسعة وكرمه الفيّاض قيّض لها امرأة صالحة أمّنت لها عملا محترما إضافيا يُخمد نار الحاجة و يبتريد السؤال، ولقد نجحت إلى المدى الذي أفلحت بالبكاء سرّا، و إغراق البيت بالقهقهات الساخرة بحيث تسوق الجميع إلى الاعتقاد أنّها راضية قانعة بالأعباء المزجاة على كتفها. لقد كالت لها الدنيا جحيما مستعرا بنار، صنعت منها جليدا صلبا بتجاهل رهيب ما ينفك يقوى و يقوى.

وهكذا ذوت الزهرة المتفتّحة، وأمست تسلّم جسدها بمقاومة معدمة على قدر الحاجة الملحة جدا على كراهية شديدة منها، و فتور لا يستثنى من عناصر الاستسلام عنصرا واحدا، وهل عليها أن تعبأ بعدد الرجال بعد الرجل الأوّل؟! لا، إنّ ذلك لن يغيّر، فالواحد كالعشرة طالما النتيجة واحدة، خسارتها عفافها ونفسها، وفقدتها كلّ فرصة للزواج من رجل محترم.

بعد ثلاث سنوات، بعد إبعادها الخطر عن الباب، و شفاء أمها من المرض الضارّي، وفوز مشيئتها في صون جسد شقيقتها من الضعة، بثّت الحياة في وجهها فأصبح بوسعها صرف النظر عن مضاجعة الرجال بأصنافهم واعتزلت هذا النوع الرخيص من العمل، ثم سرعان ما حظيت بعمل محترم أمّنته لها صديقة العائلة سميحة، بمكتبة العجوز إبراهيم قريب زوجها، قانعة بحظّها الضرير من الدنيا طالما بقي سرها في حرز أمين.

عادت باكية من رحلتها الطويلة في ثنايا الأيّام المتصرّمة، محاولة إبعاد ذهنها عن المشاهد المنغصة، على أن صورة جديدة مهيبة انتصبت أمامها بجلال عريق، فجلست القرفصاء متأملة كسيرة صورة والدها الصامتة المعلقة على الحائط قبالتها. كانت عيناه بندقيتين حازمتين، ولكن

في الوقت ذاته دافئتين تنفذان إلى أعماقها بنظرة مظلمة، رغم كونهما ساكنتين في صورة صمّاء، وشارباه المعقوفان إلى أعلى يثيران الرهبة على نحو صارم تبعثان فيها هلعاً ذاتياً، وكتفاه العريضتان تغدقان عليها بنوع تليد من الطغيان الجارف، لكأنّه يقول لها إنّني أراقبك دائماً، وأعرف ما فعلته، وأنا ساخط عليك لأنك نزلت إلى تلك المرتبة الوضيعة، ولم تكن قبل مكاشفة شقيقتها تكثرث لموقفه من فعلتها، وبمجرد أن اعتنق خيالها موقف والدها من مخازنها بعد أن اهتمت عبارة أختها بترويعها (من أنت لتلوّثي شرف أبي)، تخضّب وجهها بلون العار فاحمّر كزهرة شقائق النعمان، وشعّ من عينيها بريق خجل مدبج بالارتباك، ووقعت فريسة الانفعال القاتم وضميرها يصارع تعدّد الأعذار والدوافع.

إنها ترى بوضوح الآن، بعد أن زاولت عدم الاكتراث لعهد مديد، لو أن والدها لا يزال على قيد الحياة و أماً اللثام عن زلاتها مع الرجال، فذلك كفيل بإرساله إلى غرفة العناية المشدّدة ليمكث فيها أكثر من شهر ولا يخرج منها إلا مشلولاً أحرساً ما لم تقتله الصدمة، ولن يوظّف إلا عينيهِ المصدومتين المؤنبتين للتعبير عن سخطه من عارها، وحتى لو تفهّمت أمّها ذات يوم، فالرجال لا يتفهّمون مطلقاً، إنّ إمكانية تفهّم النساء محتملة، إن ما أبدت قلوبهنّ بعض المؤازرة النسوية لبني جنسهنّ، لأنّ الضرورة الملحة يمكن أن تُمنح ورقة التسامح، أمّا الرجال عندما يضطرون، ليس لديهم أجساد مغرية لبيعها، وعندما تقع المصائب لا يفقدون نفس الفداء على أنّهم دائماً لا يُعاتبون ولا تُوجّه لهم اللوائم لأن تبعيات الزنى لا توشم على أجسادهم .

ومضت دقائق من التفكير، قبل أن تتقهقر أعضاها الصامدة خاملة خامدة ككومة رماد نثرتها رياح قويّة، عندما استعادت بشيء من البؤس "أحمد الله أن أبي ليس موجوداً"، أيسطيع أن يغفر لها صنيعها القبيح مع دوافعها الجاهزة؟ وماذا عن ربّها؟، إنّ الزنى شائنة كبرى وجريمة لا تغتفر، إن الله يعدّها من الكبائر وسيجعلها الله تدفع الثمن في الدنيا قبل الآخرة، وسيبتليها بمرض ليس منه شفاء؛ لأنّها داست على حدوده، ولأنّها التجأت إلى المحرمات، وها هي تجري حواراً ذاتياً من النوع المألوف الذي اعتادت إجراؤه وتخرج منه مرتاحة هانئة البال (لكنّ الله يعلم بكل شيء، وهو يعرف أنّها لم تجد حيلة لتنقذ أمّها، ولم تترك باباً شريفاً إلّا وطرقته، أيّ الخيارات كانت متاحة لها؟؟، لقد طرقت أبواب الأعمال النظيفة، باباً، باباً، بيد أنّها كانت موصدة ولم تفتح في وجهها) واستشهدت بقصّة شائعة (لقد غفر الله لبغي، فاجرة، بسبب سقيها كلباً عطشاناً، وإن ما اجتهدت في سبيل تأكيد توبتها، ستظفر هي أيضاً بغفرانه، أجل، إنّ الله يعلم و سيغفر حتماً لها، سيغفر، هي واثقة من ذلك، وتريد أن تشعر شعوراً طيباً إزاء هذه الخاطرة المشرقة).

عندما انتصبت هذه الأخيرة أمام عينيها، انتصبت كشجرة الصفصاف الباسقة انتعش فؤادها "لقد غفر لامرأة زانية" وأرسلت كل عقبة أمام الغفران إلى صندوق مقفل حيث لن تفكر فيه ثانية، ولم تجد أنّ من الضروريّ أن تلقي بالألّ لعبارات أختها الوثنيّة. حيث أن هذه لم تضطرّ إلى قيادة زورق مهترئ بحمولة كبيرة، كان يتعيّن عليها قذف بعض الأشياء إلى البحر للمحافظة على الزورق آمنا، وإذا ما غرق سيغرقون جميعا ويهلكون، أشياء تدرك يقينا أنّها لن تستعيدها، وإن اتّفق وحدث ذلك ستكون تالفة فاسدة عديمة الجدوى.

وقفت على رجليها و توجّهت نحو الصورة ثم جثت على ركبتيها، وقالت بصوت متهدّج مرتعش ودموع الأسف تتناثر من عينيها

_ "أرجو عفوك يا أبي، أرجو عفوك" كرّرت "لقد أسأت إليك في قبرك، لم يكن في يدي ما أفعله غير الذي فعلته، ذلك كان المخرج الوحيد، انظر إلى حالي، لقد دفعت الثمن غاليا إن كان يخمد سخطك علي، أنا مجرد كائن تعيس بائس بدون أمل، أنا من يتصوّر الخلق أنّي مخلوق محظوظ، أنا من تعتقد النسوة أنّي وهبت جمالا يؤمّن لي الحصول على أحسن رجل في الدنيا، لقد أحببت رجلا يا أبي، رجلا شهما رائعا، ولكنه بعيد عنيّ كبعد القمر عن الأرض، وأنا أراقبه من بعيد كشقيّ في المنفى، يراقب موطنه الأم، لقد نلت عقابي إن كان ذلك يريحك، حيث لن أظفر به مطلقا، أحببت رجلا يستحيل نيله، وأصعب من الحب المستحيل عدم الشفاء منه، لن أشفى مطلقا إن كان هذا يرضيك، لربما يخفّف عنك، أحبّه منذ سنوات ولا أجرؤ على النضال في سبيله، لقد أحببت نجما ساطعا بعيدا يا أبي حبّا صامتا"

خفق النشيج صوتها فعفّت عن الكلام، و عندما رفعت رأسها مجدّدا لتنظر إلى الصورة المعلقة، رأّت بشيء من الوهم أنّ البريق الساخط قد زال عن العينين الحازمتين، وحلّ بدله ليونة أنعشتها وأحياها الأمل بمغفرة مصحوبة بأدوات التبرير، فكفّت عن البكاء ونهضت على قدميها شاكرة ممتنّة، ولم يدر في خلدتها أنّ الدموع هي من خلصتها من ثقل الحمل وأنّ العينين لا تزالان على هيتهمها صارمتين نقّاذتين.

تفقّدت حقيبتها بعد أن نازلتها اليقظة فهزمتها، وبعد أن خمدت النيران المتأجّجة في عقلها، تذكّرت أنّها وضعتها على الرّفّ العلوي من الخزانة. وبعد أن دسّت يدها أخرجت جريدة مطوية، فأسرعت تفتحها على الصفحة الثانية، وقد أضاءت ابتسامة واهنة ثغرها، رغم المصيبة الكالحة التي حلّت عليها، الناجمة عن معرفة معيبة غير متوقّعة، استطاعت التبسّم، كأنّها لم تشهد فصل مكاشفتها بعارها، بجرعته الزائدة، كأنّها لم تسمع شقيقتها تكيل لها الشتائم

والإهانات، وتصفها بعاهرة الشقق. كأنها لم تكن قبل قليل فرعة إلى حدّ الجنون بينما أختها وأمها تخوضان حوارا حاميا حول شخصها الخليع من وجهة نظر ميرنا، كأنها لم تكد تخسر والدتها إلى الأبد، لولا أن ميرنا كبحت بشقّ الأنفس لسانها الحقود. ابتسمت دون تقريع الضمير أو خوف من قادم قد يقضي عليها، تتفاعل حواسها باستخفاف وقور مع كلّ شيء حولها، هكذا كان تأثير هذا الرجل الوديع الدمث، و دائما لم تصل لسبر كنه هذا التأثير الأبد الجارف.

شرعت تقرأ مقالة اليوم مرفوقة بصورة، جاء فحوى المقالة كالتالي

"أيها الأصدقاء، أوّد اليوم الخروج عن طور العادة، لأكون فخورا بالسيدة في الصورة أسفله" و كان في الصورة شخصه برفقة سيّدة نصف مشوّهة الوجه نتيجة حروق عميقة تعرّضت لها في الماضي، كانت امرأة طويلة القامة ذات عينيّن يصعب تحديد لونهما، لكنهما بدتا بنيتين، وشعر بنيّ أيضا مجموع إلى الخلف، وأنف أفطس و رقبة طويلة. كان عليها آثار حروق مندملة هي الأخرى، لقد تمكّنت هذه السيدة من تحقيق إنجازات عظيمة مقارنة بما يُتوقّع من امرأة في حالتها، فقد نظّمت معرضا ناجحا للرسم، و كتبت مجموعة من القصص القصيرة ذات الأثر الجيّد على القراء، ولو أنّ إنسانا آخر في مثل وضعها في هذا المجتمع اللعين تعرّض لهكذا حادثة ربما يجد صعوبة بالغة في الخطو خارج البيت خطوة واحدة، بيد أنّها فعلت أعظم من مجرد خطوات خارج منزلها، كان من الرائع أن ترى بأمّ عينها أن الرجل الذي هامت بحبّه و الذي أثار فيها زوبعة من العواطف الراشدة الجامعة يمتلك هذا القلب الكبير الرحيم، ولم يزد موقفه إلا من احترامها المقدّس له، ولن يحظى بأقلّ من التبجيل في قلبها المتيمّ أبدا به، وعلى نسق مألوف برقت عيناها بوميض مشرق و فيما راحت تتمّ قراءة باقي المقالة افتر ثغرها عن ابتسامة ناعمة ضاربة هموم الدنيا عرض الحائط "إنّ الإنسان ليس مسؤولا عن الحوادث التي تحدث معه، قد نتفق أنّ التقليل من السرعة يجنّبك حوادث المرور، ولكنّ قد تدفع ثمن تهوّر أشخاص لا يتقيدون بذات الصفة، و ذلك ما حدث مع هذه السيدة، إنّها ضحية استهتار الآخرين، ورغم ما حدث لم تقف يوما لتبكي مصابها الأليم و تحبس حياتها بين قضبان الخطب الجلل، و خلف ذلك الوجه إنّما يكمن عقل بارع و قلب مثابر وعزيمة متحدّية لا تستحقّ أقلّ من الاعتراف بالتفوّق، أذهلتني أكثر مما أعجبتني عندما قالت لي بينما نلتقط هذه الصورة أنّ وجهها قد تغيّر و لكنّ قلبها لم يتغير قيد أنملة، وترجو من الله أن ينظر الناس إليها ببصيرة قلوبهم لا بأعينهم، فوجهها البادي للعيان قد يبدو مخيفا لكنّ قلبها أكثر بياضا من الثلج، ومن هذا المنطلق أعلن أنّي اكتشفت ذلك القلب ببصيرتي الداخلية، تلك التي يمتلكها كل إنسان، وليست بمنكر معروف ذلك الرجل، الذي يكون زوجها، من أمسك بيدها عند كل محطة يأس،

عند كل نوبة تردّد تحلّ بروحها الطموحة إلى أن أوصلها إلى أعلى القمة، هنا أتوقف لأقول لكم إن الجمال إنّما هو جمال أرواحنا، وأعظم درجات من الجمال الخارجي، هو الذي يحثنا على مساعدة الآخرين في المحن، في الأوقات الصعبة. عندما يطرقون أبوابنا راجين منا العون، وفي الختام أقول لكم ابحثوا عن الجمال في القلوب وليس في الوجوه الجميلة. طاب يومكم "

بعد فراغها من القراءة، تنفّست بعمق كأنّ حملا ثقيلًا تزحج عن صدرها، إنّها مسكينة فقط وهي تتعاطف مع مصابها، فخورة بها، وعلى كل حال فذاك الرجل الفاضل الفدّ يتعاطف معها، ما أشدّ تواضعا ما أكبر رحمته، ما أطيب قلبه، ما أسوى روحه، إنّهُ رائع دائما عندما يكتب في السياسة، عندما ينصّب نفسه ناقدا جريئا، عندما يكتب مقالات تهكمية عن الوضعية السيئة التي آلت إليها البلاد، عظيم بكل حالاته، شجاع لا يخشى شيئا.

هذا الذي خطف قلبها منذ أوّل مرة وقعت عينها عليه، أطالت النظر إليه، كانت نظرة عميقة، طويلة، أطول ما يمكن لإنسان أن ينظر، حدث حينها شيء لم تتبيّن طبيعته في اللحظات الأولى، نما خلسة مع مرور الأيام، فأزهر قلبها الذي اعتقدت أنّه أضحى أرضا بورا، لا يصلح لشيء إلا للنبض بغية أداء وظيفة حيوية.

كان خليل صاحب المقالة شابًا جذابًا، طريرَ الوجه ، فيه شيء من الشحوب، طويل القامة، نحيل القوام، في الثالثة والثلاثين من عمره، مع أنّ أثيل تعتقد أنه يبدو أصغر بكثير، له عينان بنيّتان فاتحتان وديعتان تشيان بالمرونة، تحملان شيئا من السخرية والاستهتار، ولحية سوداء خفيفة ضاعفت من جاذبيته، أقل ما يقال عن ابتسامته أنّها ساحرة، كانت أسنانه منضّدة بيضاء كأنّها حبات من اللؤلؤ، متناسقة بشكل جذاب مع وجهه العذب، نقطة الضعف في وجهه هي أنفه الكبير، إذا ما ركّز المرء فيه، بيد أنّه مجملا شاب حسن الصورة .

فيه شيء غير عاديّ، شيء يجعل قلبها يخفق خفقانا قويا، كلما رآته، شيء يُقلقها ويُحيرها، يُسعدّها ويضخّ الفرح إلى عينها، تستمدّ من صورته شجاعة و عزاءً، هكذا دون تفسير منطقيّ تمنطق به سلوكها الغريب.

هي واثقة أنّ معظم الفتيات في سنّها، ينجذبن إليه و يكنّ له الإعجاب، يبيّتن حلم الزواج به، لأنّه وسيم شجاع، لا يخاف أحدا ، مستهتر قويّ لا يخضع إلاّ لرأسه، غير أنّه وعلى نحو فجّ لا يبدو أنّه يحفل بأيّ امرأة باستثناء أمّه. المرأة التي يحبّها بجنون و التي لم تلد ولدا سواه، وفي مناسبات كأعياد ميلادها نشر صوراً رفقتها يضمّها، يرافق الصور بعبارات من العاطفة الحارة الأصبيلة إزاءها، فمثلا في عيد ميلادها المنصرم أين كانت تتلفّع بشال أرجواني تتدلى منه خيوط من نفس اللون كتب

_"إِذَا المرأة العظيمة التي أنجبتني، إِيَّهَا أُمِّي، المرأة التي لا تتخلى عن نظريتها في آتِي لا أزال طفلا صغيرا، تعاملني على هذا الأساس، المرأة التي يُرهبها ارتفاع حرارة جبيني كلما تلمّسته، والتي تهرع لطلب الطبيب، وجلي الأعشاب في الوعاء الذي تحتفظ به كذكرى غالية من جدّتي، المرأة التي تقف عند الباب تراقبني وأنا أغادر إلى عملي ولا تكثرث لبرودة الطقس أو حرارة الشمس، هي المصباح المتنقل الذي ينير حياتي بنوره، لا يكفي شكر الدنيا لإيفائها حقها الكامل، كل عام وأنت بخير، كل عام وانت أُمي الغالية، أَحَبُّكَ أَكْثَرَ مِنْ أَي شَيْءٍ " ولهذا تفكّر أئيل أنّه يعجز عن تحطيم قلب امرأة بسبب أنّ أمّه امرأة أيضا، لكنّه يجرؤ على

نحو باطني منتظم على تحطيم سمعة الحكومة بمقالة أو اثنتين شهريا.

لا يعدّ جنونا أن تحبه امرأة عادية لا يعرفها؛ كونه صحفياً مشهورا ناجحا إن ما أخفت عاطفتها في مكان مستتر وأبقت فمها صامتا وسرّها محصّنا، وليس جنونا أن تركض خلفه من يخدمها الحظ في معرفته، فلدى النساء ميل مميّز للوقوع في حبّ أمثاله من الرجال، كان رجلا فريدا متمردا حيّ الضمير نزيها غاية النزاهة، وباستثناء أنّها ستصبح زوجة رجل مطارّد من لعنات الحكومة مغضوبا عليه بسبب مواقفه من أعمالها المحبطة مما يرسّخ الانطباع القائم على قضائه فترة لا بأس بها في السجن ذات يوم، فإنّ كل امرأة تقريبا ترغب في الزّواج منه.

تعوزه عمليا صفة التحفظ وضبط يده في الكتابة، ثم التفكير مرتين قبل التهور، الصفات التي تجنّب الصحفيين زيارة السجن، وقلّما أحست أئيل براحة البال من تهوّه المفاجئ، وندر أن استنكف عن التحرش بأعصاب الحكومة، كان يلدعها ويلذعها بمقالات مفاجئة صادمة تتناول مصائبها بأسلوب ساخر أو جدّي خال من التهكم ويبدو أن طاقته الإبداعية لا توتّي ثمارها بعيدا عن موضوعه الأثير، فشل الحكومة الذريع. والتي يستعين بمصطلحات رزية لوصفها.

نشر مقالا محرّضا جريئا ذات مرة كتب فيه

_"عندما يصاب الإنسان بالجنون، يذهبون به إلى المصحّة العقلية، وعندما تُكتشف موهبة المهرج في إنسان ما، يضمونه إلى طاقم السيرك لإضحاك الناس وإبهاجهم، ليس غريبا فذلك مكانه الطبيعي، أما في بلدنا الأعجوبة، فإنّهم يمنحون هذه الأصناف من الناس منصب الوزير، الذي يحوّل منصبه بكل أريحية وضمير بارد إلى مصحّة عقلية أو سيركا مسلّيّا يستعرض أمامنا جنونه وغباءه بكل فخر ووقاحة، وبينما يضحك هو نبيكي نحن في الصميم، إلهي، كم نبيكي، وكلما أثبت جدارته كمجنون ومهرج حصل على ترقية، هكذا تسير الأمور في هذه البقعة الجغرافية الراعية الرسميّة ل(نستمر برحمة الله فقط)"

وكتب مقالة أخرى لا تقل جرأة عن سابقتها

ـ "سعادة الوزير، هل فتحت مصنعاً لصنع السراويل الملوّنة؟، هل تكدّست؟ أتقوم بدعاية لتصريف سراويلك؟ إنك تصنع منا مهزلة عالمية بينما تتجولّ بها في الأسواق، ليس من اللائق حتى النوم بها، إن كنت تجهل، فنحن بالأساس و بفضل جهودك المخلصة نكاد نُصنّف عالماً خامساً، أرجوك ارتدِ سراويل مناسبة لمنصبك على الأقل، لأنك تفضحننا"

أما الانتخابات فإنّها المناسبة السعيدة كما يسعده وصفها هازناً، التي توزّع فيها الابتسامات العريضة وتظهر فيها النواجد الصفراء وتوزّع فيها كذلك علب العصير، و قطع الخبز المحشوة بالسّمك المعلّب، و تتناثر فيها دموع التماسيح، و تكثر فيها الوعود المصاحبة للتصفيق والتهليل، شهبها برجل مروغ يخطب فتاة، عندما يتمّ الزّواج يثبت لها عملياً بكل ما يستطيع من جهد ووقاحة أنه رجل مخادع غشّاش، و أين الوعود؟، تبخرت يا حبيبتى.

كان الاستهتار وطابع السخرية جزءاً لا يتجزأ من سحره، بل يكاد المرء يوفّق إلى الإقرار أنّها المصدر المثالي لكونه محبوباً ذائع الصيت ذا شعبية واسعة، و لم تكن إلا الحكومة و طاقتها الفاشل كفرقة كاملة من الخائبين تنال الحصّة الأوفر من تشدّقه وابتداع الفكاهات حولها. يتحلّى بذوق رفيع في انتقاء الملابس و ليس إلا اللون الأسود ينافس الأزرق الفاتح في إظهاره أكثر جاذبية ووسامة، إنهما بالإضافة إلى الرمادي ألوانه الأثيرة.

تجهل أثيل كيف حدثت كل هذه الأشياء معها، أشياء تطلق عليها النساء لو اطلعت عليها سخافة خرقاء، و لذلك دستّها في قلبها، و لم تطلع أحداً عليها و بالكاد تفضحها إشراقاً عينياً و احمرار وجنتها الخفيف إذا ما كان مدار الحديث، و بالكاد تبدي عن استيائها إذا ما نعتته إحدى النساء بالصعلوك، إحدى النساء المتملقات للحكومة و أبرزهن جميلة زوجة صبري الأصلع المتيمّ بالمناصب و الانتخابات و الذي لا يمانع البكاء للظفر بأصوات الشعب.

إن موقفهم من قصّة حبّها لا تختلف بشذوذها عن موقفهم إزاء قصة حب بين فتاة فقيرة معدمة وأمير، أو اثنين من طائفتين متخاصمتين يربط بينهما قصص الثأر و الانتقام فحسب، أو قصص الحب المستحيلة في الروايات الخرافية الأسطورية.

إنها تكنّ الإعجاب لرجل لم تلتقه يوماً، رجل محبوب ينتهي إلى نصف الكوكب الآخر كما يُسعد سميحة القول، إنّ أول تعليق سيوجّه لها إذا ما عرف أحد بمشاعرها "هل جننت يا أثيل، هل فقدت عقلك تحبين صحفياً مشهوراً لا يعرف أنّك موجودة في الدنيا".

رجل أول مرة رآته هزّتها عاطفة غريبة استقبلها عقلها على أنّها نزوة إعجاب عابرة تماماً كنزلة برد قصيرة ستذهب لحالها، و فيما بعد أدركت باستغراب أنّها متعلقة به، فلم تفوّت على

نفسها مرة سماع صوته في الراديو، وهو يحلل ويجادل من أجل قضايا الأمة، أما مقالنا الأسبوع؛ فهي تنتظرهما بفارغ صبر، و راحت كلما نشر صورة له على الجريدة تجد متعة في النظر إلى عينيه البنيّتين، وملامح وجهه الوقورة التي إن عكست شيء فإنّها تعكس نبلا وتسامحا، أما ابتسامته فإنّ الموت في سبيلها استشهاد خالد.

كما هو معهود، غزت الحيرة قلبها؛ لقدرة مقالاته على تملكها كما يملك الغموض أغوار الأرض، تضاهي قدرته على إسعادها مقدرة الطيور على التحليق بخفة، لأول مرة وبسبب ميرنا لم تستطع أن تلمم شتاتها وتسكن رعبها فالمصيبة أصعب من الفرار منها والتنگر لها. كانت ضحكته قبل الليلة تسرق من قلبها هدوءه، ونظرته تخطف من عقلها سلامه، وكأنّه يفهم ما يدور بخلدّها لكأنّه يقرأ أفكارها دافعا الحزن عنها.

وفي لحظات اندفاع عابرة متكرّرة، كانت تستهويها خاطرة صلفة مناورة اتّزأها المنيع جارفة إيّاه من المنطق الرفيع إلى فوضى التصرف الصباني، كانت هذه الخاطرة تخالف تماما طبيعتها الهادئة المفعمّة بسحر الرصانة الماثلة أبدا فيها، أن تبعث له برسالة، لأنه يختم المقالة دوما بتصريح مقتضب" من يحتاجني ما عليه إلا مراسلتي أنا بالخدمة دائما "و يدوّن عنوان بريده الإلكتروني.

وبلمح البصر تطرد الفكرة، منتقدة سلوكها: ماخطبك يا أثيل؟ إن هذه الرغبة تملكها من حين لآخر كشهاب خاطف، لقد كان هذا الحبّ المستحيل نعيمها و شقاءها، علّمها و دواءها، نارها وجنتها، وكان ممّا يدعو إلى السخرية أنّه لايعطيها إلا بقدر ضنين مما يسرق منها، كأن تضاعف لك الحكومة راتبك ثم تلهب أسعار السلع، لو أنّها لم تكن متواضعة راضية لأدركت أنّها تخسر دائما، لقد فقدت الحق في الزواج من أي رجل، وليس هو صالحا إلا لتحبّه سرا ؛ بل ومناسب كذلك لهذه المهمة، إذا ما كانت قدرا محتوما ؛لأنه كان بعيدا عنها بعد القمر و لن يراها ليكتشف مشاعرها ويسخر منها.

أجل، إنّها لن تتزوج بأيّ حال، و لن يضيرها أن تحبّه ما تبقى من عمرها، تحبه حبّا نقيّا معطرًا بإخلاصها، إن كان الحبّ يعني نبضا خفّاقا، تفكييرا مطرّدا، عيونا ساطعة، ابتساما دافئة، جدلا منطلقا و اهتماما بالغا، تحبّه دون أن تتعشّم نيله أو تطفو إلى السطح بدعة الركض خلفه، ولو أنّها كانت في وضع مختلف لما تجرأت على غير إيداع حبه طيّ الكتمان، فهو رجل معروف مرموق، ينتمي إلى طبقة اجتماعية غير طبقها، ترعرع في أسرة مترفة تختلف عن أسرتها الفقيرة، و أنّي لها أن تصل إليه.

إنّ عدم اعترافها بالحقيقة أمام الجميع لا يعني أن ترفض الاعتراف بها أمام ذاتها التي

يصعب الكذب عليها "إنّما تحبّه و مولعة به " ولو أنّه يطلب حياتها ذات يوم لهرعت تفتديه بها. راحت العبارات الكليمة التي نطقت بها شقيقتها تجدد نفسها و تبثّ الانفعال الجزع في روحها بحيث هوت صورته في حفرة عميقة، ستخاف الليلة، و غدا، و كل أيام حياتها المتبقية. لم تقصّ الصورة لتضمّمها إلى باقي الصور كالعادة، التي تحتفظ بها في صندوق مصنوع من خشب الورد و الذي تتعمّد إخفائه في زاوية غير مكشوفة تحت رزمة من الثياب، ولعلمها أنّ أمها لا تميل إلى عادة العبث في حاجيات بناتها أثناء غيابهم عن المنزل، لم يساورها القلق الناجم عن أسئلة مباغتة حازمة عن الأسباب الكامنة خلف الاحتفاظ بصور الشاب.

الفصل الثالث

فتحت أثيلُ عينها في الصباح الموالي متثابرة؛ إذ لم تتمكن من النوم إلا ساعتين منفصلتين. كانت تشعر بتعب مَرَضِيٍّ هادِرٍ ، و كان أول ما تقدّم إلى مخيلتها هو حديثها الكاسف الشبيه بالزوبعة العاتية مع أختها في غرفة أمهما، انزلت ألبا للتفكير فيه فندبت عيناها ووخزها فجأة القلق وتوتر الأعصاب واعتمت نفسها بسبب واجب لقاها على طاولة الفطور، شعرت ومعدتها تتقلب أنها غير جاهزة لذلك، فهذا يتطلب مجهودا وشجاعة كبيرين وهي لا تملكهما، الآن وقد صارحتها وأراحت نفسها المثقلة لن تمنع النظر إليها بامتعاض قاتم وسخط صريح بعد أن كان سخطا ملفوفا بالتلميح العابس والنظرات الباردة البكماء "الله أعلم كم مضى على معرفتها" تساءلت باكتئاب "فهي لا شك تكرهني منذ ذاك الحين، لم يزد علمها إلا من جنونها المتطرف"

أحيانا تشعر بالإثم لاعتقادها بكرهية شقيقتها، ليس الأمر كذلك، هي تحبها بلا ريب، ولكن طباعها المعتوهة ونزعها القاسية نوعا ما تقودها والآخرين إلى إساءة فهم طبيعتها المتهور الفاتر. يستحيل أن تكره الأخت أختها وهما تحملان نفس الدم، وهي لم تكتم سرّها عن والدتها إلا لكونها تكن لها شيء من الأحاسيس الصادقة. "إنها تثور بسرعة البرق، وهي أيضا متقلبة المزاج ولكنها مطلقا ليست شريرة".

ما أقسى ما كانت الليلة الفائتة، وما أشد ما ألمتها كلماتها، وما أنكى بالذي ذكرتها به، وفي الأيام القادمة ربما بعد أسبوعين أو ثلاث ستتحين فرصة مناسبة وتنفرد بها في حديث ودي وستعمل على كسب مغفرتها، وربما تأييدها لذلك الذي أقدمت عليه شارحة لها الأهوال التي تجرعتها، والمحن التي مرّت على رأسها، لكن الظروف الراهنة لا تبعث في نفسها الرغبة، لذلك حينما لو ترجىء المسألة إلى أن تهدأ الفورة الثائرة.

لو كانت مكانها لأختلفت لها الأعذار، ولما نصبت نفسها قاضيا عليها، ما الذي كان يفترض بها فعله وهي على تلك الحال من انعدام الحيلة. لقد نالت نصيبها من الدموع والعذاب، وذبلت بجانب أجساد رجال قذرين ثم واصلت حياتها بعبء ثقيل هدّ كتفها الواهنتين، وما خلدت روحها إلى الطمأنينة إلا عندما كفت عن مزاولة الرذيلة وهاهي الآن وبعد سنوات تتفاجأ بإنسان عزيز عليها من دمها ولحمها يمزق دثار ماضيها.

إنّ ميرنا تحب الأطفال، ولا شك أنّها متحمسة لترزق طفلا، كم سيكون رائعا أن تحظى شقيقتها بأطفال، من المؤكّد أنّها ستعتبرهم أطفالها وستشاركها العناية بهم، فهي معروف

حالتها، منفية عن الحبّ، محرومة من حياة الأطفال، إلى ذلك اليوم ليس سهلاً أن يلين قلب أختها، وبمجرد أن تظفر بولد ستتخلّى عن حقدّها أتّجاهها، هذا الحقد الذي تبيّن أن له مسوّغ كاسح.

اتّجهت عيناها نحو حزم أشعة الشمس الذهبية المناسبة من خلال النافذة لتحديد الوقت بالتقريب، كان المنبّه المؤقت على الساعة السابعة لا يزال صامتا، ولم يعلن بعد عن وقت مغادرتها السرير، ورغم ذلك لم تجد طائلا من الاستمرار مستلقيةً على أحد جانبيها طالما ليس بوسعها العودة إلى النوم مجددا بين الفينة والأخرى سيماً صوته القاصف الغرفة الساكنة فأنهضت نفسها وخرجت منه بخفة . وخلال دقيقة شرّعت مصراعي النافذة التي تخفيها ستائر بيضاء ثم استنشقت هواء الصباح العليل، و اتكأت بمرفقيها على إطار النافذة، كان جوا ناعما رائقا والشمس أخذت تزحف على الجدران لتصبغها، فأسرعت تلقن نفسها شعارها المنعش في الحياة "ستشرق الشمس من جديد لا بد لها أن تشرق " ، هاهي صيحات فتاتي سميحة الندية اللتين تقابل غرفتهما، غرفتها الضيقة الأنيقة تتناهى إلى مسامعها كأنهما تشاركانها الغرفة ذاتها، كانتا جهورتَي الصوت كأتمهما، تتمتعان بروح مشاكسة مرحة كروحها، تحسنان التهريج مثلها، تثيران الشجارات دوما فيما بينهما.

- "ماما، إنّها تفسد تسريحة شعري " صاحت البنت الصغرى سالي مزعجة بصوت يصل إلى الشارع المجاور" سأتأخّر الآن وتضحك علي صديقاتي، منذ الصباح وأنا أرّبّه، ماما اطلبي إليها أن تدعني وشأني "

- " لا تكذبي " احتجّت ربحان البنت الكبرى " لم ألمسك "

- "أقسم أنني سأنتزع كل شعرة من جلد رأسيكما إن لم تكفّا عن الشجار" صاحت سميحة بعصبية "تتصرّفان كطفلتين صغيرتين رغم أنكما صبيتان راشدتان، عقليكما كعقل الماعز، عندما ترى حزمة من الأعشاب... اخرسا فورا "

بعد قليل رنّ المنبّه مدويا كأنه قنبلة واستمريرنّ ولم تنتبه، وهي شاردة الذهن، مفكّرة، وما لبثت أن أخرجته عندما أزعجها صوته. و أسرعت تغسل وجهها، وترتدي ثيابها، وتمشّط شعرها، وفضلت استخدام معجون الأسنان الجديد لغسل أسنانها استعدادا للذهاب إلى العمل، اليوم بالذات تخطّط للحضور قبل الجميع حتى قبل إبراهيم نفسه، اليوم لا تودّ إطالة التحلّق حول طاولة الفطور تحاشيا لنظرات ميرنا التي لا شك أنّها سبقتها إليها، تستطيع التدرّع بالحجج المقنعة بغية الخروج من البيت بوقت مبكّر. أغلقت باب غرفتها خلفها ثم مشت باتّجاه السلم. عندما حازت غرفة أختها لمحت الباب مشقوقا، تردّدت ثم توقّفت لتلقي نظرة

سريعة أملة كضرب من الجنون أن تكون نائرتها قد تنازلت وهدأت.

من شقّ الباب لمحتها تقف أمام المرأة الطويلة، تستعرض جسدها بعدم الرضا تتفحصه بعين الناقد ثم تتأمل وجهها ممزّرة يديها على نقاط معينة فيه و تشدّه في فواصل قصيرة لتحاول تحسين مظهره، وبدا جلياً أنّها برمة متحسّرة لافتقارها إلى الجمال الخارجي .

"هناك علة صريحة، هذه البقع الداكنة تفسد مظهر وجهي،"تمتت ميرنا على نحو غير مفهوم وملامحها تدلّ على تدمرها فأنفها الذي ضغطت بأصابعها عليه نائت كبير،وعيناها جاحظتان، ووجهها النحيل قلبي الشكل يخلو من أيّ جاذبية، كما أنّ شعرها الأجدع منتصب كالأشواك، ولن تنجح المساحيق إلا في جعلها تبدو أكثر سوءاً عن ذي قبل. ليست ثدياها أفضل حالا فهما ضامران بشكل زريّ مسطّحتان كبطنها، مضفيان عليها هيئة سقيمة وحاولت جاهدة إبرازهما باستقامة مفرطة على أنّهما لم يتقدما إلى الأمام إلّا كما تتقدّم السلحفاة البطيئة.

استمرت دقيقتين مدممة تتطلّع إلى المرأة، جرّاء عدم ملاحظتها أثيل تراقبها من شقّ الباب. وفي اللحظة التي انتهت فيها،اندفعت بعصبية غضبي يتطاير الشر من عينيها ، وقد كرت على أسنانها وهي تصفق الباب في وجهها، ثم سمعت أثيل المفتاح يُدور في القفل، فاستنجت أنّها تغلقه بالمفتاح ولم تجرب فتحه ، إذا فهي لا تزال نائرة ولم تبرد نارها، في الواقع فكّرت أثيل أنّها وبعد تحرير كاهلها من عبء التزامها الصمت لن تفشل مطلقاً في التعبير بحرية عن ما يختلج صدرها من بغض فاحم بعد الآن.

في المطبخ، كانت أمها تتولّى الإشراف بشخصها المدقّق، كأنّها تدقّق حسابات شركة رائدة، تشرف على إفطار ياسمين التي تفتقد الشهية، كان عود هذه الفتاة الصغيرة هزيلا، ووجهها مكدود منهوك،مما عزّز شكوك مليكة في إمكانية مرضها ثانية،ماذا لو توعّكت صحتها، ونامت على سرير المستشفى شهرا آخر؟!،لا طاقة لها بتحمّل وعكة صحيّة كذلك.

_ "إنّك أبدا لست على طبيعتك،أخشى أن تكون أعراض المرض السابق.جميع الفتيات في سنك يتناولن كميات كبيرة من الطعام، وعودهن متين متماسك "صاحت الأم في موجة من التأنيب المعتاد، إنّ عادة القلق الدائم لأجل كل شيء تثير روح الفتاة الصغيرة وتجعلها تنزعج بصورة واضحة، إنّها تريد أن تبقى نحيفة،فالأجسام البدينة لا تغري خيالها مطلقاً.

_ "أما أنت "استأنفت الأم المحاضرة الصباحية "فإنّ رِيحا خفيفة يمكنها حملك بسهولة، ستأكلين المزيد حتى وإن اضطرّرت إلى حشو فمك بالطعام بالقوة، ألا تتعظين من تدهور صحّتك المرة الفائتة "

_ "أمي "أجابت ياسمين باستياء متكاثف "لست أفهم سبب إرغامك لي على تناول الطعام،إنّ

جسمي رشيق جميل، أفضل أن تتبني هذا الأسلوب مع ميرنا، فهي تكاد تقضي من شدة الهزال "و انفجرت في قهقهة طويلة مرتفعة، دفعت الأمّ إلى ضرب مؤخرة رأسها

_ "إن ما سمعتك تسخرين من أختك مجدداً،، حسنا لن أخبرك ماذا يمكن أن أفعل بك"

بعد أن قضمت كارهة قطعة خبز أخرى صغيرة، وتناولت كأساً من الحليب مرغمة. همّت باسمين بترك الطاولة، على أن الأمّ لم تقنع بهذا الحدّ القليل، إنّ ابنتها تسير نحو النحافة المرضيّة، ولطالما اقتنعت سرا أنّ ياسمين تعاني من مشاكل في الهضم، حيث أنّها لا تزرد الطعام بالشكل المطلوب المناسب لفتاة في سنّها، وبالكاد تتناول قدراً مساوياً على وجبة الغداء والعشاء، في حين تنعم الفتيات الأخريات بشهية تحاكي شهية النمر المحبوسة في قفص حديدي. ولأنهنّ كذلك كنّ يتمتّعن بصحّة جيّدة، قوام بديع، وجه مشرق عذب، وبشرة نضرة مؤرّدة، وكانت الأمّ تولي قوام ابنتها الصغرى نصيباً كبيراً من قلقها هذه الأيام، وفيما هي تشيّعها بطرفها، وهي ترقص تقريبا متوجّهة نحو الغرفة، اكتظّ لسانها بذات الجملة التي تكرّر ترديدها كل صباح "ليس من الصواب أن تأكل فتاة في مثل سنك هذا القدر فقط، عليك بذل جهد أكبر في استهلاك الطعام وإلا ستتحولين إلى شبح يا حبيبتي"

فتلجأ ياسمين إلى جواب موجز درجت على ترديده هي الأخرى كيبغاء "سأفعل بالتأكيد" ثم ترسل قبلة في الهواء، وفيما هي ترتقي السلم مسرعة اصطدمت بأثيل. وعندما تبيّنت أنّها هي ألقت عليها تحية الصباح ثم لثمت وجنتها عطقاً وحناناً .

_ " لكن ما الذي تريدني بهذه الفتنة كلّها؟ تبدين رائعة يا شقيقتي، كعادتك " قالت بصوت مرتفع ثم مدّت لسانها اتّجاه السلم رغبةً منها بإغاظة ميرنا، كان وجه أثيل ينطق بالحزن والإرهاك، وكانت تفتقد الحرارة في صوتها الكئيب

_ "ياسمين كفيّ عن هذا التصرف الأخرق" وبّختها أثيل بهدوء خامل وفتور خامد كأنّها تبذل جهداً كبيراً لتصدر الكلمات، كان بوّدها أن تحتجز نفسها في غرفتها ولا تقابل مخلوق، بيد أنّ هذا يعني طردها من عملها، وليس بمقدورها المجازفة وخسارة عمل حصلت عليه بصعوبة.

_ " لقد سمعت حوارها بالأمس مع أمي، كانت فظة جداً، لا أحد يحبّها؛ لأنّها أنانية ومتعجرفة "

_ "لا تتفوّهي بهذا الكلام عنها مرة أخرى" زجرتها بفتور ونبرتها خفيضة مرهقة "هي أكبر منك ويجدر بك احترامها، ثم لا تزالين طفلة صغيرة لتشاركي في هذه القضايا "

_ "لست طفلة، لقد غدوت كبيرة، أنا في السادسة عشر" قالت ياسمين فخورة بسنّها الكبير، محاولة تضخيم جسدها لتثبت أنّها غدت كبيرة

_"أثبتي أنك لست طفلة إذا وتصرفي تصرفاً معقولاً" وابتسمت بعناء
_"حسناً، سأتصرف كصبية كبيرة من الآن فصاعداً، ولكن يصعب علي تمالك نفسي عندما
أراها تلقي اللوم عليك في كل شيء، طاب يومك يا شقيقتي" وبسرعة طبعت قبلة أخرى على
وجنتها ثم أكملت سيرها تغني أغنيها اللطيفة.

عرجت أثيل على المطبخ و ساهمت بدورها في تنغيص مزاج أمها، فقد أعلنت بنفور عن
عدم رغبتها في تناول الفطور تجنبا لمقابلة غير سارة إذا ما نزلت ميرنا الآن و جلست قبالتها،
بصعوبة منعت الأم نفسها عن إبداء سخطها وسرعان ما رزمت بعض الأطعمة مصرة عليها
لأخذها ثم رافقتها الى الباب، تستفسر منها عن إمكانية زيارة منزل إحدى العجائز بعد انتهاء يوم
العمل، فأجابت بالنفي، فليست نفسيتمها بالمرحبة بأي أحاديث.

كان البيت ذو الواجهة الخضراء و النوافذ المرعبة بمساحة صغيرة منتصبا في منتصف
الشارع الطويل الجانبي الضيق المسى شارع الأرامل، فمعظم البيوت تفتقر وجود رب البيت
الذي خطفه الموت بسبب حادث أو مرض، ما عدا صبري الأصلع و نعمان متشائم الوجه و فواز
عصبي المزاج. الشارع الذي يتميز بالهدوء معظم الوقت، باستثناء الأحاديث القصيرة التي تحرص
النسوة الفضوليات على تبادلها من الشرفات أو على عتبات الأبواب، ووضوء الأطفال
الخفيفة التي يصدرونها كل صباح أثناء اللعب والشجارات الصبانية.

البيت الذي سلم من المشاركة بين أكثر من واحد، كان والدها المتوفى قد ورثه عن والده،
ولن تخيب الملاحظة الحصيفة في وصفه بالمهترئ متداعي الجدران لا يصلح في أي زمن لا للبيع
أو الرهن، يقابله منزل سميحة التي تعيش برفقة ابنتها بعد وفاة زوجها منذ ثلاث سنين،
فترملت وهي في سن صغير على حد قولها، لا يستطيع المرء أن ينظر إليها إلا و يتبصر نزعتها
الهادرة في ميلها للشجار، و يرى بوضوح حجاب السداجة المسدل على وجهها.

لم تتحل يوما بالصبر الكافي لتكف عن النحيب المتواصل حول أنها تركت شابة صغيرة، وأنه
لا ينبغي أن يطلق عليها اسم أرملة، فالأرامل يجب أن يتجاوز سنهن السبعين سنة، وما أكثر ما
تتطرق إلى عدد العرسان الذين تتجاهلهم من أجل ابنتها مبدية نوعا من التأقف المشبوب، ولا
أقل من الإشارة إلى أن الناس يعتقدون أنها تبدو كشقيقة كبرى لابنتها لكن مطلقا ليس كأم
لها، ولولا أنها ثرثرة بشكل مأساوي كنه منساب تنطلق من لسانها كلمات مقذعة، تحب إثارة
المشاكل؛ لاعتبرها المرء سيدة كاملة رائعة.

نشأت بينها وبين أثيل صداقة أبدة، أشاعت دهشة الناس واستغرابهم، صببية صغيرة في
السادسة والعشرين هادئة الطباع راجحة العقل، وسيدة في السابعة والأربعين طائشة تصرف

كمراهقة بل أسوأ، فماذا يجمعهما إذا لتتألفا كأقرب صديقتين؟، ولم تقلق أثيل من مواقف الناس إزاء صداقتهما مع تبادل الأدوار فيفترض أن تكون سميحة برزانة أثيل، وأثيل تكون بطيش سميحة؛ فهي قد نجحت في التعامل مع طيشها باحتراف ساحق، بينما فشل معظم الجيران الذين ظلّ فهمهم لهذه الكيمياء لغزا محيّرا، كانتا مولعتين ببعضهما، وانجذبتا لبعضهما من أول لقاء مثل انجذاب شوارد السالب و الموجب، تسمح أثيل لنفسها بالتهوّر معها فيما يسيى في قاموس السيّدة بروح المغامرة و تستمتع بذلك رغم اعتراضها على أفكارها، ترافقها في جولاتها إلى الأماكن التي تعتبر مناسبة أحيانا، شنيعة في أحيان أخرى كالمظاهرات، التجمّعات غير المرخّصة، و مراكز مختلفة. و كانت أثيل تتساءل مجفلة عن ردّ فعل أمّها إذ ما عرفت من طريق صدفة سيئة طبيعة تلك الأماكن، كانت مليكة تسمح على مضض منها لسميحة باصطحاب ابنتها إلى وجهات مقرّرة مجهولة أو معروفة، يمنعها ولاؤها الأصيل لمعروف قديم جدا يصعب التنكّر له.

لا تمنع سميحة نفسها ولا تخجل إطلاقا من حماقاتها السوقية التافهة، التي يُعزى ارتكابها، طموحها الشموس في أن تصبح سيّدة أعمال وصاحبة أموال، وإن كان المرء يستنتج أنّها تفتخر بها في بعض الأحيان؛ فهو ليس مجنوناً أو مخطئاً، لكن وللصراحة رغم عيوبها المتعدّدة وثقافتها الرديئة، تنطق المدن والشخصيات على نحو مبتذل يدعو للشلل إلا أنّها سيّدة طيّبة، حلوة المعشر، تشهد لها الشدائد والمصائب قبل المسرّات والأفراح.

بدت مريعة (وهي تقف على بعد خطوات قبل منزل صبري الذي يفصلها عن بيته ثلاث منازل صغيرة، أحدها انتقل أصحابه إلى مدينة مجاورة، تجري عملية حسابية ذهنية مستعينة بأصابعها النحيلّة الطويلة) بفضل شعرها القصير المشعّث المصبوغ حديثا باللون الأصفر الشبيه بلون سيارة الأجرة، وخصلة منه مسدلة على جانب عينها، ما أسرع ما غيرت لونه!!!، لقد كان في الأسبوع الفارط أحمر قان، ولم يتناغم مطلقا مع بشرتها الشاحبة، و صبغت شفقتها الرقيقتين بأحمر شفاه صارخ. تزفر أثيل عادة زفير الحيرة و الاضطراب، عندما تتحقّق هذه الألوان الفاقعة، أما اليوم؛ فلن تبالي ولو لمحتما بدون ثياب .

كان وجهها الساذج الجري يبدو مستطيلا من النحول، منتوفة الحاجبين، صوتها جهوري، ضحكها مجلجل، أنفها حاد و طويل، على عكس يديها الجافتين بفعل استعمال الليمون عليهما للاحتفاظ بهما ناصعتي البياض، بدت بشرة وجهها براقّة وزيتية، ترتدي ثوبا مشجّرا من قماش محلي رخيص، حاملّة في يدها حقيبة صغيرة، واضعة أقراطا ضخمة تشبه الأجراس ينبعث منها صوت مزعج كلما قامت بحركة، أو هزت رأسها للقبول أو الرفض، من المؤسف أنّها كثيرة

الحركة، وكانت تعلق حول رقبته قلادة تظهر للعيان مشكّلة من أنياب حيوان مفترس، لا يستطيع الرائي أن يبصرها دون أن يتشكّل في خياله مشهدٌ كامل لإنسان إفريقي يرقص حول النار مؤدياً طقوساً بدائية لتحضير وجبة طعام من إنسان حيّ، تشارك أثيل رأي جيرانها بأنه بشع، لا سيّما عندما تتبجّح سميحة بوضعه لرد الحسد.

"ليتها تعرف أنّها تبدو مفرّعة، لا يجرؤ أحد على إخبارها عدا السيدة جميلة، وهي تعتقد واهمة أنّها تغار منها و لهذا لن تصدق كلمة إن ما هي غيرتها" هجست أثيل بفتور، ثم تنهدت برمة "ليس اليوم، بوسعي التحدث معها غدا، أو في الأسبوع المقبل، أو أي يوم آخر إلا اليوم"، لا مهرب منها مهما تذرّعت بالحجج، تبدو عازمة على محادثتها، لا سيّما أن لقاءهما في الفترة الأخيرة كانت قصيرة؛ بسبب انشغال أثيل بالعمل و بمرض ياسمين، وندر أن اجتمعت و إياها في مهممات سرّية من النوع الذي يزجج مليكة.

كانت عيناها الصغيرتان محاطتين بهالة من الزرقة الضاربة للسواد. يعتقد المرء من بعيد أنّها كدمات ناجمة عن تعرّضها للضرب المبرح، ولكنّها في الواقع مساحيق، و غارت عيناها في دائرتين من السواد فأضحت مخيفة بشكل استثنائي، ولم تنعم بأكثر من بشرة بيضاء ناعمة كالحليب خالية من الشوائب والبقع، ستحتفل الشهر القادم بعيد ميلادها السابع والأربعين، بيد أنّها لا تقرّ إلا بأربعين سنة فقط.

تقدّمت أثيل نحوها، متمنية لو تختار سميحة أوقاتا أخرى للظهور، كيلا تؤخرها عن عملها، لأن العجوز إبراهيم يكره عادة التأخير عن العمل، هي لا تستطيع بأي حال جعل نفسها شفافة حيث لن تلمحها. كانت لا تزال واقفة في مكانها تجري ذاك الحساب الصعب الدقيق في رأسها، ولم يتجاوز تعليمها مرحلة متقدّمة لتحصل على نتيجة حسابية سريعة، علاوة على ذلك كان ذكاؤها محدودا وثقافتها تجعل المرء يهتز من الضحك.

_ "سيدة سميحة، صباح الخير،،، "حيّتها بابتسامة ضعيفة سرعان ما انطفأت لأنّ السيّدة قاطعتها بحركة من يدها طالبة منها أن تبقى مكانها، وتلتزم الهدوء، كيلا تشتت ذهنها عن إجراءات الحسابي بعد أن اقتربت من النتيجة الحاسمة، واستمرت دقيقة تحرك شففتها الرفيعتين المصبوغتين ثم رفعت صوتها متذمّرة تختلج فمها ابتسامة جافّة.

_ "أثيل، طلبت إليك مرارا التوقّف عن مناداتي بالسيّدة، حبيبي نادني سامو مثلما يناديني الجميع" أضافت بأسلوب تشوبه الخيلاء، مبعدهً خصلة شعرها الصفراء عن عيناها ثم ضمّتها إلى باقي شعرها خلف أذنها "أو ساما، أو أي اسم بعيد عن كلمة سيّدة الرسميّة، تشعريني كما لو أنّنا غريبتان، أو، لا، دعيني لا أتعشّم كثيرا، أعرف أدبك الجامح، كلمة

سيّدة تبقى أفضل من خالتي أو عمتي، أعرفك يا أثيل، إنّ وداعتك تحملك على التلقظ بأي لقب تظنين أنّه يعزّز تربيتك الخالصة "ثم زوت بين حاجبها مازحة

"سمعتك ذاك اليوم تنادين السيدة عديلة بخالتي، لو كنت مكانها ربما يغى علي أو أتقياً في الطريق، كم هذا مربع" وزفرت

"لن أناديك خالتي أبداً" قالت أثيل بأدب بينما انطوت سحتها على خمول وسكون لم تلاحظه سميحة" ولكن لا أجرؤ على مناداتك،،،، أيضاً، أحسّ أنني أقلل من احترامك "

"أرجوك قللي من احترامي يا عزيزتي، لا أمانع البتة "ضحكت بمرح ضحكة مدوية سرعان ما قطعها "و الآن هلي أخبريني كم النتيجة عندما نسقم تسعة و أربعين على سبعة، بغلتاي

النعستان لا تفلحان في شيء، لقد قصمت هذه العملية رأسي "

"سبعة" أجابت على الفور مما جعل مقلتا السيّدة تتسعان في حركة تعجبية، ما أشدّ نهاه هذه الفتاة، إنّ ابنتها من الممكن أن تقضيا النهار بطوله لتحصلا هذه النتيجة السريعة مع أنها عملية سهلة للغاية.

"قبل أن أكشف لك عن السبب وراء هذا الحساب، أعطني رأيك بصراحة في لون شعري "مرّرت يدها على شعرها متلقّنة يسارا و يمينا، وافترش وجهها زهو يدعو إلى البؤس.

"إنّه رائع "كذبت أثيل ثم ندمت

كان بودّها أن تكون صادقة وتصفه بالمربع لولا نظرة السيّدة الطروبة، هي لا تبدو أبداً في كامل عقلها، وليس أفضل من نعتها بالمجنونة إذا ما فقدت عدوتها جميلة ذوقها الرفيع في الاحتفاظ ببرودة أعصابها.

"كنت أعرف أنّك ستقولين هذا يا عزيزتي الرائعة أثيل " ضربتها بمرح ضربة خفيفة على كتفها.

"و الآن جاء دوري لأخبرك كم هو جميل فستانك، إنّك أنيقة أيتها الفتاة الحلوة، لكن ابذلي مجهوداً لتغيّري لون شعرك، ستبدين رائعة باللون الأحمر "تحمّست قسّمت وجهها" أو اللون

البنّي الغامق، إن أردت الحقيقة، يلائمك أي لون و هكذا ستخلصين نفسك من هيئة الورعات التقيّات. حبيبتي إنّها مقدمة لما سأعلنه لك "

قفزت. يفرز وجهها سرورا جلياً و غباءً مشرقاً إنّ هذه الحماسة مدعاة للذعر، عندما تقفز سميحة فهذا يعني أنّ عقلها المجوّف وضع أنامله على فكرة استثمار جديدة. هي تدعي أنّها سيّدة أعمال ناجحة، وللأمانة الفجّة ليست إلا امرأة فاشلة في ميدان الأعمال، تعرّضت للنصب والاحتيال مرتين، و لم تكن إلا وفاة قريبها الثريّ منذ سنتين ونصف هي التي منحها الفرصة

لإخراج مواهبها المسعورة من جمجمة رأسها العاقل.

اخترقت المفاجأة رأس أثيل قبل أن تنطق بها السيِّدة "سأقوم باستثمار جديد"
_ "يا للفاجعة" هجست أثيل محبّطة، رافعة حاجبها موسّعة مقلتها، واجتاحت وجهها تعابير
التوتر بفعل الخطب الشاقّ، ألا تتعظ هذه المرأة!! وبحركة خاطفة مرّرت يدها على شعرها
الأسود كأنّها تريد إنقاذه من عيون السيدة، فيما طبعت على شفيتها نصف ابتسامة متكلفة
رغم حزنها، وبالكد استطاعت إخفاء ذهولها. وبينما كان ذهنها يسبح حائرا في طيات العبارة
الأخيرة، تأبّطت سميحة ذراعها ثم مشت بها خطوتين، كانت خطواتها وثيدة متناقلة.

"نعم، نعم، سأفتح صالون تجميل للنساء." شرحت بحماس، محرّكة يدها بحركات تتناغم
والفكرة المستجدة، كانت مغرمة بالمشاريع والاستثمار، أما استجابتها للخواطر المتعلقة
بالمسألة؛ فهي أسرع من استجابة غزال فارّ من أنياب أسد، إنّ خيالها لا يتواضع و ينزل إلى
الأرض البتّة، ولم تنجح نوبات الفشل الذريعة في إخضاعه، وكان حظّها من النجاح ضئيلا،
و غالبا ما اعتلت تلك النظرة الظافرة الحاملة المشعة عينها، وكأنّ فيها عملي نقود ذهبيّة
تشعان بدل مقلتين، وما إن تحدّثت عن المال حتى يضيء وجهها وتشرح أساريه.

"لم أفكر في اسمه بعد، أرجو أن تقترحي عليّ بعض الأفكار أنت أيضا، أنا بحاجة ماسّة إلى
إبداعك" و فجأة غيرت رأيها " لا، لا، لست بحاجة إليك، أنت فتاة تقليديّة وتربيتك
خالصة ومفرطة إلى حد تجعل المرء يخاف من نصائحك، إنّ المجون وقلة الحياء أحيانا
مفيدان" إن هذه السيدة تدفع المرء إلى التأكّد أنّها مجنونة حقّا

"ولكن" نطقت أثيل، عندما صممت سميحة لبرهة غارقة إلى أذنيها في أحلام النهار، كانت
عينها الصغيرتان غائرتين ضمن دائرتين سوداوين حالمتين، وسطع منهما وميض براق،
وانعكس خيالها الحالم على وجهها الشاحب فغدا وجهها أخرقا كوجوه الخرفان.

"لم يمض وقت طويل على آخر استثمار قمت به، وخسرت المال والقضية أيضا، الحمد لله
أنّ خسائك كانت قليلة ثم أنا لا أذكر أنّك نجحت بأي استثمار، أعتقد أنّه...، أقصد"
وبفعل النظرات الغائمة الموجّهة إليها تلثم لسانها، وأصبح من العصيّ عليها التفوه بالمزيد،
علاوة على عدم رغبتها في الكلام، وسرعان ما أفلتت السيدة ذراعها وقد تقرّحت معالم
وجهها

"لماذا تدكّرني يا أثيل؟؟" توقّفت عن الحركة وقالت حانقة عاقدة حاجبها بصورة مريكة
"لقد كنت فقيرة التجربة، لا أسوأ من امرأة تصارع وحدها في ميدان مكتنّ بالشياطين، إن
حقوق النساء تهوي إلى الحضيض إذا لم تستوعب بعد، وبما أنّك طرحت المسألة في هذا

الوقت بالذات.."

"لم أقصد تذكيرك "قاطعتها أثيل بلطف "إنّما أردت فقط أن تفكري ملياً، لا تتعجّلي أمرك"
_ "لا، يتعيّن عليّ التوضيح، ليس لأنّني بحاجة إلى ذلك، أنا لن أعصر رأسي حول أمور أعتقد
يقينا أنّها لا تستحق، ولكن يا أثيل ينبغي أن أفسّر لك أنت بالذات، لم أشأ إزعاجك لأن
ياسمين كانت مريضة، ولم أجد فرصة مناسبة وها قد أتت "علّقت سميحة ببرود
محتفظة بالسحنة المتجّهمة مثل البارود "اسمعي، لقد احتال عليّ ذاك الوغد، بعد أن
أمّنته على أموالي، ولأنّني كنت أثق في رجولته المزيفة لم أكثرث كثيراً بموضوع الوثائق، وفوق
هذا شهدت تلك الجامعة مساعدته ضدّي "

إن هذا يحسّن من مزاجها المعكّر، وتشعر بالراحة النفسية العظيمة، وهي تبرر قصص
خيبتها "و عندما زرت ذاك المحامي الوغد في مكتبه، وجدته دافنا رأسه الكبير في الأوراق،
وعندما انتصب على قدميه صعب عليّ تحديد إذ ما كانت البدلة تلبسه أو هو من يلبسها، كانت
كبيرة عليه جداً، وحذاؤه كان ثقيلاً إلى الحدّ الذي تظنّين فيه أنّه يحمل كرة كبيرة على ظهره
مثل طلّوس "

"تقصدين أطلّس" رمقتها أثيل بنظرة تدلّ على جهلها و ارتجف أحد حاجبيها إثر الجهل غير
المحدود الذي يعشعش في رأس السيّدة.

"لا يهم، الفكرة ذاتها، سأكمل سرد الوقائع، عليك أن لا تصدقي مطلقاً أي محام يا أثيل،
جميعهم دون استثناء لصوص، يعدونك بالنصر المحتمّ ثم في الأخير لا تظفّرين إلا
بالخسارة، حسناً أين توقفنا،ها"

تنقّست بعمق، أحست أثيل أنّها سحبتة من أعماق رثتها " كما سردت عليك، أقسم لك، راح
يذرع الغرفة بحركات أشبه بحركات عملاق ممسّداً ذقنه بيده المحمومة، وهكذا دوّنت في
عقلي أنّه محام متمرّس، وبعد أن درس قضيتي توقّف في مكانه وبحركة غريبة رفع رأسه
إلى السماء ثم هتف بصوت جهوريّ ملعلع كجندي مغوار و كأنّه يغنيّ أغاني المجد وحب
الوطن: أنا يا سيّدة سميحة، أنا من سينتقم لك من الأندال، أنا من سيعيد لك ححك، أنا.
وتنقّست الصعداء وطربت كما تطرب الغبيّات، وكدت أرقص لولا أن الحياء منعي، نعم
الحياء يا حبيبتي "

تفوهت بها بشيء من السكينة و السخرية بذاتها، مما أغرى أثيل على الضحك، فصدرت
عنها ضحكة صادقة حقيقيّة، قادمة من قلب منكسر، قلّما فشلت سميحة في تحسين مزاجها،
ثم استأنفت و وجهها يظفر بمسحة الأسى الجادّ " عندما ذهبنا إلى المحكمة، جاء غريبي النذل

يصحب معه حمامية مثيرة، كانت ساقاها المنحوتتان شديدا البياض مكشوفتين للعيان؛ لأنّها ترتدي ثوبا قصيرا، وشعرها ناعم وتضع مساحيق ناعمة أضفت عليها سحرا و جاذبية، وكل الرجال كانوا يحقدون إليها بأعين مخطوفة، وحتى الكلب الذي وگلته كان عاجزا عن رفع عينيه عنها رغم ضعف بصره، اكتشفت هذا متأخرة، انتبهي لم يكن غارقا في الأوراق؛ لأنّه متمرس، بل لأنّه لا يرى جيدا، ابن...." و بالكاد أكملت كلمتها حتى أغمضت أثيل عينها بقوة و صفقت فمها، وتخضّب وجهها بلون الخجل الفائق، ولما فتحتهما، تطلعت يمنة و يسرة لتتأكد من عدم وجود مستمع ثم ولولت كمنتحب

_ "أرجوك يا سيّدة سميحة لا تتفوّهي بهذه الألفاظ، إنّها مريعة، إذ ما سمعك أحد...،"

تأبّطت سميحة ذراعها من جديد وجرتّها من حيث توّد الوقوف قائلة بلهجة تتمّ عن عدم الاكتراث بالملاحظة الأخيرة

"عليك أن تقولي كلمة مقدّعة أحيانا، أنت لا تدرين كم يخفّف عنك من الغضب، إنّها تعبّر عن فورتك الداخليّة بأحسن صورة، وتخلّصك من طعم الأدب العالق في فمك الناعم، ولكن مطلقا لا تستهيني بروحك، وتفكّري بقولها أمام والدتك، فأنا لا أعرف كم ستعيشين بعدها، قد تُكسّر عظامك؛ فبي امرأة صعبة المراس...، لأنّ كفيّ عن مقاطعتي، أريد التنفيس عن غضبي. كل الذنب ذنبك لأنك ذكّرتني بذلك القطيع من الأوغاد. حسنا، كما اتّفق و رويت لك، جلب معه حمامية أذهلت عقول الجميع؛ مما اضطرّني إلى الاعتراف أنّها أجمل مني، نعم، لا تستغربي لقد كانت جميلة حقا، لو علمت بخطّته مسبقا للجأت إلى توكيل امرأة فاتنة مثلها، ولزعت عنها نصف ثيابها بصفة مغرية، وهكذا سيجنّ القاضي وحاشيته، وتتعارك الدجاجتان و تفوز الأكثر فتنة و تأثيرا، أما العدل ليرحمه الله كان طيّبا وابن عائلة محترمة، القاعدة تقول: لا ترشي القاضي، اجلبي له حمامية مثيرة"

أضافت عشوائيا بينما ضايقتها خصلة شعرها الصفراء فتوعّدتّها بالقصّ الكامل:

_ "انتبهي لقد تعمّد ذلك الوقح إقحام حمامية جميلة في المسألة، ولم يكن القاضي أحسن حالا، لقد أغرته في الحال و فتح فمه مثل كلب لهّاث وطفق الخرف يؤلف فصولا عن الطريقة التي سيحضنها بها، و يقبلها ويلمس بشرتها الناعمة، أما ذاك الجلف الذي وگلته للدفاع عني؛ فراح يتسكّع في القاعة مثل شيخ فاقد الذاكرة. كان يعدّل من موضع نظارته كل خمس ثوان، ويتصرّف بطريقة خرقاء، مما دفع القاضي إلى الاقتناع أنّي لست جديّة في قضيتي، وأضعف ذلك موقفني. ااه لو سمح القاضي لي بالكلام لدافعت عن نفسي وعن ذاك المحامي أيضا، كان ينبج باستمرار أمرا إياي بالتزام الصمت وإلا سيوجّه لي اتهامات

خطيرة بإهانة قاعة المحكمة وإهانة شخصه، والعقوبة تتمثل في ليلة كاملة في السجن. وما لبثت أن قامت تلك المحتالة المثيرة تختال برشاقة دافعةً تديها إلى الأمام، أقصد المحامية قامت تضرب أخماس لأسداس، لا أنكر، كانت تملك صدرا بارزا مشدودا منتصبا ليس كالسمكتين مزروعتي العمود الفقري اللتين أملكهما، وتمشي كعارضة أزياء محرّكة حاجبها لإثارة القاضي بحركاتها، تبتسم ابتسامة شقية، لقد كانت تمارس الإغراء عليه، ودعمتها مفاستها. لم يكن إطلاقا يتحلّى بالعقل الرزين ليفرّ بجلده من إغوائها، وقبل أن ينبح بالحكم، قال كلاما كثيرا لم أفهم منه فصلا واحدا، وأغلب الظن أنه كان يشتمني ويهدّد بطردي من القاعة "

تحولت نبرة صوتها إلى هازئة حانقة

"أما يا عزيزتي عندما يخاطب تلك اللعينة، فإنه يتحوّل إلى كائن وديع، وليس أفضل حالا من محاميّ العزيز الذي أصبح لديه قناعة جديدة أنني أكذب، بفعل السحر الذي رمته عليه تلك الماجنة، أتصدقين!! لقد غدا يتأتىء وعندما تنظر إليه ترتعش أوصاله ويفقد السيطرة على انفعالاته، وأقسم أنه كاد يتهمني بأسوأ التهم ويتحوّل للدفاع عن غريمي الوغد لولا خوفه من الفضيحة، تصوّري راح يستجوبني ليثبت علي التهمة، لما لا، وقد تلبّسته تلك الجنيّة. ااه لقد فضحني . ولكن، لا "

انبعثت من عينها نظرة متوعدة يشوبها بغض راعد "سأجعل ذلك الخروف يدفع الثمن، سألصق باسمه العار إلى الأبد، سأفضحه بين الناس وأقسم أنه لن ينال إنسانا يدافع عنه بعد الآن، سأصنع منه متسوّلًا. فيما بعد علمت أنه نام ذات مرة بقاعة المحكمة لعمله في الزراعة واستيقظ وهو يصبح الفلفل،،، الطماطم،،، وحكم على ثلاث من موكلية بالإعدام خلال السنوات الثلاث الأخيرة، كان عليّ أن أوكل المحامي الذي اقترحته لمياء الصلعاء، إن فمه مدجّج بالكلمات البذيئة كما أنه سليط اللسان كامرأة سوقية، ولكن لا بأس فأنا لست أحسن منه" وتداركت فكرتها، ليست سديدة أيضا " لن يتغيّر شيء، كان سيلهث مثل كلب بمجرد أن يراها وسيقع تحت تأثير سحرها، أليس هذا مريعا يا عزيزتي؟ أن تغدو رقابنا وحقوقنا تحت رحمة المساحيق البرّاقة والأنداء الناهدة والسيقان المنحوتة!!، أجبروني على ما أنوي: سأوكل محامية فاتنة إن استدعت الضرورة في المستقبل "قالتها ببساطة أوقعت أثيل في الحيرة.

"كنت منشغلة جدًا بمرض ياسي، فلم أستطع أن أسرد عليك كل هذه التفاصيل الرديئة، هل تيقنت الآن أن الخطأ لم يكن خطي؟ لست عازمة على تكرار نفس الهفوات مرة ثانية، هذه المرة أعرف تماما أين أضع قدمي، لن تزلقي. ليست فكرة الصالون فقط من تحتل رأسي، هناك

رزم من الخواطر المجدية الجاهزة، مثلاً،، " وعلى نحو مفاجئ توقفت عن الحركة مضيئةً حدقتها في حركة نزقة ثم اقتربت إلى صورة معلقة على الجدار المقابل لمنزل صبري، كان يرتدي بدلة رمادية تتلاءم وربطة العنق السوداء، وبحروف عريضة سوداء كتب شعار معبر "انتخبوا من أجل التغيير"، لن يمر الأمر مرور الكرام، إن سميحة تمقت هذا الرجل حتى ولو علمت أنه شارك في الحرب التحريرية، وإنها لن تحبه بصورة خاصة، وهو يشارك في المهزلة الانتخابية. كان رجلاً قصيراً بديناً ذا هيئة خرقاء ووجه شبيه بوجه الخنزير على حد قولها أصلع الرأس، وكانت عيناه عديمتا الأهداب تشيان بغريزة وحشية جشعة رغم ما تظهرانه من وداعة ملفتة، وفيما كانت واقفة باستقامة مثبتة طرفها عليه، تنتفض أجفانها ما برحت أثيل تنقل بصرها بسرعة بينها وبين شرفة السيد وزوجته أملة في سرها أن لا تندلع حرب كلامية بين هاتين الاثنتين، إن سميحة لتجد متنفساً عظيماً في إثارة المشاكل، أما عندما تجد الأسباب الوجيهة فإنها تطرب سروراً.

كانت الحرب بينهما قد وضعت أوزارها لفترة يسيرة، ولكن عامل الفتنة النسوية ضيع جهود أثيل لتوثيق الهدنة الباردة؛ فحسي الوضع وعادت الأمور إلى عهدتها الأول حيث ثارت سميحة عندما قررت إحدى السيدات ممارسة النميمة على أصولها فأبلغتها، وهي تتكلف مظاهر الانزعاج أن جميلة سخرت من نحافتها في حلقة نسوية ثرثرة، وضحكت عندما وصفت استخدامها بفزاعة الطيور في حقول القمح بالمناسب جداً، وأفلست كلمات أثيل المهذئة في إطفاء حريق أعصابها؛ فلم تتحمل طويل لتسدّد دين الإهانة اللاذعة وعمدت إلى الاجتماع بذات النسوة التافهات وأعلنت بدورها أن المكان المناسب للغوريلا جميلة هو الأدغال أملاً في تطويع إحداهن لتبليغها الرسالة المهينة، ولم يكن ليرفضن هذه المنحة الدسمة؛ فأسرعن يشعلن نار الحرب من جديد، ما أعظم النساء وهن يتحدثن برقة عن بغضهن للفتنة والنميمة بينما يؤدين طقوسها بتفنن، ما أعظمهن وهن يلقين الحطب على النار بينما يتظاهرن بإلقاء الماء، ومنذ ذلك أصبحت رؤيتهما تتبادلان الشتائم أو الصمت الناري منظرًا مألوفًا.

_ "أين منديلي؟" مدّت صوتها وطفقت تتحسّس جيوب حقيبتها.

_ "ما حاجتك إليه" صاحت أثيل وقد التّف بها الارتباك.

فقامت بسلسلة من الحركات المعبرة

_ "سأبكي من التأثر يا عزيزتي، ألا ترين المكتوب هنا؟، تأثري يا أثيل تأثري، انتحي، انتحي

بأعلى صوت، نحن ماذا، النمودج الواعد للتغيير، يا له من خنزير، وغد، سافل، منحط،

بذيء، رديء الخلق..."

صمتت حانقة تفتّش في قاموس الفواحش عن كلمة تصف بها الغضب المستعر "أتصدقين؟ لقد رأيته بالأمس صدفة، كان الوجد يبكي، وهو يتوسّط مجموعة من الأغبياء، السدّج، يقنعهم ببرنامج الوهي المحفوف بالكذب والخداع، مثل الجزّار يقنع العجل بضرورة ذبحه. ولو طلب منه الزحف على بطنه، لم يكن ليمانع، يريدون منّا التصويت أليس كذلك؟، سوف لن أمنح صوتي لأيّ عاهة مستديمة من تلك العاهات، أراهن بكل ما أملك أنّه كان يكذب"

إن سميحة بالطبع لا تمتلك الحيطة وحفظ اللسان اللذين يكسبانها محبّة الآخرين، و من بين ميزاتهما الفريدة قولها الحقيقة كما هي من غير مجاملات أو تغليف، و يندر بل يستحيل أن تضع قناع النفاق وتملّق أحد، وباستثناء أثيل وعائلتها لم يكن أحد ليكنّ لها أكثر من الكراهية المعلنة، فالإنسان الصريح مؤيدوه نادرون.

"والتقط بعض الصور الجميلة مع المتسولين ووّزع بعض العصير والخبز مع توزيع الوعود الكاذبة."

_ "اخفضي صوتك يا سيّدة سميحة، لربما سمعتنا السيّدة جميلة" قالت أثيل بحذر، بصوت خفيض قريب إلى الهمس، كانت توسلات هذه الأخيرة أضعف من أن تسكتها أو تنجح في ضبط اضطرابها الفوّار، فوحده عقلها المتهوّر من يقودها "من غير الحكمة إثارة شجارها في هذا الوقت المبكر من الصباح، دعنا نذهب، هم أحرار، حدّثيني بتفاصيل أدقّ عن مشروعك القادم " آخر ما تهتم به أثيل هي مشاريع سميحة، لكنّها محاولة مكدودة لإلهائها عن قضية صبري.

_ "الانتخابات هي المرة الوحيدة التي نرى وجوههم فيها".

من بوسعه جرّها بعيدا عن الصورة؟ من يستطيع إيقافها؟ الآن وقد عقدت العزم على إثارة المشاكل، ولم يذهب طلب أثيل أبعد ولو خطوة عن صورة صبري الوحش، ولم تأبه بملاحظتها الأخيرة.

"انظري كيف يتسم في الصورة حتى نواجهه تظهر، وعندما يفوز لن يلقي عليك حتى شتيمة، بوّدي سؤاله عن برنامجه؟" ورفعت حدّة صوتها

"أعرف ما هو البرنامج، رحلات مجانية له ولعائلته، نقود كثيرة في المصارف، شقق في كل مكان، واحدة للعطلة، واحدة لارتخاء الأعصاب، دراسة مجانية لأولاده في الخارج، تلك الغوريلا جميلة هي وأولادها سينعمون بوقت طيب و يتناولون أحسن أنواع السمك... في حين أرثي أنا أسعار البطاطا، إنّ أسعارها تقفز كأنّها تشارك في الألعاب الأولمبية للقفز، أما الدجاج "ورفعت حاجبها في حركة استنكارية ماطّة شفيتها، وقد تقيّحت تقاطيع وجهها، واحمر وجهها من

الغضب ثم قالت عرضيا "فقد حلّق بعيدا، أصبح جناحاه أقوى من جناحي الصقر، اللعنة عليّ إن أنا منحتمهم صوتي، سأبصق على وجهي، وأسمح لجميلة بالبصق عليه إن أنا انتخبت على زوجها النذل، تأملي الورع والتقوى من وجهه، يعدوننا بالجنّة، وفي الواقع الجنّة لهم ولهيب الأُسعار لنا".

لم تستطع مقاومة الرغبة في البصق عليه، وهي تتقلّب في غمرة الغضب المضطرم فبصقت عليه.

_ "صباح الخير يا أثيل" قال صوت عميق قادم من شرفة البيت المقابل، كانت جميلة ذات الهيئة الأرسقراطية الزائفة تقف مبتسمة على الشرفة تحمل في يدها المثقلة بأساور ذهبية عديدة كوبا من القهوة ترتشفها بطريقة استفزازية رافلة في ثوب أحمر صارخ.

_ "يا الله ستندلع الحرب ولن تنطفئ أبدا" قالت أثيل في سرّها، كان وجهها يتردّى في الارتباك المشوّوم، وقد نسيت في هذه اللحظات جرحها النازف .

_ "صباح الخير يا سيّدة جميلة" أسرع تردّد عليها فيما تغضّن وجه سميحة واتّسعت مقلتاها كأنّها تستعد للقتال، ولم توجه لها التحيّة: لأتّهما كانتا على خصام دائم.

_ "نريد صوتك يا عزيزتي أثيل، أنت وعائلتك" قالت جميلة بسرور، إن هؤلاء الناس لديهم أكثر من البرامج الوهمية، لديهم ثقة عمياء وقاحة جمّة، صفاقتهم من الدرجة الأولى، إنهم بلا حياء

_ "إن رؤوس الحمقى هي وجهتكم المفضّلة" قالت بغير وعي لما تتلفظ به، لن يهتما أن تهين حتى نفسها، اذا اقتضت الضرورة إهانة جميلة و تكدير صفوها "أ ليس كذلك؟ ما أسهل أن يسير الحمار غافلا خلف رزمة من الجزر على عصا غليظة".

ما هذا؟ هل تعني سميحة أن اثيل وعائلتها حمقى، هل تقصد أنّهم حمير "أنتم أيها الأورام الخبيثة، يا أكالات لحوم البشر" استحال الجوّ متوتّرا والهواء ثقيل، وتعدّ مهمة مستحيلة إيقاف سيل الكلام من سميحة التي كانت قاتمة الوجه من الغضب

_ "سميحة" ردّت جميلة بلهجة بطيئة رتيبة ممدودة مفعمة بالسخرية، وشدّت على العقد الذهبي الضخم حول جيدها؛ لتعزيز الثقة بثرائها "تبدين، تبدين مفزعة بهذا اللون يا عزيزتي، ماذا حلّ بعينيك ما هذه الكدمات؟ هل تعرّضتِ للتعنيف؟ إنّ هذا مؤلم، أريحي أعصابك ولا تتواني أبدا في زيارة طبيب الأحقاد، فأنت لا ريب ترزحين تحت وطأة الكراهية المفجعة، ما لك وزوجي، أ لأنه رجل نزيه ويبدو جذابا في الصورة تملككتك الغيرة؟، ثم لماذا تقلقين، فأولئك الذين لا يملكون شيء، لا يخسرون شيء"

_ "أغار!!" قهقهت بصوت مدوّ غير أنّ أعصابها كانت تحترق ولو قدّر لإنسان رؤية شيء الآن فوق رأسها سيرى دّخانا قادما من النار المضطربة في عروقها، لقد لدعتها الكلمة أكثر مما حاولت أن تخفي "منك و من زوجك الخنزير اللص!! إنكما متناغمان كالنشيد مع رفع العلم، تريدون من التعساء أن يكونوا جسرا لتصلوا إلى مبتغاكم النرجسيّ؟ أليس كذلك؟، ولما لا تتملّقين؟ وأنت بحاجة إلى كل صوت شَقِيّ، فأنت لم تشعري بوخز الضمير يوما، وأنت التي عقدت صلحا مع النفاق، ثم من تصوّرين أنك ستغرين بذلك اللون الأحمر ثورا أو بغلا على وشك أن ينفق، إنّ متسوّلة تملك ذوقا أحسن منك "

_ "أرجوك ياسيدة سميحة" استعطفت أثيل بصوت متوّسل مرتعش فالوضع آل إلى التعقيد "دعنا نذهب لقد تأخّرت عن العمل، كما أنه لا يجدر بك التصرّف على هذا النحو، ستضعين نفسك في الموضع الذي تريده لك هي، تستفّزك لتظهرك امرأة سوقية، هيا ننصرف" _ "حتى تقول إنني جبانة" تلجلجت ثم رفعت صوتها "ستعتقد تلك المتوحشة أنها على حق، إنها تشبه الرجال، وتفقد لأيّ حس أنثوي، ثم تسخر من شعري زاعمة بمنتهى الوقاحة أنّه مفزع" وما إن رفعت رأسها لتسدّد هدفا في الشباك حتى وجدت أن جميلة قد بارحت الشرفة _ "لقد فرّت، الجبانة، تواجه صعوبة في مجادلتي"

اكتسى وجهها بنظرة الظفر، إن المسألة لم تتعدّ تجاهلا صريحا، كانت جميلة قد صرّحت بكل ما لديها محافظة على هيئتها الوقورة، وقد تجهل سميحة أن الآخرين ينظرون إليها كمرهقة شغوفة بإثارة المشاكل، وفجأة طفقت تدعو بأعلى صوتها ضامّة يديها إلى بعضهما، رافعة رأسها إلى السماء "يا الله لتصبهم الأمراض التي لا علاج لها، ليفقدوا عقولهم فيطلقوا النار على رؤوسهم الخاوية، لتشلّ أقدامهم "

وتطرّبت في صوتها لتعود إلى حالتها السابقة، من أسهل الأمور عليها العودة إلى موضوعها الأول متخلّية عن الهيئة العصبية، موجّهة حديثها إلى النقطة التي توقفت عندها.

_ "أين توقفتنا قبل رؤية وجه الشؤم، ذلك الذي لا يمكن أن يلمحه الإنسان دون عضّ لسانه من الحنق" صرحت بهزل واستأنفتا المشي بخطوات رقيقة.

_ "كنت تقولين أنّك تفكرين باستثمار جيّد لأموالك " ردّت على الفور مخافة إثارة ضجة أخرى.

_ "ليست أموالك بالكثيرة، سأبيع جزءا من الأساور التي اشتريتها من الإرث الذي تركه قريبي

ليرحمه الله، لولا ذلك المال لما استطعت أن أحقق أحلامي، جاء في الوقت المناسب. كما أخبرتك، أرغب في الاستثمار"

قفزت إلى نقطة أخرى" أثيل، لولا أنني أخشى على سمعة زوجي، ولولا أنني امرأة محترمة إلى هذا الحد"

كانت نبرتها أقرب إلى النحيب، كأنها تستعرض أحداث قصة حزينه "أنا وفيّة لذكراه"

ثم التفتت لتقول بلهجة نائحة جدية

"أه، لولا ذلك لتوجّهت صوباً إلى دار القمار ولكنت لعبت، أراهن أن لي مواهب تجعلني أريح".

لا حدّ لما يمكن أن تفكر فيه سميحة، إن عقلها أشبه بعقل مختل وخنقت الكلمة صوت أثيل وأحسّت أنّ وجهها يتقلّص بفعل الفكرة، القمار، عليها إعلان توبتها فوراً.

بنبرة مندهشة ولكن منفرجة أجابت

"أرجوك أن تتحلّى ببعض الجدية"

"اسمعي" صاحت سميحة معاتبه "لا تظهر لي هذه السحنة، أنت تجهلين كم يكسب الناس من القمار، أقصد المتمرسين، أصحاب الخبرة. وليس أسهل من أن أغدو متمرسَةً، إذا وجدت من يلقني دروساً في ذلك، تعوزني الجرأة فقط، أهه "تأوّهت من أعماق قلبها "لولم أكن وفيّة لذكرى زوجي الراحل؛ لكنت فعلت أموراً كثيرة، الجرأة هي العامل المفيد لأي مسألة، توذّين الظفر بها " وفكرت أثيل بعبوس لا يوصف أن جرأة سميحة لا يمكن أن تكون طبيعية، وهاهي تنتقل من نقطة إلى أخرى.

"هلمّي أخبريني عن ذلك العجوز المتوحش" زمجرت متدلّية الشدق

"من تقصدين؟" أجابت أثيل بسؤال آخر.

"أنت تعرفين من أقصد، تعرفين من أقصد "كزّرت" وحش الأدغال، قريب زوجي رحمه الله، العجوز إبراهيم، هو أسوأ من الحيوانات التي يجبر أبناءه وزوجاتهم على مشاهدتها".

انزعجت أثيل من هذا النعت القبيء في حق ربّ عملها

"إنّه بخير، ولكنه ليس سيئاً إلى ذلك الحد"

_ "أحقا يا سفيرة النوايا الحسنة؟" ضحكت مسرورة بمنح أثيل هذا اللقب، وعنّ لها أن هذا الكائن الواقف أمامها ساذج جدا "بخيل كيهودي، حريص على ماله، كما أنّه لا يسمح لك بالتغيّب، آخر مرة كما أذكر تعاقبت على وجهك كل الألوان وأنت تسأليني كيف يسعك طلب إجازة منه، دون أن يطردك، أصمّم على نعته بالمتوحش، كان أفضل وزوجته حيّة، وبعد أن ماتت غدا لا يطاق، هيا ألقى مواعظك وأخبريني أنه لا يجوز عليّ التحدّث عنه بهذه الكيفيّة، لدي قناعة أنك ستدافعين عن التينين بينما يفتح فمه لحرقك و الأنفاس تدبّ في صدرك، تسبّين لي مغصا رهيبا عندما تدافعين عن الأوغاد".

_ "هو ليس بذلك السوء" اعترضت أثيل غير مقتنعة، إنها تدافع عن أي إنسان حتى مع حقيقة أنّ العجوز إبراهيم غاية في التزمّت والبخل، والقسوة غير المبررة "إنه طيّب القلب على أنّه لا يحب أن يظنّ النَّاس أنّه كذلك، لنقل أحيانا، إنّ القسوة والعزلة ليستا مؤشرا دائما إلى الشر، قد تكون نوعا من الحماية الذاتية".

_ "قسوة وعزلة؟ ما هذه الفلسفة المفحمة مع الصباح يا فتاتي الجميلة، لا توجد صببية تماثلك نبلا و طيبة، لن تقرّئي السوء في أي إنسان، بحكم طبيعتك الرحيمة، لكم أحبك" وقرصت سميحة ذقنها ثم ظهر لأثيل أن تسألها سوّالا غريبا بينما رنت إليها بنظرة شاحبة طريّة كسيرة واستعاد صوتها نبرته المكسّرة العاطفيّة،

_ "سيّدة سميحة، هل ستحيّيني دائما مهما عرفت عني؟"

_ "أعرف عنك ماذا؟ أنا أعرفك أكثر من أي إنسان، وأفهمك أفضل من أمك. ولست مستعدّة لأن أحب أي إنسان لا يحبّك، أنت لا تعرفين أي جوهره كريمة تكونين" وشعرت أثيل بالذنب

وعندما فتحت فمها لتتكلم، مرّت ميرنا بجانبهما، مرّت مسرعة كسهم انطلق من قوسه، كانت محتدّة إلى درجة لم تلق التحيّة على سميحة، ولم يفث السيدة ملاحظة ذلك فصاحت _ "صباح الخير يا ميرنا" غير أنّها لم تتلقّ جوابا "ما بها أختك المجنونة، لماذا هي مسرعة هكذا"

_ "في الواقع" تمتم أثيل، وهي تتابع بعينها شخص أختها "هي غاضبة"

_ "ما الخطب" استفسرت سميحة باهتمام ووجهها يشي بالفضول

_ "لا يسعني أن أشرح لك، ليست على طبيعتها، كالعادة حدث ذلك الأمر" وامتنعت عن شرح الأمر أعمق فكل إنسان بالحي مطلع على حقيقة طباع أختها، تلك الطباع الحادة التي يستنكرها معظم الناس حتى ولو لم يملكو الجرأة للتصريح بها على مسامع أفراد عائلتها، لا

سيما عندما يفلت منها رجل ويفضّل أثيل عليها.

_ "أذاً فقد فرّ رجل جديد بجلده، وفضّلك عليها " استنتجت سميحة وابتسمت واسترعى انتباهها طفل صغير يبكي، فدفست يدها في الجيب وأخرجت قطعة الحلوى ثم انحنت مادّة يدها، تخبره أنه ولد مزعج بليد بكلّ صراحة، ثم صفعت وجنته اللحيمة برقّة في وجهه المشقّق لاعنة صراخ الأطفال ونحيبهم المستمرّ "مصدر إزعاج"، وعندما استقامت مجدّداً واقفة أضافت بهمكّم

_ "إنها بوضعها هذا أخطر من مجرم طليق ثبتت عليه تهمة القتل، ولا شكّ أنّها تلومك، لأنّها تعتبرك عقبة ثقيلة في طريق زواجها، والله إنّها لمخطئة، قلبها أسود كالفتحم ويستطيع أي إنسان تمييز النفوس الشرّيرة من على أميال عديدة "

_ "لا تتكلّمي على هذا النحو عن شقيقتي يا سيّدة سميحة "انفعلت أثيل بشكل دّفاعي، غائمة النظرات، لا تستطيع أن تتحمّل كلاما يسيء إلى أختها، وإن كانت سميحة الغالية على قلبها.

_ "جميل منك أن تحافظي على حبّك لشقيقتك رغم كل ما يصدر عنها، هي لا تكنّ لك إلا الكراهية، وأكاد أجنّ، لأنني لا أفهم أسبابها؛ فربي لا تكلف نفسها عناء إخفاء أحقادها اتّجاهك، أنت التي استنزفت نفسك في سبيلهن "قالت بضيق، مجعّدة تقاسيم وجهها. "تكافئك بأحقادها، لقد عملت و جلدت نفسك ووقفت عند كل باب لتتقدي أمك وتؤمّي لهم حياةً مريحة، ثم بماذا تكافئك هذه الجاحدة، نعم إنّها جاحدة للمعروف، ولعلمي بسلوكها معك، أنا لا أميل إليها، ولولا أنّها شقيقتك لما سلمت عليها حتى "

_ " إنّها لا تكرهني يا سيّدة سميحة" انقبض وجه أثيل وتفتّط قلبها، فأختها تملك أسبابا وجيمة لتغضب منها، لكنها لا تكرهها. _ "لا حدّ لما يمكن أن تقدم عليه شقيقتك الغالية بسبب كراهيتها، أخشى أن تؤذيك يوما ما، حيث أنّ الكراهية تُعي البصيرة، وعندما تخرج الأحقاد عن السيطرة، يغدو الإنسان وضيعا و منحطاً، إنّ قصّتكما تشبه قصّة قابيل و هابيل، ألم يقتله لأنّه حقد عليه؟"

_ "إنّها شقيقتي "قالت أثيل متضايقة، بيد أن عينها برقتا ببعض الخوف والشك من كون الكلام صحيحا، و سرعان ما استطردت بحزم "ولن تؤذيني وأحسبني أعرفها جيّدا، والآن دعنا ننهي هذا النقاش حولها"

_ "قبل إنهائه، هناك سؤال يحوم في رأسي دائما، لا تريدان الجواب عليه، ما هو سبب إعراضك عن الزواج، إنّ الرجال بأشكالهم يخضعون لنظرة من عينيك، أهو حب رجل معين من يعيقك عن الزواج؟" وغمزت مستفهمة و لم تقل أثيل شيء بل استمرت صامتة جزاء جزعها من ماهية السؤال، لقد علمت أختها و المصدر غير معروف و ليس بعيدا أن تعلم سميحة أيضا، هذه التي تعجز عن تكهن بما يمكن أن تفعله، حتما ستخسر صداقتها.

_ "أنا أمزح معك، لك الحق في الاحتفاظ ببعض الأسرار لنفسك، دعيني أعتذر إليك؛ لأنني أسأت لشقيقتك، أدرك مقدار حبك لها، أنت إنسانة رائعة يا أثيل بروح شفافة، ندر وجودها، ولهذا ستحظين برجل فذ رائع مثلك تماما ذات يوم، و هناك نصيحة صغيرة أودّ إسداءها لك، أعرف أن العجائز الهرمات سبق و نصحنك بها، لقد كبرت شقيقتك، و أعتقد أنك وهبت نفسك للمسؤولية بما فيه الكفاية، وأن أوان أن تحبّي وتزوّجي، نعم إن الحب عاطفة رائعة أكثر مما تتصوّرين، كما أن شعور الأمومة يجلب من المسرة ما لا تتوقعين، أنا من خبرت كل هذه الأمور، تجاهلي الأعباء وانطلقني، فأنت فتاة جميلة جدا. هذا الجمال ينبغي أن يناله من يستحقه" ولدعتها الآلام فانكمش وجهها بتأثير النصيحة سليمة النية ثم حاولت التهرب من هذا النوع المكدر من الأحاديث فنظرت إلى ساعة يدها.

_ "أما تلك العجائز السخيفات؛ فدعمن لأقدارهن، أعجز عن فهمك، كيف تتحملين، خصوصا تلك التي تنام واقفة، ما كان اسمها اللعين. اه، حسنا، ستتأخرين عن العمل، لن أتسبب في حيلة حالكة ضد التأخير من طرف المتوحش، و أنا سأتوجه صوبا لأشتري الخضر، و لكن عليّ اللعنات جميعا من الألف إلى الياء، إن سمحت لنفسني بشراء البطاطا، في الواقع "فكرت يكتظها الغيظ ثم نطقت" لم يحافظ إلا البقدونس والبصل على رجليهما في الأرض، حافظا على إنسانيتيما على الأقل،، حتى اللفت الوغد طار مع البقية، لما لا يطلبون من الخضر التصويت لهم بدلا عنا، أصبحوا أغلى منا قيمة"، وبعد تبادلها تحية الوداع، تحركتا مبتعدتين عن بعضهما في اتجاهين متعاكسين عند ناصية الشارع، عندئذ تناهى إلى سمع أثيل صوت يناديها، كانت فكرة عطرة قد تسللت إلى عقل سميحة، فكرة تحلّ كلّ أزمانها بقلب فكاهايّ مبهج

_ "أثيل ما رأيك أن أشارك في الانتخابات، إنها مشروع مريح أليس كذلك؟".

الفصل الرابع

تبعد المكتبة التي تعمل فيها أثيل مسافة عشرين دقيقة مشياً على الأقدام عن بيتها، وتقع على شارع جانبيّ مفضّى من الشارع العام، كان الشارع مكتظّاً بحركة المرور الخانقة ثم حركة الناس التي لا تنقطع على مدار اليوم، شأنه كالشارع الرئيسي، أناس يروحون و يجيئون ينزلون ويصعدون، مشكّلين صفوفًا طويلة، وكانت مزامير السيارات التي تتحرّك ببطء شديد بسبب الازدحام بأصحابها المتعجّلين تصدر أصواتا مرتفعة مزعجة، حتى في أحلك ليالي الشتاء وأكثرها برودة توجد حركة ولو على صورة أقلّ، وبالنسبة للغريب القادم من مدينة أخرى لم يكن إلا شارعاً رئيسياً ولا يجعله شارعاً جانبياً إلا موقعه العرضي، واللوحه التي تشير إلى ذلك.

يقابلها محل لبيع الثياب النسويّة، ينقص صاحبه الذوق الرفيع والثقافة العصرية ليكون محله مقصوداً مكتظّاً بالزبائن، وباستثناء نساء عديمات الذوق مثله يغريهن خفض السعر إلى نصفه في الحالات الطارئة، لم يكن يحظى ببيع طيّب مرض، وعلى جانبها الأيسر محل الغشّاش حميد لبيع اللحوم، هذا ما ينعته به الزبائن، بمئزّه الأبيض المتسخ، الملطخ بالدم، أُشيع عنه فيما مضى ارتكابه مخالفة قانونيّة وإنسانيّة وأخلاقيّة، حيث قام ببيع لحوم الحمير، كان رجالا ذا ملامح منحوسة، عيناه خضراوان ترسلان نظرات مستريبة كعيون محقّقي الجرائم، لم يكن يتمتّع بفائض مناسب من الاحترام كي يكف عن إزعاج أثيل.

على الجانب الأيمن محل العجوز بركة لصنع الحلويات شبه المعتم للتقدير من فاتورة الكهرباء، يصلح أن تندمج هي و الجزّار حميد في شخص واحد، على الرغم من أنها تنفر منه بالقدر ذاته الذي ينفر هو منها، امرأة مكتنزة الصدر، شعرها فضيّ شعث، كثيرة الإغماء المتعمّد والذي تحتفظ خلاله بإدراكها لكل ما يدور حولها، ولكنها تستسلم له استجلاباً للاهتمام، تناهز السبعين من عمرها ذات صوت كئيب كثير الشكوى، وما لم يتظاهر المرء بعدم رؤيتها أو يتحرّك مبتعداً عنها بسرعة البرق لن ينفذ من تدميرها المستمر حول كل شيء.

"الطبيب اللصّ الذي يسرق مالها تحت ذريعة التحاليل و الأشعة التي تعتقد جازمة أنها إجراء استغلاليّ إضافيّ لنهب جيبيها، البقال الذي يبيع لها خضرا فاسدة؛ كونها عجوز عاجزة ضعيفة الرؤية، رغم أن نظرها أقوى من العقاب، زوجات أبنائها الحقودات اللاتي يبيتن نيّة إرسالها في أول فرصة سانحة إلى دار العجائز لقضاء باقي أيام عمرها بين جدرانها، ثم الاستفراء بنقودها وقطع مجوهراتها الثمينة، العمّال الذين ترتاب أنّهم يسرقونها بسرّيّة، وبالإجماع. إن

الأمانة صفة نادرة هذه الأيام "هكذا دأبت بركة على القول. تترصد بعينها نظرة فضوليّة بحته. تراقب الشارع أكثر مما تراقب موظفيها كشاب متمسك لا يملك عملا.

كانت المكتبة ذات واجهة زجاجيّة لماعة ملفتة، مبنى ضخّم يقرّم المحلات على جانبيه بحيث تظهر كدكاكين ريفيّة حجريّة قديمة، كانت مكانا واسعا نظيفا مرتّبا بأناقة، منسّقة الأثاث رغم كونه عتيق، وخلفية بنافذتين كبيرتين مشرعتيّ المصراعين، تطلّان على شارع جانبي مزدحم آخر. تتألّف من طابقين: أرضيّ يتضمّن صفوفًا من الرفوف المرتفعة المتباعدة المنتظمة عليها كل أنواع الكتب، تتدلّى من سقفه ثريا عملاقة ببلوراتها البرّاقة، تنشر في المكان ضوءاً أبيضاً قوياً، وطابق أوّل مخصّص للقراءة به طاولات وكراس خشبيّة وينبغي الدفع مقابل قراءة الكتاب ما لم يقرّر الزبون شراءه.

يحرص العجوز ابراهيم مرّيع الحاجبين، مالك المكتبة على أن يحظى الزبون بمعاملة جيّدة مع عدم الإهدار في الكلام بلا معنى، أو الخروج عن نطاق العمل، وأن يجد أي كتاب يبحث عنه، وكان يصرّح أمام أصدقائه متفاخرا أن مكتبته هي الأحسن على الإطلاق.

كما يحرص على إظهار نفسه بمظهر الرجل المثقّف رغم أنه لم يقرأ كتابا في حياته، يصفه معارفة بالبخيل، لا يحبونه لأنه لا يعطّل هذه الصفة في شخصه لكسب حيمهم، يقتضي التماس يوم إجازة استجماعا للشجاعة ندر أن اكتسبتها موظفاته الثلاث بالنظر إلى طبعه المتشدّد، فأنيل مثلا لم تتغلّب على نزعتة القاسية إلّا مرتين، اضطرت فيها سميحة إلى التطوير من أساليبها المراوغة كي تظفر لها بإجازة ملحّة، وعندما يهدّد بالطرد فهو يعني ما يقول، و فوراً يُخرج السيرة الذاتية لبديلات مستميتات للحصول على عمل.

كان يجري حسابات ذهنيّة دقيقة تكتنفها صحة النتائج، ولم يقع ولو لمرة واحدة في خطأ حسابي أيا كان نوعه، كان رجلا هادئ الأعصاب كقطعة متراصة من الجليد، يتحرك بشكل رشيق رغم كونه هرما، شديد الملاحظة. صريح بأرائه مجاهرا بها، تغدو جارحة أحيانا عندما تستفز غريزته المادية .

لم ينل احترام و محبة الناس لكونه ليس رجل مواقف خاصة إذا اقتضى الموقف دعما ماديا، أو مجرد تلميح مداعب إلى تبرعه ببعض البنسات إلى أحد المعوزين أو الأصدقاء الواقعين في ورطة. وشمل هذا النظام المترّمت أولاده الخمس وابنتيه الاثنتين، الذين لم ينالوا منه أكثر من التبرّع ببعض النصائح والمواساة اللفظيّة حتى في أحلك الظروف، أما المكتبة، فهو ينفق عليها الكثير كيما تدرّ عليه أموالا مضاعفة بالمقابل، فالإنفاق على مكان يجلب الأموال أحسن من صرفها على إنسان خمول لا يفيد بأي منفعة.

كان وجهه العريض يسبح في ذات السحنة المتجّهمة تجمّتا ثابتا لا يشمل إلا عندما ينتابه الحنين إلى زوجته المتوفاة، يتمدّد مزاجه و يلين طبعه، عيناه داكنتان باردتان، ذات نظرات نقّاذة متصلّبة، تجلب إلى أبنائه وأحفاده أو موظفاته الشلّل المؤقت إذا ما وقعت على أحدهم في لحظة ارتكاب خطأ أو قول غير مستحب، أو إتيان ذنب يستحق جزاءً مرعبا كنظرة من عينيه، تغنيه عن اللجوء إلى الصراخ أو رفع الصوت أو التعنيف كطريقة بسيطة لإبراز رأيه إلى أحد أفراد عائلته، أما الطبع الرحيم و القلب العطوف فقد ارتأى مستبسلا أن يداربهما لفرط خوفه من اهتراء احترامه أمام أحد أولاده السبعة، وموظفاته الثلاث، كيما يعيروا وأمره أذانا مطيعة مجيبة أيا كانت صيغتها.

لا يعتبر موقع المكتبة مريحا بالنسبة لأثيل، فكل من حميد و بركة بطباعهما السيئة حالا دون ذلك، كانا الاثنان يصعبان مهمّة عملها بمراقبتهما الدائمة، فالعجوز بركة تقطع عليها الطريق بصورة متواصلة لإلقاء تدمرها بشكل مؤسف، و ما لم تلمح إبراهيم في المكتبة تتسلّل مثل ضفادع المستنقعات إلى داخلها لتنفرد و إياها بأحاديث تطلق عليها "فتح قلبها" و متى يغلق قلبها للأبد لتتراخ البائسة أثيل، و ما إن خامرت عقلها هذه الخاطرة الإجرامية ذات مرة، طفقت تؤنّب نفسها، إذ تبدو كمن تطلب الموت لها.

لم بيد العجوز إبراهيم إلا نفورا صريحا من هذين الاثنين هو الآخر، من المؤكّد أن احترام شخص وُجّهت له اتهامات بالغة الخطورة كبيع الحمير أمر شاذّ، ولم يكن يقدر الأمور الشاذّة، وليس حاله أفضل مع بركة، كان تدمرها الدائم المستميت في سبيل تكدير مزاج الآخرين يجلب له الإحباط و يحمله على وصفها وصفا شنيعا.

أمسى يكشّر محتدّا كلما رآها، ككلب موبوء مستعدّ لعضّها، إذ ما هي فتحت فمها لتشتكي. وما زاد الطين بلّة أنّها نزحت إلى قلة الاحترام نزوحا بليدا أحرقا، عن طريق إلغاء الكلفة بينهما، فلا تسبق اسم السيّد قبل مخاطبته، بل تستمتع بصورة مفرطة الغباء و هي تخاطبه حتى أمام حشد من الناس، و تساءلت أثيل إذا ما كانت العجوز تملك عقلا فعلا، وكثيرا ما كان ثغرها يفتّر عن ابتسامه مرحة عندما يحضر إلى ذهنها صورتها وهي تنادي الرجال بأسمائهم مباشرة سواء الذين تعرفهم أم الذين لا تعرفهم.

كان ينفر منهما نفور النار من الماء. بسببهما وجد العجوز نفسه في مأزق حرج، بيد أن تغيير موقع المكتبة يعني خسارة زبائن، و إبراهيم موطن غريزيا و فطريّا لخسارة إحدى كليته، على خسارة زبون واحد.

يتمثّل عملها في ترتيب الكتب و مساعدة الزبون على انتقاء الكتاب الذي يبحث عنه، علاوة

على أنّها كانت تعطيه نبذة مقتضبة سريعة عن محتوى كل كتاب ونبذة عن كاتبه أيضا، كانت ثقافتها واسعة ومعرفتها شاملة، سريعة البديهة، لطيفة التعامل، هادئة الطبيعة، في جعلتها ردود مناسبة لاستفزاز أي رجل يتجاوز حدود اللباقة المتعارف عليها محاولا التودّد إليها من أقصر الطرق.

أمضى إبراهيم أوقات عصبية بعد وفاة زوجته، امتزج ألم فقدانها بألم مكوثه وحيدا. إذ مع مرور الزمن يحلّ بدل الحب والعاطفة كلمة أخرى يطلق عليها اسم العشرة، هي أقوى من الحب وأعظم ما يمكن أن يحظى به إنسان تقدّمت به السنون، كان يحمل صورتها في جيبه، وعندما يدسّ يده فيه ليراها خفية عن الأعين المراقبة، فهذا يعني أن حالة الشوق العنيف والجرح النازف استحوذت عليه.

لم يمل رغم بخله الشديد إلى استغلال الموظفين، فهو يدفع راتباً مقبولا ولا يقدم علاوات إذ ما كان العمل أكثر من ممتاز خلال الشهر، كما أنه متشدّد في الجانب الأخلاقيّ مثل أمها، لا علاقات مشبوهة لا غراميات تجلب المشاكل إلى مكان العمل.

يُصرف الراتب إلى جانب ما تجنيه أمها من عمل الخياطة على لوازم البيت الضرورية، ومصاريف دراسة الفتاتين، وأدوية والدتها وشقيقتها ياسمين التي مرضت هي الأخرى وتعافت جزئيا والمتابعة الدورية الطبية، تلك التي لولا التزام والدتها بها، لعاشت أثيل في حالة عدم اطمئنان دائمة. مع استحالة ادّخار جزء منه، فهو بالكاد يغطّي مصاريف نصف الشهر إذا اشتهت أثيل إنفاق بعضا منه على ثوب جميل، أو ألحّت ياسمين على الخروج في نزهة تقضي على نصفه.

والحق أن أثيل، كانت تكره العجوز أحيانا من أعماق قلبها، وتستصعب تحاشي ذلك بكل الوسائل. خاصة عندما يقرر أن يصب عصبيته على شخص ما، فيركز هدفه عليها، و سرعان ما يتجاهل أنها نشيطة، أمينة، مخلصه في عملها. و حدث أن أقسمت أنها لن ترهق نفسها في العمل و تزهد طاقتها فوق المطلوب، لأنه متقلب المزاج، سريع التغير، و شديد البخل و وافر التزمت، وحدث كذلك مرة أن وجدت في تعاسته بفقدان زوجته عقابا عادلاً لقسوته وتساءلت كيف وسعها احتمال الحياة معه و التأقلم مع طباعه و الصبر على عشرته، وأسرعت في اللحظة الموالية تعتذر في نفسها لشماتها في مصابه. و كانت أحيانا تنكر على سميحة هجومها عليه بيد أن حواسها تتلذذ بذلك و تعزل نفسها عن الدفاع عنه وتفضل أن لا تبدي انزعاجها وتبتسم بسرور هامد، عندما يلقب بالحمّار الوحشي، و إذا ما صدت إحدى صيحاته عليها أو إغراضه عن منحها إجازة يوم واحد جهدها في التعليل لسلوكه. فإن كل المفاوضات مع نزعتها المهذبة

تؤول إلى هجران لتقديرها له .

بعد العمل، غالبا ما تدأب على زيارة بيوت العجائز الوحيديات المسنات، تمضي معهنّ بعض الوقت قبل أن يتحفّز ارتباكها المترتب عن خوفها من تأنيب أمها لعودتها متأخرة إلى البيت، تسمع أحاديثهن، تواسي وحدثهن، تساهم في إفراخ مخاوفهن و أحزانهن، تتقمّص دور المريضة من خلال تطبيق المراهم على مناطق الألم، والمفاصل الملتهبة، تساعد في رتق الثياب، وتمشيط الشعور الدهنيّة الخفيفة التي تؤول إلى ضفيريّتين مسدلّتين على الأكتاف، تقلّم الأظافر الخشنة المصفرّة، و تراعي النظرة المتلطفة إلى الماضي أين تنظر معظم العجائز، الماضي بأيامه البسيطة المشرقة، وخصاله الأصيلة الصادقة بجذوة عطائه المشتعلة، بكل ما فيه من نيات سليمة وقلوب صافية ومحبّة شفافة، وباستثناء هذا التوقيت، لم تملك فسحة لزيارتهم، فهي تعمل بمعدل أسبوع كامل من الثامنة إلى الرابعة مساءً ، عدا يوم الجمعة.

كانت مستمعا جيدا، وهذا ما يحتاجه من هم في سنهن ، آذان صاغية حريصة بدون مقاطعة ثم مستجيبة كليا للنصائح و المواعظ، وليس أفضل للشيوخ و العجائز من شباب يتقبّلون النصائح بصدر رحب حتى مع عدم تطبيقها إذ ما دعت الضرورة لها.

بالمعنى الحرفي ، كانت مواسة أثيل لمصابهن الأليم سواءً بالفقد أو الوحدة تفعل فعلها كالسحر، لأنها خبرت لوعة خسارة إنسان عزيز هي أيضا، و تعرف ما معنى الفقد والشوق للراجلين بشكل نهائيّ، فتجرّدهن من أعمق اللحظات الأليمة لتهيمن راحة و سكينته، محوّلته اليأس الباسل في عيونهن الغائرة والتعبير الكئيب المكّدس على وجوههن إلى رضا مبتهل بالقدر الذي قدّره الله لعبده.

تجاوزت الساعة الثامنة بعشر دقائق، اختلست أثيل النظر بحذر، تبحث في الأرجاء الواسعة عن العجوز، كانت سميحة قد ورطتها هذا الصباح في أحاديث فارغة ثم شجار قصير مع جارّتهم ذات الحركات الفظّة أبدا جميلة، قيّد بصرها العجوز إبراهيم يجلس قرب النافذة المفتوحة على كرسي هزّاز ينظر إلى الخارج موليا ظهره إلى القادمين من باب المكتبة و بعد أن ألقّت حقيبتهما في مكانها المعتاد مشّت نحوه بخطوات خفيفة تتناهاها قشعيرة أسف باردة

_ "صباح الخير يا سيّد إبراهيم، لقد تأخّرت" قالت بأسف عندما بلغته "إنني بالغة الأسف".

فلم يرفع لها عينيه المؤنّبتين، بل استمر يحدق إلى الخارج، وقد غزا وجهه تعابير تشي

بالعصبية المكتومة

"أرجو أن يكون عذرك مقنع، أتيت متأخرة هذا الشهر مرتين ، و أشعر أنك تتمادين في ذلك

، يا أنسة ، إنه مكان عمل"

"أعتذر إليك يا سيد إبراهيم" أجابت مرتبكة "أعدك أن هذا لن يتكرر" وندمت لدفاعها عنه هذا الصباح، كم كانت سميحة على حق. كيف وسعها أن تدافع عن مخلوق مثل هذا .
"أذكر أنك أنشدت هذا الموالم المرة السابقة، و أرى أنك لا تتعظين. يؤسفني أن أخبرك أنه المرة القادمة لن أسمح لك حتى بالاعتذار، سأريك الباب مباشرة." وشعرت بشيء من الإذلال "هناك الكثيرات يحملن بالعمل هنا، اذهبي إلى عملك" و دون أن تقول شيء، استدارت وانضمت إلى رفيقتهما، كانت صاحبة الجبهة النائثة المرتفعة: مايا تغمغم بكلام خافت و هي ترتب الكتب على الرف، مستهجنة الأسلوب القبيح الذي عوملت به أثيل ثم رفعت صوتها متحفظة حذرة:

"لا عليك، أخذنا نصيبنا قبلك، صاح في وجهي بسبب إسقاطي كتاب و توعدني بالطرد، وويخ ماريا بسبب نصحتها إياه بأدب جم أن يغير موضع كتب الفلسفة، نصحتها أن لا تفعل، وكأنها لا تعرفه، انفجر في وجهها مثل قنبلة، لا أراها" و حركت رأسها بجميع الاتجاهات "أراهن أنها تغسل الإهانة ببعض الدموع، ااااه، لو أنني أحصل على عمل أحسن، لأسعدني أن أخبره أي المتحجرين هو" ورتبت على كتف أثيل عندما استطلعت المرارة والأسى الجلي في وجهها "لا تحزني، كان مقيتا جدا، لا عليك، ربما نتزوج قريبا و نتخلص منه" ثم أضافت بحرارة، وعيناها توهجتا فجأة "أثيل، هناك خبر رائع أود إطلاعك عليه".
"ماذا" قالت أثيل مبتسمة بغير حماس .

"لقد حدث، كَلّم والدي مساء أمس، عندما عدت إلى البيت أخبرتني أمي، طبعا، تظاهرت أني لا أعرفه، رغم أنني أحبه إلى حد الجنون، أليس رائعا يا أثيل أن تتزوجي الرجل الذي تحبين؟ لم أنم الليلة بطولها من فرط السعادة، أتمنى أن تعيشي هذا الشعور قريبا و تتزوجي الرجل الذي تريدان، تستحقين يا حبيبتي"

أطلقت أثيل من صدرها تهيدة شبه منطفئة، يكتنفها الحزن الملتاع واخترقتها حسرة قائمة، بينما الفتاة تكاد تحلق بلا جناحين، وخافت أن يكون الشعور الذي يطل من داخلها هو الحسد، لأنها تمننت أن تنال نيلا كريما مثل حظها. لكن هذا لن يحدث لا الآن ولا بوقت آخر. لقد كان فعلا ما تشعر به حسد عاق حاولت بقدر ما تستطيع أن تتغلب عليه، بيد أنها لم تستطع.

ورغم ذلك بشت في وجهها ثم قالت بصوت منخفض يكاد لا يسمع
"أنا سعيدة لأجلك، أهنتك".

"أشكرك يا أثيل، أعرف حجم سعادتك من أجلي، لهذا لم أشأ إخفاء الأمر عنك، سأبحث

عن ماريّا ، لا شك أنّها في الطابق الأول " و التصق بصر أنّيل وقد خبت ابتسامتها بالجسد الطائر فرحا بأجنحة هفهافة ، السعيد غاية السعادة ، أما هي فقد بترت جناحها ، لن يكون لها هذا الحظ السعيد يوما، لن تضحك و تقضي الليل ساهرة من هول الفرح بحبيب يتقدم لطلب يدها بعد قصة حب طويلة خافية.

الحب يجعل الناس سعداء للغاية، لو ظلت محتفظة بعفافها طاهرا لوسعها أن تحلق أيضا ، بدل أن تزهد في الزواج و الرجال و إنجاب الأطفال ، بدل أن تحرم من الحب و مباهجه و تهرع لمصادقة العجائز و خدمتهن للتفكير عن الذنوب التي أثقلت ميزانها.

و تلوّن وجهها بلون الألم المضطرم، كأنّ نارا بطيئة قد زحفت إلى قلبها، لن ينطفئ أبدا ، ستتقدّ تلك النار آليا من حطب فاجعتها.

" ااه ، من الدنيا".

لم يبق لها إلا أن تراقب بالقدر الأدنى أو المعدوم من الغيرة ، فتبات في مثل سنها يتزوجن و يبتهجن و ينطلقن و يتدمرن من أوزانهن إذا زادت و من البثور إذا ظهرت و من الوجوه إذا شحبت ، و تستمع إلى قصصهن المصبوبة عن الغرام المتبادل و الرغبات الصامتة و الغزل العفيف و الإطراء المرغوب ، و الحياء المشبوب .قاعة بحظها الشبيه بحظ أرملة هندية ، هذا هو نصيبها، فاتنة بزي الحداد الأبيض .

الفصل الخامس

مضى يوم آخر من أيام يوليو قائظة الحر بنورها الباهر للأبصار، قريبا ستراجع الشمس المتوهجة طوال النهار بأشعتها الرهيفة الشبيهة بالرماح الذهبية، مخلّفة لوحة بديعة قرمزية في الأفق البعيد الخلاب محرّرة الدنيا من كل أثر للضوء الساطع المنير، باعثة في الفضاء سكينه مذهلة.

جلست أثيل في زاوية المكتبة قبل عشر دقائق من انصرافها تكرر قراءة فقرة من كتاب ، تقرؤها بصوت مسموع بغصة ثكلى، أين يخاطب قسطنطين تمثال والده برانكومير الذي شد إلى قاعدته بأغلال في الساحة العامة باحترام وتقدير ممتنعا عن الوشاية بخيانتة العظمى ،قائعا بنصيبه الشقي وقدره المخير ،قائلا أنه أهداه تاجا أكثر شرفا من التاج الذي كان يصبو إليه ،أهداه تاج التاريخ و البطولة و الشرف و الوطنية و الموت بنزاهة .

وتولّدت عاطفة مواسية في صدرها، و طفقت الدموع الرهيفة تنهمر من عينها، مال هذا الشقيّ البائس يخاطب والده الخائن بهذه اللهجة البريئة الصادقة في هذه اللحظات الصعاب، وهو الذي يشار إليه كمجرم آثم و يبصق على وجهه كأنه وغد حقير، لا تستطيع أن تقرّأ هذه الفقرات إلا وتكرّرها مرات عديدة، إلا و تبكي كمدا على هذا المسكين البائس، أما ما يعدّ عزاءً مكينا لقلها فإنّ له خادمة مخلصه لا بد لها أن تنتزعه من أيادي الجماهير الغاضبة الظالمة في نهاية القصة.

_ "ولكنه سيموت" هجست عندما تدفّق شعور بالإشفاق إلى قلبها. ليس ممن يستحقون الموت بهذه الطريقة، ليس من عدالة في هذه الدنيا، دائما دائما يعيش الأندال عيشة كريمة ثم يموتون كالأبطال المزيفين، بينما يموت الشرفاء ميتة ملعونة لا تمت إلى الشرف بأي صلة، ولكن الله يعلم وبعض البشر المنصفين يعلمون أيضا، والتاريخ لا يمكن تزيفه لأن الله من يرعاه، وليس البشر ولكل حقيقة يوم، ولكل كذبة أجل.

داهمتها بغتة باضطراب خاطرة ممضّة بعد أن طوت زاوية الكتاب عند هذه الصفحة وأغلقتة بلطف ثم وضعته في مكانه الأوّل بين الكتب، فمنذ ثلاثة أسابيع لم ينشر الصحفي الشاب "خليل" أي مقالة جديدة. افتقدته كثيرا بالقدر الذي تعودت عليه، ولم يخامر عقلها من قبل أنها شديدة التعلّق به و بمقالاته إلى هذا الحد البعيد الأمر الذي أرهبها، ثم أرغمها على الاعتراف أنّها أسيرة حيّه بصورة مرمضة، ترى كم فتاة يرمضها غيابه المفاجيء؟ فليست

تستطيع الاقتناع بأنها وحدها من خلب لُبها وسرق قلبها.
في الواقع لم يتخلف مرة عن النشر باستثناء الفترة الحزينة التي توفي فيها والده، تذكر
والجزع يتولّاهما قدر التعاسة التي تملكته، رغم أنّها لم تكن تراه لتقرأ وجهه، بيد أنها قرأت
كلماته التي تحمل في طياتها ألماً رهيباً..
_ "ما هذا الذي وقع له فحداه إلى التخلف عن النشر كعهده، لو أن واقعة سيئة حدثت
لعلمت كل الدنيا".

وأجفلتها الخاطرة فطردتها بعيداً، ليس عليها أن تفكر في الوقائع الرهيبة دوماً، ما هذه
الخطرة الكافرة المارقة!!، إنها كبوم الشؤم في معظم الأحيان "أطلقت على نفسها هذه الصفة،
ليبقى سالماً آمناً".

"لعله ذهب في رحلة، إنه يرهق نفسه ولا بد من أن يفصل نفسه عن العمل المضني بين
الحين والآخر" رغم إصرارها على أنه يهوى عمله أكثر من نفسه.

وانطلق خيالها يسرح في عوالم مختلفة، إنّها تشتاق إليه، وهي التي ألقت تسكين روعها
بكلماته ومقالاته، ولولا وجوده في حياتها حتى مع جهله بما يجول ويصول في قلبها لاختلف كل
شيء، فهو من يمنحها الشجاعة لتواصل، ويبدّد ذكريات التمزّق التي عايشتها.

هناك في أعمق عقلها راحت فكرة تطبخ نفسها بنفسها، رغم أنّها نبذت شقيقتها للتو، فليس
من عادته أن يختفي هذه المدة الطويلة، إن هذه الفكرة المشؤومة التي اكتسبت كفاءة قديرة
لُتدّر عليها بقلق شديد، وتتأمر عليها مجنّدة كل طاقتها في سبيل بثّ الحيرة في صدرها، لا ليست
مرتاحة لهذا التغيب المفاجئ.

وهاهي ذي تستعدّ للخروج مضطربة، وفي قلبها برودة مثلجة

_ "أنا افتقده فقط" حدّثت نفسها في محاولة لتهدئة روعها" لن يصيبه أي مكروه، نعم إنّي
أفتقده، ولا شك أن كل من يحبونه يفتقدونه، هو رجل مشغول، أو ربما هي أمه ليست على ما
يرام، لقد كان مطلع إحدى المقالات تدهور صحّة والدته، وطلب إلينا الدعاء لأجلها، على الأرجح
هي مريضة وكيف يسعه العمل والكتابة والدته متوعّكة!!، هذا كل ما في الأمر...."

لكن هذا التعليل الذي تبرّعت به لذاتها لم يكن يقنعها، إن عقلها المشوّش يندّد بكل سلطة
جانبيّة، وإنّه لعازم على تضخيم رعبها. وأبت أن تطيعه في مجهود لتصفية ذهنها فانسلت خارج
المكتبة متجاهلة الأفكار المنذرة بالشؤم بعد أن أُلقت تحيّة الوداع على الفتاتين مقتبسَةً من
عينهما الضاحكتين بعض اللعنة المُسكّنة.

في هذه الأسابيع التي مرّت كانت تعيش جنباً إلى جنب بركان نائر، بركان لا يُتّكهن بالضبط

متى يثور فيفضح كل شيء؛ لأن أختها الصامته متجهمة الوجه تطرقت إلى الهدوء المزيف، ذلك النوع المفضي إلى الجنون، إلى الرغبة في حجزها في زاوية الغرفة و التحدّث معها عنوة عن الذي يطوف في عقلها، كان يخفق في وجهها نبض راعد مفاده (إنّ فعلتك تفوق إمكانية الصّحاح).
ومنذ ليلة الاعتراف تلك، لم تتبادل معها كلمة واحدة. فقط تنظر إليها بتأنيب، وشيئا آخر لم تستطع تحليله، ربما الاشمئزاز من عيشها تحت سقف واحد مع عاهرة.

كانت رؤيتها توقظ فيها الحقد البتار المقرون بأزمة الشرف المهذور، فهاهي تضحك وتتبادل الأحاديث وعندما ترى أثيل تصمت وتتقلص تعابير وجهها.

ووجدت أثيل صعوبة في صدّ نظراتها التي تفيض حقدًا، المصوّبة نحوها كمسدس محشو بعدد هائل من الطلقات، والعرق يتصدّد من جبينها خوفا من لحظة الطلقة الأولى وأين سيكون الموضوع؟ أتراها تطلق على رأسها أو قلبها؟، غير أنّها لا تطلق مطلقا، إنّها تبقىها منفعة مذعورة طيلة الوقت، الخيار الوحيد الذي وجدته نافعا هو تجنّب النظر إليها، لم تعتمد إلى إقحام نفسها في أي بادرة للانفراد بها و تعاطي أحاديث عن القضية الشائنة، فهي تنصرف بسرعة إلى غرفتها و تغلق الباب خلفها، وبحث مرارا؛ فلم تجد أسبابا مقنعة لرفضها الانضمام إليهن، وأثناء العشاء تستلم الأم زمام الحديث إن لم تخلد إلى الصمت وتأمهّن بذلك.

هذه الحقيقة المفترسة قادتها نسبيا إلى الاعتراف أن سميحة قالت بعض الحق عندما صرّحت أمامها بمنطق سليم سليل محبة خالصة لها، أن في العينين الجاحظتين حقد لاذع لا ينفك يتضخّم ككرة ثلج في منحدر جبلي، وأن مشاعرها نحوها، لأسوأ من الطاعون، أسوأ من الموت. إنّ تلك النظرة لتحرقها بلهيب بارد كلما قبضت عليها ترشقها

_ "لا أعوذ بالله من نفسي، هي لا تبيّت لي أي نيّة سيئة، هي أختي رغم كل شيء" لن تسمح أن تدخّر كلمات سميحة في عقلها كما تدخّر المؤمن في قبو البيوت، فسميحة تقرّ بعدم ارتياحها لشقيقتها بشكل صريح.

مالت في زيارة مفاجئة إلى بيت العجوز راضية قبل أن تقفل راجعة إلى البيت، بينما كانت الشمس تزول بهدوء عن كبد السماء، كانت هذه تعيش لوحدها دون رفيق تنشد فيه فكّ عزلتها وإمتاعها ببعض الأحاديث حتى ولو كانت تافهة. و ناشدتها في آخر مرة تكثيف زياراتها حيث أنّها ترتجف حتى الموت من تركها وحيدة فالأفكار الخائنة تهجم عليها ثم تثير فيها نوعا من الاكتئاب. وليس من فكرة أسوأ من اقتيادها مجنونة إلى مركز الأمراض العقلية.

كانت العجوز الطويلة، الهزيلة ذات الجلد الأسمر المائل إلى السواد ترتدي فستانا مانلا إلى الصفرة الفاقعة، هي عجوز تجيد احتكار الأحاديث بصوتها المججلج و السيطرة عليها، وفي

وجهاها تعبير حزين مزمن، تشعر شعورا مرًا قاسيا لعزوف إختوتها عن زيارتها، وتنخرط في أزمات البكاء بينما تروي قصص كفاها في سبيلهم .

وقبل أن تفتح الباب فتحا معتبرا، شقته قليلا لتتبين هوية الزائر، إذ أنّ اللصوص يهيمون حيا في سرقة العجائز الوحيدات لاقتناعهم بأنهن يحتفظن بأموال طائلة وألماس بأحجار نادرة، وقبل أن يغادروا البيت محملين بالكنوز كما يتصورون، يجدون صعوبة في مقاومة الرغبة في قتلهن، هي لا تستطيع تفسير لماذا ينبغي أن يقتلن رغم أن أصواتهن واهنة وذاكرتهن ضعيفة في الاحتفاظ بالوجه؟، و لن تميزه حتى و لو اعترف بنفسه أنه من قام بسرقتها، لكن هؤلاء اللصوص يعمدون دائما إلى قتل العجائز قبل أن يبرحوا بيوتهن، ربما يعتقدون أنهن لا يستحقن الحياة، أو للذة عظيمة في تجربة ماهية القتل وليس أحسن من عجز هرمة تشرف على الموت على كل حال.

_ "فقدت كل أمل في أن تزوريني يا طفلي" قالت العجوز وهي تضع كوب الشاي أمام أثيل وفي نبرتها شيء من العتاب، كأنّ أثيل أخلت بأحد واجباتها، إنها ملزمة بالزيارة وإن ما أخلفت مرة فلن تحظى بأكثر من التأنيب المزخرف بالانكسار.

_ " كل ما أسمع طرق الباب عند الجيران أستاذ كثيرا و تنتابني رغبة في البكاء، ثم أتساءل لماذا لا يزورني أحد، أنا من دون كل الناس لا أملك عائلة تقلق لأجلي "

_ "أنا بالغة الأسف يا سيّدة راضية" أجابت أثيل وقد بلغها الشعور بالذنب، بلغها في أبشع

حالاته ووخزها ضميرها، لأن دموعا طافت بأهداب العجوز القليلة المتفرقة

- "كنت منشغلة بعض الشيء، كانت شقيقتي في غاية المرض، وقضت فترة في المستشفى وفقدت كل صلة بجميع معارفي لفترة معتبرة، كان ينبغي أن أساعد أُمّي في رعايتها، لم أكن أقابل أحدا حتى السيّدة سميحة أهملتها في تلك الفترة. ولكنني أعدك بعدم التغيّب عن زيارتك مرة أخرى. سأتي إليك كل يومين" راحت تعد بأي شيء، كيما تلطف من كآبة العجوز

_ " ليس هذا من مسؤولياتك "

إنّ العجائز المتناقضات يتمتّعن بطاقة فائقة في إرهاق الآخرين بعبء عذاب الضمير ؛ ولذلك راحت تزيد من التوابل التي تصبّ في مصلحتها و تزيد من وطأة الضمير، ستخدش أعصابها وتقودها إلى جلد نفسها بعد قليل

_ " أنت تسدين لي معروفا يا طفلي، وأتى لي أن أتذمّر إن لم تتفقديني وليس بيننا أي أواصر قرابة تذكر، هل أشتكي من رداءة المعروف؟"

_ "بلى" هتفت أثيل وقد انفعلت معالم وجهها وزاد عطفها "إنه واجبي، ويتعيّن علي أن أؤديه

على أكمل وجه. أنت عزيزة علي يا سيدة راضية، أنا ألوم نفسي لانقطاعي عن زيارتك تلك الفترة "

فحملت إليها العجوز بنظرة حنونة ثم غيرت من لهجتها قليلا

_ "لاتفعلي يا أثيل، أعتقد أنك تلومين نفسك على كل الأمور التي تحصل للأخريين، حتى أعتقد أنك تلومين نفسك على الكوارث الطبيعية التي تقع من الحين إلى الآخر، أنت فتاة بسيطة وطيبة وليس عليك أن تشعرى بالذنب، إن كان أشقائي لا يشعرون به. عندما كانوا صغارا، كنت أشعر بالذنب لعدم امتلاكهم أشياء و أمور كثيرة لكي أعوض فقدهم حنان الأبوين، وكذلك كنت أشعر إزاء أي أحد لا يملك أبوين، أنت مثلي يا أثيل، أستطيع أن أفهمك من تلك النظرة الكسيرة في عينيك التي لم أفضل يوما في تحليلها، الموحية بشعورك بالذنب "

انطلقت العجوز في وصلة سرد متاعبها النفسية بعد أن صمتت لبرهة

_ " يعتقد الناس أنّ العجائز اللاتي تجاوزن السبعين قد فقدت كل أمل منهن، وينبغي أن يبعث بهن إلى صندوق مقفل لا يفتح إلا لتقديم الطعام أو الشراب ثم يقفل من جديد، لسن كذلك يا عزيزتي، بعد هذا السن ندرك ما يكتمه كل إنسان "

_ "تدركين ما يكتم؟" اضطرب صوت أثيل، هل يمكن لهذه العجوز أن تدرك ما يكدرها، هل علمت هي أيضا؟.

_ "نعم، أعرف لقد كلّفت نفسك مسؤولية والدتك و شقيقتك. وأنت تشعرين أنّ ما منحته كان ناقصا. وهذا ليس عادلا، انظري إلى حالي، لم أتزوج و أكوّن أسرة في سبيل أشقائي وشقيقاتي، نزحت إلى البقاء وحيدة في سبيلهم، أمّنت لهم حياة مستقيمة هانئة، ثم لا يزورني أحد منهم كما ترين، ولست أحظى إلا برسائل قليلة مرفوقة ببعض المال. لا أريد مالا ولا رسائل، أودّ أن أشعر بوجودهم بجانبني أن أراهم، أستمتع برؤية أطفالهم يلعبون ويمرحون حولي، أودّ لو يشاركونني الوجبات بدل أن أتناولها وحيدة، أودّ أن أعثر بينهم على شخص يعطف عليّ، يشعرنني أنني إنسان، يصرّ على اصطحابي في نزهة خارج هذا الجحر الموحش" واستولى على العجوز عاطفة مريرة، وبرز في عينها بريق حزين.

_ " هناك على الدوام أشخاص يدفعون الثمن، ليس لأجل أنفسهم؛ بل لأجل غيرهم و بالمقابل هناك أناس دائما يستفيدون، وفي النهاية لا يقرون بشيء ثم يعتبرون أن المعادلة كانت منصفة، وأن واجب الفتاة الكبيرة أن تهب حياتها لخدمتهم كما تهب الراهبة نفسها لخدمة الدير، ويتررون أي أنانية تصدر عنهم، فهاهو شقيقي الأصغر مثلا يبعث لي رسالة جافة، يشرح لي بغير مراعاة لمشاعري أنّه أضحى مسؤولا عن عائلة و ليس عليّ معاتبته لعدم إغداقه الزيارات. و دعيني ألفت انتباهك أن شقيقي الأكبر منه بعثت لي برسالة أخرى طويلة تعدّ فيها الأسباب

وتمنحي مبررات تافهة لانعدام الزيارات: إن زوجها على حد قولها يمانع تنقلها بين ولاية وأخرى، كما أنها تنتظر مولودا جديدا. وباليستي كنت بلا وعي عندما قرأت الرسالة الثالثة، فأحدى شقيقتي لا تزال تعتبرني مجرد راعية للمنزل ووعاء عديم الشعور لإلقاء الهموم فيه أو زاوية تكديس الطاقة السلبية، ذكرت في رسالتها تشتكي وتروّح عن نفسها المغتمة، لأنها كانت تتميز غيظا، من تصرف وضيع غير مسؤول أقدم عليه ابنها الأكبر. تصوّري ماذا فعل يا أثيل!"

"ماذا فعل؟" سألت أثيل بفضول مكشوف، فراضية لديها أسلوب جذّاب في سرد الوقائع.

شبهت راضية شهقة كثيفة

_ "لقد تزوّج فتاة من ذاك الصنف، تدرकिन قصدي؟"

لقد أدركت وحصّلت نفسها من كشف الانفعال و طافت حمرة خفيفة بوجنتها بينما رعد

قلبي

أردفت راضية:

_ " حتى مع رفض شقيقتي الهائج. أجل، أجل، ذلك ما حزّ في نفسها، إنّ الفتاة ليست ظاهرة، فلا شكّ أنها قد أسبقت زواجها بعلاقات متعدّدة، وأنها نامت على عدد ضخّم من الأسرة قبل الزواج، وذكرت في الرسالة أنّها لن تصفح عن فعلته أو تمرّرها دون عاصفة مهولة، مصنّفة عمله ضربا من الوضاعة المجنونة، كما أنه ضرب خادش لتعاليمنا وعاداتنا، وكتبت أيضا بيد مرتجفة لخروجها عن الخط باستمرار وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على غليانها غليانا شديدا. كتبت أنّها لن تسمح لتلك الفاسقة ذات الشعر الأصفر والعيون الزرقاء الخبيثة أن تطأ عتبة بيتها الشريف، لأنها ستدّسه، وذكرت أن ما يقودها إلى الاشتعال غضبا، محاولة زوجها إقناعها بتقبّل الفتاة كزوجة ابن لهما وإلا يصعب عليهما الإفلات من فرضية خسارة ابنهما، هذا ما جنّتها، كيف يقف زوجها هذا الموقف، فظيع، فظيع "

_ "هل،، هل،، هل توافقين شقيقتك على مبدئها؟" قاطعتها أثيل بصوت ضعيف واهن وبنكسة

في حلقها.

_ "أنصتي يا حبيبتي، لو كان الولد ابني بدل أن يكون ابنها لما سمحت مطلقا بهذا الزّواج. لا توجد أمّ ترضى. بوسع الأمّ تقبّل الفتاة مشلولة القدمين، عمياء العينين أو حتى فاقدة أحد ذراعيها، ولكن ليست فاقدة عفافها. ولو استنفذت الفتاة حياتها بطولها تعدّد الأسباب التي دفعتها لتدلي بنفسها في مستنقع الدعارة والعهر، لما غيرت قيد أنملة من مواقف البشر، لأنّ انطبعا وضيعا تكوّن حولها، ستحلّ كل القضايا الصعبة بجسدها، هي العملة الوحيدة التي تعرفها، لا تعرف سواها، تدفع بها النوايب بحكم العادة، ولن تتطّبع بأيّ طبع حميد حتى ولو

تغيّرت ظروفها"

كانت أثيل تغالب المهما كيلا يطفو على وجهها وراحت ارتعاشة عرضيّة تحكم السيطرة على يديها المحجوبتين تحت حقيبتها عن ناظري العجوز، تمتّ بقلب مفجوع لو تتفادى العجائز الخوض في هذه المسائل التي تزعجها، حينًا لو تعود إلى النقطة الأولى، حينًا لو تستطيع حبس انفعالها، ولكن العجوز لن تفلت الموضوع من يدها، لن تلوذ بالصمت لسببين، كونها لم تثرثر لأيام أما وقد انطلق اللسان من عقاله فلن يثبته أشدّ الأوتاد، أما السبب الثاني كونها في غاية الحنق من سلوك أشقائها، ستتكلّم حتى يتلاشى احتدامها بالكامل، وليس من إنسان بأئس تلقي عليه الحمل أحسن من هذا الكائن المتألّم، هذا الكائن الذي كان يستعركمدا، هذا الكائن الذي أحسّ أنها تقصده و تبغضه بمثل بغض شقيقته لزوجة ابن غير طاهرة.

_ "لكن هناك زوايا مختلفة ينظر منها الرجال، لا تنظر منها النساء" تابعت العجوز وحقد طفيف يراود عينها الغائرتين، كمن تستخرج من القضية سهمًا تصيب به شقيقته في قلبها، إثرها فخورة بصنيع الابن الذي انتقم لها من أخت مهملّة، ناكرة للجميل.

_ "الرجال عنيدون عندما يقعون في الحب و يغدون حمقى و الحمق يسكر عقولهم فيتغاضون عن أهم القضايا المبحّلة. ولئن استطاع الأحمق أن ينسى لها عارها، فإن المجتمع لن يدعه ينسى طالما هم يعلمون. أجهل الخيوط الرفيعة التي قادت أختي للمعرفة، ربما ذلك الغبي ابنها قد صارحها. هناك أمور يُفضّل عدم اطلاع العائلة عليها، ينبغي أن يتركها الرجل طيّ الكتمان مثل أعماق البحر. رأيت أين الخلل يا حبيبتي؟ ليس عار الفتاة، بل معرفة الناس بالأمر. انتقدت أختي الفتاة في نقطة أخرى بعدوانيّة. ذكرت أنها هي المسؤول الأول و الأخير عن هذا الشقّ الشاسع بينها و بين ابنها، إذ أنها أغوته بجمالها فغضّ الطرف عن خزيها. سألفت انتباهك أنّ شقيقي تتمنى ارتباط أبنائها بفتيات جميلات ذوات شعر متموّج أصفر و عيون زرقاء.. لأصدقك القول، لولا علمها لكانت الآن في الرسالة تذكّر لي أنها سعيدة و مسرورة لاختيار ابنها الموقّق لفتاة جميلة. إذا كل العقدة في معرفة الآخرين و ليس الإثم المرتكب، كل مستور مقبول و كل مكشوف مرفوض و مدان"

زاولتها رجة يديها و استرخى وجهها المتقلّص فغدا مرتاحا نوعا ما، و باشرت تطرح سؤالًا على العجوز

_ "هل تقصدين أن هناك صنفا من الرجال يغفرون هذا النوع من الأخطاء؟"

_ "ذلك يعتمد على طبيعة الرجل أولا" أجابت بغطرسة عجائزية معتدّة لأن أثيل أبدت نوعا من الاهتمام، ولهذا اندفعت تمنحها فلسفة مجانيّة عن الحياة مثل معلّمة بطاقة متفجّرة، ثم

هي تفعل هذا عامدة كيما تثير إعجاب الفتاة فتدأب على زيارتها.

ـ "ثم على حجم الحبّ الذي يكَنّه لك. فكلما أحبّك أكثر، تغافل عن أفضع الصفات فيك، وما الحبّ يا عزيزتي إلا حجاب يغطي كل العيوب حتى إنه ليجلّمها بمنظر جميل. إن المحبّ لا يرى عيوب الحبيب كأنّه ضير، وإلا لما أعتبر هذا حبًا "

ـ "وماذا عن كرامة الرجل" استفهمت أثيل متظاهرة بعدم الاكتراث، فقد نظرت إلى فقاعات الصابون تتلاشى تدريجيا من وعاء الغسيل "ألا يعتبر ذلك إهانة لكرامته؟ "

ـ "كرامة؟" و بدت العجوز مستهترة "أي كرامة يا عزيزتي، إنّ الحبّ يلغي الكرامة رفيعة المقام، ويخدر عقل الإنسان فتبقى الساحة فارغة ليتصرّف القلب كما يريد، ويأمر بما يشاء ويطاع فوراً. وعندما يترك الرجل حرية التصرّف لقلبه، يحقّق المعجزات للفتاة التي يحبّها ويغفر لها حتى ارتكابها تلك الجريمة في حق شرفها، وإذا كيف تفسّرين إقدام هذا الغيبيّ، عديم العقل على الزواج بها. رغم مقدرته على مضاجعتها دون زواج، بمقابل بسيط فقط بعد التفاوض معها، اعذريني على هذه الكلمة فهي لا تناسب عزاويتين مثلنا " و ضحكت "ولا أتصوّر أن ابن شقيقتي يخاف الله كثيرا بحيث يمتنع الزنى، لقد أحبّها بصدق ولم يطاوعه قلبه أن يفعل بها ما فعله رجال آخرون، ثم يتركها لهذه الحياة القذرة. فشاء أن يتطوّع و يمنحها حياة كريمة. ألا ترين ما هي خسائره؟ خسر أبويه و أشك في مقدرته يوما على نيل احترام المجتمع، لقد خسر كل شيء ليُكسب تلك الفتاة حياة كريمة. هذا هو الحب يا طفلي."

وشردت أثيل بخيالها فيما ظلّت عيناها مثبتتين على فم العجوز المنكمش مستعرضة مواهبها المترفعة. إنّها لتطبع كارهة هذه الأفكار، ولم يخامر عقلها يوما إمكانية طاعتها كفرا مارقا كهذا، قاب قوسين أو أدنى من الإلحاد بالمعتقدات السالفة. و إنّها للحظة ثمينة ككتر نفيس لقرصان البحر. وتسَلّحت بعدم التصديق، بالتجاهل. فلم تلبّها الحكمة إلا بالتقهقر أمام جبروت عبارات العجوز، و مرّت صور خليل تختال مبتسمة لها فخفق قلبها خفقانا قويا.

لا إنّها لن تؤمن بهذه الخرافات، إنّها لن تتزوج يوما ما، وقّعت وثيقة سلمها هذا الحق، ولكن،،،، الحب،،،، لا،،،،، إنّّه غيبيّ،، هو يحبّها.. تزوّجها رغم عارها... المجتمع ... وهكذا تصارعت الأفكار في عقلها فلم تتشبّث بأيّ واحدة .

ـ "هناك دائما استثناءات في الحياة يا عزيزتي أثيل، إنّها ليست معادلة رياضية، ليست واحد زائد واحد يساوي اثنين، ليست رياضيات أو نظريات ثابتة غير متغيرة، ليست المشاعر مقادير قابلة للقياس، بل هي أشياء لا يمكنك الإمساك بها بيديك أو عقلك، أشياء فائزة منك، أكبر منك أقوى منك، تغلبك على الدوام، ها،،،، لقد توغلنا كثيرا في هذا الأمر "قالت العجوز مستدركة،

وعاودها الغضب ثانية، أما أثيل فهي لم تعد بعد، أين هي بالضبط؟ في عالم يبيع كل شيء، أو آخر لا يسمح لها بشيء، من هي؟ على أية حال، ماذا تصنف في دنيا لم توفر لها إلا الأعباء والآلام والخيار الواحد؟

_ "أثيل، أثيل" كزّرت العجوز نداءها ملوحةً بيدها

_ "أنا أصغي" قالت عندما عادت من رحلة الشرود الطويلة.

_ "لا لست تصغين، أفترض أنك تعتبرين ابن أختي غيبًا أيضًا" قالت العجوز ثم استطرقت

بشكل دفاعيٍّ

_ "هو شجاع يا حبيبي، لقد واجه الدنيا بأسرها لأجل الفتاة، أستطيع أن أحترمه رغما عني مع أنني أعارض القصة بمجملها" تنهّدت هكذا بقيت يا أثيل، أعيش وحدي وأستقبل الرسائل المثقلة بالهموم وأحترم الانحراف عن الطريق والتعاليم، ولا أتمنى لك نفس المصير" نظرت لها بعطف يحمل صوتها شيئًا من الحسرة "نحن متشابهتان يا أثيل، فكلتانا وهبت حياتها لأجل عائلتها على أنك أحسن مني"

_ "أحسن منك!" استغربت أثيل بأسلوب رصين مستفهم.

_ "نعم أحسن مني بكثير" أجابت العجوز بإصرار، بتعبير محدّد من وجهها وتجوّلت ببصرها في الحجرة ثم توقّفت لتدقّق النظر في مزهريّة خشبية طويلة العنق كأنها تقرأ منها "إنما الشباب خدعة، فخّ مطمور لن تكتشفه حتى تقعي فيه، أنت شابّة الآن، يافعة، جميلة، قادرة على أن هذه الأشياء لا تدوم لأحد، ولن تدوم لك" لا تفارق لمعة الندم عينيها

"لا تزالين شابّة صغيرة، لم تقعي في الفخّ بعد، بوسعك تكوين عائلة، أحذرك من البقاء بدون زواج لأجلهنّ، عندما تكبرين وتضحين هرمة مثلي ستفهمين ما كنت أعنيه، وستذكرين نصائحي، ستمكثين في بيت مهجور موحش لوحدهك تحدّثين نفسك كمجنون، وتأكلين لوحدهك كمشرّد. لن تنعمي أبداً بأمور طبيعيّة، ستضعين صحنًا واحدًا وترفعينه ببؤس، وهو كما هو ممتلئ بالطعام لأن شهيتك لن تسعفك، وفي الليل ستخافين، وتزورك الوسواس، وسيهش الندم نبضك، نعم في الليل عندما تخدم الأصوات ويهجع الناس لبيوتهم. تتكالب عليك الذكريات فتغرس فكّك في روحك مما يضاعف عذابك. لن يسأل عن أحوالك أحد، ولن تقدرنا تضحيتك الثمينة. وكل ما ستكرّمان به هو رسائل من عهد السعادة فيما ترزحين أنت تحت عبء الوحدة، وإن كانتا مقيتتان جدا ستنصّبانك وعاءً لخدع الهموم بصفاقة أنانية بفعل تصوّرهما أنك خلقت لتتحمل وتحملي أعباءهما إلى أن تلفظي أنفاسك، لست أخيفك يا أثيل؛ بل أمنحك صورة مستقبلية واضحة شقافة مثل الزجاج عن وضعك عندما تهرمين. إن الناس

لا يسمحون لك أن تشتكي بعد الاستسلام الطويل لأهوائهم، هل تفهمين يا أثيل؟، هل تدركين ما الذي أصبو إليه؟"

كانت عينا العجوز تنطويان عن حزن عميق، ويكتنفهما ألم سحق روحها، ألم راحت ترجمه لصيغ حيّة. لقد نسفت بكل أحلامها من أجل أناس لا يستحقون، واكتشفت هذه الحقيقة بعد فوات الأوان. أو ربما انطفأت كشمعة لتنير دروبهم. وفي الأخير أضحت هي وحيدة بين جدران الظلام. هذه هي النتيجة التي سلّطت عليها الضوء، على أنّها تفتقر المعرفة بأمور سرّية، لقد خلقت أثيل لنفسها حاجز صلدا يفوق المسؤولية و التضحية بسنوات العمر من أجل العائلة وتعدّائها إلى التضحية بالجسد والشرف والعفة، حاجزا مرتفعا بينها وبين الزواج والرجال.

- "نعم فهمت" قالت أثيل بنغمة بطيئة تفتقر إلى الحرارة "إنني آسفة لأنك تشعرين بالفراغ، وهذه المشاعر الحزينة آسفة لأنك تعيشينها، ولأنك أُجبرت على البقاء وحيدة."

- "لتكن قصتي عبرة لك" زفرت العجوز زفرة أسي حازة "احذري أن ترتكبي نفس أخطائي، لا تضحي بنفسك وتكوني كبش الفداء، مازال لديك فرصة الزواج وتكوين عائلة جميلة" وفجأة تذكرت إخبارها شيئاً مهمّاً "أثيل هل علمت أن السيدة أسماء فقدت ابنها منذ أسبوعين، لقد مات المسكين وهو لا يزال شاباً صغيراً"

صاحت أثيل متفاجئة وتحول لون وجهها إلى مصفرّ شاحب "مسكينة، كيف حالها؟"

- "ليست بخير، تكاد تفقد صوابها، زرتها لأعزبها، راحت تلطم صدرها وتبكي بمرارة، مرارة الفقد، إنه صعب يا حبيبي"

- "كيف مات؟" سألت أثيل بعاطفة متألمة مشفقة

- "ااه" تأوهت العجوز وتهدت تهيدة مقلقة "في الواقع لا يستطيع المرء أن يحدّد إن ما كان حادثاً عرضياً أو انتحاراً؟"

- "انتحاراً!" خرجت هذه الكلمة من فم أثيل ترافقها دهشة متأثرة "ولكن لما عساه ينتحر؟"

- "لا أجزم بذلك، لست متأكّدة يا فتاتي، لقد راجت هذه الإشاعة في الأوساط، لكن ليس من تأكيد، في الواقع كان الشاب مصاباً بمرض الاكتئاب، لقد وقع من مرتفع شاهق وتحطّمت جميعته ثم مات من فوره قبل أن تغرق جثته في البحر، ولهذا احتار الناس بين موت طبيعي

أو مخطّط له" وابتلعت أثيل ريقها بصعوبة ضاغطةً يدها على رقبتهَا واكتنف عينها بريق الفزع، ثم أحست بأنفاسها تتسارع بسبب خوفها من المرتفعات و البحر. لم تجرؤ يوماً على الوقوف من على مكان شاهق، علاوة على هذا كانت تخاف من البحر والموت غرقاً حيث كادت تغرق في صغرها نتيجة إغفال أمها و تابعت العجوز تحلل الواقعة

_ " أنا استبعد نظرية الانتحار رغم أن الناس يغطون فيما بينهم، لو كان ذلك هدفه، كان يستطيع أن ينتحري في البيت؟ لماذا يلجأ إلى مكان بعيد و يفعل ذلك، كان يمكن أن يشنق نفسه أو يتناول أدوية تتسبب في موته. على الأرجح أنه كان حادثاً فعلاً، مسكين، لقد عاش حياة بائسة غير طبيعياً كغيره من الشباب، و أكثر منه بؤساً هي أمّه،، كان سينفطر قلبها إلى آخر يوم في عمرها لأنه غادر الدنيا بهذه الطريقة المدمّرة، إن احتمال كون الحادث عرضياً يبرد نارها، أما احتمال انتحاره، هذا الاحتمال يحرقها ويفطر فؤادها. لهذا لفقت كذبة" و صممت أسفة، مجمّدة فمها" رحت أزعم أنني صادفته ساعتين قبل وفاته، و كان مغتبطاً بسبب تحقيقه أمنية عزيزة على قلبه، و ذكر أمامي أنه ذاهب إلى البحر ليستنشق بعض الهواء العليل ثم يعود فيبشرها بالخبر، لقد كذبت يا طفلي، كذبت عليها لأسكن ألامها و قد سكنت فعلاً. هل أخطأت؟"

_ "لا" تفاعلت أثيل دون تفكير" لم تأتي أي خطأ. على العكس، ذلك عين الصواب يا سيّدة راضية، من الجميل أن الفكرة طرقت عقلك "

_ "أحمد الله لأنك توازيني، أشعر بالذنب لكذبي عليها، أنا مثلك يا عزيزتي أكره الكذب والكاذبين "

_ " سأزورها قريباً"

وشيّعتها إلى الباب عندما حان أوان انصرافها ثم ودّعها مطرقة رأسها جزعة، ستغدو وحيدة من جديد كجزيرة نائية، و أحست العجوز أنّها أنانية. و أرادت أن تشعر شعورها أفضل فلم تستطع.

_ "لا تحزني سأزورك قريباً" ختمت أثيل باقتضاب وودعتها

تشاركت المرارة مع الأسف في ضرب السلام المتبقي في قلبها، وهاهي غيمة من الاضطراب الكثيف تتصاعد فوق شخصها وهي تخطو بثناقل عائدة إلى البيت. فشقيقتها تحقد عليها منذ أن واجهتها، والرجل الذي تحبه اختفى منذ ثلاث أسابيع، ثم هاهو وضع العجوز الوحيدة يؤرق راحتها، وفي الأخير، في سبيل أن تصبح الأمور أسوأ يأتي النبأ الصادم عن وفاة ابن السيدة أسماء.

حاصرتها الهموم وركلتها أقدام الحسرة، أمسى المطالعون لوجهها مطلعين على أغوار نفسها، إنها شاحبة كئيبة، تفحصت عيناها السوداوان الجميلتان المارّين بمحاذاتها، كانت وجوها متقلصة عابسة لا تنطق إلا تجهّما، كل إنسان يحمل على كاهليه عبئاً مرهقا.

الفصل السادس

من ناصية الشارع التقط نظرها سميحة تغلق باب منزلها خلفها. فانشرحت أساريرها، وأحسّت أن كدرها يتلاشى في مدى نظرها، أحيانا لا تكاد تدرك السرّ العظيم خلف ارتياحها لهذه المرأة المجنونة،، وتجد صعوبة في جواب (كيف حدث وأن نشأت صداقة متينة بينكما، عقليكما كجبل وحبّة قمح متجاوران، وفيما ينبغي أن تمثل سميحة بعقلها جبلا شاهقا، لا يبرز لأي إنسان إلا كحبة القمح؛ بل باحتمال أنه أصغر حجما منها؟)، هي تعرف فقط أنها تحبّها حبًا جليلا، وتأنس برؤيتها حتى مع خوارها عن المشاريع والأعمال و عواقب فشلها، حتى مع مظاهرها المتهورة وكلامها المقذع.

وتحرّكت بسرعة صوبها، وعندما أصبحت على بعد خطوات قليلة، شرعت سميحة تتشّدق:

ـ "أثيل لقد غدوت فتاة متحرّرة جدا، ما هذا!! تأتين في هذا الوقت المتأخّر" قلّدت أسلوب أمها ووجهها محمّر جزّاء تطبيقتها وصفة غير مناسبة لبشرتها الحساسة.

استأنفت وهي تتحصّس وجنتها

ـ "كيف يبدو وجهي؟، أشعر أنه موقد، لست مطمئنة لهذه النتيجة، ادعّت الغبيّة ريحان أنه يشدّ البشرة، كيف تجدينه يا أثيل "

ـ "لا يبدو طبيعيّ" أجابت أثيل بعدم اكتراث "إنه قرمزيّ، بشرتك حساسة يا سيّدة سميحة.

لكن لا تقلقي، ضعي عليه فقط قطعا من الثلج البارد و سيزول بعد قليل "

ـ "تلك فكرة صائبة، سأطبّقها بعد عودتي من المتجر، أنت مدعوة لتناول المعكرونة على الطريقة الإيطالية "و ابتسمت هازئة رافعة حاجبيها في تعبير مشكّك، لارتياحها في مواهب ابنتها "إن ريحان تعترم مفاجأتنا، تعالي لتُدْهشي معنا " .

فهتت أثيل المغزى من العبارة فابتسمت بفتور، إذ أن آخر مفاجأة أعدتها ريحان لا تزال عالقة في ذاكرة لسانها.

"هل وصلك النبأ المؤسف؟" استفهمت سميحة فجأة دون مقدمات

ـ "أرجوك يا سيّدة سميحة "علّقت بنفور، معرضة بكفّ يدها، ووجهها ينكمش "لست بمزاج مريح يبيع لي سماع أبناء سيّنة، فمنذ قليل تلقّيت نبأ وفاة ابن السيّدة أسماء، لقد فارق المسكين الحياة إثر سقوطه من مرتفع شاهق عن البحر"

_ "ااه، لم يصلني النبأ ليرحمه الله" و انقلبت لمسة الهزل في صوتها إلى نغمة رزينة حزينة، وطفقت عينها تومضان تعاطفا، لكن لم يبرز تعاطفا مع مصاب العجوز أسماء؛ فهما لا تجمعهما معرفة متينة

_ "سأخبرك على أية حال، لا تخافي على هذا النحو، لن يشكّل أي فرق كبير لديك، بيد أنني أستلطفه" و غشيت عينها حسرةً طفيفة.

_ "ذلك الشاب، ما كان اسمه؟ دائما ما أضيع اسمه و يغيب عن عقلي".

_ "أيّ شاب؟" استوضحت أثيل.

_ "ذلك الصحفي، ما كان اسمه؟ الذي يشتم الحكومة؟، الذي قال إنّ وزير الصناعة لا يليق حتى بوابًا".

_ "خليل؟" نطقت أثيل اسمه بارتعاشة في شفيتها، و انكفأ لون وجهها

_ "ااه نعم اسمه خليل، إنّه الوحيد الذي يقول للحكومة: اذهبي إلى جهنّم؛ ولهذا أنا اقدره..."

_ "ما به؟" قاطعتها بحزم بصوت يقترب إلى الزعيق و قلبها يرتعد "ما الذي أصابه؟"

_ "ااه يا حبيبي، لقد تعرّض لحادث خطير، قد لا ينجو منه...، مسكين.. ذاك الشاب..،"

إثر هذا النبأ امتقع وجهها و ابيضّت شفتها، و سرت في أمعائها رجفةً سوداء سريعة، شاعرة بصدمة متوحّشة بربرية. إن الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب، راح ضجيج الأطفال وكلمات سميحة ولعلعة الأصوات البعيدة يندمجون في نغمة واحدة غامضة تتسلّل إلى أذنيها كصوت ضبابيّ متدرّج دون أن تحفل بتحليل كل كلمة على حدى. و راح الجيران يمرّون إزاءها كمجرّد أجساد تلتقطها عينها ألياً غير أنّها لا تراهم أو تميّز هوياتهم، ولا يعنون لها شيء البتة. كانوا يحيّونها تحية المساء بينما هي لا تسمعهم، بل تسرّبت أصواتهم هي الأخرى إلى أذنيها كمجرّد كلمات مهموسة غير مفهومة بوعيمها الغارق في العتمة، كخربشات عرضية عديمة اللون على الحائط، كانت صورهم هلاميّة، وأشكالهم متشابهة، لقد تمزّق قلبها إلى أشلاء أشلاء و اندثر في الفضاء الرحب، و غدت الحياة لا تعني لها إلّا واجبا شاقاً كمريض في غيبوبة، إنّها منفصلة و متصلة بأن واحد عن العالم المادّي، و خلا رأسها من أي فكرة باستثناء واحدة كسيحة خطيرة " قد لا ينجو، لا ينجو". إنه بين أنياب الموت وإن ما سرقه الموت، لن تستطيع العيش لحظة هائلة بعده .

مضت فترة من الوقت و سميحة تسرد عليها الوقائع بتفاصيلها الدقيقة التي تعودت تقديمها حول أي مسألة، على أن و عيها توقّف عند لفظة الموت، و لم تعد قادرة على استيعاب معلومات جديدة، و لم تكن مستسلمة لفكرة الموت يوماً كهذه اللحظة السقيمة. لقد فرضت

فكرة الموت نفسها عليها فرضا عنيفا.

واستفاض الجزع في قلبها، وشرعت نبضاته تتباطأ بصورة مقلقة، واقتبست من المجانين تحت رحمة العقاقير المهدئة هيئة نموذجية، أما عقلها؛ فأحسّت كما لو أنه مشلول بفعل المصيبة النكراء. كانت محتبسة الأنفاس، جامدة التعابير بعينين شبه مخدّرتين .

لم تأمل يوما أن تكون جزءا هاما من حياته، وهو حتى لا يعلم بوجودها، يجهل أن هناك فتاة في ناحية ما في هذا العالم الفسيح تكنّ له مشاعر عملاقة خالصة مفعمة بالافتتان النقي، ولو قُيِّض لأحد كشف خبايا قلبها لقرقر حتى سالت الدموع من عينيه، ولتحفّزت دعاباته المسلية حول جنونها. حتى هي إنّها لتقف موقف المشدوهة الحائرة حيال هذا الحب التي لا تستوعب له تفسيراً .

وفجأة لم تعد تشعر أين هي على وجه التحديد، وحركاتها أضحت لا إرادية فارتدت إلى الخلف قابضة بيدها على حنجرتها ، واستدارت على عقبها دون وعي منها كسائر في نومه متوجّهة بصورة آلية نحو باب البيت، فيما لا تزال سميحة تتحسّر على الوضع الخطير الذي آل إليه، ولم يعد سمعها يلتقط بنت شفة بعد معرفتها بالنبا القاصم، كان وجهها قد ازداد شحوباً على نحو مخيف، فاستحال كقطعة من ورق، و كانت عينها العاجزتان عن البكاء ساكنتين خاملتين وأهدابها انعدمت رفرفتها كأنّ للصدمة معنى آخر تجلّى على وجهها الشاحب الواقع في الكارثة الصماء، وما إن سارت خطوتين حتى فقدت توازنها ثم ترنحت كترنّح ورقة خريف مصفرة يابسة، ووقعت أخيرا على الأرض مغشيّاً عليها.

بعد أن استعادت بعض وعيها حاولت أن تتبيّن حقيقة ما جرى، غير أنّها لا تزال تشعر ببعض الدوار مما أفقدها القدرة على التفكير في الثواني الأولى، راحت تحدق إلى السقف بنظرة واهنة ،فمها فاغر و يداها مرخيتان ، وعندما عاد وعيها كلياً، وجدت نفسها مستلقية على السرير المعدني الضيقّ في غرفة الضيوف، وأمها جالسة إلى جنبها ضاغطة على يدها بقوة وأمارات قلقها المعتاد قد رُسمت بيد فنان ماهر على وجهها متجليّة على سحنة مدعورة. فيما كانت سميحة منحنية فوقها تستغرب من الذي أصابها وتكرّر تلقّظ اسمها وشقيقتها واقفتان كلا على حدى، فياسمين الصغيرة راحت تضغط بمنديلها على فمها مرتعدة الفرائص؛ فقد أثارت الواقعة فيها اضطراباً مهولاً، كانت جامدة في نقطة قريبة من أختها المغشيّ عليها، أما ميرنا فكانت عاقدة ذراعها تحت صدرها مسندة ظهرها إلى الحائط، ووجهها خال من أثر الاهتمام؛ بل تبدو تقريبا هازئة من حالة أثيل، وراحت ابتساماً ساخرة تراقص على شفّتها خفية. تحركت بخطوات وثيدة متريثة صوب المطبخ عندما بلغتها أوامر أمها الصارمة بإحضار

كوب ماء على عجل، يلتهب عقلها بنار الحسد -"إنّها محور اهتمام الجميع باستمرار، ومنذ طفولتها تسرق الأضواء. بعد فترة يسيرة ستطرق باب البيت أياد متوجسة متخوفة، فالجميع شاهدوا من شرفاتهم فصل إغمائها في منتصف الشارع. ستحتشد عتبه الباب بجيران يعلو قسّمات وجوههم قلق أنيق، لو أنّها هي التي أغمي عليها لن يشكل هذا فرقا عند أحد".

أحفظتها الخاطرة فكزّت على أسنانها، وغزت عينها نظرةً حقد "لن يحفل أحد بي، فهذه المسماة سميحة لن تعبأ إن مرت فوق شاحنة ثقيلة وتحول جسدي إلى نتف صغيرة. هذه الدنيا ليست عادلة، فكيف توهب تلك الداعرة هذا العدد من المحبّين بينما أنا،، أنا لا يحبّي أحد، لا يحفل بي أحد"

سكبت الماء في الكأس حانقة ثم ضغطت عليه بأصابعها متوعّدة "ذات يوم، ذات يوم، نعم ليس الآن، عندما أتزوج رجلا مناسبا، وأضمن مستقبلي ثم أنجب طفلا، سأفضحها أمامهم جميعا وأنشر عارها كما ينشر الغسيل على الحبال فوق السطوح. عندئذ سأشعر بلدّة عظيمة وأنا أفعل ذلك، سأخبرهم أي الدنينات الساقطات هي هذه المنافقة، أنا أقطع عهدا على نفسي، عهدا لا يخيس "

وضربت صدرها بكفّ يدها ضربات متلاحقة "عندها ستطيب نفسي، وأرتاح وأنا أملأ عيني بمنظرها تدفع ثمن أثامها، نعم هناك فقط، ما من مكسب نافع إذا ما فتحت فمي الآن وفضحت عارها، سيضعونني بنفس المستوى معها، ويعتبرونني سيئة السمعة مثلها، وكأنني أنا من ارتكبت الزنى، ولن يقبل الزواج مني أي رجل، لن تكون لدينا أنا وياسمين أي فرصة، ااه ما أقسى الحياة "

_ "كل هذا بسبب طعامك القليل، أنت ترهقين نفسك في العمل، ولا تتناولين كمية مناسبة من الطعام "صاحت الأم بصوت منتحب معاتب "انظري إلى العواقب، لقد أغمي عليك في الشارع ووقعت على الأرض"

فتحت أثيل فمها لتردّ على أن الدّوار خنق الكلمات قبل بلوغها شفيتها . كان وجهها لا يزال شاحبا و عيناها شبه مغمضتين توّزع النظرات بقلّة إدراك بين السقف و أمها ووجه سميحة الغارق في الحيرة.

_ "اشربي بعض الماء " و جرّعتها رشفة ماء، وعندئذ استرجعت المشهد الأليم، لقد تذكّرت كل الذي جرى دفعة واحدة بحسرة شامخة شموخ جبل عات. لقد أنبأتها سميحة أن غالبا خليل تعرّض لحادث خطير وهو في عداد الأموات؛ فانفطر قلبها ثانية و سرت موجة من الانفعال في جسدها دافعة الوجه الجميل إلى التورّم المفعج، لكنّها حاولت تنسيق أسارير وجهها المتقرّح

بصورة تناسب أهواء أمها المدعورة.

_ "ما الخطب" استفهمت الأم و عيناها الملختان تنشدان تفسيراً.

_ "أريد الذهاب إلى غرفتي، أشعر بتحسّن، أنا أفضل حالا " اندفعت أثيل محاولة إنهاض نفسها وقبل أن ترفع جسدها قليلاً أوقفها يد أمها المنفعلة، و صوتها تخالطه خشونة لاذعة.

_ "ليس بهذه الحالة ستذهبين إلى غرفتك، أنت دائخة وتشعرين بالدّوار، ابقِي مستلقية"
فأرسلت أثيل نظرة استجداء إلى سميحة، كانت رسالة أكثر منها نظرة، أدركت سميحة أن أثيل تريد محادثتها على انفراد، فقالت بلطف ممزّرة يدها على رأس أثيل

_ "حسنا سأرافقها إلى غرفتها، وأمكث معها إلى أن تتحسّن، حضّري لها كوباً من الزيزفون، سيساعدها على الاسترخاء".

_ "ماذا أخبر الجيران عندما يسألونني ما خطبها؟" احتارت الأم المتيمّمة بطبعها القديم المتخوّف من كلام الناس "لقد شاهدها تقع على الأرض، والذي لم يشاهد سينقلون إليه الخبر قبل حلول الظلام، الجميع سيديري".

_ "أخبرهم أنها تعرضت لضربة شمس" أجابت سميحة بفظاظة، واكتسى وجهها علامات الضجر، كانت عادة القلق هذه تسبّب لها نوعاً من العصبية علاوة على مبالغتها في خوفها من كلام الناس بصورة تجلب التوتّر "أخبرهم أنها تعاني ألماً في رأسها، وإن ما وجدتها أعدارا سخيصة فبشّريهم أنها حامل، ما رأيك؟"

قرقرت ياسمين بضحكة مرتفعة ملأت البيت الساكن، كانت قد استعادت رباطة الجأش، فيما انسدل على وجه أثيل حجاب قرمزيّ أعاد الدم الحيويّ الدفّاق إلى وجنتها. كانت مثل هذه الدعايات عاديّة بين سميحة وابنتها. أما أثيل فهي تفتقر الجرأة للتفوّه ولو مازحة بهذه الكلمة في وجه أمها التي استهجنّت هذا الأسلوب السوقيّ البذيء، وسرعان ما وافقت كارهة على انصراف أثيل رفقة سميحة، تستوطن الغيرة صدرها. فهي تعلم بقدر ما تسعفها ملاحظتها القويّة أنّ سميحة هي مكمّن أسرار ابنتها الكبرى.

"كفّي عن الضحك يا ياسمين" قالت ساخطة مصوّبة نظراتها المعاتبة نحو سميحة "يجدر بالسيدة سميحة تحسين ألفاظها و أن تتورّع عن ذكر هذه الأمور المقيتة أمامك، لا تزالين طفلة "

عندما تحقّقت أثيل أنّها أصبحت خارج دائرة مراقبة والدتها بعد اعتلائها آخر درجات السّلم، جذبت يد سميحة بحركة خاطفة، وسرعان ما دخلت بها الغرفة بتعجّل، موصدة الباب خلفهما، وترتّب عن الحركة استغراب سميحة و طففت تتأمّلها بذهول لافتقادها عنصر

الفهم، ولم تستطع التغلّب على دهشتها، في حين طفا إلى السطح وجّه كئيب مرتجف وعينان كاشفتان عن ألمهما الصريح، عذاب مضطرم استطاعت بشقّ الأنفوس حجبته عن أعين أمها المستجوبة. عبرت الغرفة لتبلغ السرير، هاهما تجلسان على حافته، ثم قبضت على يدي سميحة بصورة غريبة، ليست هذه هي الفتاة الرزينة التي ألفت سميحة الاجتماع بها في الصباحات والأمسيات والليالي القصيرة و الطويلة، وساعات الأصيل البديعة. ليست هي الفتاة الوقورة الحساسة المخدلة إلى الصمت بشكل يدعو إلى الضجر أحيانا، هناك خطب ما لم تدرك سميحة كنهه، تغير طراً عليها ولم يطرق تفكيرها أو تربط بين حادثة الشابّ والأحداث الأخيرة. بل توقّعت أن السبب ضغط في العمل فيبراهيم مكشوفة أساليبه أو على الأرجح أن إحدى العجائز المقيتات تسبّين في زعزعة معنوياتها و جرح شعورها بقصصهنّ المُعبّرة عن الحياة السابقة، ومشاكلهنّ المدلّلة الرخامية. من المرجّح أن السافلة راضية قد حدثتها عن أمور بشعة، عن وحدتها، ونظرا لحساسيتها الشديدة، لم يتحمّل قلبها الرقيق هذا الألم الكبير.

_ "أخبريني بسرعة كيف حاله" سألت أثيل بعينين متحرّقتين، ووجه بائس والدموع في مقلتيها، كان في نظراتها وهجّ مريب وفي صوتها تهشّم جلي.

_ "من هو؟" تفاجأت سميحة، وعجزت عن الفهم "من تقصدين؟"

_ "خليل" قالت ببساطة "أخبريني بسرعة، هل سيموت؟" وانفجرت في موجة صاحبة من البكاء مطلقة العنان لدموعها فيما كانت الحيرة حصريا من نصيب وجه سميحة، ومردّ ذلك عدم استيعابها بأي حال حقيقة الذي يحدث، من الغريب أن يغى عليها، ولكن ليس أغرب من بكائها بهذه الصورة، ما شأنها و البكاء عليه؟ تساءلت في سرها، لماذا لم تندفع هي إلى هذا البكاء الهستيرى؟ أليست طبيعية؟ أتكون كائنا باردا صلبا عديم الإحساس؟ إذًا لقد كان الخبر يقتضي نحيبا بأعلى صوت. لقد تشاركتنا أحاديث طويلة بخصوصه، وأعلنت هي من طرفها أنّه رجل رائع نادر المثال بجرأة خالدة و قلب مقدام. بيد أنّها لم تر عذاب فتاة تبكي لفرط حساسيتها أو لقلبها المرهف الطيّب، لا، إنّها ترى دموعا من نوع آخر، وعندما اصطدمت بالعارضة الشاقة لجمت الصدمة لسانها، تبا، إنّ الفتاة لم تكن يوما كائنا حالما، إنّها فتاة واقعية. ولم تستطع في اللحظات الأولى أن تقرّر طبيعة السؤال.

_ "أنا لا أعرف إلّا الذي نقلته إليك" أجابت حذرة، دون مواجهتها فورا بما يدور في خلدتها "إنّ الرجل في وضع سيئ، وكما أنبأتك تعرّضت والدته لنوبة قلبيّة، وهي في المشفى الذي يرقد فيه ابنها، وحالها ليست أفضل من حاله، لكن لماذا تبكين، ما الخطب يا عزيزتي؟"

جحظت العينان الدامعتان هلعا وانفغر فمها كمدا، ولم تقل شيئا للحظات يسيرة، اذ

احتدمت الأفكار في عقلها على أنّها همهمت بكلمات قلائل بعد قليل
_ "ليست أمّه، إنّها يحبها، ليست أمّه" و انزلقت عن حافة السرير ثم ارتمت على ركبتيها
ضاغطة على اليدين الدافئتين نتيجة الشدّ المتواصل عليهما.

_ "ما الخطب يا حبيبي، ما علاقتك أنت بكل هذا" سألت باستغراب هادر ووجهها صفحة
حائرة، ولم تحر أثيل جواباً؛ بل أطرقت رأسها بنظرة كسيرة وصوت نشيجها المتقطع يلفّ
الغرفة، هذه التي بدت جدراناً هشة لقلب كسير منظر.

_ "ماذا هناك؟" استوضحت سميحة ثانية بنفاذ صبر عندما لم تتلق جواباً يروي عطش
حيرتها، وأمارات الدهشة تنخر قسماً ووجهها. لم تدر كيف تتصرف وهي التي تعرف أن أثيل
فتاة عاقلة ولا تنزلق إلى مثل هذه السخافات التي تتعاطاها فتيات السادسة عشرة، ثم وضعت
يدها أسفل الذقن المدبب الصغير ورفعت الوجه القرمزيّ المنتفخ المهترى، كانت العينان
تسبحان في بحر من الدموع التي عجزت عن إيقافها.

"إنّني لا أكاد أفهمك، لماذا تبكين إلى هذا الحد، كفكفي دموعك، وحدثيني بصدق ماذا
هناك؟ إنّك تحيريني؟ ما خطبك؟"

_ "أشعر أنّ قلبي سيتمزق، إن ما مات؟، إن مات؟" كرّرت وخنقت الدموع صوتها مجدداً
وراح قلبها يقرع كالطبل.

_ "لا أزال أنتظر جواباً" قالت سميحة بكياسة "ما علاقتك أنت به، هل تعرفينه من قبل؟"
_ "أنا أحبّه، أحبّه" اعترفت أثيل بصراحة في مناسبة غير هذه، كانت سميحة ستسّر كثيراً
بفكاهة زاهية مضحكة ترفع من معنوياتها كهذه، وكانت ستقهقه بصوت مرتفع. ولكنها اليوم
تصلّبت مثل عمود خشبي وهرع عقلها المخدر بفكاهة نهاية اليوم الصيفي الطويل يزرّ الموقف،
محاولة ترتيب تشعث الشعر الأملس برفق ومضت ثوانٍ ثم علّقت متظاهرة بعدم الفهم:

_ "كل الناس يحبونه، حتى أنا أحبّه، إن كان همك أن تعرفني، بل إنني أحبّه كثيراً، ولكنني لم
أبك مثلك، إنك كائن بكاء، فائق الحساسية يا أثيل، تبكين لأي أمر، ما أسهل أن تُثار عاطفتك
المفرطة في العذوبة، لندعو الله من أجله"

_ "إنّك لا تفهمين يا سيّدة سميحة" صاحت أثيل ضاغطة على ثوبها وقد أغدق دمعها ثم
رفعت لها عينين بائستين معذبتين، يموج فيهما وميض تعيس لفتاة ألمّ بها مصاب جلل،
وتبخّرت في طيّات الكلمات الكليّة والدموع الرقراقّة، الفتاة الرزينة الهادئة التي كان يعتقد
الجميع أنّها أعقل من أي فتاة.

_ "لا أحبّه كما تحبونه أنتم، أنا واقعة تحت سلطان عشقه منذ زمن طويل، منذ رأيتّه أوّل

مرة وقرأت له أول مرة، بل إنني أموت حبًا فيه، وإذا ما حدث شيء له سأموت هل تفهميني يا سيّدة سميحة؟ أوسعك ذلك؟ "

إلى أي درجة تكون فيها الفتيات ساذجات. سخيفات؟ لقد اتّفق وسمعت سميحة هذا الحوار من قبل، لكن أين؟ لقد تذكّرت، سمعته في إحدى المسرحيات المأساوية، كانت الفتاة العاشقة تؤدي هذا الدور رافلة في فستان مخملي أبيض طويل عاري الصدر عريض الكمين، وهي تحمل سكينًا ذا نصل حاد ومقبض مرصّع بالأحجار. موجّهة إيّاه إلى قلبها صارخة بصوت كئيب والدموع تجري على وجنتيها المورّدتين "سأقتل نفسي فداءً لحبك" فيما يكون حبيبها الفقير مقيدًا إلى أوتاد خشبية في رداء خليف، بانتظار تنفيذ الحكم بالإعدام راجيا من حبيبته عدم البكاء

_ "أحبك يا أميرتي، إن منعوا عنا الاجتماع في الحياة، سنجتمع بعد الموت في عالم عادل خال من الأحقاد" و لحظت بعينها، وسمعت نفسها تضحك ضحكة مكتومة، ولاحت لها أثيل فتاة ساذجة و غير واعية لكن ينبغي عليها الصفح عن هراء الفتاة، فبنات هذا الجيل سريعات التأثير بالمشاهد الغثّة المثيرة للعواطف البلهاء المعروضة أمامهن، ليسامح الله مؤلفي هذه المسرحيات لا، بل ليلعنهم الله، لقد أفسدوا عقولهنّ، لو أن إحدى ابنتيها جثت على ركبتيها بهذه الصورة لتعلن حبا الصفيق لذلك الرجل؛ لدقّت عنقها فوراً، وقرّرت بسرعة: ليس من المفيد معاتبتيها أو التقليل من شأن مشاعرها.

ولوهلة ذاهلة فكرت أنّ الفتاة أصابها مس من الجنون و فقدت عقلها، أي هراء هذا الذي اعتراها فجأة؟ لقد اتّفق لها وإن سمعت هذه الكلمات الغيبيّة من أفواه فتيات حمقاوات كن في مثل سنّها قبل زواجها، حتى هي تذكر عن نفسها هراءً كهذا، من المعقول أن تهيم الفتاة بحبّ ابن الجيران الباسم، أو بائع الخبز المثابر، أو مدرّس الرياضة الرقيق، أو حتى المهندس الوسيم الذي يملك سيارة بيضاء فاخرة، ولكن أن تبكي فتاة لأجل القمر، نعم القمر، فهو بعيد جدا ولا يسع إلا فتاة في المليون الوصول إليه. إن الأمر أشبه بالبكاء على رجل مات منذ ربح طويل، لن تحصل عليه مهما فعلت، وأخذت على عاتقها أمر إرشادها بعقل حكيم، إذ ليس من الصائب معاملتها كفتاة مجنونة وهي في مثل هذا الحال الزرّي والقلب المحطّم. وتدرك سميحة أن أثيل ليست فتاة سخيّة شأنها كالفتيات الأخريات، ولولا ذلك لما كتبت عنها هذا السرّ لتفضحه الآن فخاطبتها بلهجة رتيبة تنسجم كل الانسجام وحالتها الحسّاسة:

_ " تحبينه من غير أمل. حتى ولو عاد إلى الحياة؛ فلن تحسلي عليه أبداً، لأنيّ هدف إذن تشقين قلبك التعيس؟، ثم ماذا تعرفين عن حياته، ربما كان مرتبطاً أو متزوجاً، أنت لم تقابليه

يوما على حد علمي، ولم تتحدثي إليه. هل حدث وتبادلتما حديثا في وقت سابق؟".

_ "لا" حركت أثيل رأسها ببطء "أنت لا تفهميني".

_ "تعالى، اجلسي بجانبى " قالت بطمأنينة وجعلتها تجلس بجانبها بعد ذاك الفصل المروّع " والآن اجعليني أفهمك، لأنّ ذلك يبدو أمرا غريبا، توقفي عن البكاء، إن ما باغتتنا أمك بفتح ذاك الباب، ستعتقد أنّك حامل حقا وستولول حتى يغى عليها".

_ "لست أحبّه لأجل أن أتزوجه " شرحت أثيل و هي تجاهد لتجمع شتات نفسها، سميحة على حق، إذ ما برزت أمها من ذلك الباب المغلق ستسأل حتى يجفّ حلقها، وليست بوضع يبيح لها منح أجوبة

_ "لست أطمع في امتلاكه أو الزواج به. ولتوفّر لي أن أختارلما أحبته أبدا. ولكن ذلك كان قدرى، كان ابتلائي، أنا مصابة به كمصاب بمرض مزمن، إنّه يعشعش في عقلي و قلبي ولا يغيب عتيّ للحظة واحدة، وكلما حاولت نبذ هذا الشعور، يلتصق بي أكثر. أدرك، أنت تعتبريني مجنونة في هذه اللحظة، ولست أعترض، حتى أنا يا سيّدة سميحة أفشل في تحليل السبب الذي جعلني أتعلّق به إلى هذه الدرجة ، ولكن ماذا أفعل أنا أحبّه، أحبّه"

كانت سميحة ترغب في القهوة بشكل صريح، متى تعودّ لسان هذه الفتاة على هذه الكلمة!! لكن الآن يفى بالغرض إبداء نوع من الفتور المرن إزاء هذا المصطلح الشنيع، هي تركزها بين أسنانها كما لو كانت كلمة عادية مثل كلمة الماء، وفجأة تدلّى فمها وتغضّن جبينها، وأحسّت أن يديها بحاجة إلى بعض الحرّية، وإصدار بعض الحركات المعبّرة

_ "حبيبتى أدرك أنّك تحبينه. لا أستطيع أن أقول شيء هذا الخصوص، في النهاية قلوبنا لها ميول مخبول في الاختيار، هذا طبيعيّ للغاية "قالت بهدوء المرأة الصبورة على نزوات طفل حرون" لكن لنكن واضحتين، لا توجد فتاة تحبّ رجل إلا و تطمع في الزّواج به، لاتخدعي نفسك...".

_ "إلا أنا" قاطعتها أثيل وقد اكتظّ قلبها بهذا الحوار، إنّها تودّ أن تعرف عنه أخبارا فحسب . وليس من شأن أي إنسان التحليل عميقا في مشاعرها من المؤكّد أنّها كانت مصيبة لكتمانها أحاسيسها في قلبها، ولم تخبر بها أي شخص "لا يهمني أن أتزوجه؛ فليتزّوج من يشاء، أريده أن يكون حيّا سعيدا "

وفورا حضّرت سميحة جوابا غير موافق، غير مقتنع

_ "حسنا أيها الملاك الإنسانى، لايقنعي هذا الكلام ولكن،،، أنت تتوهمين أنّك واقعة في غرامه، وستنسينه مع الوقت وتحبين من جديد".

_ "أرجوك يا سيّدة سميحة" صاحت أثيل بامتعاض ضجر و زفرت، ولم تكن يوماً من الأشخاص الذين يفقدون صوابهم، ولكن وجهها تملّص من تعابير الحزن ليحلّ محلها حنق ناهد" لا تجعليني أندم لإطلاعك على أسراري الخاصة، أتوسّل مساعدتك، ليس من أحد سواك ألجأ إليه".

_ "بأيّ خصوص تحتاجين مساعدتي؟" ونظرت إليها بدهشة، نظرة تلاشت منها مسحة التهمّ.

_ "أودّ أن أعرف عنه أخبارا" وتطلّعت إليها بعينين متوسلتين، كانت النظرة فيهما ترهق الحجر الصلب، ثم تعلّقت بيديها محكمة القبض عليهما إن التعسة جدّية إذا، لن تملك إلا مسيرتها إلى أن يفرج الله كربها الجزع.

_ "لا نملك إلا أن ننتظر أخبارا من الجرائد أو الراديو"

_ "لن أنتظر" أجابت بعناد ووثبت على قدميها تطوف بأرجاء الغرفة، فيما تفاقمت حيرة سميحة، وشملتها بنظرة غير مصدّقة. إن الجسد جسد أثيل، ولكن العقل ليس عقلها.

_ "ماذا نفعل إذا؟" سألت حذرة وانكلمشت

_ "نذهب إلى المستشفى لنسأل عنه"

تبّأ، لقد توقّعت أي اقتراح إلا هذا. وهكذا رفعت حاجبها في استغراب، مشدوهة عندما بلغ أذنيها الالتماس الساذج.

_ "هل نأخذ ورودا؟" قالت بتهكّم. لقد نفذ صبرها و ينبغي أن تدوّي بضحكتها المكتومة في أرجاء الغرفة، ولكنها سرعان ما سحبت عبارتها حيث أنّ أثيل رمقتها بنظرات محمّرة بفعل الغضب. نظرات لم تألفها من عينين عذبتين ودودتين لفتاة ناعمة تنصح النساء بناتهن أن يحذون حذوها. لقد أفقدتها الصدمة طبيعتها الزاهية الوقورة، كان ذلك عملياً صحيحاً جداً، فكلّ من تعرفها تتمنى أن تكون ابنتها رائعة كأثيل. وإن ما سمعتها إحداهن هذه الليلة، ستعضّ يديها ندما على نصيحتها.

جاش صدرها بعاطفة مشفقة عندما طفقت أثيل تبكي ثانية فتوجّهت صوبها وأخذتها بين ذراعيها

_ " لا تبكي أرجوك. لم أقصد دفعك إلى البكاء، ولكن كيف نذهب إلى هناك؟، أيّ عذر

سنقدمه لوالدتك؟ ثم ماذا عن ذلك الوحش، لن يمنحك يوم عطلة؟ و العائق الأكبر نسأل عنه بصفتنا من؟ نحن لسنا فردا من عائلته. لا شك أن أصدقاءه و أقرباءه جميعا مزروعون هناك كأشجار الصنوبر ينتظرون بقلق أخبارا عنه".

_ "لا يهمني أي أحد" و رفعت صوتها الرفيع باكيةً كطفلة صغيرة لا يهملها شيء إلا تحقيق رغبتها "أريد الاطمئنان عليه. إن كنت تمانعين الذهاب معي فسأذهب لوحدي ولن أبالي"

"يا للمأزق" هجست سميحة وأبعدت الرأس الحرون عن صدرها، وتأرجحت بين المنطق وعاطفتها نحو أثيل وأخيرا انتصرت العاطفة وانسحق المنطق "حسنا يا حبيبتي. إن كنت مصرّة سنقوم بزيارة خفيفة ونستطلع وضعه من بعيد، لكن ما الخطّة؟. أي عذر نطرحه أمام والدتك، إنها لن تسمح لك. أما العجوز إبراهيم سيسلخ وجهه بيديه".

_ "بمقدورك تدبّر الأمر" قالت أثيل بثقة

_ "أنا؟ كيف أقنع أمك باصطحابك إلى العاصمة" قالت باستخفاف ذاتي

_ "أنت تجيدين اختلاق الحجج، بإمكانك أن تناوري بأي كذبة، لا شيء يصعب عليك إذا ما وضعت نصب عينيك"

وقفت سميحة واجمّة متحجّرةً أمام هذا التصريح الوقح "ليست هذه أثيل، لقد اختطفوا صديقتي". لقد فقدت الفتاة صوابها و أضحت تتكلّم عن الكذب ببساطة ليّنة ولا شيء سيثنيها عن عزمها. ولهذا استسلمت لطلبها أسرع مما تعودت.

الفصل السابع

أسندت أثيل والحزن المغموم يكتنفها صدغها إلى زجاج نافذة الحافلة المتوجهة نحو العاصمة، كانت الرحلة تستغرق على أقل تقدير خمس ساعات إن سارت الأمور على النحو الطبيعي، ما لم تهافت طوارئ دواليب العجلات المثقوبة والشجارات المفتعلة وإجراءات المخالفات القانونية نتيجة السرعة المفرطة، وإن كان السائق يتمتع ببعض الجدبة والمسؤولية التي نادرا ما وجدت صفةً أثيرةً في أي سائق حافلة.

كانت عيناها السوداوان متورمتين من البكاء. إذ قضت الأيام المتصرمة منذ أن نكبت بالنبأ تبكي بمرارة، كلما انفردت بنفسها وقد مضى على ذلك أسبوع، بدت أيامه مديدة كأيام الزمن القديم. وراحت الخواطر القبيحة الكثيرة تتلملم دافعة إيها إلى الفرع، متحينة الفرصة لتنقض على عقلها المرهق (ماذا ستفعل إذا هو مات. ماذا ستفعل إن ما هو غادر الدنيا إلى الأبد).

إنها تأنس بوجوده حتى مع أميال بعيدة تفصل بينهما. حتى مع حواجز جهله بحبها. معرفته أنها موجودة في عالم يخلو من الصدف المميّزة، لولا أنها أحبته ذات يوم من نظرة خاطفة، لولا ذلك لكانت الحياة عقيمة بلا طعم، بلا أمل حقيقي. هذا الشعور الدافئ الحيّ في أوصالها يمنحها مقاومة لتستمر رغم الألم بها في فترة أقل ما يقال عنها أنها "جائرة". لن يحل لها العيش بعده ثانية واحدة؛ لأنها قد عاشت هذه السنوات الثلاثة بطمأنينة من إحسان عينيه الهادئتين ووجهه المسالم، وشخصه اللطيف العذب، إن خوفا كئيبا يعوي في صميمها يمنع السكينة عنها.

لاحظت سميحة أنّ التعابير في الوجه المستدير تجمع بين القلق والخوف، وجه متقلص غابت عنه بوادر السرور والحماس المتجليين غالبا فيه، والذي لم تفلح أي بادرة ملطفة من أحبائها ومعارفها في تبديد كآبته غير المعهودة.

فالعجوز إبراهيم لاحظ متجهمًا أنها على غير طبيعتها، فوقع فريسة الحيرة. ولم يحشر نفسه أسفا في أمورها إلا عندما هرع إليه أحد الزبائن الدائمين يشير عليه بمنح الفتاة المسكينة أياما للراحة، لأنها تبدو عليه مرهقة، ولو أنه أحس أنّ الإرهاق من العمل أو المرض هو ما كان خلف ذلك الوجه المنهوك المظلم لما وافق على إعفائها منه إرضاءً لنظرات اللوم في العيون المؤنبة. فهو يمقت غريزيا كلمة عطلة أو يوم إجازة، لكنه يعلم أن الذي اعترها بعيداً

عن كونه مجرد أعباء العمل الثقيلة، فاضطر على مضض منه لسؤالها بصوت لئِن عن الذي ألمَّ بها، على أنّها اكتفت بجواب مقتضب مألوف لمن هم بمثل طباعها "إنّها بخير"، ولاحث له مهملة شاردة فراقها بعين الضيق والسخط خوفا من تدهور العمل أما الفتاتان، ففشلتا مرارا في تمزيق الستار عن ماهية الحزن المنبعث من عينيها الذابلتين كأوراق ورود لم تسق ماءً.

أما كيف نالت سميحة الموافقة من عقل إبراهيم المتحجّر بخصوص السماح باصطحاب موظفته إلى العاصمة، فإن ذلك ما عجزت أثيل عن فهمه رغم أنّها من دفعها أمامه بيدين مطبقتين وعينين تنشدان عونها، بادئ الأمر عندما توسلتها القيام بزيارته في المشفى، لم تتوقّع أنّها ستنتهر بأداء سميحة إلى الحدّ الذي يجعلها تعترف أئمة بتحصيلها النتيجة الصائبة بأقلّ درجات المراوغة هيبة، وتساءلت وقد غمرها وابل من الامتنان "كيف تنخدع هذه المرأة في ميدان الاستثمار والمشاريع، وكيف لا تصيب من النجاح قدرا وافرا"، من المؤكد أن العجوز المتصخّر لم يكن ليعلن عن موافقته على تغيّبها ومرافقتها لولا أن الظروف كانت مغايرة.

"يا سيّد إبراهيم، لو تعلم كم أن المرأة المسكينة مريضة، أخشى أن تموت ولا أراها" قالت سميحة بصوتها المنتحب تستعرض قصّتها المزينة وهي تقف أمام إبراهيم بشجاعة منقطعة النظر، غير أنّها اعترفت فيما بعد مقسمة بالثلاث أن أحشاءها كادت تتمزّق من الذعر وركبتها كانتا ترتعشان، وقلها يرتعد كأنها أرنب في حضرة أسد متجهم مخافة أن يكتشف كذبها فيفضحها أمام أقاربهم المشتركين، ومع أنّها تتطبّع بطباع غريبة فلن يصب في فائدتها أن يشيح أقارب زوجها وجوههم عنها لعدم قدرتها على الاستغناء عن بطولاتهم وفاءً للروابط الدمويّة مع ابنتها.

_ "وتعلم أنني امرأة وحيدة بدون رجل أعتمد عليه، وابنتاي ضعيفتان، إحداهما صغيرة كما تعلم والأخرى يغني علمها بمجرد رؤية مريض أمامها ثم أخشى استحالة تحمّلها طول المسافة، في آخر مرة أغني عليها بمجرد قطعنا بعض الأميال القليلة. ااه، عندما تُترك المرأة من غير رجل يسندها "بدأت تندب" لقد مات وتركني صغيرة" على أن إبراهيم لم يصبو إلى الهدف المنشود من هذا النواح في وقت مبكر من النهار" لو كان حيّا لرافقني إلى زيارة المرضى، وارتياح الأعراس والمناسبات، والذهاب للتزّه" وهكذا خرجت عن النصّ شأنها عندما تجد آذانا صاغية، غير أن شيئا في العينين النقاذتين جعلها تتحجّم مثل رفاص تحت الضغط، ثم تابعت سرد قصّتها بما وسع عقلها الحصيف إنتاجه، مبتلعة ريقها بصعوبة عندما بلغتها الرسالة من عينيها الحادّتين التي زوى ما بينهما وكأنه يقول لها " أنت لا تتوقّعين أيّتها المرأة الحمقاء أن أصحبك لزيارة قريبتك المريضة" ولهذا أسرعت توضّح له حقيقة مآربها كنتيجة حتميّة لتفادي نفاذ صبره.

ـ "كما سبق ووضّحت لك، إن ابنتي ليس لها القوة الكافية للسفر معي، وأنا بحاجة إلى رفقة. أنا امرأة وحيدة ضعيفة وليس بمقدوري السفر لوحدي، وأنت رجل محترم لا ترضى لي أن أقطع كل تلك المسافات بمفردتي لذلك أطعم في كرمك بالسماح لأثيل بمرافقتي و سأكون شاكراً. هل أمل موافقتك يا سيّد إبراهيم؟"

نكست رأسها، نكسته متقنّة دور العاجزة وشفتهاها يابستان كصحراء قاحلة بحنق مفطوم، وانكسار فيّاض. وظهر بعض الضيق على الوجه الخالي من المساحيق، ثم كالت السخبط لأثيل لذفها بها في هذه المأزق الزريّ، لكن لا مناص من ضرب الوتر العاطفي. بالرغم من كونها تميل إلى نعت إبراهيم بالوحش المفترس شأنه كحيوانات الأدغال الهمجيّة التي يزعّ أولاده وزوجاتهم بالإضافة إلى الأحفاد الأشقياء مرغمين على مشاهدتها.

ومن منطلق أنّه رجل قبليّ، من قرية تحرص كل الحرص المترفع على أعراض النساء تعشّمت أن تدلّل نتيجة مرضية. إن شهامته الفدّة، لن تملي عليه السماح لها بالسفر وحيدة، ومن غير اللائق أن تستقلّ الحافلة إلى مكان بعيد بمفرداها.

قالت ذات مرة متبجّحة تسدي نصائح جمّة لريحان وأثيل "أطروا الرجل دائما أيّتها البنات، كلن له الثناء بشيء من الغلوّ، وأفضل من هذا قفي أمامه يا عزيزتي الفتاة مترنّحة كورقة الخريف تلعب بها الرياح القويّة، ثم ثبتي في رأسه فكرة كونك كائنا ضعيفا بلا جناحين، سيطيّر بك في الحال إلى أي مكان تشائين. فقط ليمنح غروره اللمسة المناسبة، هكذا فقط يمكن ترويض الحمير المتوحّشة العنيدة التي لا تخضع". وقلّما كان إبراهيم يسلم من التشبيه بالحمير المتوحّشة، اللهم إلا إذا كان صبري مقصرا في الواجب الديني بحيث تسلط عليه سميحة رماحها "وإن لم يكن بمقدوره، سيصنع جناحين حتى من ريش الدجاج. إنهم كالأطفال الصغار تماما، هكذا بدون تفسير أو سبب، إنهم حمقى أحيانا. وإياكن أن يكتشف وضعكن قناعا متنكّرا فلا يعد بإمكانه تصديقكن، أحسنّ أداء الأدوار. أما النتيجة؛ فهي مضمونة إذا ما نجحتنّ في دغدغة شهامته الأسيلة المتحفزة أبدا أمام رواية النساء الضعيفات. إن هذه الحيل نادرا ما تخطئ الهدف. وكثيرا ما تؤتي أكلها، والجأن إلى الدموع في حالة أبدى مقاومة باسلة. تباكينّ؛ فهي سلاح فتاك تلك الدموع المزيّفة "

ولم يكن حتما رجلا يستخف به، ولكن كانت تنقصه القسوة الداخليّة لرفض التماسها وتبديد أملها، وتعوزه الخسة التي لو قدر لها أن انتصرت على تزمته لما ظفرت منه بأكثر من رفض صريح ترتد به خائبة الأمل.

حملته على التفكير أي النساء الوحيدات المقهورات؛ هي لجهله الصارخ عن المبارزات التي

خاضتها في قاعات المحاكم وعراكها بدون أياد مع المحتالين التي تميظ اللثام متأخرة عن نذالهم المتسترة، وعراكها للرجال عراكا تخرج منه دائما خاسرة لا تظفر أكثر من مغامرات ممتعة بادئ الأمر تغدو منغصة عندما يوجه لها أحدهم اللاتمة. كانت تعرف معظم القضاة بأسمائهم اسما اسما، تفرق بإسداء من تجارب معارفها الكثر وتجارها بين الغشاش منهم، المراوغ، المستقيم، وبغريزتها الأنثوية القوية تميّز جيدا بين من يميل إلى النساء الفاتنات، ومن تنخفض قيمته عندما يرتفع سعره، هؤلاء الأسوأ على الإطلاق، الذين يصدرن الأحكام حسب الأسعار. إنهم أرخص البشر. وتدرك من أول نظرة من يملك ضميرا. و من قرأ الفاتحة عليه منذ صيرورته قاضيا. غير أن القاضي الذي حكم حكما غير منصفا كان غشاشا وغدا. هكذا كانت تصرح ناقمة.

ولو كان رجلا مكثارا ثرارا، يُستبد به في أحاديث عابرة، وتُنتمك هيبته الطاغية في مسائل نسائية تافهة. لما عمدت إلى هذه الحيل الرديئة والكذبة السقيمة. رغم الأمجاد التي يحققها الكذب على لسانها. إن الكذب ليستشهد أثناء كفاح المرأة المكسورة "ولكنني لا أكذب إلا عند الحاجة" و لا أقل من أن تزار الحاجة بنواحيها كل عشر دقائق، بتأثير من المحيط المنقر الذي وجدت نفسها جزءا منه دون رجل يذود عنها، وهكذا هجرت الخصال الحميدة التي نعمت بقسط يسير منها في شبابه لتعقد صفقة مع أخرى لم تمنّ عليها بأكثر من السلامة الجسدية أما أموالها؛ فقد نثرت كما ينثر كومة من الرماد.

أسقط من عاداته اللغو السائغ الفارغ عن النساء و الرجال على حد سواء. وحيث أن لا أحد ينجر وراء نزوات اللسان الفوارة، لم تجار جرأة المقرّبين والأصدقاء تصلبه في امتحان شأن أي قرار يتخذه عقله الشهم المتزمت، وحيث أنه يركن نفسه جانبا عن التخرّص في الأعراض ويعرض عن النصائح. لم يكن ليبلغ مسامعه روايات مقرّزة عن إحدى موظفاته اللاتي يقسم أنهنّ عفيفات عفة القديسات، وطيش مراهقة بليدة الأفكار شقيّة الحظ في السابعة و الأربعين، لا يقتضي قصاصها إلا إبعادها عن موكب الفتيات المؤدّبات إن كان غير ما هو عليه. و هكذا تقاعس جانبه الفاضل عن ردّها، إنّها لا تفشل مطلقا في معرفة الجانب الضعيف لأي إنسان.

"حسنا" وافق بلهجة متخشّبة، بتعبير يشي بقبول حائق، متحاشيا النظر إلى وجهها "لن أسمح بتغيّب آخر. سأمنحها عطلة ليوم واحد وإلا سأضطرّ لطردها، وأنا جاد". ارتفعت إلى شفتيها كلمات الامتنان، فراحت تنحني مثل خرقاء. إنها في غاية السعادة، ولكن لماذا؟ على حد علمها هي لا تعير المسألة أكثر من إرضاء نزوة عابرة لفتاة تمرّ بأزمة عاطفية

غبية، كأزمات رجال منتصف العمر، تحسب أن الدنيا ستوقّف عند هذا الرجل، اااا، الآن عرفت لقد استطاعت إخضاع عناد هذا الرجل، إنها لشهادة دامغة على مواهبها الفذة.

لم يفث الأمّ ملاحظة ذاك الذي يدور على مرأى عينها وإن لم تكونا حاذقتين لتلمّا بالحقائق الخفيّة، فحتمًا لن يفشل قلبها، قلب الأمّ الملمّ بشؤون أطفالها، لم يفشل في حدس وجود العلة رغم فشلها في تحديد موطنها. فمنذ المساء الذي وقعت فيه أثيل على الأرض مغشيًا عليها، وهي مغمّمة مكتظّة . كانت الفتاة قد ازدادت شحوبًا و جسدها غدا مرهقا و أكثر ما كانت تخشاه أن يكون مرض خبيث قد انسل إلى جسدها هي الأخرى فصيرّه على هذه الصورة المرهقة الهزيلة ، فاستعجلت بعد أن تريّثت نافذة الصبر في سبر أغوار فتاتها الكبرى و اقترحت عرض نفسها على طبيب، وقبل أن تفرّ هذه بنظراتها المرتبكة المعذّبة، لم تكن الأمّ لتتنزع منها أكثر من عبارات مطمئنة مقتضبة لم تنجح في التخفيف من وطأة حيرتها فحسب، بل إنّها ضاعفت من شأنها الكثير.

بهيتها الناعمة ظهرت أثيل كطفل صغير يكتّم أشياء في داخله على أن عينيه الصافيتين تنطقان ضيقًا، ووجهه البريء يفرز من الظلام نورا ضئيلا ، ويكشف من المخفيّ سترًا، وظلّت عينا مليكة تترصدان كعيني نسر، تتقنّصان ضعف الفريسة، تترصدان خمود عزيّمتها الحريصة فتبوح لها في لحظة طيش موقّفة عن الذي يكدر صفو حياتها، عن الذي يمنع وجهها من الإشراق كشمس الصباح، لقد غابت خلف غيمة قاتمة وحرمت البيت من نورها الساطع. وهكذا نهشها القلق ممزّقا كل رغبة للسكينة القلبية المرجوة. متكتلا كحزب مسيطر، وكلما تحيّنت هدنة للسلام بينها وبين عقلها، هرعت إليها المكائد تنسج لها جبالا من الوسواس السقيمة حول تقلّب أحوال ابنتها، هي لا شكّ تحبّها كثيرا؛ بل وتفضّلها منكرة على بقيّة أطفالها، وأيضا تقدّرهما كجوهره ثمينه لا ينبغي أن يخبو بريقها تحت أيّ طائل.

وبقدر ما كانت مليكة بارعة في استنطاق العيون المجفلة بقدر ما برعت أثيل في إخفاء ارتباكها في حضرتها، وراحت تنقد نفسها من براثن عيونها المتصيّدة التي تختلس النظر، فتجلس بينهن بارتياح مزّيف فاره، وتتناول قدرا مرضيا من الطعام كأنها في أوج شهيتها، وتُرغم نفسها على التبسّم عندما تلتقي عيونهما، مراوغة بامتياز اللوعة المتأجّجة في صدرها. وحافظت برياطة جأش على صورتها الفوّارة. أما الفتاة الغريرة المنكسرة بمصاب غالها التي استبدت بها، فإنّها تقذف بها إلى ركن معزول إلى حين انصرافها إلى بعض شؤونها.

ولو أنّ أثيل كانت فتاة حمقاء متهوّرة، لاتزن الأمور بعقل راجح متزنّ، لرضخت لإلحاح أمها و لوهبتها ثقها ثم أطلعها بلحظة بهيميّة على سرّها الرديء، بل إنّه سيكون أسوأ ما يمكن أن

ينصحها به عقلها المشتت ولجعلها تندم ندما حصيفا مرفوقا ببنود إدانتها على خطوتها المتصدعة. إنّ الحب في قاموس مليكة ممنوع منبوذ كخائن من قبيلة شريفة. شعور مبتدل قبيح رغم كونه أجمل إحساس في الدنيا، بيد أنه ينزل منزلة وضیعة مثل ارتكاب خطیئة الزنى، لا فرق بين فتاة غارقة في أنهار الحب وارتكابها رذیلة شنیعة، فكلتاهما تفضیان إلى الإخلال بالأعراف، وكلتاهما تفضیان إلى الفرار مع الحبيب والوقوع في المحذور المتمثل في إنجاب أطفال السفاح.

ندر أن فاجأها وخز الضمير بزيارة مباغتة، أضحت أثيل بعيدة عن دنيا الواقع. لا تحفل بمقارنة سلوكها القديم والمستجد حديثا، هي تدرك بشيء من الصفاء الوجداني أنّها قد تغيرت في نظرة المقرّبين إليها، فراحت تراوغيهم بطبعها الوديع، تختلس استحسانهم لسلوكها باستثناء سميحة التي تظهر أمامها على سجيّتها الشفافة، رافعة الستار عن حقيقة مشاعرها مبدية عنادا صخريا، باكية متوترة، مرتبكة، تروح وتجيء على أرضية الغرفة بيدين ترتعشان هلعا، خوفا من نبأ موته، فتتأملها سميحة ذاهلة رافعة حاجبها حتى تكاد تلامس أعلى جبينها متسائلة إن كان هذا طبيعياً ومعقولاً، وكانت الجرائد لا تدّر على أثيل بأي جديد رغم أنّها تشتريها بانتظام، وتلتقط تفاصيل أي حديث يدور مجراه حول حادثته، ولكن لا شيء تضيفه تلك الأحاديث بعد إعلانها الصريح عن تفاصيل الحادث إلا تحسّراً على الحالة البائسة التي آل إليها.

وعندما طرقت سميحة الباب في وقت مبكر من الصباح وبعد أن أبلغتها رجاءها باصطحاب ابنتها إلى العاصمة، لأنّ لها قريبة وجب عليها زيارتها. كما أن حالة الفتاة التعسة تحتاج إلى تجديد الجو، عندئذ غمرها حنق مضاعف، ثم تلتته غيرة جنونية؛ لإدراكها منذ ربح من الزمن بغريزتها أنّها ليستا مقرّبتين فحسب؛ بل إن ابنتها الكبرى العزيزة على قلبها تفضّلها لدفن أسرار تصمّم على عدم وجودها إلا في خيال الأم القلق، ليس بوسعها إنكار أواصر الصداقة المتينة بينهما، بينما ينبغي على الفتيات أن يمنحن أمهاتهن الأفضلية في كل شيء، لن تستطيع جعل هذه النقطة محلّ نقاش الآن، مبدية جزعها مشهورة بغلظتها، ناهيك عن عدم استفادتها فائدة مرضية، ولهذا بعد خطاب مرتجل قصير ألقت سميحة المتبجّحة على مسامعها ظفرت بالغاية، ظفرت بموافقها شريطة إعادتها إلى البيت قبل الساعة السابعة. والإلا،،،، وإلا فهي لن تسمح لها مرة ثانية باصطحابها إلى أيّ مكان قريب أو بعيد.

الفصل الثامن

قطعت الحافلة أميال قليلة دون طوارئ، وواجب الثرثرة يحتم على سميحة الاستفادة من موهبة أحد المسافرين، ويستحسن أن تكون سيّدة ظريفة تقاربها سنًا تتعاطى معها بعض الأحاديث المسريّة إلى حين وصولهم سالمين، حيث أن روحها الفكاهيّة، ودعاباتها السخيفة لم ينجحوا بالقدر المتعارف عليه في إنعاش معنويات الفتاة الراححة تحت وطأة الألم، كانت صامته تسند رأسها بقوة إلى زجاج النافذة، تحديق خارجا دون أن تخشع بوعيمها التام. قبل مزاولتها الانعزال العقيم. همست لها فزعة عن كوابيسها المتكرّرة كل ليلة، إنها تستيقظ من أعماق حلم مفزع وقلها منتفخ ساخن كأنه قلب على نار حامية. إن تحت عينيها المنتفختين المنتحبتين سواد مخيف، يفضي إلى الجزم أن الفتاة لم يعرف النوم طريقا إلى عينيها، وما إن تتاح لها هذه المزيّة للحظات حتى تنقض عليها الكوابيس المزعجة فتثب فزعة مروّعة.

"كانت غرفة بيضاء الجدران فيها نور خافت وفي أحد أركانها وضع جسد على سرير متأرجح، مدفون تحت ملاءات بيضاء كثيرة، وعندما فتحت الباب وبينما هي تقترب من السرير، ارتجف قلبها وجمدت نظرتها وخامرها شعور فائق بالخوف، لكأنها أدركت بدراية متمكنة من يضطجع ميتا تحت تلك الأغطية. لم يكن هو، عرفت ذلك، على أنّ الاسم كان يفزعها أيضا، لم تصنّف الوجه مألوفاً، هل سيموت؟؟؟"

وأحسّت سميحة بالشفقة عليها دون توجيه أيّ تأنيب حقيقيّ بينما كانت تراقبها، وتستمع إلى حالتها المكدودة، هذه من كانت تحمها من سخطها ومعاتبتها وتلقينها الدروس حول سذاجتها، ولا زالت لا تستطيع أن تصدّق كيف تكيفت مع هذا الهراء، وسمحت بجرّها أميال لللاطمئنان على رجل غريب لا تعترف إلا بشجاعته في إهانة حكومة غبيّة سيئة التسيير، وليست متأكّدة من مقدرتها على ابتلاع سخافة أخرى من هذا النوع الأخرق.

وسرعان ما استبعدت، وهي تعمّق النظر في الوجه الملتاع المنقبض أن تكون القضية نزوة صبيانية، ما من شعور يعتري أساريرها إلا الأسف البالغ، إنه نوع من قصص الحب الأسطوريّة، أو المسرحيات الحزينة، هذه الفتاة لا تلغي الكلفة بين أحلامها وواقعها فحسب، بل ولا تزج بنفسها في أي صراع عقلايّ طبيعيّ.

"ستتألم يوم زواجه إن ما قدّرت له حياة جديدة" فكرت سميحة يحركها إحساس بالعطف "ألمًا مضاعفا عن يوم مماته، وستبكي حتى تتورّم عيناها إن ظلّ قلبها العنيد معرضا

عن خوض معركة النسيان".

إنها عالمة أنه لن يكون لها يوما، ولكن هذا لن يمنعها من حبه إلى آخر يوم في حياتها، أذعنت سميحة إلى هذه الحقيقة محبطة. فلا يخفى عليها الجانب الوفيّ فيها. لطالما اختلفت عن باقي الفتيات على نحو جلي واسع شامل، فهي بنظامها الساذج ووفائها البيهّي لا تنضم في مجملها إلى أي صنف رديء غير ناضج؛ بل إلى صنف مميز لا يغيره بريق الذهب، ولا قطع الغيار، ولا البيوت الفارحة. ليست جاهلة أنّها لم تحبّه لمكانته الاجتماعية ولا لوسامته الفاتحة. بل أغرمت به لإنسانيته اللامعة، لمواقفه المشرفة. وهذا بالذات ما يُعسر أمر نسيانه و انتزاعه من قلبها الهائم .

أتى لها أن تحبه وهي الفتاة البسيطة كلتا البساطتين، بساطة الطبقة الاجتماعية، وبساطة روحها النقيّة الخالية من الجرأة. إن المسألة شبيهة بتمني نيل القمر، أو نجم ناءٍ بعيد عنها، لن يزيد نوره المتجلّي في سماء صافية فوق رأسها إلا من عذابها، فيما تظّل طول حياتها تعتقد ببراءة ساذجة للغاية ووهم خادع، أنّه يشملها وحدها لا غيرها ببريقه المشعّ الأعزل. وتساءلت مكتئبة وهي تختلس النظر إلى الوجه الجميل المصفرّ الذي عُني بغمّ مستطير، ونكبة نكراء عن نسبة درايتها الذاتية بكونها أشقى الفتيات وأكثرهنّ بؤسا، لهيامها بحب رجل لن يكون لها يوما، شقية لأنّها تهواه بلا أمل في فضاء رحب واسع يستحيل فيه التحام الأرض مع السماء.

أرهقتها سذاجة الفتاة المخلدة إلى الصمت، مشبكة اليدين، هذه التي يبلغ حبه في قلبها أنّه لا يستطيع إلا جرّها إليه مسلوبة الإرادة. لقد لجأت إلى مؤازرة رغبتها بعد تصويتها دون تفكير على خسارتها، ضاربة عرض الحائط كل المبادئ الجبّارة التي جبلت عليها، ليس من تعليل إلا وجود قوة بارعة تتحكّم فيها. لغاية أبعد من مجرد نيل حبيب بين أنياب الموت، إنّها عدم نيّله مطلقا سواء حيّا أو ميتا، وليس أسخف من الركن وراء حلم مستحيل إلا إعطائه منحة نهاية الخدمة مسبقا.

لسان الحال يقول إنّها تبذر في أرض قاحلة، أو تسكب ماء في رمل جافّ. ما أسوأ طالع من يحظى بقلب يدبّر له مكيدة شريرة كهذه، دون أن يهتز له وجدان، أو يصرّح صادقا بتوقيعه وثيقة رهنه كليا لأيام كادحة دون أجر، تكدح من أجل حب هو أمدح من السراب. زهّنّه لأنفاق من الليالي الساهدة لا ينتهي منها إلا كما تنتهي فراشة تهيم بحب النور. فلتخسأ هذه القلوب التي لو كان فيها خيرا لما ظلمت أصحابها بهذا السراب الواهم والعذاب الكئيب، هناك فرق بسيط بين أن تفقأ عينيك بيديك، وأن تحرق نفسك بقلبك البليد إن لم يحدوك التفكير إلى

الجزم من تطابقها منطقاً وطابعاً.

وعلى نحو مفاجئ تذكرت بشيء من القلق ملاحظة أمها بخصوص إعادتها إلى المنزل قبل الساعة السابعة، ثم دمدمت بين أسنانها "إن لم أعد بها قبل تلك الساعة، فستصليني في الساحة العمومية، إنها امرأة متسلطة، قد تضربني أيضاً، هل يعقل أن تضربني؟ لو أنّها استغنت عن طابع التزمّت وحاولت تفهم خصوصيّة بناتها، لما اضطرت للكذب عليها،" ثم ارتعبت من مصيبة أخرى فانكمش وجهها "ماذا لو اكتشف إبراهيم اللعين بمحض الصدفة أنّي كذبت عليه؟..تشكّ أنه سيقى صامتا، سيفضحها، إنها تخشاه، لا حد لما يمكن أن يفعله أفراد عائلة زوجها غريبو الأطوار

"لن يعلم، وإن حدث وعلم، فكذبة جديدة ستقوم اعوجاج سابقتهما، ثم انظر إلى هذه الفتاة كيف أوقعتني في هذه المصيبة، كيف نجحت في جري خلفها، ثم هاهي صامتة كأرملة في يوم عزاء، ليتني أحظى برفقة ممتعة إلى أن نبلغ العاصمة "

وسرعان ما حظيت برفقة، وأسرع من ذلك نفرت منها، ووجدت أنّها رفقة خليعة بغيضة، وهجرت رغبتها المستميتة في حصولها عليها، هجرتها بعد فوات الأوان. كانت امرأة في حوالي الخمسين من عمرها أو أقلّ من ذلك انضمت إلى الحافلة وجلست قبالتها، كانت امرأة بدينة، ذات صدر ناهد، متجمّع في كتلة واحدة، يبدو كضرع بقرة حلوب، ووجه لحيم أبيض يتّم عن عدم مبالاة، وكانت عيناها واسعتين تشيان بغطرسه ظاهرة، أما شعرها الكستنائي فإنه مرتّب، وثيابها إن دلّت على شيء فإنّها تدلّ على ذوق رفيع وسعة في المال، ومن تقاسيم وجهها كان يفيض انكسار متحفّز، يُطالع من نظرة حاذقة كاشفة. ورغم تصوّرها أنّها نفرت من المرأة من الوهلة الأولى، فهي لم تتحقّق من ذلك إلا عندما شرعت في الحديث .

_ "أيتها الصفراء" أنشأت المرأة بصوت عميق واثق "أين تقصدان؟".

_ "العاصمة" أجابت سميحة متناقلة، منزعجةً من لقبها الجديد.

_ "جيّد، أنا سأنزّل في المحطة القادمة"

_ "رائع" همهمت سميحة "رائع جدا" ليس ذنبا إن كانت هيئة المرأة تبعث على النفور قبل

تعاطي أيّ حديث معها.

_ "ماذا تعملين" استفهمت المرأة بطريقة استهلاكية .

_ "سأفتح صالونا للتجميل الشهر المقبل" أقرّت مزهوّة، وكانت قد عقدت عزمها على

مشروعها القادم، بالرغم من انعدام الاقتناع الذي لمستته في وجه كل إنسان، يفلت لسانها أمامه بما تنوي القيام به حيث لا أحد يشجعها. أما الآن، فأحسّت أنّ الغطرسه الكامنة في

وجه المرأة ينبغي أن تثوب إلى رشدتها وتتواضع قليلا، إنها سيّدة أعمال رفيعة الشأن، إن استطاعت كبح لجام لسانها، وأعرضت بحذق بالغ عن ذكر قصص صغيرة طريفة عن قاعات المحاكم. والأدهى من ذلك إن صمد عقلها عن بثّ نواذب الخسارة المبررة، إن الكذب والصدق لدمها سيان إذا ما تحقّز أحدهما عند الضرورة.

_"حقًا، هذا جيّد، لكن احذري أن تحرقى شعور السيّدات أو تشوهي وجوههنّ، واحرصي على عدم طلي بشرتهن بالمساحيق الصارخة كما طليت بشرتك، لا تبدين بحالة عقلية جيدة!!"
انطلقت من السيدة ضحكة ساخرة. لم تتعد على حرمة الحافلة، فقد قطعها في ظرف زمنيّ يقارب خمس ثوان، فيما احمرّ وجه سميحة جرّاء ضيق حبيس، واستضحكت بدورها ضحكة صفراء. ثم ردت عليها بثقة، محافظة على أعصابها هادئة .
_"أنا لا أريد أن أناقش امرأة غريبة في شؤوني الخاصة. ولكن كوني على يقين أن النجاح سيكون حليفي كما هو دائما".

تباغت كاذبة، وليس من أحد تحت سقف الحافلة يعلم سر خسارتها ذائعة الصيت، إلا أثيل غير أنّها كانت في دنيا أخرى، منتكسة العزيمة، خائرة المشاعر. كانت قد انتهت منذ قليل من سفح بعض الدموع، وكانت سميحة قد بدأت في حيرة جديدة "كيف يسع فتاة أن تبكي على رجل لا يتبادلان المعرفة. إن هذا غريب. لن أبكي مطلقا على رجل لا أعرفه، إنّها لا تكتفي بعدم معرفته فحسب، بل وتحبه أيضا وتبكي عليه، يا للدعابة السخيفة، يا الله ارحم عقلي، فلا أصعب من فقدته، إلا فقد الأحياء"

_" ليتني أحوز ثقتك، هل هذه الفتاة ابنتك؟"

_"لا، لست متقدمة في السن كثيرا لتكون ابنتي، إنّها ابنة أختي"

_"لا تبدو على ما يرام، هل هي مريضة؟"

_"لا" نفت بعبوس "ليست مريضة، تعاني من بعض الإرهاق، كما أنّها لا تحب الثثرة"

_"تبدو بمنتهى البراءة، ما أجملها!! ليحمها الله دائما ."

_"وأنت ماذا تعملين؟" سألت سميحة بتهمّك رغبة منها في معادلة النتيجة .

_"لست أعمل الآن شيء، حصلت على التقاعد، لكنّي كنت أعمل عملا لا يستحبه الناس،

ذاك النوع من العمل".

ظنّنت سميحة أنّها تحدّثت عن قيادة الشاحنات من النوع الثقيل لمسافات طويلة، أو أنّها كانت تتعاطى عملا غير نسويّ، بيد أن الصدمة خنقت صوتها عندما صرّحت المرأة بجرأة عن طبيعة عملها، كأنها كانت وزيرة.

- "كنت أعمل في أحد بيوت البغاء، نعم لا تصفري هكذا، إننا لا نعرف بعضنا على أية حال، لا تخافي، لن أزورك في المنزل لأدّسه، سيبقى بيتك نظيفا".

وحق أئيل استدعت وعيها البشارد في جميع الاتجاهات عندما طرقت العبارة مسامعها، فالتفتت بخفة إلى المرأة ونظرت إليها نظرات خاطفة يطفو منها سيل من الاستغراب، وقبل أن يتلاشى الدم من وجنتها، استدارت بوجه مرتعش تتفقد تعابير المحيطين بها، ولم تدلّ على التقاط مسامعهم شيئا، إذ أن همهمة مرتفعة كانت تسري بين الركاب أذابت كلماتها فأشاحت بوجهها تستمع على مضض.

- "اااا ما هذا الفسق" تأوهت سميحة جزعة "هل يُسمّى هذا عملا، وحصلت على التقاعد أيضا!!!! ليلعن الله العاهرات، إنّ لهن وجوها صديئة كالقصدير".

- "وضحي لي" استطردت المرأة بصوت هامس تشوبه بعض المرارة "ما الفرق بين أن تسلي جسدك للرجل باسم الحب، وتبيعيه جسدك بغرض الحصول على المال، إن كليهما سيان عندي، على أن الناس يطلقون على الأولى اسم الغبية والثانية عاهرة، اشرحي لي الفرق، الحب يصنع الغبيبات والفقير يصنع العاهرات وفي الحالتين لن تعودي نظيفة والنظافة أمر مهمّ لتتزوجي. وإن كانت على نظرة الرجل لك، فهو في الحالة الثانية يحتقرك احتقارا شنيعا لأنه دفع ثمنك، وتعرفين أن الرجال يبجلون الأشياء التي يدفعون مقابلها ما عدا أجساد النساء، لأنّها كائن مثلهم يحسّ إذا ما شتمته وقمت بتحقيره، لذلك هم يجدون عزاء مريحا في ذلك لتعويض خسائرهم المادية بالإضافة إلى تذوّقهم طعم السلطة، ليشعروا بكبرياتهم المجنون يمارسها. على أن الأحمق المغرور لا يدري أنه لن يستطيع جرح الموضع مرتين وقتل الميت مرتين. أما في الحالة الأولى؛ فهو يعلم يقينا أن نظرة الاحتقار ستقتلك وتحطّم روحك".

لم تكن المرأة تتحدث لهدف معين، ولا حتى للتبرير أو الافتخار بماضيها الكسيح، بل إنّها تستلهم من العدم عدما آخر، كان الكلام يخفّف عنها، كأنه دموع محبوسة أبت أن تنبجس، وعندما تُحبس الدموع تتفاقم الآلام.

- "ولذلك لن يتوانى عن قتلك. لأنه يعتبر نفسه شهما بقراره الزواج بك، و إصلاح ما أفسده غباؤك، يعتقد أنه يقوم خطأك الغبي لا خطؤه هو. أفضل على أية حال عدم رؤية وجه الرجل الذي ضاجعته مرة أخرى. أترين؟ أيتها السيّدة، إننا نحن العاهرات محظوظات. وموطن حظنا استحالة زواجنا من ذاك الرجل، وهكذا نتحاشى تلك النظرة البغيضة المتقرّزة التي تتكرّر بصفة يومية، أحتار إذا كيف تعتقد الغبية أنّها أحسن حالا من العاهرة. لقد قابلت منذ قليل فتاة تعرف ماضي كاملا، كانت تتوسّل الرجل الذي قتل شرفها التّزوج بها، وإلا فهي ستضيع و

تهوي في درك الفضيحة، وفي نفس الوقت كانت ترمقني بنظرات تشي بالاشمئزاز والتحقير
"وابتسمت ابتسامة حملت طابع الغيظ وحاولت تغليفها بالسخرية

_ "أنا على الأقلّ لم أكن أتوسل الرجل قبل مغادرته سريري ليتزوجني، وأرضى بدون اكتراث
إلقائه علي نظرتة العفنة أكثر منه "أضافت بصراحة اعتبرتها سميحة إجهارا وقحا بالفجور
"المهمّ أن يدفع لي، أريد أن يجيبي إنسان ما؟" قالت بإلحاح وتصميم "لماذا تعتقد الغبيّات
أنهنّ أشرف من العاهرات؟ من الممكن أن لا تحظى الغبيّة بالزواج أبدا، بينما تحظى العاهرة
على الأقلّ بدراهمها . ثمّ ما الفرق بين أن يحدث الأمر مرة أو ألف مرة، طالما المارّة تستنسخ
نفسها كل يوم حتى ولو لم تعيدي الكرة".

صُعب وجه سميحة كمن تلقى صعقة كهربائية، وهي التي لم تحرم من الحديث الممتع
فحسب، بل حظيت بأكثر الأحاديث مجونا "ماذا تحاول أن تثبت هذه الداعرة "إنها تفضّل هراء
أثيل الساذج ألف مرة.

وإن كان لا بد لأثيل الشعور بشيء حيال قصّة المرأة، فإنها اختارت إنصافها والتعاطف مع
غصّتها المحجوبة؛ لأنّ الكلمات المتدفقة منها كانت تنم عن حُرقة داخلية لا تنطفئ جزاء
الأحكام البشرية السطحيّة، وتعلّقت أذناها بالقصّة فأرهفت السمع شاعرة بألمها، هي مرآتها
التي ترى من خلالها ماضيها الأسود وتعطيها لمحة عن مستقبلها عندما يعلم الناس.

_ "حسنا يمكن للمرأة أن تصبر على ألم الحبّ، فلا تسلّم نفسها للرجل، ولكن هل تصبر على
ألم البؤس والحاجة و الجوع فتتورّع عن ذلك؟ هل كان لي الحقّ في الاختيار، أعزو أخطائي إلى
انعدام الخيارات "

اتّسعت مقلتها استجابة لاكتشاف مذهل

_ "فالنتيجة أن من تسلّم نفسها لأجل الحبّ هي العاهرة، لامتلاكها خيارات واسعة، كالصبر،
كالنسيان، كتحمل الألم النفسي المرتّب عن الفراق أو ضغط الرجل اللعوب على معاشرتها
معاشرة الأزواج منوما إياها بالأحلام الوردية، لم تكن لتموت جوعا إذا تخلّى عنها الرجل الذي
تحبّه.أما أنا فلا،لم أكن إلا شقيّة بانسة، معدمة الحيلة، مسدودة الطرق، عاجزة عن
الاحتفاظ بشرفي عفيفا، أخبريني بصدق، هل كنت لأسلك هذا الطريق في حال وجدت طريقا
أفضل، هل في رأي الآخرين البصقُ، والمعاملة الفظة و الروائح الكريهة أفضل؟ لا، إنهم يجهلون
أسبابي، ولكّتهم كانوا دائما يسارعون إلى إصدار الأحكام و لفّ حبل النبد حول رقبتي، لست
أتعشّم مغفرتهم، بل مغفرة الله، لأنّه يعرف ويريد أن يعرف ويريد أن يغفر. أمّا البشر؛ فإنهم لا
يعلمون ولا يريدون أن يعلموا، وليسوا بقلوبهم الضيقة السوداء أهلا لأن يغفروا، و لست

أتسؤل غفرانهم، فلينشده لخطاياهم، التي يخفونها عن الأعين"
صمتت لبرهة تنتظر دعما، على أنّها لم تحظ بأكثر من وجه مهم التعبير، ونظرة تائهة
مخطوفة فأردفت

_"ما كانت حاجتي إلى الطهارة طالما أنا جائعة و مريضة؟ إن الذين يملكون ما يأكلون
وأصحاب البطون المتخمة يحسنون القول و يسهل عليهم إيجاد المخارج الوهميّة، والقول هذا
يجوز، وهذا لا: كان الأفضل لك الموت جوعا على بيع جسدك. ما أسهل أن تلوي لسانك داخل
فمك وتنتج الكلام، طالما هم ليسوا أنا، فهم لم يجوعوا، لم يطرق صاحب المنزل باهم متوعدا
موبخا كل شهر طلبا للأجرة اللعينة، وإن لم يستلمها هدد بالطرد، ثم يصفك بأشنع الألفاظ
بسبب عدم تأمين المال، حتى ذاك إن ما عدت المال، لم يكن يمانع أن أدفع له بالطريقة التي
أجيدها، أدفع له بجسدي. لقد كان ذلك يبعده عن الباب على الأقلّ، و يوقفه عن النباح مثل
كلب مسعور. و في فترة ما، أضحي فضّل طريقي تلك على المال "وسخطت عليه و على العالم
"لماذا لا يسئ عاهرا؟ لا" واستخدمت سبابتها لزجر منطلق البشر" إنه رجل، شأنه كأبي السكّير،
الذي أهملني أنا و أمي المريضة وإخوتي الصغار، لأحد يسمّيه عاهرا، رغم أنه صنع عاهرة
موهوبة، حتى ذاك شرب خمرا بثمان جسدي، كنت أعطيه المال تجنّبا لضربه القاسي، أترين؟
حتى هذه الأشياء البسيطة يجب أن تدفعي ثمنها، لتُخرسي فمّا حقيرا، و تكبجي يدا طاغية،
عليك أن تدفعي."

حشدت جملتها الأخيرة بحقد دفين، محاولة تصوير حجم الظلم والأذى الذي خلقه والدها
"تدفعي ثمن أن يترنح حتى يسقط على الأرض و يحضره أحد المتطوعين إلى البيت، ذاك أيضا
دفعته من جسدي. كان عاهرا لأنه زفّي كعاهرة إلى بيت البغاء. لا لرجل واحد؛ بل لعدد لا
يحصى من الرجال، كانوا مقرفين، روائهم كريمة، وأفواههم قبيحة، معظمهم متزوجون.
والأنكى إرغامك على سماع أحاديثه عن عائلته الجميلة. مقدار حبّه لابنته الصغيرة، ودخول
ابنه الكبير إلى الجامعة، نزهاته مع زوجته طوال اليوم، أما أنا فما إن ينتهي مني حتى يبصق في
فمي ليزيد من بؤسي، الوغد يظنّ أنّي أتعاطى اللدّة، في حين لم أتعاطى إلا الفاحشة."

وأخرجت قارورة ماء بفعل جفاف حلقها من تدفق الكلمات المكتومة، وشربت حتى ارتوت
ثم استأنفت دون أن تأبه، وقد نضجت المرارة في صوتها.

_"لم أدع أبي يعلم عملي كعاهرة. كان يراوده اعتقاد نزيه بممارستي عملا شريفا. لقد مات
دون أن يدري، وهذا ما يحزّ في نفسي ويرمض فؤادي هذا هو الذنب الذي لا أغفره لنفسي. ما
أشد حمقي لافتراضني أن سكّيرا بائسا يُجلس الشرف على كرسيّ العرش أو يحتل المقام الأول

عنده. ذاك الذي وضع عقله في مكان مكافئ مع كأس الخمرة، لكنّه رجل أيضا، قبل أن يترشّح ليصبح سكيّرا. لا بد أنه كان يولي اهتماما عفيفا عندما يكون يقظا، ولا أستطيع إبداء نفس الرأي وهو مخمور، لماذا لم أكشف له عن حقيقة عملي عندما كان متيقظا؟" عبّرت كأنها تجري نقاشا مع نفسها "كنت سأقتله للحظات. حتى لو ضربيني، هل كنت لأبالي؟ لا، مطلقا، لا يمكن أن تؤذي ميتا إذا ما ضربته. تمنيت لو عذبتّه بهذه المعرفة الوضيعة حتى يضرب رأسه بالحائط ندما ويبكي بمرارة، كانت دمعة واحدة من عينيه كفيّلة لتغسل غيظي و تعوض خسارتي، أتراه ظلنّ أنه نظيف طالما ليس لديه شرف يبيعه؟. لماذا لم يطلقوا على أبي اسم عاهر أيضا؟" سألت مجدّدا، لأنها تعرف استحالة ذلك "ما من عدالة في الحياة، ثم تعالي أحدثك عن الورع يا سيّدتي، يحلوا لهم تلقينك دروسا عنه كلّما التقيت بهم، أو يلمحون في حال لم يمنحوا فرصة للتعبير. ولكن إن أجرت و حاولت أن تكوني فتاة صالحة أو قررت التوبة والانخراط في حملة الورع التقيّة لا يسمحون لك؟ أيّ تناقض خبيث هو هذا؟ كل نظرة منهم تذكرك بأنك وسخة وسخا لا سبيل إلى تنظيفه. ومن هذا المنطلق استنتجت أن الورع ما هو إلا منهج حقير يسلكونه ليزيدوا عذابك. لن يسمح لك الناس بالنظافة مطلقا، لا بد أنك فهمت ما أعنيه، كنت أريد أن أتوب، على أن الباب كان يفتح لإسداء المواعظ عن الشرف فقط ، وليس لتمرّي منه نحو التوبة، لاستحالة سماحهم لك بذلك. هم بسلوكهم المحقّر من يدفعونك للعودة إلى الوكر الذي خرجت منه آملة في حياة كريمة. لقد أقسموا أن عدد العاهرات سيظلّ نفسه ولن تنقص منه واحدة، يريدون أن يظلّ شرفهم مترقّع وشرفك دنيء ليشعروا بالأفضلية و الطهر الطبقيّ، هل تدركين الآن، لا يمكن أن تظلّ الفتاة شريفة وهي فقيرة فقرا شديدا يعوزه حتى قطعة الخبز اليابس و الجورب المثقوب ليكون فقرا معتدلا ، هذا مستحيل، اسمعي لقد راودتني فكرة الآن "وابتسمت ابتسامة زاهية رغم الحزن المنبثق من عينيها "أنا أغفر لنفسي لعدم إخبار أبي. لست أهلا لأن أحكم عليه، كما حكم علي غيري. فلا بد أن ذات الأسباب التي دفعتني إلى البغاء دفعته إلى الحانات، إن الأرجل لا تقصد تلك الأماكن دون سبب، هناك ما يدفعها والنتيجة واحدة، تدمير للروح الإنسانيّة، لقد تحطم هو أيضا، أحمد الله أنني لم أخبره، لا يتعدّ أن يكون شقيّا مثلي، فلماذا ألومه؟ لماذا أعذبه؟ ليرحمه الله، على الأقلّ مات معتقدا بالنظافة، بينما قذارتني أنا ستظلّ مثل المتلازمة، لن تنظف مطلقا، لكنه البؤس إنه أسوأ كابوس أسود، ماذا كنت لأكون غير فتاة الهوى، هذه الكلمة تهزّ أعصابي هزّا عنيفا، ليتهم يجدون مصطلحات أحسن" وتهدّدت

ما كانت العاطفة فائقة الحساسية عند الفتاة مثلومة الفؤاد إلا أن تدفعها إلى التعاطف،

هما قادمتان من ذات البئر، كلتاها جلاذتان وضحيتان في الوقت ذاته، كلتاها بريئتان ومنذبتان، كلتاها كافأتا العلة ببيع جسديهما، إنها تفهمها، وإن ما عجز إنسان عن فهم دوافعها فهي دون سواها تمنحها فهمها ومواساتها. ولكنها أخفت وجهها عن نظر المرأة. وراحت الدموع تهمر من عينيها المتأهبتين بغريزة فطرية لذلك، وفي هذه اللحظة الكئيبة وهي في ذروة القلق على النائم بين جدران المشفى، لم يكن تعاطفها بالخطب الجاسر. ما أسرع ما سينفر منها الناس إن علموا بشيء من التعالي وجنون العظمة الموجودة في كل إنسان وغرور النفس بثباتها أنها تبكي لأجل بائعة الهوى. لا أقل من أن يجيشوا سخطا على فتاة يحسبونها تقيّة ابنة عائلة محترمة تنوح ساقطة ابنة سكير. لا أقل من اتهامها في عقلها. ولم تدر حتى جاءت هذه اللحظة إمكانية تبرعها بدموع عرضيّة على مقعد في حافلة . وتحركت يداها لتقبضا بهناء على يدي المرأة المسكينة ثم تدفئ قلبها البارد، ونالت منها الرزانة فنبذت الفكرة وطردتها بعيدا، وبحثت في عقلها عن شيء تقوله، على أن الخيبة واجهتها بالجفاء فصمتت.

وأردفت السيدة كلامها، كان جرحها العميق الصامت ينطق قبل كلماتها وكأنّ في الكلمات مسطور عذابها

_ "لم أكن متعلّمة فألتمس وظيفة محترمة" فكرت أثيل بسخف هذه النظرية، هل فك التعليم لغز مأزقها؟ " لم تلقني أمي التي منذ وعيت على الدنيا وهي مريضة أيا من أشغال اليد التي تمنّ عليّ ببديل جيد عن الانحراف، ماذا كان يسعني أن أفعل غير ذلك؟ الناس يفترضون أنني ذهبت إلى هناك وعدد الخيارات بقدر عدد أصابع يدي، كنت أتألم إن كانوا يجهلون، ويتمرّق قلبي، إننا نملك قلوبا أيضا، فيما يعتقدون أننا بدونها، يلوموننا لأننا لا نتفقّد ضمائرنا، وأتّى للعاهرة بالضمير؟ ألا إنها طرفة بديعة، أليس كذلك؟، عاهرة تملك ضميرا" وابتسمت ابتسامة ساخرة "إني أملك واحدا، ولم يكن يصمت أبدا، بيد أنني كنت أخرسه بطريقي، عندما أذكره أن الضمير والبؤس لا يلتقيان، وكان يهدأ مطمئنا هائئ البال عندما أوضّح له أنني لا أسبّب الألم لغير نفسي، لقد كان هذا يرضيه على نحو مهم ، حتى ضميري كان عدوي، كان يرتاح على وسادة مخملية عندما يعرف أنني أتألم، أما فكرة عذاب الآخرين تجعله يثور كثور هائج، هذا ما يؤرقه، لا يهنأ إلا عندما يراني أبكي. وأنا لا أبكي إلا لجعله مرتاحا. حتى أثبت له أنني أتعدّب وعذابي مقتصر على نفسي ولا يطال أحد فيؤذيه، الحقيّر، يتمني أحيانا بإفساد المجتمع، وغفل عن الشناعة التي ارتكبتها المجتمع في حقي، ثار مرة ينتقدي بعنف لمساهمة يدي الخليعة في تخريب بيوت الناس الأتقياء " وقهقهت كأنّها مجنونة غير أن الضحكات كانت وجعها المخزّن

هل أرغمت الرجل التقى على معاشرتي. لا، إنه من يأتي إلي برجليه و مشاكله ومجونه، ما ذنبي أنا، إن كان ليس سعيدا مع زوجته كما يدعي، كانوا يدعون فقط، يريدون كل شيء، قتلهم الممل وكثرة المال فلم يدروا كيف ينفقونه، ما ذنبي أخبريني، أنت أيتها الفتاة، أخبريني "

غير أن أثيل عجزت عن الالتفات إليها، بل وأبعدت وجهها عن ناظرها تجنباً للنظر المباشر في عينها. كانتا تتشاركان لمعة الجحيم ذاتها المنعكسة لجوف مدحور و قلب جريح "حسنا، لا أحد يلوم الرجل، المسكين إنه ضعيف أمام المرأة، أليس كذلك، ولا يستطيع التحكّم بشهواته النابضة. ولهذا أنا من ينبغي أن تلام على أفعاله، ولهذا كان ضميري البائس يصرخ. إنه يعمل عملاً إضافياً وينوب عن ضمائر الآخرين الميتة، ما أوقفه!!، ما أشدّ خسته!! ليس مستعداً للنواح على مصائبني، بينما يكون هانئاً متلهفاً لإلقاء الملامة علي "وتجرّعت ماءً من القارورة موجّهة بصرها إلى خارج النافذة وقد لمعت في عقلها نقطة أخرى، نقطة مهمة كانت قد غفلت عن سردها.

_ "لم أخبركما عن قصة توبتي بعد، أقصد اعتزامي التوبة، وما عتمت أن عدت أدراجي قبل أن تُتمّ بدعتي الواهنة شهامتها "واكتسى فمها بابتسامة قصيرة "عندما أحببت رجلاً شريفاً، انتهت قلت شريفاً، فمن غير اللائق أن أحبّ رجلاً عاهراً ضاجعني و احتقروني عندما فرغ مني. واهه عندما تقع حشرة مقيتة في حب الزهرة، الأمر لم يزد عن كونه مغامرة جريئة بروح مشوهة، حدث ذلك عندما ذهبت لشراء قماش أخيطه فستاناً، كان شاباً يافعا ذا عينين زرقاوين ولحية كثيفة سوداء وبشرة بيضاء، وطول فارغ، لم أكن حمقاء فأحب رجلاً لصفاته الجسدية، ولكن لأول مرة في حياتي عاملني صنف من البشر بطريقة لطيفة، كان عذبا ودبعا وسرق قلبي، هل رأيتما، إن لي قلبا ينبض في صدري و إلى جانب الوظيفة الجسدية يستطيع أن يحبّ بلهفة. عندها جمعت رأبي، أقصد عندما وقعت في حبه، رغبت أن أكون نظيفة لأجله، كرهت أن أكون ملوثة، كم كنت غبية؟"

تلقّظتها بحرقه وتلألأت الدموع في عينها، وتردّى وجهها في سحنة مفؤودة، حرّضت الحزن في قلب سميحة. أما أثيل؛ فإنّها قد استسلمت للحزن الملتهب منذ بداية القصة

_ "هل يرضى رجل مثله بالزواج من فتاة مثلي؟ اسمعي، كنت شجاعة جدا رغم كوني غبية، نبذت الفكرة قبل غزوها رأسى وإطباقها الحصار علي كيلا يزيد شقائي، ولكنها سيطرت علي، الحبّ معتوه، و القلب ظالم، كان يحرضني على بدعة خطيرة، لقد أفسد عقلي وأعاقني عن عملي المعتاد حتى غدوت أطلب التوبة و تمنيت القمر، ولم يحملني المنطق على الاعتقاد أنني

بلهاء، بل انصرف وتركني لشأني، أتعرفين ما فعلت؟ ذهبت إليه واعترفت له أنني أحبه، وباليوت الموت طرق بابي قبل أن أفعلها، لقد كان عالماً بانتمائي إلى ذلك الصنف الرديء، عديم الشرف، كان يعلم، لم أحزن لمعرفته لقد قطع نصف الطريق علي. بل قال أن أقصى ما يسعه هو الإشفاق على عاهرة، لكن ليس الزواج منها. وعاد المنطق بعد نزهة قصيرة يتبجح أمامي، مدعياً محاولته المشرفة لإيقاظي من أحلامي. وما انتزع منه التمرس في إبلاغ الرسالة هو التخدر جزاء أحلام النهار وسلطة القلب القمعية، إنه سافل تماماً كضميري. كل ما هو ذكر يعتبر سافلاً لعينا، كوني على يقين من هذا. فعلت بعض الأشياء الغبية أيضاً، قد تطلقين عليها اسم السذاجة البلهاء، سأعترف ببعضها إن كنت تسمحين" بدا أنها تسخر من نفسها أو تعاقبها بفضحها أكثر، يحترق المرء في الهدف من تشهيرها بنفسها، ربما هو الألم القوي. لا تزال تتذكر ذلك الشاب، لا تزال تحبه، ذكراه تؤلمها، تعجز عن نسيانه، تعجز عن ابتلاع ذلك الألم والرفض، ليست تستطيع العيش مع هذا العذاب جنباً لجنب، إنه ينتصر عليها، ذاكرتها قوية، إنها شقية مثل جميع أصحاب الذاكرة القوية، الحمد لله أن خليلها بعيد عنها بعد القمر عن الأرض، الحمد لله أنها لن تقابله أبداً

"اشتريت له وروداً ذات مرة، لا بد أنه ضحك علي، وكنت أزوره أيضاً وأبكي لمرضه، ألم أكن خرقاء" ما من شك أنها تشعر بالحرج من نفسها والغباء غير المحدود للتجروء على حب رجل شريف، لكن العجوز راضية قالت أن هناك استثناءات، لم يشملها العفو الذكوري للأسف، لأن الرجل لم يكن يحبها وإلا لغفر لها، هذا ما دافعت عنه راضية في بيتها "ضحكي إن شئت، اضحكي، ولكنني كنت مستعدة للموت في سبيله" و تهتدت ملء رثتها، مريحة نفسها من هم أغمها طويلاً.

_ "هناك نوع من الحب يجب دفنه قبل أن يغدو بلاءً، لا، لا يتعدّ كونه جالباً للقهر، وحب التخلص منه قبل أن يجهز علينا، قبل أن يحولنا إلى مجرد أرواح جوفاء، أرواح حيّة على قيد الموت. فقدت كل حق في الحب، ولكن قلبي تمرّد علي وأحبّ وأغراني بالأحلام الوردية. ثوب زفاف أبيض، أغراني بالزواج والعائلة وأطفال بعيون زرقاء، وثمن الأحلام باهظ جداً" وبنظرة نادمة نظرت خارج النافذة "يا ليتني كنت غير التي كنت عليها، يا ليتني لم أرتكب ذلك، يا ليتني أستطيع العودة إلى الوراثة لأصحح المسار، ولكن يا ليت لا تنفع، كل ما ينفعني الآن هو طلب التوبة، إنني أصلي باستمرار وأنا متيقنة أن الله سيغفر لي، لقد وعدنا بذلك أليس كذلك؟ سنموت جميعاً ونقابله وأود أن أقابله وكأني لم أرتكب ذنباً"

أخرجت منديلا و جمعته في يدها لتكفكف به دمعة حارة نزلت على وجنتها، وتوقفت الحافلة وأبلغ السائق بفضاظة المترجلين الإسراع بالنزول ووقفت المرأة لتنزل، ثم استدارت وأضاف بصوت كئيب

_ "أعرفين ما أغلى شيء أملكه الآن، أحلام على ورق، وكل المال الذي معي لن يشتري أحلامي".

ثم ترجلت ووضعت سميحة يدا مؤنسة على كتف أثيل، كانت كلمات المرأة تقرقع في رأسها محدثة ضجة صاخبة في عقلها، وفيما همّت سميحة أن تخاطبها أحست بيد غليظة تضرب على كتفها

_ "سيدتي" قالت امرأة حمراء الشعر، كأنها هيكل عظمي باسمة، تعرض علبة مستديرة كبيرة "إنه مستحضر لترطيب الشعر الأجدد، إنه قادر على تثبيت أشواك القنفذ في ستة أيام، هل تشتريين؟"

_ "لو كان مفيدا" قالت سميحة بفضاظة "لنجح مع شعرك، إنه خشن كالديس، اعلمي معروفا لشعرك واشتره له، أشك أن أحسن المستحضرات ستنجح في تأديبه في مدة أقل من عشر سنوات".

الفصل التاسع

لاحظت أثيل باضطراب محموم أن المشفى كان يغصّ بعدد مهوّل من المرضى شاحبي الوجوه، دائخي الهيئة والجرحى مضمّدي الأذرع والأرجل، بعضهم ملطّخو الوجوه بالدم، ومرافيقهم بوجوههم الكئيبة وعددا كبير من سيّارات الإسعاف، وأكثر منهم عمّال المشفى. وقفت موقف المدهول من هذا الازدحام المروّع غير المعهود. لم يتّفق لها في حياتها أن رأّت هذا الحشد الضخم من البشر مجتمعين في مكان وأن واحد، كأنّ الناس أصيبوا بالمرض جميعا دفعة واحدة .

كانت تدأب على زيارة شقيقتها و بعض العجائز الهرمات ممن تقوم بواجب رعايتهنّ عندما ينقضّ عليهنّ المرض على حين غرّة، ويترتّب عن ذلك إقامتهن القصيرة على أسرة المرض في المشفى الصغير المنتصب بأخر المدينة، والذي لم تتوسّم فيه إلا الهدوء والتنظيم.

كان يتميّز بالحركة السريعة في كل النواحي، لا سيما الأطباء والممرّضين ببدلاتهم البيضاء والزرقاء والخضراء، يهرعون مهرولين يستحوذ عليهم التوتّر المضبوط في جميع الاتجاهات بأياد فارغة، أو يدفعون الكراسي المتحركة، وأيادٍ تقبض على أياد هزيلة واهنة شاحبة، ورأّت جميع أصناف الوجوه الشاحبة والغاضبة والمتكدّرة. أما تلك الباسمة؛ فتكاد تكون منعدمة باستثناء بعض الممرضات ممن تتغلّب طبيعتهنّ المرحّة على بؤس المشفى بكدره الكئيب.

وتناهى إلى مسامعها شجارات حامية، وضجيج الأصوات يعلو وينخفض، واللغظ المهمم والجلبة الصاخبة، وصدح وسط الضوضاء العارمة نغمات متشاكية غاضبة من سوء الخدمات صدرت عن مرافقي المرضى. ممن اجتاحتهم الخوف والذعر على ذويهم فراحوا ينفّسون عن هلعهم بالصراخ والتنديد، ويتوافق ذلك مع حركات عصبية من أياديهم فيما يحاول الموظف التهذئة من روعهم بطريقة لبقة "إنني أحسنّ بأملك، ولكن الصراخ لا يجدي نفعا، إننا نبذل جهدنا" أو أخرى صارمة غير لبقة تفتقد الاحترام والشعور بالمؤازرة "كفّ عن الصراخ لست في الشارع".. التزموا الهدوء، هناك مرضى يحتاجون إلى الراحة". وما لم يضبط المرافق سلوكه فإن استدعاء الأمن يصبح ضرورة ملحة .

مما هو مسلم به أن المشافي تعاني ندرة الموادّ الطبيّة، وقلة أجهزة الكشف أو تعرّضها للعطل طيلة الوقت، غير أنّ المسؤول عن هذه المحن المملعة يكون بعيدا مسافات طويلة، ربما في عطلّة صيفيّة ممتعة على أحد الجزر، أو الشواطئ الدافئة، ينعم بوقت لطيف، ولا يواجه

الملامة أو يتعرّض للنقد اللاذع، ويعوّضه في تحمّل الواجب الشاق عامل هزيل عديم الحيلة براتب أكثر مرضا من المريض البائس، ذلك من يُنصّب حظه العائر في فوهة المدفع ليتلقّى قانعا ما تقذف به الأفواه النامية إدراكا.

وتجنّد الأئين المقموع لإكمال الصورة الباهتة، متناغما مع الجسد المتصدّع متداعي الأركان، الذي لا سبيل إلى التغلّب على سقمه المتهيج، فامتزج بغيره من النغمات الحزينة مساهما بطريقة فعالة في خلق لحن جنائزيّ حزين النغمة يخلع القلب ويبعث في النفس فتورا جارفا. هذا هو الطابع العامّ للمشافي وأصعب من المرض. أن تحظى برعاية مريضة.

وكان لكل ذلك المشهد أثر مهوّل في نفس أثيل، فأحسّت أن قلبها ينقبض و عاطفتها تتهيج كمدا وراحت أنفاسها تتسارع و عقلها يصخب بالأفكار المتهالكة، يتملّكها فرح عظيم كلّما راودتها خاطرة موته، كانت روحها تحترق بجحيم خرافي، وكلّما حاولت التملّص من هذا الشعور الآلي، إذ بإحدى الصور المشوّهة أمامها تغرزه فيها أكثر، هناك عدد كاف من الأسباب التي تدفعها إلى الكتابة، وليست بحاجة إلى أخرى تقوّض فوادها أعمق من هذا.

وهاهما واقفتان حائرتان في المدخل تتجوّلان بناظرهما دون تحديد ما ينبغي فعله، تتشاركان رأيا موحدًا: إنهما لا تعرفان أحدا هنا، معدمتا الخطط التي كان يتوجب وضعها في الليلة السابقة بمباركة الاثنتين، إذ لم يدر في خلدتهما وضعها لتجهيز طريق سالك، تبلغان به الغاية فتكبّدتا الخيبة التي علت أمارات وجهيهما المغاليين في الحيرة، ولم تنبس إحداهما لدقائق معدودات بأيّ كلمة جزاء انشغالهما بتثبيت حلّ سريع راجح في عقليهما المهزوزين.

وقفتا ضمن أفواج من النساء والرجال مسمرّتين، لا تتحركان، لا تتطلّعان إلى بعضهما إلا لماما، تستصرخان صامتتين نجدة عابرة، ينطلق طرفهما ليستكشف معالم وجوه أنهكها المرض والحيرة و الذعر والجراح.

لو يتوقّف أحد المازّة فيسألّهما بشهامة "من تريدان"، كان هذا ممكنا في رقعة أخرى غير هذه. لأنّ هؤلاء النّاس المحتدين، المتعجلين في مدينة صاحبة تميّز بالحركة و السرعة الدقّاقة، يحملون من الهموم ما يكفي لتحطيم ليونتهم شظايا صغيرة منفصلة و تخشيب نزعتم الخيرة، هكذا هو الحال هنا التيّار المتسارع يجرف الجميع وطبيعة الحياة أحتت قامة الرفعة الإنسانية التقليدية، وأفلست بوادر الفطرة السامية لحبّ المساعدة.

ترعرعت سميحة في هذه المدينة الصاخبة، على أن زياراتها القليلة في السنوات الماضية حالت دون تجاوزها الأنّي مع الوضعيّة الراهنة. كانت قد توسمت التغيّر المستجد بقلب خائر وروح بليدة ودون أن تنطق بأيّ تعليق. راحت تحمّل إلى الوجوه العابسة والحانقة، والنفوس

المفلسة من الليونة التليدة التي طحتها رحي التطور السريع في السنون الأخيرة. ولم تهتد إليها خاطرة الاقتراب من أي شخص بعد أن نقتب في وجوههم مليا عن بصيص مروءة، كانوا في ذروة الغضب ثائرين متحفزين للشجار بمجرد أن تلتقط آذانهم سؤالا أو التماسا بسيطا ، متأهبين للصراخ المدوي والتشابك بالأيدي في حالة إقحامهم في جدال ممض. كان الحرّ شديدا، والشمس في كبد السماء تسطع وهاجة بأشعتها الذهبية الملتهية، والنسيم البارد يحتضر في طيات الحرارة الحارقة، وأحسّت أثيل بالإعياء إلى درجة يكاد يغى عليها من شدّة الإرهاق؛ فقد قطعت رحلة طويلة لم تألفها، إلى جانب سيرها بخطى وثيدة متعثرة مسافات غير هيّنة، وأوجعت عينها رماح الشمس الحاذة بينما بصرها يمتد إلى كل الجهات. وشعرت كذلك أن الحرّ قد استبدّ بها وثابها غدت ثقيلة جدا دبقة على جسدها. لم تضع لقمة في فمها إلى اللحظة التي وقفت فيها في المدخل، خامدة الأعضاء، خائرة العزيمة. وغاب عن عقل سميحة التركيز في وجه الفتاة الشاحب المتعب وهي في غمرة الارتباك والوجوم .

بعد أن حرّضت عقلها على التفكير وتطهّرت من تيهاتها، قبضت سميحة على فكرة خمنت بادئ الأمر أنّها جيّدة، فتناولت يد أثيل المرتخية وجذبتها ثم مشت صوب قسم الطوارئ وتاه بصرها عن الحشد تبحث عن شخص محدد.

ما إن ولجت من الباب، حتى انكشفت فكرتها بخصوص الاستفسار من موظّف الاستقبال. كان هذا رجلا أيضا، و الرجال يغريهم الإطراء إذا ما زُرر بشكل جذاب. ولم يكن رجاء الكلمات المتملّقة يخيب مطلقا، من حيث أنها ترفعه إلى المقام الذي يأمل، محل القيمة والأهميّة بمكانة مرموقة كطبيب جراح، ذلك الذي كان يشقّ طريقه بين الجمهور بخيلاء عظيمة، وهيبة مجيدة. كان موظّف الاستقبال قد فرغ لتوه من شجار حام يصل صوته إلى آخر المدينة، فيما لا يزال الناس متحلّقين حولهما ليفضّوه بسلميّة دون خسائر جسمانيّة ضليعة.

كان رجلا طويل القامة فظّ الطبع ذا عينين حادّتين تنطقان بالحقد. وفي هذه اللحظة بالذات راح يرغي ويزيد، واندفع في سيل من الشتائم بين أسنانه المصطكة، هو ومن على شاكلته لا يتكهنّ المرء بما يمكن أن يقدموا عليهم في فورة الغضب.

لقد بدا وجهه المرتعش أزرقا من العصبية، كان شرسا متأهبا لاشعوريا للقتال دون سلاح، لقد أفقده ذلك الشجار كل نيّة في استدعاء صوابه من حيث انفلت منه، وإن تجرّأ أحد على سؤاله، يستطيع فقط أن يصرخ في الوجه ويطلق العنان للصياح واللعنات ، هذا ما تنبأت به حواس سميحة، التي لا تخطئ في تقدير ردّة فعل الحانقين تقديرا ممتازا قبل الاقتراب منهم.

وبينما احتقن الجوّ وعلت الضوضاء وقف رجل مهندس بشكل أنيق في الزاوية يراقب ساخرا، ويداه مدسوستان في جيوب سرواله الأسود العريض، ترتسم على زاوية فمه ابتسامة تشي بالاستخفاف، فهذا لديه وسائل جاهزة تطمئننه وترحبه .

اتخذتا مكانا بجانب سيّدتين في العقد الرابع تتبادلان حديثا هامسا. كانت إحداهما ذات وجهٍ مرّيعٍ منفعل كثير الحركة و الأخرى ذات عينين بنيتين ناعستين و فم كبير. _ "ااه كم هذا مؤلم لشاب في عمره، مؤلم" قالت ذات الوجه المرّيع مؤكّدة عليها، وفي صوتها مسحة من إشفاق، فاستقر وشاح القلق على وجه أثيل.

"لكم ينفطر قلبي كمدا عليه، لقد قرّوا رأيهم و سيبترون قدمه اليمنى. ليس من سبيل آخر وإلا سيسبشري المرض في كل جسده يا الله يا له من مسكين"

_ "يا الله. من هذا الذي سيبترون رجله؟" تساءلت أثيل و قد تكبّد قلبها ألما ضاريا، وكانت تصيح السمع إليهما "أ يكون خليل؟!،،،، ليس هو،،،،، لقد تعرّض لحادث والرجل الذي تتحسّران عليه أغلب الظن أنه مصاب بورم خبيث"

نظرت إليهما سميحة؛ فوجدتها شاردة تحوم بنظرها حول الموظّف الهائج كالثور، تقلّبه عينها تقليبا ذا نيّة محددة، وكانت سميحة قد حقنت عقلها بعقيدة أن سؤال الموظّف إثم لا يغتفر.

_ "لا تقولي لي" حقنت صوتها بلهجة تهكّم " إنك تفكّرين في ذاك الرجل. ها لقد فعلتها إذا؟ لقد عزلت نفسي عن الفكرة، هي مهلكة كما ترين هيئته الفظة تعبّر عن نفسها راقبيه يا عزيزتي، يكاد يخلع وجهه من الغضب، انظري كيف يرتعش شذقاه، كم هو أزرق، لقد جعلوه مثل الوحش الكاسر، أراهنك أنه سيضربنا في حال تهوّرنا واقترينا منه، سيفرمننا بأسنانه، تأملي كيف تصطكّ كطاحونة لحم، سينفجر مثل قبلة يدويّة بمجرد طرحك ذلك السؤال المسلوق، ثم سيجيب بفظاظة قاذفا بنا في بئر الفضيحة القاتمة بصوت أجشّ كصوت حوار البقرة (من تكونان، أي قرابة تجمعكما به، لماذا تسألان عنه)، سيعلم الموكب الكريم هنا أننا نسأل عن ذاك الصحفي الشاب، وأيّ قرابة تجمعنا به لنستوضح بخصوص وضعه، وإن ادّعينا أننا أبناء العمّ الطيّبون، سيكتشف بخبرته المتخمة أننا لسنا كذلك، وليس من السلامة العقلية له الاعتراف بكونك تتعشّقينه من بعيد منذ سنوات وترجمين حبك الطاهر في قلبك بحجارة الصبر الجميل، سيجري وراءنا بالمكنسة أو ربما يقذفنا بحذائه، الإجراء الثاني ينال حصّة الأسد، هو مختلّ العقل، يميلون إلى تسليم هذه المناصب للمختلّين عقليا، لقد تيقّنت الآن أن هناك استثناءات في المناهج التي تؤتي أكلها دائما، فهذا الصعلوك مثلا، ليس له قابلية لاستقبال

الإطراء مني تحت أي ظرف، انظري، انظري، إنه متجهّم كليلة شتوية" أعارت أثيل أذنا جاحدة مستنكرة لفكاهات سميحة التي لم ترخّب بها ، وفشلت في بلع سخافاتنا ، وفشلت في إزاحة الهمّ الثقيل، في الواقع ليست تفصلها عنه إلا خطوات قليلة، ولكنها تعتبر أميالا بين الهند وإفريقيا، في مثل وضعها المبلّل بالإحباط.

هي لا تحفل إن أقدم ذاك المعتوه على شتمها أو ضربها، ولن تزيد على تحمّل أي شيء يصدر عنه بروح طيبة؛ بل وستصغي بخشوع منقطع النظير. ما يهمها هو الحصول على مستجدات عن حالته، هي بحاجة ماسّة إلى من يهبها بعض هدوء الأعصاب والراحة النفسية. إن رأسها يضحّ بحركة الأفكار المتضاربة، تماما كالحركة المزدحمة من حولها، أعصابها مشدودة متوتّرة، وليس سلوكه الشرس ما يمنعها عن الإقدام بتلك الخطوة التي جلدتها سميحة ببلاغة إدراكها؛ بل وعميها التامّ بعدم استخراجها منه أكثر من السخرية اللاذعة والتشهير بها بين الجموع، وكما سبق وأشارت رفيقتها سيستفهم منها بارتياح عن الصفة التي تسأل بها.

في هذه اللحظة التعبه بلغ بها القلق مبلغا عاصفا. هذا القلق الذي لا ينفك يتأكلها، مبلغا مفرطا من اللامبالاة بأي شيء، لو أن موتها يخلّصه من برائن الموت لقدّمت روحها في سبيله، ليس هذا بجنون كما سبق وأن فسّرت لنفسها، لا، إنه مجرد شعور نبيل بريء خارق احتلّها ذات يوم، أسمته إعجابا عنيفا، لقد ابتسمت عيناها يومئذ، واستسلم قلبها. ابتسمت برقة الأطفال، أما اليوم؛ فقد اكتشفت بشيء من الاستسلام العجيب أنّها تحبّه هكذا دون سبب، دون هدف، حبّا خاليا من الغايات الدنيوية الفوارة، ليست ترجو شيء منه إلا أن يكون بخير، أحبّته حبّا أبكما صامتا، حتى هي ذاتها لم تستقبل الشعور الزاحف إلى أعماقها السحيقة إلا كبدعة هرطوقية أنكرت عليها طابع الاعتناق، وها قد اندلع الآن مثل حرب أهليّة لا سبيل إلى إيقاف فورتها إلا بالحكمة الضائعة بين برائن الاستبداد .

إنها لم تشعر في حياتها بهذا الحدّ من الألم، و انعدام الحيلة، كل ما يحيط بها الآن فراغ وضياح، كان قلبها يخور وأعصابها تهوي، وأحسّت أنها راغبة في تحرير صرخة قويّة من جوفها، لقد انثلم صبرها، وبات من المشقّة إساء النصح له بالتجمّل.

تداعت رباطة جأشها، من حيث كانت صلبة شامخة، وتساءلت كيف وصلت إلى هنا، كيف تقف بين هذا الحشد من الناس؛ لتطمئن ببساطة على رجل لم تلتق به يوما، ولم تتبادل معه كلمة واحدة، ولا نظرة أيضا، وقبل كل هذا الهرج والمرج كيف أحبّته؟ هل يعقل أن يحبّ المرء إنسانا لم يقابله في حياته؟ هل يعقل أنها أحبّته من مقالة تفنّن في كتابتها، إنها هائمة في حبّه وذلك أمر مسلّم به، ولكن ماذا تستقطب من كل هذا؟ لا شيء، ماذا ستنال، لا شيء، وأحسّت

أنها في جوف حلم رهيب، وأنها ضائعة في غابة كثيفة الأشجار. ووافتها فكرة مفاجئة وهي في غمرة اليأس والضياء، ماذا لو أرهفت السمع بكل مكان يجتمع به اثنان كما اتَّفَق وحدث مع السيّدتين، ربما يتطرقان إلى مسألته، ستلتقط أي خبر فهو رجل معروف و أغلب الظنّ أن نصف البلد يعرفونه، هنا بالذات لا بد أن يكون مدار حديث من أصل خمس على الأقل وسرعان ما انجزر مدّها بعد أن قلبتها في رأسها تقليبا معقولا. ودون سابق إنذار سيطرت عليها خاطرة معتوهة، و بلمح البصر وبدون تفكير أو تحليل أو تدبّر عميق، اندفعت مخدّرة تشقّ طريقها بين الحضور نحو موظّف الاستقبال الشرس بلونه الأزرق و عيونه المحترقة، متنكّرة لتحذير سميحة، وقد قدّرت في عقلها بسرعة نسبة لا تزيد عن واحد لامتلاكه جوابا على انشغالها، إنّها نسبة ضئيلة، ولكن قد يستخرج المرء منها معجزة كجواب شاف، وعندما أصبح يفصلها عنه ثلاث خطوات، حدث ما أعاق وضع خطّها محلّ تنفيذ كامل؛ بل لقد أنقذها اصطدام عنيف بامرأة رجراجة الأرداف من توبيخ الموظّف. جزاء هذا الاصطدام سقطت المرأة على الأرض فمالت فوقها أثيل لتساعد على الوقوف على أن هذه كانت تغلي حانقة وصاحت في وجهها.

ـ "ألا تنظرين أمامك! هل أنت عمياء! لماذا تركضين! هل تعتقدين نفسك في مضمار السياق؟، ما أشدّ حمقك".

ـ "إننا نعتذر إليك" قالت سميحة بلهجة مهذّبة، والتي ذهبت في إثر أثيل بعد أن لمحتها تركض في اتجاه الرجل المتجهّم "حسنا دعيني أجمع حاجياتك".

ـ "لا حاجة لي بمساعدتك" زارت بوقاحة "بمقدوري الاهتمام بشؤوني".

ـ "حسنا كما تشائين" و أمأت برأسها معتذرة قبل أن تجذب أثيل من يدها وتندفع خارج

قسم الطوارئ وعندما أصبحتا خارجا. حدقت فيها بعينين معاتبتين، وقد نفذ صبرها.

ـ "هل جننت؟، ماذا دهالك. هل كنت تعترمين فعلا سؤال ذلك المختلّ؟ لا أكاد أفهمك، ماذا

حلّ بك؟. هل أنت حقا بخير؟ لقد سبق ونهتك أن ذاك الإجراء لا يجدي نفعاً، وتلك اللثيمة صبّت كل غضبها في وجهك، ستتحملين المزيد من الإهانات ما لم تحكّمي عقلك. لقد حقّقت رغبتك بالمجيء إلى هنا، ولكن لا تهوّري، لا تبكي"

خفضت من حدّة صوتها عندما تطلّعت إلى العينين المتألّلتين بدموع الإهانة، كانت المرأة

قد خاطبتها بأسلوب جرح ونبرة وقحة.

ـ "إنني أتساءل" استغربت مقبّبة حاجبيها "ماذا يمكن أن تفعلي لأجله. لا يتجادل اثنان في

أن هذا أغرب ما يمكن أن يسمعا به في حياتهما، كيف أقنعتني؟ كيف تحبينه؟ وأنت لا

تعرفينه..كيف..؟!؟!"

وحصر تفكيرها بسرعة كسرعة البرق، ما الذي يمكنها أن تقدم عليه في سبيله؟ إن في وسعها كأدنى درجات البذل من أجله الوقوف على قدميها الصغيرتين سنة بطولها في لهيب الشمس تعقبها بسنة أخرى تحت أمطار الخريف وقرّ الشتاء فقط لتطمئن عليه وسرعان ما قبض بصرها على مريض مقعد و عجوز تدفع الكرسي المتحرك، فتفاقم شحوب وجهها.

_ " لن تري هنا إلا هذه المناظر الموحجة، لذلك تمالكي نفسك لدي فكرة، لنجلس في الحديقة، وسأحاول تصيّد أي موظّف يعمل هنا، موظّف من شأني مدهنته لقطف الأخبار. عمال الصحّة متكبرون كما تعلمين، وجرّهم إلى الكلام كجرّ جبل من مكانه، هل سمعت بجبل يتزحزح؟! من المؤكّد لا، تعالي دعنا نجلس في الحديقة و نراقب "

ومشتا متحاذيتين صامتتين بخطوات وثيدة باتجاه الحديقة ثم استقرّتا على مقعد خشبي منخفض متآكل الأطراف تحت ظلال شجرة فتاء باسقة ، لكنها لم تف بالغرض المطلوب، لأنّها حجبت أشعة الشمس فيما الحرّ لاهب دائم لا يزول.

مضت الثواني والدقائق وها قد جاوزت الساعة منتصف النهار ، ولم تتصيّد سميحة أي شخص يُثري عقليهما الباهتين بأنباء، لا تستطيعان طرح ذاك السؤال دون أن يرافق الردّ دهشة واستغراب .

وحيثما أيقنت سميحة بخيبة الرجاء، وعادت كل محاولة بيدين فارغتين خاويتين قرّرت مغادرتيها خلال نصف ساعة ما لم تحظيا بالمطلوب، فجوّهت باحتجاج فولاذي أفقدها رباطة جأشها

_ "لن أتحرّك من هنا من غير الاطمئنان عليه، لن أتزحزح. أنا مستعدة للنوم تحت هذه الشجرة إن اقتضت الضرورة، نحن لا نفعل شيئاً غير البقاء تحتها، كيف سنعرف إذا "صرّحت أثيل بذلك علانية أمام سميحة وهي تضرب الأرض لاشعورياً بقدميها وفي عينيها وميض تصميم فائق، لقد كانت في ما مضى فتاة سهلة الانقياد، بطواعية لينة أما الآن فإن تلك المرونة في وجهها قد نشفت، وحلّ محلّها عناد متصلب، هذا العناد الذي أعياها وأتعبها وأذاب رأسها الحاسرتحت الشمس الحارقة، ونزل عليها التصريح كأغلال تُقيّد لسانها ومنعتها من البوح بما يختلج صدرها، إن لها وجهة نظر واحدة منذ أن صدمت بمعرفة العشق الصامت الأبكم في قلب الفتاة التعسة على أنّها تكتفي كارهة بالتلميح الساخر، كانت هذه مثل العقدة المحكمة في منتصف حبل طويل لن تتمكن من فكّها مهما فعلت، جاءت بمثابة آخر إثبات لعشق الفتاة المتمرّد.

"إن بك لوثة" صرّحت سميحة بلهجة ضحّت فيها ما استطاعت من الرتابة والحذر "نعم إن بك لوثة، ماذا قلت! سننام هنا، تحت الشجرة؟ لقد ضقت ذرعا وإذ ما قلت شيئا سخيفا آخر فأقسم أنني سأبأشر العويل هنا. تحت ظلال هذه الشجرة وسأخبر الجميع أنك السبب".

_ "أرجوك يا سيّدة سميحة" قالت أثيل باستعطاف وقد تجلّى في عينيها إحباط مغتم "لن نعدم الوسيلة، لو نتجول قليلا في المشفى فلا بد لنا أن نلتقط خبرا، أما ونحن جالستان هنا، سأجنّ إن فشلت في الاطمئنان عليه، لن تقرّ عينايا مطلقا إذا ما عدت دون أنباء".

_ "ليس زوجك يا عزيزتي" قالت بنبرة قاسية "ليس زوجك. إنّه مجرد رجل تتوهمين أنّك تحبينه، وأنا كيف سايرتك" كل مرة تتحسّر على ترك نفسها تُخدع من طرف فتاة حمقاء.

_ "لست واهمة، لو كنت كذلك ماذا نفعل هنا؟"

_ "نعم إنّه سؤال جيّد" قالت سميحة ضاحكة ضحكة نهاية الطريق لامرأة نفذ صبرها كليّا "إنه ممتاز في الواقع، يجب أن أصقّق لك بحرارة لطرحك هذا السؤال المهم. ماذا نفعل هنا؟. الجواب على رأس لساني؟ ماذا كان؟ إنك مجنونة وأنا مثلك، هذا هو الجواب لمثل هذه الأسئلة الفلسفية، هناك أسئلة شائكة حقا، ليس لها جواب، اسمعي يا مجنونتي، دعينا نذهب إلى البيت ولا تخافي إن حدث معه سوء، سيفد إلينا النبأ، فالأخبار السيئة تسافر على بساط الرّيح، وفي حال لم تفد فهذا يعني أنه بخير، ما الجدوى من مكوثنا هنا؟! لنشوفي هذا الحر!!"

_ "أرجوك، لنمكث هنا يا سيّدة سميحة، لنمكث فترة أطول، لكن دعينا لا نبقي مسمرتين في مكان واحد، أشعر و كأننا مسماران" ولكن رجاءها بالمكوث فترة أطول لاقى استنكارا مستعدّا للعضّ من طرف سميحة.

_ "تقصدين لنشو مدّة أطول. أريد نزع ملابسي و البقاء دونها، أشعر بالحرّ، ألا تشعرين به؟" اصطبغت وجنتا أثيل بحمرة الخجل الخفيفة ولم تحر جوابا بل نكست رأسها.

_ "طبعاً إن أدبك الناعم يشعر بالخجل أليس كذلك؟ وقري رأسك المطأطأ لتقفى به أمام والدتك. أنا سأقرّ بجلدي قبل أن أقف في بلاط سعادتها الموقرة، لا بد أنها ستصليبي" وانكمش فمها عندما مرّت صورة مليكة العبوسة بذهنها "لا شيء سيقيك من فورة غضبها لو عدت بك بعد الساعة السابعة، لن أكون أحسن منك، فهي ستمنعني من رؤيتك، نتيجة اقتناعها بتأثيري السيئ على أخلاقك. ستعتقد معتوهة أنني أحطّم سمعتك بينما أنت من تفعلين ذلك. ما أشقّ الأهوال التي تنتظرني!!"

لم تكن أثيل في هنيهة ما، منذ وطأت قدماها أرض المشفى تفكّر في والدتها ، كان وجهها المتجهّم وعيناها القلقتان لا تفدان لها بأي أحجية صعبة أو نازلة ممضّة؛ لأنها كانت في دنيا

أخرى قلقلة ملتاعة، مضطربةً فرائصها. ولم تعترف لنفسها إلا بجزء يسير من الإثم، ذلك أنها علّلت الغاية، علّلتها بدافع عفيف، ونكسة قلبية جارفة، وعشق يستعر متوقّداً، ونزفت حصاصتها، فدقّت آخر مسمار في نعش الشعور بالذنب، ليس هناك ما يجعلها تشعر بالإثم، لعدم ارتكابها حمقاً أو إتيانها شيئا، وبات استحضار صورة والدتها في عقلها المشوّش المرتبك قضية فيها نظر. حتى لو بقيت هنا سنة كاملة، لن تتمكّن قوّة من جرّها دون الظفر بالمطلوب.

_ "تأملي هذه الوجوه المنقبضة" تابعت سميحة بعد أن سرحت طويلا "هل تتوقّعين منها أي خير، تأملهم، إنهم حتى لا يبتسمون، شفاههم عقيمة. انظري إلى تلك المرأة القصيرة، وجبهها أحمر يشبه الجزرة" شعرت بالملل فقرّرت السخرية من الموظّفين "ها، إنّها تضحك على الأقل، إنّها تضحك" ورددت العبارة، ثم فجأة خبا صوتها، وراحت تدقّق النظر في المرأة التي ترتدي بدلة بيضاء مجعّدة، كانت شفاتها خشنتين كالنقائق، ذات منظر مضحك، راحت تمعن النظر فيها كأنها ميّزتها بشيء ما، لكنّها تعرفها ثم اتّسعت عينها فاضحتين ذهولهما. لقد أتاها الفرج من حيث لا تدري وعندما سارت المرأة بمحاذاتهما، صاحت سميحة دون شرح غايتها

_ "مطع، مطع، إنّها تهطل بغزاةة" تقصد مطر

إنهم في عزّ الصيف والحرارة تكاد تُذيبهم، أي نزوة حلّت بها؟ هل تتعمّد إثارة مشكلة كما هو عهدها، إنّها لن تتورّع عن ذلك طالما هي تعاني من الفراغ، هي تعتبر مرور ساعات مع عدم إثارة مشاكل جريمة عظمى. ووثبت على قدميها مندفعاً صوب المرأة القصيرة ثم منتصباً أمامها بحركة غريبة. هل قررت السيّدة سميحة إتقان التزلّف، هل شوّهت حرارة الشمس دماغها؟ ما بالها تتصرّف كحمقاء؟.

_ "إنّها تُمطع" و فتحت كفي يديها باتّجاه السماء رافعة رأسها، بحركة توجي بالاستمتاع بهطول الأمطار "أيتها الغبيّة، إنّها أنا، ألم تعرفيني؟ نعم، نعم. إن لم تنطقي اسمي خلال ثوان سأعضّك، لقد فعلتها ذات يوم".

_ "سميحة" هتفت المرأة وهي تقفز كقرد على شجرة. تلا الهتاف عناق دام دهرا، وتبادلتا قبلات ممتزجة بالضحكات، مدفوعة بسرور اللقاء العنيف. جذبت انتباه الجالسين والمارّين إزاءهما.

لزمت أئيل جلستها كطفلٍ مؤدّب، يلفّ ذهنها غموضٌ مجوّفٌ، ممانعة حشر نفسها بين امرأتين خمّنت غير مكترثة أنّهما صديقتان قديمتان ثم أكبّت رأسها على حجرها وراحت تفكر، وهكذا أحدثت سميحة وصديقتها ضجّة علت فوق السكون الناعم لحديقة المشفى وسمعت المرأة القصيرة ذات الوجه الأحمر تقول بصوت مبحوح و بكلمات بطيئة مما أطاق اللثام عن

رواية الغاء والراء

_ "ماذا تفعلين هنا؟ ااه لو تغفين كم اشتقت إليك، لم أغك منذ سنوات، لم تتغيغي كثيرا على أية حال "وعانقتها بحرارة مجددا.

_ "لقد اشتقت إليك أيضا أيها الخنفساء، إنها لفرصة سعيدة هذه التي جمعني بك "قالت سميحة بدافق من السرور وقد التحمت يداها مع يدي المرأة. ولكن يا للهول إنّه لنعت وضيع هذا التي تطلقه عليها "خنفساء" خمّنت أثيل التي انفعلت وجنتها تلقائيا.

_ "أخبريني عنك، يبدو أنك تعملين هنا. لطالما تمنيت أن تكوني طيبة أطفال، ويشهد الله أن هذه المهنة لم تكن تناسبك أبدا " أضافت سميحة بمكر وعيناها يظفر منهما بريق الفرح المشرق.

_ " في الواقع، لم تتحقّق أمنيقي "أجابت المرأة وقد تكوّر فمها بابتسامة أسف "لم أستطع نيل ما أغيده، أنا أعمل ممغضة هنا بقسم الأطفال، كما تغفين أنا أحبّ الأطفال "

_ "أدغي، أدغي، أدغي "قلّدتها سميحة بشيء من السخرية، ولم تزد المرأة على أن ضحكت على أسلوبها في التقليد "لا تخبريني أنك تزوّجتِ ذاك القرد المنكوب، ماذا كان اسمه؟ "

_ "جمال، جمال، نعم لقد تزوّجته، وغزقت أغبعة أطفال،.إنهم غائعون " قالت كلمة الروعة مشدّدة بقوة على حرف الغاء هذه المرة.

_ "لا أظن "قالت سميحة بغير اقتناع "من أين تأتيهم الروعة، أذكر أن ذاك الصعلوك كان يشبه القرد.و أنت معروف حالك،إني لأرثي لحالهم دون أن أقابلهم "

ألقت الاثنتان رأسهما إلى الخلف وطفقتا تضحكان. الله يعلم ما المضحك في هذا الحديث التافه، والله يعلم لماذا تقهقه المرأة القصيرة وسميحة تشتمها علنا.

_ "وماذا عنك؟ كنت تودّين أن تكوني سيّدة أعمال،هل نجحتِ؟، وهل تزوّجتِ؟ "سألت المرأة

_ " نعم لقد تزوّجت ومات منذ سنوات ليرحمه الله، ورزقت بفتاتين جميلتين."

_ "ااه، أنا متأسفة لأجلك يا عزيزتي سميحة"

_ "إنّها الأقدار يا عزيزتي، ونعم لقد حقّقت أمنيقي، إني سيّدة أعمال ناجحة "وأخيرا طاف تعبير التعجّب حول وجه أثيل، وارتفع حاجباها في وجه هذه الكذبة الدامغة.

_ "كنت ضعيفة في الغياضيات.حتى أن أبسط عمليّة حسابيّة كنت تفشلين في حلّها.و لكن حتما كنت تحبّين الدولاعات و الدنانيج.ولهذا يُتوقّع منك أن تصبجي سيّدة أعمال "

_ "إذا تذكرين لماذا قمت بعضك أيها الحمقاء" تُرى أليس لهذه المخلوقة الساذجة اسم؟

لقد نعتها بالخنفساء والغبيّة و الحمقاء، ولكن إلى الآن لم تخاطبها باسمها الحقيقي .
_ "اياه يا سميحة. كنت قميئة جدا عندما فعلتها" وضحكت حتى اغرورقت عينها بالدموع
ما أجمل أن ينعم المرء بأصدقاء يضحكون على مصائبهم القديمة الطائشة "و لقد خلعت
ذغاعي يومها. لعدم تمكّني من نقل حلّ المسألة لك أثناء الامتحان. اسمعي، يشهد الله أنني لم
أخنك أو أتفاجع عن وعدي لك، ولكن لم تواتني الفغصة المناسبة، لقد نطقت الأستاذ صفغا،
ثم غدوت مثل الكلب المسعوغ وهجمت عليّ وصنعت في ذغاعي مغاغة ككهف كغوبيغا
(كروبيرا)"

_ "تستحقين" قالت سميحة بحقد و تبدّدت الابتسامة من وجهها إثر استرجاعها ذكرى تبلغ
من السقم المنتهى.

"أيتها الخسيصة، لقد رسبت بسببك. ثم طردت من الثانوية، لأنني لم أعد مقبولة. لو أنك
كنت تنعمين ببعض الحذق لكنت وجدت طريقة ما لتنقليني الأجوبة. لماذا اعتمدت على جبانة
مثلك؟! كان ينبغي أن أبذل مجهودا أوفر لو اعتمدت على غيرك لكنت الآن متوّجة بأعلى
الشهادات. لقد كان حبيبك القرد يعرض خدماته مقابل المال، يا ليتني اشتريت الأجوبة منه
لقد عاقبك الله ولم تصبني طيبة على الأقل، وهذا يجلب لي نوعا من العزاء. تستحقين ."

وقرصتها من ذراعها، لقد كانت تعني ما تقول. إذا فسميحة كانت غشاشة اتكاليّة، ألم
تسمعها أثيل تفاخر بذكائها، ألم تسرد عليها قصّة حزينّة عن انقطاعها عن الدراسة بسبب
مرض أمّها المفاجئ. إذا فلقد رسبت و طردت بسبب غيابها.

_ "هل مازلت تحيّن المطع؟" تابعت محوّلة حقدتها إلى دعاية مسلية "إنّها تمطع. تمطع، أتذكّر
كيف كنت تقفزين تحت المطر، وتبلّلين نفسك ثم تصابين بالزكام ."

_ "نعم لازلت أحبه" قالت المرأة باندفاع يغري على الضحك " لكن الحجّ اليوم شديد "
_ "ليتك تحيّن أشياء لا تحتوي على حرف الراء، مسكين هذا الحرف لقد أجلسست عليه

حرف الغاء عنوة واغتصب حقه في الظهور" وكانت ردة الفعل ذاتها لقد ضحكت مجددا
_ "ماذا تفعلين هنا يا سميحة" سألت أخيرا السؤال الذي أعاد إلى ذهن سميحة أنّها ليست
لوحدها، وأنّها اصطحبت معها فتاة تعسة مغتمة. للاطمئنان على رجل أقرب إلى الموت منه إلى
الحياة، فاستدارت ملقية عليها نظرة طويلة. كانت تعابير وجهها لا تزال خامدة، ويدها
محشورتان بين ركبتيها وعيناها المنكوبتان تفيضان أدبا.

_ "تعالى يا أثيل" خاطبتها بلهجة رقيقة، وما لبثت أن انتصبت بجانبها حائرة الوجه بتأثير
الحوار التافه الذي دار بينهما.

- "دعيني أقدم لك صديقتي الصغيرة، إنها أثيل. أكثر فتيات الدنيا جمالا وأدبا، ورزانة، إنني أوكد على هذه كلمة، رزانة "كان واضحا أن في نعمتها شيء من السخرية، فهي لم توظف الكلمة وتؤكد عليها إلا للتلميح إلى نقيضها

"سعدت بلقائك" قالت أثيل باقتضاب بإيماءة من رأسها فلديها القليل لتقوله لأشخاص تعرفهم وأقل بكثير لأولئك الذين لا تعرفهم.

- "إنها إحسان" فقدت أثيل كل أمل لحيازة المرأة اسما" انتبهي إنها اسم على غير مسعى، أراهن أنها لم تحسن لشخص في حياتها " خلا وجهها من أي تعبير ساخر وقالت بنوع من الجدية والموودة " هي صديقة طفولتي؛ بل أروع صديقة نعمت بها، أجهل كيف افترت عنها. لكن انظري إلى هذه الصدفة الرائعة، لقد اجتمعنا ثانية. إن الحياة غريبة مليئة بالصدف والمفاجآت "

- "اسمعي لقد بحثت عنك وسألت، ولكن لم أستطلع أخبارك من أحد "عللت إحسان" إنها فتاة جميلة حقا، لماذا تجلسين هنا تحت أشعة الشمس الحارقة، ثم لم تجيبيني ماذا تفعلين هنا؟".

- "أنا أجلسها؟" هجست سميحة حانقة "أنا ضحيتها المسكينة".
"جارية قديمة. جئت أزورها " أجابت بسرعة قبل أن تفتح أثيل لتستفسر عن الشاب" ولكن عندما وصلت واكتشفت مغادرتها المشفى بالأمس صباحا، لقد قطعت هذه المسافة من أجل لا شيء. ليلعن الله حظي "

- "بأي قسم كانت، ممّا تشكو؟"
- "إنها تعاني من..." تلعثت سميحة "إنها تعاني من...، لقد كان جلدها يتفتت تلقائيا، وظهرت بعض البقع الحمراء على وجنتها، لا أذكر ما كان اسم ذلك المرض، عندما أعود سأزورها وأطمئن عليها. لا بد أنها تحسنت وإلا كيف سمحوا لها بالمغادرة ".
- "حسنا إذا. دعيني أستضيفك الليلة في منزلي. وتحدثت عن الأيام الماضية، إن زوجي ليس

بالمنزل ".
- "لا "هزت رأسها غير موافقة "ليس بوسعي المكوث هنا فترة أطول، لقد اصطحبت الفتاة

معى ووالدتها لا تسمح بنومها خارج المنزل، تفشل الأم المسكينة في ضبط قلقها ".
- "هذا مؤسف. كنت سأسعد جدا باستضافتكما " قالت بخيبة أمل غير أنّ سميحة راحت تنقب في رأسها عن طريقة لسؤالها عن القضية التي قدمتا لأجلها وتبادلت مع أثيل نظرات ذات مغزى

_ "أين كنت متوجهة؟ أعتقد أنك مشغولة وأنا أخذت من وقتك".

_ "كنت ذاهبة إلى المخبغ، لجلب بعد التحاليل، لا تقلقي، لن تكون جاهزة قبل الغد، تعغفين كيف تسبغ الأموغ في المشافي ولكن عليهم أن يغسلوك (يرسلوك) حتى إلى للحفغ في المناجم إن ما قبضوا عليك جالسة دون عمل شيء"

_ "ها.و لكن يا عزيزتي عليك وضع قبعة على رأسك في هذا الحرّ. إن وجهك يلتهب بسرعة. ربّما تتعرّضين لضربة شمس قويّة".

_ "لقد تفوقت عليّ في هذا" قالت إحسان باستهتار "لو تغين وجهك، سنستدعي غجال الإطفاء إن ما مكثت هنا فتغة أطول".

_ "اسمعي يا إحسان، بمناسبة الحديث عن رجال الإطفاء. لقد تذكّرت حادثة مريعة حدثت مع شابّ.. إنّه ذاك الصحفي،، ما كان اسمه،، سمعت أنّه بهذه المشفى، و علمت أن حالته سيئة،، لكن نسيت اسمه".

_ "ااه" تأوهت احسان طويلا، وعلا وجهها ضيق ممزوج بالأسى. أما أثيل؛ فقد وقفت محتبسة النفس و قد غار الدمّ من وجهها. و أمسى مصفرًا كقشرة ليمون مما دفع سميحة للضغط بشدة على يدها مُعنونَةً قبضتها ب "تمالكي نفسك ولا تثيري الشبهات حولنا". فحاولت احتجاز اضطرابها. و تصنّع عدم الاكتراث. وعمل في صالحها كون إحسان لم تكن توجّه النظرات أو الكلام إليها.

استدارت إحسان فجأة مرسلَةً طرفها إلى بناية شاهقة مؤلفة من خمس طوابق مصبوغة باللون الأصفر الداكن، وهمهمت بصوت خفيض آسف " اسمه خليل، إنه ينام هناك" وبسرعة كلمح البصر حوّلت أثيل بصرها إلى البناية بعينين جاحظتين، وأحسّت بضربات قلبها تتسارع، وسرت في جسدها قشعريرة باردة، و تراءى لها المبنى كحجرة واحدة مغلقة في وجهها. لقد كان هذا المبنى منذ الصباح أمام بصرها، وخامرها شعور ممضّ و غُصّة ارتفعت من قلبها الى حلقها _ "ذاك المسكين، لقد فاغقت والدته الحياة بعد نوبة قلبية. مكثت في المشفى أيضا ولكن قلبها لم يتحمل ، لم تتحمّل أن يصيبه مكغوه" وفغرت أثيل فاهها من هول الصدمة. أما نظرتها؛ فقد جمدت كأنّها كائن مشلول فلم تهتد إلى البكاء. لكنّها احتفظت برياطة جأشها لأنّ سميحة ضغطت على يدها بعنف أكبر

_ "وماذا عنه" سألت سميحة فورا

_ "لقد تجاوز مغللة الخطغ.سيعيش"فتنفست أثيل الصعداء و زفرت بارتياح، حتى إن إحسان لاحظت بارتياح أن الزفير كان أغرب من إدراجه ضمن المعقول

- "ما بها الفتاة، تبدو شاحبة" استفسرت و عيناها تنطقان بالارتياح
- "لا يا عزيزتي" أسرعتم سميحة مرتبكة تفسر الموقف لأن الزفرة صدرت من أعرق رتتها
"إنها مرهقة من الرحلة. هي كابنتي الغبيتين، لا تتحمل مشقة السفر" وحملت إلى أثيل بنظرة
يغالب التأنيب فيها التوسل ثم استرسلت مستميتة لتشتت انتباهها.
- "إذا فلقد تحسّن. أنا سعيدة لأجله، إنّه شاب طيب و شهم، الوحيد الذي يستطيع قول
الحقيقة، أنا متأسفة لفقدانه والدته. لا شك أنه تألم عندما بلغه نبأ وفاتها."
- "لم يتحسّن إلى ذلك الحد، لم يخبغوه عن وفاتها، في الواقع لا يسمحون لنا بالاعتقاب من
غففته أبدا. إن له قغبية تعمل هنا. هي ابنة عمته، وهي معوسة مثل شجفة بقغبه. وإن حدث
وانصغفت لبعض شؤونها خلّفت حاغسا ينوب عنها. يشغف طبيب أغفه على حالته، ولكنه
متكّم بخصوص الوضع. كل ما أخبغني به أنه سيعيش، وذلك بأعجوبة أشبه بمعجزة،
سيعيش"

انتعشت أثيل، وأزهرت معنوياتها وفرحت عيناها فرحا عارما و سرعان ما افتّر ثغرها عن
ابتسامه شاكرة "سيعيش، سيعيش" وهكذا تلاشت معالم النكسة وحلّ محلها ارتياح دقّاق
"سيعيش" ولأنّ السعادة تملكها لم تنصت إلى بقية الحديث بنباهة عمليّة
- "لكن" أردفت إحسان مغممة تقريبا "هناك خطب ما، إن هناك حفكة مغبية حوله. غغم
أهمّ متكّمون. لقد حصل معه شيء. هذا ما أمكنني استنتاجه من الطريقة المتأسفة التي
يتحدث بها طبيبه كلما خذنا في حديث عنه."
- "ما هو هذا الخطب؟"

- "لا أغف يا عزيزتي. إنهم يحيطونه بعناية مكثفة، على أنها مغبية (مريية)، أطباء يغوحون
ويجيئون ويكثفون فحوصاتهم. يجفون تحاليل و أشعة ، وقد غأيت الطبيب المشغف عليه
يشغف بحركات غير مطمئنة عن حالته."

- "حسنا. حسنا. المهم أنه نجا" قالت سميحة بحماس "ربما كانوا يتجادلون عن كيفية
إخباره نبأ وفاة أمّه، ذلك صعب كما تعلمين. أنصتي يا إحسان. إنّ الشابّ عزيز علينا جميعا.
ولهذا أطلب منك أن تنقلي لي أي خبر عنه"

- "نعم. نعم" وافقت إحسان دون تردّد "إنه عزيز علينا. وأعدك أنني إن ظفغت بأي نبأ عنه
سأنقله لك. دعيني أخبغك أيها الفتاة أنك جميلة"

كانت الغبطة المتينة قد استحوذت على عقل أثيل، فلم تعد منذ برهة تنصت لكلمات
إحسان البطيئة، وتألّقت عيناها بوميض الفرح المضيء. ولهذا استقرت عيناها الحاملتان على

المبنى قبالتها و بطّنت الألام بخرق الأمل المنتعش. إنّها على استعداد تامّ لأن تهب عمرها بطوله لهذه اللحظة المجيدة الزاخرة بنعمة عودته سالما، واستيقظت حواسها المغيَّبة في الجدران الصفراء على صوت سميحة العميق كمزمار مزعج والتي كانت قد هزّتْها هزًّا يستيقظ على إثره الموتى.

"أثيل. إنّ إحسان تكلمك يا عزيزتي".

_ "أعتذر، لم أكن أنصت إليك، ماذا كنت تقولين يا سيّدة إحسان" قالت أثيل باسمه بنبرة

يشوبها الارتياح

_ "كانت تطريك يا عزيزتي. تقول إنّك جميلة"

_ "أشكرك" قالت باقتضاب وقد اضطربت وجنتاها.

_ "الآن دعنا نغادر، أنا مسرورة جدا لرؤيتك مجدّدا يا إحسان. لم تذهب رحلتي المضنية

الطويلة هباءً" وتبادلتا العناق مجددا و برقت الدموع في عيونهما كأتهما تبادلان وداعا أخيرا.

_ "اسمعي" صاحت سميحة "اهتمي بجسمك قليلا، إنك مثل البقرة"

كانت هذه العبارة مناسبة لتلطيف كدر الفراق. وما إن انصرفت إحسان إلى عملها، حتى

نزلت أثيل درجات الحديقة بسرعة، ونزلت في أعقابها سميحة تتميز غيظا و عبرت الطريق

لتتوقّف منتصبّة أمام المبنى الأصفر الداكن و رفعت عينها المتضرّعتان إلى السماء، ودعت في

سرّها دعاءً خافتا، وبعد أن فرغت استدارت إلى سميحة اللّهائة وقالت

_ "لو أستطيع البقاء هنا طول حياتي، لن أمانع أبدا".

فكشّرت سميحة عن أنيابها، ولكتّها أدركت منذ زمن طويل أنّ الفتاة لم تعد تستجيب إلا

لقلمها فرفعت رأسها إلى أعلى مستنجدة برحمة الله.

الفصل العاشر

أبّلت أثيل من رعبها و تقهرت أسباب الذعر مدحورة منتكسة، وحلّقت في سماء الطمأنينة الغضة مثل عصفور حديث الطيران سعيد بجناحيه المرفرفين. بعد انسحاق روحها لأيام عدّة، انسحقت موجوعة خائفة، لقد مضت الأيام الحالكة وحلّت بدلها أيام هانئة، وأشرقت الشمس من جديد بعد أن حُجبت بغيمة ثابتة قاتمة. إنها لا تعد نفسها الآن لإفتاة جبلت من طين السعادة. الآن يسعها إخماد نار حيا المستعرة وجرّه إلى ركن الكتمان من جديد، لكن ليس طي النسيان، حيث أنّها لن تتمكّن من نسيانه مهما ابتذلت من مجهود، إن عشقه الفتيّ ما ينفك يجتاح نبضها.

وغدت بفعل الارتياح بعد المحنة كزهور الربيع المتفتحة، يزدان وجهها بابتسامة شاردة منشرحة. أثارت ريبة أمها وقذفت بأختها في سرايب الازدراء، منذ أيام فقط كانت بحال سيئة. بينما الآن ابتسامتها لا تفارق شفيتها. إنّ ميرنا لتندهل كيف تنهأ هذه المخلوقة المستهتره بعيشتها وهي مثلومة الشرف، في الوقت الذي ينبغي فيه جلد نفسها على ذنوبها الشائنة، وتحبس نفسها في مخدعها، وتعيش مرتعشة محتبسة الأنفاس من اكتشاف الجيران و الأصدقاء لعارها "أعوذ بالله من جرأتها، ألا يقرّعها ضميرها؟".

على أنّها تصفع بصيت الفضيحة غير متوجّسة، ولا يسعها إلا الاعتقاد حانقة أن شقيقتها المصونة لا يباغتها الندم مطلقا: بسبب أنّها شانت نفسها وشانتهم بعمل شائن، ااه لولا أنّها تخشى على والدتها من أثر الفضيحة. لكان من دواعي كراهيتها أن ترفع الستار عن عارها. وتصحّح مفاهيم الناس عن الاحترام والأدب الذي يتوّهمه الآخرون في شخصها .

إن الجميع يحبونها دون استثناء وليس في سيرتها الذاتية إلا خدمتها المخلصة للعجائز الهرمات، تعاملها الرحيم مع كل مخلوق، تهذيبها في أي موقف، عدد المغرمين بها. ااه حتى جميلة النكدة ذات المزاج المتقلّب وزوجها الجشع المفترى صبري والذين لم ينتزع أحدا حياها، يحبانها.

أما هي الفتاة الصالحة، الشريفة، المستقيمة، فلا أحد يتوسّم مزاياها الفاتنة، لكونها فتاة غير جميلة. ولا تجيد التزلف، لولا أنّها شقيقة الفتاة الوقورة وابنة السيّدة المحترمة لما ألقوا عليها حتى التحية، فسميحة تزديها، ولا تمنع التلميح بصدر رحب أنّها فتاة قاسية وأنايية، وبالنسبة للآخرين، فهي لم تكسب منهم إلا مودة مجحفة منقّطة بالاحتقار مزخرفة بالبعوض.

لأنهم أغبياء لا يعلمون، ولو كانوا يتجسسون من حين لآخر على الأسرار الوضيعة المغلفة بمكارم الأخلاق، لكان لهم رأي آخر أكثر إنصافاً في حقها المهان.

ولن تظن والدتها، وهي ترى مسحة البراءة المتهبة في وجهها، ولن يقدح زناد تفكيرها إلا أن ابنتها الجذابة وليدة التربية الحسنة لا ترفع رأسها عن الأرض مطلقاً، ولن تخامرها الظنون أبداً أنها كانت في وقت قريب في الخارج تضاجع المتزوج والأعزب. أما الآن فإنها تغازلهم صامتة برقصه من عينها وحركة شقافة واضحة من حاجبها وابتسامه باعثة على الشلل في زاوية فمها، مستغلة جمالها الأخاذ لتسرق منها كل رجل، ولا تدري أن ما تأتيه عزيزتها من مخاز يحول ليس فقط عن رفع رأسها أمام الناس، بل حتى أمام الكلاب الضالة.

ولم يلسعها ضميرها يوماً جزاء جفائها المحموم لعلمها بالحقيقة الوضيعة التي وجدت نتيجة دوافع ملحة، جفاءً مطلقاً يتحيز المواقف ليرز لغاية التذكير بالذنب. كانت الأخبار التي تفد متتابعة من إحسان مبهجة منعشة، فقد بشرت سميحة بتحسنة المتدرج البطيء، مع أن هذه الأخيرة لا يزال شكها قائماً بحدوث خطب محجوب. وهذا ما تفشل في نسيان تدوينه في أسفل كل رسالة تبعثها.

_"هي مصابة بالشك المرضي منذ أن كنا في الثانوية، كان هذا عهدنا، ليتمها توقّر علينا غباءها" علقت سميحة مغتمة من الأسلوب المشؤوم الذي تتبعه صديقتها في عرض فطنها. وفي نهاية المطاف ثبت يقينا أنها لم تكن إنساناً شكاكاً، أو مريضاً بالسوساوس، إذ أن شكوكها التي كانت تشتهر بها قولاً وكتابة كانت واقعية، ونقلت إلى سميحة النبأ العاصف والذي أخفته أياً ما قلائل عن أثيل، هذه التي لم يعد يُمكن بردود أفعالها، ومتى تهوي إلى حضيض الانفعال سريعاً! والتي أمتت تفقد طبعها كعجوز مسنة. غير أن طارئة ألغت قرارها، فإن لم تتطوّع هي لتنقل لها النبأ الكسيح، سيروي شخص آخر قريب أو غريب الواقعة لها عن طريق الصدفة ربما ستسقط مغشياً عليها أمام أشخاص غرباء كما حدث ذلك اليوم في الشارع، ليس من الصواب إذا عدم إبلاغها، وهي سميحة من ستتكلّف بالمهمة الشاقة.

"تعالى يا أثيل، ادخلي" قالت سميحة عند عتبة الباب، كانت قد أرسلت ابنتها سالي في مهمة طلب أثيل إلى بيتها بعد الفراغ من وجبة العشاء.

مشت أثيل في إثرها إلى غرفة الضيوف في آخر الطابق السفلي، تبعتها متخوفة، لم تكن سميحة يوماً إنساناً يُعتمد عليه في مطالعة وجهها، وفجأة توقفت عند باب المطبخ مشددة التعليمات إلى ابنتها، كانت سالي ترفع بخفة الصحن نصف المملئة طعاماً، بينما كانت ريحان واقفة ساهمة شاردة، تقلّب فكرة ما في رأسها.

ـ "أصغيا، أيّها الغيبتان" صاحت بغلظة "إن ما تشاجرتما ثانية وبلغني زعيقكما، سأجعلكما تندمان، أنت يا سالي نظّفي الصحن جيّدا، لا تنظّفها كالمرّة السابقة، لأنني سأفقدها، وأنت يا ريحان كفيّ عن الوقوف مثل بلهاء و لمّعي الأرضية". وبعد أن ابتسمتا لبرهة، انطلقت كلا منهما إلى الوظيفة التي كيّلت لها.

"هل هو بخير؟" سألت أثيل مرتبكة، ومن عينها تدرج وميض الخوف، بينما لا تزال واقفة أمام الطاولة الخشبيّة المنخفضة، هذه التي تفضّلها سميحة لأنّها ذكرى عزيزة من زوجها. ـ "إنه بخير. إنه بخير" كرّرت بينما تقمصت شفتاها ابتسامة ضعيفة، وضغطت بيديها النحيلتين على كتفيّ أثيل لتجلسها عنوة، غير أنّ هذه أبدت مقاومة، في هذه اللحظة لم يستقبل قلقها فكرة تحسّنه بالقبول المعتاد.

ـ "أقسم أنه بخير، ولقد غادر المشفى، حبيبتى لقد تحسّنت، ألم تقولي أن بقاءه حيّا هو كل ما يهملك، حسنا إنه حيّ يرزق" فجلست أثيل تظفر شفتاها بشبه ابتسامة غير مصدقة سرعان ما خنقتها.

ـ "لماذا، لماذا؟" سألت متلعثمة بصوت ينمّ عن التردّد "لماذا إذا أرسلت في طلبي؟" وكانت تضغط على يديها متوترة

ـ "أه، ليست بالمسألة المهمّة" أجابت دون أن تنظر إليها ثم مضت إلى النافذة لتحكم إغلاقها كأنّها ترجئ بقدر ما تستطيع نقل النبا المشؤوم.

ـ "أثيل، أتعرفين السيّدة فاطمة؟ تلك التي تسكن خلف ناصية شارع ن. ت، يفصلنا عنه شارعان"

ـ "ربما، لست متأكّدة إن كانت هي التي في ذهني، ما خطيها؟" وكانت سميحة تراقب اليدين المضطربتين والعينين المنفعلتين ثم الوجه المرتبك.

ـ "لقد سألتني مفاتحتك في موضوع يتعلّق بابنها" وبأسلوب فكاهي أضافت "إنّها تعلم أننا مقرّبتان وصديقتان، رغم أن هذا يثير دهشتها، فبيننا عمر مديد، ما كان أوقحها عندما أشارت أن هذا غريب، ما رأيك؟ هو شابّ ممتاز يا أثيل، لديه عمل مستقرّ، كما أنه يكره الحكومة مثلنا، ويشتمها، أقسم أنني سمعته يشتمها" قالت هذا لاقتناعها أن أثيل تُغرم بالذين يشتمون الحكومة "لا تقاطعيني" قالت بإشارة حازمة من يدها، عندما فتحت أثيل فمها قليلا لتعترض ثم قبضت على القبضتين المحكمتين ففتحتهما.

ـ "إنك لا تعرفينه لترفضيه فورا، لا ينبغي أن تقرّي رأيك بهذه السرعة، ينبغي أن تتزوّجي ذات يوم، لا يعقل أن تستمري على هذا النحو، لن تسترسلي في هرائك يا أثيل حول ذلك

الشاب، اصبر في النظر عن مسألته".

ـ "أرفض الحديث بخصوصه" قالت بانفعال مفتعل ، مفلتة يديها ثم خفضت رأسها لثوان مضيفة بلهجة متحدية "لن أتزوج ابن السيدة فاطمة، لن أتزوج أي أحد، أنا قانعة بهذا الوضع".

فانتفضت سميحة مثل ديك شرس واخترقها نوبة من العصبية أمام هذا العناد الصلب
كعناد البغال الحرونة

ـ "ذاك الرجل خليل هو الذي ترغبين فيه" ودون التقليل من حدة سخطها أبدت بعض العطف "لا يمكنك نيله يا أثيل، لنقل أنني وإياك سلمنا بحقيقة حبك له، لكن أين تتوجهين؟ ينبغي أن تطرحي هذا السؤال على نفسك، طريق مسدود، إنك لن تناليه، والآن في وضعه الجديد، لن تكون لك أي فرصة ولا أمل".

ـ "وضعه الجديد! هجست أثيل حائرة" أي وضع هذا ، ماذا تقصد؟".

ـ "ماذا تقصدين بوضعه الجديد يا سيّدة سميحة" قالت بسرعة بعد أن فكرت لبرهة
ـ "تمالكي نفسك، لأن ما سأبلغك به قد يكون قاسيا عليك" قالت سميحة ببطء ولكنها عندما رأت رعبا مجنوننا في عينيها أسرعت تهدئ من ذعرها، كما أن يديها طفقتا ترتجفان
ـ "لم يمت، لم يمت، لقد غادر المشفى، ولكن ليس على قدميه" اخترقت العبارة الأخيرة أذني أثيل بعدم تحليل، بدون مشاعر محدّدة، لكن تعابير وجهها تجمّدت في ثانية و أصبح جسدها عديم الحركة، واستطاعت سماع نفسها تسأل في سرّية تامّة عن ماهية المسألة "هل فقد القدرة على المشي ، أو أنهم بتروا رجليه، أكان هو الذي تعاطت السيدتان حديثا عنه في قسم الطوارئ، وعندما طرق عقلها ذاك الحديث جحظت عيناها و رفّ قلبها هلعاً، ثم تسارعت أنفاسها و سرعان ما التفتت إلى سميحة تطلب تفسيراً

ـ "حبيبتي" خاطبتها بهدوء كأنها تخاطب طفلاً مذعورا، تخشى أن يغى عليه أو تصيبه نوبة عصبية "لقد شلّت قدماه إثر ضربة عنيفة تعرّض لها، هذا ما أخبرتي به إحسان. والواقع أنها ذكرت ذلك أمامنا في حديقة المشفى إذا كنت تذكرين، ذكرت أن هناك خطبا ما، لأن عددا من الأطباء يروحون ويجيئون، هذا هو الخطب الذي حلّ به، لقد فقد القدرة على المشي" واسترسلت سميحة بصوت رقيق ينمّ عن العطف "ليس في العالم شاب أقلّ حظاً منه في هذه اللحظة، لقد خسرت كل شيء في غضون أسابيع، والدته وعمله وقدميه. ما أقسى ما تعرّض له هذا التعس دفعه واحدة، وأسوأ منهم جميعا فقدانه الرغبة في الحياة، أعلمتني إحسان أنه أضحى يطلب الموت بعد إبلاغه بوفاة أمه، كما سبق و ذكرت، لقد كان يحبها و متعلّقا بها، وإنها

لتعني له كل شيء، والآن وقد فقدها غدا روحا ميتة " .

كأنها انفصلت عن عقلها، لم يسعها الصحو من ذهولها، على أن دموعا حارّة انبجست من عينيها مرة واحدة، وتطهّرت من الألم وأحسّت بدله بالشفقة المبررة .

_ " كانت العالم بالنسبة له "قالت أثيل بمرارة، لا يشترط أن تشاركه الأحاديث وتقضي معه الساعات والأيام، ولا يشترط أن تنظر مباشرة في عينيه البنيتين الوديعتين لتعرف من هو؟ وماذا يريد؟، إنها تدرك تعلّقه بوالدته أكثر من تعلّق أي إنسان آخر بأمه. وإنه لرجل عزيز النفس، رقيق القلب، هي تعرفه معرفة حقّة ليس بعشرة السنين بل ببصيرة قلبها.

_ "إنه لا يستقبل أحد "أردفت سميحة حائرة إزاء الوجه الممتعع بفاجعة النبأ" ويرفض أي بادرة للعلاج، لقد دخل إلى جحيم الكآبة التامّ. وذكرت إحسان بناءً على الأقاويل الشائعة في المشفى أنه ربما،،، ربما، سيجنّ قريبا، للأسف، لقد فقد هذا الشاب الرائع كل فرصة ليعود كما كان، لم يستطع التحمّل، كان الله في عونته... "وبذات اللهجة الرزينة المشفقة استطردت كلامها مراقبة بعناية ملامح الفتاة الفزعة

_ "أصغي إلي، ليس بوسعك مساعدته.كفّي عن البكاء، فحتى أقاربه عجزوا عن ذلك، إنه يعيش في المنزل وحيدا كئيبا، لا يتقبّل شفقة أحد، نعم هكذا يسي أمثاله مساعدة الآخرين، شفقة وإحسانا، ولم يكن يوما إلا رجلا.... "

_ "عزيز النفس "أكملت أثيل "إنه عزيز النفس ولن يرضى أن يمدّ أحد له يد العون، لأن له كبرياءً رفيعا " وشهقت شهقات متكرّرة.

_ "هذا قدره يا أثيل، ولقد استسلم أسرع مما كان ينتظر منه " .

شملت أثيل أرجاء الغرفة بنظرة متنقلة، وهي تتلوى شفقة، ناهيك عن شعورها بالم عنيف في قلبها.

لا يمكن أن يكون هذا الذي حصل معه، هو من بين جميع الخلق الذين تعرفهم، لا تصدّق، هي لا تصدّق، سيتناقص عدد أحبائه الآن، ثم يغدو وحيدا. كانت دائما تتساءل (قد يحبكّ الناس وأنت تملك كل شيء، لكن كم عدد الذين يحبّونك وأنت لا تملك شيء؟)، إنه وحيد تعيش هناك بين جدران البيت الكبير، لقد غدا بيتا مهجورا

_ "ااه كيف سيتحمّل البيت دون أمّه، لا شكّ أن الذكريات تقهره كلما وقعت عيناه على أحد أشياءها العزيزة، ليس إلا سجنا في هذه الوهلة، وليس أقبح من الأصوات التي تحتفظ بهم الجدران والصور المعلقة عليها، من يسعه إخراس ألمه الناجم، قد قجّلت الحياة بفاجعة متعددة الوجوه "وعلى نحو مفاجئ أصبح من العسير عليها التنفّس إثر انقباضة هوجاء في

صدرها.

_ "هذا هو وضعه الجديد، لم يعد كالسابق، وأعتقد بضرورة بذلك جهدا في سبيل نسيانه، انزعيه من رأسك، ليست بالأمر الشاق عليك، لم يعد صحفياً ناجحاً، ولا رجلاً كاملاً. ما كان يجذبك إليه قد تبدد، لا أبالغ إذا قلت أنه يعتبر رجلاً ميّناً، لست تحبينه يا أثيل، كنت فقط مغرمة بأفكاره وجرأته، هذا ما جذبك إليه أول مرة، انتبهي، ليس لدي شيء ضد الرجل، و لازلت أحترمه" فقذفها أثيل بنظرة ملتهبة ونشأ في قلبها نفور جامح وازدراء مزمجرج، لم تحجم عن إظهاره.

_ "لن يموت" قالت ملتاعة وعيناها تبرقان تحدياً "لن أسمح بموته، ولن أسمح لك يا سيّدة سميحة أن تتكلمي عنه بهذه الصورة، سأحبّه الى الأبد، و سأحبّه كيفما كان وضعه، ولنن فقد كل وظائفه، فلن ينتقص هذا من حبي ذرة واحدة".

_ " لا أحد يحسن فن العناد مثلك يا أثيل، حينما تعوّلين عليه "زمجرت سميحة برمة، بنبرة همجيّة تقريبا، فاقدة آخرورقه صبر تمتلكها، ملوية فمها ثم تحرّكت مبتعدة عنها، وراحت تدرع أرض الغرفة ثم توقّفت وقصدت الباب لتتأكد أن الفتاتين لا تسترقان السمع عن غير قصد. وأفكارها تجري في مجرى غير الذي خطّطت له.

_ "تلك الكتب التي تطالعينها، تلوّث عقلك يا أثيل، فلسفة عقيمة" خاطبتها بلهجة شديدة فيما أطرقت أثيل رأسها منهمة في التفكير، في العزلة التي تغلّف حياة غاليتها.

"حدثيني عن أي رجل آخر، و سترين بأتم عينيك كيف سأتفهمك بسرعة البرق، لكن ليس ذلك الرجل، و إذا ما قدرنا الأمور ببعض العقل. أقول العقل. فلن تجدي أن لك أي فرصة معه. أخبريني الآن، لا تأتيني بأفكار حمقاء من صميم قلبك ، بل زني الأمور بعقلك يا أثيل. مع أن الله وحده يعرف أنني فقدت الأمل في عودته إليك. وضّحي لي، ماذا يسعك فعله لأجله. هل ستنتقلين للعيش معه تحت سقف واحد و تعتنين به "فرفعت أثيل عينها المطرقتين بسرعة، كانت الفكرة ممتازة، لكنها لم تقفز إلى عقلها من قبل

_ "ها،،،، إذا،،،، لقد نالت فخامة الفكرة استحسانك، نقّذها كي تموت أمك من العار،،،، والله إنك لتطاردين سرايا، لم يسمح حتى لأقربائه بالعيش معه، ليبيح لك أنت هذا،،،، لقد غدا مشلولاً. ولكنه لم يتحوّل إلى خسيس" ومرة ثانية ألفت نفسها تطوف في أرجاء الغرفة كأنها اكتسبت طاقة عملاقة. وكلما راودتها خاطرة ساخرة ألقتها حانقة "أو ما رأيك أن تتسمّري عند باب بيته ثم تتوسّلي إليه منحك شرف الاعتناء به،،، الآن سأكون سعيدة يا أثيل إذا تفضّلت وشرحت لي كيف تعزّمين مساعدته، لثقتي الدائمة أنني جزء مهمّ من خططك،

سنتسكع سويا أمام بيته بعد تسكعنا في المشفى التي كان فيها،،،،، اه يا أثيل " قررت سميحة أن أثيل صخرة من العناد، وأزعجتها هذه الصفة حديثة الظهر، وجلست متوسلة بوجه خال من السخرية لأن هذا الأسلوب لم يجد نفعا.

_ " إن ابن السيدة فاطمة رجل رائع، سيجعلك تدين ذلك المخلوق بلمح البصر، أنت لم تقابليه بعد، لو أن إحدى ابنتي تمتلك وجهك الجميل، وكانت تلك العروض تهافت علمها بدلا عنك. لما توانيت لحظة عن الموافقة "وتوسمت الليونة في الوجه المنقبض، وما عتمت أثيل أن وجهت إليها نظرة ذات معنى. كان في أعماق العينين مسحة متموجة من الحزن، وكان في الوجه الجميل أمارات الألم، ثم بؤس لم ترله مثل في وجه إنسان فأمضها الاسترسال في الكلام غير آبهة لتعاسة الفتاة، وهنا نطقت أثيل تتدحرج دمعة على وجنتها الموردة

"إنك لا تفهمين، لا تستطيعين أن تفهمي، ليس الخيار بيدي، هو يسكنني، يعيش في داخلي، كأته وُلدَ معي، لو كان مكانا لغيرته، لو كان ثوبا لتخلصت منه، ولكن هل يسعك التخلص من روحك، إنه روحي، هل تستطيعين زهق روحك؟ أعرف أي لن أناله أبدا وأنه ليس لي، ولكنني أحبه، ماذا أفعل؟"سرعان ما تلت الدمعة الأولى سيل متدفق من الدموع، وكان في صوتها نغم حزين " هل تفهميني؟ أنا أحيا به، لقد مت منذ زمن طويل، وليس لي أنفاس إلا التي يهبني إياها، لن تفهمي هذا أبدا "

_ "ليلعن الله الفلاسفة " لعنتم سميحة في سرها و أتت تعبيرا يدل على ضجرها ، ثم سخرت كل تركيزها لتحاول فهم الفتاة.ماذا تقصد بآنها ماتت منذ زمن. _ "أنا التي أحجاجة يا سيده سميحة وليس هو، لا أتقن من دونه، ولست آبه لنظرة العالم بأسره للذي أفعله، وأنا على استعداد لرهن حياتي لأجله "

_ "هل فقدت عقلك؟" قالت سميحة برمة و ضربت ركبتيها بكلتا يديها "إنني أحاول بكل ما أستطيع أن أضبط أعصابي، ولكنني تخرجيني عن طوري كل مرة. تثيرين أعصابي يا أثيل ما هذا الهراء الذي تطلقينه من فمك!؟، لقد تحملت سخافاتك بما يكفي، وإن ما تفوهت بعبارات التضحية و الرهن مرة أخرى، فأقسم أنني لن أتحمّل، لقد زحفت وراءك أميالا عديدة كمرهقة، دون أن أوجه لك أي لوم، ظلنا مني أنك ستثيبين إلى رشك، ولكنك تتمادين، ثم ماذا تعنين بأنك ميتة منذ زمن طويلا؟"

_ "أودّ إطلاعك على سرّي يا سيده سميحة "قالت أثيل بصوت متقطع وأثر الدمع لا يزال في عينيها "لقد تعبت من إخفائه، لكن أخشى " وثانية أطرقت عينيها ، ومرّت دقيقة قبل أن تنطق، فيما كانت سميحة تنتظر بلهفة

- "أخشى أن أفقدك، أخشى أن تكريهيني "

- "ما هذا السر؟" استوضحت سميحة حائرة، فلا يوجد أمر لا تعرفه عن أثيل "ثم كيف أكرهك أيتها الحمقاء، إنني أحبك مثل ابنتي ."

- "ولكن، ولكن" ترددت أثيل ثم أغمضت عينها وهي تستعيد ذكرى بعيدة منفرة عندما سلبتها الحاجة روحها الإنسانية، عندما وضعت جسدها على مقصلة الرذيلة. وتخلل صمتها صور مؤرقة، فافتقدت الشجاعة فيما كانت أنفاسها تتباطأ بشكل غريب.

- "ها أخبريني، ماذا هناك يا أثيل؟، أهو سرّ يتعلّق بذلك الشاب، هل تعرفينه؟"

- "لا" نفت بهزّ الرأس، غدت هادئة بشكل غريب وتملّكتها الحيرة، هل ستترتاح إن ما اعترفت أو ستزيد أعباؤها. وما لبثت أن قرّرت رأيها، ستخبرها بكل شيء، ربما ستفهمها. ستفهم أنها تحبّه دون أمل، ولن تستطيع أن تتزوّجه، لا هو، ولا رجلا آخر.

- "أتذكرين؟، عندما مرضت أمي يا سيّدة سميحة "

- "و هل أنسى؟!، كانت أيّاما صعبة عليك، ما شأنها وشأن بلوتك؟"

- "كنت، كنت" تهذّجت نغمتها و انهارت باكية "مضطّرة" وفجأة وقفت سميحة على قدميها، وقد تغيّرون وجهها.

- "أثيل، هل، هل؟" و سرت في جسد أثيل قشعريرة باردة و خافت، خافت كثيرا. لقد فهمت سميحة بسرعة.

- "أقسم أنني كنت مضطّرة" و مرة أخرى طفقت تبكي، وأعصابها تهوي إلى الانهيار.

- "أخبريني أنّها عظامي، أتوسّل إليك، أخبريني أنه صرير عظامي" وأطلقت صيحة. ما هذا الذي تتفوه به هذه المجنونة؟" ليس الصحن، ليس الصحن، أقسم أنني سأكسر عظامها" واندفعت خارج الغرفة، ثم سمعت أثيل وقع خطواتها الهائجة نحو المطبخ، من المؤكّد أن صحنا انزلق من يد سالي المتعجّلة المرتعشة، فارتطم بالأرض وتهشّم إلى قطع صغيرة. الأمهات لا يغفرن لغير أنفسهنّ كسر أحد الصحون، إنهنّ يعلنّ لنواتهنّ أي سلوك طائش، ولكن ليس لأبنائهن.

- "ما هذا يا ربحان؟" صاحت سميحة فزعة كأنّ عظما من عظامها قد تهشّم، ولو أنّها تفضّل مخلصّة أن يتحطّم ساقها على تحطّم أحد الصحون الغالية على قلبها، فالجبيّة تفي بالعرض للساق أما الصحن الغالي، لن تنفعه أي جبيّة.

- "إنك غريبة الأطوار هذا المساء، أصبحت تكسرين الصحون أيضا، ليس من عادتك، ما خطبك يا فتاة؟ لم تتذوّقي أي شيء على العشاء، وكنت شاردة وبتسمين كالمجانين، والآن أراك

تكسرين صحونى"

_" إن عقلها فى زحل، أتعرفين زحل يا أمى؟" علّقت سالى بتهكّم

_" من هذا الوغد " أجابت سميحة مغتاضة

_"إنه كوكب و ليس رجلا" ثم عقبى على عبارتها بضحكة مدوية، لكنها سرعان ما أوقفها نظرة أمها النفاذة الساخطة فكومت فمها بحركة واحدة، فيما بقى جسدها بهتز من أثر الضحك المكتوم.

_" احفظى لسانك، و إلا أرسلتك إلى زحل هذا. ليس وقت السخرية " قالت بصوت سلىط

_"إنى أسفة يا أمى "اعتذرت ربحان بأدب "لقد انزلق من يدي".

_"ها انزلق إذا !!حتى عقلك انزلق من مكانه. أسرعاً بتنظيف المطبخ بهدوء ولتذهب إلى الغرفة" قالت بحزم ثم قفلت راجعة إلى الغرفة. وفتّشت عيناها فى أرجائها فلم تعثر على أحد، لقد غادرت أثىل، غادرت دون أن تكشف عن السر.

بعد أن اندفعت سميحة خارج الغرفة، بهيئة ساخطة وملامح تشى باستعداد لقتال ابنتها المتسببة فى تهشّم الصحن، تاركة أثىل فى منتصف السرد، بقيت هذه الأخيرة لوحدها فى غرفة كبيرة ذات جدران رمادية و ستائر مبهجة، بقيت جامدة تنظر باندهاش إلى نقطة معينة فى الجدار المقابل، ثم سرعان ما بلغ مسامعها تأنىب سميحة لابنتها فأعادها إلى وعيها.

وبسرعة البرق وقفت على رجليها تبغى المغادرة، ما هذه الحماقة التى كانت سترتكها منذ قليل!، كيف أطاعت غباءها بهذه السهولة، ثم مشى على رؤوس أصابعها دون أن تصدر صوتاً كقط رشىق مكتوم المواء، ومرّت إزاء المطبخ بهدوء كنسمة هواء دون أن تلاحظ الثلاثة جسدها وهو يغادر المنزل، لأن الباب كان مشقوقاً شقاً ضئيلاً لا يفى بغرض المراقبة.

فتحت الباب بلطف ثم أغلقته خلفها، وهى ترتجف بحمى الذعر، ليس ذعرها الأول الناجم عن سماعها نبأ فقدان خليل القدرة على المشى فحسب، بل إن ذعراً آخر طوّقها، لقد كانت على وشك البوح لسميحة بمخازيها، ما هذا الذى اعترأها؟ ما هذا الذى دهاها؟ أكانت تصطاد كراهيتها بحمق فائق؟ أكانت تبتاع احتقارها إلى آخر نفس لها؟ كيف راهنت على أن سميحة ستفهم فعلتها؟ كيف اجتزت هذا الأسلوب السخيف فى البوح بأسرارها تباعاً؟ وفجأة نما فى قلبها كره ذاتى، كرهت نفسها الخرقاء، كرهت سذاجتها العمياء وفطنتها الخامدة.

لا تزال يد الله رحيمة بها، وهو ساتر علمها، فلماذا تتطوّع كريمة لتعرض عارها وكأنها أنت صنيعة من النوع الممتاز. لكأنّ وسام الشرف علّق على صدرها بدل وسام العار. من الآن فصاعداً ينبغى عليها أن تحتفظ بلسانها صامتاً، ينبغى عليها أن تكرس طاقتها لإبقاء سرها طيّ

الكتمان.

وصلت في هذه الدقيقة إلى أمام بيتها، ووقفت هنيهة قصيرة تجفّف عينها من أي أثر للدمع، وترتّب أحاسيسها المبعثرة، مسكّنة اضطرابها الفوّار، استعدادا منها لأي لقاء عرضيٍّ مع أمّها، لقاء سيمخض عن عدد هائل من الأسئلة، ومرة ثانية اندهلت ذهولا صارخا من السداجة الهيميّة التي كانت ستسوقها إلى الاعتراف، وألّفت نفسها في مخزن التوبيخ الذاتيِّ. كان حريّا بها التدقيق أولا في الأثر العميق الذي ستخلفه مكاشفتها في نفس السيّدّة المحافظة، فهي رغم تهوُّرها وطيّشها ثم تصرّفاتِها الصبيانيّة الخرقاء، لم تهجر أصول نشأتها الورعة، التي تنصّ على ضرورة التزام الفتاة بتعاليم الشرف والفضيلة. ولن يشفع حبّها الكبير لها. لن يشقّ لها طريقا سالكا للغفران.

تنفّست بعمق، وفتّشت فيها راحة نفسية. وهاهي الآن بدل جلد نفسها، تشعر بالامتنان لريحان، فلولا أن الصحن انزلق من اليد المرتعشة ثم تهشّم لكانت الآن سميحة تشرّع أبواب منزلها على أوسع ما تستطيع ثم تطردها بلهجة متقرّزة قائلة و عينها تبرقان اشمئزازا -"لا تطيّني أنني سأخبر أحدا عما أفشيتَه لي منذ قليل. ليس من أجلك أنت، لا، من أجل تلك السيّدّة المسكينة التي لو اطّلت على فعلتك، لماتت من فورها".

- "لا ليس ذلك بالعدر المقبول مطلقا. لا تجرّني أبدا على تبرير عارك، ليتك لا تصبحين مُنقّرة أكثر من هذا فتبريره".

إنها تعرف هذه المرأة، تعرفها جيدا، قد تتفهم وضعها الحالي بحبّها المستحيل الذي يطلّ عليها من نافذة الهديان. وقد تنتقص من قدر مشاعرها وليس من الصعب أن تغبّر رأيها في اليوم الموالي فثجّجها على الماضي قدما، وتستطيع بنفس المزاج المتقلّب والنفس المرهفة أن تقطع معها أميالا إليه، بل إلى أي مكان بالدنيا، لأنها مولعة بها وبتربيتها رغم ما تبديه من دعايات مضحكة، ولكنها لن تقطع إليها الشارع الضيق بينهما بهذا الذنب الوجيه.

بينما هي تصعد درجات السلم على رؤوس أصابعها، شعرت بسكينة مفرطة. وكان جليا أن أفراد البيت قد أوى كل منهم إلى غرفته، الحمد لله أن أمّها لم تغرس نفسها أمام الباب منتظرة عودة ابنتها، والحمد لله أن ميرنا التي غدت تشغل وظيفة جديدة "القناص" قد انشغلت بقضية ما، فلم تعمد إلى انتظارها، فقط لتذكّرها خرساء أنها تمقتها. وعندما بلغت غرفتها ودلفت إليها. كان أول ما فعلته أن أغرقت الغرفة في ظلمة حالكة، صافقة فمها مستمرة برهة ضاغطة عليه، مسندة ظهرها إلى الباب.

وفي العتمة السوداء اهتدت إلى سريرها ثم اضطجعت عليه وطفقت تفكّر، ليس في كذبة

معقولة توضّح بها لسميحة قضية السرّ الدفين، ليس ذلك ما كان يشغل تفكيرها الآن، بل كيف تساعد ذلك التعيس المسكين وتخرجه من جحيم فقدان و الهزيمة اللذين مُنيا بهما في آن واحد.

عاودها الألم الضليع مرة أخرى فيما انقطع نهر أفكارها، ليس مصابه بالكابوس الذي سيذهب لشأنه بعد أن تستيقظ من نومها، وليس بالوهم الذي لو قدّر لها اختراقه إلى الجهة الأخرى لنعمت بالطمأنينة. ليس إلا الحقيقة، وهكذا وجدت نفسها تواجه عزلاء عدواً عاقاً أقوى منها، عدواً جاسراً، يريد أن يسرق منها حبيبها، أن يسرق منه لمعته و اندفاعه وشهامته وشبابه. هذا الذي سخّر كلّ قوته إلى عزله في بيت مهجور ثم قتله ببطء، اه ما بيدها لتفعل؟! ما بيدها لتفعل وهي معدومة السلاح.

انقضى أول الليل، ولا تزال مستلقية تتقلّب من حين لآخر، لم يشقّ النوم طريقاً إلى جفنها المتعبين، كانت عينها مفتوحتين في الظلام وعقلها متيقّظ متحفّز للتفكير، و يداها تنتقلان آلياً من صدغها إلى صدرها مروراً بوجنتها مطلقاً أنفاساً ثقيلة. إنها تودّ تصفية ذهنها "يا الله أمددني بحيلة مناسبة، ياالله أطرّد اليأس عنه حتى يعود كما كان".

سرعان ما سئمت من تمدّدتها دون فائدة تذكر. فجلست على السرير ضامّة يديها أمام فمها، و الصراع في رأسها ما ينفك يزداد و يزداد، كان عقلها المشتّت ينتج أنواعاً من الأفكار، غير أنها ما فتأت تنبذها بعد خضوعها لمعايير المنطق و المعقول.

"لا، لن تذهب إلى بيته، إن سميحة لا شكّ ستخرج عن رباطة جأشها ثم ستضعفها هذه المرة. وستتمّمها في عقلها، ليست بالفكرة المستحسنة ثم لتفرض أنّ سميحة شاركتها الرأي، إنه لن يرضى بمقابلتها لعدم معرفتهما ببعضهما، ثم ماذا عساها تستفيد. لا شيء لا شيء".

_ "لا لن تذهب إلى مقرّ عمله، لتطلب إليهم جميعاً دعمه في هذه المرحلة. أي فائدة ستعود عليها من هذه الخطوة، إن سميحة على وجه التحديد ستصعق إن ما اقترحتها أمامها".

_ "لن تزور أقاربه كذلك. إن لهذه الزيارة وقع رهيب على مخيلتهم، ماذا سيظنون بها، ومن أين لها بعناوينهم؟".

كل الخواطر كانت تصل في نهاية المطاف إلى طريق مسدود، بدون نتائج تكرّم مجهودات الوسائل، لو أنهما يعيشان تحت سماء مدينة واحدة، لتوقّرت الأدوات و لغدت النتائج أقرب إلى النجاح منه إلى الفشل، أي عقوق هذا الذي يلفّ ذهنها!!

قفزت بحركة واحدة من السرير لتدّرع أرض الغرفة، وتحولّ انفعالها إلى دروب من العصبية، فشرعت تلوّي يديها، فهي إلى الآن لم تظفر بفكرة منطقية، وعندما توقفت قليلاً

مضت نحو النافذة لتفتحها، كانت ليلة صحوة دافئة من أيام أيلول الأولى. وكان السكون يلفّ الشارع كله، ولم تسمع إلا ضجيجا عاليا بعيدا آتيا من شوارع أخرى، وفكّرت و الأسى يتولّأها أن الخريف يُبرق برسائل تبعث على الكآبة وعندئذ أغلقت النافذة بتعجّل وعادت أدراجها إلى سريرها.

على نحو مفاجئ و من أعماق الظلام الدامس، شقّ نور فكرة وديعة دربه إلى عقلها، فأشرقت نفسها، وتلاشى غمّها على جانبي الدرب الذي يكتنفه الظلام ، كأنها حقنة دواء شافية، وما هي إلا لحظات حتى رقصت ابتسامة على شفتيها "ليست بالمحاولة السيئة، رغم أن نتائجها غير مضمونة، سأنقّذها على أية حال، لن يضيرني أن أنقّذها، نعم، نعم، لن أخسر شيء، ليس لدي بديل آخر، قد لا أكون مصيبة، ولكنّها محاولة على أية حال" ورفعت رأسها إلى السقف ثم شعرت بالامتنان والشكر الغزير "لا ليس هذا بضلال، ليس بغي ولا بضلال لست واهمة، أنا أحبه وسأحبه إلى الأبد، ولن تمنعني قوة على وجه الأرض أن أحبه، لن أسمح له بعزل نفسه عن الدنيا فيما هو بذاك الحماس، وتلك الطاقة المتفجّرة".

اتّجهت بكل تفكيرها إلى خطتها الجديدة واضعة نصب عينها الوسائل التي ينبغي اعتمادها وشدت للأمر مئزرها، وأحسّت واللهفة تغمرها أن قلبها يخفق كجنّاح عصفور وأن وجنتيها اصطبغت بلون الأمل الوردّي، وبيد متوترة تحسّسهما، كأن تدفّق الدم إليهما قد وُلد حرارة قوية، ثم ما لبثت أن خاطبت نفسها بأسلوب عمليّ، أمره ذاتها بالتزام الهدوء، أمله بهذه الحركة تصفية ذهنها.

انطلاقا من الغد سيبدأ عهد جديد في حياتها، ستكون قريبة منه، من المحتمل أن لا تنجح ولكن لا ضير من المحاولة، لن يعرف اليأس ولا الكلل طريقا إلى قلبها. ستضع فكرتها قيد التنفيذ وإن وقفت قوى العالم بأسره في وجهها.

الفصل الحادي عشر

"السيد خليل

أودّ في رسالتي الأولى تقديم نفسي. اسمي هو أثيل، شعاري المفضّل في الحياة: ستشرق الشمس من جديد، وأنا من مدينة س.ب، لا يمكن أن يُذكر أمامك هذا الاسم دون أن تستحضر في مخيلتك الأسطورة الشهيرة المتعلقة بها، أنت تعرفها بلا ريب؟ أسطورة المرأة الثكلى التي تمدّ يدها باكية إلى البحر. يروى أنّها أرسلت ابنها كارهة في رحلة بحرية من أجل تحصيل بعض المهارات المهمّة ضمن زمرة من الشبان المشتركين معه في السن. ولكنّه دون المجموعة لم يعد إليها حيث أنه مات غرقا. ولهذا استمرت تنتظره مادّة يدها إلى البحر تبكي بحرقه، ترتّب عن ذلك أنها أوشكت على فقدان بصرها إلى أن خاطبها ذات مرة هائجا تقريبا:

(اسمعي يا سيّدة، لم أخذه منك إلا تنفيذاً لمشيئة سماوية. و أنت لست عالمة بالخير خلف ذلك. فإنّه لو عاد إليك؛ لسبّب لك ألماً أعمق من الذي تتجرّعينه الآن، اعلمي أنّ خلف كل مصيبة منحة و خلف كل فاجعة خير، وخيرك في خسارته. كما ترى يا سيّد خليل هناك دائما حكمة خلف المآسي التي نعتقد أنّها نهاية العالم، ودائما ما تكافئنا الحياة ببديل عوضا عن الذي خسرناه بطريقة بسيطة أن نخرج للبحث عنه.

أدرك أنني متأخرة نوعا ما للمشاركة في التجربة الميدانية التي أعلنتها السنة الماضية بخصوص نقل التقارير حول الظروف الاجتماعية التي لا تستطيع أن تصل إليها، أذكر حينها تأكيدك قراءة كل رسالة تصلك، ونظرا لعدم إعلانك عن أحسن تجربة وصلتك، استنتجت أن أيا منها لم تنل إعجابك، أطمح لنيل ذلك الحظ.

من الآن فصاعدا سأقدم لك تقريرا شاملا عن كل الوقائع اليومية التي تمرّ عليّ بالمدينة التي أقطن فيها، بعد أن عيّنت نفسي بوظيفة صديقتك الجديدة بترخيص جاهز منك، وباعتبارك أعلنتك أنك صديقنا جميعا. أنا واثقة أنّ تلك الابتسامة العريضة التي تطبع على شفّتك بينما تقرأ رسالتي منبعثة من عقيدة امتلاكك معجبات بحجم شعر رأسك، أنا فتاة مجتهدة فقط، مغرمة بقراءة الكتب والجرائد، كنت أحلم أن أكون صحفية لكي انقل الصورة الحقيقية للحياة الخفية والعالم العميق ورفع الستار عن المسرح المظلم لحياة بعض النعساء، ولكن القدر أعطى رأيا آخر، شاء أن أدخل كلية مختلفة .

أشعر بالحماس و شرع خيالي الخصب يحيك و ينسج باحترافية ، سأؤدّي وظيفتي بإخلاص تام.

أجري استعداداتي حالياً للذهاب إلى العمل، ليست هناك ضرورة لتسألني ما هو عملي؟ لأنني سأحدثك عنه مساءً، فأنا في عجلة من أمري. ستعترض للإزعاج بشكل متواصل لا يوصف وغير منتظم كذلك، بناءً على وظيفتي الجديدة، تترك صديقتك الجديدة البيت بعد عشر دقائق وإن تأخرت سيتم طردها، وليس أسوأ من بقائها عاطلة بدون عمل، طاب يومك يا سيّد خليل .

ملاحظة: تذكردوما أن الشمس ستشرق من جديد

قلمك الجديد أثيل مع أجمل التمنيات "

" السيّد خليل

مساء الخير، لقد عدت من العمل لتوي. وهرعت لأنقل لك تقرير اليوم الأول في الوظيفة الجديدة التي أحاول التأقلم معها، أنا أعمل بمكتبة لبيع الكتب القديمة، إنّ مالكها رجل طيّب ومهذب وفي الوقت ذاته متزمت ونزق بخصوص الإجازات و يحارب كل فرصة أمامك للتنزّه أو المكوث بالبيت في فترات المرض والإرهاق، بمقدوره تحمّل أي نبا غير سار حيث أن له قابلية لذلك. أما أن تنتزع منه الموافقة لأجل عطلة قصيرة؛ فهو يفضل أن يُعدم السمع والإحساس.

اسمه السيد إبراهيم، له عينان باردتان، ووجه مقطبّ وشارب كثّ معقوف إلى أعلى وصلعة لمساء، يشبه زعماء القبائل المتعصّبة القديمة، عندما تنظر إليه يقتحم عقلك منظر السيوف القاضية بصليها المرعب، يرافقها هتاف الحرب وجلجلة الفرسان، وسحب الغبار الأحمر وصبهيل الأحصنة الأصيلة. بالمجمل هو يحارب ضد العطل و ضياع الأموال، إن لم تقتنع برأيه من المرة الأولى ينظر إليك بتجهّم دون أن ينبس ببنت شفة ، و تقريبا يبذل بعض معارفه جهدا جيّارا كيما يحبّوه، ومن العقائد التي لا تحتاج نقدا أنه لا يحفل سواءً أ أحبه الناس أم لا، في الواقع أنا أحترمه كثيرا، وأميل إلى الاعتقاد أنه رجل جيد، إن الناس يحكمون على القشور، ولكن الصميم لا يعلمون عنه شيئا، ولو أنهم بذلوا مجهودا قليلا ليعرفوه على حقيقته؛ لكان رأيهم فيه أفضل، لا سبب يدعوك لأن تدمدم بين أسنانك، لأنني في صدد ضخّ التقرير بتفاصيله، أبدأ من ركضي في الشارع مثل العدائين لأجل الوصول في الموعد قبل أن تثار غريزة السيّد، بسبب تأخري الثالث عن العمل خلال شهر و نصف، ثم تمّ إجراء بعض التعديلات الطفيفة بناء على أوامره الهدارة، كوضع الروايات الأجنبية مع كتب الفلسفة، والكتب التاريخية مع الكتب العلمية ، و أصر على عرض الكتب الرومنسية في الواجهة على سرور مستور و مضض موارد ، لأنها الأكثر طلبا ، و تدمر من محتوى بعضها الذي لم يقرأه

، بل سمع عنه ، و اعترض على أغلفتها غير المحتشمة و توعدّ دور النشر بالتأنيب بينما نسي لوم نفسه لبيعها قائلًا أن السيئات ستنال كاتبها و ناشرها ، لا أستطيع استيعاب قرارات الرجل الفجائية، التي لو حدث أن ناقشتها أنا أو إحدى الزميلتين لسعد بتنبهنا أنه يعلم ما يفعل، يشهد الله أنه إجراء فاشل كامتحان فجائي، ثم لا شيء جديد، كان عدد الزبائن اليوم قليل مقارنة بالأمس، فسرحت أتأمل في غارات شرود عن القراءة ، و قد اتّضح لي أن الخريف عازم على جعلنا نكتئب هذه السنة. ألا تظن أن قدومه المبكر يسوق الإنسان إلى الانزواء في البيت؟ تصوّر معي رياح تعوي كالذئاب، وأمطار غزيرة تختطف الناس من الخارج و تحتفظ بهم رهائن في البيت، أشجار عارية ، جو بدوق الخسوف ، و ردم تحت بطانيات سميكة قطنية للتدفئة، و نوافذ مغلقة طيلة الوقت، و ليس من الحكمة عدم شروق الشمس التي أعشقتها، و تحوّلها إلى مجرمة فازّة من عدالة الخريف تختبئ وراء السحب القاتمة، كأنها مرسلّة في مهمة عاجلة مملة تنفذها و تعود بسرعة قبل أن تحلّ عليها اللعنات، يطلق سراحها بعد تفاوض عسير معها وإملاء الشروط عليها كعدوّ مهزّم. و قبل أن تتبختر بضعة أميال يقبض عليها مجدداً، ما أشدّ مشاكسات الخريف، أفضل في جعلني نفسي أتفاءل بمقدمه، عقب إعلانه التجهّم من الأيام الأولى، أشكّ أنني سأحتفظ بلساني صامتاً، سأقدم على التذمر منه في معظم الرسائل.

أثيل صديقتك التي تكره فصل الخريف.

ملاحظة، ربما تدهش إن عرفت أنني من مواليد الشهر الثاني من هذا الفصل، هل تصدق؟! هل سمعت بإنسان يمقت الفصل الذي ولد فيه، أيعقل أن تكره أنت الشتاء لأنك مولود بشهره الأخير؟، على الأرجح أنت تعتبر ذلك فكاهة مسليّة، مطلقاً لن أحبّ هذا الفصل، لا أحبه لأسباب مناخيّة، إنه متقلّب المزاج، و مردّد ذلك الى رغبته الجامعة في جعلنا نكتئب"

" السيّد خليل

انزعجتني أمّي الغالية من مكاني أمام الحاسوب، لغرض تناول العشاء مع شقيقتي، ذات يوم سأخبرك عن أمّي و عائلتي الصغيرة، عطّلت بذلك مهمتي في عرض تفاصيل اليوم، خضنا أثناء ذلك نقاشاً فعّالاً يكاد يكون سياسياً حول تجهّم اليوم، أطلقت عليه والدتي العزيزة اسماً مميّزاً [اليوم السعيد]، حاولت أن لا أستاذ، على أنّ علامات الاستحسان و القبول انسحبت من وجهي، أما لماذا دلّته أمّي بهذا الاسم: إن فطرتها المساندة لأمانى الفلاحين و حقوق الحبوب و القمح، و مسرّات الحقول و الحيوانات تقي حبورها الرقيق في رؤية الشمس مشرقة متألّثة، حسناً أفرّ أنّ أكثر اللحظات تجهّمًا تجلب السعادة أيضاً من وجهة نظر أخرى، هل اعتزل التذمر من فصل الخريف إذا؟! هل أحييه غداً بوجه منشرح و ابتسامة ودودة، هل أحزّه من

لقب الخصم المشاكس؟ ليس من بديل عن ذلك.

حسنًا يا سيّد خليل، لنعد إلى موضوعنا، بعد أن تأملت الطقس في الخارج، عدت إلى القراءة، كان كتابا فلسفيًا مملًا، غير مقنع ومعقدًا كذلك، قد يصيبك بتقلّب المزاج قبل بلوغك الصفحة العاشرة، لماذا يعقد الفلاسفة الحياة على هذا النحو الغائم بينما هي بسيطة جدا، عشنا كما تريد و انتهينا ، وهكذا عزمت على إعادته إلى مكانه. تسأل إن كنت قد قرأت جميع الكتب! بالطبع لا، يستغرق قراءتي للكتاب الواحد شهرا على الأقل، أحب رواية الجريمة والعقاب العبقريّة كثيرا ، حتى إنني قرأتها ثلاث مرات ، انصرفت من المكتبة عند الساعة الرابعة، يفشل السيّد إبراهيم في إطلاق سراحنا قبل ذلك، يستمتع وهو يشاهدنا نغادر عندما يتجاوز العقرب الطويل الرابعة ببضع دقائق.

أثيل صديقتك المخلصة"

"السيّد خليل

بينما كنت متوجّهة إلى سريري، عجزت عن منع نفسي عن كتابة هذه الرسالة القصيرة، أحسست بضرورة إخبارك أنّك شخص موهوب ومتواضع ومؤثر للغاية وقدوة فاخرة ، أجهل السرّ الكامن خلف هذه الرغبة الهستيريّة في إخبارك ذلك، يحبك جميع الناس، تستحق بجدارة نظرا لما قمت به من مساعدات جيدة ، لا يمكن أن تصقني بمنعومة العقل، هل فكّرت بشيء من هذا القبيل؟، لا، لست قاسيا إلى هذا الحد ، إنك تخاف أن أستقيل خصوصا أنني أبدي تميرًا ساحرا في الوظيفة. لقد أطلت الرسالة أكثر مما نويت، طابت ليلتك أيها السيّد المحبوب

أثيل المميّزة دوما "

"السيّد خليل

صباحك سعيد ومشرق كالشمس التي أوّمن بشروقها اليوم، رغم أن هزيز الرياح المولولة يحذّرنني من التفاؤل، إنّ حياتي رتيبة كما ترى: استيقاظ، تناول الفطور رفقة العائلة، ذهاب إلى العمل، القيام به على أكمل وجه ثم العودة إلى المنزل مساءً، أنا أتمتع بروح المغامرة وأحب التجارب المحفوفة بالأخطار ، ويحصل ذلك أحيانا برفقة إحدى الجارات العزيزات على قلبي. قبل أن تنطلق رسالتي إليك، أوّد منحها قالبًا مختلفًا، قرأت فقرة من كتاب، أوّكد لك أنها علقت برأسي حتى حفظتها عن ظهر قلب و سأعرضها عليك [من سمّ الأفاعي و العقارب نصنع العقاقير، و من سواد النفط نصنع موادًا للتجميل. ولولا الظلام لما ميّزنا النور، ولولا دقائق الأسمى لما ميّزنا السعادة، إنني أوّمن أنّ جوهر الحياة هو الرضا الكامل بأقدارنا و عثراتنا و التأقلم معها، تعزف الحياة اللحن الذي تريد و ليس لنا كبشر إلا الإصغاء، فهي لن تأخذ برأينا قبل

بداية العزف وإلا لاختار كل منا لحنا يناسبه، المشاكل و السقوط و الفقد جزء من هذه الدنيا وإن لم تحدث هذه المشكلة حدثت تلك، وإن سرّها هو الوقوف بعد السقوط، سنتعثر دوما شئنا أم أبينا، من يتقن فنّ النهوض سيتقن أي شيء آخر، لأنها قضية الحياة الرئيسية، حاولوا دائما، لأنّ الحياة لا تكثرث إلى قهقهاتكم المرتفعة لتعبّروا عن كونكم سعداء أو دموعكم الرقراقة لتعبّروا عن كونكم تعساء. إنّها تحتاج أن تقفوا أمام محنها، وتذكروا جيدا أن السعادة والتعاسة والمشاكل والراحة ليسوا دائمين تماما كالفصول. كل منا يعتقد أن آلامه فوق الاحتمال وأن مشكلة معقدة فوق الحلول، أن همومه تصنع جبالا وأن أحزانه سرمدية، لكن ذلك غير صحيح فكل منا له قسمته التي ينبغي أن يرضى بها، السعداء ليسوا أشخاصا تخلو حياتهم من المشاكل، بل من استطاعوا التكيف معها والبحث عن حلول دون أن يعتبروا أنفسهم ضحايا، وليشهد الله أنني كنت منبطحة على الأرض ذات يوم مُثخنة بالجراح وقلبي منفطر مفعوج، وأدرك معنى الوقوف بعد السقوط، أي أنني أدرك جوهر الحياة و محرّكها الأساسيّ المخلصة دائما أثيل "

" السيّد خليل

عمت مساءً

لقد أشرقت الشمس كما أملت، وبينما رحّت أراقب أشعثها الصفراء، استحضرت وجهة نظر والدتي بالليله الفارطة، إنّها مصيبة، قررت أن أشاركها رأيها، إنه فصل كئيب، لكن في الوقت ذاته لا أميل إلى جعل السنة كلّها فصل صيف، ففي هذه الحالة لن يشعر المرء بالصيف دون خريف ولا بالربيع دون الشتاء، حبّذا لو تمطر، وحبّذا لو تهبّ الرياح قويّة، أنا متلهفة الآن لسماع صفير الرياح، وتساقط أوراق الشجر، كيما أحسنّ حقا بمظاهر فصل الخريف، وأتمنّى أيضا لو تهطل الثلوج البيضاء بكثافة في فصل الشتاء بحيث يتعسّر علينا الخروج من منازلنا، حتى إذا أتى الربيع، شعرنا بدرجة التغيّر، ستعود العصافير، وتزهو الحقول، وتفتّح الأزهار، وتخلو السماء من السحب القاتمة. ألسنت متناقضة و مجنونة؟ أكاد أجزم أنّك تطلق عليّ هذه النعوت

أثيل الصديقة المزاجية"

" السيّد خليل

قبل أن أقصّ عليك الذي حدث منذ قليل في الشارع، سأعلمك بقراري رفع الكلفة بيننا وبهذا ألغي كلمة السيّد لأنها تزعجني ، لا تشغل نفسك بإبداء استحسانك، واثقة أنّك لا تمناع، فالسكوت الدائم علامة الرضا، خرجت كالمعتاد من المكتبة يا خليل، استوقفتني السيّد

بركة، وهي صاحبة المحلّ المجاور للمكتبة التي أعمل فيها، إنّها عجوز غريبة الأطوار، وليست أقلّ غرابة من السيّد إبراهيم، فهي تنادي الناس بأسمائهم مباشرة ملغية الرسميّة الاجتماعيّة بالرغم من عدم وجود صلة قرابة بينهم أو معرفة متينة، ولا يكفّ السيّد عن انتقاد أسلوبها الجريء وسذاجتها المستفزّة . أوقفتني لتنقل إلي انشغالها الحائق المتمثّل في تدمرها من الطبيب الذي أخطأ فوصف لها دواءً للمصابين بالأمراض العقليّة بدل دواء يساعدها على النوم، لا تشكّ أبداً بمهارة الطبيب أو تمرّسه، ليس ذنبه على أية حال، هي تشتكي من أيّ شيء في الدنيا حتى النملة التي تدبّ بعيداً عنها، وطبعاً استمعت لها بكثير من المتعة حتى أوشتكت على الانفجار من الضحك، وعندما حلّت عليّ بركات الله وأنقذتني امرأة يستهويها التنقل بين المتاجر وتمضية الوقت في الثرثرة النسويّة، انسحبت من بينهما وقفلت عائدة إلى البيت. التقيت صدفة بجارتني سميحة، لقد كانت تغلي من الغضب، غضبا لا يوصف، وكان وجهها غائماً يبشّر بشرّ مستطير. اسمح لي أن أقدمها إليك، إنّها مخلوق متوهج متحمّس بروح مرحة، تسري إثارة الشجارات في دمها، تشرق عينها بصورة آليّة عندما تدور الأحاديث عن المشاريع، من المستحيل أن يفوتك ملاحظة ذلك منذ أول لقاء يجمعك بها ، هي في السابعة والأربعين من عمرها، ولكنها تبدو أصغر سنّاً، وكذلك هي تدعي أنّها في الأربعين فقط وذات مرة مستهترة، ادّعت أنّها في الثلاثين حتى بُهت مستمعوها، بيد أنّها لا تأبه مطلقاً إن ما كانوا مطّلعين على كذبها ، ستدهش عندما تعلم أنّها أقرب صديقاتي، لا سيما أنني في السادسة والعشرين، لقد توفّي زوجها منذ ثلاث سنوات تقريبا، شهيدا على حد قولها، فلقد أرسلته في يوم حرّ جداً ليشتري لها غرضاً ومات في الطريق، ليرحمه الله، حسناً سأروي لك التفاصيل الباقية بعد قليل في رسالة أخرى

المخلصة دوماً أثيل"

"عزيزنا خليل

مرحباً

سأناديك عزيزنا أيضاً وأرجو أن لا تكتب لي قائلاً إنني أقفز أكثر مما ينبغي، تستهويني القفزات النوعيّة السريعة، لهذا أرحّب بخطوة رفع الكلفة بيننا، فنحن حتماً صديقان مقربان الآن ولا حاجة للرسميات، سأكمل لك الذي حصل مع السيّد سميحة، في حال لم تكن تعرف إنساناً يموت حبّاً في المشاكل وإحداث الشجارات؛ فسيسعدك التعرّف على السيّد سميحة كما سبق وأخبرتكم، لها تاريخ طويل استثنائيّ حافل بالفشل والخيبة، حسناً لقد ذهبت إلى مبنى البلديّة من أجل رخصة محلها الجديد للتجميل، ويبدو أنّهم لا يبيتون نيّة منحها إياها ولهذا أخذوا يماطلون ويطرحون الأعذار أمامها، وصباح هذا اليوم تهيّأت نفسها لاستلامها

وأشاعت بين الجميع نبأ استلامها قبل ظهر اليوم، علاوة على أنّها وعدت كل نساء الحيّ بيوم مجانيّ لهن من أجل تصفيف الشعر. أشكّ أن امرأة واحدة رحّبت بهذه الفكرة، بل على النقيض تماما، أريدت وجوههنّ خوفا على شعورهنّ لعلمهنّ بالتجارب الحصيفة الحية أنّها امرأة متهورّة، ما إن وصلت إلى البلديّة حتى أعلمها الموظّف أن هناك نقصا في الأوراق فاشتعلت غضبا وغيظا، وسرعان ما صرخت في وجهه ثم جمعت الناس حوله، فاحمرّ وجه الرجل و انتفخ من الفضيحة (هكذا أخبرتني)، ذلك أنّها ذكرت أمور محرّجة عن سلوكه بالخارج، في الواقع وأحمد الله، لم تطلعني على هذه الأمور، ولكنها أجرت تحريّاتها عنه، ثم فضحت أمام الجميع، راحت تتوعّد وتهدّد بعودتها إليه في الصباح الموالي لتثير شجارا أعنف عن سابقه، إنّها تستيقظ كلّ صباح وفكرة واحدة تغزو رأسها العنيد: الشجار، الشجار

أتمنّى أن لا تكون رسائلي مزعجة بالنسبة إليك

أثيل

ملاحظة قصيرة لا تقرأ الرسالة إلى منتصفها، اقرأها كاملة يا عزيزي."

" عزيزنا الرائع خليل

أندري ما الذي خفف من ثورة السيّد سميحة. وسكّن غضبها، سأذكر بهذه المناسبة أكثر اثنين تمقّهما السيّد سميحة من كل قلبي: السيّد صبري وزوجته جميلة التي التقطتهما خارجين من بيتهما، تحاول جاهدة انتقاء أقبح الألقاب بغية استخدامها لرشقهما بها، وتطوّر فيها بقدر ما يسعها بحيث تشيع في الأوساط وتلقى ترحيبا، زوج من الأدمغة المختلّة، مصّاصو دماء. وأحيانا تطلق عليهما ألقابا غريبة أخرى، أذكر مرة أنّها أطلقت على السيّد صبري اسم القرش الشرس، وعن زوجته، الغوريلا و ذات الرداء المرعب، و ترجو من صميم قلبي أن يتمّ تصنيفهما ضمن قائمة أشرار التاريخ في أقرب وقت ، قد تتساءل عن السبب الذي يجعلها تكرههما! السبب بسيط، وجدت السيّد سميحة في إصرار السيّد صبري على المشاركة في الانتخابات حجّة معقولة. أما ما يتأصّل في خيالي منذ كنت طفلة صغيرة، فإنّ أوّل شرارة بينهما اندلعت قبل وقت طويل من أوّل اجتماع عقده السيّد صبري لأجل عرض مواهبه في اتقان الكذب و الترهات و البكاء المزيف بينما يعرض برنامجه الانتخابي الملتوي، وإن كان يفعل ذلك أملا في النجاح، فإنّه لم يوقّق ولو لمرة واحدة، دائما يخسر، و دائما يتوعّد أنه سيفوز المرة المقبلة، وتأتي المرة المقبلة وتروح ولا يحصد إلا الخيبة، أجل، هي تمقّتهما لهذا السبب وتزعم أن كل من يشارك في الانتخابات هدفه هو تغيير حياته وليس حياة الشعب. حسنا منذ أن خسر السيّد صبري في الانتخابات الأخيرة أصبح هو وزوجته نادرا الظهور في الشارع خاصة إن كانت

السيدة سميحة تحتله، بعد أن تفاخرا طويلا بفوز السيد وتربعت غريزة الطبقة الأرستقراطية على عرش سلوكهما ، لا يتورطان بالخروج من بيتهما ويتحاشيان لقاءها، يرسلان أحد الأحفاد الصغار لتفقد وضع الشارع من الجانبين، وما إن يتيقنا أنه آمن حتى يخرجنا من الجحر. ولأنّ حظهما كان تعيسا هذا المساء، اتفق أن التقيا بها بينما هي متوجهة إلى بيتها صديقتك الرائعة أثيل"

ملاحظة: يحقّ لك أن ترسل رسالة ل تمنعني من لفظ عزيزي، أو تمنع رفع الكلفة أو تعترض على أسلوب في كتابة التقارير ، ولكن لا يحقّ لك معارضة صفة رائعة التي أطلقتها على نفسي.
"خليلنا الصامت"

لقد دقت الساعة التاسعة منذ قليل، تفرز عيناى اتهامات نزيهة، وتزعمان أنني أتعبهما بالسهر إلى هذا الوقت، إنهما دبقتان، نصف مغمضتين، هل أنا دجاجة؟ فليس إلا الدجاج يخلد إلى القنّ مبكرا برأيي الشخصي، سأحدّثك عن المعنى الحقيقي لسوء الحظ، عندما خرج الزوجان من البيت ثم ابتعدا قليلا عن عتبة الباب، اكتشفا المأزق الناضح حرجا، فامتألا وجهاهما بالبؤس، لم تكن العودة سهلة حيث قبضت عليهما ثم انقضت أسرع مما توقّعا، وما هي إلا ثوانٍ حتى شرعت تتشدّق عليهما فيما كنت أنهرها بعقلانية عن ذلك. إن ذلك محرّج نوعا ما يا خليل، ااه لقد احمرت وجنتاي من الخجل، بيد أن سلوكها في الشجار يطغى عليه طابع خارق من التسليّة، سأخبرك سرا، ضحكت قليلا في داخلي من طريقتها في التهجّم عليهما، إنّ ذلك غير لائق، أعلم أعلم، حتى أنت لن تستطيع التغلّب على الرغبة في الضحك عندما تثير السيدة سميحة شجارا، والأنكى من ذلك أنّها تصمد بروح واثقة ثم تجادل وإن هي على خطأ. راحت السيدة جميلة تخبّئ وراء زوجها و دفعته حتى كاد يقع، ولم يكن هو بحال أفضل، فقد أخفى وجهه عنها، صدقني لو توقّر لديه في تلك اللحظة خيار إجراء عملية جراحية سريعة لتغيير ملامح وجهه لما رفض مطلقا، المهم أن يتخلّص منها، وسمعته يطلب هامسا من زوجته عدم دفعه وأن تحميه من السيدة سميحة؛ لأنهما امرأتان، على أن المسكينة لم تكن إلا أشقى حضا، وسرعان ما انهالت عليهما بفكاهاتها وهما ملتصقان بالحائط منكمشان (تشبهه الجزار يا سيد صبري تحتاج سكيننا و مئزرا ملطّخا بالدم، لا تبتك مرة أخرى يا سيد صبري بينما تقنع العجول بحاجتها إلى السلخ، إنّك لتجرح قلبي، وأنت يا وجه الشؤم، ماذا كنت تقولين؟،،،)، وسرعان ما انسحبا من أمامنا والسيد صبري ينظر إليها نظرةً جانبية، قائلا: إنه سيّد فاضل وليس من الشهامة معاملة النساء بغير احترام، لو تعلم ماذا فعلت؟ قرقرت ضاحكةً في منتصف الشارع، وقالت: إنّها أفكّه دعابة سمعتها، وشيّعتهما بقصف شنيع لم يعرفا له مثيل.

إنّها حقا امرأة غريبة الأطوار، هكذا تغيّر مزاجها من سيء إلى مشرق، فقط لأن فرصة سنحت لها فصرّحت بمشاعرها نحوهما ، هي مطلقا لا تتخلّى عن عاداتها، ولكن، ولكن، لم أر امرأة تكافح مثلها، إنها تسقط باستمرار، وما تلبث أن تقف بعزيمة أصلب عن ذي قبل، لم أرها يوما تتحدّث عن آلامها أو أحزانها، أنا أحبّها يا خليل، أحبّها كثيرا وأرجو أن تحبّها أنت أيضا، أريد أن يحبّها العالم بأسره لأنّها تستحق مثلك تماما ،،،، تصبّح على خير

الدجاجة أثيل

ملاحظة، ستنسى في اليوم الموالي أنّي نعت نفسي بالدجاجة، حيث أنني أفضل في كبح أعصابي عندما ينعتني أحد غير نفسي بهذا اللقب"

"خليلنا الوديع

صباح الخير. لقد شارف أيلول على النهاية، مرّ شهر على مزاولتي مهنتي التي حلمت بها ، لم أخلّ بواجبي أو أبدي أي تقصير، هل تمنحني وساما شرفيًا نظير مجهوداتي المهنيّة؟ حيث إنني لم أتخلّف يوما عن مراسلتك ونقل التقرير بحذافيره؟ أو على الأرجح أنت من النوع الذي يفقأ مرارة الإنسان قبل تعليق الوسام على صدره.

هاهي الأمطار الغزيرة تتساقط لليوم الثالث على التوالي، تدرك أنني سأجبر على حمل المظلة في يدي وفتحها وإغلاقها، هل السماء حزينة يا ترى؟ يستهويك منظر المطر أليس كذلك؟ تحبّ الأمطار يا خليل، إلهي كما تحبها 'هكذا عبرت ذات مرة، هنا يكمن الاختلاف بيننا فأنا لا أميل إلى المطر كثيرا، كما أننا نجسّد مليون اختلاف بيننا، إنك تعشق القهوة وتكتب مقالات عنها وتصفها بحبيبة قلبك، لكم هي محظوظة!!! في حين لا أحبّ احتساءها إلاّ مجاملة في إطار ضيافة لا تتيح الخيارات، أتكهن أنّك تفرط في احتساء عزيزتك القهوة، وليست هذه العادة مدرجة ضمن النظام الصحيّ المعقول، تلقي على عاتقي الكثير من المسؤوليات بالإضافة إلى كتابة التقارير. ألا أستحق رسالة شكر لأنني أحفل بصحتك؟ أو أنك تتشاور مع عقلك في جلسة عمليّة كيدة؟ . إن انتهيت أنت و عقلك إلى تجريدي من مناصبي سأرفع عليكما قضية عدم دفع الأتعاب المكدّسة.

بالمناسبة أتخلّى عن أتعابي في حالة واحدة، إن أبحث لي الخروج عن النص و القول أنّك تملك أجمل عينين في الدنيا، وددت أن أخبرك بذلك، لا تبتسم على ذاك النحو المستفز وتسمح لخيالك بإطلاق الأحكام، فأنا لست أغازلك، ولكنهما جميلتان حقا. أنا ذاهبة إلى العمل، أعرب السيّد إبراهيم عن نيّته في مفاجأتنا و إنعاش معنوياتنا اليوم، بصراحة لا أستطيع أن أحمّن كيف سيفاجئنا؟ فهو لا يتقن إلا فنّ تقويض معنوياتنا، لن يرفع الراتب إن كان ذلك ما فكرت

فيه، هل تعتقد أنه سيمنحنا يوم عطلة، إن الأمر أشبه برؤيتك حصانا يمشي على قائمتين، ألمح إلى عدم إمكانية ذلك.

إن تأخرت في مراسلتك فاعلم أن طارئاً ما أخرني لهذا لا تقلق

الصديقة أثيل "

" صديقنا الغالي خليل

إنها تمطر بإفاضة في الخارج. إن إصابتي بالزكام و التهاب الحلق حتمية لا مناص منها، وكانت أمي تؤنبني لعدم ارتدائي ملابس كافية. في الوقت الذي ينبغي أن أخرج مثل سكان الإسكيمو من وجهة نظرها، لم أتطرق للحديث عن أمي وعائلي، سأفعل قريباً. هل ينتابك الفضول لتعلم كيف أنعش السيد إبراهيم معنوياتنا؟! إنه نبأ أشبه بالقبلة، خبر رائع يا خليل، يصلح عنوان الصفحة الأولى في الجريدة، ففي الوقت الذي أتذمر فيه من ضيق الوقت وانعدام فرصة للتنزه، يطرق عقل السيد أننا نحتاج إلى يوم راحة آخر بالإضافة إلى الجمعة، تصوّر لقد منحنا يوم راحة آخر، أصبح لدي يوماً عطلة الجمعة والسبت. أليس هذا مبهجاً!؟ قد أبدولك خرقاء أو طفلة فترح بهدية مغلفة غلظاً براقاً؟ لعدم معرفتك بنظرية السيد حول العطل، إنه تنازل خارق ومخالفة عجيبة لطباعه الحادة، بوسعك تهنئتي بهذه المناسبة السعيدة. أنت تظن أنه ينبغي علي أن أحتفل أيضاً؟ سأفكر

صديقتك الوفية أثيل

ملاحظة. خطر لي أن السيد إبراهيم فقد جودة قدراته العقلية، هل تنسجم وشكوكي؟ سأخبر السيدة سميحة أن تنصحه بفحص نفسه عند طبيب مختص، لازلت لا أشخص قراره إلا ضرباً من الجنون "

" خليل البخيل الذي يقرأ رسائلي حتماً و لا يتنازل لي يكتب لي كلمة واحدة

لدي كل الحق في هجائك أحياناً، فلا تزعج من لفظ البخيل، لقد نمت الليلة الفارطة بوقت مبكر تحت طبقات من الأغطية، لأن حلقي كان يؤلني كما أن حرارتي ارتفعت، لم يسبق أن بلغت هذه المرحلة الزرية من الزكام. لا يسلك المرض سلوكاً حسناً بهذا الفصل؛ بل إنه يتغذى من رداءة الطقس.

لا تنذهل إن ما أبلغتك أنني أحضر نفسي للتوجه إلى العمل، ولو كنت مريضة، فغريزة السيد إبراهيم العزيزة تفضّل زحفنا على بطوننا مثل دودة القز على التغيب، تعتقد أنه يحتاج حتماً رغويًا لدماغه؟ أعتقد أنه يحتاج عملية دقيقة.

لقد قرأت لتوي مقولة رائعة، سأذكرها لك قبل أن أغادر" كن سنداً لنفسك، اتكئ على

على بعضك و انهض "، أندري ما الغرض منها؟، أنوي تدوينها على أوراق بيضاء ثم إصاقها على حائط المكتبة من أجل الموظفة المسكينة التي تعمل معي، إنها محبطة قليلا بسبب ظروف بيتية مجهولة، أفترض أنها ستشجعها، لا أجد رفع معنويات الآخرين يا خليل. أتمنى إتقان هذه الخاصية قريبا بفضل بعض التدريبات المثابرة ، سأنصرف الآن، أكتب لك لاحقا

أثيل المصابة بالزكام"

" فخر بلدنا خليل

هل بوسعك الإقرار بوجود طاقة خارقة في كل إنسان؟، انتعش قلبي عندما رأيت أثناء عودتي إلى المنزل مثالا بطوليا وشهادة دامغة على ذلك، حفزتي على روايتها لك، لمحت طفلا صغيرا يريد قطع الشارع، وبدا مترددا خائفا من شيء ما. فرغم خلو الطريق، لم يتجرأ على العبور إلى الجهة المقابلة، أفترض أن أحدا حفز فيه الخوف من قطع الطريق وحيدا، وفجأة وقفت عجوز طاعنة في السن في نفس جهته يفصل بينهما بضعة خطوات. وأجزم أن بصرها ضعيف وسمعها ضئيل، ولولا ذلك لانتبهت للسيارة المسرعة القادمة، ما الذي حصل برأيك؟ ركض إليها يقبض على يدها النحيل، ويده الأخرى أصدر إشارة إلى السائق القادم بتخفيف السرعة؛ لأنه ينوي نقل العجوز إلى الجهة المقابلة، إنه لم يكن شجاعا لأجل نفسه كما ترى، ولكنه تشجع لأجلها؛ لأجل من هم أضعف منه، لأنها أحوج منه إلى المساعدة، أراهنك أنه سيقطع الطريق بعد الآن بتردد قليل و حذر كاف .

بالمناسبة لا أزال مصابة بالزكام وأنا بحاجة إلى رعاية مكثفة، أتناول أدوية مرة كالعلقم، لا أستطيع إلا ابتلاعها على مضض؛ لأنها تفيديني، أليس من الغريب أن تكون الأدوية التي تمنحك الشفاء مرة لا تطاق؟ هذا ينطبق على الحياة بصفة عامة إن ما حللتها بشيء من النباهة، كل ما هو مرّ، الدواء أو التجارب مهيك شفاءً ونفسا جديدا. أنا شاكرة للمرارة التي وهبتني صحة جيّدة

أثيل في طريقها للتعافي"

" خليلنا العزيز

قبل أن أخلد إلى النوم اعترتني رغبة دقاقة في الحديث عن عائلتي، سيكون عادلا أن توجه لي اللوم لتأخري في خط رسالة جيّدة لأحدثك عنهم، لاحظ أنني لم أذكر أي في أي رسالة فهو متوقّ منذ أكثر من عشر سنوات. مات في حادث مأساوي خطّطت له أيادي الإهمال و عدم الاكتراث بسلامة العمّال.

أعيش رفقة أمي و شقيقتي، كلتاهما أصغر مني، نشكّل عائلة نموذجية متماسكة رغم

افتقارنا وجود والدنا. أفترض غالبا أننا محل حسد الجيران و الأصدقاء، فلدينا حب كبير لتبادلنا فيما بيننا، وحرصنا على دعم بعضنا البعض في أي نائبة تذكر حقيقة ملموسة، وعلى نحو مشرق نتقبل مساعدة بعضنا بكل طيبة نفس.

أذكر بوضوح هيئة الرجل الذي غير نبأه القاصم حياتنا إلى الأبد، أذكر عينيه الذابلتين ووجهه المرهق وقبعته السوداء التي حال لونها لقدمها، أذكر عوده النحيل و بروز عظام وجهه، أذكر حذاءه المغبر ويديه المشققتين و أظافره المتكسرة، أذكر سترته الكاكية عديمة الأزرار، بها جيب صغير ناحية اليسار، لا أنسى كيف نكس رأسه ورجف صوته وكيف تحاشى النظر إلى عيني أُمي بينما ينقل إلها فاجعة موت زوجها، كنت أقف خلفها متعلقة بثوبها، مثل من يخاف أن تنتزع منه أمه، لم تبك أُمي مثل النساء يومها و لم تلتطم و لم تندب وجهها و تهالك على الأرض بل قالت بغير وعي دون أن تذرف دموعا "لا ينبغي أن يموت، لدية ثلاثة فتيات لا يملكن أحدا سواه، هناك عدد كبير من الرجال في العالم بوسعهم الموت دون قلق، كيف استطاع أن يموت دون تفكير، يجب أن يموت زوج امرأة أخرى ليس زوجي أنا" فاستدار الرجل و غادر ونظرته سكتني كتفاصيل وجهه، انتقمت منها الدموع التي لم تحررها يومها، فبكت كل ليالي عمرها الآتية .

ترك أبي خلفه امرأة وحيدة بدون أواصر قرابة متينة تدعمها أو مهنة جيدة ترعى شؤونها مع ثلاث فتيات صغيرات، كان أبي رجلا عظيما يا خليل، وسنحتفظ به حيا إلى الأبد في ذاكرتنا، كانت كل الصفات المميزة تترعم شخصه، كان رجلا طيبا مكافحا و أخاله الآن فخورا بأمي و بنا؛ لأننا اعتمدنا على أنفسنا لمواجهة العوز والحاجة بمفردنا، لأننا لم نحني قامتنا أبدا للظروف الصعبة، لأننا تجلّدنا بالصبر، لأننا وقفنا دائما بعد السقوط؛ ولأنني أحبته حقا، سأهض دائما بعد السقوط فذلك فقط ما يسعده، سأحدثك لاحقا عن أُمي العظيمة

المحبة دوما أثيل"

"عزيزنا خليل

مرّت عشر دقائق على آخر رسالة أرسلتها إليك، غفوت قليلا ثم استيقظت، فقد وافتني فكرة نسيت إطلاعك عليها، لقد سنّت الحكومة قوانين شاذة جديدة، أعتقد أنه ينبغي إرسال أعضائها جميعا إلى مصحّة عقلية، إنهم بلا ريب يعانون من خلل في الوظائف الدماغية، لقد رفعوا الأسعار ثانيا، نعم في ظرف أسبوع عصبي واحد، لأننا نعاني على حد سفاهتهم الوقحة من عجز مالي في الخزينة. بينما لا تتنازل حكومتنا الغالية عن انتقاء فساتين مخملية جميلة لنفسها و إبهاجها بالصورة المجزية المستفزة. هذا هو المنطق الحاذق الذي تنتهجه حكومتنا

البائسة، أتساءل دائما عن السبب الذي يمنعهم تطبيق القرارات العقيمة على أنفسهم؟! أما ذلك البرلمان ليلعنه الله، إنهم يجتمعون في جلسة يسمونها مغلقة ليرفعوا أياديهم من أجل أن يغلقوا علينا أبواب الرحمة، أراهن أنهم مجانيين، تصرّ السيّدة سميحة على وجوب التبرّع بعقولهم إلى أحد المخابر العالمية لمعرفة السبب وراء الغباء البشريّ. يسوقوننا إلى الانقراض كما ترى

أثيل تطالب بإسقاط الحكومة "

"عزيزنا خليل

صباحك نور وشمس، إنّه أول أيام تشرين الأول، استيقظت وأنا أشعر بحماس جمّ، وطاقة غريبة، لست أعزو السبب إلى واقعة معينة، ولكنني أشعر بفائض من السعادة. هل أصف لك الطقس؟ إنّه مشمس دافئ، و نور الشمس يغمر الدنيا بأسرها، أليست الشمس جميلة؟ أليست مبعثا للسرور المتجدّد؟ إنها تغيب في المساء وتشرق في الصباح، لكم يذهلني قانون الطبيعة، لا بد من يوم جديد، ولا بد من شروق جديد، لا بد من أمل جديد. الآن أنا مضطّرة للانصراف، بالمناسبة هل تؤمن برسائل الطبيعة؟ لا تظنّ أني متعالية، ولكنني أوّمن أن شمس اليوم أشرقت لأجلي.

أثيل صديقة الشمس "

"عزيزنا خليل

يقال أنّ لكل إنسان أمر يخافه، واحد على الأقل، وكذلك يقال أن أفضل وسيلة للقضاء على مخاوفك هي مواجهتها، إنّي عازمة على الثورة ضد الشيء القبيح الداخلي الذي أخافه، وأتمرنّ كيما أمحو كل أثر له، ستختلج عيناك عندما أخبرك به. فلا أنت ولا أي إنسان آخر يتوقّع أن أخاف من البحر وأكثر منه أخاف المرتفعات بأنواعها. أجل يا خليل، لا يسعني رؤية لونه الأزرق دون أن يطفح قلبي هلعا، أو تعانق أصوات أمواجه أذني دون أن تتوتّر أعصابي، ورائحته تحثّي على الغثيان.

لك أن تتخيّل أن البحر الذي يمتصّ غضب الآخرين، و يجمع أحزانهم في حقيبة واحدة ثم يُخلّصهم منها، البحر الذي يلطّف المزاج مهما كان حادّا يخيفني أنا.

ليست المسألة عرضيّة، في الواقع لقد كدت أغرق عندما كنت طفلة صغيرة لم يتجاوز عمري العاشرة، عندما تعطلّ انتباه والدتي وانشغل بإتقان ترتيب الأشياء في اللعبة الكبيرة، ما أبشعه من شعور، كدت أختنق وتنقطع أنفاسي لولا أنني كنت لحسن الحظ في مدى بصر إحدى السيّدات الماهرات في السباحة كأنّها كانت ملاكي المنقذ، هل تصدّق أنني ندر أن قمت

بزيارة له منذ تاريخ الحادث رغم أن المسافة بيننا بضعة أميال . لست أزوره إلا عندما تنطلي علي إحدى حيل السيدة سميحة، و تصطحبني عنوة قبل أن أتمكّن من الرفض، و أثناء ذلك أحرص على إبقاء نفسي بعيدة عن مياهه كيلا تغرقني و تفصل روحي عن جسدي، أتحرى السرعة في العودة إلى البيت.

أدرك الخطوة النبيلة التي تعزم السيّدة سميحة القيام بها، إنّها تحاول جري خارج دائرة الخوف، عن طريق وضعي وجهها لوجه مع الشيء الذي أخافه، عندما نمشي بمحاذاة الشاطئ، تلك الفترة القصيرة يشقّ لسانها الطريق نحو ثرائها الودّيّة التي لا أعتقد أنها تنجح في إشغالي عن الصوت والرائحة و اللون و الرمل، لم أوضح لها أنّ ما تفعله من أجلي لم يثمر إلى الآن، ويبدو أنني سأغيّر هذا الوضع الجبان في أقرب وقت، لأنني أعتزم مفاجأتها بمنظر يبهبها جزاءً لها على ثقّتها الخالصة بإرادتي، عندما أضع قدمي المرتعشتين فرقا في مياه البحر الزرقاء، وهكذا أقضي على مخاوفي، تسألني كيف سأتجاوز الحاجز؟ حتى أنا نفسي أجري تشاورا ذاتيا عميقا لم يسفر بعد عن نتائج مريحة، لكنني سأفعلها ، خطوة خطوة.

الخطوة الأولى: سأصارع نفسي متشجعة في جلسات تحفيزيّة واعدة، أنني أخاف من المواجهة بسبب جبني، وأن البحر يذكّرني بحادث مربع، وأن الذنب لم يكن ذنبه؛ بل إن مصدر الفاجعة كلّها كان تهوّري الصبيانيّ.

و لولا أنني ابتعدت عن المنطقة الآمنة؛ لما وجد البحر سببا لإغراق. إن كان بوسع الإنسان إسداء المواعظ لغيره، أليس بمقدوره إسداؤها لنفسه!، تماما كما لو كانا شخصين منفصلين هكذا "اسمعي يا أثيل، أنت لم تكوني يوما فتاة جبانة، لن يفرقك يا فتاتي الحلوة، لقد كبرت وأصبحت ساقك طويلتين و أنت واعية الآن. أجل قفي أمامه و أخبريه أنك لا تخافين منه"

الخطوة الثانية: سأذهب إليه عامدة برفقة السيّدة سميحة ثم تدريجيًا سأفنعها بوجوب التخليّ عنها و الذهاب لوحدي، طبعًا ستتسع عينها الصغيرتان ثم تُجري استجابا دقيقا كمحقي الجرائم مقسمة أنها لن تترك يدي حتى لو رأت كلبا مسعورا هائجا قادما نحونا، غير أنني سأواجهها متحدية قائلة و رأسي شامخ، يشوب وجبي سحنة واثقة "سيّدة سميحة، لم أعد طفلة، ليس بمقدوري التغلّب على خوفي إن رافقتني مثل مدبّرة المنزل الحازمة،، سأنظر إليه فقط و أقترّب بضع خطوات "

متى أنوي فعل ذلك؟ أجهل تاريخ عقد أول اجتماع سرّي لإسقاط نظام الخوف المستبدّ المديد ذائع الصيت. ولكن حتما سأفعلها، و الآن حان وقت النوم، تصبح على خير

أثيل التي ستواجه مخاوفها

ملاحظة، يمكن أن تصوّت على خطواتي الجريئة برسالة قصيرة، ولكنني أعرفك رجلا شحيحا متعاليا، لذلك سأصوّت لصالح نفسي، لا أحتاجك".

" خليلنا المتكتم "

أمي امرأة عظيمة، بعد أن قضى أبي في ذلك الحادث المأساوي، كافحت لأجلنا بيديها الأُموميتين الضعيفتين، رغم المرض والضعف وقسوة الحياة، لم تتركس صوتها يوما كيما تتذمّر من بشاعتها في الخارج.

كانت تعمل عاملة نظافة في إحدى المكاتب الصغيرة، تخرج صباحا وتعود مساءً وابتسامة الكبرياء تطوف بشفتيها، وكانت آلة الخياطة بصوتها الصاخب تضع يدا مطمئنة على قلبي تنبئني أن الدنيا لا تزال بخير، وأنا بمأمن، كنت أشعر بالارتياح آليا حينما تفتح الباب وتحضننا، إنها منكرة لذاتها، تنكر شعورها بالتعب، لم تكن تئن أو تتألم أمامنا كما لم تعدد عيوب اضطلاع السيّدات بمسؤوليات الرجال.

إنها فقط تصرف ضيقها وتحرض ابتسامتها المهرجة الأنيقة على الالتفاف بشفتيها ثم تعيد على مسامعنا مرّة بعد مرّة أنها سعيدة بوجود ثلاث فتيات رائعات في حياتها.

من الصعب أن تتظاهر أنك بخير بينما أنت مفطور القلب منهوك. راقبتها ذات يوم من ثقب باب غرفتها؛ لأنني لم أستطع ضبط رغبتني في رؤية وجه أمي الحقيقي دون قناعها اللّماع القانع، فرأيتهما تبكي بحرقة، تتأمل يديها المقرحتين وتستعيد يومها الشاق. كانت تحججهما عنّا ولا تسمح لنا برؤية مشهدهما. أجل أمي امرأة عظيمة، أنا أشعر بالامتنان لها. ظروفنا الآن أفضل بكثير مما كانت عليه. وأمّي لا تكفّ عن القلق ومزاولة مهنة التوتّر إن تأخرت إحدانا عن العودة إلى البيت خمس دقائق. إنها مهنة رائعة، أتمنى أن تمارسها أمي إلى الأبد دون مبالغة كيما أحسن بوجودها.

هل فتحت النافذة اليوم؟ وتأملت الشمس، تذكّرت أنك تحب عبّاد الشمس وأنا أيضا أحبّه

أثيل تقول لك تصبح على خير "

ملاحظة سألتني السيّدة سميحة مرافقتها إلى الريف يوم السبت، تلبية لدعوة أقرباء زوجها للتعرف عليهم، أرغب بعنف في الذهاب، هل تعتقد أن أمي العظيمة ستسمح لي بذلك؟.

" قمرنا اللّالأء خليل "

صباحك رائع أيّها الفريد من نوعك، البيت يعبق برائحة الخبز الساخن. لقد اشترته أختي الصغيرة ياسي لتوها من المخبزة الواقعة على شارع يبعد عن بيتنا عشر دقائق (اسمها ياسمين ونحن ندعوها ياسي)، اليوم أشعر بنوع من الخمول حتى إنني لم أستطع انتزاع نفسي من

السرير إلا بمشقة، أحسن أني بمقام عجوز هرمة تجاوزت الثمانين، إن زلّ لسانك وسألها إن كانت تشكو من شيء تمطرك بالشكاوى حتى تندم سنتين قادمين على شهامتك .

إن ما سمعتني إحداهن أتفوه بهذا التصريح ستتهجم سحنها حيث أنهن يعتبرن أنفسهن منطلقات نشاطات على نقيض فتيات الجيل الصاعد، توقفت عن الكتابة في منتصف الرسالة ثم سرت نحو النافذة، بمجرد أن ألقيت نظرة واستنشقت الهواء انتعشت روحي. أعزو السبب إلى الطقس الجميل الذي التقطته عيناى. أنت أيضا ينبغي أن تلقي نظرة من النافذة لتلمح خيوط الطقس الجميل تتساقط تباعا. سأنزل إلى الأسفل وأسأل أمي إن ما كانت تسمح لي بمرافقة السيدة سميحة إلى القرية أين تقيم قريبة زوجها وابنتها الوحيدة. تتحدث والدي بإسهاب عن أيام شبابه حينما ترفض مسألة ما، أمل أن تحدثني عن أيام زواجها من أبي بدلا عن ذلك، طاب يومك .

أثيل الخمولة تبعث إليك بتحياتها من خلال النافذة "
عزيزنا خليل

لقد عدت لتوي من المكتبة حتى أتى لم أغير ثيابي بعد، أنا في عجلة من أمري لأقدم لك تقريرا مفصلا عن الذي حدث اليوم. إنها قصة عجيبة؛ بل هي غاية في العجب، زارتنا امرأة في العقد الخامس من عمرها ذات شعر كثيف و عنق سامق ، لغرض شراء كتاب، وبينما وقفت لأساعدها، بدأت تقصّ عليّ جزءا بائسا من حياتها، ااه ، لقد شعرت بالأسى اتجاهها، قضت المسكينة عشر سنوات وراء القضبان؛ بسبب ارتكابها جريمة قتل، ليس من اللائق أن أذكر أمامك تفاصيل الجريمة.

تخرّجت منذ أسبوعين فقط، ما أدهشني أنّها قررت بحزم تغيير حياتها إلى الأفضل، ووضّحت أنّها تملك أربعة أطفال، وتشكر الله أنّها لا تزال تحتفظ بمحبّتهم رغم انقضاء عشر سنوات، أليس هذا محزنا؟ قد تستغرب أنني أشفق على إنسان قاتل. هي نادمة لإقدامها على تلك الجريمة الشنيعة. ولكن أتى لها بفرصة أخرى تصحّح بها مسار حياتها؟ وها قد دفعت ثمنها غاليا، عشر سنوات ذهب هدرًا. أليس على الإنسان دائما الإمعان في التفكير بتعقل قبل اتّخاذ قرارات عشوائية، يدفع ثمنها إلى آخر يوم في عمره، إنها لا تفترض أنّ الأوان قد فات، أثناء فترة سجنها كانت تقرأ سلسلة من الكتب الجيدة، وأخبرتني أن تلك الفترة الرهيبة كانت نفقها المظلم إلى حياة جديدة وجسرا منيعا نحو التحرر المطلق، أتري ما أغرب الحياة؟! هناك خاسرون استفادوا من هزائمهم وحولوها إلى أرباح ومنح، نحن فقط رهائن أفكارنا الذاتية، متى وثقنا بأنفسنا سحقتنا كل الحواجز ، ومتى خضعنا للعواصف وأحنينا رقابنا ازددنا ضعفا، إذا

فالتحرّر من ذواتنا المستسلمة قرار ذاتيّ ألا توافقني؟

أثيل ذاتيّة القرار"

ملاحظة: عزيزنا خليل ، لم تمنحني أمي العظيمة الإذن لمرافقة السيّدة سميحة. وعندما لمحت انزعاجي الصامت الذي أيده إلحاح السيّدة سميحة ، وعدتني بالسماح لي بمرافقتها في أوّل أشهر الشّتاء. ستكون مغامرة ممتعة، سأنعم بوقت رائع وسط الثلوج البيضاء . أنا أتلهف لقدوم فصل الشّتاء، لا يزال شهر ونصف، أتصوّر أنّك قمت بسلسلة من الرحلات من هذا النوع. ذات يوم عليك أن تروي لي بالتفاصيل المملّة عنها. عندما وافقت أمي شعرت شقيقتي الوسطى ميرنا ببعض الغيرة وعلى نقيض عاداتها المحبّة أبدت بعض الحسد؛ لأنّها دائماً تفضّل أن أتمتّع أنا بأيّ منحة عائلية، إذ إنني أقضي وقتي بين جدران مكتبة مملّة مرهقة. أما شقيقتاي فتقضيان وقتاً ممتعاً مع صديقاتهن، وفي الأخير أعلنت بمرح أنّها سعيدة لأجلي. إن شقيقتي ميرنا فتاة طيّبة مغالية في حبّها لي وأكون عمياء إن لم أستطع ملاحظة مشاعرها الخالصة.

ليلتك برائحة الورد

أثيل الحائزة على جائزة موافقة أمها"

"عزيزنا خليل

صباحك سعيد، أكتب إليك في هذا الوقت المبكّر من الصباح وأنا في غاية الألم، ثم أعترز إليك لعدم تمكّني من مراسلتك بالأمس، اه لو تدري كيف قضيت يوم الجمعة، عانيت من ألم فظيع في ضرس العقل، لماذا يخلق الله هذا الضرس عديم الفائدة؟! سريع التسوّس، الجالب لأوجاع عصيّة، جرّبت كل شيء معه الثوم، القرنفل، و نماذج مختلفة من الأعشاب نصحتني بها أمي . لم ينفع معه إلا استئنافه إيلامي بعد فواصل من الهدنة . إن ما كنت قد جرّبت ألم الأسنان من قبل فستفهمني ثم ستشعر بالأسف لأجلي، هناك مشكلة أخرى برزت أمامي هذا الصباح و إن ما أخبرتك بها ستضحك حتى تدمع عيناك. إنني أخشى طبيب الأسنان و أدواته الحادّة، أليست مخيفة؟ يبدو كجزّار جاهز للسّخ. اه ذات مرّة هربتُ عندما سمعت صراخ امرأة من الداخل، ولم أكن الوحيدة، كل الوجوه كانت شاحبة واجمة كأننا لاجئو حرب ما عدا مرافقات المريضات باعتبارهن غير معنيات بالكارثة القادمة، كنّ يضحكن حتى تبرز نواجذهنّ. إن أوصالي ترتجف من الآن كلّما تذكّرت زعيق المرأة الحادّ. وليس من مجال للتراجع عن هذه الخطوة، لا يسعني احتمال ألم الليلتين الفارطتين، إن خير طريقة للتخلّص من المخاوف هي مواجهتها، لست أعوّل إلا على المضيّ قدماً. الأمر يحتاج عزيمة عالية، لن يؤلّمني الأمر إذا ما صرفت النظر عن ذلك، سأتألّم فقط عندما أخاف.

كيف كانوا يقلعون الضرس اللعين في العصور القديمة دون مخدّر و بكماشة أيضا ؟إن هذه فاجعة بشريّة تفوق بشاعتها الطعن بسكّين حادّ، قرأت مرة أنهم يتميزون بهمجية متوحّشة ، في عام ١٨٩٠ كانوا يجلسون المريض على كرسيّ خاص ثم يربطونه بسلاسل معدنيّة صلبة وفي الحال يثبّتون فكّيه بين آلة حديديّة لتجنّب حركته أو فراره.١٩٠٠ تقدم العلم و قل العنف فغدوا يربطونه بحبال و يثبتون رأسه بشريط من القماش إلى الكرسي ثم يسحبون الضرس و يتركون فمه مثل فم مصاص دماء انتهى لتوه من وجبة دم دسمة .

أحمد الله أن تلك الطرق البدائيّة العدوانيّة المتوحّشة لم تعد موجودة، كما ترى نحن أحسن من مريض العصور القديمة على الأقل، إذا لماذا ينبغي عليّ أن أخاف، ألسنت بعيدة عن المنطق؟، لقد تطوّر الطب والعلم وغدت كل العمليّات الصغيرة والكبيرة سهلة جدا تحت تأثير مخدر قوي يغيب الإحساس بالألم، كأنك تقضم قطعة كعك مصنوعة من النشاء. كما أنّ النتيجة مضمونة و العمليّات ناجحة مرضية فليس عليّ أن أخشى شيء.

أنا قادمة يا عزيزي طبيب الأسنان بهمة فائقة انتظرنني"

تعقيب: طرق تفكيرى اصطحاب السيّدة سميحة، بيد أنني نبذت الفكرة. أخشى أن تثير مشكلة و نطرد من العيادة معا.

"صديقنا الغالي

سأحاول إيجاز سرد الأحداث قدر المستطاع. و إن كانت ثرثرتي قد تجاوزت الحدّ فليس ذنبي، لو أنّك تعرّفت سابقا على السيّدة سميحة ستعذرني. نعم، لقد التقيت بها و أصرّت على مرافقتي فليس من عمل مفيد تقوم به. وافترضت حاجتي إليها بعد عمليّة القلع، و إن كنت قد رفضت خدماتها فإنّ لي أسبابي، و إن هي تجاهلت استنكاري، فلها أسبابها أيضا. وهكذا أذعنّت لها كارهة و طوال الطريق، وأنا أهمهم بكلام غير مفهوم راجية الله أن تتحلّى السيّدة ببعض الرصانة و تبقى بعيدة عن المشاكل. وأيضا دعوت الله أن تحدث معضلة و يعارض الطبيب خلع الضرس كتجمع الصديد تحته أو التهابه أو حاجته إلى دواء قبل الخلع، ليس ذنبي إن ما هجرني الإشفاق على الإنسان البدائيّ و ألغيت الأفضليّة و عاودني الشعور بالخوف.

عندما حان دوري و نادت الممرّضة باسمي ارتجفت ركبتي و احتمال أن أهرب كان موقفاً، على أن نظرات اللاجئين الآخرين كانت مصوّبة نحوي، ولهذا قرّرت أن أكون بطلة في نظرهم و مثالا لامعا يُحتذى به، هكذا شمخ رأسي كأنني ملكة في مهمة رسميّة، وأقسم أن قلبي كان يقرع كأنه طبل، قادتي الممرّضة إلى الغرفة و كأنّها تقودني إلى مقصلة الإعدام، بينما راحت السيّدة سميحة تتعاطى حوارا ممتعا مع إحدى العجائز المشتكيات من طقم أسنانها ، لم تدرك إلا

متأخّرة مبارحتي قاعة الانتظار، هل جريت شعور الجلوس على كرسيّ الأسنان؟ هناك تخلّيت عن وقاري الملكيّ وتحولت الشجاعة المزيّفة إلى رعب جلي سرعان ما قرأه الطبيب في عيني فطمأنني بلطف أنه لن يؤلّمي، في الواقع لقد كانت أقواله صادقة، وباستثناء وخز الإبرة لم اشعر بأيّ ألم.

كانت عمليّة الخلع سهلة، ومن فرحتي لمعت عينايا ببريق الامتنان وشعرت أنّه رجل فدّ، أطلقت عليه اسم المخلّص الشجاع، لم تكن سميحة لتجعلني أعيش لحظة الانتصار الساحق بهناء، فقد سمعت و الطبيب جليّة ترتفع في الخارج ولغط أشخاص عددهم أكثر من اثنين. نعم، لقد فعلتها وتشاجرت مع الممرضة و نعتتها بالعقرب السام، ثم الأفعى السامة.

تمّ حظر أسمائنا بفضل مجهودات جارتني، وأوصى الطبيب الممرضة بلهجة صارمة أن تضعنا ضمن قائمة المشاغبين المثيرين للمشاكل، وليس أسوأ من حرمانني من تلك الأيدي الناعمة الحنونة. ليسامحه الله ما ذنبي أنا لأؤخذ بذنبا، هل كان الطبيب سيلغي قراره لو نقلت إليه على سبيل أن أكون مفيدة له أنني لا أعرفها، وأتظاهر بالاشمئزاز من تصرفاتها السوقية؟

أثيل المدرجة على القائمة السوداء "

" خليلنا الوديع

إنّها الثالثة مساءً. لقد بارحني الألم وأنا أشعر بارتياح واسترخاء حقيقيّين. في الواقع لن تستنشق هذه المتعة بصورتها الكاملة إلا بعد تجربة مريرة متواصلة من الوجع.

أنا الآن أشعر برتابة غريبة، هل نظرت من خلال النافذة اليوم؟ هل تشعر أنت أيضا بالملل، إنني أشتاق إلى أبي يا خليل في هذه اللحظات، أذكر السن اللبني الذي أخذني لقلعه. هل راودك إحساس يوما ما أن أعزاءنا الراحلين يعيشون معنا. وليس حضورهم في أحلامنا إلا رغبة منهم في التواصل معنا . أنا مثلا لا تمرّ ليلة واحدة دون أن أراه في حلمي، لست أخفي عليك أنني لا أظهر عجزني بأيّ موقف إلا لأجله، فلو قدّر له أن أحسنّ بذلك، لن يناله إلا التعب، سأثقل عليه، لهذا سأتشجّع لأجله، وسأقف دائما لأجله مهما كان ألم السقوط قويّا، ها أشتي تناول قطعة من السكر ولكن الألم المنطبع في عقلي دفعني إلى التوبة من تناول السكريات. بالإضافة إلى أن الثورة التي أعلنتها تفرز أول نتائج النجاح الباهر.

أثيل التائبة من تناول السكريات المحطّمة للأسنان"

" صديقنا خليل

رغم عدم رغبتني في الذهاب إلى العمل، إلا أن لسان السيّد إبراهيم الذي سيمزّق أذني يحدوني كارهة إلى ذلك، هذه الأيام يُوكّل إلى نفسه مهمّة تذكيرنا بكرم إضافته إلى رصيدنا

الزري من العطل يوما آخر، وهو يخصّص كل طاقته المتباهية لهذا الغرض، مقسما أننا لن ننال يوما في منتصف الأسبوع إلا على موته وإنها كلمته الأخيرة، ذوقه في مبدع في التذكير بالأعمال الطيبة.

لست مريضة. أنا طاقم كامل من النشاط و الحيوية، اليوم بالذات انفتح مزاجي المشرق على إتيان أشياء مغايرة بدل الذهاب إلى ذات المكان كل يوم، أتمنى لو أنني عصفور وأتجول أينما أريد، وأحلق في الجوّ الرحب كيفما أشاء.

لو أستطيع التمرد على قواعد السيد إبراهيم دون متلازمة الطرد تلك وأذهب إلى مكان مختلف. وأنخرط بين صفوف من الناس. هذه هي طبيعة الإنسان، إنه اجتماعي، لم يخلق لينعزل عن الآخرين؛ بل لينضم إليهم ويكون جزءا لا يتجزأ منهم. العزلة تقتل عزيمة الإنسان، بالمناسبة هل تمنيت يوما أن تكون عصفورا مغزدا؟

أثيل تذهب إلى العمل على مضض "
" صديقنا الرائع خليل "

مرحبا يا كثرنا، لم أشعر بالعزلة مطلقا فقد زارتي إحدى العجائز اللاتي أعرفهن، في الواقع يستطيع المرء تصنيف واقعة حدثت معها (لم تطلعني عليها حتى اليوم) نكتة طريفة مغرّبة للضحك. وإن ما كنت حاذقا وتعمّقت فيها فلن تضحك، بل ستستفيد من قصّتها عبرة عظيمة، منذ فترة شخّص الطبيب و الجزع يخفق في وجهه أعراضا ظاهرة مرضا خبيثا، بعد أن زاولتها صدمتها الأولى أدركت أن الزمن المتبقي بين يديها قليل إذا ما قيس بالزمن المديد الذي عاشته هائلة مستكينة إلى العافية والصحة المكيّنة، وسرعان ما اتخذت بعض القرارات الحاسمة على رأسها: إصلاح علاقتها مع خصومها، فقصدت بيوتهم آملة و الرضا بمصيرها يفتش صدرها أن لا يصدّوا زيارتها بجفاء النزاعات القديمة، و ما إن ظهرت في مرأى إحداهنّ حتى صاحت بأعلى صوتها كأنها رأت لَصًا، أمرة إياها بالانصراف، وما كان تصميم العجوز المشرفة على الموت ليلين أو يابه لبرود تعامل المرأة.

ومرت ساعة ثم ساعتين ثم ثلاث وهي لا تزال منتصبية أمام الباب، اختارت الوقوف على قدميها لتؤكد عزمها بالرغم من الإعياء في ركبتها، ومأساة مرضها. وفي النهاية أذعن عناد المرأة وفتحت الباب ثانية مرحّبة بها، وهكذا طوّيت صفحة النزاع الطويل على قضايا حياتية تافهة. ما فتئت تُنقذ مشروعها الإصلاحي بكل بيت تربطها به خصومة محسومة، وكلما همّت أن تغادر، تقبل غريمتها ست قبلات على الأقل وتعانقها عناقا حارا، جزاء اكتشافها المزهر لفداحة خطئها في تعظيم شأن الأحقاد. لقد أدركت كم كانت مخطئة، ولو أنّ الأيام تعود بها إلى الخلف

لما دشنت هذه النزاعات عديمة المصدر، لقد اكتشفت قصر الحياة و فشل نظرية انتظارها لأحد حتى يفرغ من بغضه .

إنها تستمر رغما عنا سواء أكننا تعساء أو أشقياء، ولم تعد تأمل في أيامها المعدودات المتبقية إلا فرصة ثانية تعوض بها ما قد فات. لقد كان الله كريما معها على الأقل فمنحها وقتا إضافيا. أما موطن الضحك؛ فإنها عندما راجعت الطبيب مجددا اعتذر لارتكابه خطأ جسيم في تشخيص حالتها، ولو أنها لم تكن ممتنة جدا لهذا الخبر السعيد لقتلته، حيث أنه أفزعها.

أخبرتني أنها نالت أكثر من فرصة، وهاهي الآن تشمر عن ذراعها لاستفيد من النعمة السخية التي منحت لها، هب أنك مكانها ألن تكون سعيدا؛ لأن الحياة منحتك فرصة بديلة عن الموت؟ خذني مثالا ، عندما سمعت قصتها شعرت بالسعادة لأجلها، أنا سعيدة لأن أيامها القصيرة غدت مجالا مفتوحا وليس مغلقا

أثيل متأثرة وتشعر برغبة في البكاء "
" صخرتنا الصلبة خليل

قررت اليوم قرارا مفاجئا، بمجرد أن أعود من العمل، سأبدل موضع الأثاث في غرفتي. لا يسعني تغييره في الفترة الراهنة بالنظر إلى الظروف المادية الصعبة. إن ذلك أشبه بمعضلة، الظروف لا تستوعب مصاريف أخرى، وليست بخطوة سيئة الاكتفاء بتبادل الأماكن وتغيير موطن الأثاث بموطن آخر، ما أعظم التجديد ! هذا سيخلق جوا مغيرا للعادة. و سأنعم بإطالة محترفة بوسائل بسيطة. لاحظ ، بوسع المرء إمتاع نفسه بأمور تبدو أصغر من الذرة، فالرتابة تقتل حماس الإنسان وتقبر اندفاعه، سأصاف لك بإيجاز خريطة عملي الإبداعية من أجل غرفة مختلفة. أعيد المكتب إلى مكانه القديم أي تحت النافذة، وأبعده عن السرير، وأحرك الخزانة قريبا من المكتب كما أنني أنوي تغيير لون الستائر، إن لونها القاتم يثير حفيظتي كما أنه يجعلني مغتمة. أرشح اللون الأبيض أو الزهري. أنت تميل إلى اللون الأزرق الفاتح، هل سبق وأخبرتك من قبل أنه يناسبك، تتضاعف وسامتك عندما ترتدي قمصانا زرقاء، كما أنه ينعكس على عينيك الهادئتين، إنهما جميلتان، لا سيما وأنهما متناغمتان مع ملامح وجهك

أثيل تعتمد إلى التجديد، لأن الرتابة مثبّطة للعزيمة"

" خليلنا المواظب على الصمت

إن ما كنت قد فتحت النافذة اليوم، فلن يفوتك رؤيتي ، أعتقد أن نوافذ البيت تشبه نوافذ الحياة ترى من خلالها ما يدور بعقلك ، تلهمني النوافذ كثيرا و لا أعرف لماذا ؟، أحب فتحها و أمقت إغلاقها .

لقد حدثت وغيّرت إطلالة الغرفة بأياد فنيّة ماهرة، إنها شاهد حقيقي على براعتي ، إنّ عنصر التخاذل و الانطواء مفقود كلياً من شخصيتي، رغم أن الخزانة أطلقت امتعاضها القاصف على قراري، فلقد تهمّست مرأتها وأنا أجزّها إلى موطنها الجديد، يبدو أنّها لم تتفاهل بالتجديد الذي وقعت عليه

يحيا التفاؤل،، أثيل "

"عزيزنا خليل

قلّما قدرت المعنى الحقيقي لوجود سقف يأويك، أما في هذا الصباح الباكر. فقد استوحيت من مشهد أدمى قلبي عرفانا بالجميل لله، لأنّه منحني بيتا أوي إليه، في أحد الأزقة المهجورة الجانبية التي أمرّ بها للطوارئ فقط، جزاء غارة مفاجئة للدّة التأخّر عن العمل و بهذا أتحرّش بأعصاب السيّد العجوز قليلا. إنّ منظره وهو يستهجن الدقائق اللعينة للتخلّف عن الحضور المبكر يحدوني إلى تعمّد فعلها، لا، لا لست شريرة. أمل أن لا تسقي دموع المهانة وجنتي كما حصل آخر مرة عندما صرخ في وجهي .

لأعد إلى الموضوع الأول، تمثّل المشهد في صبيّ صغير لم يتجاوز عمره السادسة، كان ينام بثيابه الرثة و حذائه الممزق المهترئ في الشارع، مدثراً نفسه بخرفة ممزّقة، ااه كم هذا مؤلم. أليس هذا رهيبا يا خليل. إنه كفر بالطفولة البريئة أن يستلقي طفل وحيد على الأرض العارية دون سقف يأويه، أين هي تلك الجمعيات المتبجّحة المتسوّلة ذات ألف وجه المدعيّة لحبّ عمل الخير، ومساعدة الفقراء، إنّ الجهات المعنية التي لا تستطيع تأمين سقف لهذا الصبيّ. جهات مثخنة بالأنانية والعجرفة والشرّ، جديرة بأن تسقط في هوة العارو والمحاسبة الحازمة، ولكن همّات همّات، عندما يموت الضمير يصبح الإنسان عالة على غيره وليس على نفسه، والمسؤول الذي لا ينشغل بمشاغل العامة، منشغل ببناء نفسه و تأمين مستقبله

أثيل تعتقد أن الطفولة في خطر "

"صديقنا المملّ خليل

هناك سؤال يرنّ في ذهني، ما هو مفهوم الحرّيّة بالنسبة للبشر؟. أن يفعلوا أي شيء يريدونه. أو نقيض هذه الفكرة، أي أن لا يفعلوا أي شيء يريدونه. هل يكمن جوهر الحرّيّة في الانطلاق دون حدود. هل تبني الحرّيّة حواجز أم أنّها تزيلها، ينبغي الوقوف قليلا لتحليل المعنى الحقيقي للحرّيّة، أنت بالطبع لا تتضايق من سؤالي كما فعلت رفيقتي في العمل، ذكرت أمامي أنّها فلسفة تافهة، واحتاط فمها من نعت سؤالي الممتاز بألفاظ أكثر وقاحة. أتفترض أن الفراغ هو من يدفعني إلى هذه الفلسفة؟، أنت مثلا ما تعريفك للحرّيّة؟ ليتك تتفضّل عليّ برأيك "

أثيل الفيلسوفة تبعث إليك بتحيّاتها

ملاحظة: أنا أطرح أسئلة غريبة على كل الذين أعرفهم، حتى أنني شرحت لأمي بالأمس ماهية السعادة الحقيقية من وجهة نظر أرسطو، فلم تشجعي على الاسترسال إلا قليلا؛ لأن نظراتها السليطة عقدت لساني قبل أن أبلغ ذروة الشرح، فائلة إنها لا تحبذ وجود فيلسوفة في البيت.

" خليل المتجاهل

ليكن مدرجا لديك، أنني غاضبة منك، لا يقتضي شعوري هذا ارتكابك هفوة، فلا تزعج نفسك بالبحث مطولا عن السبب، فأنا نفسي لا أذكر أنك أتيت ذنبا يدفني إلى الغضب منك، أتصور أنك تجعلنا نحن أصدقاؤك الأوفياء نشتاق إليك كثيرا و نفتقد مقالاتك واهتمامك بانشغالنا. نحن نفتقد حجازتك التي ترشق بها الفاشلين، عباراتك الرشيقة، وأسلوبك العذب في طرح الأحداث، أعمد إلى مخاصمتك كما أنني مستقيلة من وظيفتي الحالية، لست صحفيا لطيفا، وأنا حرة في انتقاء أي نعت أجده يليق بك. أعتقد كذلك أنك لثيم لؤما نادرا، أحسن واثقة أنك تعتبر رسائلي سخيصة ومدعاة للسخرية لا تستحق الرد

أثيل غاضبة و مستقيلة "

" خليلنا اللثيم

قانون الجذب هذا ليس بدعة سخيصة كما كنت أعتقد، لأبدد ملامح الغموض لديك، كنت أنظر إلى مُعتنقيه نظرة استخفاف، وفي الوقت الذي أشرفت فيه على تأكيد نظريتي، اكتشفت أنه في الواقع أشبه أن يكون نظرية ملموسة، كيف ذلك؟ هذا سهل، لقد وردتني منك رسالة ذهنية تحثني فيها على المواصلة، وأن لا أكون جبانة، قررت أن أتمسك بخطي وأحاول تطوير مهاراتي

أثيل تتخلى عن قرار الاستقالة "

" خليل غريب الأطوار

هل تلكأت ذات يوم في اتّخاذ قرار ما؟ هل أحسست ذات يوم بالضيق؟ هل أتفق وشعرت بخوف ليس له تفسير؟ هذا ما أمرّ به في هذه الفترة، وليس شعوري بالخوف ما يقلقني؛ بل جهلي للأسباب، فلو أنني لا أجعلها لكننت قضيت على هذا النوع من الشعور السلبي، هل خفت يوما من خسارة إنسان تحبّه؟ عندما كنت صغيرة كنت أخاف فقدان أمي وأبي، وها قد فقدت أحدهما، ولكنني واجهت الأمر بكل رضا، هذا يعني أن الشعور بالخوف ما هو إلا استهانة بقدرة الإنسان على التحمّل، و تقييم ذاتي بضعف نفوسنا على مجابهة المآسي، لأن الطاقة الفعالة التي حباننا الله بها خليقة بتفتيت أي عقبة، وكما تأتي المأساة يأتي صبرها معها، كل شيء يعتمد

على إرادة الإنسان. الخوف لن يطعننا إلا إذا منحناه نحن سكيناً، ولن يهزنا إلا بسلاحنا. خيلنا الغالي إن معرفة أسباب الخوف تؤدي إلى إنهاكه بسرعة؛ لذلك سأحاول بجهد العثور على الأسباب المفضية إليه

الخوف ليس حلاً "

"عزيزنا خليل

كنت أخشى من أحداث المستقبل جزاء الاسترسال في تفكير غير مجد. أخبرني بالله عليك، هل من المنطقي أن يقلق المرء من لحظة لم تأت بعد، وربما لن يكون جزءاً منها، ربّما لن أكون جزءاً من ذلك المستقبل الذي أنا مرعوبة منه، ربما ذلك الشيء الذي يؤرق راحتي لن يحدث مطلقاً، إنني أقول لنفسي أحياناً كيف سأواجه فاجعة إصابتي بمرض السرطان، وأحياناً أتساءل كيف سأتعامل مع خسارة إنسان أحبّه.

في الماضي الذي تعتبر لحظتي الحاليّة هي مستقبله فكرت بسلبية، أتذكر أنني طرحت أسراباً من المخاوف، ثم منحتها شرعية كاملة كبقائي بدون منزل، أو إصابتي بمرض خطير، وفي هذه اللحظة أجلس لأغرق في ضحك متواصل على تلك المخاوف، لم يحدث شيء مما كنت أتوقّعه.فها أنا ذا بصحة وعافية. كما أن البيت لا يزال منتصباً فوق رأسي، وعلى نقيض ما كنت أفترض، حدثت أمور جيّدة وسيئة، واستطعت مواجهة أي ظرف سيء، إذا فالتفكير في المستقبل البعيد إهدار وإهانة للحاضر، إن كنت ستبكي على إنسان تعتقد من الآن أنه سيترك حياتك؛ فلن يغيّر نحيبك شيء إن ما كان سيذهب حقاً، ستحرم نفسك من الاستمتاع بوقتك برفقته، وهكذا فأنت تضيّع وقتك سدى، والتفكير في الماضي ثم البكاء عليه أشبه بحوار مع شيخ لا يراه أحد باستثنائك أنت. ومتى كانت محاورّة الأشباح تأتي فائدة معينة! ما ذهب قد ذهب، ما الجدوى من البكاء على الأطلال، على أمور لن تعود حتى لو تحسّرنا عليها دهرًا. إن الأموات لا يعودون أبداً، الانشغال بالماضي هو قتل للحاضر وكذلك التفكير بالمستقبل، لسنا نملك إلا الحاضر،اللحظة الآنية ثمينة جداً، لهذا لن أذفّعها مقابل لحظة سقيمة مدفونة في زمن ولى وذهب، حياتنا طريق، الماضي شوطاً قطعناه، العودة إليه يؤدي إلى نهاية مسدودة. المستقبل مقطع غامض لم يجهز بعد "

"مصدر حماسنا خليل

أخيراً أنا أقوم بحزم حقيقي لأجل رحلة الغد، أجبرتني أمي على حزم عدد كبير من المعاطف والجوارب والقلائس والقفازات في حقيبة صغيرة، وكأني سأغيب إلى الأبد، كل ما أنا بحاجة إليه معطف واحد وقميص صوفيّ دافئ، فأنا أصاب بالزكام بسرعة، وهذا ما تخشاه والدتي، و

تفاهم خوفها عندما حدثتها السيدة سميحة بكرم مفرط يبعث على الشلل عن البرد القارس في المناطق الريفية، على أنني أشعر بنوع غريب من الحماس، وكأنني سأطير بدون جناحين كطفلة في السادسة. إنني أتحرّك في الغرفة وكأن بي طاقة خارقة كقيلة بإرسالي إلى الفضاء.

مع أن تلك الرحلة كانت مدرجة بشهر كانون الأول كما سبق وأعلمتك، على أن مزاج السيّدة سميحة غير ثابت مثل الزئبق، كنت قد أخبرتك وأنا في غاية الاستياء أنّها عدلت عن رأيها وصمّمت على سفرنا بشهر كانون الثاني، وكما ترى إننا في منتصفه، ولولا أنني خائفة من تفويت فرصة سقوط الثلوج ورؤية الجبال المكتسية بالبياض لما ألححت عليها. بالكاد انتزعت موافقة والدتي.

حسنا سأمكث نهاية الأسبوع فقط، و أعود إلى العمل يوم الأحد مع رغبتني في المكوث أسبوعا كاملا، ليت السيّد إبراهيم يكون أقلّ تشدّدا فيما يتعلق بالإجازات والعطل.

هناك مفاجأة أخرى سنسافر بالقطار، لم يسبق لي أن نعمت بهذه الفرصة. سأركب القطار لأول مرة، كم هذا رائع يا خليل، أنت سعيد لأجلي أليس كذلك؟، إن ما افتقدت وجودي فقم بفتح النافذة حينها ستراني. لم يتفق أن قدمت لك وصفا لنفسني. حسنا لدي عينان سوداوان عاديتان ، ولدي شعر أسود أيضا و وجه أبيض ولست بذاك الحسن. إنني فتاة على قدر متواضع من الجمال. لا تخبرني أنّك تفضّل إحدى صديقاتك رائعات الجمال عليّ؟ دعني أسمعك تقول ذلك لأقتلك مباشرة،. تستطيع حينها تفضيلهن عليّ و أنت بالقبر، إن ذلك يهون الأمر عليّ. أنا أمزح فقط ، و أكاد لا أستطيع كتم ضحكتي بفعل هذه المزحة الغبية. أتمنى أن لا تعتبر هذا أيضا خروجا عن النص؟.

في القرية لا تتوفر شبكة الإنترنت، ولهذا يستحيل تواصل الأشخاص بواسطة الرسائل. اه لو توفر لدي حمام زاجل لوجدت وسيلة لتثبيت رسالة ورقية في قدمها لأرسل إليك تقريرا حول الأحوال هنالك ، لا شك أنّها تؤلف كتابا بألف صفحة و ليس تقريرا من سبعة أسطر. لا يوجد إلا الدجاج هناك وهو لا ينفع لشيء بالنسبة لي.

طاقم الرحلة مكّون من السيّدة سميحة التي من المؤكّد إطلاقها لرصاص الشجارات على أي شخص يعترض طرق تفكيرها، فهي مهووسة بالمشاكل ثم تصمد بهمة إلى أن تخمد عزيمة خصمها. أعتقد أنّها من أصول إيطالية.

بالإضافة إلى ابنتها الجبانتين، لست أنا من أطلق عليهما هذا اللقب. إنّ مصدره هو والدتهما الكريمة. وأتيل المتلطفة لرؤية المناظر الريفية . لن تستلم رسالة الصباح كالعادة، لأنني سأكون على متن القطار و سنسافر بوقت مبكر.

ملاحظة أُمي لا تكفّ عن الددمة بين أسنانها، أتصوّر أنّها ندمت على موافقتها. كما أنّها حزينّة و كأنني سأذهب إلى القطب الشمالي دون عودة، و نقطة أخرى، بعد عدوتي سأقدّم لك تقريراً مفصلاً عن الوقائع، وأخذت لذلك الغرض مفكرة أدوّن عليها كل شيء

أثيل سعيدة للغاية "

" خيلينا اللامع "

عمت مساءً يا صديقنا الغالي. أجل لقد عدت لتوي، و قبل أن أغيّر ملابسني، عزمّت على الكتابة لك أولاً، مجرد كلمات لا يسعها وصف انبهاري بهذه الرحلة رغم ما مررنا به من صعوبات و عراقيل.هناك شعرت بالأسف لكل إنسان لم تتح له زيارة الريف .إنه مكان ساحر وإلهمي كم هي رائعة رائحة الريف ،أقلد أسلوبك و أهتز من الضحك ،رائحة الأشجار و التراب المبلل و الحيوانات و دخان المواقد التقليدية ،رائحة البساطة و السعادة بأبسط الأشياء.

بجعيتي الكثير لسرده عليك،و لكن هذا ليس بالوقت المناسب، فأُمي وشقيقتاي بانتظارني لأروي لهن تفاصيل الرحلة،رغم أنني مرهقة جداً. حسنا سأستيقظ غدا صباحاً لأسرد عليك التفاصيل.

ملاحظة أُننّباً مذعورة بنزلة برد قويّة قادمة و سعال حاد يسليخ قصباتي الهوائية، وأشعر كذلك أن حرارتي بدأت تجتهد لترفع درجاتها. أرجو أن لا اضطرّ كارهة إلى ملازمة الفراش. أو النوم على أسرة المشفى لمدة أسبوع كما حدث منذ سنتين.

أثيل ترتعد من فرضية إصابتها بالزكام "

"عزيزنا خليل "

إنّها كما ترى الساعة الرابعة، و رغم أن النوم لا يزال يغازل عيني إلا أنني أعرضت عنه كيما أبرّ بوعدي لك، فها أنا قد استيقظت باكراً لأروي لك تفاصيل الرحلة إلى الريف قبل توجّهي إلى العمل.

كنت أودّ أن أنشئ رسالة طويلة مؤلفة من عدد كبير من الصفحات، ولكن عندما فكّرت ملياً، وجدت أن الملل سيصيبك قبل أن تتمّ القراءة، ولهذا سأقسمها إلى مجموعة من الرسائل، تصلك متتابعة، أرجو أن تستمتع بقراءتها

أثيل المكافحة ضد النوم "

"لا أعرف من أين ينبغي عليّ البدء. حسنا لننخذ القطار نقطة البداية الذي تأخر نصف ساعة . كانت هذه تجربة فريدة. فأنا لم يتفق لي السفر بواسطة القطار و على الدوام كانت الحافلة وسيلة النقل الوحيدة التي استعملتها للتنقل، و قلّما أرغمّني الظروف على التنقل إلى

مكان بعيد. صفيره أوحى لي بشعور مبهج، كما أن فصل انتظاره و منظر تدافع الناس كان باعثا على السرور. وعندما ولج ظلمة النفق غمرني شعور فوق الوصف أعادني إلى أيام الطفولة ، ليس هذا بالغريب ، أنا مختلفة فقط، و أحبّ أشياء لا تنجح في إغراء الناس لحبها.

كاد القطار يخلو من أي مكان شاغر نظرا لعدد المسافرين الضخم. أعتقد أن معظمهم عائلات بكامل أفرادها كانوا متوجّهين إلى الريف لذات الغاية معنا، وهي التزلّج و رؤية الثلوج المتساقطة حديثا بكثافة. كان القطار مزدحما للغاية، جلست رفقة السيّدة سميحة و ابنتها.

لا يسعني ذكر اسم السيّدة سميحة دون التطرّق إلى سوق الأسهم والعقليّة التجاريّة المتأصلة فيها ثم الصفقات، فقد حشرت أذنيها بادئ الأمر بين حوار رجلين خلفنا يتحدثان عن صفقة تجارية، و ماهي إلا دقائق حتى جذبتها رفقتها كأنتهما مغناطيس، فحشرت فمها المغرور في إطراء نفسها. والغريب تجاوبهما بصورة حسنة مع تدخّلها الصفيق في شؤونهما الخاصّة. سمعتها تطري نباهتها التجارية فيما انطلقت ابنتها في وصلة طويلة من الضحك المكتوم على أمّهما، لعلمهما بعدد خفيّ حنين التي ترتدّ بهما كل مرة إلى البيت، إنها أفضل تاجرة عرفتها، ويشير حدسي إلى أنها ستكون أكثر النساء ارتيادا لقاعات المحاكم في السنوات القادمة .

لك أن تتخيّل كيف تفاعلت السيّدة سميحة مع عبارات الإطراء التي أطلقها السيدان، وبعد أن تقبّلت المسألة جلت ببصري في المناظر الساحرة الخلابة التي تكتنف الطريق من أحد الجانبين، ما أجمل الطبيعة يا خليل، الأشجار العارية المغطاة بطبقة من الثلج الأفتح ، الحقول الشاسعة الحمراء تكسوها طبقات من البياض الناصع ، و البيوت الريفية المتفرقة بصورة عشوائية، ودخان المدافئ المنسرب من المداخن، البيوت البلاستيكية، البيوت المهجورة المشيدة من الحجارة عديمة الأسقف ، أليست تلك لوحة إبداعية مميزة؟ لقد كان الطريق أحسن ما في الرحلة. لم تتشاجر السيّدة سميحة مع أي أحد على متن القطار، أحمد الله على ذلك، لانهماكها في التباهي بمواهبها الفاتنة.

ملاحظة. أخذت كتابا معي لقراءته على متن القطار. لكن الفرصة لم تسنح لذلك، لأن الطبيعة في الخارج سحرت خيالي ."

"استغرقت الرحلة ثلاث ساعات ونصف، كان الضجيج مرتفعا والحركة مستمرة لا تنقطع، ولغط الأصوات مزعج نوعا ما، لست بالكائن الذي يتحمّل الضوضاء، أميل إلى الهدوء والسكون، وصلنا إلى الريف في حدود الساعة التاسعة، ووقفنا في المحطّة، نتوقّع في أي لحظة قدوم ابنة قريبة زوج السيّدة سميحة، وأثناء ذلك أحسست أن قدمي قد تجمّدتا كليا بسبب البرد القارس و أطرافي ترتعش و أسناني تصطك ، أما سالي وريحان، فقد تحوّل جسر أنفهما

إلى قرمزيّ كما كانت رجفة تسيطر عليهما . فيما راحت السيّدة سميحة تقوم بتفقيع أصابعها وتتأقّف من تأخّر المرأة في المجيء إلى اصطحابنا، ووجهها يتردّي في سحابة غضب مولول أسود. كانت كالقنبلة الموقوتة لا يُمكن بموعده انفجارها، وبعد قليل تشاجرت ابنتها مما اضطرّها إلى فصلهما، أشكّ أن عادة الشجار هذه إرث موصى عليه من الأجداد إلى الأحفاد، وقبل أن ينفلت لسان السيّدة بشتائم لاذعة حضرت المرأة على بغل يكاد ينفق. أجل، لقد كانت تمتطيه وأول سؤال خطر ببالي: هل تصوّرت المرأة أننا سنركب كلنا على ظهر المسكين، بينما اتّسعت مقلتا السيّدة سميحة للصورة الكئيبة التي يظهر عليها ذاك المسكين، وطوحت بنفسها عن ظهره فارتفعت همّته، وانتصبت أذناه قليلا؛ لتخلّصه من الحمل رغم أن المرأة نحيلة.

ملاحظة: لم أر بغلا من قبل

ثم هرولت نحونا غامرة السيّدة سميحة التي لا تزال محملقة بدهشة إلى هيئة البغل بعدد لا منته من القبل المرخّبة، وما لبثت أن غمرتنا بذات العاطفة الجياشة. سائلة عن أحوالنا. موجّهة كلاما إلى قريبتها: إن والدتي تتحرّق شوقا إلى رؤيتك يا سيّدة سميحة، على أن السيّدة سميحة التي انطوت تعابير وجهها على الاشمأز والبرود والعصبية صاحبت فيها: ألم تجدي إلا هذا المخلوق المسكين لتعدّبيه؟

"رافقنا المرأة التي يمتزج نطق اسمها مع المشقّة الصخرية (بارق اللاح نيسام)، هكذا كان

اسمها، واختصارا ينادونها بارق، أليس اسما غريبا؟

بروح فكاهية بلّغتنا أننا سنذهب مشيّا على الأقدام إلى البيت، وأنه لا يبعد إلا عشر دقائق، دقّ عقولنا في البداية أنها مزحة صباحية ثقيلة، ولم تؤكّد سحنتها الجادة إلا أنها واقع مرّ حتمي.

عندما امتطت البغل التعيس مجدّدا ارتخت أذناه، هناك علاقة طردية بين الامتطاء و حالة الأذنين، يبدو أنه يعبر عن شقائه. مشينا في إثرها مثل أسرى المعركة الأخيرة، كنت مشوّشة التفكير ولم ألتقط أحكاما معيّنة بيد أنه في صممي كنت أستشعر متعة حبيسة عظيمة. ولا يبدو أن السيّدة وابنتها كانتا تشاركانني الرأي، فالسيّدة ذهلت من الصدمة، ولهذا كانت بين والفنية والأخرى تزفر كأنّها تئن. مدمدمة إذا ما تعثّرت قدماها بحجارة، أو لطّخها الطين لاعنة القريبة وابنتها متحجّرة القلب كما سبق ووصفتها.

ورأيت دموع سالي الصغيرة الحساسة تنهمر على وجنتيها المورّدتين، أما ريحان فقد تيبّست مشاعرها من الصدمة القويّة. أراهن أنّهما كانتا تتوقّعان مفاجآت سارة، ربّما زرعتا في رأسيهما صورا لجبال سويسرا، ومناظرها البديعة، فنكبنا بمنظر بغل على وشك الموت، لقد اضمحلّت

حماستهما وتاقتا إلى العودة إلى المدينة.

دعني أصف لك الطريق إلى البيت، كان شديد الالتواء و كثير المنعطفات ،عبارة عن منحدرات تارة نزلها وتارة نصعدها، تلاءمت خطواتنا مع خطى البغل البطيء ، اختارت بارق أن لا تصمت وتعرفنا على كل مكان نمر عليه، فهذه المقبرة المحاطة بسور طويل من الطوب وهاهي بيوت القرية الموزعة على جانبي الطريق ، المتناثرة المسيجة بعدد من الأشجار والحجارة المكومة ، أشجار الصنوبر الشبيهة بالمظلات المفتوحة و أشجار السرو الشبيهة بالمظلات المغلقة وأشجار الزيتون التي كست أغصانها المتهدلة ، طبقة كثيفة من الثلوج أرغمتها على الانحناء لتحيتنا وبعض الأشجار التي جردها الشتاء من أوراقها كشجرة التين و التوت الأسود والصفصاف، وهاهي مدرسة القرية التي اكتشفت فيما بعد أنها بعيدة للغاية وأن الأطفال التعساء يذهبون إليها سيراً على الأقدام صيفاً و شتاءً. ومررنا بجانب واد عميق لم أتجرأ على الاقتراب من حافته و حانوت عديم النافذة صغير بحجم قن الدجاج ، هناك بيت مميز لشيخ مسن ، قالت بارق أنه قاضي القرية وهو الذي يفصل الخلافات بطريقة ودية، ولهذا هم لا يلجئون إلى محاكم الدولة، ورأينا من بعيد سلسلة من الجبال مليئة بصفوف من أشجار الأرز و البلوط مثل فرق عسكرية منظملة بزيمها الأبيض، تظهر قممها شامخة مكسوة بالثلوج ، بدت ساحرة للغاية وهي تعانق الضباب المتكاثف، وكانت تغلف السماء غيوم داكنة، وأراض ممتدة تتخللها أثلام الحرث، وبيادر تتوسطها أعمدة خشبية لغرض الدرس في موسم الحصاد وحظائر الحيوانات تنتصب على مسافة قريبة من البيوت ، و أكواخ لحفظ الحطب اليابس لغرض التدفئة.

كان أهل القرية يستوقفوننا لأجل واجب التعارف المقدس، عيونهم تنم عن تواضع وجوهم تشي بسداجة وطيبة وطريقة كلامهم عن بساطة، رجالها تبوح وجوهم بالشدة والهيبة بشواربهم الكثة، يرتدون معاطف تقليدية و يعتمرون قلانس تنزلق إلى الأذن وأيديهم خشنة من تكسير الحطب والفلاحة لا تكسوها القفازات و ينتعلون جزمات تمتد إلى الركب دست سراويلهم داخلها، قابلناهم في طريقهم للجبال في مجموعات من أجل صيد الأرانب و جلب الحطب على بغالهم الهزيلة يحملون فؤوسا وعصيا طويلة، و نساؤها يتلفعن بشيلان سميكة مصنوعة باليد وعلى رؤوسهن أغطية تستر شعورهن، و زنانير ثقيلة فضية تشدّ أوساطهن، لوحن بأياديهن للترحيب بنا، علمن بقدمونا، بل كل أهل القرية علموا، وأطفالها يتراشقون بكرات الثلج ويجرون خلف الدجاج ويلعبون و يصنعون رجال الثلج ، و جذبهم منظرنا الغريب وشعورنا المكشوفة كأننا مهرجات للعرض فتقافزوا خلفنا و ضحكوا و تحدثوا .

وكلمًا أوقفنا شخص ما، تنزل بارق عن بغلها، لتشرف بنفسها على عملية التقديم

والتعارف. إن أسئلتهم الفضوليّة المتلاحقة تعتنق عقلك مثل تحقيق قسم الشرطة المختصّ في قضيّة سرقة أو جريمة قتل خطيرة: من أين أنتن، كم أعماركن، كم ستقمن هنا، هل حقا تتقرّفن من خبز الشعير، اه لهذا أنتن على هذه الهيئة. إنكن تشبهن أعواد الكبريت، هل أرهقتكن الرحلة؟ كأننا قادمون من كوكب آخر.

لا، إن السيّدة سميحة لن تمرّر أبدا هذا الكابوس الأسود المزعج التي ألقتها في جوفه ابنة العجوز إبراهيم الكبيرة. كانت هي من اقترحت عليها قبول دعوة العجوز و ابنتها وطرق مسامعي همهمة خافتة تشتمهم فيها جميعا كطائفة قبلية تقليدية همجية. وكان كلما فرغ جمع منهم من استجوابه استأنفنا المشي. والحمم الملتهبه تنفث من وجوه السيّدة وريحان. رحنا ننفخ في أيادينا من شدة البرد و نتلمس وجوهنا و نغطي أنفسنا .

(ماما، إن قدمي تؤلمانني، متى سنصل؟) اشتكت سالي

(هل ترين أنني في وضع أحسن منك! هل أحمل أنا على حصان مُسرح! لقد قالت عشر دقائق وهاهي قد مرّت نصف ساعة، ولا يبدو أنّها تنوي الوصول. واصلي السير و أنت صامتة وإلا بترتهما و تركت من دونهما، اسكتوا أيها الأطفال المزعجون.)

(كم هو خفيف دمك يا قريبي) قالت بارق ضاحكة (إنني سعيدة لزيارتك. سنصل قريبا أيتها الكسولة، بيتنا خلف تلك التلة).

فأجابتها السيّدة حانقة، تستشيط غيظا (طبعاً يحقّ لك نعتنا بالكسالي، طالما أنت تعريدين على هذا البائس قليل الحظ).

ولم تزد على أن ضحكت وردّت (لو أنه يوافق لجعلتك تأخذين مكاني يا قريبي). قالت سميحة هازئة (شكرا، لم أبلغ هذا الدرك الوضيع من السفالة بعد. أراهن أنه لو نطق لطالب بشنقك).

أما أنا فأقسم أنه رغم تيبّس رجلي من البرد، كنت أضحك بصمت حتى لا أثير حفيظة السيّدة سميحة، إنّ في ذلك لذة عظيمة.

هل تفترض أنني مجنونة لاستمتاعي بهذا البؤس. فقط شارك فيه وسترى كم هو مسلّ. شريطة أن ترافقك السيّدة سميحة و بناتها "

"كل هذا لا يساوي شيء، مقارنة بما كان ينتظرنا. وصلنا بعد أربعين دقيقة إلى البيت، لقد تمدّدت العشر دقائق بفعل السحر. كان بيتنا حجرياّ صغيرا ذا باب خشبي و عضائد و نوافذ خشبية. اكتشفت فيما بعد أنه مؤلّف من غرفتين، و ردهة كبيرة، في زاويتها موقد حجري ذو فوهة ضيقة أسود من السخام، وطاولة خشبية ضخمة مترنحة القوائم عليها أوان خزفية

قديمة .يتصل البيت بفناء مستطيل واسع تكسو أحد جدرانه أغصان دالية العنب العارية وآخر أغصان اللبلاب .في أحد الزوايا برميل ماء كبير ، و صف من أحواض أزهار على طول الحائط ودلاء مملوءة وكومة من الحجارة والأخشاب، وأغراض استغنت عنها العائلة، وسطل به أحذية قديمة ، و معول ورفش بمقبض خشبي .

بعد أن أودعت بارق البغل الإسطبل. عادت بسرعة ثم دلفنا إلى الداخل، وهنا كانت النكبة الحقيقية، فقد داهمتنا سحابة ثقيلة من الدخان المتكاثف. وكدنا نختنق ولم أسمع إلا سعال العجوز، ولم يسمح لي الدخان برؤيتها بوضوح، فقفلنا عائدين إلى الخارج بسرعة، وكالعادة ارتفع صوت السيّدة سميحة في تدمر صريح

(إنّ هذا كثير، هذا انتقام منّا، أو ربما عقاب، هل ارتكبنا جريمة من الدرجة الأولى ليُرَج بنا في هذا السجن سيء الأحوال؟ لهرب أيتها البنات)

فما كان مني إلا أن ضحكت بصخب على نكتتها الطريفة، وأطلت بارق برأسها من النافذة التي شرعت مصراعها لينفذ الدخان خارجا، تناشدنا الصبر إلى حين (لندعو الله أن لا يكون الحين هذا كالمسافة بين المحطّة والبيت) قالت سميحة ساخرة. غير مصدّقة (اشرحي لنا الذي يحصل بالضبط، ثم استدعي رجال الإطفاء).

(إن هذا الأمر عادي، يحدث كل يوم) صاحت بارق من الداخل بلهجة تنم عن الاستمتاع، الممتزج بقبول الأحداث الجارية(عادي؟) استنكرت السيّدة سميحة واندهشت من توظيف مصطلحات مثل هذه لوضع فضوي (ولولن يا بنات).

عندما زالت الغمامة دلفنا مجددا بدعوة أمنة من بارق بخطى حذرة من مفاجآت أخرى كأنه بيت ملغم، كانت العجوز المسماة عربسة، امرأة قصيرة، عيناها متقاربتان خضراوان مرحتان ، وكانتا محمرّتين جزاء الدخان. ترفع طرف فستانها تحت إبطها، تستعدّ للانقضاض علينا من أجل أداء طقوس التقبيل والترحيب بضمير نزيه، موافقة ابنتها في النزعة الترحيبية الباسلة، كانت الصدمة الأولى في عيون السيّدة سميحة وابنتها قد تبدّدت وحلّ محلها شعور بالفراغ. ثم التخوّف من جحيم الآتي، ومنعهنّ الاحتياط من انهيار السقف على رؤوسهن ثم الذعر من موتهنّ تحت الأنقاض من الاستمتاع باللحظة الساحرة، لحظة دخول بيت مبنيّ على الطراز الريفي القديم من الحجارة والملاط والصلصال .

بعد أن فرغت من تقبيلنا والترحيب بنا، أجلسنا على وسائد مريحة قرب الموقد الذي تتوسّطه أنية غريبة مصنوعة من الفخّار، طهت عليها للتو أربعة من الخبز ومن الشعير و أسندتها في صفّ متتابع مرصوص إلى الحائط. وكانت الردهة تعبق برائحة حساء العدس. في

الواقع إنَّها رائحة زكيَّة. وخرج من أحد الغرف طفل صغير لم يتجاوز السابعة و عيناه الحمراوان تدمعان وابتسامة قانعة تعتنق شفثيه الصغيرتين، قدَّمته لنا بارق باعتزاز (هذا ابني رعد) أسميته على اسم أبيه رحمة الله عليه

أختم رسالتي هذه مخبرة إيَّاك أن الطفل لم يروالده أبدا "

"مرت الساعة الأولى في استجواب يبلغ طوله سور الصين العظيم، و جرى حديث عن العائلة و زوج السيِّدة سميحة والعيش في الريف والرغبة في زيارة المدينة ومشاكل الزراعة وموسم الحرث والحصاد وموت الحيوانات بسبب البرد. و بابتسامة تباهت بضجر الطبيب القادم من المدينة الناجم عن انعدام المرضى ثم رحيله، إذ أن العلاج يعتمد بالدرجة الأولى على الأعشاب، وبشرح معمق شحنت رؤوسنا التي اكتشفت أنها جاهلة رغم المدارس و العلوم باستعمالات كل عشبة، للفضاء على الديدان المعوية لدى الأطفال، الثوم و الشيح و بذور القرعة، للتخلص من سموم الجسم و عسر الهضم و آلام البطن و الإسهال، ورق الغار أو اكليل الجبل، لخفض درجة حرارة الجسم المرتفعة، الجعدة، للسعال و الكحة، لحاء الدردار و الزعتر و الزنجبيل، لديها لكل علة دواء، حتى الكسور تجبر في البيت. و لم تعتنقنا السيِّدة عريسة من دوامة الأسئلة و عرض المعارف إلا بعد تدمر رعد الصغير معلنا أنه جائع بلكنة ريفيَّة مميَّزة.

لقد كان أوَّل عهدهما بمعرفة السيِّدة سميحة، رغم أنهما قريبتا زوجها. وبينما انكمشت الفتاتان قريبا من أمَّهما متجيشَّتين بحرصهما المتيقظ، تبرَّر ذات الأسباب الأولى نفورهما من المكان، خوفا من كارثة مفاجئة محتملة، وضعت بارق أمامنا منضدة قصيرة القوائم مستديرة عليها خبزة من الشعير و طبقا من العدس. تسألني إن ما كان لذيذا؟. إنه أروع ما تذوقت في حياتي. كان مطهواً بشكل جيِّد تتوسَّم فيه طعما مميَّزا، أراهن أن السيِّدة عريسة أحسن طاهية قابلتها. حسنا، بما أننا خصَّصنا يومين فقط للرحلة، عرضت علينا بارق جولة في الأنحاء، ولولا أن سالي و ربحان خشيتا من واقعة عرضيَّة أخرى تودي بسلامتهما إلى عواقب وخيمة، لاستنكفتا الخروج، ونفسه السبب الذي يمنعهما من الخروج يخيفهما من البقاء .

إنَّهما تخافان من الحيوانات باستثناء القطط، كانت المحطَّة التمهيديَّة هي الإسطبل، هل لك أن تتخيَّل أن هاتين المرأتين تديران مزرعة لوحيدهما دون الاعتماد على رجل، إن هذا مذهل أليس كذلك؟. من قال إنَّ النساء ضعيفات و مدلَّلات، إن عريسة و ابنتها تقبران هذا المفهوم الخاطئ.

حسنا، في الإسطبل مجموعة من الأبقار الملونة بالأبيض و البنيِّ الداكن والعجول الصغيرة، إنَّها فائقة الجمال، تمنيت لو أستطيع اصطحاب ذاك العجل الأبيض حديث الوليدة، وأيضا

يوجد خراف صغيرة ومواشي و سمعت ثغاءها لأول مرة بالإضافة إلى البغل الشقيّ، وحمار أعجف أسوأ منه حظًا، ليس لديهما حصان، كذلك توجد ثلاث من الماعز إحداها تملك قرنين عدوانيين وتعلق في أعناقها أجراس، رأيت المحراث الخشبي الذي يستعمل لحراثة الأرض ، مقابل الإسطبل قن للدجاج، وآخر للبطّ والإوز، وبحوزتهم أيضا مزجر كلب أسود مقعي ليس مربوطا بسلاسل لهذا أثار الهلع في قلوبنا قبل أن نتبيّن أنه وديع وداعة الخراف.

ورغم محاولات بارق لتهدئة روع السيدة سميحة وابنتها وإقناعهنّ أنّه كلب مسالم، إلا أنّه لم يكن بمقدورهن مضغ هذه اللقمة العصيّة وفاءً لنظريتهن المكتسبة وليدة الحوادث المفجعة. واستنسخن رأيا مخالفا، لا سيما أن بارق تقلّل من شأن كل شيء ابتداء من الوقت، ألم تقل أنّها عشر دقائق ثم تبين أنّها أربعون دقيقة، لقد تلاشت المصادقية من هناك هل تخطط الآن لزيارة الريف؟، لن نندم أبدا أعدك "

"إنّها الخامسة والنصف وأنا لم أصل حتى إلى منتصف السرد بعد أن عزفتنا بارق على حيواناتها الأليفة، التي استلطفتها كثيرا ولا يسعني قول الشيء ذاته عن الفتاتين التي كانت نظراتهما تقول أنّهما فزعتان، دعتنا والشعور بالكبرياء يغمر تقاطيع وجهها إلى مشاهدة كوخ حجري ذي باب منخفض صغير ، يحدث صوتا مزعجا عند انفتاحه، وبحركة غريبة خشّبت أبصارنا، ولم ندرك ما الذي يحدث إلا بعد انقضاء فترة من الزمن، حسنا، لقد ارتكزت بارق على كفيّ يديها وركبتيها بوضعية طفل يحبو ثم ولجت إلى الداخل برشاقة تدعو إلى الانهيار، وبعد أن عدلت وضعها في ذاك الكوخ أطلّت علينا برأسها مشيرة لنا بإلقاء نظره من فتحة في سقف الكوخ حتى تشرح لنا عملية مهمّة. نفذنا طلبها وأوّل من اعتلى السلم الخشبي هي السيّدة سميحة المشدوهة، مثل من تلقى صفة نقذ على إثرها الأوامر، وفتحت الفتحة المغلقة بإحكام ثم صاحت ساخطة تغمرها الحيرة (برقة، ماذا هناك لترينا، إن الرائحة كريهة).

(بارق وليس برقة) أجابت بارق بنبرة مستمتعة ، يشوبها السرور بكوخها (اعذري زلّة لساني وأسرع بالشرح، إنّ البنات ينتظرن أدوارهن ثم إن البرد قارس، نريد العودة إلى البيت) ردّت السيّدة سميحة بلهجة تنمّ عن نفاذ الصبر (أترين هذه الأكياس؟) سمعت بارق تقول بافتخار، كأنّه مفخرة نادرة تتوارثها العائلة (إننا ندّخر فيها روث الحيوانات المجفّف، لغرض الطهو عليه و التدفئة) و عندها انهارت معنويات السيّدة سميحة و جال في رأسها أفكار مشمئزة فسألتهما على الفور (هل تقصدين أن والدتك طهت ذاك الخبز على هذا الروث المجفّف).

(نعم، وهو مصدر ذلك الدخان الكثيف) وعندما بلغت القضية مسامع سالي وريحان تبادلنا نظرات التقرف الصامت وارتجف وجهاهما الجامدان، أما والدتهما؛ فقد استدارت خائبة وقد أفقدتها المعرفة القدرة على التعبير، فغاصت في غفوة صمت طويل كصنم حجري، وسرعان ما استفاقت على صوت بارق يدعوها إلى التنحي جانبا، لنلقي نحن بنات المدينة الجاهلات بشؤون الريف المتعطشات لتزويد رؤوسنا الطرية المدللة نظرة تبصرية، لكنها خلافا على المتوقع أغلقت الفتحة متجهمة السحنة كأنها سحابة ثم نزلت بخفة وتوجهت إلى الباب بعد أن التقطت قطعة خشبية ووقفت عنده تستعر غضبا قائلة بصوت عميق (اخرجي أيتها الخسيصة) ثم التفتت إلى ابنتها التي لم يخب ظنهما في مشاهدة جبال سويسرا فحسب، بل صدمتا أكثر مما تتحلمان (توقفا عن التجشؤ أيتها البنات، إنكما تثيران اشمئزازي، وأنت يا أثيل توقفي عن الضحك، لقد أكلت معنا، سأنتقم منها الآن، اخرجي يا برقة"

(بارق وليس برقة) أجابت بارق متأهبة للخروج.

ملاحظة، لم أضحك في حياتي كما ضحكت ذلك اليوم."

"انسلخت الساعات ونحن محبوبسون بين جدران البيت، فاقترحت السيدة عريسة علينا الصعود إلى الجبل الواقع خلف البيت الصغير. لم تستحسن السيدة سميحة الفكرة مطلقا، بل أبدت عبوسا متجهما رفقة ابنتها قائلة بصوت غليظ (أريها السها وتريني القمر)، ولم أدرك أنني وجدت ضالتي المنشودة في هذا الاقتراح الرائع إلا عندما بادرت بارق إلى مدح نشوة الوصول الى ذروة الجبل. وفي الحقيقة، كانت نفسي تهفو لمثل هذه المغامرة فائقة التشويق، و نتيجة جهلي بالمناطق الريفية تلهفت إلى المسألة أكثر مما ينبغي فما كان من السيدة سميحة إلا أن حدتني بنظرات محذرة كونها امرأة عقلانية، مبدية فتورا جافا إزاء حماسي المنجد بقلّة المعرفة .

لقد ركزت تفكيري على القمة ساهية عن الصعوبات التي ستعترض طريقي. وهكذا سددت أذني مغرورة عن تنبيهات السيدة سميحة، وأدرت ظهري لشحوب وجه ابنتها و انتقادها الصريح للفكرة ثم أجمعت رأبي على خوض غمار المخاطرة. كانت الريح عاتية و الثلوج تتساقط. أما البرد فكان يجتاح جسدي في موجات قارسة. لم أخرج لوحدي من البيت، فقد جنّدت بارق ابنا الصغير ذا الأعوام القليلة ، لمرافقتي تحسبا لأي طارئ؛ كالكلاب المشردة أو الثعالب المكارة، وليس من التواضع تجاهل الذئب الشرسة، بعد أن دثرته بطبقة ثخينة من الألبسة، الأمر الذي فاقم استيائه

هو بدوره جمع عددا من أصدقائه الذين يماثلونه سنّا، جمع حوالي عشرة أطفال تباينت

أعمارهم . ولم أعرف أنني في أياد صغيرة أمينة، إلا عندما أقدمت بدوافع صادقة على قرص وجنتين لحيمتين مسجّلتين باسم صبيّ بدين، فقد افتعلوا جميعاً ضجّة صاخبة، واستنكر المعنيّ بالقرص فعليّ قائلاً بصدر منتفخ: إنه رجل كبير، وليس من اللائق التعامل معه كطفل يمصّ زجاجة الحليب، أليس هذا مسلّياً؟، وقال معقّباً أنّ التنازل لمصافحة النساء أمر فيه نظر، وبينما أنا أصعد الجبل الشاهق استدرت لأرى عيون السيّدة سميحة تغشاها نظرة قلقلة ملوّحة لي بيدها موصية إياي باستعمال إشارات بيدها بعدم التآخرو توخّي الحذر والحيطه، لقد تركت لي حرّية التصرف على مريض واضح، مع انتقائها عبارات معيّنة لغاية تحذيري "لا تلوميني إن ما أصابك مكروه بالخارج. إنك عنيدة كبغل ويصعب التحكّم بزواتك في الفترة الأخيرة، اذهبي، وإذا سمعتك تشتكين من شيء فسوف أسدّ أذني "إنها تدعيّ الشدّة و عدم الاكتراث، لكنّها تعلق عليّ مثل أمّي، إلهي كم أحبّها. لا تنزعج لأنّي أستعمل كلمتك باستمرار، إلهي كم تعجبني .

"وجهت حراب تركيزي نحو القمّة، على أن ذلك ليس كافياً لتبلغها بأمان، استطعت أن أبلي حسناً في البداية قبل أن تهتمّ الطبيعة بإثبات العكس لي. لم أفترض أن المسألة بهذه الصعوبة، إلا عندما تسرّب البرد إلى عظامي فأحسست أنني أتجمّد وقاست رجلاي ألماً مبرّحاً، كما أن الأشقياء الصغار تدمروا بدمدمات خفيضة متبادلة فيما بينهم من تلكئي في السير كسلاحف، كانت تعوزهم الكياسة لمجاراة خطوات صبيّة لطيفة ناعمة مثلي، وهكذا ألقت نفسي في مأزق حقيقيّ نتيجة إفراطيّ في الثقة بقدراتي على التأقلم مع الجوفي الخارج. كنّا كلّما تقدّمنا أكثر، شعرت ببرودة الطقس تتضاعف، لكن كان لا يزال يحلو لي منح المغامرة طابع اللدّة، رغم الذي برّحتني إياه الطبيعة القاسية من تجمّد وارتجاف، أتعرف الذي حدث فيما بعد؟

كأنّ الحظّ السيئ انتظر هذه اللحظة بالذات ليلتف حولي، لقد وقعت بسبب تعثر قدمي بحجارة متدارية تحت طبقة كثيفة من الثلوج، وضحك هؤلاء الأطفال بصخب، ولست متأكّدة من المدّة الزمنيّة التي بقيت خلالها منبطحة على الأرض. ولتزداد الأمور سوءاً تمرّق جلد إحدى ركبتي، إنّها في هذه اللحظة تؤلمني كما أنّها مصطبغة باللون البنفسجيّ والأحمر تتخلّلها خطوط برتقاليّة. لم أتحوّل إلى حمقاء فأخبر أمّي عن الحادث، لأنّها ستلقي باللائمة على السيّدة سميحة، ثم اعتبارها مرافقة فاشلة و مراقبة سيئة، ولن تتمهّل وهي في ذروة الغضب القسم بأغلظ الأيمان بعدم السماح لي برحلة أخرى.

أكافح قدر المستطاع للوقوف مستقيمة أمامها، وليس من السهل التظاهر بانعدام الألم في حين أنني أتألّم بشدّة، كلّه في سبيل العودة إلى هناك ذات يوم. حسناً، لأعد إلى النقطة الأخيرة،

لقد تأخر الوقت وبعد قليل يتعيّن علي الاستعداد للتوجّه الى العمل، طبعاً لا يتمتّع هؤلاء الجراء الصغار بأي محاسن مترقّعة تحدوهم إلى إغلاق أفواههم ودسّ ضحكاتهم في صدورهم الصغيرة، لقد طفقوا يهمهمون تحت أيديهم المضغوطة على شفاههم، لإيمانهم المتين أن فتاة في السادسة والعشرين ينبغي أن تتماسك وتتفادى الوقوع تحت أي ظرف. واستطعت تمييز صوت رعد الصغير ينعتني بالهرمة، فاحمرّت وجنتاي خجلاً، وبتلك الركبة المنسلخة قرّرت مواصلة رحلتي، رغم التشدّد الذي دار حولي، والآراء الهازئة التي استهدفت عزيمة بقطرة ذكورية مستهترة (الرجال جميعاً متشابهون مناهضون لهمة النساء) ثم خطط الطبيعة الغامضة الموجّهة ضدي، إلا أنني واصلت بأعصاب من حديد وقلب من جليد. أجل، حتى بلغت القمة، لقد طفح قلبي في تلك اللحظة بأجود أنواع الفرح، لتجاهلي جروح ركبة عاجزة تنثني عن عزمها في بلوغ الآمال البعيدة.

ملاحظة، إذا اتّفق وخانك الحظ ذات يوم ووقعت على الأرض أثناء صعودك الجبل فانهض بسرعة مبتسماً، وتظاهر بعدم حدوث شيء، كيما تتجنب جعل نفسك عرضاً مسلياً لزمرة من الأشقياء الصغار الشامتين، انهض دائماً، ثم اضرب بأسباب الاستسلام عرض الحائط، وواصل السير حتى لو كلفك ذلك زحفاً عسيراً، لأن نقطة النهوض ما هي إلا وصول للقمة.

"في ليلة الجمعة، وبينما نحن نتناول عصيدة شهية حضّرتها السيّدة عريسة من طحين وزبدة البقر مضيضة لها كمية مغالية من السكر، انقطعت الكهرباء، فلقّنتنا بارق بعض التعليمات الصارمة (لا تتحركن من أماكنكن، إن الأمر طبيعي، تنقطع الكهرباء في اليوم مرتين دونما مقدمات) و لأول مرة منذ نزلنا ضيوفاً عند المرأة وابنتها لم أسمع السيّدة سميحة تستدعي سخطها، وبينما أنا أستدعي تعجّبي من هدوئها، أجهزت الرياح على مصدر التدفئة [نار الموقد] ، شعار هذا البيت (المصائب تأتي مرة واحدة وبارق هي الناطق الرسمي باسم تقزيم المصائب وإعطائها لقب طبيعي).

شعرت بالأسف حيالهما، ما يصيبني بالاستغراب، كونهما لا تتذمّران من أي شيء يحدث، بل إنهما تقفان موقفاً بارداً مع كل الوقائع، وإن كانتا تشعران بأي امتعاض داخلي فهما لا تسرّبان منه قيد أنملة، وإن كان الطفل الصغير رعد يلزم نفسه بإخفاء حنقه الطفولي، فمرد ذلك إلى أن داخله خال من أي شعور بالنقص، لقد تعودوا على هذا النوع الصعب من الحياة، بوحى مستفيض من القناعة الصامدة، وقلوبهم تنبض نضالاً وكفاحاً، وإن ما انعكس شيء على وجوههم، فهي مقاومة بأسلة ورضا بالموجود، توضح لي أن السيّدة سميحة و الفتاتين لم يقنعن بالتأقلم مع الوضع فحسب، بل أخذن في الشعور بمعاناة السيّدتين، فتخلّين عن

وصلات التدمر والسخط. على قدر ما كانت الظروف محطمة، على قدر ما كانت العزيمة صلبة صامدة، هكذا برزت لهن النتيجة الشامخة، من نافذة التعاطف والتأزر مع مآسي امرأتين وحيدتين كأهون صور التضامن.

بقينا في الظلام إلى أن أضاء الردهة نور شمعة وُضعت في منتصف الطاولة، وهكذا عمدت العجوز إلى تحويل المسائل المعتمة إلى نكت لم تجلب إلا ابتسامات واهنة ، خفيفة لأفواه تتصل صلة عضوية بقلوب تنوء تحت ثقل الشفقة، هدها فهم الحقيقة المرة. وطفرت دموع حزينة من عيون سالي الرقيقة، فأسرعت أمها بخفة لسانها المستفز تقوم الموقف قائلة بفكاهة مرحة أنّ ابنتها وليدة بيئة تعشق النوم المبكر، وعلى وجه السرعة أرسلتها متثابرة، وهي ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدمها إلى الغرفة المقابلة لتنام، ثم تابعت بانتقاد لاذع مجهول الدوافع موجه إلى ابنتها الخمولة ربحان كنوع من إضفاء المرح، وعدم الاكتراث على الجوّ الغائم بسحاب البؤس قائلة.

"إنك لتشهين فرخا مبللا، اذهبي في إثر أختك، لا تنفعان لشيء" وهكذا انسحبت الفتاة المتفهمة على رؤوس أصابعها لتوافي أختها، اكتشفنا بعد أن دار بيننا حديث قصير، أنّ الأمّ فقدت ثلاثة أولاد و صهرا وفقدت الابنة ثلاثة إخوة و زوجا في يوم واحد، وحادث واحد جزاء انفجار لغم مطمور، ورغم أن السيّدة سميحة تشاركهما القرابة، لم تطّلع على هذه الحقائق مطلقا، واعتمل في صدرها شعور مرير، يحيط بوجهها حزن سحيق. أما أنا ،فشعرت بغصّة تجتاح كياني. هذا محزن حقا، إن ما يشعرك بالدهشة ليس مصائبهما، بل تجلدهما حيال هذه المآسي المتتابعة الشاقّة، إن شعارهما في الحياة (الحزن لا يغيّر شيء، لن يعيد الموتى من القبور، ولن يصلح المحن، فلماذا نحزن؟".

أجل ، لقد أدركتا بفطنة رشيدة أن الأحزان لا تعيد الذين غادروا الدنيا دون عودة، لهذا مضتا قدما متحلّيتين بأنواع الشجاعة، متجاهلتين أعتى أصناف الظروف القاسية، الحزن لن يعيد الأمور إلى نصابها، هو فقط يخدّر العقل بمخدّر لعب دور الضحية، وبدل ذلك تفنيان حياتهما في تجهيز طفل صغير للحياة، هو عزاؤهما، أجل هناك تعويض مستمر لكل خسارة إن سخّرنا وقتنا للبحث عنه بدل البكاء على ما ذهب.

ملاحظة، سأتمسك بكل تلك الذكريات لأنّها جميلة، و أتجاهل ذكرى واحدة وهي سقوطي على الأرض المكتسية بالبياض، لأنّها تجلب لي قبيلة كاملة من الخجل "

"يوم السبت لم يحدث الكثير، فقد تطوّعنا أربعتنا لمساعدة العجوز وابنتها، وتزوّجتها في أرجاء القرية، ثم دعتنا بعض العجائز صاحبات البيوت المجاورة المنفصلة إلى شرب الشاي

وتبادل الأحاديث التافهة، هكذا أطلقت عليها سالي الصغيرة، قبل أن تعيد النظر في نعمتها، حيث انهالت عليها يد أمها الواقعة تحت رحمة عشق اللغو السائغ، كان استهتارا بذينا بعقلها المالي، حيث أخذت تتحدّث دون انقطاع عن المشاريع والتجارة وختمت الجولة بإثارة شجار مع صاحب الدكان الصغير، ألصقت به تهمة الحسد لعدم تحمّسه لتشجيعها على فتح مطعم بالقرية. وأصارحك أن فكرة زيارة أخرى في فصل الربيع أو الصيف قد أغرتني من الآن، فإن كان شتاء الريف بهذه الروعة فكيف هو الربيع هناك إذا؟! إن ذلك يعتمد على احتفاظ سالي وريحان بأفواههما مغلقة. كما يعتمد على صمود جسدي أمام جيوش الزكام و السعال وحشرجة الأصوات .

"مصدر إلهامنا خليل

دعني أشرح لك، وأنا أتكبد أصناف متنوعة من التوبيخ عن أسباب تخلفي عن مراسلتك لمدة أسبوع كامل

لسوء طالعي حدث ما كنت أخشاه، لم يصمد جسدي الخائن أمام مكر الزكام، إذ تسبّبت نزهي صعودا إلى الجبل بنزلة برد لم أعهد لها من قبل، وتناسقت الظنون المترصّدة بعقل أُمي مع اعترافات سالي وشقيقتها، تديناني بفورة راعدة بصعودي جبلا شاهقا رفقة زمرة من الأطفال الصغار، بينما كان البرد القارس يلفّ الريف، وأجلّت على قدر ما استطاعت إطلاق العنان للوم و التوبيخ، فأنا وللأسف دخلت المشفى ومكنت أربعة أيام وسط جلبة من الحرارة والسعال، ظننت أنني لن أخرج حية من أنياب الوعكة .كدت أموت ، لولا يد الله الرحيمة التي أمّدت الحكمة الرشيدة ليد الطبيب المشرف. و كاد العجوز إبراهيم أن يحجز له سريرا في المشفى أيضا لإصابته بنوبة غياب عصبية لإحدى الموظّفات المريضات، ولحسن الحظ نزلت كل القنابل على رأس ابنته المأخوذة بحبّ تقديم النصائح والسيدة سميحة الرقيبة الفاشلة، لست مخلوقا شريرا. لن تطردا من عملهما، سيطالهما بعض التوبيخ و القصف، أما أنا ،فلست الآن أعاني إلا من علة واحدة ألا وهي توبيخ أُمي و قسمها المتكرّر بعدم الانخراط، بأي رحلة إلى أي مكان صيفا أو شتاءً ، لم أكن حكيمة حينما أخذت بنصيحة غروري بخوض تلك المخاطرة، بدت وردية للغاية، بينما اسودّ لونها و أنا أئن في المشفى.

لك أن تتخيّل مقدار بؤسي لإصدار أُمي حكمها الجائر بحرمانني، و للأبد من زيارة ممتعة إلى الريف أين يتصادق البشر والحيوانات، وأنا التي أمنت جدلة بعودتي إلى هناك في فصل الربيع، إن أُمي العظيمة قد وقّعت ذلك القرار، ولا سبيل إلى إلغائه إلا بمعجزة تتكرّم علي بليونتها.

"عزيزنا الرائع خليل

طيّب القلب، صاحب المواهب الرنانة ، غدا السابع عشر من فبراير، غدا هي مناسبة عظيمة، يجب عدم تفويتها دون ضجة صاخبة ، غدا هو عيد ميلاد أروع انسان في الدنيا. صديقنا الغالي نادر المثل خليل. لا نستطيع أن نوقر كعكة كبيرة وزجاجات العصير ولا شيء من هذا القبيل ولا بالونات بألوان خضراء وصفراء، وبرتقالية ولا جوا خرافيا من النوع الذي تعودت عليه، في مثل هذا اليوم أتيت إلى الدنيا. ولست أملك هدية أقدمها إليك إلا عبارة واحدة "إنك أروع صديق نعمنا به. وإن صداقتك لنا لمكسب حقيقي و غنيمة ماسية، أنت الانسان الأكثر روعة على الإطلاق، تصبح على خير"

" خليلنا العزيز

صباحك مشرق مثل هذه الشمس الخجولة التي تختفي خلف سحابة قاتمة، عيد ميلاد سعيد، بهذه المناسبة أودّ أن أتذمر من تمتعنا بقليل من الحقوق. فأنت لا تهتم بنا مطلقا. أجل إنه اليوم الموعود لازدهار الشكاوى ضد قلبي الإحساس مثلك، لقد قلت أمس إنك رائع. في الواقع، درست الموضوع بتحليل أكبر و اكتشفت أنك لست رائعا بما يكفي، فأنت لا تأتي مطلقا في مستوى التوقعات، لكن رغم ذلك أنا مسرورة للغاية، لأن اليوم هو عيد ميلادك ، نتمنى أن تكون هذه السنة أحسن من سابقتها، أنت تستحقّ الأفضل دائما، أثيل صديقتك المخلصة التي تكنّ لك كل التقدير"

"عزيزنا خليل

كيف مرّ عيد الميلاد؟ هل حضر أصدقاؤك، و ماذا عن صديقاتك ؟ هل حضرن؟، إلهي ما أجمل صديقاتي!!، إنني أمزح ، أعتقد أنهن تملقنك كثيرا و مدحك بتكلف مزيف قائلات أنك تبدو وسيما للغاية، باعتبارهن حنونيات طيبات كالماء، لا يتوقع منهن أحسن من هذا، إنهن من أنصار (العناية بالمشاعر الإنسانية)، مستندات إلى جدار ليونتك و شهامتك الضاربة، ما أنبلك!، إن ما غازلتك إحداهن، فليس عليك أن تعبس في وجهها كما يفضّل أن لا تضحك كأنها أطلقت نكتة فكاهية أيضا. فقط قف بوقار واشكرها على شكل تجاهل، ضع غطرستك وتجاهلك وجفائك في المكان المناسب، إنني أمزح مرة ثانية ،إلهي كم أحب المزاح، ماذا فعلت بهذه المناسبة السارة، هل زرت مكانا محمدا، هل تلقيت هدايا، هل قدمّ أصدقاؤك الرائعون هدايا مميزة؟ أرجو لك عيد ميلاد سعيدة مرة أخرى"

" خليلنا العزيز

أكتب إليك وأنا أنزوي في غرفتي نائحة، و على وشك التقيؤ، اعذرني لعدم تمتعي باللباقة، إن السيّدة مفيدة و هي إحدى الجارات القديمات هنا، حضّرت طبقا غريبا ، ثم وزّعته على

أهل العيِّ جميعا كأحد مظاهر كرمها المفاجيء، صوّرتَه أمامنا كطابق فاخر غير أنّي لا أعتبره إلا عطلا تقنيا في ذوقها وارتجاجا نزقا في دماغها، ليس تذوّقه أقلّ شذوذا من طهوه على البخار ثم مزجه في مرق أحمر متموج، دسست اشمئزازي العوّاء في قلبي ثم تبرّعت لها بابتسامة استحسان واعدة وروّضت ملامح وجهي المتبعثرة كقطع الزجاج، إن كان احتمال الموت جوعا بسبب انعدام الطعام، وتوقّر هذا الكائن فقط، فلا عجب أنني سوف أختار الموت جوعا.

لم أعرف مسبقا أن بإمكان إنسان طبيعيّ يتمتّع بكامل قواه العقلية والجسدية أن يأكل هذا المخلوق الذي لو اتّفق أن صادفته في الطريق لغيّرت المسار على وجه السرعة، إنه صحن مملوء بمرق أحمر تسبح فيه مجموعة من الحلزونات الصغيرة نقلت وصفته عن التلفزيون، وأكّدت خمس مرات أنه طبق مشهور و يقدم في أحسن الفنادق الفخمة . يتضح لي أنه من السهل إقناع النساء بأي وصفة حتى لو كانت تحتوي في مكوناتها العشب الأخضر وأوراق الأشجار.

أفضّل الجري مع طرزان في الغابات لأثبت أنني إنسان حضري متخلّف فاقد للأهلية المتمدّنة على أكل هذا المخلوق المقرّز، و بكل تودّد أثرت عقولنا بطريقة تحضيره، حيث أنّها طهته على البخار والروح تدبّ في أوصاله ثم أضافت كميّة من الزعتر لتغرز فيه قضية اللذة العسيرة، أليست السيّدة مفيدة مخلوقا شرسا متوحّشا عديم الرأفة؟ وهكذا وقفت أُمي وفهما فاغر تستخدمه للتعبير الديمقراطي المتحفظ في المواقف الرأسمالية كهذه، فيما فرّت ياسي الصغيرة زاعقة زعيقا مكتوما، هل سبق لك ووضعت هذا المخلوق في فمك؟ لا أتوقّع هذا منك ، سأقول لأي شخص يأكله اذهب إلى جهنم. وداعا "

ملاحظة. ليست السيّدة مفيدة أكثر شراسة من أشخاص يتناولون الأخطبوط، يقال أنّهم يلقونه في الماء المغلي ، إن الإنسانية في خطر كبير، علينا أن نعقد اجتماعات طارئة لإنقاذ هذه المخلوقات من الهمجية البشرية، من غير الحكمة منح البشر كل هذه الحرية لتناول أي شيء يرغبون فيه ."

"عزيزنا خليل

عدت لتوي من العمل، وعندما صرت على بضع خطوات من البيت استرعى انتباهي صبيّ صغير أقرع في حوالي السابعة من عمره، كدت لا أتعرف عليه من التغييرات الرهيبة التي طرأت على شكله و شوّهته بصورة مأساوية، إنه الصغير فهد ابن السيّدة فادية، تخرّج من المشفى ليقضي أياما في البيت، لقد كان في ما مضى يملك شعرا أصفر كثيف يتلألأ في أشعة الشمس وحاجبين شقراوين غليظين ، وعينين زرقاوين بلون السماء، أما الآن وبتأثير سيء من مرض

خبيث لم يبق من ذلك الصبيّ تعيس الحظّ إلا وجه شاحب كوجوه الموتى، وعينان عديمتا الأهداب بالإضافة إلى جسد نحيل هزيل. إنه مصاب بالسرطان، هو من ذاك الصنف من الأطفال الذي تكذب عليه أمّه بشأن أسباب بكائها فتخبره أن البصل أدمع عينها في حين أنها تبكي كمدا على حالته، ورغم أنها لا تحتمل رؤيته يتألّم من عقاقير العلاج، والحقن ذات الإبر الثخينة، إلا أنها لا تملك شيء لتدفع به المعاناة عنه وتعارض بها إرادة الله فيما أراد. لا يوجد في الدنيا بأسرها ألم يعادل هذا الألم، أن تقف مكتوف الأيدي أمام شيء أقوى منك، بل إنه أقوى من أي إنسان، وحقيقة كونه علّة لا يمكن الشفاء منها لا تخفى على أحد، إنّه لا يعقد هدنة أو سلاما، وليست المفاوضات معه بالمفضية إلى نتيجة مشرفة، أتدري ما أذهلني في حالة الصبيّ الصغير صاحب السبع سنوات، صاحب الشعر المفقود و الوجه الأصفر الشاحب؟، إبدأوه مقاومة يستحقّ التصفيق عليها بحرارة، إنّ الابتسامة المعتكفة في زاوية فمه لتحقّز شعوري بالإثم لعدم قناعاتي ببعض نواحي الحياة، أنا وافرة الصحة مكتملة البناء. أنا التي لا أصحو و أنام على الحقن و العقاقير. أنا التي لا أتردد على المشافي كل يوم و صدري يجيش بخوف من الآلام المرهقة، و كأن ابتسامته تسخر من تذرّ الأصحاء، قائلة "احمدوا الله على النعم التي تغرقون فيها من السحر إلى الشفق".

ملاحظة. عندما رأني أبكي، هبّ نحوي ليسألني عن السبب، فزعمت أن البصل أضرت بعيني ودفعتهما إلى البكاء، و حيث أنه رقيق القلب لعن البصل بإسهاب، لأنّها سبق و أدمعت عيني أمّه "

"صديقنا الأعلى

السحب الداكنة تغلّف السماء والأمطار تهطل بغزارة لم يسبق لها مثيل، بينما هذه الأرض لا تزال منجّدة بالصقيع في كل صباح، هذا ما خصّصه الربيع المختبئ الجبان من مفاجآت لنا في أيامه الأولى، تعوزه الشجاعة والشهامة ليقول للشّفاء أغرب عن الدنيا إنه دوري، لك أن تتخيّل قضاءنا شهر شتاء آخر، ااه لماذا يجتاح هذا الفصل خصوصية فصول أخرى دون حياء، أودّ مشاهدة الطبيعة الخضراء ورؤية الطيور المهاجر تغرّد على عتبه النافذة و الزهور بألوانها الزهرية والحمراء والصفراء تكسو الأرض القاحلة، ألا يستطيع أحد كبح سلطة الشّفاء، إنه أنانيّ جدا، متكبر و مغرور، لم نكن لنقسر على تحمّل يوم آخر منتحب كأرملة ما لم يتخاذل الربيع في فرض ذاته، إنها أيامه فلماذا يتبرّع بها للشّفاء؟، يا له من جبان رعديد. وانظر إلى الشمس الصفراء، من الصعب أن أحافظ على هدوء مزاجي عندما أتحرى جنبها، ليست تجيد إلا الامتنال لأوامر السحب، إنها تختبئ كأنّها تلعب الغمضة. الربيع التعس يحتاج إلى محام

جيد بعد أن انسحب الخريف والصيف من منصّة الشهود، أنا أتحرق بلهفة الفتاة الصغيرة إلى يوم ربيعي هادئ، أنت تفكر مثلي أليس كذلك؟ لا تحبّ التجهمّ والغطرسة. مهلا، لقد ضحكت عندما طرق عقلي أمر صحيح، إنك تشبه الشتاء كأنكما توأمان، وهكذا فقد جاءت حبة القمح تشتكي إلى الديك أفعال الدجاجة، إلهي كم أحب الشتاء، لا أستطيع منع نفسي من تقليدك ."

"نجمنا الساطع خليل"

سيهّمك أن تعرف أنني كنت أتبتّى نيّة خالصة بإفناء يوم السبت كاملا في الكتابة إليك، قبل أن أجد نفسي في جوف مأزق عديم الملامح، لقد هجمت السيّدة سميحة على البيت منذ قليل بضوضائها المعتادة ، وبعد أن جادلت أمّي العظيمة بعناد في جدال قصير غير راعد أشبه باجتماع سري كهربائي خرجت منه منتصرة كما هو شأنها دائما، اقتحمت غرفتي على طريقة يسهل إيجاد وصف لها (ديكتاتورية) أمرة إياي بلهجة واثقة بارتداء ملابسي على عجل لعزمها على أداء مهمة سامية للغاية، رغم إلحاحي على سؤالها عن وجهتنا اللامعة إلا أنها أكرمتني بجواب مهمل تفيض منه معالم الاعتزاز و البطولة قائلة (سنذهب في مهمة استثنائية لإعادة بناء الإنسان).

لايسهوي بني بناء أي إنسان رفقة السيّدة سميحة المعتوهة، ويتعيّن علي إنشاد نشيد المصائب وتلحين أهازيح المآسي بصوت منتحب قبل أن أبارح البيت. لا بد أنّها قد قرّرت النجّ بي في جوف إحداها غير آبهة بملاحظات أمّي الأخيرة، بعد أن امتثلت لطلبها، ناشدتها السماح لي بالاختلاء بنفسي لفترة يسيرة، ها أنا أكتب إليك وحيدة وقلبي يرتجف من مهام السيّدة سميحة، أين تظنّها تأخذني؟ لا تستغرب إن أفضيت إليك أن بعضا من مظاهر الاطمئنان قد لوّحت مودّعة لي وتشردت الراحة النفسية التي كنت أنعم بها. وعضوا عن ذلك تكفر الأعصاب المتوتّرة بمحاولة تهدئتها عديمة الجدوى.

تحذّرني غريزتي تحذيرا غير محدّد الوجهة بأن كارثة ستقع، ادع من أجلي ،ربما سأكون بأحد مراكز الشرطة قبل غروب الشمس، لأنني من الممكن أن أنبت هناك كشاهد لتزاع أو شجار أو ربما كشریک مساهم في قضية ما بدرجة ضحيّة، يمكنك تحويل البقرة إلى ثور والديس إلى صبار، لكن لا تستطيع انتزاع نزعة السيّدة سميحة الضارية المغرمة أبدا بحبّ المشاكل وداعا يا صديقنا العزيز ."

"خليلنا العزيز"

مساء الخير،ها أنا قد عدت سالمة آمنة دون أن أعرج على مركز الشرطة، لقد سلمت من منحهم شرف زيارتي الوقورة برحمة من الله، ورغم أن أمّي استفسرت عن المكان الذي كنت

فيه، إلا أنني استنجدت ببعض الأكاذيب البيضاء، ليس من الصواب منحها سببا حاسما لفصلي عن السيِّدة إلى الأبد، أتدري أين أخذتني المصلحة الاجتماعيَّة والمؤثِّرة النفسيَّة، من السهل تلقين ذهن أي أحد وجهتها بما أنه لا يجهد مبدأها في الحياة (إلى مركز للعلاج من إدمان الكحول)، أقسم أنني لست أمزح هذه المرة ، ليست مدمنة الحمد لله. عقدت الصدمة لساني عندما أنبأتني بحرفة نسويَّة تحبس الأنفاس عزمها على إلقاء خطاب مرتجل أمام ثلاثين شخصا من مدمني الكحول، بحكم علاقتها الوطيدة مع مديرة المركز التي بمجرد أن عُرضت أمامها مواهب السيِّدة حتى سال لعابها وسارعت تصطادها كقنَّاص مصيب للأهداف توهمها أنها هراءها كلام حكيم و عبقرية فذة ، واعدة إياها بضمِّها كمشرفة للمركز، إن ما نجحت في إقناعهم بالعدول عن الإدمان بضربة قاضية، إن الأمر أشبه بشهادة زور أو تقديم رشوة لقضاء أحد المسائل العالقة، مهما حاولت أن أعتنق الفكرة بشيء من العرفان بالجوانب الجيِّدة في شخصها إلا أن كل محاولاتي أُجهضت و ارتدَّت خائبة (السيِّدة سميحة تعظ مدمني الكحول) إنها نكتة القرن، هذا هو الوصف المناسب لسخافة مثل هذه.

عندما انتقدت قرارها، كان الأوان قد فات حيث أننا شارفنا على الوصول، وسألتها والاضطراب يُفعم قلبي عن السبب الذي صرفها عن اختيار إحدى ابنتي الغاليتين لهذه المَهْمة النبيلة، فأجابت ملصقةً بي تهمة الجرأة التي أتبرأ منها إن كانت تؤدي بي إلى مراكز العلاج من الإدمان (هل تتوقَّعين أن أصطحب معي فأرة مثل سالي أو ريجان، أعوذ بالله من مواعظ الشيطان، إنها ذرِّيَّة ملعونة أعرضت عن محاسني و التصقت بالغراء بمساوي زوجي رحمة الله عليه، ليس بوسع المرء استخلاص أي حسنة منهما. ما لم تنقُذي رفقتي هذه المَهْمة، فليس بمقدور أحد تنفيذها، هذه التجربة الزاخرة بالإثارة و الجرأة لا تليق إلا بمواطنين موهوبين صالحين مثلنا)، أقسم أنني لا أريد هذا الثناء من الطراز المداهن، و لست أُريد كرمها بوصفي بالصالحة الموهوبة. و الآن سأغيب لنصف ساعة، لدي عمل عاجل و كلته أمي إلي، ثم أعود فأتابع سرد ما حدث بالمركز".

"لقد عدت قبل انقضاء الوقت، ذلك أنني أنجزت المَهْمة في وقت قياسي . سأكمل لك الآن قصَّة زيارتنا البديعة إلى مركز علاج الإدمان على الكحول، عندما ولجنا إلى الداخل كانت الساحة الكبيرة خالية تماما وتبدو كما لو أنَّها ساحة المدارس ،محاطة بأسوار مرتفعة، تتضمن مبنيين باهتين، الأول صغير إداري والثاني عبارة عن مقر إقامة المدمنين، ولو أن السيِّدة سميحة كانت تعلم أنَّها ستقابل هذا المنظر الجافَّ البارد لارتأت البقاء في منزلها و لعتقت رفقتي من هذه المَهْمة المسماة سامية، توخَّينا إلى مكتب المدير الكائن ضمن المبنى الإداري ، وأشرفت

على عملية الاستقبال بلطف مفرط فتاة بدينة ذات حدود لحيمة وعيون بلون الزبرجد، كانت تزدهر على وجهها علامات السذاجة المطبقة، ما عمت أن قادتنا إلى مكتب السيِّدة حسناء، مديرة المركز التي تعتبر امرأة مسنّة رغم مظاهر الغنج التي تضيفها على نفسها، ذكّرتني بالسيدة بركة، استقبلتنا بطريقة باردة كأقرس ليالي الشتاء تنافي في مضمونها استقبال موظفها بالخارج

كانت عيناها داكنتين، تنتجان نظرات باردة، ووجهها طويل ينمّ عن الحزم والعناد، من النوع الذي إذا أخبرته أنّ الأرض مدوّرة، يصرّ على كونها مستطيلة أو مثلثة، وجه يفتقر إلى مسحة الرقة الأنثوية، بينما شعرها بلاتيني مجموع إلى الخلف، ويداها كبيرتين خشنتين تظهران نزعة شرّ مواءة، وما إن وقعت عيناها علينا حتى انفرج وجهها قليلا، أما أنا التي لم تتوقّع حضوري فقد رمقتني بنظرة مستريبة تنمّ عن استياء تقريبا، وقريبا منها جلس رجل فارغ القامة نحيل كأنه هيك عظمي، عيناها غائرتان، تبدو عليه أمارات المرح المكبوح بعضا الاستبداد الأسري كما أوعزت جارتني، لنقل إن حظّ العبوس كان أوفر فتقلّصت ملامح وجهه مثل من دخل بيت الطاعة للنكد، تبين أنه الطبيب المشرف على المدمنين وهو في نفس الوقت زوج السيِّدة حسناء، وهذا الرباط بينهما يترك في عقلك انطبعا مقوِّسا، إذ أنّهما غير متناغمين البتّة .

وكان مكتبها جافا للغاية، تعمق النظر في أثنائه وجرانته بحثا عن شيء يبعث على السكينة، فلا تجده إلا إذا نظرت خارج النافذة، وأمعنت النظر في رأس تمثال منحوت، قاسي الملامح، انتصب على منضدة هزيلة القوائم بل قل إنها أجبرت على تحمله، تكاد تسقطه لوزنه المعتبرة ويكاد يعبر عن نزعة الطغيان الكامنة في شخص المرأة .

جاء التقرير عن وضع السيدة وزوجها وتمثالها على لسان السيِّدة سميحة، عندما همست في أذني وهي تلوي رقبتهما، بينما كانت السيِّدة تلقن زوجها بطريقة شنيعة بعض فنون التعامل مع أحد المدمنين (انظري، واضح أنه ضحيّة عنف منزلي، إنّ حقوق الرجال تتراجع في الأونة الأخير، إنّها سبب وجيه ليس لاحتساء الخمر فحسب، بل لتعاطي المخدرات أيضا، كيف يصمد هذا الرجل المسكين في وجه هذا الإغراء المناظر لشراسة هذه العشبة الضارة؟! ينبغي أن لا يصحو أبدا، وهكذا يوقر على نفسه رؤية وجهها المشؤوم، ثم انظري إلى بنيته، تسوقك إلى الاقتناع بأنّه لا يأكل، لم أر إلا في حالات قليلة رجلا بهذه البنية كقضبان الحديد، لا تطعمه وتفرض عليه عقوبات قاسية كما أن فكرة وجودها في حياته تسدّ شهيتته. وليس لسانها السليط بأفضل، إنه يكفي لتحرير قصيدة هجائية منقطعة البراعة، من المحبط أن تتولّى هذه

المرأة مسؤولة إدارة مركز كهذا. هذا ما يطلقون عليه الشخص غير المناسب في المكان المناسب، ويا أثيل، ما ذاك التمثال؟ الناس تموت جوعا وهي تقتني الرؤوس الوثنية، كم سعره برأيك؟ عندما أتولى منصبا مهما هنا، سأحطمه متظاهرة بأن الأمر كان حادثا غير مقصود .

إنها مؤهلة لتنظيم سوق بيع السيارات و المواشي، يا لها من كاذبة!! عندما التقيت بها أخبرتي أن زوجها كان وليد قصّة حبّ عظيمة، لم ينضب رغم تعاقب السنون، أراهن أن الرجل تزوّجها تحت تهديد مسلح".

قبل أن تضيف السيّدة سميحة تعليقا آخر قاطعتها مديرة المركز بصوت يشي بالصرامة بعد أن استنزفت كل الدّم من وجه الطبيب الذي بدا كمن يعاني من فقر الدم الحادّ طيلة الفترة التي كانت تخاطبه فيها، ثم تناول منديلا ورقيا وشرع يجفّف العرق المتصدّد بغزارة من جبينه. كلما نظرت إليه ازدادت قناعة أن للسيّدة سميحة وجهة نظرة سليمة.

قالت السيّدة حسناء بصراحة (حسنا يا سيّدة سميحة، لم أتوقّع أن تأتي بضيف آخر معك، لكن لا بأس إنك سيّدة المفاجآت، لم أكن لأنكر عليك هذه الرفقة السارة لو أنك أحطتني علما بوقت سابق، لا أحبّد أن يضعني الآخرون أمام الأمر الواقع) و أيد قولها إشارة من إصبعها المستهجن ثم أضافت (و الآن لندخل في صلب الموضوع، كنت أفضل أناسا تعافوا ، لهم تجارب شخصيّة طويلة مع تعاطي الكحول ، لينقل لنا أحداثا واقعية و مشاعر ملموسةً وهكذا يقدّم لنا تقريرا حقيقيا عن الكيفيّة التي أفلح بها، بيد أنني عندما سمعتك يا سيّدة سميحة في لقائنا المشترك مع صديقتي المقرّبة بدرية، أقنعتني حماسك، وأبهرتني قدرتك على الإقناع ثم لمستك السحرية ولهذا تخلّيت عن بحثي وقررت منحك الفرصة لمساعدة هؤلاء المساكين ، بما أنك تطوّعت بكامل إرادتك لمثل هذا العمل الإنساني وتفاديا لكل المشاكل ، ينبغي أن نقف عند بعض النقاط المهمة التي يشترط التزامك بها أثناء إلقاء الخطاب

_أولا يمنع منعا باتا التلقظ بألفاظ مقذعة وغير محترمة، أو سوقية. لأن المعنيات جميعا نساء، وهنّ يعادلن عدد الرجال في مراكز أخرى ونتوقّع في المستقبل أن يتفوّقن عليهم في العدد وهنا انتفضت فضيلة السيّدة سميحة وتجدّدت تقاطيع وجهها، أما أنا، فلم أتحمّس لإظهار اندهاشي، واحتفظت بهدوني بحيث لا أتحرّش بأعصاب السيّدة المحتدّة (نساء، يا للهول ، يتعاطين الخمور؟) وصقّرت السيّدة سميحة صفيرا بطول اليوم والدهشة تتمرّغ على وجهها بينما تألّقت عينها بشعاع الاحتجاج ، ولولا أن الوقت ضيقّ و البديل غير متوقّر لأسعد السيّدة حسناء طردها بسبب التصفير غير اللائق بالسيّدات (إن هذا أغرب ما سمعته، أضحت حريّات النساء تتوسع بشكل يدعو إلى القلق، وتأتي دون حياء مستجدية الشفاء، أليس هذا نوع

منقرض من انعدام الحشمة؟، ألا يخجلن من إظهار وجوههنّ دون غطاء، يتعالجن؟ وماذا بعد العلاج، ألا يخشين من الفضيحة، ألا تخشى أن تعلق صورتها في ذاكرة واحدة من الحاضرات، فتتشر عارها في المستقبل بين جمع من الناس، إن هذا مربع، لا أستطيع تخيل امرأة تترنح وهي عائدة مساءً من الحانة أو أنهنّ يشربن في البيوت، لماذا إذا لا يتعالجن في ذات المكان؟".

عندئذ، رأيت وجه السيّدة حسناء يتغصّن وأسنانها العلوية الكبيرة تُطبق الحصار على شفتها السفلى في حركة تنمّ عن بلوغ الدم رأسها من الغضب و سرعان ما صوّبت نظرات نارية نحو زوجها الذي كست وجهه معالم الانسراح (اسمعي يا سيّدة سميحة، لسنا هنا للنقاش حول التصويت على توزيع الحقوق، كما أنه ليس من حقنا توزيع الأحكام على حياة الآخرين، إنها هنا لأجل العلاج وهذه خطوة جريئة تحسد عليها، وليس لإلقاء الملامة عليها وعتابها، وهذه هي القاعدة التي أنا في صدد الكلام عنها

_ يمنع منعاً باتاً جرح مشاعر المدمنة أو توجيه أي إهانة نظراً لحساسية حالتها لسلوكها هذا المسار المنحرف، نحن هنا لعلاجهنّ وليس لإغراقهن بالعتاب والاثمات، وباستثناء تقديم المواعظ اللطيفة الخالية من التجريح وبثّ الإرادة في قلوبهنّ، لا يحقّ لك التبرّع بأي حديث جانبي لا طائل منه أو الانحراف عن الغاية النبيلة.

_ الحمقاء التي استنعت بها المرة الماضية قضت كل فترة الخطاب تمجّد نفسها، كأنها قائد جيش، حيث أنها لم تنس تفصيلاً واحداً عن طفولتها وأيام مراهقتها، وعلاقاتها و حالاتها النفسية التي تتغيّر كالفصول، كأنني عقدت صفقة مع الغباء في حد ذاته، إن كنت تنعمين ببعض تلك الخصائص فأرجو أن ترسلها الآن في إجازة يا سيّدة سميحة، والآن، دعنا نتوجّه فوراً إلى القاعة حيث تجتمع المدمنات، وبعد أن أُلقي تمهيداً قصيراً سأستدعيك بصفتك خبيرة نفسية لإلقاء كلمتك، أرجو عدم إخبارهن نقيض ذلك حتى لا تتقوّض مصداقيتنا بين الناس وتهوي سمعتنا إلى الحضيض، فنحن رغم جهودنا الجبّارة أنا وزوجي لم نتمكن من توفير خبيرة واحدة.

ولم يسبق أن رأيت صديقتي بمثل ذلك الحماس عندما نُسبت لها وظيفة الخبيرة، ورفعت رأسها قليلاً مصدقة ، كأنها منحت قرضاً ضخماً، أفضل أن أقطع الرسالة. لأنها غدت أطول من أيام الصيف.

ملاحظة. تخلفت عنهم خطوات لأغرق في الضحك على مصطلح خبيرة نفسية. لا شك أنك متشوّق لتعرف خطاب السيّدة سميحة، لنقل بصراحة أنّه بجودة خطاب مانديلا، باختلاف أنه ليس ثورياً."

"عندما اعتلت السيّدة سميحة المنصّة الخشبية وسط عاصفة من التصفيق الحارّ بأيادي جمهور غفير، يوحى إلى عقلك أن ربع نساء البلد يتعاطين الكحول، حسنا، لو أن وعاء السيّدة سميحة يحوي دماغا لما تحمّست لهذه المّهمة بعد مقابلتها هذا الحشد، على أنّ نزعتها المعتوهة تفوّقت، وفوّتت عليها إدراك حقيقة الوضع، منصّات العرش دائما مغرية لاعتلائها، هكذا كانت تنظر السيّدة سميحة إلى المنصّة التي تقف عليها بقدمين واثقتين مع أنّها لم تجهّز خريطة عمل تهتدي بها.

أما أنا، فقد تعارك المرح و التوتور في داخلي، وبحكم معرفتي بها التي يجوز وصفها بالعميقة، أدركت أنّها ستثير فضيحة وتخرج عن النصّ الموكّل إليها، وتُشرّح قوانين جديدة غير تلك التي أملتها على مسامعها السيّدة حسناء. أو ليست وظيفة السيّدة سميحة ممتعة؟ حسنا، لأحدثك باقتضاب عن المدمنات، كان عددهنّ يقارب الثلاثين أو يزيد بأعمار متفاوتة من السادسة عشر إلى الخمسين، وجوهنّ متشابهة كأنهنّ حبّات عنب أسود، تستنتج من النظرة الأولى أنّهنّ بائسات المجتمع. نظراتهنّ منكسرة، يتحرّين الشفاء الجماعي بعد عجزهن عن تقفّي أثر الشفاء الفردي، لقد سلّبن تضامني المطلق مع حالتهنّ قبل أن تعانق أذني حكايتهن.

أعتقد أنّ هناك دوافعا وراء كل شيء، ولا يجوز لنا مطلقا إطلاق الأحكام ما لم نُقسر على عيش ظروفهنّ، قرأت في تلك العيون التائهة ألما سحيقا ويأسا فتّكا يعلّل حالتهن المتدهورة، اليأس صعب للغاية، ومن خلال الهالات السوداء الواضحة تحت أعينهن شعرت بشفقة قويّة على مأساتهنّ، لا أقلّ من وصفها بالمأساة، أنا أنحني إجلالا لهن لعدم قبولهن بالهزيمة النكراء، وهاهن على الأقل يكافحن في سبيل حياة أفضل، هاهن يتودّدن إلى تحقيق ذواتهن بعيدا عن زجاجات الخمر، تتقدّ في أجوافهن نيران العزيمة المثابرة، وأنا أنظر إلى تلك الوجوه أدركت بغريزتي البسيطة، أنّهن لن يعدن إلى بيوتهن بأياد خاوية، لن يروي عطشهنّ إلا النصر ضد ذواتهن، إنّهن طاقات بشرية متفجّرة، لا ينتظر منهن أقلّ من التغلّب على ضعفهن، ومرة أخرى وجدتني أمام نماذج أخرى من الكفاح ضد الانكسار والانهيار والوقوف بعد السقوط، حسنا سأخبرك في الرسالة القادمة نصّ خطاب المهاتما غاندي.

أثيل المغامرة في سفينة سميحة المتهورّة "

" خليلنا الغالي

إليك نصّ الخطاب

أيّها السيّدات الفاضلات، أرجو أن لا تكنّ ثملات جدا بحيث لا تستوعبن نصائح خبيرتكن النفسية المجتهدة، وعندها رأيت وجه السيّدة حسناء يحمّر من الغضب وعينها تتورّمان بنظرة

حادّة كنصل السيف، مزحة ثقيلة على أنّ الضحكات التي ارتفعت خفّت من صقيع عصبيتها، بينما وضعت أول حجر في جدار الكارثة القادمة، أردفت جارتى الغالية بعد أن خفت وطأة القهقهات الصاخبة ونضبت المهممات السارية (لقد وجّهت لي السيّدة اللطيفة حسناء دعوة لإلقاء كلمة، ولهذا أنا أشكرها على كرم الضيافة والاستقبال الأسطوري الذي حظيت به. لا أريد أن أكون امرأة مطيعة فيما يخصّ تعليماتها الصارمة بعدم الالتفاف إلى نقاط معيّنة، سنفتح أفقا متشعبة للجدال "وعندها تملكيني الحيرة، إذ طالما كانت استراتيجيات السيّدة مقلقة جالبة للنحس (أولا، أودّ أن أتطرّق إلى نقطة لا بد أن تكون موضع البداية، ما هي الأسباب التي دفعتك إلى إدمان الكحول؟، إنه سؤال جيد، فطالما عُرف السبب بطل العجب كما يقال) إن هذا لم يكن مدرجا ضمن لائحة تعليمات مديرة المركز الوقورة، وحيث أنّها حذرتنا من الانحراف عن القوانين، تميّزت غيظا لكن احتجاجها ظلّ صامتا يجذّف على اليابسة

(مثلا، أنت يا صاحبة الشعر الأحمر، التي تجلسين على الحاقّة، قبل كل شيء، أعترف أن فستانك ظريف، لديك ذوق فنيّ، بعد الانتهاء من المحاضرة زيتي معرفتي المتواضعة بالمحلّ حتى أقصده في أقرب وقت، لا تخجلي يا عزيزتي، فطالما أنت تكشفين لنا عن وجهك، فلا ضير أن تفتحي لنا قلبك وتوضّحي لنا، فنحن جميعا شقيقات هنا، هل توافقن على هذا المبدأ جميعا" وعلت التصفيقات عندما تفجّرت المواهب بداخل جارتى الظريفة، وهكذا خلقت جوّا ممتعا وغدا الجميع مستمتعا ما عدا المرأة ذات الشعر البلايني والأنف الحادّ كأنف الصقر، وما عدا زوجها الذي يدعيّ معاداة منهجية جارتى، تشجّعت المرأة ذات الشعر الأحمر بفعل ارتفاع حماسها، فهضت على قدميها والارتباك يتواطأ مع الخجل ثم أعلنت بصوت مرتعش (لقد قبضت على زوجي يخونني مع امرأة أخرى) وطفق الدمع يتهاطل كأمطار إبريل المتأخّرة (وبدل أن يعتذر عن خيانتة قام بتطليقي وتزوّج منها ولهذا لجأت إلى الكحول لأنّها تقلّص من وطأة الألم) وانقضّت العيون المشفقة على وجهها المتألم، وسرعان ما جلست في مكانها منكسة الرأس، وقبل أن تطلق المديرية لسانها لتحجّج على السياسة المدنسة للمقدسات المتعارف عليها، نطقت السيّدة سميحة بلسان لولا أنّه ملتصق بوجهها لاعتقدت أنها استعارته (حسنا ذلك جيّد جدا، إذا فلقد خانك الوغد، ليقطع الله نسلهم، لا يأت منهم إلا الخيانات والنكد، في كل مرة يظهر لنا كائن من الأدغال ليثبت لنا أن الرجال غاية في الوفاء، لماذا لم تغني له أغنية الخيانة ثم تصفيعه وينتهي الأمر. حسنا، حسنا، أفهم أن صوتك ليس بالجميل "مزحت" وإن ما غنيت له سيطلّك ثلاث مرات بدل المرة الواحدة، وهكذا فقد كنت غبيّة جدا وأعطيته فرصة أخرى لإذلالك. ليست تلك بطريقة ممتازة تُوظّف لغرض الانتقام للكبرياء الجريح يا قطي المسكينة.

سأوضح كيف، تلك كانت فرصة موقفة لتعرفي حقيقة زوجك، وكان بوسعك أن تحمدي الله ألف مرة، لأن استمراره في خيانتك إلى الأبد ممكن جدا. كان ينبغي أن تنجعي أيتها الخرقاء لا أن تفشلي. ولو أنك فكرت ببعض النباهة لكان الآن يركض وراءك مثل كلب ضال، بيد أنك أبدا لا تنصفن أنفسكن، ما ذنب كبدك المسكين لتحرقيه، ستكسين حسنات بديلة إذا تبرعت بنصفه إلى أحد المرضى المحتاجين. تعزلين نفسك عن الحياة لأجل خائن استبدلك بقطعة أثاث رثة!؟ ولست متأخرة عن موكب الحياة والحرب الباردة، ألا تودين الانتقام لكرامتك المهدورة) وفجأة شغ في وجه المرأة تصميم وأمل، كأن الفكرة المعروضة راقت لها(كما يقول، ما كان اسمه، كم أنني كثيرة النسيان، تشي جيفارا انتقي بنجاحك، ولهذا انطلقا من اللحظة الراهنة اقدفي بالزجاجة و ابحي عن ذلك الجرذ ثم أثبتني له أنك لست عاطلة، فلا شك أنه يستمتع بوقته خصوصا إذا ما علم عن طريق بعض الأفواه الشامطة أنك تتعاطين، لأنه تركك هل تودين أن يستمتع بتعاستك؟)، ورفعت المرأة عينين متحدتين والتصميم في وجهها يتلوى لينتصر، يبدو أن السيدة سميحة تفلح في عمل ما مرة واحدة في القرن، وبرزت حقيقة الكنز الذي يقيم مقابل منزلي جليلة واضحة براقه كالماس، إذا فجاتي سيّدة عظيمة و أدركت جميع النسوة المنهيات تلك الحقيقة الخالدة عن حذق المرأة الكريمة، ما عدا مديرة المركز المتزعجة التي يبدو أنها لا تستمتع إلا كأسير في سجن العدو بعرض ساخر عن أمجاد وطنه، والتي يظهر أنها تود الاحتفاظ بهنّ مدمنات، لقد خسرت للتوزونة دائمة، وبعد برهة ستخسر بمزايا العقل الثاقب زبونات أخريات، وعندما أن أوان التنديد قاطعتها النسوة ممتعضات، ثم خوفا من طردها خارج القاعة التزمت الصمت

يتبع"

"اتبعت أم سالي ذات السياسة المنبوذة في القيم العقلانية للسيدة حسناء بروح مثابرة، مخلصه لعملها الجديد مع النساء الأخريات، ولهذا أسرعرت توجه سؤالا إلى فتاة أخرى ضخمة الجثة منتفخة الوجه (أنت أيتها الصبيّة، أنت التي تشبهين كهنة معبد آمون تبدين ثملة، هذا لا يتناسب وسمعة المركز، أرجوك أن تتطوّعي وتنقلي لنا تجربتك وتحديثنا باختصار عن الدوافع التي ساقتك إلى هذا المسار، لا تتخندقي، كلهنّ سيؤدين نفس الدور، إنّ نقطة حمراء إضافية في سجلّك الحافل، لن تضيرك على أية حال) نهضت الفتاة أليا متخلّية عن مظهر الحياء، فلقد أقدمت على مثل هذه المجازفة امرأة مثلها، وتدققت الكلمات الحبيسة في جوف يتلظى بؤسا (أنا دائما أفضل في الحياة، لست أنفع لشيء، فشلت في الحصول على شهادة البكالوريا ثلاث مرات، و أي شيء أوجه تلهّفي إليه يتحوّل إلى مصائب، ولست متأكّدة أن النحاس الذي أزرع

تحت وطأته مصنّف ضمن العادي، لأنني أطرّد بعد أيام قلائل من أي وظيفة دون مبررات مقنعة، وبعد أن حصدت شهرة عالمية في ميدان الإخفاق، قرّرت الانعزال في البيت الذي أعيش فيه مع جدتي وأعيش الإحباط المعلق برقبتي رفقة زجاجة الخمر، هذه هي قضيتي) وساد الصمت لبرهة واستدارت الرؤوس لترى الفتاة ذات الخامسة والعشرين تبكي بحرقة، تبكي طموحها المطعون في قلبه (حسنا إذا، فهذه هي قصّتك، هناك قصص كثيرة لا شك أنّك تعرّفت على إحداها ذات مرة، اتّخذي مثالا مائلا، هل أعدّ لك عدد الخييات التي تعرّضت لها طردت من الثانوية، فشلت مشاريعي، نُصب علي كما أنني حظيت بإقامة دائمة ذات خمس نجوم في قاعات المحاكم".

كانت هذه أول مرة تعترف فيها جارتني بخيياتها دونما شعور بإهانة كبريائها، أول مرة لا يطاوعها لسانها على الكذب فيما يتعلّق بالمشاريع (كم فشلت من مرة!!، ألا تعرفين أن النجاح الباهر مرتبط بعدد الخييات، أجل أيتها المغفلة، كلما ارتفع الرقم، زادت حظوظك في إحراز نجاح ندر مثيله، وإن تاهت نباهتك عن الأمثلة فتذكّري عالم الفيزياء، ما كان اسمه يا أثيل، نعم هو، نعم، ألم يرسلوا إلى والدته بورقة الطرد لأنّه لا يصلح لشيء، فيما بعد غير العالم بأسره، قد تكونين في هذه اللحظة مرشحة لجائزة عظيمة في إحدى المجالات، لا تعرفين ماذا يخبئ المستقبل، لكن طالما أنت تعاقرين الخمر كالرجال في إحدى زوايا بيت الجدة الخرفة التي لو اطّعت على عارك لاستعجلت ملك الموت لقبض روحها بوقت أسبق عن الموعد المحدد، طالما أنت كذلك فالجائزة العظيمة لا شك تحذو حذوك، تسكر في الزوايا، لا تزالين صغيرة يا فتاتي لتتبادلي معنا قصصك عن الفشل، إنك على الأقل تنعمين بصحة سليمة ونشاط خفيف، ارفعي سقف التحدي بكل مهنية واقتدي بتلك الزجاجة بعيدا عن عقلك، لقد كفّنت دماغك بكفن الوهم وظننت أنّ تعطيل وظائفه لساعات قليلة قد يجنّبك رؤية الحياة الظالمية، أنت من اخترت رؤيتها على تلك الصورة، هل تعدينا بالعدول عن هذا المسار) طاف في صدري شعور بالاعتزاز وأفعم قلبي تيار دافئ من التأثير، ولو أن أحدا ما أخبرني أن هذا العرض المبدع سيكون نصيبي من هذا اليوم لما صدّقته، إن أذني لا شك تخدعاني، جارتني امرأة طيبة بمؤهلات لا تقدّر بثمن، رائعة عندما تقرّر أن تكون كذلك، جارتني إنسانية للغاية، رحيمة لأقصى درجات الرحمة، نبيلة القلب تتمتع بمخزون عجيب من الحنان المتحقّق، رغم الدعابات التي أطلقها مثل الصواريخ التائهة عن المسار، وبينما غاب وجه السيدة حسناء خلف سحابة قاتمة فغدا وجهها السمين كوجه القتلة، رحت أصفّق بحرارة، وانتقلت جارتني إلى سيّدة أخرى، امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، وجهها مستدير وعيناها زرقاوان والتي عنيت بمهمة

مماثلة لسابقاتها، ذكرت دوافع نزوحها إلى ملجأ الكحول (توقّي زوجي الذي أحببته أكثر من أي شخص في الدنيا منذ سنتين، وبعده بسنة ماتت ابنتي الوحيدة ذات الثلاث سنوات، دهستها سيارة مسرعة أثناء انشغالي عنها بربط خيوط حدائي، لم أتقبّل أن الرابط الوحيد مع زوجي وحببي المتوقّي قد ضاع إلى الأبد) و ساحت الدموع من العينين المتعبتين وانقبضت وجوه الحاضرات وصدح في القاعة أصوات خافتة متعاطفة (لم أستطع التحمّل، كان ذلك أقوى مني، حاولت الهروب من فكرة خسارتها فلجأت إلى الكحول لتصون قلبي من العذاب والألم، وكنت أحيط نفسي بأغراضها وألعابها وثيابها، وقبل أن أسافر في رحلة طويلة من انعدام الوعي، كنت أبكي حتى تتورّم عينايا، لطالما كانت الكحول تنسيني ألبي، تجعل صورة الطفلة الصغيرة ذات اليدين الناعمتين و العيون الخضراء الحنونة تسقط من ذاكرتي. وهكذا يخفّ عبء المأساة يا سيّدي وأنعم ببعض السكينة، وعلى قدر ما كانت تفيدني، على قدر ما كان الإثم ووخز الضمير يراوداني، لأن أعزائي ما كانوا ليرضوا بمثل هذا الوضع الذي آلت حالتي إليه، ولهذا أنا أحاول العودة كما كنت ولكن عبثا، فكّلما عدت إلى البيت وارتفعت الذكريات إلى عقلي أهرع إلى الزجاجاة المقيّنة لأهوّن المصائب على نفسي) حينها ارتفعت شهقات المرأة المتقطّعة وناولتها إحدى السيّدات القريبات منها منديلا لتكفّف به الدمع، ونهضت أخرى تربّت على كتفها فيما سالت الدموع من عيون جميع الحاضرات ما عدا متحرّجة القلب: السيّدة حسناء وحتى زوجها شعّت بعض الشفقة من عينيه الغائرتين عديمي التعبير (سيدي العزيزة) أجابت السيّدة سميحة (اجلسي أرجوك، وتحلّي ببعض الصبر وأنّ أيتها السيّدات، لا داعي إلى النواح لأنك تفزعن المرأة، حسنا يا سيّدي إنّ لي ابنتين، ولو أنّي فقدت إحدهما لكنت أتألم مثلك الآن، كما أقول دائما، هناك تعويض لكل شيء ولكن ينبغي أن نفتش عنه في المكان الصحيح و الزمن المناسب، كان عليك أولا التبرّع بأشياءها إلى أطفال بحاجة إليها، إنّ من الصعب عليك ترويض هذه التعاسة وأنت تشاهدين أشياءها الصغيرة بشكل يومي، ثم أن تبثي عن حبّ جديد، لا تتفاجئي يا عزيزتي، هذا ما تحتاجين إليه، إنّ قلبك مهجور فارغ، يحتاج زوجا وأطفالا، كل إنسان يعتقد أنه لن يحبّ ثانية بعد فقدانه لحبّه الأوّل وهذا غير صائب، لقد خلقت قلوبنا لتحبّ، الحبّ يصنع المعجزات، يعوّض كل الخسائر ويهوّن التعب والإرهاق، ويخضع الألم أيّا كانت درجته، كما أنه يدفئ الأماكن الأكثر تجمّدا في أجسادنا، لكنه لن يزورك وأنّ قابعة بين الجدران تسكرين وتبكين وتهشمين روحك بذلك السمّ القاتل بطيء المفعول، عليك أن تفتّشي عنه في الخارج، أنا متأكّدة أن الأشياء التي تفتشين عنها سوف تفتش عنك بدورها، تأنّقي واهتمي بنفسك واخرجي إلى الدنيا ثم ستجدين الحب وستنهرين من

تعويض الله لك، هذه هي الطريقة المثلى المضمونة لتعويض ضياع أحبابك، أما صغيرتك التي رحلت فإن للحزن وجهة نظر حولها، لن يعيدها لك مهما تألمت، لأن الموتى لا يعودون، تدكّرهما كأول هدية من الله، لا تنسي ضحكتهما، لأنها تمنحك القوة . وغدا يا عزيزتي غدا هو يوم متجدد وفرصة أخرى وأمل آخر، غدا ستشرق الشمس .

أثيل تفتخر بصاحبة السعادة: السيّدة سميحة "

"استمعنا إلى قصص عدد من المدمات، وُجّهت إليهن عشوائيا أسئلة بقالب فكاهي، استنفذت كلّ صبر مديرة المركز التي أذخرت تعليماتها في مخزن التجاهل، إن ذلك كان كثير بالنسبة إلى استيعابها، ناهيك عن تجاوب النساء مع إرشادات امرأة كنت أظنّها بلا عقل. سوف أتخلّى عن فكري هذه حولها حالما تسنح فرصة ثانية تطابق فيها حكمتهما هذه المرة.

وتخلّت في نقطة معينة عن هيئة المزاح متحوّلة إلى مخلوق عمليّ ممّي "كل يوم جديد، كل نفس جديد، هو فرصة جديدة، لتقويم أنفسنا، إنّه مرادف آخر لعبارة (قبل فوات الأوان)، وعلاوة على انفصالكن عن الحياة، خسرتن أشياء أخرى لم تكن لتخسرنها لو أنّ لكنّ عقولا تفكّر، ولكن لم يفت الأوان بعد، الانعزال و البكاء على الماضي والحزن ليس حلا ناجعا، هل لديكن مشاكل نفسيّة، صحيّة، عائلية؟ جميعنا لدينا مشاكل وهموم ، ولكن الفرق الفاصل في انتقاء الحلول، فالبعض ممّا يبحث عن الحل والبعض المحيط يسأل لماذا حلّت علي هذه المشكلة، وأنا لم أتوقّعها وأرفضها، لا أستحقها، على مر السنين كان حلّ تعاطي الكحول والهروب من الواقع منتقى من طرف الحمقى، الضعفاء، عديبي الإرادة، الفاشلين، ضعفاء النفوس، أما أولئك الأقوياء العمالقة، ذوي الهمم العالية ، فلن ينساقوا إلى مثل هذا الطريق أبدا مهما كان معدّل سقطاتهم مرتفعا.

و سرعان ما كالت الشتائم للحكومة دون سبب ، ووجدت نقاط تشابه بينها وبين الخمر من حيث إعطاء الوعود الكاذبة ، وعالم خال من المعاناة .

ملاحظة يبدو أن السيدة حسناء أحسّت بالضيق؛ لانتمائها إلى الطبقة التي تحبّ الحكومة وتؤمن بوعودها، فقد تحوّل احتجاجها الصامت إلى استنكار علنيّ، ووبّخت السيّدات اللاتي طالبن بجلسة أخرى مع هذه الخبيرة المثالية والتي أُستدعيت للمكتب على عجل .

تساءل إن ما كنّا سنطرد؟ لقد طردنا بعد أن أمطرنا بوابل من المسبّات، مع وعد بإرسالنا إلى السجن. إن ذنبي الوحيد أنني صديقة تلك المرأة المتيمّة بحبّ المشاكل، في الرسالة القادمة سأوضّح الذي حدث في المكتب مع السيّدة وزوجها"

"عزيزنا خليل

لقد نعمت بوقت رائع إن كان يهيك أن تعرف تقريرى عن تلك الزيارة، وقفلت عائدة إلى البيت بفائض من السرور فيما كانت جارتى تتردى في ثورة من الغيظ، حيث أبلت حسنا و كان جزاؤها سوء المعاملة على صنيعها، وليس أقل من نعت المديرية بالغيورة، الحقودة، صاحبة القلب الأسود، المتسلطة، وفتشت في رأسها عن نعوت أسوأ تكافئ بها تلك الكافرة بالمعروف فلم تجد .

قالت السيدة حسناء وهي تصخب وتفور غضبى، بينما شفتها ترتعشان كأوراق تحركها الرياح فور إغلاقها باب المكتب خلفنا بالإضافة إلى زوجها (ما هذا الذي قمت به أيتها المرأة القميئة الخرقاء، ليس هذا ما اتفقنا عليه، كيف تسألين عن أمورهن الخاصة، ما علاقتك ودوافعهن؟، طلبت إليك إلقاء خطاب مختصر، فإذا بك تصفين قواعد المركز بقلة عقلك، إنك أسوأ من الحمقاء التي جلبتها السنة الفائتة، على الأقل هي لم تنعتهن بالحمقاوات وتفتحمن خصوصيتهن، كان خطي أنني وثقت بامرأة مجنونة مثلك، سأبلغ عنك السلطات لتجرؤك على سب الحكومة، إننا نفتخر بها وأنت تشهينها بالكحول؟".

وجاء الردّ سريعاً بشيء من البرود غير المكثرت (أثيل، وأنت أيها الطبيب مهزوم الحقوق، كونا منصفين وقولا الحقيقة، هل حصل وأن انزعجت السيدات من أسئلتى؟، هل لاحظت ما أنني بالغت في خطي الإصلاحية؟ أنا شخصيا لفت انتباهي شيء واحد، لقد حققت نتيجة لا تفلح حتى أحسن الخبيرات في إحرارها بأدوات بسيطة، كما أن هناك مطالب بتخصيص جلسات أخرى برفقتي، لا تكوني حسودة و تقبلي أنني أستحق مهنة المشرفة، أنا البطاقة الراححة لهذا المركز، تخافين أن تشفى هؤلاء النسوة أيتها الخسيصة، إن الفكرة ترعبك، ثم ماذا فعلت الحكومة لتحيتها أيتها المتملقة؟) وأراد الطبيب متلها أن يكيل الشناء للسيدة معربا عن إعجابه بأدائها بحيث كاد يطلب توقيعها كأنها شخصية مشهورة، لولا أن نظرة ناربية أحرقت نواياه الصادقة، فاستطردت جارتى بنبرة واعظة (عزيزي الطبيب، أعرف محام طلاق جيد إن ما كان الاستبداد قد بلغ أقصاه، أي أنك تتعرض لهذا الاضطهاد بسبب نصف ثورة، أكمل واجبك وكرم الثورة الكاملة وسترى كيف يكون الازدهار، هناك عالم جميل بانتظارك، لقد لاحظت اللعنات لوقت طويل، وباب الحياة مفتوح على مصراعيه، أقر رأيك وأنا سأدعمك) ومن خلال نظرة الغضب رأيت عيني السيدة حسناء تنتفضان حنقا (بيدو أنني سأبتكر طرقا جديدة للتعامل مع كائن بغيض مثلك، إن زوجي يحبني، كما أنه يحب عيوي جميعها بعد أن عرفها، وليس كل النساء ينعمن بهذه النعمة الجليلة .

(أحقا) ضحكت السيدة سميحة بهمكّم و أضاء وجهها بزهو كمصباح ،وأصبح جليا أن

فرصتها في نيل بطاقة العضوية، قد أفلتت كلياً من يديها ولن يشكّل فرقا البوح بكل ما يختلج قلبها (أحقا؟)، الآن أفهم لماذا تحبين الحكومة، إنّها مثلك، إنك تتعاملين معه بسياسة حقيرة، وفي الواقع أفضل في معرفه بماذا تهددينه، إن الانتخابات غير النزّهة و المزوّرة تأتي دائما بشخص غير مرغوب فيه من طرف الشعب، وهكذا هو حال زوجك، لو نسألّه عن رأيه بديمقراطية دون ضغط أو تزوير، أراهن أنه سيقتلك قبل أن يهجرك، أين الحب أيّتها الكاذبة؟! لم أرجلا تعسا في حياتي أكثر منه، يبدو كوجه الجن جان في رواية البؤساء "تقصد جان فالجان"، أليس هذا صحيحا يا أثيل، أسمعك دائما تذكرين هذا الاسم أمامي، أو محكوم مدى الحياة بالأعمال الشاقّة، ادّخري أكاذيبك عن الحب و العيوب لأذان أخرى غير أذني، فإن لي عينين راشدتين كما ترين، وأنت أيها الطبيب إن كنت مهتما بفقّ الأغلل فأنا أقيم بشارع... وقبل أن تملي عليه العنوان، كان رجلا ضخما يتولّى مهمة إلقائنا خارجا، الحقيقة المؤسفة أن رفيقتي لا تتمتع بميزة حفظ لسانها المتمرد في مكانه الصحيح مما يؤدّي إلى طردها من أي مكان.

في طريقنا إلى البيت تبلورت في ذهنها فكرة موهوبة، أن تفتح مصنعا لصنع الخمور لأنّ عدد المتعاطين كبير، ولها زبائن جاهزون يسهل إقناعهم باقتناء المنتج، فمثلا السيّد وائل الحزين على مشروعه المفلس، يسهل استدراجه، كما أن بعضا من معارفها التعسّات لن يرفسن نعمة مساعدتهن، وفجأة تذكرت أنّها تجارة غير شرعية و مال حرام و لن يبارك الله فيه، وفي المستقبل ستفتح مركزا للعلاج من الإدمان مقابل مركز السيّد حسناء وهكذا تقضي على فرصها في نيل مدمن واحد. هذا ما يسمى الرجوع إلى الأصل فضيلة. لقد عادت جارتى المعتوهة إلى عهدا الذي لن تكون أبدا معشوقة دونه

ملاحظة: لم أخرج من هناك خاوية اليدين، على الأقل اكتشفت أن مواهبا مبدعة تحتاج التكريم والالتفاف إليها، بالإضافة إلى أن زادي في الحياة قد ارتفع بفعل التجارب والعبر "كزننا النفيس، صاحب الابتسامة الأكثر جمالا في الدنيا

إنني أقرّ بفائض من التصميم أنّك تشبه هذا اليوم الربيعي الجميل، هل ترى أخيرا؟! لقد استقرّ مزاج الربيع المتقلّب، إنه مثل الأكل لا تستلذه إلا في قاع الصحن، وهكذا حال الربيع، لا يغدو حلوا و صحوا إلا في الشهر الأخير، سننعم من الآن فصاعدا بسماء زرقاء صافية وطبيعة خضراء، كما أنّ العصافير بأصواتها المختلفة ستعزف ألحانا شجيّة، سوف نستيقظ كل صباح على تغاريدها، أليس الربيع فضلا مذهلا؟ إنّ الذهاب إلى العمل في مثل هذا اليوم يحيطك بهالة من السعادة و النشاط، ويمنحك شعورا طيّبا، والنسيم العليل يجلّي الدنيا

برونق مختلف، وأي أحد لا يحبّ الربيع فلا حاجة له بصداقتي، لأنني والربيع صديقان حميمان
صديقتك المخلصة دائما أثيل المحبة لهذا الصنف من الطقس"
"خليلنا المحبوب

ذكرت في رسالة سابقة أنني في صدد قراءة رواية جديدة عنوانها : ثم لم يبق أحد، لأجائنا
كريستي، إنها رواية فائقة التشويق و الإثارة، في الواقع لقد انقطعت عن قراءتها لأيام بسبب
أشغالي المكّدة التي لا تنتهي، وخطرت على ذهني عندما دقت الساعة التاسعة. عندما وجدت
قصيدة نقلتها ياسي على ورقة بيضاء فتذكّرت القصيدة الغامضة في الرواية. لذلك أتممتها
دفعة واحدة بحماس محموم دون تريث لأعرف هوية القاتل . لقد فعلتها أجائنا مجددا وتبيّن أن
القاتل آخر شخص يمكن أن ترشّحه لمهمة القتل. ااا، لم أتوقّع أن يكون القاضي وارغريف، في
حين انصبّ يقيني على المراوغ فيليب لومبارد أو الطبيب أرمسترونغ، حتى السيّد بلور كان
مرشّحاً قوياً لتنفيذ الجرائم، واستبعدت فيرا كلايثون و إميلي برنت، لأنهما امرأتان، وليس لهما
تلك القوة الجسدية و الصلابة الحسية لارتكاب جريمة ، كل الرجال في الرواية كانوا محلّ شبهة
ما عدا الشخص الوحيد الذي تبيّن أنه القاتل في الأخير، كما أنه أقدم على الانتحار، هل تلك
طريقة سليمة لتحقيق العدالة، لقد تركت فيرا الطفل سيريل يموت و بالمقابل هي لم تقتله
بسلح جريمة، هل يمكن أن نطلق على هذا الشّرّ جريمة؟ كما أن إميلي لم تقتل الفتاة التي
انتحرت، لقد عاملتها بقسوة أما قتل الفتاة نفسها، فكان قرارا ذاتيا، إذا ما قرأتها فسيسرني
أن أعرف رأيك حول هذه القضية، إنها فعلا رواية غاية في التشويق

ملاحظة أظنني أخطأت عندما أطلعتك على اسم القاتل، لن ترغب في قراءتها الآن، أتمنى أن
تكون قد فعلت، لأنّ عنصر التشويق قد تلاشى، لا أقرأ كتابا إلا و تنتابني الرغبة في تقديم
نبذة طويلة عنه، كما أنني أفضل في كبح لساني عن فرش النهاية أمام الآخرين بوسعك قراءة
رواية الفتاة الثالثة، على الأقل لم أفش اسم القاتل بعد، إنها تلك اللئيمة التي تنكّرت بهيئة
زوجة أبيها، سوف تعرف اسمها فيما بعد"

"خليلنا الشجاع

التقيت منذ أيام صديقة قديمة ، هي من النوع الذي قلّمّا تلتقيها في صدفة عرضيّة، كما
أنّها تميل إلى الانطواء و تتحاشى الثثرة الفارغة التي لا طائل منها. إنّ لها قصة مختلفة. لقد
أصابها مرض غريب تسبّب في إيذاء جزء معتبر من كبدها. وضّح لها الطبيب أنها ستعيش لشهور
قليلة إن لم تجر عمليّة نسبة نجاحها ضئيلة جدا، كما أنّ موتها على طاولة العمليات أكثر
احتمال من سقوط شعرة من رأسك في الصباح، ستموت إن انتظرت، لكن إن ما نجحت

العملية قليلة الحظ، فهي ستعيش حياة هائلة طبيعية خالية من المخاوف والقلق، تقول إنها وقفت موقف الحائر، كما أن خوفها تفاقم، لكن لا خيار لها إلا المجازفة، تصوّر أن لا يصبح لديك خيارات كثيرة في الحياة وتضطرّ إلى خيار بشع واحد لا سبيل إلى ركله أو تجاهله، لم يكن خيار العملية سهلا عليها، بيد أن تفكيرها انحصر في خاطرة مربكة، فأيا كانت النتيجة لن تكون أسوأ من حياتها هذه وبدل أن تخاف كل يوم قرّرت أن تخاف مرة واحدة بحجم كل المخاوف الصغيرة، وعزمت على إجرائها بكامل تفاصيلها المفضية إلى نهاية حياتها، إن العيش مع الخوف من الموت أشدّ فتكا منه، علمت اليوم من مصدر موثوق أن عمليتها قد نجحت، أتري يا خليل: المجازفة تبقى خير من الانتظار، أحيي شجاعتهما، لقد علمتني درسا مهما، الخوف لا يشجع على الحياة؛ بل يشجع على الموت، وثمان الجبن أمهظ من ثمن الشجاعة

المخلصة دوما أثيل "

"عزيزنا خليل

إنّ الصيف شقيق الربيع في الروعة والسحر، ها قد حل الصيف الودود المنعش، والطقس مناسب لرحلة على متن الطائرة إلى أحد الجزر الهادئة البعيدة الرائعة. ذات يوم عندما أصبح غنيّة سأذهب لزيارة أكثر بلد أحبّه: سنغافورة، أي بلد تريد؟ يخيّل إلي أنك تحب البلدان ذات الطقس المتجمد وتحب زيارة المتاحف، وتنفر من الأدغال والغابات دائما ما أفكر أنه يليق بك أن تكون عالم آثار، أحلم بزيارة الهند أيضا إنها ليست بعيدة عنا، أمزح فقط، وليست فكرة سخيفة أن يفكر المرء في زيارة كل بقعة من هذا العالم البديع، ولكن ذلك لن يتحقّق، أنا أحلم كثيرا ولكن يقال أن الوقائع الحقيقية وليدة الأحلام الأكثر سخفا في الدنيا. ولهذا سأحلم دوما، ذات يوم سأحقّق كل أحلامي، هل لديك أحلام سخيفة تنمو في رأسك الآن، لا تهملها دعها تكبر

الحاملة السخيفة أثيل "

القسم الثاني

الفصل الأول

بينما كانت رفيداء تنفض الوسائد تحت شعاع الشمس الصباحي المتدفق إلى الغرفة، وترتب شراشف السرير المزينة برسوم مطرزة باليد في إحدى صباحات أواخر أغسطس الشماسة الحازة، سمعت طرقات مجلجلة مستعجلة على الباب، تتخللها فواصل قصيرة من الانقطاع. إن الطرق العنيف مرتبط حسب مفهومها بالأنباء السيئة، وراح الغيم المنقبض المتشكّل من هذا الطرق يحرث أثلاما عميقة من الخوف في عقلها، متسائلة بشيء من الفضول البالغ بينما تصوّب بصرها الضعيف نحو الساعة الصغيرة عن هويّة هذا الطارق اللوح المزعج .

تناولت غطاء الرأس المربع الأملس ثم ثنته بشكل مثلث ووضعت على رأسها، وعلى نحو سريع عقدته عقدتين محكمتين تحت ذقنها، وهاهي تنسل خارج الغرفة ثم تنزل درجات السلم متريئة دون إحداث صوت متمسكة بقوة بالدرابزين، ذلك أن سنّها المتقدم البالغ الخامس والستين لا يوقر لها خطوات أكثر خفة، عندما بلغت الباب أخيرا وقفت مستريبة ملصقة أذنها به مستفسرة بصوت لين بطيء عن هويّة الطارق.

وما لبثت أن سمعت خلف الباب جرسا أجسا عرفته أذناها، فاستجابت عيناها بوهج مسرور، وزحف إليها إحساس بالراحة واسترخت أعصابها المشدودة، وعندئذ فتحت الباب وابتسامة ودودة تراقص على شفيتها، برز رجل في الخامسة و الثلاثين من عمره مربوع القامة ملفتا للنظر بثيابه الفاخرة الأنيقة، كان ذا مظهر محترم يرتدي قميصا أبيض وسترة سوداء وسروالا انسجم لونه ولون القميص ، عيناها زرقاوان وشعره الأشقر مصقّف بعناية، كما أنه حليق اللحية، تتدلى من رقبتة سلسلة فضية أظهرها قميصه مفتوح الصدر. وتلا العناق الطويل انحناء لتقبيل يديها مستوضحا عن أحوالها و أخبارها، ثم سرعان ما ألحّت عليه ذكريات البيت لاستحضارها، كم يحبّ هذه الردهة وكم تعني له تلك الأبواب المغلقة، وبينما بصره يقفز و يحلق تراءى له أن البيت قد تغيّر تغيّرا ملحوظا وأنّ الجدران المطلية باللون الزهري الصقيل، قد كانت فيما مضى صفراء فاترة، وأنه قد تصرّم دهر على آخر زيارة، وعندما عاد بصره إليها راح يكيل لها ثناءً مشاكسا كما هو شأنه مع كل العجائز في سنّها، مقسما أنها تزداد جمالا يوما بعد يوم، وأن صبايا العشرين لا يأملنّ في حيازة نصف فتنها، وبينما كانت تعاتبه مبتسمة على غيابه الطويل، طافت عيناها من جديد في ردهة المنزل ثم تحوّلت إلى

الدرابزين لتستقرًا أخيرا على باب المكتبة

ما عتم أن أفلت يديها وشرع في صياح هادر صدّاح، مكزّرا النداء (يا كلب الصيد، أين أنت) مخلّفا العجوز تهمهم بصوت واهن، يحثّ خطوات عرضيّة ويتحرّك من ناحية إلى أخرى برشاقة، يتقدّم و يتراجع، يفتح الأبواب الموصدة ماسحا بنظرة سريعة جدران الغرف ثم مقفلا إياها خائبا دون أن تلتقط عيناه الشخص المراد.

وعنّ له الصعود إلى الطابق العلوي فاتجهت أنظاره إلى السلم، لا شك أن الشخص المراد هناك، إنه لا يزال نائما، وما لم يوقظه و يلكزه بلكمات عنيفة على بطنه و صدره لن يرتاح مزاجه المنفعل، وما إن وضع قدما رشيقة على الدرجة الرابعة من السلم وكفّ عن الصياح حتى استوقفه صوت رفيداء بنغمة تفيض هدوءً

"إنه ليس بالمنزل يا بني، لو أنك تكفّ عن الصياح لكنت سمعتني أخبرك عن عدم تواجده بالمنزل، لقد خرج منذ الساعة السادسة، وأكّد على عدم عودته قبل الساعة التاسعة" استدار عمرٌ إليها مقطبّ الجبين مطبق الشفاه، يركّز بصره على وجهها المتعب بارتياح فيما لا تزال يده قابضة على الدرايزين مستوضحا بصوت خائب محتجّ

_ "خرج عند السادسة؟! إلى أين ذهب في مثل ذلك الوقت المبكر؟ ألم يخبرك؟"

_ "لا يا عزيزي، لم يقّد أيّ إيضاح عن المكان الذي سيذهب إليه، وأنا لا أوجّه له الأسئلة" نزل عمر الدرجات الأربع زاوياً ما بين عينيه وغصّة الخيبة تخفق في وجهه وقد خطر له استفسار عملي شعر أنّه تأخّر بطرحه، ومدّ ذراعه فطوّق كتفها المنحنيتين ثم ساقها برويّة إلى غرفة الضيوف متسائلا

_ "خالتي رفيداء، ما الذي حدث بالضبط؟، كيف حدث و أن طرأ عليه كل هذا التغيير، عندما وردتني رسالة الأنسة سمراء غمرتني الدهشة".

و فتح باب الحجرّة، و دفعها برفق إلى الداخل بينما برق من عينيه شعاع الاهتمام المتحرّق "وكدت لا أصدّق، لقد أقمت معه طيلة هذه الفترة، و تكهّنت أنّك الشخص الوحيد الذي استطاع إقناعه بما عجزنا جميعا، لأنك خالته و تأتيين بالمرتبة الثانية بعد والدته".

_ "لا يا عزيزي" نفت العجوز بحركة من رأسها و تعبير التآثر يغلّف وجهها، بينما كانت تجلس على الكنبّة "الآنسة سمراء طرحت علي ذات السؤال، و كنت صادقة عندما أجبته أنني لا أعرف كيف غير رأيه، أنا مثلكم مندهشة من الذي حصل، لم يكن يخاطبني البتة منذ إقامتي معه. بالكاد استطعت استعطافه بذكرى أمّه الغالية أن يسمح لي بالاعتناء به، ولولا أنها كانت عزيزة عليه لما أباح لي ذلك، إنني لم أفهم شيء شأني شأنكم. هناك شخص غيري أخذ على عاتقه

هذه المهمة، لأن قناعته الجديدة لم تكن وليدة تصميم ذاتي، باختصار شديد هناك علامة استفهام يتردى بها عقلي أنا أيضا "

_"هل وافق على مقابلة شخص غريب خلال هذه الأشهر؟ هل زاره أحد؟، من الممكن أن يكون له أصدقاء لا نعرفهم" استوضح عمر باهتمام الرجل العملي و عيناه لا تحيدان عن وجهها "تقول الأنسة سمراء أنه لم يكن يرضى بمقابلتها هي أيضا ، وحتى أنا صدني بنفس الرفض"
أنشأت رفيداء تشرح

_"لا، طيلة هذه الأشهر رفض بشكل قطعي مقابلة كل شخص زارنا للاطمئنان عليه، أنا فقط من كنت أراه بشكل يومي، ولم يكن يوجّه لي أي كلام من أي نوع غير إيماءة رفض أو موافقة من رأسه ، و يحرص على جعل الغرفة تغرق في الظلام الدامس، و إبقاء المصابيح مغلقة، أخاله لم يكن يفرق الليل عن النهار، وينام طيلة الوقت، وعندما يكون مستيقظا يحدّق إلى السقف شاردة مفكرا، لم يكن يحسّ بوجودي في الغرفة كأنني طيف " تنفّست بعمق ثم أردفت" وكان يوتخي على أي نصيحة أحاول إسدائها له ، فيصرخ معنفا (اخرجي من هنا)، حتى عندما نصحته بالإقامة بغرفة أمه بالطابق السفلي تسهيلا لتنقلاته بالبيت زجرني بنبرة عصبية وأمرني أن أغلقها ولا ألمس أغراضها أو أجرؤ على تغيير مكانها وأصرّ على المكوث بغرفته، وأما الطعام بالكاد كان يزدرد بعض ملاعق تعينه على حفظ نفسه من الموت جوعا. وبلغت بي المخاوف مدى بعيدا، خشيت أن يقدم على قتل نفسه، ولهذا عمدت إلى عدم ترك سكاكين في متناول يده أو أي أدوات يمكن أن تخدم غايته من شدة اليأس، لقد كان شابا قويا ولكن الكآبة عندما تسيطر على الإنسان تجعل الدنيا عديمة اللون و تدفع إلى الانتحار غالبا، لقد فقد المسكين كل شيء في ظرف شهر واحد، قدميه ووالدته العزيزة ووظيفته ومركزه الاجتماعي، كل شيء ما عدا بعض الأقارب و الأصدقاء الأوفياء مثلك و لم يسمح لأحد بمواساته، تعرف طبيعة كبريائه، إنه لا يبيع لأحد أن يشفق عليه في حضوره. لقد صنع جبلا شامخا بيننا وبينه، وكنت أشعر بالتمزّق من حالته الكسيحة ، عاجزة عن مساعدة ابن شقيقي الوحيد، أراقبه وهو يذوي، شاب مثل القمر يذوب أمامي ، وأنا يا ابني عمر لا يسعني فعل شيء، ولكن"

وتضاعف اهتمام عمر عندما تلقّظت رفيداء ب"لكن"، إنها تفضي إلى تحليل الأمور ووضعها في نصابها فأوماً برأسه إيماءات متتالية ليحثّها على السرد على نسق أسرع

"لاحظت أن تغيرا غير محدّد الطابع طرأ على حالته بعد انقضاء شهر من ذلك الحادث المؤلم الذي نسف بكل أركان حياته، و بعد أن فقد أمه الغالية على نحو غريب و مفاجئ تهدّب طبعه المغالي في الغلظة، سلسلة من التغييرات التي لم أستطع تفسيرها بأي حال من الأحوال،

بقدر ما كانت تجعلني سعيدة بقدر ما كانت تزيد من حيرتي . أصبح يطلب إلي أن أشرع مصراعي النوافذ ليستمتع بحرارة الشمس، بعد أن كان مجرد اقتراح إحداث شقّ صغير كيما تلج ويتغير هواء الغرفة العفن يجلب العصبية إلى وجهه فيأمرني بنبرة مشحونة بالسخط بتركه وحده متوعداً إياي بالطرد خارج المنزل إن ما تدخلت ثانية و حاولت اقتراح ذلك" انفعل صوتها المنحوت الحائر ثم أردفت

_ "وأضحى بين الفنية والأخرى يخاطبني بنغمة دافئة مؤدبة كما كان يفعل قبل أن تموت شقيقتي الغالية وتتعلّل قدماءه وينعزل في غرفته، ثم يعلّق عشوائيا وي طرح علي أسئلة غريبة فيها شيء من استهتاره القديم مثلما تفعل أنت كأن يقول: خالتي هل هرمت حقا وخرفت ذاكرتك؟، خالتي أعتقد أنني فعلت أشياء جيّدة في حياتي و أنا الآن أجنبي الثمار، من الجيّد أن المكافآت تمهّلت لتأتي في هذا الوقت الحرج، خالتي إن اللون البرتقالي لا يلائمك، إنك تبدين مثل حبة برتقال متدرجة، ويضحك وأنا التي ظننت أنه نسي كيف يبتسم ويضحك، أنا التي تصوّرت أنه لا يتقن إلا الغضب والخشونة والفظاظة والشراسة . لقد استيقظت فيه خصاله الدمثة التي كنا نحبا جميعا فيه. وتلك اللمعة اليائسة القانطة في عينيه تحوّلت إلى وميض من الرضا بحالته، وأصبح في وقت ما يستدعيني على عجل إلى غرفته ثم يخصّص لي مكانا قريبا منه بل ويصرّ على جلوسي بجانبه يسألني عن أموري الخاصة، مطالباً إياي بالاهتمام بصحّتي وعدم إهمالها و يحدثني أحاديث قصيرة ممتعة مبتسما ابتسامة عريضة عن الطقس والأيام الماضية وأمور أخرى لم أكن أفهمها أكثر من فهمي لسلوكه الجديد، بل اتّفق أن لثم جبيني ويدي بامتنان، معتذرا عن فظاظته و وقاحته في التعامل معي، فاندھشت مستفهمة عن الذي يدور في خلدّه، بل كنت أخشى أحيانا أن يكون قد فقد عقله بفعل الانعزال الطويل، وعدم تبادل الأحاديث مع الآخرين، ثم ذات يوم في الصباح رأيته يجلس على كرسيه المتحرّك ينظر من خلال النافذة مبتسما مشرق الوجه و كأنه يتبادل التبسم مع إنسان آخر فذهلت و قال هو بكلمات رقيقة: ألا تبدو الشمس جميلة اليوم يا خالتي رفيداء، إنها مختلفة عن كل الأيام، فتساءلت عن الذي يجعلها مختلفة، إنها ككل يوم و سمعته في صباح شتويّ لأول مرة منذ عودته من المشفى يفرق في ضحك مدوّ فاعتقدت أنها نوبة عصبية أو أنه جنّ رغم افتقادي لضحكته، وعندما فتحت باب الغرفة لاهثة مذعورة .تكلّم كأنسان طبيعي سعيد (ماذا يا خالتي رفيداء هل تريدني شيء) هكذا قال، فأجبتّه و الدهشة تعقد لساني أنني جنّت أسأله إن ما كان يريد قهوة، على أنه أعاد رأسه إلى الخلف و طفق يضحك من جديد.كان الشيء الذي يحثّه على الضحك قادما من شاشة الحاسوب، تلا ذلك عواصف من الضحك المتكرّرة في ليال

أخرى، رغم تحرّقي لكشف الأسباب إلا أنني تذكّرت ملاحظته الصارمة حول احتفاظي بفي مغلّقا . أما المفاجأة الحقيقية؛ فكانت ساعة طلب مني أن أساعده ليزول الدرج والقيام بجولة رففته في غرفة والدته و حديقة البيت الخلفية و نظرا لافتقاري قوّة كافية، وافق برحابة صدر أن أستعين برجلين آخرين. لم يمانع رؤية أناس آخرين غيري. لقد بكيت دموع الفرح عندما غادرت غرفته من فرط السعادة و خاطبت صورة شقيقي المعلّقة في الردهة بهممة خافتة (انظري يا أختي ، إن ابنك يتحسن، إنه لن يضيع أبدا،سترتاحين الآن في قبرك وتنعمين بالطمأنينة، لقد كان ابنا بارا و صالحا.و إن دعواتك لتشقى له طريقا في الظلام، انظري إليه، سيخرج لأول مرة من تلك الغرفة المقيتة و يزور غرفتك التي ما اعتقدت أنها ستفتح يوما ويتزّه في حديقتك الغناء التي أوليتها عناية واهتماما، لقد رفع الأمل المنكس رأسه عاليا، وارتفعت همّته، ااه يا شقيقي لو أنك ترين ذاك الوجه المفعم بالأمل، لكنت طرت سرورا، ااه، لو أنك بيننا الآن تُشبعين عينيك بمشده وهو هادئ، حنون و رحيم بوجهه الوديع و تهكمه اللاذع وروحه الفكاهية كما كان دائما)، أجل يا عمر لقد تبدّد صراخه و طبعه النزق الشرس، وغدا أليفا مسالما هادئا كما كان دائما، ولن أنسّ ذاك اليوم طوال حياتي، كان آخر يوم من فبراير، يوما ممطرا و السماء قاتمة تنذر بعاصفة قادمة، استعجلني الالتحاق بغرفته فألفت نفسي أسمعه بخشوع المؤمنين، وهو ينقل إلي موافقته على إجراء العمليّة"

زَيّنت ابتسامة ودودة شفقتها

"وأنه يتوجّب علي استدعاء ابنة عمته على عجل للحضور في أقرب وقت بغية الاتّفاق على الإجراءات اللازمة، ووقفت أمامه مبهوتة مجفلة منحازة إلى كفة عدم التصديق، وطفق عقلي يندفع في جميع الاتجاهات بطليعة مستجيبة و خلفية مترنّحة من قلة الاقتناع، أهذا خليل الذي ينطق بمثل هذا العجب؟ سألت نفسي يومها، أترأه يمزح ليرى أثر مزحته على وجه عجوز ضعيفة العود مثلي؟، أترأه يجدني تسلية يتفكّه من خلالها؟ ما خطبه؟ ولو أنّه اكتفي بالقهقهة في أواخر الليل أو التبسم مثل الأبله من خلال النافذة أو أشياء من تلك القبيل لما وجدت سببا للحيرة والاندھاش، لكن أن يوافق دونما سابق إنذار على تلك العملية فذلك ما لم يتجاوز عظام رأسي الخارجية، و بينما كان يراقب سحنتي الغارقة في الحيرة، خاطبني بنبرة هادئة رقيقة كأنما يخاطب طفلا صغيرا (ألسنت سعيدة بقراري، كنت أخال أن هذه النصيحة كانت ترتفع إلى شفّتيك كلّما رأيتني، أنظّتين أنني لم أكن أقرأ أفكارك يا خالتي؟ ما بال وجهك يتمرغ في هذه الألوان الحائرة)، عندها عدت إلى رشدي، متبيّنة أن ما تلفّظ به إنما كان قرارا واقعيا نابعا من تصميم و إرادة و لن يثنيه عن عزمه حاجز أو احتجاج، ذاك كان خليلي مصدر فخري، أما ابنة

عمته ، فساعة كلمتها عاتبني بصوت سليط ناهرة إياي عن إتيان مثل هذه الدعابات الحمقاء، لأن أوانها لم يحن بعد. ولولا أنني أقسمت وحلفت باسم الله الأعظم لما أخذت كلامي على محمل الجد، كانت عملية معقدة قد لا تنجح فينتكس وتدهور نفسه أكثر، بيد أنه تشبّث بأمل ما. أمل قادم من بقعة سرية مجهولة مثل أعماق الكهوف والحمد لله أنه لم يعد بخفيّ حُنين بل عاد على قدميه ونظرة الظفر تزّين عينيه الهادئتين، ليحفظه الله كم أنه شاب حاذق جميل يتنعم بكل صفات الرجل المهذب".

_ "غريب" انحنى عمر بجسده الى الأمام، وقد اقتحمت معالم وجهه دهشة موبوءة" مما تراه يضحك؟ ومن شحنته بكل هذا التدبير السليم، لقد تركته في حالة يرثى لها، حالة إنسان ميّت. أفلتت كل حبال الأمل من بين يديه. لقد كان يحبّ أمّه بجنون وتدرين كم كان متعلقاً بها خصوصاً بعد أن فقد والده "

_ "ليرحمهما الله "

نكست رأسها وتألأت دموع الذكرى الميرة في عينها "كم كانت شقيقتي امرأة طيبة وعطوفة، لقد كانت أمّ الجميع، ااه إنها لخسارة فادحة أن ترحل امرأة مثلها عن الدنيا، لم يتحمّل قلبها وودعتنا ... " قبل أن تُتمّ عباراتها الأخيرة خنقتها الدموع فجشّ صوتها وصمتت، وانتقل عمر ليجلس بجوارها ضاغطاً رأسها على صدره ممزراً يده على شعرها الرماديّ

_ " لا تبكي يا خالتي رفيداء، ليرحمها الله، إنها مشيئة القدر. ما كانت والدته لتجد أحسن منك لتوليها مسؤولية ابنها، و الآن هلّي ككففي دموعك وزيديني معلومات بخصوص وضعه، لم يسعني التصديق أنه وافق على إجراء تلك العملية بكامل تعقيداتها، هل يبدي تقدماً ملحوظاً؟ هل يستطيع المشي بشكل عادي، هل يتعزّز أو يسقط؟ لقد نجحت بنسبة جيّدة ولكن يستغرق عودته إلى حالته القديمة وقتاً طويلاً ربما "

أبعدت رفيداء رأسها عن الصدر القوي ماسحة دمعها بظهر يدها ثم استأنفت كلامها مضية حماساً على صوتها النائح

_ " يستطيع المشي، ليس برشاقته الماضية، يخضع للعلاج الفيزيائي المكثّف ، و يبدي تحسّناً مقبولاً، لا أستطيع القول إلا أنه يملك إرادة عملاقة، إنه شعلة من الحماس كأنّ في جوفه طاقة خرافية" وابتسمت ابتسامة خفيفة "يتفكّه ويطلق الدعابات ويستهرت كسابق عهده، منذ أسبوع عاد من إقامته ببيت عمته، لقد صمّمت على أخذه إلى بيتها بعد مغادرته المشفى، طبعاً كانت تحنّ إلى ابن شقيقها الوحيد الذي كان يمتنع عن مقابلتها هي أيضاً، إنه خليل الذي كنا نعرفه قبل ذلك الحادث، لا ليس هو فحسب، بل لقد استباحث شخصيته طباع جديدة، على

أن تكتّمه القديم لا يزال جزءاً أساسياً فيه. ولهذا لم أستخلص منه أي أجوبة على أسئلتني ".
_ "سأجعله يعترف " قال عمر ممسداً ذقنه ممرّراً لسانه على شفثيه وخيوط من التصميم

تنسج نفسها على وجهه

_ "ماذا عنك يا بنيّ " سألت العجوز فجأةً، وقد عادت إلى طبيعتها " متى عدت إلى البلاد؟،
أنت تعمل ببلاد أجنبية أليس كذلك؟"

_ "أجل، أجل " قال بينما كان عقله في دوامة من التفكير، محتاراً بتأثير من رواية رفيداء،
قلقا جراً تأخر صديقه، يشوب وجهه انفعال مضطرب " لقد وصلت أمس بوقت متأخر من
الليل، ولولا أنني خشيت إزعاج سيّدة لطيفة رقيقة المشاعر مثلك لأتيت من المطار مباشرة إلى
هنا" وانحنى يقبل يدها مجدداً

_ "أمها المشاغب " قرصت وجنته " كُفّ عن مزاحك وأخبرني متى ستتزوج؟".

_ "أنا؟" قال مبتعداً عنها، نزق التعابير على نحو غير متوقّع "أعوذ بالله، أتزوج!! لا، إنني طائر
حرّ مغرّد، أستغني عن دخول القفص البغيض حتى أتفادى تلك النتيجة الفاشية، أتزوج
وأعيش عيشة الكلاب؟ أعاني مثل هؤلاء الرجال المساكين أعانهم الله؟ لا أحد يشجعك على
مثل هذه الخطوة، إنها تجربة فاشلة بشهادة المجريين، كلهم نادمون وتريدين أن تنزلق رجلي إلى
ذاك الفخ. إن قصصهم عن الزواج تشبه مغامرات سندباد المسكين يخرج من ورطة ليقع في
أخرى. لست مستعداً لذلك أنا سعيد بحالتي هذه ".

_ " هذه نظرية فاشلة " احتجّت العجوز محتدّة "من قال إن الزواج قفص، إنك تخاف من
المسؤولية فقط، و أعتقد أن الخطوة لم تنضج في عقلك لأنك لم تقابل امرأة رائعة تشجعك
عليها"

_ "لست أعرف إلا النساء الرائعات يا سيّدتني" هتف متبجحاً "إنهن شقراوات بعيون زرقاء،
وشعر بلملمس الحرير وبشرة بلون الثلج ولسن كفتيات هذا البلد، اللاتي يألفن العيش بسلام
مع الوحوش الضارية في البرية، فضلاً على أن تجنيدهن في الجيش ليس بالفكرة السيئة،
سبيلين حسناً ويقاتلن بضراوة العدو الغاشم، إن بشرتهن مريعة كجلد التمساح وأصواتهن
عميقة كصوت رجال الفايكنغ الثائرين، أما نفسياتهن فتشبه مزاج المختلّ العقلي مشوّش
الذكريات، لا تفهمين لماذا يضحك أو يبكي، وإن ما تطرّقنا إلى قضية الأنوثة و اللطافة فأعوذ
بالله، إنهن لا ينعمن إلا برصيد كبير من الخشونة "وعندما لمح الضيق في وجهها ابتسم مستدركا
مداها "ما عداك بالطبع يا جميلتي، فأنت ناعمة كالقطن،،،،"

"كُفّ عن مغازلة خالتي أمها الوغد" هتف صوت جهوري يخامر المرح قادم من باب الحجر

لرجل نحيل القامة أسود الشعر، عيناه بنيتان فاتحتان و لحيته سوداء مرتبة، وقف منتصباً على قدميه تكسو وجهه سحنة بشوشة و تشعّ أسنانه البيضاء من خلال ابتسامة مشرقة، وما إن تنأهى صوته إلى مسامع الجالسين حتى استدارا إليه في لفطة خاطفة، فغمره عمر بنظرة متفحّصة طويلة شملت كل قامته من أعلى رأسه الى أخمص قدميه صعوداً ونزولاً، فاغر الفم، متجمّد الوجه، دهشة غرارة، وعندما زاوله أثر المفاجأة اندفع بحماس باتجاه خليل معانقاً إياه عناقاً قويا، فاختلّ توازنه و كاد يتسبّب في وقوعه لولا أنه ارتكز بكفّ يده على حافة الباب، وأثمرت مساعيه أخيراً في إعادة الاتزان إلى صديقه مستعينا ببعض الأوصاف الملائمة

_ "ما هذا الهراء الذي كنت تفسد به عقل خالتي رفيداء، ألا ترى أنها صعبة المنال؟!، ليست من النوع الذي يخضع بسهولة "

_ "لا توجد امرأة في الدنيا لا أستطيع إخضاعها" قال عمر متباهياً فيما ضحكت رفيداء لهذا المزاح المدار حول شخصها، ووقفت تعتذر للانصراف لشراء أغراض مهمة من السوق تاركة إياهما غارقين في عاصفة من المزاح والهزل الصبياني، حتى إذا جلسا كلا منهما، تحسّس الفضول طريقه مثبتاً وجوده و تدقّقت الأسئلة إلى الشفاه المتلهّفة

_ "خليل، إنني لا أصدق ما أراه، لقد أرسلت لي قريبتك رسالة تنبئني بالأخبار السعيدة فقهرت أن أعود لأراك.لم تتسنّ لي فرصة للسفر قبل هذا الموعد ، لقد تأخروا في منحي إجازة،، كيف حالك؟ هل تشعر بأنك تحسّنت تماماً؟ما الذي حدث على وجه التحديد؟كيف أنت،، حسناً، إنني عاتب عليك كما تعرف لأنك لم ترض بمقابلتي أبداً، ولكن سننصّي ذلك الحساب لاحقاً، ثم هل تحسّ أنك بخير، أين كنت هذا الصباح؟كيف حدث و أن غيرت رأيك؟ آخر رسالة وردتني من ابنة عمك تبشّرني أنك استدعيتهما لترتب لك إجراءات العملية، و قد صدمت، خصوصاً أنك كنت تتمسك بالرفض المطلق لأي عملية أو طريقة لتحسن، لم تشأ المخاطرة، أرسلت لك رسائل كثيرة ، وفقدت الأمل في استلام رد منك، كيف تتركني لتلك الحيرة؟،، اه يا صديقي إن عودتك إلى حالتك الطبيعية تبهجني و تبعث السرور في قلبي، أنا سعيد جداً "

_ "ها رويدك علي، إنك تسأل كثيراً" قال خليل بلهجة رتيبة وعيناه تشعان، فيما كانت ابتسامة زاهية تجتاح شفثيه تنمّ عن قلب سعيد و مزاج مبتهج"يا صاحبي، لا يسعني الإجابة على كل هذه الأسئلة دفعة واحدة.أجل، إنني بخير كما ترى، أعتقد أن الدنيا جميعاً بلغها أنني تعافيت، فقد وردتني رسائل كثيرة تهنّني على استعادة عافيتي "

_ "أجل، لم يعلم أحد شيء إلا بعد نجاح العملية، ابنة عمك، الآنسة سمراء تحسن فنّ التكتّم، بعدها شاع الخبر طبعاً، إنك كلب صيد محبوب بالنسبة للكثيرين، أفضالك لا تنسى

حسنا لنقل، إن بعض المخربين الأشرار لا يستلطفونك كثيرا، ولم يستحسنوا كثيرا عودتك من جديد. ليس أقل من إعلانهم الحداد "وبدا للحظة غير متحمس لهذا المسار الذي يؤول إليه الحديث فغيّره بسرعة" أخبرني ما الذي حدث؟، كيف اتّفق وأن أجمعت رأيك على إجراءاتها، هل أدركت أخيرا أن خطّتك بالاعتزال كانت رديئة للغاية؟".

بدا عمر مشوّشا، وعيناه مستفهمتان والأسئلة تتدافع في رأسه تدافع الحشود للفرار من أزمة حالكة، أسئلة لم يرو عطشها أجوبة مناسبة

"أخبرني بسرعة، ظننت أننا ندين بالفضل للخالة رفيداء، وقد أنكرت منذ قليل أن يكون لها علاقة بالأمر، هل كانت تتواضع أو أنها تفوّهت بالحقيقة، هي الوحيدة التي كانت تحظى بشرف رؤيتك، وخبّمت أنها من دفعتك إلى الاقتناع بضرورة العودة إلى الحياة يا صديقي.

حسنا، هذا ما كان ينبغي أن تفعله من الأول، كيف حدث أن؟؟، كيف حدث كل هذا؟"
_ "ما الذي حدث؟" علّق خليل بلهجة مداهنة، وقد عزم على جرجرة هذا الفضول المتوهّج في عينيّ عمر بأسلوب متحذلق" لا شيء خاص، أنا فقط قرّرت إجراءاتها والعودة إلى طبيعتي، ليس في الأمر أي سرّ أو فضل لأحد"

_ "ها" تضايق عمر، وفضحت سحنته انزعاجه من الطريقة التي يداهنه بها و بدا غير مصدّق "لست أصدّقك، إن في المسألة سرّ بالطبع، وإن ما أخفيته عني سأكتشفه بطريقي الخاصة، دعني أخمن، إن في القضية شبعا أليس كذلك؟ شبعا برداء أبيض و شعر طويل متموّج، لطالما آمنت بوجود الأشباح خاصة من صنف النساء، فهن لا يهدأن بأي مكان حتى القبور".

_ "لقد ذهبت هذا الصباح لمقابلة رئيس تحرير جريدة الكفاح" وعمد خليل إلى تغيير الموضوع دونما إشباع لجوع اللهفة مجيبا عن سؤال لم يكن موضع اهتمام رئيسي "لقد اتّفقنا، و سأبأشر العمل انطلاقا من الأسبوع القادم، ليت خالتي حضّرت لنا بعض القهوة قبل خروجها، ألن تهنّئي على الوظيفة الجديدة؟"

_ "إنه يوم مبارك، أن أراك على قدميك ثم تزفّ إلي هذه الأخبار الجيدة، أهنتك يا صديقي، لم اسمع بهذه الجريدة من قبل، ربما لأنني لا أعيش هنا."

"و حتى إن كنت تعيش هنا لن تسمع بها، إنها تكافح في سبيل الفشل، لفظت أنفاسها أكثر من مرة و لكنها تحيا من جديد لتفشل، من المحتمل أنها لا تدخل حتى في الترتيب، أعجز عن فهم صمودها إلى الآن!".

فذهل عمر و غاب حماسه

_ "هل تمزح يا خليل؟"

"أقسم أنني لست أمزح" وانطلقت من فمه ضحكة خفيفة "إنها كما وصفتها جريدة فاشلة"
_ "إذا، كيف ترضى بالعمل لصالحها؟ إنك صحفي جيد و لطالما كنت محط استقطاب

الصحف المشهورة" سأل عمر مرتابا، مستغربا النهج الغريب للتلاعب بالحياة .

_ "كنت يا أخي، كنت " تغير تعبير وجه خليل واستحال حزينا ذابلا تقريبا ثم قال متأسفا
متهدا "ولم أعد الآن، أنا إنسان يخطو أول خطواته في الحياة الجديدة كطفل يتعلم المشي ."

_ "ولكن يا خليل" اعترض عمر متضايقا" ما الذي دهأك، بمقدورك أن تتقدم للعمل في
جرائد جيدة، بمجرد أن تعرض عليهم خدماتك، سيوافقون فوراً"

ابتسم خليل شبه ابتسامة، بدت ساخرة

_ "حتى إن عرضوا علي لن أرض بالعمل معهم"

_ "لماذا يا خليل؟، يكاد عقلي يتخشب من انعدام الفهم"

وضع خليل مرفقه على مسند الكنبه

_ "السيد مالك وهو صاحب جريدة الكفاح الفاشلة، الفاشلة" أكد عليها كأنه يريد أن تطبع

الكلمة في عقل صديقه "هو الوحيد الذي عرض علي عملا بحالتي دعني لا أتلقظ بالكلمة
لأنها تضايقني، الوحيد الذي شجّعني على العمل، وقال إن باب جريدته مفتوح لي في أي وقت
أشاء" ولم يبد عمر مسرورا بالحقيقة التي اكتشفها لتوه، إنه ليس مسرورا البتة، يعمل في
جريدة فاشلة لمجرد أنها عرضت عليه عملا عندما كان مقعدا!! إن خليل يغدو عاطفيا بشكل
مبتذل أحيانا، فأسرع يصرح بموقفه من هذه الكفارة الغبية .

_ "خليل، لا تكن عاطفيا، تصرف بعقلانية يا صديقي، إنك تدمر مستقبلك، أنت تشعر

بواجب العمل لصالح هذا الرجل لمجرد أنه عرض عليك وظيفة في وقت حرج، وهذا ما يسمى
بالعاطفة الساذجة البعيدة عن المنطق، لست مضطرا لوضع رأسك تحت أي واجب. أنت
صحفي متمرس ومرغوب ، وأي جريدة ستتشرف بانضمامك إليها وليست الكفاح هذه بالخيار
الصائب".

فحمل خليل إلى وجهه بنظرة طويلة غامضة، كأنه يحلل كلامه بشيء من الاستخفاف

البارد ثم منح صوته نغمة تشي بالمزاح وقال

_ "إذا فأنا عاطفي؟ وشعوري بالامتنان للرجل الذي وقف إلى جانبي بعيد عن المنطق، ما

أغرب منطقك يا عمر، أرى الأمور من زاوية أخرى لا تراها أنت، ولا يسعك إدراكها، لأننا لم نمر
بذات الحالة"

- "اشرح لي، فأنا قاب قوسين أو أدنى من...، لا أجد مصطلحا مناسباً "صرّح جزعا وظهر عليه نوع مريب من التشنّت الذهني " إنّ السيّدة رفيداء ذكرت لي أمورا غريبة قبل أن تأتي، من يراك الآن لن يربط أي علاقة بينك وبين الرجل المحبط الذي أخرجته من المشفى منذ أشهر. اروي لي ما كان يحدث في تلك الغرفة الموصدة؟، ماذا كنت تفعل؟. تقول خالتك أنك كنت تغرق الغرفة في الظلمة وعجزت هي عن إقناعك بفتح النوافذ ولو لدقائق، وكنت بالكاد تأكل وتخاطبها، ثم حصل تغيير مفاجئ مرده إلى سر غامض، لم تستطع فك خيوطه...، ما الذي تغيّر يا خليل، إنك لم تكن تتمتع بأي لباقة لتردّ على رسائلي وتخلصني من القلق الدائم عليك، يقال أيضا " ورفع حاجبيه بحركة مشككة ، حتى تعمّقت خيوط جبينه " أنك كنت تقرقر بصخب في بعض الأحيان أمام الحاسوب؟"

- "إذا فإن الخالة العزيزة لم تلجم لسانها" قال خليل مؤنبا بصوت يحمل بعض السرور "ماذا أخبرتكَ كذلك؟"

- " لا تلقي باللوم عليها، لم تفش شيئا مفيدا، ليس بالقدر الذي يشبع فضولي، تعرف أنها ليست سيّدة ثرثارة، إنها كتومة، هي سعيدة لأجلك، لقد اعتنت بك يا خليل ولم تتخلّ عنك أبدا، ليس عليك لومها لاعترافها ببعض الأمور "

- "ما أكثر السرعة التي تخلّي بها البعض عني" قال وقد شاب صوته لحن حزين "طيلة هذه الأشهر، كنت أكبر قيمة المواقف، إن المصائب مفيدة أحيانا لتعرف موضعك في قلوب الناس، حتى أنني تلقيت رسائل تنطوي على الشّماتة المغلّفة بالتعاطف من بعض الأصدقاء المزيفين. ولم يفتني أن أستجلبها "

- " كنت تقرأ الرسائل إذا، أيها الوغد لماذا لم ترد على رسائلي؟ " صاح عمر و لكز صدره بلكمة خرقاء فتأوّه خليل أهة مزيفة .

- "لم أرد على رسائل أي إنسان، لأنه كان لدي القليل لأقوله، ثم ماذا يوجد كرد ملائم على الشفقة المنقّطة بالحزن علي، ولست ممن يستجيبون لشفقة الآخرين بالعاطفة المنصهرة بالتظاهر الكاذب ، كل الرسائل كانت على شاكلة واحدة (إننا نشعر بألمك...تأقلم مع إعاقتك لأنها جزء الآن من حياتك..هناك الآلاف مثلك لكنهم لم ينزعزلوا الحياة، نحن نحبك رغم كل شيء، كن قويا كما كنت دوما، مطلقا لن يفيدك حبس نفسك بين الجدران) وسرعان ما انقطعت رسائل المشفقين والمخادعين والمنافقين، الأصدقاء والأعداء، الحقيقيين والمزيفين.اه ما أقسى الحياة عندما تقع، ما أسهل سقوط الأقنعة دون اضطرار لوضعها ثانية، ترفع الستائر حينئذ، لقد عشت فترة صعبة، أصعب مما تظن" و هجرته سحنته المرحة و تحوّلت نبرته إلى

جدية " كنت لا أفرك الحال أكان ليلا أو نهرا، فقدت الإحساس بالمكان و الزمان، ولم أكن أبالي، والمصيبة تكمن هنا كوني استغنيت عن عنصر المبالاة،العنصر الذي يعني الحياة والشغف والوجود، لتصميمي النهم على جعل حياتي أسوأ ما يكون لأن الفقد صعب،صعب جدا،مرّ إلى درجة لا توصف، إلى درجة أنك تتخدر فلا تهتم بما يدور حولك من أحداث على نحو مربع. فقدت أعلى إنسان على قلبي، أمي الغالية " و صمت و أصاخ السمع كأنه يسمع صوتها و نظر باتجاه الباب كأنه يرى طيفها جاثما أمام الباب ثم تحركت عيناه صوب الزاوية التي اعتادت الجلوس فيها، تحيك و تغني أغاني شعبية قديمة و بعد دقيقة عادت عيناه إلى وجه عمر الحزين " كان الألم يفترسني كمخالب حيوان متوحش لأنني عاجز، لأنني مهزوم،وحيد،موجوع، لأنه لم يعد لي وظيفة لامعة ولم أعد مرغوبا من أحد. ولم أملك الشجاعة لأخرج من باب الغرفة فأواجه النظرات والعبارات المشفقة أو الجارحة، ثم أنظر في عيون الأعداء فأقرأ السماتة بالمصاب،و لم أستطع التجول في أنحاء البيت دون أن أرى طيف أمي يتحرك فيه. فقدان الأم أصعب ما يمكن أن يتعرض له أي إنسان ، إنه البؤس الحقيقي .عندما تموت أمك ستخاف من كل شيء، ستفقد العطاء اللامشروط، ستفقد الثقة في نفسك. وهكذا استقرّ قراري عند خيار واحد، سأبقى أسير تلك الغرفة حتى أتجنّب كل ألم زائد عن الألم الذي يجتاحني. أثناء وجودي في المستشفى بعد الحادث سمعت الطبيب يهمس لابنة عمتي عن تعقيدات العملية، و أن نسبة النجاح غير محددة، قد تنجح وقد لا، ولهذا قررت عدم المخاطرة، تجنبنا لخيبة مرة أخرى، ليس تخوفا من فقدان الحياة لأنني بحكم الميت،لا، ليس ذلك ما كنت أخشاه، كنت أخشى من مواجهة خسارة أخرى لا قبل لي بتحملها، عدا ذلك لقد حطّم ذاك الحادث أي رغبة لي في الحياة الطبيعية. وهكذا تحملت هزيمتي الأولى بروح منهرة متعبة،و جاءت الخالة الطيبة بقلب مخلّع تتوسلني الاعتناء بي، فوافقت شريطة أن تتركني وشأني،و لا تمطرني بالنصائح كل هنية، و إلا استغنيت عنها هي أيضا. و رغم أنها لم ترحب بأسلوب الفظّ معها فقد التزمت بالتعليمات دون جدال، وتفانت في خدمتي على الوتيرة التي أريد.لم أسمعها يوما تتذمّر،لم تكن ترتاد غرفتي إلا لأجل الضرورة القصوى امثالاً للأوامري، لم تفتح يوما النوافذ أو تسحب الستائر. حتى إنها لم تخاطبني ببنت شفة دون مناسبة، حدّرتها من إدخال أحد علي بدافع من محبّتها؛ لأنهما سيخرجان مترافقين من باب البيت، لقد تحملتني هذه العجوز بصدر رحب واسع،صدر أم ثانية، تسألني كيف كنت أحسن؟ كنت أعيش في الجحيم بعناصره المجتمعة، أبكي عندما أشعر بالمرارة، أضحك ساخرا من الحالة التي انتهت إليها ثم سرعان ما تتحوّل الضحكات إلى شهقات، إلى سخط، إلى انعدام الرضا بالقدر الذي

خطّ مأساتي. تمنيت لو كنت مدمنا على شيء ما، فيسكن الوجع في ملح البصر، تمنيت لو كنت سكّيرا أو متعاطيا، وخامرتني أمنية الموت فدعوت الله مرارا أن أموت وأرتاح. وذات يوم قررت الانقطاع عن ازدياد الطعام لأيام حتى يضعف هذا الجسد عديم الجدوى وترتفع الروح إلى السماء فأرتاح، ولكن لا ليس الموت سهلا عندما تطلبه. إنه يغدو متعاليا عليك هو الآخر، أبدو غريبا أن تستمتع إلى هذه العبارات من رجل شديد البأس مثلي متماسكا في كل الظروف؟، رجل تعود على الضحك والاستهتار والسخرية من كل المواقف، إن بوسعي احتمال اي خسارة أخرى بروح سامية قانعة، لكن لم أستطع مقاومة عجز في أحد أعضاء جسدي و حقيقة رحيل أمي، لقد هدّني هذا المصاب "

فجأة تجلّى على وجهه ألم راعد، ألم يعكس قلبا مفلوجا وتأثرا بالغا، وتحولت لهجته إلى حزينة مهشّمة فيما تكبّد قلب عمر ألما قاسية

_ " على ذلك الكرسي إنما جلست لأتفقّه في العالم المظلم الجديد المنحصر بين جدران صماء، الذي وجدت نفسي مرغما على العيش فيه مهزوما وحيدا، ليس الفرج هو الذي انتظرتة، فقد فقدت الأمل من مقدرتي على المشي، كان واضحا أنه ليس لدي فرصة؛ بل أن تمضي الأيام بسرعة دون تلكؤ فأغدو رجلا تقدمت به السنون ثم شيخا هرما. وهكذا يتناسق وضعي مع سنيّ فلا يشفق علي إنسان، ولكن ما الذي حدث؟ ما الذي حدث "

زاولته غصّة الألم وظهر دفاء في عينيه، مصوبا نظراته المشرقة باتجاه النافذة كأن عبئا ثقيلا أزعج عن كاهله "حدث أن جاءني الفرج وأنا لا أزال شابا يافعا. في البداية تنكرت له وأشحت بقلبي الكليم عنه، برز لي كلغو تافه يشابه في مضمونه ما سبق. هل لك أن تتخيل، ظلام و عتمة، ضياع وفقد، فتزورك نقطة نور صغيرة بحجم عين الإبرة ثم ما تنفك تكبر وتكبر ككرة الثلج المتدحرجة حتى تمسي نافذة أجبرتني على استقبال ضوء ملاً كل حياتي نورا ساطعا "

و التفت عمر إلى النافذة التي يولمها ظهره، هناك شيء ما ليرى، ولكنه لم ير شيء _ "و سقطت من عقلي مصطلحات الكآبة و الاستسلام و التراجع، تاركة فسحة شاسعة للأمل والكفاح، والتعلّق بالحياة، أجل عندما ذهبت أمي ظننت أن العالم قد انهيار، ومع رحيلها رحل كل شيء جميل في حياتي. ولو أنها لم تغادر الدنيا و تتركني لشعرت ببعض العزاء حتى مع ساقين مشلولتين و داخل محطّم، ثم أمل مبسوط على جناح مهشّم، كانت أمي ستعوّض أي نقص، وكانت كلماتها الحنوننة ستطفئ أي ثورة أسى تنفجر في صدري، و تداوي أي جروح تخلفها نظرات الأقرباء و الغرباء المشفقة، وإن كان هناك شعور أمقته من كل قلبي فهو

الشفقة الصريحة. ولكن حدث أن حصلت على تعويض أكبر مما توقعت. لقد منّ الله عليّ بأيمٍ أخرى، أجل أمٍ أخرى، أخالها أصغر من أن تكون مناسبة لمثل هذه المكانة، ولكنها قالت كلماتها لو أنّها حية، وسلكت طريقها، واستني دون إظهار شفقتها عليّ أو إشارة إلى حالتي "

غشيت عينيه نظرةً حاملة، وكانت عاطفة جامحة مسطورة على وجهه، مقروءة واضحة
_ " لم يسند ضعفي سواها، ولم يهوّن مأساتي إلا وجودها و لولاها لما قامت لي قائمة أبداً، ولاستمرت حياتي بين جدران أربع من دون ضوء و لا نور. كانت رابطتي الوحيد للاتصال مع العالم الخارجي ورمز الحياة، من خلالها برزت مصيبتني تافهة مقارنة بمصائب أناس آخرين لا أعرفهم، غير أن قصصهم كانت تشعرني بالخجل من نفسي لأنني أحسن منهم آلاف الدرجات بينما لا يصدر عنهم تذمر أو شكوى، بينما لم يعتزلوا الحياة، بل يعيشونها كما هي قانعين بنصيهم منها، راضين كل الرضا، خاضوا معاركها بروح مثابرة و عزيمة جيازة، معظمهم مجرد نساء وحيادات ضعيفات. تتفوق قدراتهن على التغلّب على الكوارث على بنيتهن الجسدية "

_ "من هي" استوضح عمر أخيراً مندهشاً
_ "لا أعرف إلا اسمها، لم أرها يوماً، ولكنها تسيطر على خيالي " و ابتسم ابتسامة منعشة، فيما حوّل نظراته مجدداً إلى النافذة ينظر إلى لا شيء صامتاً شاردًا.
_ "إذا ففي القضية فتاة؟ وليس شبها "أجاب بمكر، مضيقاً عينيه الزرقاوين الصغيرتين على أنه لم يتلق جواباً فكّر سؤاله بطريقة مختلفة "ما اسمها".

_ "أثيل" قال مباشرة مبتسماً بعدوية، و عيناه مسمرتان على النافذة لكأنها ماثلة أمامه
_ " إذا فقد صدق حدسي "قال مستحسناً"لم تكن نهضتكَ من عدم، هناك من دفعك بيدين متحدتين إلى الطريق السليم. أي كلمات لم نقلها نحن هذه التي بثّت في نفسك كل هذا الطاقة، من هذه، من تكون؟أهي معجبة سرية؟ لطالما أيقنت أنك بارع في امتلاك قلوب النساء بسهولة دون استعمال وسائلنا الملتوية، إذا فالملك المنقذ المسى أثيل هو من انتشلك من براثن الإحباط والهزيمة"أضف هازئاً "ماذا فعلت بالضبط؟"

"أرسلت لي رسائل مشجعة كل يوم، كل صباح ومساءً، شجعتني "قال بتأثر" رسائل رائعة مفعمة بالود والنقاء و التحفيز، لم تخلف يوماً".

"ببساطة منتبهة، رائع، رسائل إذا!!! ماذا تتضمن؟ هل روت لك قصص ألف ليلة وليلة فغيّرتك مثلما غيّر الملك شهريار ، أرجو أن تكون جميلة مثل شهزاد . إن غريزتي أبداً لا تسمح لي بتلقي مواساة أو دعم من فتاة قبيحة حتى لو قضيت حياتي وحيداً أصيد الذباب بين جدران غرفة قاتمة عديمة الأبواب، ليس الذنب ذنبي على أية حال إنها الغريزة".

_ "لست مهتمًا إن كانت جميلة أو لا" أجاب بحزم، بعينين تتوهجان احتجاجًا، تكفران بهذا التعليق السخيف "فلتكن أفتح نساء الدنيا، لست أبالي، أنا أراها بقلبي وليس بعيني، وطيلة هذه الشهور كانت أجمل النساء بالنسبة لي، بنبل مشاعرها و طيبة قلبها، لم تفقد الأمل مني واستمرت تكتب لي دونما انقطاع إلى أن، إلى أن أن، لقد كَفَّت فجأة، عندما عدت إلى البيت لم أجد رسائل جديدة، و آخر رسالة تلقيتها منها كانت أواخر يوليو ."

_ "إنني مهتم بمعرفة الذي كانت تكتبه" قال عمر باهتمام، محرًا رأسه "أو أنك تحتفظ بمضمونها سرًا عن أقرب صديق لك، ليس عدلاً أن تتركني في هذه الحالة من الحيرة، حيث أنني أجد قصتك هذه غريبة ممتعة، مغالية في الندرة، فتاة مجهولة لم ترها يوماً، ولا تعرف عنها إلا اسمها تمدّ لك يدا داعمة في أعماق الحفرة المظلمة، وتتمكّن ببساطة من إخراجك منها، ألم تعجبك يدي؟" و كَوَّر قبضته، ثم رفعها إلى مستوِّ مكافئ مع عينيه وراح يقلّبها بهتّم "ألم تعجبك؟ لم أكتب رسائل بعدد الأنسة الغامضة أثيل، ولكن المحتوى كان صادقاً منزهاً عن أي شفقة تذكر، كنت أدمك أيضاً فلماذا لم ألهمك؟، أرجوك يا خليل أن تتواضع وتخبرني عن الذي كتبتة هذه الفتاة، فهذا البريق اللألاء في عينيك الهانئتين إنما يدفعني إلى التلصّص على رسائل قادمة من المجهول " أطبق يديه في حركة توَسَّل تنمّ عن سخرية

"اضحك كما تشاء، لست أبالي" قال خليل هازاً منكبيه بغير اكتراث وعاد خياله مزهراً إلى رسائلها كأنها مطبوعة في عقله، يحفظها كلمة، كلمة. فابتسم ابتسامة عريضة "ذاك المجهول التي تسخر منه، إنما تسبّب في انحراف قدري المثلوم، ذاك المجهول الذي استباح كل ثانية من عمري المنهك، إنما دفأً قلبي المتجمد. عندما تلقيت أول رسالة منها تجاهلتها وكلي غلّ عليها لأنني محبط أسير رجلين مثقلتين بالإعاقة محكومتين بالتصلّب، ولم يكن موجّهاً لها بصورة خاصة، بل على كل إنسان يحاول أن يظهر بمظهر الداعم. علمت بخبرتي المستجدة أنه تمهيد لرسالة طويلة تسهب فيها بالشفقة علي شأنها كالآخرين. فتاة اسمها أثيل تقطن في مدينة س.ب، فتساءلت إن ما كان أحد قد أخبرها أنّها حمقاء وأن رسائلها ساذجة، أو أنّ هذه المهمة ستكون من نصيبي أيضاً. كان سيسترني أن أخبرها أنّها غبية، وأنني لا أبه إن كانت من مدينة س.ب، أوح.ج، أو من المشتري أو أي مكان آخر. فلتذهب إلى الجحيم وتدعني وشأني، وكانت أحقادني كافية لجعلها تبكي ما تبقى من حياتها، وشعرت بالسعادة وأنا أتخيّل نفسي أتسبّب في بكاء إنسان، خاصة فتاة من النوع الأحمق. وهممت أن أشحن الرسالة بأكثر العبارات قسوة وفضاظة، أن أوّلها بقدر ألي. أن أجردّها من أي رغبة عواء في كتابة رسائل أخرى. ولست أعرف لماذا اخترتها هي بالذات لأجرحها، من بين كل الناس المهتمين بإبداء روح التعاطف. لكن

أوقفني شيء ما، لم يكن خوفي على مشاعرها أن تخدش، لا، أحسست أنّها لا تستحقّ تبييد أعصابي عليها، فأنا رغم كل الحطام المحيط بي كنت لا أزال أحتفظ بكبريائي الراقى و نزعة الاعتزاز بنفسى. ينبغى أن لا أقدم لها فرصة لتعتقد أنني أتألم، سأتجاهلها، وأجعلها ترتدّ خائبة، ثم سرعان ما فكّرت أنها ستنقطع عن مراسلتي بعد مرتين أو ثلاث على أحسن تقدير، وكان ذلك مصيبا مع كل الغربان السوداء. هكذا كنت أطلق عليهم وأنا في ذروة التعاسة، إلا هي "

ألقي عليه عمر نظرة غير مريحة. وهز رأسه، إذا فقد كان يطلق عليه غرابا أسودا أيضا _ "بيد أنها على غير المتوقع لم تتوقّف. و خطر لي مرة أخرى أن أقطع الطريق في وجهها، وأعاتبها بلهجة شديدة، لكنني وجدت رسائلها لطيفة تتحرّش بأنامل الفوقعة التي غلّفت نفسي بها، فتحدثت فيها ثقوبا دقيقة وتدفعني إلى التبسّم وعندما اصطدمت بهذه الحقيقة كرهتها كرها وحشيا يفوق كراهيتي لإعاقتي، و كرهت رسائلها الغبية، فتوجّه تفكيري إلى التوقّف عن قراءتها، وهكذا دون أن أهين مقامي الرفيع و أشمتها مثل رجل الشارع غير المهذب، على الأقلّ كان بمقدوري التعلّق بمظاهر المجتمع المهذّبة، هكذا أبلّيت حسنا في توجيه قراري إلى عدم قراءة رسائلها مجددا، محيطا نفسي بكبرياء شامخ، وإهانة غيبية لها، سأذلّها بهذه الطريقة، سأصفع اهتمامها، وتدخّلت أيادي الفراغ الخامل بين الجدران البائسة تصقّق مجلجلة في أذني، و اشتعل الفضول في رأسي كلهيب النار، و لم أستسلم بادئ الأمر، بل تمهلّت الخطى، ولكن،، ولكن "

ارتفعت لهجته فغدت مثل أوامر قائد عسكري "كان في رسائلها ما يشدّني، يدفعني إلى الاستسلام، وتساءلت متطفلا، متحرّقا ما الذي فعلته اليوم؟ أين ذهبت؟ بماذا ستنتعني بماذا ستحاول استفزازي لأجيب على رسائلها؟، ثم ماذا فعلت السيّدة المجنونة سميحة، تلك التي تملك نصف عقل، لا، إنها بدونه "

_ "و من هذه؟" سأل عمر رافعا حاجبيه مستغريا من الاسم الجديد، وكأّتها فرد مألوف من العائلة .

_ "إنها جارة العائلة المحترمة" قال خليل ساخرا و أحسنّ أنه يهتّز من ضحك مكتوم نابع من استعراض الحكايات السالفة " امرأة تجري المشاريع و الشجارات في دمها و أنفاسها، لا تنفك تحدث بلبلّة و ضجّة بأي مكان تذهب إليه، إن لديها ابنتين مضحكتين مثلها أتذكّر على نحو غائم اسم الصغيرة، بينما دائما يغيب عن عقلي اسم الكبيرة، إنها تؤمن مفاجآت مسلية بنكهة الفلفل الحار، ذلك هو السبب الكامن خلف قهقهاتي المتكرّرة التي لو وجدت خالتي طريقا سالكا

لسؤالها عنها لما ترددت، ليست محاطة بتلك المجنونة فحسب هناك المزيد، عجوز تشتغل في مكتبته، قد يموت إثر سكتة قلبية نتيجة تغيب إحدى موظفاته، و زمرة أخرى من العجائز والمعارف الشاذين، غربيي الطباع، كأنهم من كوكب آخر، على أن خلف كل شخصية عرضتها أمامي قصة مؤلمة، أناس يتألمون و لكنهم صامدون مكافحون، أشخاص أنتزعت منهم كل متع الحياة ، و بعضهم انتزع منه الموت أحبائه، حتى إن إحدهن مات أبناءها الثلاثة دفعة واحدة ولكنها تقاوم، لم تتطرق يوما إلى حالتي أو تشير إلى إعاقتي أو تذكرني بين الدقيقة و أختها أنها تشعر بألمي، أو تتعاطف مع مصابي، لو أنها فعلت ذلك لما أعطتني سببا واحدا لأكرس أفكارني، وعقلي و كل دقائق عمري لأجلها، أجل يا صديقي ذلك ما حادني عن رأيي العنيد و جعلني أعيد التفكير مرة و ائنتين و ثلاثة، هذه الصبيّة التي لم أرها يوما، التي تألمت لألمها و ضحكت لدعاباتها و إن ما تغيّبت، كنت أموت خوفا و هلعاً، و تتحرّب كل عواظني في كتلة واحدة: الذعر من فقدانها، ذات مرة أصيبت بنوبة برد فأدخلت المشفى و غابت أسبوعاً كاملاً، لم يكن إلا مصطلح الجنون ليصف حالتي، مررت بأسوأ الأوقات على الإطلاق، و تسارعت الخواطر تُنغصُ طمأنينتي، تجارحها حتى القلق الرهيب مقدرة و سرعة: هل أصابها مكروه، أو أنها اعتزلت مراسلتي إثر جفائي البارد معها، أو أنها ماتت: إن تلك الخاطرة المشؤومة كانت الأسوأ على الإطلاق، أحسست أنّ أمي قد تركتني للمرة الثانية. و قبل أن أتنازل و أرسل إليها رسالة اطمئنان عليها، استقبلت رسالة منها تعدد لي أسباب غيابها، فاسترخت أعصابني، هي الصبيّة التي قادتني إلى استقبال ضوء الشمس وفتح النافذة، الصبيّة التي اكتشفت يوما وأنا اعالج موضوعها بيني و بين نفسي إن ما كان غريباً ما يحدث معي، و تساءلت مشوّشا: ماذا يسمى هذا، أتراني أحبها !، هل يمكن أن يحبّ الرجل فتاة لم يراها يوما ! لا ليس الأمر كذلك، لن أحبها، لن أحبها، و مرة أخرى كرهت نفسي لأنني أشعر بهذا التعلّق اللاإرادي بها. ولكن أي شيء أستطيع أن أفعله، إنني عاجز أمام صبيتها، أمام عفوية طفلة صغيرة تتجلّى براءتها في مخاطبتي خليلي، ملاكي، كترني، أمام فتاة ذكية، ساذجة مصممة شجاعة، جريئة".

تدققت الكلمات المحمومة كأنها جاهزة للنطق بها، قادمة من كتاب قديم مفتوح واضح " تنكرت لشعوري الذي يدينني كما يتنكر المقبوض عليه في مسرح الجريمة، و ذات ليلة من ليالي الشتاء اعترفت كمجرم مذنب، اعترفت أنني أحتاجها كما تحتاج الرثة إلى الهواء، كما يحتاج القلب إلى النبضات، بعد أن تقلبت في فراش النكران طويلاً، تقبلت بطيبة خاطر هزيمتي أمام سلطانها، تقبلت أن العيش من دونها عقاب ظالم. و لأول مرة لم أكرهها، بل كرهت ذلك الكرسي المتحرك، كرهت السجن الذي يفصلني عن وجهها. حتى إن خاطرة جديدة ومضت في

عقلي، تلهّفت إلى التخلّي عنه. حيث أنني لم أجرؤ على الردّ عليها و أنا جليسه، مجبول عليه، ينبغي أن أقف على قدمي لأجل نفسي، لأجل الذين يثقون بي، ولأجل أن أعرف هوية الفتاة التي تهتم بي كل هذا الاهتمام، يقتلني الفضول لمعرفة من تكون؟. عزمت على تنفيذ قراري لن يحدث على أية حال أسوأ مما حدث، لقد خسرت من قبل، مما الخوف؟ ، وهكذا مدفوعا بصورتها و إرادتها ، صمّمت على إجراء تلك العملية رغم التعقيدات المحفوفة، وراح الضعف والتردد يتملّصان من عقلي شيئا فشيئا . هي، هي ملجئي، ملجئي ولا أملك ملجأ سواها"

ران الصمت لهنيمة غير قصيرة و هو يعاود النظر باتجاه النافذة مثل من يحزّر إفادته بوجي من صورتها ويستمدّ قوة وشدة، صورة رسمتها أنامل عقله بوجي من وصف باهت الدقّة، شحيح التفاصيل ولكنها صورة على الأقلّ، إنها ليست بذاك الجمال ولكنها ليست منفرة أيضا، شعرها أسود وكذلك عيناها. صورة يرحّب بها خياله ترحيبا سارًا و يمنحها أوسمة القبول ولفحة من الغبطة، وأضاء الوجه المتعبّد بابتسامة ناعمة تدعم حقيقة ظاهرة منمّقة.

_ "ثم؟ سأل عمر مرتابا " أكمل، ماذا تنوي من كل هذا؟، لست مرتاحا لهذه النظرة الخرقاء في عينيك"

أخلد إلى السكون مفكّرًا، ما الذي ينوي فعله؟ لم يجد السؤال و طريقة طرحه سليمة؟ كان فيها نوع من الاستخفاف بمجهود الفتاة، ما الذي ينوي فعله؟ ومرّ وقت طويل قبل أن يجيب جوابا واثقا

_ "أنا أبحث عنها، أودّ مقابلتها، لا أعرف كيف؟ لكن ذلك سيتحقّق في وقت ما، رغم أنها لا تردّ على رسائلي"

وقابله عمر بانزعاج مُكشّر، أضحى خليل يعالج كل أموره بعاطفة خرقاء وبقليل من الحذر، في البداية يرضى بالعمل لصالح جريدة فاشلة والآن يبحث عن شخص مجهول آمن أنه أسهم في إخراجه من عزلته

"أرسل لها رسالة تشكرها فيها ودعنا نغلق هذه الصفحة"

كأنّ ضربة هوت على رأسه فأفقدته هدوءه و حدّق إلى عمر بنظرة غريبة تحمل على متنها عتابا وزجرا

_ "لست أودّ شكرها، لست أبحث عنها لأشكرها"

_ "لأيّ غرض إذا تبحث عنها؟" استوضح عمر محتد التعابير "إنك مجنون و لطلالما كنت تعلق أهمية على أمور صغيرة غير ذات بال، لأيّ شيء تبحث عنها؟ إنك تخدع نفسك بتوجيه كل ما وصلت إليه إلى جهودها، في الواقع كنت تستمدّ القوة من نفسك، لطلالما كنت قويا شجاعا يا

خليل، لقد قضيت وقتا طويلا لوحدك، ومن الطبيعي أن تأنس برسائلها، لست أنت من تعينه فتاة على الوقوف من جديد"

_ "أتعرف؟" قال خليل مطمئنا تحيط بوجهه هالة من القناعة الحاسمة "لقد خَبِرْتُ كل أنواع الألم و الوحدة، ولو لم أكن في مثل تلك المحنة أقاتل من أجل الخسارة، الخسارة "شدد عليها" لما عَنَّ لي أن أتسَّس وجودها، في الواقع أنا لم أستمد شيء من ذاتي، لأنني لم أكن أملك أي دعم أو قوة أو طاقة، فحتى ذاتي تخلت عني، ولست أخجل من اعترافي بالضعف والهزيمة، كل شيء كان وليد نضالها من أجلي، لقد جعلتني أستبين بمخاوفي كما كانت ستفعل والديني لو بقيت على قيد الحياة، ولن أعود جباناً ما حييت. وأنت كعادتك تقلل من شأن النساء كثيراً يا صديقي وتفترض أنهن ضعيفات يصرخن ويولولن من رؤية صرصور على الأرض. لا إن منطلقك غير سليم، و أمل أن تغيّر من ذهنتك ذات يوم "و أضاف بحدّة، تلفّ وجهه سحنة تصميم "أجل سأبحث عنها، و إن اضطررت إلى طرق كل باب من بيوت مدينة س، ب، و سأظلّ أرسل الرسائل إليها الى أن تتخلّى عن عنادها وتتنازل لترد لي جواباً "

_ "تتنازل هي تتنازل، لتحمد الله لأنك تمنّ عليها برسالة شكر " وتصلّب وجهه حانقاً "لا تكن عاطفياً يا خليل، أنت رجل وقور بمكانة معتبرة، كيف تتوسّل فتاة مجهولة الهوية كي تردّ عليك جواباً؟ لا ينبغي أن تسخر بمنزلتك بهذه الطريقة المهينة "

_ "مكانتي " و قهقهه خليل قهقهة مجلجلة ، هزت جدران الغرفة" أستغرب من أقوالك يا عمر، أي مكانة، منذ أشهر لم أكن إلا رجلاً مقعداً مطروداً من الوظيفة لأنه لا ينفع لشيء، مدعاة للشفقة وحيداً، معزولاً و كئيماً، يعيش على معروف الأقرباء، لم أكن أملك إلا ما ترسله لي عمتي و بعض الأقارب الحريصين على أواصر القرابة "

نهض من مكانه متجّهاً إلى النافذة ووجهه ينطق بسخرية مكبوحه وبعد إلقائه نظرة عاد فجلس ثم خاطبه بجفاء "يبدو أنك لا تزال تعتبرني الصحفي اللامع الناجح صاحب الألقاب والمواهب المتعددة، لا لم أعد كذلك، حتى أولئك الذين كانوا يتملقونني لم أستقبل منهم أكثر من رسالة واحدة و بعضهم وجدها كثيرة علي، أي مكانة يا صاحبي!"

اتّقد الأشمئزاز في عينيه كنار زاحفة في غابة شاسعة "في الواقع كانت مكانتي الوحيدة هي الحفر العميقة و الهزائم و السقوط المنبسط على الأرض، لم أكن شيء، و هي من أوجدتني من جديد. ولذلك إنني أدعو الله أن ينزل بعض الرحمة في قلبها فترضى بمقابلتي و إنه لشرف عظيم لي "

_ "خليل" قال عمر بغير حماس ووجهه عبوس منقبض " أنت لا تحبّها، إنه مجرد تعلق و قتي

سيذهب إلى حاله.أوافقك، لقد أبدعت الفتاة ونحن شاكرون لها معروفيها، طالما إنك تصرّ على إصاق كل الفضل بربقتها. ولكن لست بحاجة إلى البحث عن فتاة لا تعرف عنها إلا اسمها، ستحصل على فتاة مناسبة ابنة عائلة راقية ، عندما تنطلق بعملك الجديد"

_ "إنك تعلق أهمية كبيرة على الطبقة الاجتماعية ،هذه معايير التوافق لديك "أجاب خليل بازدراء" ولكن هل تقف فتاتك المناسبة بجانب رجل مقعد لا يملك شيء؟. لا إن التزييف لا يفنى إلا على مذابح المواقف، وإنما لمعدن خالص، سيكون من حسن طالعي أن أظرفه، ولست أبالي بجمالها أو مكانتها،و إن كنت لا أعلم عنها إلا اسمها الآن،فقريبا سأعرف عنها كل شيء"

_ "افهم يا خليل،أنت لا تعرفها و هنا تكمن المشكلة،من تكون؟ربما القصص التي سردتها كاذبة "و قطّب عمر حاجبيه شبه منتحب لهذا العزم المضطرم المتهوّر "ينبغي أن تكون حذرا،لا تتهوّر يا خليل،ربما تكون الفتاة وليدة بيئة غير جيدة،لست مرتاحا "

_ "هل كنت حذرا أنت في مغامراتك ؟" قال خليل بهتّم

_ "لا إنني صياد ، لم اقع في حبّ أي من تلك النساء اللاتي خذت معهن المغامرات،لقد نعمت بوقت طيّب و بالكاد أذكر وجوههن "صاح عمر متفاخرا والزهو يقفز من عينيه الصغيرتين" وهذا هو الفرق، أما أنت فيبدو أنك مفتون،مخلوب اللب بها، إن التعلّق يخرب خلايا التفكير كما أرى، ويصبح الإنسان عاجزا عن التحكم بأوراق حياته ،أوراقي أنا كانت تحت سيطرتي الكاملة، أفضل في سبر أغوار عقلك وهذا ما يخيفني، ينبغي أن تقف عند بعض النقاط المهمّة، ربما كان هدف الفتاة من الأول الإيقاع بك في شباكها، أجل ربما هو فخّ، وربما هي تستدرجك لأجل إلحاق الأذى بك أو ربما ليست موجودة إطلاقا".

كانت لدى خليل فكرة مؤلفة من ثلاث عناصر، إنها موجودة، اسمها أثيل،و هي فتاة جيدة، وهي فكرة منيعة تدافع عن نفسها تصدّ كل محاولة للعبث بها.

_ "إنني أحب الفخاخ "قال خليل ضاحكا "خاصة تلك التي تنصب لأجل المصالحة،و أنا سعيد جدا لوقوعي في الفخ، ليبتها تمنحني فرصة لأراها و لا أمتنع أن تمرّق جلدي، لا تكن خائفا علي ،ليست أبدا من النوع الذي ينصب الفخاخ و يشكّل خطرا،هي فتاة بسيطة ابنة عائلة محترمة، أستطيع أن أعتد على إحساسي و هو يقول أنها موجودة من دم و لحم، تتنفس مثلنا وكلّ ما كتبتة صدق وحقيقة، ولن يثنيني عن عزمي أي رادع،و طالما قضيت سنة عاطلا عالة على غيري لا آتي بأي منفعة،لا أمانع أن أقضي أخرى في التسكّع في بحث مضمّن عن فتاة مثلها،فتاة تعادل قيمتها جبالا شاهقة من الألباس الخالص"

ومرة أخرى حدّق عمر إلى وجهه بنظرة مثقلة بالاستياء،كان هذه النوع من الاندفاع يؤرقه

دائماً، و باعتباره رجلاً متحفظاً حريصاً امتنع عن اعتناق هذا الاندفاع المارق . وبعد أن صمت لدقيقة كاملة ينقّب في أعماق عقله برز له استحالة قدرته على منع نفسه من تنبيهه ثانية قال _ "أخبرتني أنك لم تعد تتلقى منها رسائل، إذا فلقد انسحبت"

_ "ولست تردّ على رسائلي أيضاً، وهذا ما يمضّني، أفترض أن هدفها كان حملي على الخروج من النفسية المزرية التي كنت فيها، و بما أنها بلغت غايتها وحققت مرادها فلن تأبه لمسألة الرد".

_ "ذاك ممتاز" علق عمر بسرور "لو أنها فعلت ما فعلت بسبب أنها تحبك لكنت الآن مسرورة وهي تتبادل معك الرسائل، إذا فالآنسة العظيمة أثيل أوكلت لها مهمة مساعدتك، ولذلك لا تتعب نفسك بالبحث عنها "

_ " لا تحبني؟" قال جزعاً وقد اكتسب وجهه تعبير مغتاض "إذا فعلي بذل مجهود في سبيل الظفر بقلها. إن مثل تلك القلوب نادرة و امتلاكها مكسب عظيم، سأتودّد إليها بكل ما أستطيع من حيل من أجل نيلها، أهنالك نصائح تودّ إسداءها بهذا الشأن؟ "

ورفع عمر حاجبيه زافراً زفرة ضجر طويلة، كان جلياً أن خليل يتشدّق ثم هزّ منكبيه _ "نصائح، لا، إنني لا أملك إلا نصائح لأجل استدراج الفتاة ثم تركها بالنهاية، أنت لم تجرّب هذه المتعة من قبل، إنها متناهية اللذة، لذة الصيد، لا أحب سمكات الزواج و الحب ، بقدر ما أحب سمكات المتعة، أما حالتك هذه ،فإنني لا أقدرها إلا حمقاً زريّاً، وأحسبك لن تصغي إلى رأي أحد لذلك افعل ما يحلو لك، تذكر أنني نصحتك و أرجو أن لا تخيب آمالك ذات يوم وتعود خاوي اليدين "

_ "أولئك الذين يخسرون دائماً، يتحملون خسارة أخرى بقلب كبير و إيمان قوي "قال خليل بثقة وقورة ، ووجهه ينقلب إلى حالة البرود "إن لي الحياة بطولها لأنتظرها و لست في عجلة من أمري".

سمعا الاثنان باب البيت يفتح، ثم سمع وقع أقدام السيّدة العجوز تهادي باتّجاه المطبخ

_ "لقد عادت خالتك العزيزة، كانت تسألني منذ قليل عن الرّواج فصدمتها بعدم عزمي على الزواج، هب أنني تزوّجت و أسأت الاختيار، ماذا ستكون النتيجة، صراخ و مشاكل و شجارات طوال اليوم "و فجأة اتّجه بالحديث إلى نقطة مغايرة "ماذا عن العمل، لست تنوي العودة إلى التحرّش بأعصاب هؤلاء الآفات أليس كذلك؟ اسمع لا تنشر شيء بخصوصهم، إن تهوّرْك بشأن الفتاة لن يودي بك غالباً إلى السجن ، ولذلك لست أبالي بأمرها، افعل ما تراه مناسباً

بحياتك. أما هؤلاء، فلن يغفروا لك نزوة عرضية أخرى من نزواتك، لقد كدت تدخل السجن المرة الفاتنة، لا أعرف كيف نجوت منها، كن عاقلاً، إنك واعي أكثر مما هو ضروري و هم يغفرون أي شيء إلا أن تكون واعياً، الوعي في هذه البقعة خطيئة".

_ "ما رأيك أن ألبس ثوباً وأضع غطاءً على رأسي أيضاً" قال خليل مازحاً رامقاً إياه بنظرة معاتبة "حتى أثبت لهم أنني خائف مرتعب، الدكتاتورية تستنزف الحرية والديمقراطية توفرها و بين تستنزف وتوفر طريق وعر طويل سأقطعه، يصنعون منا عبيداً في أقفاص يجعلون منا وحوشاً يأكل بعضها بعضاً العبودية تجعل الإنسان وحشاً أنانياً، وإن صمتنا يقودهم إلى الطغيان أكثر، ولولا أن يد الحق انسحبت لما عبثت أيادي الباطل في مستقبل الناس وحكمت نفسها وصية عليهم. سأقول ما أجده مناسباً ولست أبالي إن كانوا يستحسنونه أو لا. ذلك ليس من شأني، لقد كنت ولا أزال يقط الضمير، سأبدأ ما كنت عازماً عليه قبل الحادث، الوزير مرزوق الذي استولى على الأراضي الغربية الزراعية من مدينة ن.و، وحولها إلى منشآت صناعية مخالفاً بذلك القانون، واستغل منصبه لعقد صفقات مشبوهة معروفة، بالإضافة إلى تبيد المال العام ورغم ذلك لا يزال على رأس منصبه"

أمسى صوته مرتفعاً حازماً جازماً واندفع عقله في موجة من السخط "لن أقف مكتوف الأيدي أمام ما يحصل، حتى لو ذهبت إلى السجن"

_ "أصبحت أعند عن ذي قبل يا خليل، إنني أسدي لك نصيحة شقيق لشقيقه، أنا خائف على مصباحتك فقط، لن يتهاونوا مطلقاً في قطع أي لسان يتكلم عن أعمالهم. اعقد هدنة معهم، تعافيت لتوك، من أكلّم أنا؟! من أحاول أن أنصح، كلب صيد لاشيء ينفع معك، لكنني جد سعيد لتعافيك،، خالتي رفيدياء،،، خالتي رفيدياء، أحْتَاج بعض القهوة، إن رأسي يكاد ينفجر،، لا جدوى من النقاش مع الصخور"

_ "خالتي، لا تتعبي نفسك" صاح خليل "سأرميه خارجاً بعد قليل، إنه يوتّر أعصابي"

الفصل الثاني

"عزيزتي الوائية بنفسها، التي لا تتنازل فترد جوابا لخليها
لقد بعثت لك إلى حدّ الساعة عشر رسائل، قابلتها بالجفاء و التجاهل، وأشعر بالأسف
حيال ذلك، أنا على يقين تام أنها قرأت من طرفك، بيد أنني لا أكاد أستوعب سبب انقطاعك
المفاجيء عن مراسلتي ثم عدم الرد علي، ما الذي طرأ عليك، ما الذي تغير؟ . أفترض أنّها
ضحلة مملة تفتقد عامل التشويق والمغامرات، مقارنة برسائلك الساحرة المبدعة. مردّ ذلك إلى
اعتزالي الكتابة مدة طويلة، حيث تراجع جودتها، كنت مبدعة جدا و غاية في المهنية حتى أنك
تفوقت علي، أريد أن أخبرك أن العلامة الكاملة لا يسعها إنصاف جهودك العظيمة، ولو أنني
أعلم أن غايتك منها لم تكن نقل التقارير أو التجارب الميدانية، كانت مجرد حجة عذبة لتقضي
حياتي الناعسة.

أخشى أنك ستستلمين المزيد من طرفي رغم عدم اهتمامك، لأن تجاهلك لا يسوقني إلى
الحياد عن هدفي، فقد كنت دوما والحمد لله أفتقد إلى عامل التراجع في شخصيتي، لو أنك
تعرفيني جيدا لاستنتجت أنني لن أحميد مطلقا. أمل قريبا استعادة موهبتي المدفونة وأحظى
بمزية كتابة رسائل بجودة رسائلك و على الأرجح سأتفوق عليك . أتطلع إلى التفاتة رقيقة
منك، إنك تعلقين أهمية على الجودة كما أحسب. لست مبدعا مثلك يا أثيل، بيد أن أنامل
عقلي ستضاعف مجهودها في الأيام المقبلة لأحوز على إعجابك، وهكذا أظفر برسالة واحدة
على الأقل منك أو ربما تمطريني بعدد هائل كعهديك.

خليك المجتهد "

"شجاعتي التي تصعد الجبال ثم تزلّ قدمها فتسقط و تنهض بسرعة، لأن لا شيء باستثناء
القمة يرضيها

أنت مدينة لي بجواب عن أسئلتني التي طرحتها، لقد خالفت عاداتي المترثثة ووضعتها في سلّة
واحدة .حسنا، لم تُدقّ ساعة الأجوبة بعد و لكن بوسعي الانتظار إلى الأبد، لن تجعليني
بتجاهلك أهجر إصراري الصبور، وإن ما كنت تختبرين صبري، فأنا أتقن فنّ الصبر مع
الاستعانة بالمقادير المناسبة.

عاد صديقي عمر منذ قليل إلى بيتي و طرق الباب كمن يصقّي معه حسابا قديما لم يغلق
بعد، و لولا أنني أخشى على باب المنزل من التحطّم، لما كان يضيرني أن يستمر واقفا لساعة أو

ساعتين، لقد زارني صباح أمس وأنا لم أنعم برؤيته منذ تعرضي لذلك الحادث المؤسف، دعوته إلى الغداء وأغريته بفكرة أن الأطباق التي تجهز الآن في المطبخ ربما تحته على إعادة النظر في العودة إلى عمله بالخارج، وهكذا سيتحطم مستقبله كلياً. ثم جلست رفقتي نتجاذب أطراف الحديث حول بعض المسائل وخاصة الذكريات المشتركة بيننا، إنه أروع صديق حظيت به في الدنيا، وأحاول أن أقضي معه أطول فترة ممكنة، لأنه في صدد قضاء إجازة قصيرة في البلاد ثم يقفل عائداً إلى عمله، هو مملّ غالباً مثل نشرة الأخبار، لا يكبر أبداً ليكون جدياً. يندر أن يكون فكرة جيّدة لتصيّد بعض المتعة، ليس بجودة صديقتك السيّدة المحترمة سميحة فلا أحد حتماً يضاهي جودتها الفكاهية، إن الوقت برفقتها يمر في رمشة عين، وقضاء ساعة واحدة معها يُعدّ إنجازاً عظيماً، فهي مسلية متهوّرة بإبداعات مضحكة وروح منطلقة صعبة الانقياد و لست أحبّ إلا هذا النوع من البشر، انقلي إليها تحياتي الحارّة إن كنت لا تنزعجين.

بالمناسبة أوّد أن أقترح عليك عرضاً. إنه طلب أكثر منه اقتراح، هل تعبريني إياها رفقة ابنتها الجبانتين إن ما ترسّخت في عقلي فكرة الذهاب إلى الرّيف في الشّتاء القادم، لقد استلهمت الفكرة من رحلتك المشوقة المحفوفة بالمرح، أريد أن أستمتع بإحساس المغامرة المجنونة، لثقتي أنه لولا وجود السيّدة وذريّتها على رأس القائمة في الرحلة لما نعمت بذلك القدر من المتعة، وكذلك أنا، اأظن أن الأمر سيغضب صديقتي وخاصة الغيورات، لست أقصدك بالطبع، فأنت لا تغارين أبداً، إنك فقط ترسلين الناس إلى القبور من شدة الغيرة أليس كذلك؟ ملاحظة: أستغني عن خدمات الفتاتين الجبانة، ولا أحسبك تتزعجين مني الحقّ في اصطحاب السيّدة سميحة، أنا اكتفي بها، وإن كنت تنوين الشجار لأجل هذه النقطة فأنا أرحبّ به في أي وقت، فقط اكتبني وعبري عن غضبك بكل ديمقراطية

صديقك الوفيّ خليل "

"أثيل الصامتة"

أكل هذا الصمت، انتقام مني لعدم الرد عليك؟ هل سيطول هذا العقاب؟.

زرت عمتي اليوم، شقيقة أبي الوحيدة، هي مديرة مدرسة متقاعدة، كانت لامعة في عملها محبوبة على قدر إبراز شخصيتها القوية الكاملة، وأجبرتني على الإنصات لجدول توزيع السيئات والحسنات ولفتت انتباهي الكافر في نظرها أن يوم الحساب قريب وأن عدم التزامي يفعجها ويمضها، و جهزت لنار جهنم قائمة من صديقاتها وزوجها طبعاً وأكاد أجزم أنني على رأس القائمة. لولا أنها انخرجت من القول. وللجنة أرسلت نفسها من الآن رفقة زمرة مستقيمة مختارة بعناية، وكالعادة ارتفعت حدة صوتها وهي تتناول الأزمات السياسية والاقتصادية،

وسألتني إن ما كنت أعتقد أن أزمة الهند وباكستان ستنتهي و إن ما كانتا ستصبران على تحرشات بعضهما ،فاضطرت إلى تحليل الوضع دون اقتناع بينما ركزت عينها على وجهي، وتملكتي الحيرة، لما علي أن أدس أنفي في فطيرة الغير؟ ،بينما فطيرتي توشك على النفاذ بعد تقسيمها قطعاً قطعاً ،وعندما أظهرت لي أن الأثرياء لا يخونون زوجاتهم ،أبدت عن استغرابي، وأن على الزوجة أن تخاف من رجل مفلس لا يملك ثمن سيارة ،و لا تقلق من زوج يستحم بالمال ويفترشه، لست أعرف أي التجارب غدت ثقافتها بهذا الهراء ،بيد أنني على يقين أنها نظرية مسلم بها .لا تناقش و لا تجادل ،عندما أحتاج إلى مصدر للتسلية ،أطرق باب عمتي اللطيفة ،و بالخصوص ،عندما تجرد نفسها من ضرورة احترام أنني رجل و تنسى أنه لا ينبغي أن تسرد أمامي بعض الأمور المحرجة .التي تليق بأذان صديقاتها الذهابات إلى جهنم إلهي ،كم أحبها ."

"الفتاة المجهولة أثيل"

تعرفين عني الكثير ، و ما تعرفينه شيء مشترك بينك و بين الكثيرين من أصدقائي و المتابعين لي ،و أعتقد أنك كنت تهتمين بي غاية الاهتمام و لأني متأكد أنك لا تزالين تهتمين ،سأقدم لك ما لا يعرفه كل الناس عني ،ما لم أنشره في الجرائد و أكتبه مقالات ،حياتي ما وراء الستار ، كان أبي محامياً ناجحاً ،كدح طويلاً لبناء اسمه في هذا المجال و شأنه ككل الآباء الذين يعرفون مصلحة أبنائهم أكثر من أنفسهم ،أراد أن أرث مهنته و اسمه و مكتبه و كان أمراً محسوماً بالنسبة إليه ،و من بين الصفات الموثقة في عائلتي ،أنهم يتعصبون لأرائهم .وعندما كان يقدمني إلى أصدقائه و زملائه كوريث شرعي لعمله ،كنت أتساهل مع رغبته و أسايرها و أحيد أن لا أحرجه أو أحتج على قراره،ولكن ذلك يثقل علي و إذا كان لا يفهم ضيقي، فإن أمي كانت تفعل دون أن أتكلم أو أشتكي ،كنت منذ طفولتي أسرد عليها كيف سأكون صحفياً ناجحاً و كيف سأجعلها تتباهى بي بين أهلنا ،و كيف أنني سأعبر عن رأيي بصراحة ،دون أن أخاف أحد ،فكانت تتفاعل بأن تلتهم جبيني و تخبرني أنها فخورة جداً بي ،تفهم الأم دائماً أبنائها، و عندما وقفت ذلك اليوم أمامه لأخيب أمله لأول مرة برغبتي أن أكون صحفياً لا محامياً ، رمانى بنظرة ملؤها السخط ،و رأيت التجهم يطغى على الخيبة في وجهه ،و عندما قال أنه سيتظاهر بعدم سماعي و أنه يعرف مصلحتي ،انتحلت أمي دور الزوجة المتمردة لأول مرة و رفعت سقف تهديداتها بترك المنزل إلى الأبد .لطالما كانت القوة التي أنغذى منها و السند الذي أعتد عليه ،و لم يجد أبي بدا من التنازل بعد أيام من الخصام و العناد الفولاذي ،و الدموع المتأثرة ،و الصمت المطبق .و قرر أن مكتبه سيخسر محامياً جيداً و لكن بيته لن يخسر امرأة رائعة كأمي

و هكذا كانت أمي دوما المرأة القوية. الحكيمة التي تدعمني و تحضن رغباتي، و تؤيد اختياراتي. لم يفهمني أحد مثلها و قبل أن تبدئي بمراسلتي كنت أعتقد أنه لا أحد سيفعل، و سرعان ما اكتشفت أنك تفهميني مثلها على طريقتك الخاصة .

"الغالية أثيل"

وقعت البارحة في حدود الساعة الحادية عشر إلا خمس دقائق قرارا مهما محشوا بالإثارة حللته خمس مرات ، وأودّ أن أشاركك فيه، لأنك معنية به أيضا، لقد اتّفقت و أخبرتني أنك من مدينة س، ب. مدينة الأسطورة الخالدة، أسطورة المرأة التي جفّت دموعها و هي تبكي على ابنها الفقيد الذي لقي حتفه غرقا، فهاج البحر ذات يوم في موجة عاتية مخاطبا إياها بلهجة معاتبية أن الأوامر السماوية شاءت فصله عنها و لو أن لها خيرا في حياته لما سلب منها، و هكذا ركنت إلى السكنينة وهدأ حزنها، إنّه أسطورة جميلة، أنا لم أتشرف بزيارتها مسبقا و أحبّ رؤية المدينة البديعة التي تعيش تحت سمائها أنبل الفتيات قلبا على الإطلاق، سأتي هذا السبت لرؤيتك و إنني عازم على ذلك.

أسمع أن هناك حديقة جميلة قريبة من البحر تسمّى حديقة القلعة، ستكون المقرّ الذي أنفذ عليه خطّي البطولية، هناك سأجلس لأنتظرك من انبلاج الصباح إلى غروب الشمس ، و سواء أتيت أم لا، سأتي كل سبت و أنتظرك هناك، أمل أن لا تثبّطي همّي و تتلكّئي في اتّخاذ القرار و تأتي بأقرب الوقت فأيام الخريف الباردة على الأبواب، و أخشى أن تمطر ذات يوم و أتبلّل فأصاب بالزكام، أنا مثلك أصاب بسرعة بالزكام و ألزم الفراش أيضا. لا تتوهّمي أنني رجل يستسلم بسهولة. لن يثني عن مقابلتك أي شيء. إما أن أراك أو أراك، أمل أن لا تتخذي موقفا و حشياً بشأن مقابلي كالذي تتخذه بحق رسائلي.

ملاحظة، أرحّب بجلبك بعض الحلوى المحضرة في البيت . إنّه النوع الذي أفصّل، كما أنني لا أمانع أن تتأخري قليلا، تعالي في الوقت الذي يناسبك. سأنتظرك هناك إلى ما لا نهاية صاحب العينين الهادئتين و الابتسامة الجميلة، خليلك "

"ملاكي و بلسم جراحي"

يملأني الشوق و الحنين إلى السيّد رقية التي لا تطيق فراغ يديها من عمل ما، أتعرفين من تكون؟ إنّه والدتي رحمة الله عليها، أنا أفقدها، أفقد كرات الصوف المتدرجة التي كانت تحيكها أو شحّة و جوارباً مناسبة لفتيات صغيرات، أفقد نغمتها الحنونة الرقيقة و صوتها يناديني من الأسفل تستعجلني لأجل الالتحاق بعملتي، أفقد قلبها الدافئ و يديها ذواتا الملمس العطوف و هي تُمرّر على شعري كأنني طفلها الصغير، و إن ما كنت قد تجمّلت بالصبر فذلك

عائد إلى وجودك بجانب طيلة تلك الفترة، لقد غادرت الدنيا دون أن أودّعها و دون أن أشبع عينيّ بنظرة أخيرة من وجهها الرحيم. ااا يا أثيل إنّ صورتها تقتحم عقلي كل ثانية فتتملكني عاطفة كسيرة جامحة كسيل عارم.

هناك ملاك ظاهر أخبرني أنّ الأعراء يراقبوننا طوال الوقت، وأنا أوّمن بأي شيء يطلقه هذا الملاك من فمه الصغير. بالمناسبة أنت تعرفينه، ذكرته بموعدنا هذا السبت وأخبره أيضا أنني لن أياس حتى أقابله، بوسعي الانتظار إلى أن أغدو شيخا هرما، تساقطت كل أسنانه وضعف بصره، أمل أن أحتفظ ببصر يكفي لرؤيتك بشكل واضح. لك أن تتخيّلي حالي وأنا أتوكأ على عصا ذات مقبضٍ جلدي، بظهر مقوّس وشعر شائب ويدين مرتعشتين، هذا إن حالني الحظّ و تورّعت الأمراض عن غزو أعضائي. أمل بشيء من الثقة الساذجة أن لا ترفضيني حينها، لأن النساء يحتفظن دائما ببريق الجمال على الأقل، المصحوب بحرية الإبقاء على السرّ خلف ذلك في حلقة نسوية متكتمة، سبق و شمّرت ساعدي بحزم لأجل هذا التحدّي القير، لقد أودع ذلك الملاك في حسابي رصيда كافيا من الإصرار. علاوة على أن طبيعتي أصيلة في الثبات والتصميم. ملاحظة يوم السبت قريب جدا، إنه بعد غد، أذكر أن السيّد المحترم إبراهيم قد دشّنه رسميا كيوم عطلة دائم. ما أشجع قلب هذا الرجل، كيف حصل وأن أعتق عقله المغلق هذا القرار المفضي إلى السكتة القلبية؟ ليحفظ الله قلبه، المصمم خليل، ليس مصمم البيوت لأنّي لست مهندس بل مصمّم القرارات الحاسمة "

" عزيزتي أثيل ذات الشعر الأسود والعينين الجميلتين

أنا أصرّ على كونهما جميلتين ساحرتين تماما كصاحبتهما

أفتقر القدرة على رسم صورة دقيقة لك لسوء حظي. وأكذب إن قلت أنني أصدّ إغراء المحاولة لأكوّن لك واحدة مفككة خلال الأيام الماضية، بوجي من خيالي المتفتّن سريع الانفعال وقد أعطيته تعليمات حازمة كيما يبدع في رسمك، ولكنني أقرّ صادقا بعجزني وإياه. لم أستطع منحه علامات جيدة، سيرسب حتما إن لم يحصل على صورة ملموسة كاملة.

إن صورتك الجسدية تتذبذب على نقيض صورتك الحسيّة. من المحتمل أن تكتمل الصورة بالغد على الساعة...؟ أجهل أي ساعة ستأتين، فأنت لا تتنازليين وتجزمي بخصوص أي شيء، لا بأس، لقد ألفت نفسي أمل خيرا، فأنت لن تتركي هذا الرجل اللطيف المتأنّق صاحب الابتسامة البديعة والعينين الهادئتين يجلس وحيدا في الحديقة بين مجموعات من العائلات والأطفال. طبعا بوسعي الحصول على رفقة ملائمة، فأنا محبوب ومرغوب كما هو مدرج لديك، ولكن الرفقة التي أتعشّم الحصول عليها هي حضرتك، لن تخيّي أمل هذا الرجل المقاوم المخلص

للقضية السرمدية النبيلة: قضية مقابلتك.

انظري إن الليلة هادئة جدا، والقمر الأبيض يشعّ كأنه مصباح وهّاج وسط نجوم متألّنة، لم أفتح النافذة لأراه، بل لأراك أنت، في هذه اللحظة ولجت خالتي رفيداء إلى غرفتي ووضعت كوبا من القهوة، ليس صحياً أن أرتشفها قبل النوم؟ أجل، أعرف، إن ما كتبت لي رسالة خاصة لتدافعي عن واجبك المقدّس، ألا وهو الاهتمام بصحتي، سأتخلّى عن هذه العادة. نسيت أن أقدم لك خالتي رفيداء، ألوم نفسي لإغفالي تقديمها في رسائل الفارطة وإن ذلك لسوء تقدير لشخصها، هي التي تُجهد نفسها لأجلي، وتعكّر صفو نومي الصباحي كل يوم دفاعا منها عن الغنيمة الروحية والعقائد التليدة . هي شقيقة أمي الوحيدة، تعيش معي وتعتني بأموري، وهي بمثابة الأمّ الثانية، طبعا إنني أمتلك أمّا ثالثة أيضا عمرها سبع و عشرون فقط. أتعرفين شخصا أكثر حظا مني؟ أخبريني بالغد ،عزيزك خليل الذي يرجو أن لا تُخَيّي آماله بالغد "

"صباحي المشرق وشمس حياتي الذهبية أثيل

تشير الساعة إلى تمام الثالثة، أمل أن أصل إلى هناك قبل شروق الشمس. أنا مغادر فورا إلى مدينتك، لهذا يصعب علي الإطالة في محتوى الرسالة، أشعر بشعور غريب غير مألوف عندما يدقّ تفكيري أنني على بعد ساعات قليلة من مقابلتك. سأختم الرسالة عند هذه النقطة

المخلص خليل "

"عزيزتي العنيدة أثيل

وصلت لتوي إلى البيت، وما أنا أكتب لك عازما على وصفك بشديدة القسوة.إلهي ،ما أقساک، أشعر ببعض التعب، ليس طول الطريق ما أرهقني، لا ،ليس ذلك ذا أهمية مطلقا؛ بل لكونك اخترت عدم مقابلي رغم توسلاتي لك بالمجيء، لم أفترض من قبل أنك ترفضين مقابلي كما ترفضين الردّ على رسائلني، ما الذي يحدث، راسلتي قرابة السنة فما الذي تغيّر الآن؟ سبق وأخبرتك عن استحالة استسلامي، والسبب المقبل ستجديني مغروسا هناك كشجرة الصنوبر الباسقة التي جلست تحت ظلّالها أراقب مدخل الباب بحذر وانتباه.

لقد جعلتني أرسل بصري إلى الأنسات بمثل سنك، حتى ملن إلى الاعتقاد أنني أمارس حرفة الفراغ المشهورة في الأوساط ألا وهي المعاكسة، و عزّزت الأحكام القائلة أنني شابّ لعوب طائش. الحمد لله،أنهن لم يميزن شخصي ،وشكرا لأنهن لم يمانعن نظراتي المتفحصة. أنا ببساطة كنت أفتّش عن فتاة بشعر أسود و عيون سوداء. حسنا يا ملاكي القاسي، إن كنت أنت عنيدة صلبة ،فأنا أصلب من حجر الصوان، و لئرى كم من الوقت ستستمرين في تجاهلي، لن ينفعك أن تصمدي في وجه رغبتني الشديدة الجامحة، إن الأمر أشبه بالنوم،قاومي ما طاب

لك. ولكنه يتغلب عليك في النهاية.

أتلهفين لمعرفة الذي فعلته طيلة اليوم، حسنا ليكون لك ذلك؟ قضيت طول الطريق أقنع نفسي أنه لا مجال لتبني فكرة سقيمة كعدم مجيئك رغم أن صوتنا عنيدا مثلك كان يجادل بمكر قائلاً: إنك لن تأتي لمقابلتي، لقد فاز علي للأسف في المعركة الأولى، لكنه لن يكسب الحرب، تصبح هذه الأصوات ذا نفوذ واسع و يستحسن قمعها في الوقت المناسب رغم أنها تتفوّه بالحقيقة.

وصلت في حدود الساعة السادسة متحمّساً إلى مدينة س، ب، ثم سألت الشرطي عن الطريق المؤدّي إلى الحديقة. ترتّب عن إرشاده عديم الدقة تشردّ ملعون في الطرقات الضيقة لبعض الوقت، وما عتمت أن عثرت على رجل عجوز أسدى إلي بمعرفة سليمة أدّت الغرض. وصلت بعد شروق الشمس إلى الحديقة متأملاً بشيء من الطمع الواثق أن تكوني جالسة بانتظاري. كانت الحديقة كبيرة، قليلة الأشجار، محاطة بسيّاح من القضبان الحديدية المرتفعة، تبيح لك إرسال بصرك للتطفل خلفها، كانت خالية من أي حركة، وكان الحارس كريماً لطيفاً بإبداء فلسفته الراشدة، فيما كانت عيناه تتألقان بنظرة فضول، وتعانق شفثيه ابتسامة لثوية لثيمة حتى بدت أسنانه الصفراء، علّق قائلاً بلهجة مآكرة: سيدي إن الوقت لا يزال مبكراً، لا أحد يزورنا في هذا الوقت الباكر إلا الرجال الفارّون من بيوتهم أو المطرودون من سعير جهنّم، إن أخاك في المعاناة قد أتى لتوه وهو يجلس هناك، تأمله يبدو كعائد من الأسر، أخاله لم ينعم بنوم هانئ وأخاله قد غرق في نوم عميق منذ أن وضع رأسه على المنضدة. أصبحت هذه الحديقة ملجأ لمن لا ملجأ لهم، تفضل، تفضل. هذه أول إهانة شنيعة وقحة تعرّضت إليها بسببك يا متجاهلتي القاسية.

مروراً بذلك الرجل النائم دون شعور بما يدور حوله توجّهت نحو مقعد حيث يسهل عليك رؤيتي. أصبحنا أنا والمقعد عدوين من أول لقاء، إنه غير مريح البتة ويصدر صوتاً يشبه صرير الأسنان المرعوبة، يبدو كمن لا يغفر لأحد الجلوس عليه، وأنا بصورة خاصة؛ لأنه تقاعد منذ فترة بسبب حالته الزرية هو وأشقأؤه في الواجب الحدائقي.

مضت ساعة وأخرى، بدوت مثل من ينتظر ساعي البريد ليأتيه برسالة مهمّة، بعيني المسلّطتين على المدخل، ولقد اهتم المقعد المكشّر بفرض جزية انزعاجه الناجم عن جلوسي غير القانوني عليه، لك أن تتصوّرني يا عزيزتي أن الوقوف على قدم واحدة أفضل مليون مرة من محاولة إقناعه أنني لن أجلس عليه الى الأبد، وإني بدوري لست مسروراً جداً بالإقامة عليه.

بدأت الحديقة تزدهم بالزوار فيما رحلت أرسل بصري بجميع الاتجاهات، أراقب بنوايا الرجل المهووس، وأمنح الزوار الأعمى صورة دقيقة عن الرجل غريب الأطوار. سبق وأن نعتني فتاة مهذبة بهذه الصفة، طفقت أصبح السمع إلى الأمواج المتحطمة فوق الصخور وفورا تعسر علي إبقاء عقلي ساكنا، وومضت ذكرى على نحو شاسع، ذكرى فتاة تخاف من منظر البحر، اتخذت قرارا تاريخيا باعتزال خوفها باعتماد كلي على نفسها، أدم فضولي النواق في معرفة نسبة نجاحها في تخطي مخاوفها؛ فهي منذ أسست منظمة معاداة الجبن و شرعت في تخصيص بعد ظهيرة الجمعة لأداء الطقوس الأولى، لم تتحمس لتحريك يدي للتصفيق على شجاعتهما، أتراها انسحبت من مشروع القرن؟ أو أن الشجاعة رفيعة المقام أهدتها إلى مكان آخر يناسبها. هل يبدو من غير اللائق سؤال الفتاة عن النتيجة، ما رأيك أنت؟.

كانت ستحل نصف مشاكلي لو أنني أحضرت كتابا لأقتل به الوقت أو أوراقا لألعب بها دور الكاتب الحساس الملهم من وجوه العابرين بحيث أتجنب توثيقهم للريبة في نفوسهم، حتى إتقاني لدور الرسام البار كان لائقا لو أن لي ورقة وقلما، مع أن الرسومات ستشهد ضدي من بشاعتها، فموهبتي لم تسعفني إلا لرسم شجرة بخطوط متفرعة ترمز إلى الأغصان نلت عليها عواصف من الصراخ من طرف المعلمة، كيف لم أنتبه لهذه النقطة وأجلب معي عقارا جيدا للملل، قامرت واثقا بكل طاقتي الروحية على رفقتك المرنة، اعتقدت لغروري أنك الكتاب الذي سأقرأه طوال اليوم.

ألم تسمح لها أمها بالقدوم؟ وافتني تلك الفكرة في حدود الساعة الثانية، لو أنك أرسلت السيدة سميحة في مهمة سامية لتمهد لك الطريق، أثق أنها الشخص النموذجي لتسرح لك إذنا بالخروج، كلها مزايا تلك السيدة لو أنها تركز دماغها لوظيفته المناسبة.

في حدود الساعة الثالثة أقيمت جنازة لائحة لفكرة مجيئك و تنكرت بهيئة الرجل الصامد الصبور المسيطر على مشاعره، ومن الأساس كنت أرتدي السواد فانسجم الحدث مع الزي، فقط يعوزني نظارات سوداء تخفي شحوب العينين لتكتمل اللوحة الحزينة، لم يحضرها أحد سوى عقلي المغتم و قلبي المفؤود.

تلقيت على إثرها مواساة بحجم القارات لم أتوقعها، عندما جذبت مسحة الحداد على وجهي شيئا مسنا ليجلس قبالي قابضا برقة على يد فتاة صغيرة بعمر الأربع سنوات، لقد أحببني الفتاة من أول نظرة وربما قررت بفطرتها البريئة أنني رجل وحيد يقف على عتبة الأحزان، فلقد دسّت يدها الصغيرة في يدي وقلبتّها. إنها ملاك صغير بريء بأرنبه أنف حمراء ورموش طويلة ووجنتين سمينتين محفرتين للالتهام، ما أجمل ثوبها الأخضر بلون الطحلب، وما

أجمل خفيها الفضيّين، انصهرت سريعاً في لون عينيها البرّاقتين ثم سرعان ما همست بشيء قويّ في أذني، كان سرا صغيراً لا ينبغي إفشاؤه أمام أحد، جعلتني أعدها بعدم البوح به: لقد اشترينا كيس حلوى كبير، ونحن نخفيه في الخزانة عن شيماء المحتمالة اللصّة، إنها تشكّ في أمر حيازتنا إياه لهذا هي تحتل عتبة المنزل، ولن تغادر دون جيب مملوء، والله لن تحصل على شيء، إن شيماء المسكينة المهمّة بالجوسسة الخطيرة و اللصوصية المتطرفة هي ابنة أحد جيران العائلة، أليست حلوة لطيفة هذه الطفلة؟ أردت أن ألتمها، لقد أرسل الله إلي تلك الفتاة لتقمع ثورة الملل التي تملكنتني بسبب غيابك عن الحضور، وكذلك لمحت إلى أنها تستلطني وأعربت عن نيّتها الجديّة في اللعب معي.

عندما همّت بارتكاب جرائم أخرى بحقّ قلبي المولع بها، قرّر جدّها الانصراف على نحو مفاجئ، في الواقع لم يشاركنا الحديث إلا لتحذيرها من عادة قضم أظافرها التي أسبغت عليها طابعا طفوليّاً بريئاً.

تمنيت بينما كنت أضع قدما محبّطة خارج الحديقة، وبينما كنت أحملق إلى الشمس المحمّرة الشاحبة التي تحسن التلويع الوداعي لو أنني السيد إبراهيم، ذاك المتعصّب صاحب الكلمة المسموعة الذي أصبح موضع حسد صامت من طرف المؤشرات الحيويّة لرجل الانتظار بالحدائق، إنه محظوظ كونك تراعين أوامره السليطة بقدر ما تراعين حالته الصحيّة، أما أنا، إنك لا تأهين بي.

في المرة المقبلة يتوجّب علي استنفار همّتي للتصدّي لنظرات الحارس المارقة وبطريقة ما ينبغي تأمين منفذ آمن لتعزيز قناعته بأنني لست رجلاً مطروداً من السعير، لأن هذا على ما يبدو سيحفظ وجهي أكثر مما يحفظ الأنية الخزفية مهشّمة الفوهة التي ورثها زوجته عن أمها. وأنت يا عزيزتي الأنسة أثيل، ألا تشعرين في هذه اللحظة بأيّ تأنيب ضمير أو خجل قرمزيّ من عدم التحاقك بالمقعد المزري المقابل لمقعدي، يعبث الصوت اللعين قائلاً: لن تأت في وقت قريب، ستقيم المزيد من الجنائز.

أنا بحاجة إلى كتب كيلا أشعر بالملل، هل تودّين إسداء بعض النصائح لرجل الانتظار بهذا الخصوص؟ هل تقترحين عناوين كتب جيدة؟ ها تذكرت، أجاتا وقصص الجريمة، هي مناسبة لجوّ مكتظّ بالتوتر والانفعال كالجوّ الذي لقيّني اليوم، أو ربما أكتب مقالات جيدة، إن مداخل الأبواب تجلب أفكاراً مزدهرة حسب ما أعتقد.

عدت إلى البيت بمعنويات مترهّلة يا عزيزتي، مع أنني أرفض التسليم بالأمر، و يومض تفكيرتي بلون أحمر عندما أبحث عن تفسير مقنع لانقطاعك عن مراسلتي ثم امتناعك الردّ على

رسائلي وها أنت الآن تجازين رغبتى الجامحة بلقائك بالتجاهل الكلي. لا أفهمك، إن التحليل العميق يرهق جهازي العصبيّ و يطوّح بي في متاهات لا تنتهي و تفلت الأفكار من رأسي، كإفلات الطيور من قبضة مرتخية . ومع ذلك سيأتي يوم أقابلك فيه وتشرحين حينئذ موقفك. سأخلد إلى النوم، لقد لفحت الشمس الحارة رأسي، وإن ما أصبت بضربة الشمس فالذنب كله ذنبك، طابت ليلتك

تذكّري أنني سأنتظرك هناك السبت المقبل، خليل المثابر."

"فراشتي الجميلة"

صباحك سعيد

استيقظت منذ برهة و صداع فتّك ينهش رأسي ، ذلك كان التأثير المحتمل الناجم عن تعرّضه لشمس البارحة القويّة التي تركتني بين يديها طوال النهار بسبب...؟، أجهل السبب يا معذبتى، وسأعرفه في الوقت المناسب. أول شيء فعلته هو تفقد الحاسوب طمعا في حصول تلك المعجزة ، غفرت لخبية ألمي أن تسخر من سذاجتي ،لم أجد شيئا .

أجري استعداداتي لأجل عملي الجديد، وأنا في مزاج طيّب نقيّ، أنا لم أطلعك إلى الآن أنني سألتحق بعمل جديد، حيث أنني انشغلت بالحديث عن أمور أقلّ أهمية، بجريدة تسمّى الكفاح، لا تتعبني نفسك و تفتّشي في قاموس عقلك الزهري؛ فهي ليست معروفة، و تتصدّر ذيل القائمة في عدد المبيعات، أتساءل دوما إن كانوا يبتزّون مالها بواسطة فضيحة سائنة في حال ارتكب خطيئة كإغلاقها.

على أنها كانت الوحيدة التي خصّنتني بعرض عمل رغم وضعيتي التعبة، في حين أن كل الجرائد رفيعة الشأن التي كانت تحلم بتوظيفي أدارت ظهرها، و ذهب بها المذهب إلى التشدّق من الحالة التي انتهت إليها .

تختلف جريدة الكفاح التي تجبرني على وصفها بالكوخ عن التي اشتغلت بها سابقا، ولكنها تفي بالغرض، بالإضافة إلى ميلي الأصيل إلى العرفان بالجميل وشكر المعروف. أستطيع القول أنها تملك بعض المزايا المشرفة، تتمتع بخاصية تعتبر تدليلا بالنسبة إليّ، إنها تعمل على منح الحرية المطلقة للصحفي لكتابة ما يشاء، علاوة على عدم تقييدك بأغلال التحذيرات المستمرة حول ما ينبغي كتابته، هل أنت سعيدة لأجلي؟ إنك لا تهينيني حتى يا صديقتي، يا لها من طريقة تستقبلين بها النبأ المثير، أنت تشبهين إلى حد بعيد المناسبات الاجتماعية المملّة، احرصي على مخاطبة يدك بلغة حازمة فالأيادي عندما تتمرد يصعب قمعها، من دواعي سروري أن أوضح

لك أنني أحبّ يدك المتمرّدة من الآن، اليد التي تصمد أمام إغرائي الدائم. أتساءل يا أنيل هل ستكتبين لي أولاً أو تقابليني أولاً؟ كلاهما لطيفان يا عزيزتي.

تلقيت رسائل لا بأس بها من الأصدقاء و الصديقات باستثنائك أنت. بعضها في الواقع يفقدك الشهية لتناول الإفطار، لكنها خطوة على أية حال، أتمنى أن أستقبل منك رسالة عرجاء حتى وإن انحرفت أخلاقك الناعمة و شتمتني فيها.

أندد كذلك بإعراضك عن منحي بعض الأفكار المفيدة لأجل تحفيزي على العمل، السيّد سميحة تقدّم نصائح مبهرة، بناءً على ما أوعزت به ، لقد نجحت في كسب تأييد مدمنات الكحول بذاك المركز و انتصرت بخطاب مرتجل في على عاداتهن المروّعة في تلك المناسبة السعيدة.

بالمناسبة ما هو عنوانه؟ أودّ التعرّف على السيّد الفظة صاحبة العينين الباردتين، صعبة المراس. ربما أتولى زمام الأمور؛ فأنا لدي تأثير منقطع البراعة على النساء مهما بلغت حدة طباعهن، وهي صفة مورثة في عائلتنا من الجدّ إلى الأب إلى الحفيد، و بالنتيجة سأمنح ورقة الانتساب لكما، وهكذا أنعم برؤيتك يومياً، تعتبر تلك هبة عظيمة أكثر مما أتمنى، بوسعي تحمّل ثرثرة السيّدتين وشجارهما الدائم إن ما نعمت فقط برؤية وجهك، أترين كم أنا يائس؟ أفعّل أي شيء لأجلك، ولكنك قاسية جداً، لا تحلين بأي رحمة في قلبك، و الآن انتظري دقيقة " يا للهول، لقد أحضرت خالتي القميص الذي سأرتديه، إنّه مجعّد بطريقة غير لائقة، بل يبدو مجعّداً عن ذي قبل، يتعيّن علي كيه بنفسي، أنا مضطرّ لقطع الرسالة و الانصراف على عجل، إنني متأخّر يا جوهرتي، سأكتب لك فور عودتي إلى المنزل، و أظنك الآن تهيئين كذلك لتذهبي إلى عملك، اطلبي نيابة عني من السيد إبراهيم أن يكون لطيفاً معك، فأنا لا أتحمل أن يضايقك أحد بأسلوبه الخشن و لا أسمح حتى لنفسني بمعاملتك على تلك الصورة، يوم سعيد المخلص الذي سينتظرك إلى الأبد خليل "

" طاب مساؤك يا حلوتي

من أين يتعيّن علي البدء؟! كان الطقس حاراً جداً، تم استنساخه عن منتصف يونيو بجميع مقاديره. بالكاد امتنعت الشمس عن جعلنا عيدان شواء، أنت تتشوّقين لمعرفة تفاصيل اليوم الأول في العمل، ليس بالإثارة التي تتخيلين، لا أستطيع أن أتحدث عليه دون أن تنتابني نوبة الفزع من العودة إليه بالغد.

مكان بليد ضيق يكتنفه الإحباط و البؤس و زمرة من الموظّفين الخمولين بطيئي الحركة، سرّيعي التهيج، تعلقو دمدماتهم على السكون المجحف، وجودهم يتساوى مع غيابهم مع فارق

أنهم ينالون رواتب على أجسادهم المثبتة عن المقاعد لكنني سأعمل تدريجيا على جعله حيويا نشيطا. بعد أسابيع قليلة ستغدو الجريدة رقم واحد إن استطعت إيجاد طريق سالك لنفخ تلك الجلود الخاملة. يستحسن أن أقرأ كتابا عن الطاقات البشرية الكامنة. مع أن غريزتي تنبئني أنهم مصابيح معطلة لا أمل فيها.

هناك السيّد العجوز مالك، وهو صاحب الجريدة ورئيس تحريرها، الذي تجاوز الستين من عمره، وجهه عديم الذقن ووجنتاه منتفختان منزلتا الرتبة من طرف الزمن، أستطيع أن أفترض أنه يدّخر المؤون هناك لوقت الحاجة ويخيل إلي على وجه الدقة أنه يميل إلى المسرحيات الهزلية؛ فهو لا ينفك يتملّص من نوبة هستيريا الضحك ليشرع في أخرى. بالإضافة إلى شاب هزيل لم يتجاوز الثامنة والعشرين، يسلمخ نهاره بالخربشة على الأوراق والرسم عليها، نتيجة عدم وجود عمل مناسب يؤديه، أما الفتيات الثلاث؛ فإنهن وللأمانة الذكورية جميلات جدا، خاصة صاحبة الشعر الأشقر والعيون الخضراء، أخشى أنني لا أستطيع تحديد الفترة الزمنية التي ستجرح فيها الفتاة في اقتناصي. أراهن أنها لن تأخذ معي أكثر من أسبوعين إن دفنت عاداتها القبيحة في مضغ العلكة، و حمل المرأة بشكل دائم، لا أنجذب إلى النساء الملامزات للمرايا.

إن أصواتهنّ متملّقة كصوت مواء القطط، وكنّ أكثر المبتهجات بانضمامي إلى الطاقم الخمول، معتقدات أنني مصدر جيد للتسلية وقتل الوقت، لمعت أعينهن عندما أعرين باندفاع مضطرم عن فرحتهن بوجودي بينهم، لطالما كنت رجلا محبوبا وموهوبا ومصدرا للتشريف. وليس القفز المتكرر والابتسامات العريضة إلا وسيلة للتعبير عن الإعجاب الكبير. لا تقلقي، في الوقت المناسب، سيسعني تبخير آمالهن، عندما أجد وقتا لإبداء عصبيتي ووجهي الآخر، وهناك شاب أرعن طائش يشبه المراهقين من ناحية التصرفات الطائشة، أوراقه محترقة من الآن، يصنع طائرات ورقية ويقذف بها إلى الهواء ثم يراقب نتيجة سخافته بمتعة طفل صغير متفوقا على الجميع بغبائه. حتى على السيّد مالك.

عندما خطوت إلى الداخل عند الساعة الثامنة والنصف، ورأيت هذه الفوضى العارمة، عقدت اجتماعا طارئا في رأسي ثم صوّتت معظم الخلايا الدماغية على الفرار. وطالبي عقلي العصبي بتوجيه بعض الشتائم الصباحية لهم جميعا كنوع من الثأر الناعق لكرامة الصحافة ثم لعنهم بأقبح العبارات الصدّاحة. على أن نصيحة قادمة من بعيد حملها قانون الجذب على جناح السرعة منحت قدمي طاقة للتقدّم. إنّه أنت أليس كذلك؟ تقول النصيحة: هناك تحت الرماد جذوة متقددة، بوسعك أن تشعل منها نارا لو أردت، فقط انفخ بقدر ما تستطيع.

أجل، قررت أن أنفخ بناءً على نصيحتك الحكيمة، رغم أن الأمر يتطلب مليون رثة، إن كنت لا تجدين طلي تجاوزا للحد، فأعيريني رثتيك يا عزيزتي، إنهما فعالتان تماما كعقلك. لولا أنني لم أضع بعض الخطط السريعة لتغيير الأوضاع، لكنت قدمت استقالتني عند عتبة الباب، فهذا العمل حتما لا يتناغم وسياستي المهنية في العمل. كل ما يحتاجه هذا الطاقم الذي نفرت منه الحياة هو يد حازمة و تحفيز جدي. قرأت ذلك في عيونهم، انطلاقا من الغد سأبدأ بطحن علقهم واحدا واحدا، خاصة الفتاة الشقراء، في استطاعتي أن أخلص إلى نتيجة جيدة، وهي الاستثمار في عقولهم التي تبدو مثمرة لولا إشراف السيد مالك شخصيا على قمعها وتبديد فائدتها. يا إلهي، يا إلهي .

ملاحظة أثناء عودتي إلى المنزل اشترت كتابا جيدا، سيكون الأداة التي أشغل بها نفسي السبت المقبل، فأنا على يقين تام أنك لن تأتي هذا السبت أيضا، يا له من حدس خسيس. خليلك الوفي، ولا مليون فتاة شقراء أو حمراء يسعها تحويل اهتمامي عن شخصك الرفيع "قمري المتلائي الذي يرفض أن ينزل إلي

إنني أراقب القمر من نافذة غرفة نومي، أصبح السمع إلى دمدمات خالتي وهي تعبر الممر إلى الغرفة المجاورة، أخالها تندمر نتيجة ارتكابي مخالفة ضد النظام المنزلي، تناولت الطعام بالخارج. لن تتوقف عن الدممة قبل نهاية الأسبوع على أقل تقدير. هي امرأة متزمتة بخصوص النظام الداخلي للمنزل، وفيّة لبرامج النظام الغذائي الصحي، يسرها أن تعرض عليك مساوئ العودة متأخرا إلى البيت وتناول الطعام خارجا الذي يفرض عددا لا حصر له من الأمراض، تجعلك خالتي تندمين على مخالفة أي بند ليس مدرجا ضمن قوانينها، وحيث أنها متيمة بحب النظافة فإن استجابتها للفكرة تكاد تكون مستحيلة، بالإضافة إلى ضرورة عدم السهر لأنه يجلب الإعياء. تلك قوانين جيدة لولا أنني أعجز عن الالتزام بها، سأحاول تجنب مضايقتها، لأنها مثلك جوهرة ينبغي تقديرها، فكّرت مليا ثم قرّرت عدم الخروج الليلة رفقة عمر لوجوب تجهيز حصة الغد من العمل خاصة بوجود جنود فاشلين مثيرين للشلل كالذين مُنيت بهم اليوم. يشعر المرء بينهم كأنه في روضة الأطفال، ماذا تقترحين كفكرة لمقالة العدد القادم، يدور بخليدي المنفتح أن أوجه لك رسالة شخصية، وأدوّن اسمك بحروف عريضة ولكن ذلك سيجعلني محلّ شهرة، سينتبه الجميع إلى كونك إنسانا مميّزا في حياتي، وحيث إننا لسنا بشعب فضوليّ طفيلي، لن يسألني أحد أي سؤال عنك، لذلك صرفتها، لا تبسعي، تصبحين أجمل عن ذي قبل.

إنك سرّ شخصي أمتنع عن تقاسمه مع أحد، والآن إنني أفكر في تمصّص دورك، دور المرشدة التي لا تصرّح بوظيفتها: أنا مهتم بتشجيع المحبطين، وحثّهم على إعادة النظر في مسألة

الاستسلام ليأسهم، ما رأيك أنت، لن أملي عليك الذي سأكتبه بالغد، سأنقله إليك بعد عودتي مساءً

طابت ليلتك يا ملاكي، استمتعي بقراءة رسائلتي كما كنت أفعل أنا دائما حتى لو كانت جودتها نسبية، أعرف أنك تقرئينها "

"عزيزتي أنيل

صباحك مشرق، ذهبت هذا الصباح إلى الغابة من أجل المشي ولغاية استنشاق هواء الصباح العليل، بعد أن فقدت لياقتي البدنية بات صعبا علي استرجاعها، ليس من العسير ذلك كما ليس سهلا أيضا. لم أبلني حسنا كما كنت آمل و استسلامي أمام الأمور الصعبة العنيدة ميزة غير واردة في قاموسي. أنا لا أخفق مطلقا في أي شيء أضع يدي عليه حتى أنت، لست متفائلا لأوان ساعة التوجّه إلى ذاك المكان الكئيب المسّى جريدة الكفاح. أفحص بتحليل تلفه خيوط الثقة بالنفس، طرح الاقتراح المبعجل على صاحب السعادة، السيّد مالك منعي، منصبه الفخم، ليس بتلك الصفة، سأنصحه وأنا أثني على مزاياه الفاتنة أن يجدد تعاونه مع مزيد من الألعاب الإلكترونية ويختنق من الضحك في مكتبه الأخضر و يعلنني نائبا مطلقا مع جميع صلاحيات التصرف كيفما أشاء، حتى يتسنى لي فرض كلمتي على زمرة الفاشلين تلك.

كانت الجريدة التي تخلّت عن خدماتي بعد الحادث تحت قيادة سيّد صارم وملتزم. أنت تراهنين أن السيّد مالك لن يوافق؟ لا، يا عزيزتي ليس عندما أجلس أمامه وأعدّه أنني سأحوّل وكر الفشل ذاك إلى مكان محترم لائق، نسيت إخبارك أن بين المجموعة رجل غريب الأطوار، يعزل نفسه عن القطيع. يبدو مفيدا كذلك إن ما كسبت تأييده .

إن حدث ورفض السيّد مالك منعي القيادة، فأفترض أنني سأفشل في الصمود إلى نهاية الشهر. ربما أتأخّر مساءً في الكتابة لك، سأرافق عمر لزيارة مسقط رأسه، يبدو هذا الرجل متناقضا عندما تنخرط عاطفته الوفيّة في عشق الأماكن، و تبدو تلك العاطفة أطول من خطوط العرض، ربما ستوافيك رسالتي وأنت نائمة، ألن تنامي قبل قراءتها؟

خليل القائد الفدّ "

"نجمتي اللامعة في وسط السماء

مساؤك سعيد

هل جعلتك تنتظرين؟ أنت تغفرين تلقائيا أي هفوة يرتكبها هذا الرجل المخطّط المكافح. أستهل رسالتي أولا بالحديث عن وكر الفشل. كان أول ما فعلته أن قصدت مكتب السيّد مالك

الوقور، وأنا كلّي ثقة و اعتداد بنفسي، ورأسي شامخ بمعنويات مرتفعة تصل إلى مدى المريخ، وجدته جالسا جلسة غريبة يمارس وفاءه الحصين للألعاب الإلكترونية التافهة على الحاسوب ثم يضحك من انتصاراته السقيمة كأنه طفل صغير، لا عجب أن تلك الجريدة تملك الكثير من الذنوب ، و مليون طواف حول الكعبة لا يغسلها. تعدّ من أفضل الجرائد على الإطلاق.

في الماضي لو أنهم عرضوا علي هذا العمل و لو للمزحة لقتلت صاحب العرض أولا قبل أن أشرح له أن عرضه يسيء إلى كرامتي، عناوين غبية من صنف العصر الحجريّ و مقالات مهلهلة تجيد استفزاز عاطفة الرضع، لا أدرك سبب بقائها تعمل إلى الآن؟ إنها نوع من أنواع الاستثمار الجالب للخسائر، هل سمعت عن إنسان يستثمر أمواله ليخسرهما عامدا متعمدا، حتى السيدة سميحة لم تفعلها

في ما مضى كانوا يضعون جهودهم تحت تصرف أحداث تافهة كقطعة تحاول الانتحار من نافذة، و حريق مهول في بيت مهجور و حكاية حليب التيس الشافي من السرطان ثم حيوان ناطق يتكلّم الى البشر، لأكون منصفا، لقد مارسوا الغباء بكل احترافية ، وإن ما تطرقنا إلى سبر الآراء فإنه مربع بدرجة كارثة إنسانية، تصوّري أن يسألوا رجلا شارف على القبر إن ما ندم على الزواج أو لا، أو عجوزا بنصف ذاكرة إن كانت تحبّ رجلا وسيما أو ذكيا .

صارحته بعرضي فافتّر فمه مثل سمكة خارج الماء من وقع المفاجأة، ثم أطرق رأسه مفكرا مغمغما ، دون أن يتفوّه ببنت شفة، بينما وجدت ضالّتي أنا في صمته فاستثمرت فيه كلاما متدقّقا لأشرح له ضرورة ضبط سلوك هؤلاء التعساء في الخارج، صحيح أن في ذلك تلميح صريح و تقريبا وقح لعدم كفاءته في إدارة العمل، لكن ليس باليد حيلة، هي الحقيقة التي لا تخفى على أحد 'هو مسؤول فاشل'، و المسؤول الفاشل يصنع قطيعا من العمّال الفاشلين المهملين.

حسنا رفع رأسه بعد أن أنهيت كلامي ممعنا النظر في وجهي، تُطبق على سحنته تعابير غامضة متفاعلة بحيرة مع اقتراح لم يتوّعه، ثم قال بصوت مطمئن يخالطه الحماس: حسنا يا خليل، إنني أثق في مقدرتك على تهذيبهم، افعل ما تراه مناسبا و إن شئت يمكنك تسريح من لا تجده ذا نفع، فأجبتة متنكّرا لقضية الطرد: لن نطرد أحدا، هم جيّدون جميعا، فقط تعوزهم الصرامة و بعض التوجيه، ألم أخبرك أن بوسعي إقناع أي إنسان، أنا مقنع يا عزيزتي، لا تنسي هذا أبدا.

تبعته بخطى واثقة إلى القاعة المضاءة، ووقف منتصبا مقدّما لهم المسؤول الجديد ، محدّرا إياهم من مخالفة الأوامر أو التمرد لأن الباب مشرّع من الآن لأي نيّة تدمّر.

كان على وجوههم اقتناع طافح و استحسان جلي بعث في نفسه بعض الغيرة المستورة، طالعت وجهه المتشنج؛ فأدرت أنه مستاءٌ من ردة فعلهم، كان كم يتوقع استهجانهم للقرار الجديد دفاعا منهم عن حيمهم الشديد له.

أكثر المستحسنين هنّ الفتيات الثلاث، وأقلهم ذلك الرجل المنعزل المسقى فريد، وحيث لا يسع المرء تحليل تعابير وجهه؛ فقد توقّعت عدم ترحيبه بفكرة زعامتي.

هكذا يا أثيل تُوجت اليوم ملك الفاشلين و الفاشلات في وكر الإخفاق بتاج من الفوضى. وحيث أنني مررت بتجارب سابقة أسدت إلي بثمارها فقد انتهجت سياسة اللين و المرونة مع استفزاز بسيط لمشاعر الإخلاص فيهم، أجل إنهم فاشلون غير أنه ليس من الصعب تلمسه في هيئتهم الخامدة كالرماد و رفست همّتهم المثبّطة بقدم حريصة واستمضت عزائمهم الشبيهة بعزيمة أرملة مفجوعة في أيام الحداد الأولى. و فجأة عادت بي الذاكرة إلى خطاب جارتك مانديلا الثائر عندما جرّتك إلى ذلك المركز مقتبسا بعض الفائدة: حسنا أيها الجنود، إننا كما ترون نستحق لقب أفضل منظّمة على وجه الأرض، هذا إن لم نكن الفشل بمعناه الحرفي، كما أننا غير مصنّفين أبدا ضمن قائمة الجرائد. لسنا أكثر من أوراق بيضاء مملوءة بخريشات لا تجذب حتى الدجاج، هل تشاركوني الرأي في ضرورة الانتقال خطوة إلى الأمام، و إلا غدونا ماضيا منسيا، وما هي إلا دقائق حتى دبّ الحماس إلى قلوبهم، فعلا ضجيج موافقتهم في لغط هائل وأردفت: حسنا لنبدأ بالمكاتب تبدو كالمقابر، ولا ينقصها إلا شواهد و أزلام بأسمائنا، فراس كفّ عن صنع الطائرات إنك توترني، وأنت يا أنسة ليس وقت مشاهدة وجهك في المرآة، سيّد فريد هلا تعيرني انتباهك، وأنت ما اسمك، أنسة ملك أرجوك أن تشرفي على تنسيق الواجبة، إنها تشبه واجهة البيوت المهجورة، التي تسكنها الأرواح، و قررت مشاركتهم في تحضير العدد الأسبوعي.

هذا باختصار أحداث اليوم، يوم مليء بالعمل، أصّر على بلوغ القمّة ولا شيء يرضيني إلا القمّة، أنقطع عند هذه النقطة لأنني بحاجة إلى النوم، بوسعك اقتراح أي فكرة تودين، أنت فخورة بي أليس كذلك؟ أعدك أن فخرك سيزدهر في الأسابيع القادمة، تصبحين على خير.

خليل "

"عزيزتي أثيل

أودعت صديقي عمر المطار ليلة أمس، و كلي أسف لفراقه، ثم عدت فورا إلى البيت، لم يطل مكوثه معنا بسبب التزامه بالعودة إلى عمله، كانت فترة وجوده معنا وجيزة مرت بسرعة البرق، هناك أمور أتمنى لو أستطيع أن أحدثك عنها و لكنها تقلب مواجعي من ضمنها سنتي

المعزولة و عمليتي الصعبة ،ربما ذات يوم ،عندما أقابلك ،تحتاج هذه الأشياء الحساسة إلى أن تقال و تسمع ،لا لأن تكتب و تقرأ ،لأن الكتابة لا تعبر كفاية.

لأضع في معلومك عدم مقدرتي على النوم جيدا الليلة الفارطة، استيقظت مضطربا عند الثانية صباحا ومنذ تلك الساعة لم أتذوق طعم النوم، هناك شيء ما يقلقني مع عجزني عن تحديده، و كنت على وشك أن أكتب إليك جريدة من الشكوى القاتمة لكنني غيرت رأبي، أكاد أجزم أن السبب هو أنت، لو أنك تبادليني الرسائل لكنت لفظت هذا الكدر الذي يغلف عقلي، على أنك لا تزيدني عن احتراف الصمت. أنا لأستشّف منك إلا التجاهل، ليس لدي خيارات كثيرة إلا الصبر، ولما كان لدي خيار واحد فأنا أتقبله على مضض ، هل كنت تعرفين من قبل عن عدم استحساني لكتابة الرسائل، وها أنت ببرودتك تجبريني على كتابة أكبر عدد ممكن منها، وكلّما تأخّرت في القدوم إلى رؤيتي سأجبر على كتابة المزيد، أشعر كما لو أنني تلميذ معاقب بكتابة الكلمة ذاتها ألف مرة لأنه أخطأ في نطقها، ليسقط التجاهل. ليسقط التجاهل مليون مرّة.

أجيبني على سؤالي كي أستعد نفسيًا، هل سأكتب الرسائل إلى الأبد؟ ذات يوم عندما ينفذ صبري وتُسدّ كل المنافذ في وجهي، سأطرق كل الأبواب بحثا عنك، عندها سأخبرهم أي الرائعات المميزات أنت، و إنني مجنون لأعثر عليك .يتم حينئذ تصنيفي كمجنون خطير طليق على الأمن العام، و كذلك سيتم طردي من أمام بيوتهم بزمجرة متجهّمة . أتريّن كم أتحرّق شوقا للقائك !! أرجوك لا تخذلي خليلك اليائس هذا السبت، و تعالي لمقابلته، حسنا سأنصرف مبكرا إلى العمل، أودعت أوامر صارمة لطاقم الخذلان ذاك بضرورة الاجتماع والجدال قبل البدء بالعمل، يتعيّن علي أن أغرس فيهم بعض المسؤولية، إن استئصال عاداتهم السيئة من رؤوسهم أشبه باستئصال ورم من مكان حسّاس في الرأس

خليلك المثابر دوما

ملاحظة، منذ قليل وردني نبأ وفاة رجل الأعمال الشهير سامي، لقد كان رأسماليا جشعا ولصا مقيتا لهذا يتعدّر علي التظاهر ببعض الحزن كلما تذكّرت أعماله الشنيعة في حقّ العمال، أنفكّرين بما أفكّر؟ أتمنى أن لا تكون جنازته مهيبه كجنازة الاستغلالي رجل الأعمال فرحات. إن هؤلاء العمال العاطفيين يصبحون أغبياء، عندما تطفو عواطفهم الساذجة إلى السطح.

" عزيزتي أثيل

لست أشعر إلا بالعصبية ،وأواجه مشكلة عويصة في كتم غضبي، ولأني استطعت خنق ضحكتي مرة . فلم أعد أقدر على ذلك ،في وقت ما وددت كسر بعض الأغراض العزيزة على قلب

خالتي للتهديئة من روعي. ألم تتحقق توقعاتي؟، إن تغيير رؤوس الأغبياء أصعب من إقناع الأسد بأكل العشب، ماذا يشبه هذا هوسا دينيا أو عواطف خرقاء؟ هو أسوأ باعتقادي. أحسبني الآن، سأقضم جلد يدي من هول الغضب.

عدد الحضور في جنازتك لا يفسر أنك كنت إنسانا نبيلًا، فحتى الأوغاد يبكيهم الأغبياء عندما يرحلون بالآلاف، في الواقع إن الأغبياء يبكون على أي أحد لا يستحق بتأثير ضالّ من عواطفهم. لقد كان رجلا منحطًا سافلا وانظري إلى الحشد الذي ركض في الجنازة و بكى حتى تورّمت العيون، هؤلاء العمال الذين استغلهم وأهانهم والذين قاموا بإضرابات من أجل تحصيل حقوقهم المغتصبة. أليس مضحكا أن تبكي الضحية جلاّدها باسم الموت؟ أليس غباءً عاطفيا منحرفا، ثم تطالب أصوات صفيقة بذكر محاسنه، لم أعرف له حسنة واحدة، كلها سيئات وبوسعي عدّها إلى ما نهاية الدنيا دون أن أنتهي من إلقاء نصفها فقط.

لقد عرض صانع الطائرات الورقية الأخرق، ووجهه متقلّص من الألم أن ندوّن تعزية بمناسبة وفاته في الصفحة الثانية شاخرا بصوته: لقد مات وهو بين يدي الله الآن، لنحذوا حذو باقي الجرائد ونقدّم تعزية على الأقل. كدت أخنقه، وافترضت تجنبنا لذلك أنه غبي شأنه كعمّال الرجل السيء، لن أسمح بذلك، فأنا لست حزينا بكل صراحة، ولم أعتد أسلوب النفاق ذاك، ثم لماذا تُقام له جنازة كبيرة مثل تلك، كأنه شهيد مات في سبيل قضية وطنية. اعذريني يا عزيزتي لأنني أزعجك بهذه المسائل، فما من أحد أشاركه ضيقي، أنا في منتهى الامتعاض. إن ما سألتك بالمقابل كيف كان يومك فلن تحلّ علي البركات و أتلقّى منك جوابا، و لهذا سأقوم الصيغة إلى: أتمنى أنك نعمت بيوم طيّب.

كان الطقس معتدل الحرارة، و الشمس تحظى بدلال ناعم و يبدو كما لو أن الصيف يغزو أراضي الخريف، أفترض أن ذلك كله يرضي نزعتك الوقورة لمقت هذا المسكين.

أما إن كان يهملك أن تستوضعي عن يومي، ليس أحسن من سابقه. تفكير تلك الزمرة عقبة كؤود في وجه كسر بعض الإخفاق، لازالت رأيته مرفوعة مرفرفة كعلم الاستسلام، سأكرّس المزيد من الجهود، و يصدر العدد هذا الخميس و كلي أمل في نيل استحسانك له . أنا مجبر على الخروج بعد قليل للمزيد من الاجتماعات البلدية مع الوقور مالك وحفنته العاطلة، أمل أن لا يزعجك ذلك؟!، لن تنضمّ إلينا الفتيات، ليس من الصواب أن تنضمّ فتاة إلى اجتماع ينتهي مع منتصف الليل، اسمعي لي أن استعدّ

خليل"

ملاحظة أشعر بالإرهاق خاصة أنني لم أتمكّن من النوم ليلة أمس، أتكتبين لي رسالة تمنّ

علي ببعض الطاقة؟، أنت موهوبة ذكيّة في رفع المعنويات، هل تهجرين تجاهلي لنصف ساعة فقط يا أنستي؟ لن ينتهي العالم ، أبتسم مثل أحقق عندما أفكر أنني سأتلّق رسالة عند عودتي " أميرتي الجميلة أثيل

التي تجعلني أشتاق إليها، وأتعلّق بها أكثر يوماً بعد يوماً

إن مشهد غروب الشمس بديع ساحر، ما أجمل حمرة الغسق وهي تغلّف الأفق البعيد؟ كانت رائحة البحر تغازل منخري وتريحني وأنا أراقبه برفقة السيّد فريد، ساورني الشعور بالإثم لعلي أنك و البحر أهداء قدامى، وأعتقد كذلك أنك رفعت العقوبات المستخقة عنه بعد أن عقدت صفقة للانخراط في صفوف المكافحين ضد الخوف.

إننا نشكل أنا و الرجل المنعزل ثنائياً واعداء في العمل، و ما ألبث وضع كل أفكاري في مكان بعيد عن تناول يده، يحبّ تقليد الناقدین السلبیین علی نحو مثبٹ للعزيمة. جلسنا نتعاطى حديثاً شيقاً عن العدد الذي صدر اليوم، أمل أنك ابتعت واحدا و قرأته، هو إنجاز جماعيّ وضعنا فيه كل مواهبنا المحمودة، مع الاستغناء عن مواهب السيّد المرموق مالك، فهو الوحيد الذي لا يشاركنا العمل بفتور صريح . أعتقد أن العدد قد نال استحسان الكثيرين، أجد صعوبة في تصديق هذا النجاح من أول عدد، تبادلنا بعض الرسائل أيضاً مع جماعتي المتهيجة، و نلت الحصّة الأوفر من الإطراء لكوني القائد المغوار، تقبلت الأمر بفرحة غير مكتملة فأنت لم تهنيئي بهذا الإنجاز، هل قرأت مقالتي؟ يعني لي الكثير إن عرفت أنك قرأتها أنت بالذات: كلما خفت من خسارة شيء ما بشكل مفرط ينتهي بك المطاف إلى خسارته، عش حياتك بروح متأهبة للريح والخسارة، مع أن كل معركة في الحياة هي ربح فقط، فحتى الخسارة تُصنّف ربحاً لأنها تمنحك تجربة والتجربة تمنحك عبرة والعبرة تعطيك حكمة و الحكمة تمنحك تصرفاً سليماً، لقد خسرت ذات يوم خسارة فادحة لم أعرف لها مثيل ولكن ربحت معرفة إنسان مخلص غير حياتي إلى الأفضل، إذا أنا لم أخسر، لقد ربحت . غامروا دائماً لأن النتائج لا تأتي للمزروعين في أماكنهم، و الخوف من الموت لا يمنع قدومه. غامروا و ابحاثوا عن أهدافكم و اصرفوا عقولكم عن الخوف. لا يأتي الغذاء للطيور في أعشاشها، فهي تحلّق لتبحث عنه، ليس من الأهمية بمكان عدد المرات التي تفشلون فيها فكلما ارتفع عددها، ارتفعت حظوظكم في نجاح عظيم.

هذا جزء قصير من مقالتي المتواضعة، إن لم تواتك الفرصة لقراءتها، لقد فقدت كل أمل في تلقي أي تهنئة من طرفك و لذلك سأغض الطرف عن طريقتك المنهجية في جعل قلبي يخنتق الماء، إنها ليلة الخميس وغدا هو الجمعة، اليوم الطويل، فالساعة الواحدة بها ستون يوماً، وبعده

سيأتي دور السبت، أجل سأتردد على تلك الحديقة للمرة الثانية، أمامي مشوار طويل للانتظار،
ربما طوال حياتي، هل تؤكدين؟

خليلك الحزين جدا لأنك لا تعبرينه أي رعاية إنسانية"

"عزيزتي أثيل

سيزعجني جدا. أن انقل إليك تدهور نظام ذاكرتي، إنني أنسى هذه الأيام بصفة متكررة
تبعث على القلق، فمثلا هذا الصباح كنت أبحث عن أوراق خاصة بالعمل، لقد قلبت أنا
وخالتي البيت وفتشنا كل زاوية وخرانة، أجل من المؤسف أن أقول أنني قضيت كل الصباح في
عملية تنقيب عن غرض ضائع. كُلت جهودنا بالإخفاق، وهكذا توترت أعصابي واستعر الغضب
في رأسي، فأنا أغضب بسرعة لأي سبب تافه، و جهزت اتهامات ضمنية مرحة للسيدة التي
تعيش رفقتي، اتهمتها أنها من أضاعت الأوراق فهي بالطبع تتفوق علي في السن، كما أنها معنية
أكثر بمسألة ضياع الذاكرة هذه. لك أن تتخيلي وجهها عندما تذكرتُ على حين غرة أنني تركت
الأوراق بعهدة الأنسة ملك لتراجع الأخطاء، لقد عقدت ذراعها إلى صدرها زاوية ما بين عينها
متجهمة الوجه: و الآن يا خليل من يعاني من خلل في الذاكرة أنا أو أنت، وعندئذ عبثت بوجهي
قليلا متأسفاً لأن الأعمال انهالت على كاهلي، ليس ذلك بالعذر المقنع، أفترض أن ذاكرتي تشارك
في تسريع تقدمي في السنّ، بينما لا أزال شابا يافعا. وإنما إحدى علامات الشيخوخة المبكرة وما
لبث أن احتلني شعور مرعب، ماذا إن اختل ميزان الذاكرة قبل أن أراك. إن ذلك أفسى ما قد
أعرض له . لا يهمني نسيان أي أحد حتى نفسي، ولكن نسيانك أنت فذلك ما يقذف بي في
أهوال الحزن، هيا يا أثيل إنك تبالغين يا عزيزتي، تعالي بالغد، قلة من الناس يصمدون أمام
هذا التصميم، هل أطعم في حضورك غدا، أتمنى ذلك؟

المخلص خليل "

"عصفورتي المرفرفة

صباحك أجمل من الياسمين و أطرب من الأهازيج، أتوجه الآن إلى مدينتك و سأجلس بتلك
الحديقة، يملأني قانون الجذب أملا بحضورك لرؤيتي، لقد اتفق وحررت قرارا يبيح الاعتماد
عليه، وردتني رسالة ذهنية منك، تؤكد لي قدومك، سأكون متلهفا لمقابلتك
أبعث لك بأجمل التحيات "

"عزيزتي أثيل

مرة أخرى رجعت أجرّ أذيال الخيبة، اه كم تأملت يا أثيل، و ترقبت كما هو شأني، ترقبت
أن تقفي أمامي بثوب أزرق طويل و شعر أسود متموج وعينين سوداوين تشعان بحماسك

المعهود، ثم تقدّمين نفسك (أنا أثيل)، لكم تأثّرت ودبّ الألم إلى أوصالي، ثم غار جذلي في موجة من الكآبة، ليس من شيء أصعب من الانتظار، أترك تنتقمين لانتظارك الطويل، لم أكن أجيبك أنا أيضا رغم أنني قرأت كل حرف كتبته، وأعي أنك تقرئين كل حرف أكتبه أنا. أما لماذا لا تردّين جوابا، فأنا عاجز عن الفهم.

عندما حلّت الساعة الثانية ، انقطع حبل آمالي وتبيّنت أن قدومك أمر مستحيل، على أنني عاهدت نفسي على انتظارك كما سبق و فعلت أنت، أنتظرك إلى الأبد يا أثيل، لم أبرح المكان إلى أن غابت الشمس، لماذا تفعلين هذا بي؟ألست تهتمّين لأمرى؟على الأقل اكتبي لي رسالة طالما لا يسعك المعياء، أرفض تماما تصديق أنك تستلدين منظري وأنا أنتظرك بشوق. أنت تؤلميني يا فتاتي القاسية، إلهي كم تفعلين ، يبدو لي أنه ينبغي علي التسليم بالأمر الواقع، الانتظار في ذاك المكان دون رجاء، أجل هذا ما أنوي فعله، سأعتنق الفكرة وأرتاح .

لم يحدث شيء ذو أهمية،جلست أقرأ كتابا و من حين لآخر أرفع رأسي لأتفحص الوجوه، كما أن ذلك الحارس الفظّ لا يتورع عن إبداء ذات الملاحظات القميئة والإغراق في ضحك طويل،ذات سبت ستقاذفه الظنون ويشتبه في كوني إرهابيا يسعى لتفجير الحديقة، مما يعني أن سلامته في خطر، لقد قرأت وجهه عندما هممت بالمغادرة، و تبليغ السلطات أمر مفروغ منه، أثيل لقد عقدت العزم على عدم الضغط عليك، سأنتظرك فقط في الحديقة إلى الأبد؛ كي لا تنسي، هذه المرة الأخيرة التي أذكرك فيها بالأمر

خليل خائب الأمل "

" زهرتي الجميلة أثيل

لقد تساقطت الأمطار بغزارة كما هو متوقّع، مفاجأة سارة في أول يوم من تشرين الأول، كان أيلول حارا خانقا كأيام أغسطس، إنها نعمة عظيمة ينبغي أن تُقابل بالشكر الجزيل لعطاء الله غير المحدود، يرسل الشتاء رسائل باردة، يبلغنا عزمه على أنه سيكون قارسا عنيفا هذه السنة، وعلى الأرجح ستدلّل الثلوج البيضاء الأرض العطشى، لن تدأب شمسك على الشروق كما هو معتاد، ستتوارى الآن خجلة وراء غيوم قاتمة، أدرك شعورك ببعض الكآبة؛ لأن شمسك لن تسطع في كبد السماء كما هي العادة، لا تشعرني بالحزن يا حلوتي، فأنت في حدّ ذاتك شمس مشرقة.

كما اتّفق و أعلمتك، أنا لوحدي هذه الأيام، فخالتي رفيداء ذهبت لزيارة أحد أقاربها المرضى بالجنوب ولن تعود قبل أسبوع، لست أفتقدها فحسب، فحتى حياتي غدت أقلّ انتظاما و أكثر فوضوية منذ مغادرتها البيت، لا أعتزم إرسال أي رسالة أستفزّ من خلالها

عاطفتها الحنونة وأحتّما على العودة بوقت مبكّر، فتلك أنانية بغيضة من طرفي، يحقّ لها التجوّل بين أقرّباها، و تمضية بعض الوقت السارّ برفقتهم، منذ انتقالها للعيش معي انخفض معدّل زياراتها، بل أكاد أقول أنه تلاشى تماما، لو أنني لم أبذل مجهودا جبارا في سبيل إقناعها بالذهاب لكانت الآن تعاتبني لنسياني النافذة مفتوحة بالليله الفائتة، ولأشارت بضيق إلى الأورق المبعثرة بكل الغرفة، ها، أمسي مهملا عندما أترك بدون رقابة شأني كفريق العمل، فكّلما غبت عنهم قليلا شرعوا في أعمالهم الصببانية وإهمالهم المقصود . أجل، أنا مستاءٌ بعض الشيء و أشعر بالوحدة، يغدو البيت موحشا بدون أهله، لكن وجودك يمنحني قوّة وعزاءً، أنت يا شمس حياتي التي لا تغرب، أنت تشرقين بداخلي، والحمد لله إن تلك الجريدة تبدي بعض التطوّر والازدهار وإلا لشعرت بفراغ قاتل، ذهب عن بالي إخبارك باستقالة أحد موظّفينا الأعزّاء منذ أسبوع، مبديا موقفا قانعا عن تخصيصي جلّ الصفحات لانتقاد قرارات الحكومة الطائشة بخصوص رفع الأسعار مجددا، يصعب علي الاحتفاظ بأعصابي باردة و أنا ألاحظ الطريقة المستهترة التي تتلاعب بها بمستقبلنا جميعا، سيلتحق رفيقنا المستقيل بعمل مناسب خارج البلاد، وظّفنا بدله فتاة تدعى أسيل، على نفس وزن اسمك، فتاة كثيرة الحركة و الثثرة، لكنها حيوية و نشيطة و تنفّذ الأعمال بخفّة، أكثر ممّا هو متوقّع من فتاة مثلها .

السيد مالك يخطّط للذهاب في رحلة لمدة سبعة أيام، لن نستشعر غيابيه فنحن بالكاد نشعر بوجوده، بينما أنا أسعى بكل ما أستطيع لرفع مستوى تلك الجريدة، يحاول فريد أن يدعمني كذلك، يعتبر عمليّا الشخص الوحيد الذي ألقى بالأعمال عليه دون أن يتجاوب بسحنة متدمّرة، يا له من رجل شجاع مسؤول ملتزم، مع أن أفراد الفريق يُبقون استياءهم بعيدا عن متناول مزاجي المعكّر هذه الأيام.

حسنا يا أميرتي، سأقصد المحلّ القريب لابتياح بعض الأغراض الضرورية، أفكّر في تحضير عشاء سريع بمواهب مفعجة في الطبخ، أعترف بأن البيت بدون نساء بيت فاشل محكوم عليه بالفوضى والجوع والضجر. إن الأطباق التي أعدّها تليق وجبة راقية للكلاب وليس البشر، نسيت وضع الملح في البطاطا، كما حطّمت عددا لا بأس به من الأطباق الزجاجية، بدلا عن السكر وضعت الملح في القهوة، المطبخ ينضح برائحة مطحون القرفة المبعثرة على الأرض، والتي عجزت عن تنظيفها، أوّجل الأمر إلى الغد. الصحون مكوّمة في الحوض، ستغسل في السنة القادمة، الغبار في طبقات سميكة على كل الأثاث حتى العناكب شاركتني الإقامة، و نسجت بيوتا في كل الزوايا ، وتهدّد يداي العصبيّتان بتسجيل مزيد من الحوادث التخريبية قبل أن تفكر خالتي في العودة. أضحيّت وفيها لشعار: كيف تخربّ العشّ المنزلي الآمن في عشرة أيام،

أبدعت في جعل المطبخ مكانا منفرا بكل المقاييس وأخشى أن علامة الصفر لن تفيد كثيرا في التعبير عن الوضع الكارثي، أعترف بفشلي في إدارة شؤون المنزل، كل الرجال مخلوقات فاشلة في إدارة شؤون البيت؛ فلا داعي للسخرية مني

خليل مثير الفوضى "

" فراشتي الملونة أثيل

اليوم هو العاشر من تشرين الأول، سأذكر هذا التاريخ ما حييت و أحيي ذكراه كل سنة، اكتشفت على سبيل الصدفة أن لي عمًا يعيش خارج البلاد، لم أعلم بوجوده مسبقا، وضّحت لك منذ يومين أن خالتي رفيداء تخفي عني أمرا، لكنني ملّح جدا عندما أقرّر نيل شيء أو استدراج لسان خارج فمه، لك أن تتخيّلي هول المفاجأة، لا يوجد سريبقى مخبأ إلى الأبد، كان عمي هذا على خلاف عميق مع جدي بسبب مسألة تتعلق بتصرفاته، نشب بينهما شجار ثم انفصلا نهائيا وأحسبه منبوذ العائلة بسبب شذوذ أفعاله، لم يسبق أن حدّثني والدي أو عمتي بخصوصه، سأجري تحرياتي مثل مفوضي الشرطة المحترفين ،فأمام تلك الكتومة لا يجدي إلا التلويّ في الأساليب مع توظيف بعض المجاملات الاجتماعية الممتازة،و إبداء إعجابي بتحليلاتها السياسية العبقريّة سيكون تمهيدا لذلك ، إني دمت سلس ذكي ،وتعوزني فضيلة إبقاء أنفي في مكانه، دائما تؤتي أساليب خليل أكلها، ضعي هذا حلقة في أذنك يا أثيل، أجزم أن أمي لم تكن تعرف بوجوده كذلك، مالذي أنوي فعله؟ إني أشتّم مثل كلاب الصيد لأظفر ببعض المعلومات.و لا توجد إلا عمتي الناعمة لتخلق لي طريقا إليه، أحبّ التمرّد على قوانين العائلة المتزمتة، لا شك أن جدي كان رجلا صارما حازما ذا عينين نفاذتين مخيفتين ولحية طويلة متدلّية إلى صدره، و عصا ثخينة يلقي بها الأوامر صامتا، أليس هذا مثيرا؟زيارة مفاجئة بعد ظهر الغد لبئر الأسرار الصامت ، تفضي إلى حوارات من النوع التي أحب، يلي ذلك إقحام صادم لحقيقة ميتة وكنتيجة حتمية استنطاق ماهر، و ذهول من طرفها، وقبل أن تحاول الإنكار ستجد نفسها في جوف رزم صغيرة مغلّفة من الأدلّة والبراهين. لو لم أكن صحفيا، من المؤكّد أن محققي الجرائم كانوا سيسعدون بعضويتي معهم

المحقق الماهر خليل "

"حسنائي العذبة أثيل

أتّضح أن الخالة العزيزة متأثرة غاية التآثر ببعض الأفلام العاطفية أكثر مما يحتمل أن أخمن، كما أتّضح أن عقلها بدأ بفقدان خلاياه السليمة، لقد أوقعتني في فخ سخيف و صنعت مني نكتة أغرقت عمي في زوبعة من الضحك، لم يكن منبوذ العائلة عمي؛ بل ابن عم والدي،

ولأن عمتي تعتبرها قصة قليلة الأهمية، لم تكلف نفسها مشقة طرح التفاصيل، كان ابن عم الوالد إنسانا طائشا بارعا في خلق المشاكل ومصائبه اللاأخلاقية زادت من حظوظه في النفي، فقررّ جدي صاحب الكلمة العليا و القرارات النافذة سلخ اسمه من الدفتر. وأشارت عمتي أنه يعيش في بلاد أخرى بقارة أخرى ، إلا أنها لا تعرف عنه أي شيء تضيفه إلى رصيدي الفضولي، أنا مهتم بالتواصل معه، سأحاول قدر المستطاع إيجاد طرق تؤدي إليه، فهو قريبي على أية حال، ونحمل نفس الدم.

ثم دعيتي بلطف متزلف لتناول العشاء برفقة عائلتها ،ولأنني حاولت التخلّص من هذه الورطة أقصد الدعوة ؛بدوت فظا نزع الطباع، لقد بقيت وعدت الآن بوقت متأخر، على الأقل أبعدتني تلك الزيارة عن جو العمل المضجر ساعة ، وعند عتبة الباب ، زجّت خالتي الطريفة بعض الملاحظات حول النوافذ المفتوحة ليلا وعدم الانتظام في وجبات صحيّة محدّدة وإرهاق النفس في العمل دون مراعاة للترفيه أو التسلية، ليس بوسعها الصمود أمام إلهامها النظامي لوقت طويل . إن العمل يقضي على كل فرصة لي أمام المثابرة على الوجبات أو الانتظام في العودة إلى البيت، أحيانا يمرّ الوقت دون أن أنتبه، وما إن أتفقد الساعة حتى أجد أن ضوء الفجر سينسل قريبا إلى الحجرة.

لو أنك تعتنين بي قليلا يا عزيزتي؛ لما أهملت نفسي إلى هذا الحد، أتساءل دائما ماذا تفعل أثيل في هذا الوقت؟ كيف كان يومها؟ كيف تشعر الآن؟هل تفكّر بي مثلما أفكّر بها أنا، هل تطلقين علي صفة المغرور إذا ما أجبت، بنعم؟ وفي بعض فسحات الفراغ، تغمرني الحيرة ويبرز الشطر الثاني من النص الفلسفي، لو أنها تهتم لأمرى، أكانت تتركني في هذا الوضع الذي لا أحسد عليه!!، لو أنها تبالي بمصلحتي أتركني لمطر السبت المنهمر حتى أصبت بالزكام وتوعّكت صحتي أو تحت الحرّ القانظ حتى يتصدّع رأسي!! لو أنها تكنّ لي عاطفة من النوع الذي أظنّ، أكانت تقذف بي في دهاليز الحيرة و الضياع؟(لو أن) هذه ليس لها أجوبة ظاهرة تنهي ضياعي، ولهذا أنا لا أنفك أغادر نفق الحيرة والخوف، إنني أخاف يا أثيل من أشياء لا أستطيع تفسيرها، كونك لا ترسلين أي إشارة، إنك لا تفعلين أي شيء من شأنه إسكات الأصوات التي تصخب وتضجّ، على أنني لن أستسلم أبدا، و إن كان عذابي هذا يرضيك فأنا راض به أيضا، ليلتك طيّبة يا نوري الساطع

خليل "

"عزيزتي أثيل

كانت زيارة اليوم إلى مدينتك مثيرة نوعا ما، تختلف عن سابقاتها، لقد فتحوا مركزا تجاريا

جديدا قريبا من الحديقة، مكانا ضخما ذا واجهات زجاجية، لم تحرك خطوة واحدة خشية أن تأتي فلا تعثري علي في مكاني، مرابط كجندي ملتزم، غير أنني أدت حقّ متعة بديلة، راقبت الجمهور المتدافع بحماس، معظمه سيّدات أنيقات مماحكات يقبضن بعنف على أياد صغيرة، حتى إن ثلاث أياد صغيرة تتشارك يدا كبيرة ناعمة واحدة، وحتى إن جسدا صغيرا يمكن حشره بين ساق وأخرى لضمان سلامته. إلهي، ما أعظم النساء، متعدّدات الوظائف، ذكيات في إيجاد الحلول التي تناسب العقلية التسوقية، أشكّ أن المرأة يمكن أن تمرّر خبر فتح محلّ دون أن تؤدي دورا فعّالاً في تدشينه، ثم التفاخر بين صديقاتها أنّها حضرت المناسبة السعيدة لطرح الحارس الهزيل أرضاً إثر اندفاع نسويّ فاضح لاقتناء الأغراض العزيزة على قلوبهن، و ما هذه الأغراض !! أوان ، يمتلكن منها جبالا في البيوت لم تعد تجد متسعا، و أصبح كسرهما لخفض عددها ضرورة ملحة أو قضية مصيرية، قطعاً للزينة انتهى مفعول سحر شقيقاتها في المذهب عندما شخصت عين مذهولة تتعلّق بأيّ غرض تقع عليه إلى غرض معروض في الواجهة اللامعة، يا لحظ الرجل التعس!! أتساءل دائما لماذا تحبّ النساء التسوّق أكثر من حبّهن لأيّ مسألة أخرى؟ إنهن يصرفن بضمير نائم راتب المسكين المغلوب على أمره لأجل فستان بنفسجي فاتح مطرّز الكمين ثم تملّ منه أسرع مما يحتمله قلبه المخزّم، و سرعان ما توجه نظرها إلى فستان أحمر ينتظره نفس الدور من تقمص الملل، كما تعرفين يا عزيزتي الصامته، إنّ تحديث الخزانة يتوقّف عليه مصير جيلين أو ثلاث، أقصد شتات الأسرة المتماسكة.

بلغ مسامعي أن الافتتاح كان من المفروض أن يكون في الأول من تشرين الثاني، ونظرا لبعض العقبات المتعارف عليها كمزاج العمدة المتذبذب ، أو تعصّب من تصرّف ابنه الصغير الحاصل على علامة رديئة، أو ربما انشغاله بقضية خاصة تصنف مقاما أولا، قرروا التأجيل إلى اليوم أي الحادي عشر من الشهر، كل شيء يبقى قيد الاعتقال إلى أن يقرّر المسؤول تحريره. استمرت الحشود القادمة لنجدة المركز من خطر تركه وحيدا ، تتوافد تباعا، بعض النساء اللاتي يرتدين فساتين مبهجة ملفتة لم يغادرن إلا عند غروب الشمس، ليس لأن الواجب الأسري يحتمّ عليها الانصراف، فالיום لم يكف حتى لاكتشاف المدخل. لا، بل لأن المركز سيغلق عند الساعة الخامسة في يومه الأول، كل واحدة منهن منقطة يداها بأكياس تقضي على أزمة اللباس في الهند، تلتفت يمينا و يسار لتحسب جراءها المتعثرين ثم تصيح بصوت فظّ جهوري: أيها الأحمق الصغير تكاد تسقطني، تنام عندما نصل إلى البيت، إن ما استرسلت في الشكوى فأقسم أنني سأصفعك حتى تتساقط أسنانك، كفّ عن البكاء لقد أكلت منذ قليل، أتراك تعاني من السكري؟ انتبهي لخطواتك العرضية أيتها الخنفساء، أنت تضعين قدمك على طرف

فستاني، لا تظليّ أنني نسيت الطريقة التي أخرجتني بها أمام السيّدة تالا، ماذا ستقول عني لم أحسن تأديبك، أين شقيقك الصغير. لقد ضيعناه.

إذا لم تتطوّع الأمّ الغالية لنعتك بتلك الصفات الشاذة فمن تراه يقوم بالواجب الوطني. تذكرت أمي يا عزيزتي وشعرت بالحنين لها .
لم أكن لأميل لك على هذا النحو المشبوب، إلا لعلمي بفطرتي الناضجة أنك مختلفة عن تلك العصاة الخطيرة.

في طريقي إلى المنزل و بينما شرعت الأمطار في الهطول منيت بظرف غير مسبوق بل غير مناسب، لقد تعطلّ دولاب عجلة السيارة، ساعدني بعض الرجال الطيبين، يبدو أن حياتي ستستمر تحت تصرف زخات المطر، بالكاد أخلص نفسي من الاستجواب الذي يحلّ علي كل سبت: أين تذهب كل سبت يا خليل، إنك تعود مبلا، ألا تتحلّى ببعض المسؤولية؟، لا. لم تدعني خنفساء، ولم أعرّض للتهديد بالضرب و الصفع، الحمد لله شأني كهؤلاء التعساء الصغار ضحايا العشق النسوي للثياب، سأوي الآن إلى فراشي، أفشي لك سرا؟ أشتاق لك، رغم أنك لا تبارحين خيالي مطلقا تصبحين على خير خليل "

"عزيزتي أثيل

ذلك الشيء الذي تمتنع تجريبه، من الممكن أن يكون أفضل بكثير من الشيء الذي تلتصق به كأنك غراء، جرّب دائما أمورا جديدة، أقول أشياء، لا أشخاص كيلا يتحمّس بعض الرجال لتغيير زوجاتهم، أحاول تجميل هذه الجملة لأصنع منها مقالة ابداعية استثنائية المحتوى مع وضع لمسات مقنعة لعدد العشرين من الشهر، سيصدر بعد يومين، لطالما أطريت موهبتك في الإنشاء، وطالما اعتبرت أن عالم الكتابة والتأليف يخسر موهبة عظيمة لعدم انخراطك فيه كما كانت الصحافة قد خسرت انضمامك إليها . أنت محاطة بالكتب طيلة الوقت؛ ولهذا يسهل دمجك في المجال، وإن ما أذنت لي، أقدم لك هذه الفرصة، أرسلني إلى عنوان الجريدة أي مقطع كتابي توّدين نشره، سيسرني أن أفتح لك الطريق نحو النجاح عن طريق تجنيدك للعمل ضمن فريق المتواضع ففتحين لي المجال لاختلاس النظر إليك كل دقيقة، ستصنعين من حياة هذا الرجل الرتيبة المكتظة بالعمل الخالية من الترفيه والمتعة حياة مفعمة بالفرح والنشاط، خاصة إذا دأبت السيّدة المحترمة سميحة على زيارتك.

قبل أن تقرري رأيك، ضعي الفكرة قيد التفكير ضمن السرب الذي يحلق حول رأسك، أراهن أنك لا تنقطعين عنه، أعطها مساحة واسعة، بوسعي الانتظار، عندما حان أوان الانصراف إلى البيوت، همّت الحسناء الشقراء بمغازلتي، فهمت ذلك من البريق المشع في عينها، أفشل صانع

الطائرات مخططها قبل أن يعرف النور، أنعرفين ماذا اقترح العبقريّ الموهوب، أن أدوّن كل همومي و آلامي و كذلك أحلامي على ورقة ثم أصنع طائرة و أرمي بها إلى البحر، و ستتحقق آمياتي و ينقشع ألعي، تمالكت نفسي كيلا أرسله هو على متنها، ذات يوم سأفعلها بسرور حقيقي

خليلك المخلص "

"أثيلي التي لا تقدر بثمن.... لو سألتني عن أكثر صفة أكرهها في البشر؛ فهي الكذب، أنا أمقت الكذب من كل قلبي، إنه أسوأ من الخيانة والسرقة، بل هو منبعهما ونقطة بدايتهما، أفضل أن يخسرنى الناس بالحقيقة على أن يكسبوني بالكذب، لن انقل إليك أحداث الموقف الذي حرّضني على تحرير الرسالة فبالاعتماد على بعض المبررات السقيمة الجاقّة أصبح امتهان الكذب حرفة مقبولة إذا ما آلت الحاجة إلى اضطرار نابع من الظروف. لا توجد ظروف تبيح الكذب، هناك ظروف تبيح الأفعال فقط، وحيث أنني رجل متفهم فيوسعي وضع هذه الأفعال تحت المجرثم أقرر إن كانت الدوافع مقنعة أولاً، لكن ليس الكذب من أجلها.

أحاول أن أتفهم الصعداء بعد هذا الشوط الطويل من العمل الجدي. إن ما خطرت لي أخذ إجازة فلا شك أن طاقم العمل سيفلت من قبضة الانضباط عند أول فرصة تحتم على التسرب المهني، كما أن احتمال تدمرهم الأبكم أكثر من وارد رغم أنني نائب المدير.

ثمة قاعدة جيدة خصصت لأجل القائد، يتعين أن يضرب مثلاً جيداً للجنود، و جنودي الأعداء لا يتورعون عن تنفيذ الأوامر في حالة واحدة، ألا وهي مراقبتي لهم كل ثانية. إنهم يقترحون أن نجري احتفالاً بمناسبة تحقيقنا هذا النجاح، ألم أعدك يا أثيل؟ لقد صنعت منها جريدة محترمة محبوبة، لم تعتلِ الصدارة بعد، على أن ذلك مرتبط فقط بالوقت، سأوصلها إلى القمّة، لم تكوني المحفّز الأفضل لي فحسب؛ بل أنت من تصنعين كل نجاحاتي، أخطط غدا لشراء هدية من ذلك المركز الذي افتتح بمدينتك بغية مفاجأة خالتي الكريمة، لم تخفّ الحركة به إلى الآن. إن السيّدات اللبقات يتركن في ذهني انطبعا حسنا عن السلع المعروضة هناك، أبلغك بهذا خشية أن تأتي فلا تجديني، لن أتأخّر في ابتياع الغرض، خمس دقائق على الأكثر، لست أم الخنفساء التي لا يخرجها من المركز إلا غروب الشمس أو حريق مهول، كما أن ميول العصابات لا تثير اهتمامي خليل المخلص لك إلى الأبد "

"جوهرتي الثمينة أثيل.. أشاهد من نافذتي الآن ندف الثلج تتساقط، كم أحبّ الثلج، و كم أحبّ فصل الشّتاء، لم يكد يمرّ يومان فقط على حلوله حتى فاجأنا بهذا المشهد الرائع، كل ما يكدرني هو هؤلاء النائمون على الأرصفة و الطرقات دون ماوى يدفعهم أو سقف يدفع عنهم البرد

والفاقة، وأمثال السيّدة عريسة وابنتها، نسيت ما كان اسمها أيضا، هؤلاء الذين يعيشون في الأرياف بمواقد تقليدية وظروف صعبة وانقطاع مبالغت دائم للكهرباء. إن أوضاعهم مدعاة لثناء جنائزي، وإحساس بعجز مقيت. أنت أيضا تنغمسين في التفكير بخصوصهم، أنا أبحث في نفسك حتى دون أن أراك، فلا أجد إلا كائنا طيبا لا يفوته القلق و التفكير بخصوص كل إنسان حتى ولو كانت نملة. سأجري استعدادات متأهبة لزيارتي القادمة، و أتدثر بطبقة سميكة من الثياب، لا يبدو أن الطقس ينوي التحسّن، أمل أن لا تسدّ الثلوج الطرقات فأرغم على التغيب أو التأخّر عن الموعد.

عزيزتي في هذه اللحظة تضطرم في عقلي ذكريات ماضية رفيعة أمني، في مثل هذا الطقس كانت تحيطني برعاية خاصة، و نجلس سوية في غرفتها لنحتسي أكواب الشاي، نشاهد تساقط الثلوج من خلال النافذة، لا تنفك تراودني كل ثانية من الوقت البديع الذي قضيناه سوية. أما اليوم؛ فلا أملك سواك، وخالتي الطيبة رفياء و عمتي .

نتشارك أنا و أنت خسارة عزيز علينا فأنت كذلك فقدت والدك، وحدثتني كيف أنك تفتقدين وجوده بجانبك، لا شك أنه يهبّ إلى خيالك دائما، أنا أشعر نفس شعورك، و أستطيع أن أتعاطف مع أملك، و أخالك أقوى مني و أصلب في تحمل أي ظرف، سأنزل إلى العشاء قبل أن تصعد خالتي إلى غرفتي، سأكتب رسائل أخرى بعد العشاء، هناك الكثير الذي أودّ الحديث بخصوصه ما عدا شؤون العمل، أصبح ذلك يثير أعصابي، و لا سيما أن الفريق المتكامل يرتكب الأخطاء بغباء و واستمرار كأنهم يتعمّدون ذلك، سأحدثك عن أمني فقط؛ لأنني أشعر بشوق عنيف لها هذه الليلة، هل تسمعيني؟

صديقك خليل "

"نافذة حياتي أثيل"

أضحكتني إحدى فتيات الفريق عندما خاطبتني بلهجة متضرعة مبتهلة ووجهها شاحب من الفزع متوعّدة باستقالتها إن ما جرّوت على إهانة أخرى في حق الوزير مرزوق، واصفة الخطوة بالخطيرة قائلة أن سعادته لن يصمت، لكونها فردا من القبيلة، سيشملها العقاب المترتب، وإن ما ذهبت إلى السجن سأكون الملام الوحيد على إرسال صبية ضعيفة لطيفة بأحاسيس مرهفة مثل أحاسيس الطيور إلى سجن يستقبل مرتكبات جرائم القتل من الدرجة المتوحّشة، السرقة، ارتكاب الرذيلة، تاجرات مخدرات، لقد انفجرت بالبكاء عندما دسّت هذا المصير القائم في رأسها، فطمأنتها قائلا إنني لن أكتفي بكتابة اسمي مع الإمضاء مرتين أو ثلاثة لأؤكّد أنني وحدي المسؤول، بل سأدوّن بخط واضح مقروء اسمها مؤكّدا أنها لا تملك أي صلة بالجرأة

الهرطوقية التي أقدمت عليها، كما سأضع في علم الجمهور الكريم أنها بكت بحرقه، وهي تهزني عن إتيان هذا الفعل في حقّ معالي الوزير، فرحبت العريضة بخاطرتي ثم شكرتني وانصرفت، لست ألومها فالدعاء مثلها لا ينفع أن يُزجّ بهن في السجون، بل في قصور مشيّدَة من الشوكولا والحلوى، ماذا نفعل طبيعة حساسة مرهفة؟! إن ما دُست ذات الفكرة في رأسك فأرجوك أن تصرفيها، بوسعي احتمال زميلة عمل جبانة مثل فأر لكن لست على استعداد لتقبل أثيلي الشجاعة تحتجّ وتجن، أشك في إقدامك على ذلك.

لقد أشرقت الشمس هذا الصباح ولكنها تبدو كمراوغ يفتش عنه لأجل إيفاء ديون متراكمة، إنها تختفي خلف السحاب القاتم المتجمّع ثم تظهر لدقيقة او اثنتين، لسوء حظك يا طفلي فأنت لا تحبين سواها، أثيل هل أقول شيء، دون أن أحلّل، الاستسلام كلمة غير مدرجة في قاموسي، سأتي السبت القادم و السبت الذي يليه، وإن ما تغيّبت فاعلمي أنني أقضي وقتا عصيبا بين جدران السجن، ورغم ذلك سأراك من خلال النافذة الضيقة، سأراك عندما تشرق الشمس، وعندما يغمر الحجرة فاسدة الهواء ضوء القمر. خليلك إلى الأبد، إلى الأبد يا صديقتي أثيل"

الفصل الثالث

التقطت أثيلُ المشطُ الأصفر ذا الأسنان الخشنة بوهن مفرط بعد ظهر يوم الجمعة من درج الخزانة القديمة المخلّع بغية تمشيط شعرها، متخليّةً عن قناعها المشرق الذي وضعته أمام أفراد العائلة كمن يتخلى عن واجب مقبت ثقيل.

كانت قد اتّخذت مكانها المعتاد إلى طاولة الغداء رفقة أمها الصارمة المخدلة إلى الصمت وشقيقتها: ياسمين ذات القسمات المضاء وميرنا ذات القسمات المظلمة التي تشوب نظرة عينها سخط وتدمر على الأوضاع الزرية، وقد دأبت على التأقّف أكثر من مرة مبدية استياءً أخرس بفعل خوفها من ردود أمها اللاسعة، و مردّ ذلك إلى تكرار إعداد مرق العدس واحتلاله مكانة الشرف في صدر الطاولة خلال الأسبوع الفارط مرتين، وهذا الأسبوع ثلاث مرات، وتحوّلته إلى طبق يومي يظل ممكنا وهذا ما تخشاه .

ولولا أنها تمقت ذلك الجواب القنوع الصادر عن أمها: هناك أناس أعلى أمنياتهم طبق العدس، وأنت تكفرين بالنعمة، لسارعت إلى اقتراح بعض البدائل المغدّية التي تنقذ أجسادهن من الشحوب والهزال و أمراض تكاد تجد أكثر من سبب لتحتلّهن لولا أنها تكتفي مشفقة بمراقبة فقرهن، بدائل كالدجاج المحمّر و اللحم المشوي، كما أن السمك غني بفوائد جمّة وسيفيد عقل ياسمين الصغيرة و عقل المرأة المتقدّمة في السن و كذلك عقل شابة تفتقر إلى طاقة و صحّة من أجل قبولها في عمل محترم قضت سنة بأسرها تفتش عنه دون أن يرحّب بها أحد، هناك أنواع متعددة من الأسماك غير أن العائلة لا تتطلع إلى أحسن من اسم السردين مرة في الشهر عندما تتحصل أثيل على علاوة في الراتب، ليس أفضل من الصمت يُبقي أذنيها طاهرتين من سماع تلك الأسطوانة المضجرة، ألا فلتتحمل العدس أفضل من تحمل خطابات الزهد النسوي.

ليس عدم حيازتها على عمل مناسب فقط ما كان يعكّر صفوها ويجعل أعصابها تثور مع أنها تجتهد لإرضاء نزعة أمها الرصينة وكسب إعجاب الجيران، فتطلب قرارها مجموعة من الإجراءات المتكلفة كتصنّع الوداعة وإطاعة الأوامر دون نقاش ومحاولة تقليد أثيل تقليدا دقيقا . فعلاوة على رفضها المتكرّر من أي وظيفة، فإن تاريخ آخر عرض للزواج منها كان منذ سنة، ولم يكلّل الموضوع إلا بالفشل، فالشباب أحول العينين الشبيه بالضفدع و الذي وجدته وصفا مناسباً، والذي يتأتىء كلما أمسك دقّة الحديد، والملتصق بجسد أمه كأنه طفل صغير خجول،

والذي وجدت جهودها وميولاتها لإقناع نفسها أنه رجل و الرجل لا يعيبه شيء ، صعوبة في تقبله ونفرت منه منذ رآته من النافذة يترجل من السيارة متعظراً، لم تنل إلا رفضه رغم أنها رضيت به على مضض منها، و رغم أن أثيل استنكفت الظهور أمام والدته المنتمية زورا إلى الطبقة الأرستقراطية. وتعليل ذلك إيمانه المكين و تفاعله المتحمس لنظرية تحسين النسل، فتزواج مخلوقين قبيحين يندر أن يضمن الحصول على أطفال جميلي المظهر، ولولا أن اللباقة المزيفة كبحتها لأحاطته علما أنه أقبح مخلوق رآته في حياتها، و ليست شخصيته المهزوزة إلا دافعا صريحا إلى نتف الشعرو ندب الوجه، وظلت فكرة العنوسة المخيفة تلازمها كظلمها حيث أن الرجال يميلون ميلا جنونيا إلى الزواج من فتيات أقلّ سنا لم تتجاوز أعمارهن الثانية والعشرين.

و تخلص إلى نتيجة أن أثيل هي السبب، كلما عجزت عن تقبل الوضع العام، وكلما وافتها خاطرة أنها ضحية في عالم ظالم بائس، أما لماذا هي السبب؟ فهي لم تلق بالا للجواب عليه، إنها السبب وكفى، ربما لأنها مرغوبة من الجميع، وأن الرجال يتهافتون لطلب يدها رغم أن متلازمة التقدّم في العمر تشملها أيضا، وربما لأنها ملوثة خسيصة باعت شرفها الغالي الثمين رغم أنها تستطيع ببساطة مطلقة تبني أعذار لشقيقتها دونما تحليل عميق، ثمّة في الحقيقة دوافع غير منطقية تؤول إلى كراهية مقبولة الأعذار بضمير مرتاح، وكلما تقدّم بها العمر يوما آخر دون زواج ودون عمل كان يسعدها أن تضيف علامة سوداء أخرى في سجلّ أثيل، ويتضاعف حقدتها المتطرّف، وكان يصعب عليها أن تتنكّر لتلك الكراهية الهوجاء و تستصعب إخفاء شعورها الناقم كلما تقابلتا على طاولات الوجبات أو أعمال المطبخ المقسّمة على كل واحدة حتى لياسمين نصيبها أو تلك الصدف التي تحدث كلها خارج غرف النوم، لأنهما تتبادلان الرغبة ذاتها في تحاشي بعضهما البعض، فترسل ميرنا بصرها البارد المتعالي لينقضّ على الوجه الحسن الوديع ثم يفترشه مبغضا لهنية ليست بالقصيرة، و قبل إبلاغ رسالة التذكير بالإثم المقترّح لم يكن يثنها إلا نظرة مستفهمة من أمها، وقلّما فشلت الرسالة في الوصول إلى عقل أثيل التي تطرق طرفها متحاشية النظر إلى العيون الناطقة شزرا والوجه المتوهّج بنار العتاب لا بلهيب الحقد كما كانت تعتقد.

خلال المناسبات كانت تضطرّ كارهة إلى تهنئتها ثم تقبيلها قبلتين متكلفتين باردتين كالجليد على وجنتها كجمالة مُرضية لمشاعر أمها، وذات مرة عندما فرغت من المراسم المتكلّفة وبينما هرعت الأم إلى الحليب المنسي على الموقد همست لها بصوت خافت "لا تعتقدي أنني نسيت ما فعلته، لولا أنني أهتمّ لمشاعر أمي لسرتني كثيرا عدم رؤية وجهك".

و لم تعترف ميرنا حتى لنفسها في أكثر النقاشات الذاتية احتداما أن الذي يحدوها للحقد على أختها ليس ذلك العار المجلجل الذي جلبته إلى عتبة المنزل الطاهرة، لا إن تلك القضية تعيش جنباً لجنب تبريرات مقنعة بل إنها إنسانية أيضاً، بل لدوافع أخرى تمتنع زجهاً على طاولة حوار ذاتي عقلائي.

وكلما عادت أثيل إلى المنزل منهكة مرهقة من العمل أو من زيارة مقتضبة إلى منزل سميحة وألفت وجه أمها منقبضاً أو متغضناً أو استقبلتها بنظرات مظلمة غامضة تنهال عليها كالسياط، كان وجهها يشحب ويصفرّ وتتفاعل بإيقاع متسارع لدقات قلبها حتى يوشك على الانفجار من الخوف، وكانت ركبناها ترتجفان رجفانا لا سبيل إلى السيطرة عليه وأنفاسها تحتبس لفرط خوفها أن يكون هذا الاستقبال الأخير في عمرها "لقد عرفت"، وسرعان ما تمرّ ميرنا من خلف أمها شامخة الرأس متعالية ترمقها من فوق كتفها شامطة مسرورة ترفرف ابتسامة التلذذ على شفيتها مستمتعة متعة المريض النفسي بفصل هلع الضحية المستفيض، فمنذ كاشفتها بسرها الأثم في تلك الليلة الصيفية الحارة وهي تلعب بأعصابها كما يلعب قط بطائر جريح .

"أثيل، إنني أنزعج من الطريقة التي تقتحم بها السيّدة سميحة المنزل، وكذلك أرفض أسلوبها الوقح في امتلاكك كأنك ابنتها".

"أجل إن سميحة امرأة سيئة الأخلاق، عديمة التربية، لا تمتلك ذوقاً لائقاً، امرأة بنصف عقل، طائشة كريمة متهوّرة"، هكذا راحت ذات مناسبة مذعورة بعد أن تنفّست الصعداء وسكن خوفها، تكبر مساهمة سميحة العظيمة في دفع أمها لتغتاط.

"حسناً، انقلي إليها بكيفية لبقة أنني أحتجّ على أساليبها" فتجيب أثيل بعد أن يتلاشى هلعها تدريجياً و يروي الدم الأحمر وجنتيها، عائداً من رحلة المغاض " سأفعل أي شيء تأمرين به يا أمي، أعدك بعدم تكرار ذلك التصرف اللامسؤول من طرفها".

وحيث أنها تعجز عن سبر أغوار أختها، فقد استمر المشهد الحاقد يتكرّر بصور عشوائية كيدة كأنه ابتزاز حقيق، والواقع أن أثيل لو كانت تملك نظرة خالية من العاطفة وتتحرى الشرّ أينما كان، لا تضح لها أن ميرنا تبتزها حقاً وتدبّر لها المكائد عن طريق إثارة أعصاب أمها وتكدير صفوها قبل عودتها بلحظات لجعل هذه تعتقد أنها قد فضحت سرّها، كانت تفتح الباب فتجد أمها نائرة الأعصاب محتدة الطباع وسط جو مثقل بالتوتر والانفعال، وميرنا في مدى بصرها، ومن الواضح أنهما كانتا تتعاطيان حديثاً يحرض مزاج الأم على التعكّر أو تستفز الغريزة الأكثر تضلّعاً فيها ألا وهي القلق.

وأرغمت أثيل المنجرفة في تيار التآزر العائلي والحفاظ على روابط الأسرة الواحدة إلى

الاعتراف أن أختها تعمد إلى جعلها طرفا مغلوبا على أمره في مؤامرة خسيصة بفعل الكراهية العمياء التي تولدت في الوقت ذاته مع اطلاعها على واقع شقيقتها الكبرى التي شانهم عارا، وهكذا عاشت في دوامة مدوّخة من التوتّر والخوف، خوف من تهوّر ميرنا، خوف من أعصابها المتقلبة، كانت هذه تعرف نقطة ضعفها، وهاهي تستثمر فيها فترفسها وتخلع راحتها كلما وجدت الفرصة لذلك.

وكان هذا الكابوس يمرض أثيل ويضعها في كفة متساوية مع أسرى الحرب القلقين من مصيرهم المجهول، في كل مرة كانت تعتقد أنها قاب قوسين أو أدنى من إفشاء سرّها، وفي كل مرة ينتابها شعور شبيه بالمرض. وحتى إذا ما وضّحت الأم كنهه غيظها، انتعشت معنوياتها وعاد قلبها إلى مكانه، واسترخت ملامح وجهها المتقلّصة.

وحرصت على عدم الاصطدام بها في أي محادثة مستفزة لأعصابها، بل لم يعن لها أبدا أن تتبادل معها حتى التحية، ولولا أن عادة التحلّق حول الطاولة لم يكن واجبا قسريا، لما نزلت مطلقا ولحبت نفسها في غرفتها، ربما إن هي ظلت بعيدة عن ناظريّ ميرنا وظلت بعيدة عن عقلها لن تهيج قروح الشرف المثلوم، ولكن ماذا عساها تفعل؟ إن أخلّت بهذا النظام الجليل فلن تسلم من الرسائل السليطة التي ترسلها عيون أمّها النفاذتين، النظام بالنسبة إلى والدتها هو النظام ولا ينبغي أن يخلّ به تحت أي طائل.

كانت ميرنا أحيانا تشنّ غارات كلامية ناقمة مفاجئة على شكل تلميحات خبيثة، غارات تفوق درجة احتمال أثيل وقدرتها الدفاعية، فتقذف بها إلى درك الاكتئاب النهّاش ممزّقة إياها كأنها خرقة بالية، فتتلو على مسامعهنّ بتفنّن مدروس خلال الحلقات العائلية قصصا عن فتيات حقيات تمزّق شرفهنّ في غمار الرذيلة، مزيفات، مدعيات للطهارة، وكانت أثيل تقابل التلميحات بقلب مرتجف ووجه غار منه الدم، ويدين مرتبكتين مطمورتين في حجرها، فلا تتفاعل الأم إلا بتعقيب ناهر محدّر، بوجه متميّز غيظا عن الخوض في مثل هذه القصص المشينة للحفاظ على الاحترام المتبادل بين الوالدة وبناتها.

رغم الارتباك والخوف اللذين قبعت تحت ضغطهما والشعور بالخطر الذي لا يتعطلّ، ورغم وقوعها تحت رحمة كائن حائق مكتظّ بالكراهية الحقودة ينهش روحها بحيله الوضيعة، إلا أن مواجهة أختها بشكوكها حول تعمّدها إغراقها في هذا النهر الجارف كانت أكثر فكرة غير مستحبة راودتها، فكرة فوق التنفيذ، فكرة تشبه بمخاطرها إثارة تنين نائر تبقى آمنا إذا لم تظهر في مدى بصره.

واطمأنت بمرور الزمن، بعد أن فهمت قوانين اللعبة، وسرعان ما اهتدت إلى عنونتها

بالعنوان الصحيح، مجرد حركات لتذكيرها بإثمها ومعاقبتها على ذنبها، ووضعت قدمها في الماء البارد، إن شقيقتها لن تجرؤ على إخبار أمها، لأنهما ستشاركان نفس الخسارة المهولة، مما لا شك فيه أن أمهما ستفقد عقلها، أو حياتها إن ما أحيطت علما بالموضوع المعيب وبالدرک الفاضح الذي نزل إليه شرف أحبّ فتياتها إلى قلبها، و كنتيجة لهذا التفكير الجديد انكمش بعض رعيها و نزل قلقها إلى رتبة أخفض، بيد أن خاطرة سوداء ظلّت تقفز أمامها، ماذا لو فقدت أختها السيطرة على أعصابها ذات يوم، ماذا لو أن تقزّزها كان أكبر من عاطفة الحبّ لأُمها؟، ذلك ما كان يخطف النوم من عينها و يجعلها تستفيق فزعة ملتاعة في ساعات متأخرة من الليل، إنها مشتتة لا تعرف بماذا تفكر، أحيانا تثق ثقة عمياء أن أمها لن تعلم ورغم ذلك يظلّ الخوف ملازما لها كملازمة القرين لابن آدم.

بعد مرور الأمور بسلام، و تسلّم أثيل شعلة الاطمئنان وبعد أن يسكن روعها المجنون كانت تنسلّ على رؤوس أصابعها خارج غرفتها بمجرد أن يخلد كل فرد إلى غرفته قاصدة غرفة نوم أمها فتستلقي متوسّدة حجرها، وفورا تشرع هذه في تمرير يدها بين خصلات شعرها الأسود الناعم، فيتبع ذلك استشعار أثيل للحنان و الرحمة التي تزخر بهما هاتين اليدين القويتين الصلبتين وتجد كلمات محدّدة طريقها إلى شفّتها "أمي، إنني أحبك و أفعل أي شيء لأجلك، وكل ما أخافه أن أخسرك ولا أريد مطلقا أن أخذلك".

"أعلم يا طفلي أعلم، أخالك مستاءة من أجل صديقتك السيّدة سميحة، أعني كم تحبينها، أنا أيضا أحبها على أنها تتصرّف بقلة وعي، قلّما يستطيع المرء الاعتماد على عقلها " أو "أثيل، لقد بالغت في غضبي، كل ذلك نتيجة قلقي عليك، لقد تأخّرت، ااه ليتني لم أستقبلك ذلك الاستقبال الجافّ، أحسب أنني أفزعتك حتى الموت حتى شحّب لونك، وامتقعت شفّتك. ذات يوم سأتسبّب في توقّف قلبك، ليتني أتحلّى ببعض الصبر والحكمة".

أو "اه يا حبيبتي، عندما علمت نبأ موته أصبت بصدمة، كان شابا قويا يافعا، ولهذا انفجرت في البكاء، لم أتمالك نفسي، وعندما رأيتني على تلك الصورة أصابك الشلل، واستحلت صنما".

وكل تلك المبررات كانت تقابل بجواب هادئ مفعم بنغمة حزينة تطفح باللوعة "إنني أحبك أكثر من أي إنسان في الدنيا حتى أكثر من نفسي، لا أريدك أن تقلقي أبدا "

على المكتب عدّلت أثيل وضعية المرآة المستطيلة ذات الإطار الأرجواني، ثم جلست بهدوء لتمشّط شعرها شاردة ساهمة واجمة، كانت تتخبّط مثل دجاجة ذبيحة في بركة من الأفكار تنتقل من واحدة إلى أخرى دون أن تحكّم قبضتها على واحدة، هذا هو الحال دائما عندما

تنفرد بنفسها، و غرزت أسنان المشط في شعرها تنزل من جلدة الرأس إلى الأطراف السفلية بحركة آلية متكررة دون أن تشارك فيها بوعيمها التام، بينما كانت عينها مجفلتين شاخصتين في المرأة، لم تكن في حياتها أكثر تعاسة منها اليوم، و إذا ما أخذنا بالأسباب فإنه يتعين عليها أن تحلّق من السعادة وأن تقفز فرحا.

عندما استفاقت من رحلة الشرود الطويلة وجدت أنها تكرّر تسريح نفس الجهة من الرأس. وبدل أن تتابع، قذفت بحركة عصبية المشط بعيدا منتفضة من كرسىها، و توجّهت بخطى خفيفة إلى النافذة ثم أحدثت شقا ضيقا لتختلس النظر إلى باب سميحة مجفلة متوترة "لماذا لم تعد بعد"، وكل ما التقطه سمعها ضوضاء صاخبة و اهتزاز مزعج أحدثته ابتائها سالي وريحان، وضجيج عال تغرق فيه غرفة نومهما يزعزع أركان البيت. إن كرة القدم هذه قد أفسدت عقليهما كما سبق و أن ذكرت أمهما مستهجنة ساخطة، وكدليل على عدم عودتها إلى البيت هذه الفوضى اللانظامية التي تحدثها، ستبدأ مباراة الفريق الوطني بعد قليل و كل بيت في البلد طروب مبتهج باستثنائها هي و شقيقتها تمرّ عليهن هذه المناسبة دون أن تحرك أي وتر حسّاس.

ليست سميحة خيارا موقفا للفرار من حالة التوتّر و الاضطراب التي تنتابها منذ بدأ خليل بمراسلتها، فمحدثاتها عن الأعمال و المشاريع والقروض مضجرة، وعندما تشرّع لسانها لتقطع جسد صبري و زوجته كأنها جزّار، أو أي إنسان تسبّب في تكدرها و تعكير مزاجها تغدو مثبّطة للهمّة ومصدرا لضيق خانق، مسببة لآلام حادة في الرأس. ولم تكن اشتباكاتهما في الشوارع والمرافق العامة لتغيب عن الأحداث الرائجة، فوصف أحد الأشخاص بالوعد، و نعت موظف بالصفيق، و ذكر أوجه الشبه بين المجرمين والشرطة ثم لعنهم جميعا مرة واحدة تخفّف عنها بعض الغضب، و تسكّن عصبيتها.

ولولا أنها تبتدع كل أسبوع فكرة جديدة لقتل الوقت والقضاء على الفراغ ، عن طريق التطوّع في الأعمال الخيرية والانخراط في قضايا الساعة، كالتضامن الدخيل مع المحتجين على توزيع السكنات، أو المطالبين بتنحية مسؤول فاشل حتى إن كانت لا تعرف عن اخفاقاته إلا ما تصيده صدفة جاذبة، لما وجد المرء نفسه محتبس النفس من عزميتها الفولاذية مذهولا بفعل بدعها، كانت امرأة مباحكة، تقزّر دون تفكير، يجد المرء صعوبة في تجنّب الضحك والمرح والاستمتاع بالوقت رفقتها، إرادتها قلّ مثلها تقتحم بيت أثيل، ثم تظفر بموافقة أمها، هذه التي لا تدرك أنها أبدت موافقتها إلا بعد أن تخرج ابنتها من باب المنزل، وتجرجرها في أماكن شتى: مراكز لعلاج الإدمان، جمعيات تجمع متطوعين لأعمال خيرية، دور للعجزة، قوافل لأجل

إعانة المناطق النائية.

وصلت أثيل إلى مرحلة تستطيع فيها توقع أي بدعة فكرية شاذة من عقل سميحة، حتى السفر عبر الزمن بواسطة حافلة قديمة، كان نطاق إبداعاتها يتوسّع يوماً بعد يوم و ينتظر أن تصبح صاحبة تاريخ حافل بالمصائب والشجارات، والإنجازات الغريبة، وفرضت بعض النتائج على أثيل أن تقرّ أن السيدة امرأة غاية في الحذق والحمق في آن واحد، مقدامة، شجاعة تطلق الرصاصه دون أن تفكر في الأمر مرتين، بيد أن عاطفتها نحوها مطلقاً لا تتحوّل إلى استنكار أو ازدراء، إنها تحبها بكل حالاتها وتحترمها وتقدرها، وتستطيع رفقتها في مغامراتها الغامضة.

رغم أنها لم تكن خياراً موفقاً، إلا أنها في هذه اللحظة بالذات تبقى أحسن من ترك نفسها وحيدة مع زمرة من الأفكار المارقة المتمردة، إنه يوم الجمعة، وليس هناك مكان تذهب إليه، لا مكان يطحن مذهب الانغماس في التفكير، كان بوسعها ملء يوم السبت بما تقترحه سميحة من أعمال تزوّد رصيدها بأجر عظيم، ولا ينطبق ذات المبدأ على يوم الجمعة، فهو يوم تغلق فيه كل الأماكن العامة، ولا تقام فيه أي فعاليات من شأنها إشغالها أو الترويح عنها وجعلها تنسى، مع أن الله وحده يعلم أنها تتحوّل من التفكير به من وحيدة في غرفة ساكنة كنيبة إلى التفكير به ، في مكان مزدحم بالناس مع فارق بسيط عدم توقّر حاسوب يستقبل رسائل منه حسناً، كل الخيارات المتاحة الآن تنحصر في حوارات مع أمها أو شقيقتها ياسمين أو سميحة.

لا تعتبر أمها خياراً موفقاً، وهي تفضّل هديان سميحة المضجر على حوارات أمها، حيث أن هذه تتطرق بعمق مفرط إلى الأيام الماضية ثم إلى ضرورة إخضاع البيت للإصلاحات، ومواضيع أخرى تهزّ ضميرها وتشعرها بالإثم كطفلة صغيرة، ثم تقودها إلى الرغبة في البكاء، ولا تتخلّى أبداً عن حقها في فتح تقرير حول الأسباب التي تأخذها في دوامة الشرود، معتلة النفس حزينة مغممة، ولا تعود أدراجها إلا عندما يتكرّر النداء باسمها، أجل إنها تفضّل أن تتفقّد عودة سميحة على الانضمام إلى أمها.

وكانت ياسمين قد شطبت تلقائياً من القائمة، رغم كونها فتاة حلوة مهذّبة ورغم أنها كانت مصدراً مسلياً جيداً في الأيام الماضية عندما ساعدتها في حلّ بعض المسائل وقضت على الصعوبات المترتبة عن عدم فهم معظم المرادفات الأجنبية، على أنهما الآن تتقاسمان النكبة ذاتها على ما يبدو، فالعينان الشاردتان الحاملتان تقودان إلى نتيجة وقوع صغيرة البيت في هيام أحد زملائها. حيث أنها الآن لا تظن إلى دنيا الواقع إلا على صيحات أمها القاصفة، وأمست تميل إلى العزلة والانفراد بنفسها هي الأخرى، ولم تكن ملامح الغرام لتخفى من الوجه البريء، ولهذا لم تعد تحسّ برغبة جامحة في تبادل أحاديث تقطع عليها موجات التفكير والخيال، أما

ميرنا، فمجرد التفكير فيها جنائية تدعو إلى التوبة.

وجلست على حافة السرير حزينة معتمة النفس تتجول في رأسها ، منقبة عن فكرة ناجعة تُسلي بها نفسها، ولأن عقلها تراخي عن أداء المهمة الواعية، استثمر قلبها باستعراض وجهة نظره العاطفية، كان يغزوها بالأمانى الحاملة وراح يرسم لها في الألواح السوداء زهرا وينقش لها في الصخور الصلبة ترخيصا يؤمن لها فعل ما تشاء .

"افتحي الحاسوب و اقرئي رسالته، لا شك أنه سيأتي يوم غد أيضا، ألسنت حزينة لأجله؟، إنني أتمزق ألما، لماذا تفعلين هذا بنفسك؟ منذ يومين لم تفتحي رسائله إلى متى ستصمدين" وعلى غرار الصراع القديم القائم منذ وجود الإنسان ،أبى العقل إلا أن يتدخل في مضمار سباق إسداء النصائح الحكيمة وإبداء مواقفه الحازمة "لا تصدقي نصائحه، ألم يخدعك المرة الفارطة؟ ألم أسمعته يشجعك؟، لقد انقطعت عن القراءة لمدة ثلاث أيام، ثم ماذا حصل، لم تصمد أكثر تحت تأثير عاطفته المعسولة الغبية. إن ما تجاهلته الآن، سيستسلم عاجلا أم أجلا، أما إذا قررت تنفيذ كل طلباته بمجرد أن يستعطفك قليلا فلك أن تعرفي أنك تعودين إلى نقطة البداية في كل مرة".

أجل، هذا بالفعل ما كان يحدث في كل مرة، إنها تعود إلى نقطة البداية، إنه نفس اللحن يعزف على ذات الوتيرة المتراجعة، رغم أنها تعد نفسها وعدا قاطعا بالانقطاع عن قراءة الرسائل، كعربون اتفاق مع عقلها الحصيف لكبح عاطفتها بالذهاب، كانت الأفكار تحتدم في رأسها نتيجة معارضة مجتحة و كان قلبها الثائر يقنعها بأسلوب مراوغ مخادع بنكت وعدها كل مرة، وسرعان ما تراجع فتقرأ الرسائل المتراكمة دفعة واحدة، تقرأها وقلبا يرتجف و الدموع تبلل وجنتيها.

وكما هو الحال كلما تترك لوحدها أو عندما تخلد الى فراشها أين تستمر عينها مفتوحتين متيقظتين، يصعب عليها قمع ثورة عاطفتها المتأججة، و يسهل استسلامها لصوت قلبها القارع كصوت البوق ، كان صعب الانقياد وكذلك يشغل عقلها و يسدي إليها نصائح عقلانية منطقية على أنها تضاعف حزنها، إذ طالما كانت نصائح العقل تجلب الأحزان عندما تتعارض وأمنيات القلب.

إنها تطلب أمنيتين متناقضتين في الوقت ذاته، أن يكتب إليها رسائل دون انقطاع وأيضا أن يتوقف عن كتابتها. و بعد أن تتضارب الأفكار ويشدد الصراع، تتوصل إلى تسوية واحدة للحد من ألمها ألا وهي البكاء، كانت تخفي وجهها بين كفيها ثم تبكي بحرقة حتى تنتفخ عينها، ذلك أحسن ما تستطيع أن تفعله أمام عجزها عن نسيانه، وإخراجه من قلبها، تبكي قصبتها التي

ينبغي عليها أن تنتهي حتى قبل البداية، تبكي الرجل الذي تحبّه أكثر من أي إنسان باستثناء أمها، تبكي جحيمها الذي يُصنع بالحاحه ، تبكي شعورها بالعجزو إحساسها بالمرارة، وما أكثر ما كانت تبكي.

إن عقلها بلا شك يستقطب آلاف العقائد الحازمة الواقعية وسلطة الحذر تثيراً من كل عقيدة يطرحها قلبها، و لو اتّفق أن انتعشت بمنفذ معقول، جرّتها قدرة الخوف بعيدا عن مضماره، مطوّحة بها في هوة الحيرة التي قلما كانت تبارحها.

أي مجهود لم تبذله لتتخلّص من وطأة التفكير فيه، لم تكن تتوقّع أن رسائلها الساذجة العفوية التي كانت تلوم نفسها لمضمونها الأخرق ستوصلها إليه و تعيده إلى عهده السابق ثم تشدّه إليها إلى درجة البحث عنها، هي تنخرط في الأحاديث الغثة و الجدية، و تتطوّع في الأعمال التي تقترحها سميحة لتشغل نفسها أيام السبت أملا في إزالته من عقلها و أثناء العمل تقرأ بشغف إذا لم تجد زبونا تهتمّ بطلباته، كما أنها تقحم الفتاتين في أحاديث لا طائل منها كيما تنسى، على أن ذلك لا يبدو ذا وزن ثقيل بالنسبة إلى قلبها المتعطّش لإرباكها وإقناعها بوجهات نظره ثم الزجّ بها في عاصفة من الاستسلام و التراجع. إنها باستمرار تسمع أصواتا هادرة قادمة منه، تقاوم لتطفوا على السطح ، تعلوا على ضجيج عقلها، أصوات نفاذة مسموعة مسيطرة.

"لا أفهم أسبابك، لربما أراذك صديقة فقط، أو أراذ أن يشكرك على صنيعك النبيل معه، أنت تستقدمين الأحداث قبل حدوثها، ألا تشفقين عليه؟ إنه يجلس كل سبت بتلك الحديقة من أول النهار إلى آخره، وأصيب بالزكام أكثر من مرة، كما أنه معرّض للإصابة بالسعال في الأيام القارسة القادمة، غدا سنخفض درجة الحرارة، وضعه صعب "

فيصبح عقلها مستهجننا منذرا باحتجاج عاصف "لا تصديقه، لقد عدت للكذب عليها، إنك تبيع الوهم لها، ليس أصعب عليه من معرفته لوضعها، يريد كصديقة!! أيها المراوغ البائس، لا يوجد رجل يقطع كل تلك المسافة من أجل إبداء الشكر أو صنع صداقات جديدة. هب أنه عرف، هب أنه عرف، كيف تواجهه، سيشعر بالاشمئزاز منها ، ثم لن تراه مرة أخرى، عاجلا او آجلا سيصيبه الملل ثم يتوقّف عن المجيء، خذي بنصيحتي أنا يا أثيل"

"من أين لك بمعرفة الرجال، أنت من تخدعها و تفوّت الفرص الثمينة عليها، لطالما كنت متزمتا مدعيا للمعرفة، ألم يعد بأنه سيستمر في المجيء إلى أن يغدو شيخا مسنا؟، ليس من النوع الذي يستسلم بسهولة "اختال القلب مزهوا و ابتسمت أثيل، و عندما شنّ عقلها حملة الانتقاد تلاشت فرحتها:

"مجرد هراء منمق يقوله الرجال في البداية، من المستحيل أن يصمد إلى الأبد، لا تسمعي

لنفسك بمجاراته، أنت فتاة متزنة و لك واسع النظر، لقد انهارت حضارات وتشمع مستقبل أجيال بسبب مواعظ القلب العاطفية الغبية، صحيح أنها تمنح سعادة وفرحا ،ولكنها ظرفية وسرعان ما تعقبها آلام وشقاء ."

واستمر الصراع في كَرّ و فَرّ، وخيل إليها أنها تهذي كمصاب بالحمى الشديدة، فضغطت يديها على أذنيها مغمضة عينها، زافرة زفرات متتالية واعتراها ضيق شديد فأجهشت بالبكاء غير أن الدموع لم تسعفها، لماذا لا يتركها و شأنها؟لماذا يتعين عليه أن يجلس في تلك الحديقة كل يوم سبت، لو كان الأمر بيدها لذهبت ركضا إليه،ليته يستنكف عن استفزاز رغبتها، و التحرش بعواطفها، ليته لا يعرض نفسه لحرارة الشمس و زخات الأمطار و ندف الثلوج،وفجأة شعرت بوخز الضمير لأنها ورطته في هذه الظروف الجوية المتقلبة،وسمعت قلبها يئن و يئن كحيوان يحتضر.

"أين هي السيّدة سميحة، لقد تأخّرت "ينبغي عليها مغادرة الغرفة فورا،لتنزل إلى المطبخ وتلمّع الأواني، أو لتقم بعملية تنظيف واسعة للبيت، إنه نظيف على أية حال ولكن جولة أخرى من هوس النظافة لن تحطّم السقف، وأسرعت خارج الغرفة و بمجرد أن وضعت يدها على مقبض الباب سمعت طرقا عنيفا قادمًا من الشارع على باب منزل سميحة مصحوبا بصوتها النائح يكيل الشتائم لابنتها، لقد عادت محبوبتها إلى البيت، الحمد لله، فعادت أثيل أدراجها منتشية مغتبطة، وفتحت النافذة مطّلة برأسها، ملوّحة لها بيدها كيما تراها والسرور يغمر وجهها،خاطبتها بلهجة رقيقة .

"سيّدة سميحة، مساء الخير، إنهما لا تسمعانك، أليس لديك مفتاح؟".

فالتفتت سميحة إلى مصدر الصوت و رفعت رأسها ،كان وجهها غائما، تحمل بيدها كيسا وباليد الأخرى تابعت طرق الباب.

"عزيزتي طاب مساؤك، نسيت أخذه معي، كيف تسمعان؟!،لا شك أن البغلتين منشغلتان بالمباراة، لو أنهما تكرّسان هذا الوقت لشيء مفيد لكانت حياتي أفضل.."و قبل أن تتمّ عبارتها انفتح الباب، كانت سالي الصغيرة تقفز فرحا قفزة تشبه رقصة إفريقية و تهتف "أمي لقد أحرزوا هدفا منذ خمس دقائق،نحن متقدّمون على الفريق الخصم بفارق واحد لصفر".

"سرور عظيم،هل أرقص شاكو شاكو؟"و أدّت حركات أجبرت أثيل على الضحك ثم تابعت "لقد انتهت كل مشاكلنا،انخفضت الأسعار و سقطت علينا الأموال من السماء،و يمكنك من الغد أن تحسّلي على منحة مجانية "

واعتمدت سالي في وقفها و تلاشى الحماس من وجهها ثم قالت "أمي، إنك لست وطنية، مطلقا لست كذلك".

"سأصفك ذات يوم لوقاحتك، و طعنك في وطنيتي، سأصطحبك معي إلى السوق" دفعت إليها مكشّرة بكيس ممتلئ، سقطت منه حبات الثوم فنزلت لتلتقطها و دسّتها في الكيس "وسترين الوطنية على أصولها هناك، أي وطنية؟ لقد قصمت الأسعار ظهري، ضعي الكيس في المطبخ، لا تقذفي به "أمرتها "إياك أن تتبعثر على الأرض" ثم التفتت مجددا إلى أثيل وحشّدت صوتها بكل ما تستطيع من وّد "حبيبتي هل تنضمين إلي؟".

"بكل سرور" وافقت أثيل ، ثم أغلقت النافذة، وعندما استدارت بحثت عيناها في أرجاء الغرفة عن المعطف الأزرق وما إن التقطته معلّقا على المشجب حتى مشت نحوه وارتدته بحركات خفيفة. إنّها متحمّسة جدا كأنّها ترى السيّدة بعد سنوات من الانقطاع. ثم نزلت الدرجات العريضة بخطوات مسموعة و عندما بلغت نهاية السلم، وقفت تعقد أزرار المعطف قائلة بصوت خافت الرنّة، موجّهة بصرها نحو المطبخ "أمي، سأنضم إلى السيدة سميحة" وجاءها الجواب على الفور "حسننا عودي قبل العشاء".

حمل إليها الهواء دممة استهجان ناقمة "السيدة سميحة مجددا، بالكاد تفترقان عن بعضهما،، أتساءل ما هي تلك الأسرار الخطيرة التي تفتيانها لبعضهما".

كانت ميرنا تمارس هوايتها المفضلة، وتشنّ حملة تحريض رخيصة ضد أثيل، ما إن أنهت عبارتها المسمومة حتى نطق صوت عاطفي رقيق ليدافع عنها "أليست السيدة سميحة لطيفة؟ إنّها و شقيقتي تتوافقان توافقا تاما، كأنهما بالسن ذاته، وهما تحبان بعضهما، أليس كذلك يا أمي؟" لم تستطع أثيل رؤية وجه ميرنا لكنها الآن حتما تغلي من الغضب وعلى الأرجح هي في هذه الثانية تحدج ياسمين بنظرات تحمل شرا مستطير، ليس لدرائتها بعدم احتلالها أي مكانة في قلبها فحسب، بل لأنها تبغض أي أحد يكنّ الحب لشقيقتها عدا أمها.

كان مطبخ سميحة غارقا في فوضى عارمة، وكانت الصحون المتسخة العالقة بها بقايا الطعام مكدّسة فوق بعضها البعض في الحوض، و مجموعة من الدلاء الفارغة مجمّعة في الزاوية، والطاولة التي رفعت عنها الصحون غير نظيفة مسكوب عليها بعض الحساء وعليها فتات الخبز، لقد انشغلت الفتاتان بالمباراة و نسيتا ترتيبه على النحو المطلوب، مهملتين أوامر أمهما التي توجب تنظيفه و تلميعه قبل عودتها من السوق.

دخلت أثيل من الباب الذي تُرك مفتوحا لأجلها فسمعت همهمات انزعاج غير واضحة قادمة من المطبخ، و عندما وقفت عند بابه رأت السيدة تطوف في أرجائه و قد لُقّت خصرها

بزنانر بني يرفع ثوبها عن الأرض، وهاهي ترتب ما استطاعت ولسانها لا ينقطع عن الشتائم المبتذلة، ومن وقت لآخر كانت تتوقف لتبحث عن أسوأ كلمة يجوز أن تصف بها ابنتها على خمولهما و إهدار الوقت في مباراة كرة قدم لا يجنى منها أي طائل "الحيوانتان، الفأرتان، القدرتان" و جالت أثيل بعينها في زوايا المطبخ، لم يتفق لها رؤيته على هذه الحالة الفوضوية من قبل، بينما كان هتافهما المجلجل و وقع أقدامهما على الأرضية يهزان أركان البيت. كانت خطوات أثيل بطيئة متحاشية، تبرّ بالنقاط النظيفة وهي متجهّة للجلوس

"سأكسر عظامهما، انظري إلى هذه الحالة يا أثيل، تعالي اجلسي، لدي أخبار دسمة لا يهملك معرفتها، ولكنني سأموت قهرا إن لم أتمكن من البوح بها " و أضاء وجهها مشرقا في محيط من الفوضى وهي تنحي لتعدّل وضعيّة دلو منبطح

_ "هل وصلك الخبر، لقد عادت ابنة الحرياء جميلة منذ يومين. اجلسي" إذا ذلك ما أنقذ سالي وريحان من اللسان الحاد و اليدين المرتعشتين غضبا.

_ "دعيني أساعدك لترتيب الأشياء أولا يا سيده سميحة" اقترحت أثيل بلباقة.

_ "لن تلمسي شيء" نهرتها عندما باشرت بخلع معطفها "قلت اجلسي، سأتولّى الأمور بنفسني" وعادت إلى طوافها مجددا دون أن تنظر إلى أثيل، تضع الخضار في مكانها، تسحب الصحون من الحوض، تستعمل قماشة لتجميع الفتات المتناثر، و تتكلّم أيضا بأسلوب حاقد سريع "تلك الحقيرة بدل أن تهتمّ بابنتها و تقدّم لها المواعظ التي تفيدها، تسرح هنا وهناك بين المعتدّات مثيلاتهما، ماذا تسميهم؟" أطلقت ضحكة تهكمية مصحوبة بحركات تخدم الغاية "سيّدات المجتمع الراقي، إنهن متسولات مثلها، لا يجوز تهنئتهن في عيد المرأة، لأنهن لسن نساء، لسن نساء أبدا، ابنتها المصونة لم تمنح زوجها حقوقه الزوجية، الفتاة جاهلة، مع أن فتيات هذا الجيل لا تخفى عنهن خافية، إنها تكتم الأمر عن الناس خوفا من الفضيحة و لكن، لا، كل الشارع قد علم بعارها، أليس هذا مخزيا؟ عادت بعد أسبوعين، لقد تمّت دعوتكن إلى حفل الزفاف أما أنا فلا، حتى إن الوقحة استوقفت ريجان في الطريق بكل صفاقة خلق ودعتها هي وسالي، أما أنا،،، ما أعدل الدنيا، سأتكفل شخصيا بتذكيرها بأنامها في أول فرصة تجمعني بها وأبرهن لها أن دعواتي عليها لم تذهب هباء، ذلك الوقح زوجها تجرأ على مخاطبتي بصوت وديع مؤنس "

قلدت صوته مشفَعاً بحركات نشيطة بينما كانت يداها مهمكتين في غسل الصحون المتجمعة "إننا نجتمع التبرعات لأجل الأيتام يا سيّدة سميحة، أنت صاحبة قلب طيب، ولن يضيع أجرك إن شاء الله، الوغد عندما يخسر الانتخابات يتحوّل إلى جمع التبرعات، إن لم يسرق من هناك سرق من هنا، ليلعنه الله، هل يحسبني حمقاء، وصلّتي أخبار أنه يتكلم عني من خلفي واصفا إياي بالمهزلة، و المجنونة، أنا مجنونة؟".

غريب أن أثيل لا تؤنّبها اليوم لخوضها في أعراض الناس، إنها لا توجه لها أي تنبيه زاجر كعادتها قائلة "أرجوك يا سيّدة سميحة، لا تتكلمي على هذا النحو المبتذل، ليس صوابا أن تأتي على ذكر عرض الفتاة، أنت كذلك لديك بنات" و ما إن دقّ الاستغراب رأسها حتى سكتت عن الكلام ملتفتة إليها فقبضت عليها شاردة مسندة رأسها بكفّ يديها و عقلها يتجوّل في عوالم أخرى بينما عيناها تشوبهما نظرة حزينة، ووجهها مغموم، و لم تنفذ كلمة واحدة إلى أذنيها، فرمقتها سميحة بنظرة مستفهمة زاوية ما بين عينها، تلوي فمها في الاتجاهين، و أيّدت المواقف السابقة نظريتها في كون الوضع ليس مستجدا، إنها تشرّد أينما ذهبت ومنذ شهرين تقريبا تأزمت حالتها، الآن ستسلب منها اعترافات وستحصل على توضيح مقنع ولن تسمح لها أن تخطو خطوة واحدة خارج منزلها من دون أن تشرح علّتها

وسحبت كرسيها وجلست ثم ضربت الطاولة بقبضة يدها ضربات متكرّرة

_ "كنت أحدث نفسي على ما يبدو، ما خطبك يا فتاة، لا تتظاهري أنك كنت تسمعين. أقسم أنك لم تلتقطي حرفا واحدا، رأيت!! لم تسمع كلمة، لن تخرجي من ذلك الباب دون أن تخبريني عن الذي ألمّ بك، أراقبك منذ مدة و لاحظت أنك تعانين من مشكلة ما، على أنني التزمت الصمت لاعتقادي أن القضية عابرة، ما القضية يا أثيل؟ تينك الغيبتين ستزلان السقف على رأسي" ورفعت رأسها إلى أعلى " لكنني لا أبه، فإن ما ذهبت لتحطيم تلك الشاشة، على الأرجح لن أجدك هنا عندما أعود ككل مرة، فعلتها ثلاث مرات من قبل، لن تفلتي من قبضتي، هل هو ذاك الشاب المدعو خليل، هل هو من تفكرين فيه؟ ألا زلت تحبينه؟ أو ربما وقعت في حب مصيبة أخرى "

_ "لا، لا، نفت أثيل مرتبكة "ماذا كنت تخبريني؟ أعتذر إليك لقد شرّدت قليلا".

_ " أنت مهمّمة الآن بما كنت أقوله؟ كنت أشرح لك فوائد اللوز للقردة "كشّرت سميحة فاتحة ذراعها "لن تخدعيني بدمائة السلوك هذه، أراهن أنك قد عدت لسخافاتك القديمة، من المؤكّد أن رؤيته يعود على قدميه قد شرّدت عقلك، عاد يتحرّك و تحرّكت مشاعر قلبك معه، أحذرك من الإنكار يا أثيل، فوجهك كتاب مفتوح و بوسعي قراءته حرفا حرفا"

_ "أجل" اعترفت أثيل بصوت متقطع، فقد أطبقت السيّدة الحصار عليها ولن يجديها الإنكار، وعلاوة على هذا كانت تفتقد السلام الداخلي ومما هو في صالحها أن تشارك إنسانا ما سزها المكدر، سئمت من الصراع الذي يتأكلها "إنه هو".

_ "لازلت هائمة بحبه" زمجرت "لقد نسيت أمره لفترة معتبرة، والآن تعودين لهرائك".
أشاحت أثيل بوجهها و اتّجهت عيناها نحو النافذة و تبعتهما عينا سميحة، كان الجو غائما يمهّد لهطول الأمطار والرياح تعوي بلحن حزين ملائم للحن الذي يعزفه قلبها المضطرم كمداء،
وقالت بنبرة هادئة رتيبة

_ "لم أنسه يوما، ولا لثانية واحدة"

_ "حقا، انظري إلي" عادت أثيل بحركة بطيئة إلى وجه سميحة فتبادلتا نظرة قصيرة، كانت نظرة غامضة تحمل في فحواها شيء من الإيمان "في السنة الفائتة لم تأتي على ذكره مطلقا، كنت سعيدة ومفعمة بالنشاط والحيوية، تذهبن بشكل معتاد إلى العمل مبتهجة متحمسة، ثم تعودين مساءً وكأنك قادمة من قصر فخم لا من صندوق الكتب العتيق ذاك، وأذكر تفاصيل رحلة الشتاء الماضي إلى منزل قريبة زوجي، السيدة عريسة وابنتها، استمتعت كثيرا وضحكت حتى سالت الدموع من عينيك، أتدرين كنه ذلك؟ لأنك نسيتيه وأخرجته من قلبك عندما اختفى عن الأنظار، ولم يعد ممكنا له العمل في الجرائد والإبداع في الكتابة ونشر المقالات، أما وقد ظهر إلى الواجهة بكامل صحته وعافيته، وطبعا وسامته التي لا تقاوم، فقد عاودتك أحلام النهار".

_ "لقد تغير الوضع" صرّحت أثيل والارتباك يستبيح محيّاها

_ "أفصحي" أجابت سميحة مرتابة وبدأت أفكارها تتجمّع في نقطة واحدة، سخّرت لها كل تركيزها، تُستفز حواس سميحة عندما يتعلق الأمر بالأسرار "لا أحبّ الألغاز، ماذا تقصدين بتغيّر الوضع. فهمت الآن، لقد فعلت شيئا خلف ظهري، كان ينبغي أن أعرف، حسب ما أعلم لم تذهب إلى أي مكان دون درايتي، إن أمك لا تسمح لك، وكذلك المتوحّش إبراهيم، أفصحي يا أثيل، هل أقدمت على عمل ما؟ يا الله، ظننتك تخليت عن ذلك الهذيان كله".

وتردّدت أثيل بادئ الأمر وتصارعت الأفكار في عقلها بين تأييد واعتراض على الإفشاء، لكن سرعان ما وجدت الكلمات طريقا آمنا إلى لسانها وتلت على مسامعها الرواية بتفاصيلها فافتّر فم السيدة وأضحت الفتحة تسع شيئا فشيئا جزاء الدهشة وراح جفناها يختلجان، وكان حاجبها الرفيعان يرتفعان ويقطبان حتى تعمّقت خطوط جبينها، ووجهها النحيل يتقلّص ويتمدّد، وعيناها الصغيرتان تضيقان وتجحظان بينما هما متعلّقتان بالشفاه الحمراء المتحركة،

ويدها تتكوّران على بعضهما تحت الطاولة وأحيانا تنفتحان وتفركان وجهها، ثم تملمت في كرسيتها لتحافظ على أعصابها وعندما ختمت أثيل سرد قصتها، علق في رأسها المبهوت عبارة واحدة (ينتظرني كل سبت بحديقة القلعة) على أنّها امتنعت عن توجيه أي سؤال رغم أن فيضا منها يتدافع ليقف في الدور، هذا يحاول أخذ مكان هذا، فدفعت كرسيتها وانتصبت واقفة ثم راحت تدرع أرض المطبخ جيئة وذهابا تتهدّ وتزفر وتعثّرت قدمها بدلوا أصفر فركلته بعيدا، ولعنته واستمرت على تلك الهيئة تغمغم بكلام متقطع وأثيل تلاحقها بعينها، ولم يعن لها أن تستوضح منها السبب خلف ذرعها أرض المطبخ وعلى نحو مريب توقّفت وطرحت سؤالاً مثبّتة عينها على الوجه الحائر محرّكة سبابه يدها

_ "هل قلت أنه ينتظر كل يوم سبت بحديقة القلعة، و منذ ثلاث شهور؟" استفسرت بشيء من الشكّ والاثّام الذاتي، كأنها تطعن في سلامة أذنها أو ترتاب أن عقلها قليل الاستيعاب، فهزّت أثيل رأسها في إيماءة موافقة.

_ "إذا أذناي سليمتان و عقلي لم يتلف بعد، لا داعي لعرضه على طبيب" سخرت محتفظة بالنبرة الثابتة في صوتها مع أنها كانت تودّ أن تصرخ في وجهها، و حفّز الجواب دهشتها، إنها تومئ برأسها أن نعم كما لو أن الأمر طبيعي، ثم استأنفت المشي ممسّدة جبينها بقوة. و عقلها يدور في دوامة من قلّة الفهم و سرعان ما خطر لها سؤال سعيد من بين مليون فعزمت على طرحه قبل أن يضيع وسط الجمهور فتوقّفت و حملقت إلها

_ "ألست تحبينه؟" ومرة ثانية أومأت الفتاة برأسها أن نعم، كان المشهد يشبه في مجمله تحقيقا بوليسيا يقصد منه جرّ المتهم المراوغ المنكر للاتّهامات إلى الإقرار بجرمه، وليس للمحقق إلا التحلّي بالصبر والمرونة لأجل سحب الاعتراف و إيقاع المتهم في الفخ، و رغم أن أثيل سردت عليها القصة كاملة إلا أن سميحة أحسّت أنها تسخر منها: طالما هي تحبه إلى ذاك الحد إذا ماذا يمنعها من لقائه؟" ولم تستطع توجيه استفسار مباشر لأن أثيل لو كانت تريد لصرحت مباشرة

_ "خ ل ي ل" نطقت الاسم بهدّج و بطاء "نقطة فوق الخاء و نقطتين تحت الباء. أصبح صيد الرجال أسهل من صيد الفئران" و ضحكت ضحكة قصيرة "إذا فأنت الفتاة الرائعة التي أعادته إلى مضمار الحياة بعد أن زهد فيها، لقد قضيت السنة تكتيبين الرسائل إلى جندي الحرب مشلول الرجلين لأجل تشجيعه، إنك تحزين تقدّما ملحوظا يا فتاتي الخجولة، لم أعرف من قبل أن لك هذه المواهب، تبين أنك جريئة. رائع، رائع، رائع" ردّدت الكلمة ثلاث مرات وهي تصفّق، ولم تتمكن أثيل من قراءة وجهها، ما الذي يزعجها على وجه التحديد، ألأنها لم تطلعها من قبل؟

"سؤال آخر إذا سمحتي لي يا أثيل، هل تأذنين بطرح السؤال" قالت باستهتار و قد اشتعلت عيناها بالامتعاض، وأسرت أثيل تحرك رأسها أن تفضلي

_ "أشكرك، ألم تقولي أن التعس يجلس في الحديقة كل سبت ليقابلك؟".

_ "أجل" أجابت أثيل بنبرة متأسفة، زادت من حنق سميحة، وغصت بفضولها فأحست أنها ستتهال عليها بالضرب

_ " ألا تريدين إنهاء فترة انتظاره، أقصد ألا تريدين مقابلته؟".

_ "لا" و مرة أخرى هزت رأسها معترضة ولكن سحنتها حزينة .

_ "لا تريدين، ها" صاحت سميحة متشدقة ثائرة ثورة مكبوحه بلهجة مطاطة مستندة بكتبا يديها على ظهر الكرسي متصنعة الرتابة "لا تريدين؟!، لقد شردتني في المستشفيات و الحافلات، وأذكر أن الشمس شوت رأسي، و لست أنسى كيف التصقت ثيابي بجسدي من العرق و الدبق، وتحول وجهي فغدا كوجوه الهنود الحمر. لو أن قدمي تنطقان لرجمناك بسيل من اللعنات، والآن أنت تتكبرين عليه "

وأرسلت شفتها السفلى في رحلة تهكم هازة رأسها هزات الهزء" كنت أجهل أنك بهذا اللطف المستحکم، تركين الرجل ينتظر في الحقائق، هل تمارسين عليه حيلة نسوية أو هي أساليب جديدة لصيد الرجال، أو على الأرجح أنت تطبقين عليه إحدى النظريات الفعالة: كلما انتظرك أكثر كلما تعلق بك أكثر، تلك طرق ممتازة لإبقائه معلقا إن كنت تحتاجين رأبي".

على نحو سريع انقلبت النبرة في صوتها من هادئة ساخرة إلى حازمة حادة وتخلت عن لامبالاتها المتصنعة بفعل الصمت المطبق، فأثيل لم تخرج جوابا و ما عتمت أن جلست على كرسيا

"أثيل، هل تسخرين من عقلي الآن، لا تودين لقاءه، ماذا دهالك؟ لست من يتبني حيلة رخيصة كتلك، أحفظك عن ظهر القلب، ولكن رأسي يكاد يتخدر، أجيبي بسرعة، ما الذي يمنعك من مقابلته؟"

طأطأت أثيل رأسها و من خلال الوجه المتشخ بالألم قالت

"لا أريد و كفى، لن يستمر في تصميمه، سرعان ما سيملّ و يتوقف "

_ "ألست تحبينه؟" عاودت طرح السؤال منفعله بفعل الحيرة ومرة أخرى لم تتلق جوابا "ارفعي رأسك، و انظري في عيني، ذات مرة قلت أنك ستموتين إن ما أصابه مكروه، فما الذي حصل الآن!! تودين أن لا يأتي ... أثيل "

ران السكون للحظة، التقطت سميحة أنفاسها المتقطعة ثم مضت تقول وقد أمالت رأسها

إلى الأمام

"هل تخجلين بعائلتك؟، أياكون عمل أمك السابق هو السبب الحقيقي خلف رفضك؟"
تخلل صوتها شيء من الازدراء و أردفت "لا يوجد تفسير منطقي إلا هذا، على أنني لا أصدق
أنك أنت من تفكرين على هذا النحو"

كان الشعور بالمرارة يعتمل في قلب أثيل و عيناها توشكان على ذرف الدموع إلا أنها تمالكت
نفسها، ما أشقاها وما أتعس حظها. وبالكاد همهمت بين أسنانها همهمة قصيرة وعيناها
تعتكفان النظر إلى أسفل "ليس الأمر كذلك"
"إذا؟" سألت سميحة باقتضاب

- "ليس لدي ما أقوله يا سيّدة سميحة " رفعت لها عينين تشيان بألم وبؤس لم يسبق
لسميحة أن قرأته فيها و غمرها شعور بالشفقة فرققت لهجتها و قالت بلطف
- "لا تنزعجي يا أثيل، لا أريد إلا مصلحتك، لست أفهمك يا حلوتي، و إن ما شرحت لي
فبوسعي تفهّمك، لا تكوني غبية فتضيعي الفرصة "

- "هل غير الموضوع يا سيّدة سميحة، ليس لي رغبة في التعمّق أكثر، كنت ضد الفكرة من
أساسها "صاحت أثيل برمة وأحسّت بالندم، لأنها تهوّرت و أحاطتها علما بسرّها، و أملت أن
تراعي سميحة رغبها

- "كنت ضدها قبل أن يجلس في الحديقة يراقب الذهاب و العائد و يحسب عدد أغصان
الشجر، أعرف السبب الحقيقي "قالت سميحة متجاهلة ملاحظة أثيل عن تغيير الموضوع على
أن جملتها هذه أثارت بعض الخوف في قلب أثيل وجعلت وجهها يتغيّر لونه، و معدتها تضطرب،
هل فعلتها ميرنا وأفشت للسيّدة سميحة بدل أمها وأجابت نفسها بالطبع لا، و إلا كيف
تستقبلها وتستمر بصدقتها إذا ما الذي يدور بخلدتها ؟

- "لا تكوني غبية، لا تحرمي نفسك من السعادة لأجل أحد، لقد أعطيتهن ما يكفي و سلخت
حياتك لأجلهن، ستكبر ياسي و تزوّج و كذلك تلك البومة ميرنا، أعتذر لم أقصد وصفها بذلك "
و أطبقت يديها معتذرة

- " بينما تذهب أيامك سدى، أصغي إلي يا أثيل لا تعقّدي الأمور، اشرحي له أنك مسؤولة
عن عائلة، وأنهن مسؤولة واجبة، وعليه تقبلهن، و كذلك عليك أن تستمري في العمل لأجلهن
وإنفاق عليهن إلى حين تزوّج شقيقتيك".

مرة ثانية أحسّت أثيل برغبة في البكاء و استبد بها شعور بالعجز الفائق و المرارة الناهدة
، لبت عقد الحياة تكون بهذه البساطة، ليتها اقتصرت على مسؤولية معلّقة في رقبتها، لما كانت

لتنظر مواعظ من أحد، ولركضت إليه منذ أول رسالة منه يستدعها للقاءه، و قبضت على طرفي فستانها وكتلة من الغم تثقل صدرها فتمهدت، و لكنها التزمت الصمت و لم تقل شيئاً، ماذا عساها تقول، و لم تعلم سميحة أنها قد أوجدت عذراً جيداً تستعمله أثيل للتنصّل من إلحاحها، و هكذا أطالت السكوت و نتيجة عدم تلقّيها جواب أردفت

"لماذا تستخلصين النتائج قبل أوانها، و تحكمين على نفسك بالإخفاق دون أن تجرّبي. لا تقرّري بدلا عنه. على الأرجح أن تلك الحواجز التي تبنيها لا يعترف هو بوجودها، و من الممكن أن هناك شيئاً جميلاً بانتظارك بينما أنت تجلسين هنا و تشيدين سياجاً من الخدع الفكرية، إن عقلك يخدعك يا حبيبتى" و سمعت قلبها يدويّ و يهتف "أرأيت؟ حتى السيدة سميحة شهدت ضده، ملعونة نصائحه، متمتت ككاهن".

استطردت سميحة

ـ "إن الرجل مهمم بك، وإلا لماذا يقطع كل تلك المسافة؟ ليس ليجلس تحت المطر والثلوج وتلفحه الشمس والرياح، فبوسعه الجلوس في حديقة منزله إذا أراد ذلك، و إن ما رآك يا أثيل، إن ما رآك "كزّرت بلهجة مطاطة و تألقت عينها ببريق الإطراء" سيفقد عقله. أجل، لا تنظري إلي بتلك الطريقة كأنك لا تعرفين أنك تخلبين عقل أي رجل يراك، و لن يكون السيّد خليل هذا استثناءً، سيقع أسير سحرك من النظرة الأولى، حتى مع أثوابك البسيطة" و ابتسمت ابتسامة سرور "أتذكرين مهضوم الحقوق ذاك؟، لقد ظننت أنه سيخطئك لكثرة ما نظر إليك، و كنتيجة لنظراته الملتزمة لم تستحسن الحقيقة حسناً و جودك ليلعنها الله، و ليس بوسعي عدّ المندفعين للزواج منك، إنهم بلا حدّ. كلما ذهبنا إلى مركز نعود بعرضي زواج أو ثلاثة، و تذكرين يا أثيل عندما ذهبنا إلى الريف، تقسم السيّد بارق أنها لم تر أجمل من وجهك، بالمناسبة و ردتني رسالة منها تلجّ على اصطحابك معي مجدداً، من الواضح أنها لم تحب بغلتي، فهي لم تأت على ذكرهما في رسالتهما، إنهما مشبّهتان للهمّة باعثتان على الغثيان، أليستا كذلك؟ و جميع أهل الريف الذين قابلناهم أطروا جمالك. لا أحد بوسعه حجب الشمس، أنت جميلة فتانة يا حبيبتى، إن جمالك يغطّي كل نفقات فقرك و مسؤولياتك، و لو كنت محامية يا أثيل لحلّت كل مشاكلك القضائية، مع خلع بعض ثيابك عنك، ستخدّرين عقل القاضي اللعين وهكذا كان سيحكم لصالحى".

دهمت أثيل عاصفة من الاقتناع غير مبالية بالخسّة الأخيرة، ثم انشرح وجهها قليلاً كأنها كانت تبحث عن شجّعها، و أخذت العبارات تتردد في عقلها تبغي أن تستوطن ولكنه نبذها بسرعة، إن ذنبها كبير و لا يغتفرو مصيبتها عظيمة، على أنّ الألم الناجم عن صدّه يجعل الحياة

بلا لون و بلا ضوء، ألم شبيه بالجحيم، هناك قوة أكبر منها تحتمها على الذهاب إليه "سيحبك يا أثيل، بل سيميم حبا بك، ليس لجمال وجهك فحسب، بل إنه بعد أن يكتشف كم هو نبيل قلبك ومرتفعة طباعك وكم أنك فتاة مصقولة طيبة، سيرضى أن يعيل حتى سكان الشارع الذي تقطنين فيه وليس عائلتك فحسب، الحب يا أثيل، الحب يفعل العجائب و يحطم كل العقبات و يصنع المعجزات، حتى إنني أسمع قصصا عن رجال تزوجوا فتيات غير صالحات، بوسعك الفهم طبعا، أقصد بائعات الهوى" انفعل وجه أثيل وأريدت شفاتها ، بينما خفق قلبها خفقة مدوية و أرسلت نظرة غريبة إلى سميحة

_ "لا تتفاجئي على هذا النحو، لم يكن ينبغي أن اتخذ من تلك الفئة مثلا، ولكن أجل إنني أسمع هكذا قصص، يتزوجها لأنه يحبها مهما كان وضعها، ألم أخبرك أن الحب كالسحر يبدد كل الحواجز، و يضيئ أي طريق معتم، إنه قوة عظيمة، منذ الأزل كان الحب ينهك غرور أي رجل، وينزل كبرياءه إلى مستوى حدائه، و أنت أيتها الغبية "كانت لهجتها رقيقة ناعمة كما تحدثت أم بنتها المدللة العزيزة على قلبها "تعتقدين أن مسؤولية عائلتك ستكون عاتقا في طريقكما".

سمعت قلبها يهتز خافقا طروبا متجاوبا بسرور ، كأنه يرقص ويفغي و سبحت كلمات التشجيع في بحر من الاستحسان و القبول و الشغف ، و بسرعة اتجهت رغباتها نحو قرار جديد و انفتح لها أفق مشع بالأمال اللامعة و بالسرعة ذاتها استرجعت حوارا دار بينها و بين العجوز راضية، إنه يطابق ما تتلوه سميحة، فابن شقيقتها تزوج فتاة من ذلك النوع لأنه أحبها حبا صادقا فتجاهل آراء المجتمع و تحدى العائلة المحترمة في سبيلها، ثم اتخذها زوجة لا عشيقة، و في ركن ما من ذاكرتها استعادت على نحو ضبابي أقوالا صرحت بها العجوز صفية ، ليست تذكرها على وجه التحديد ولكنها قالت أشياء عن استحالة نكران الرجل لدعم المرأة.

أجل إن الحب يصنع المعجزات، أجل، ربما تشملها هذه النظرية الشاذة أيضا، و سلمت بها كأنها تعتنقها منذ صغرها، و ثانية شردت بعيدا، هي فقط كانت تبحث عن من يجدف بها إلى هذا الشاطئ، من الممكن إن هي شرحت له دوافعها وأن أمها كانت على شفير الموت، وأن البيت كان يحتاج توضيحية كتلك، و أن شقيقتها كانتا ستضيعان ، و أن جبروت الفقر تكسر حتى ظهور الرجال، وأن الأجساد لم تبع لهوانها وقله شرفها، بل لتدفع بها شبح الفاقة و الموت. إن الحب يصنع العجائب إن كان صادقا حقيقيا نابعا من قلب صاف كسماء الصيف الزرقاء، و تخمرت الفكرة في عقلها و سرى في عروقها تيار دافق من الأمل الرحيم، و استسلمت للمواعظ المشرقة، و أحسّت بالجليد المحيط بقلبها يتكسر و يذوب رويدا رويدا، و دون أن تحذر أو تهتمم ابتسمت.

كان كل ما قالته سميحة مرضيا مقنعا لذينا موازيا لرغبات قلبها و ما عتمت تريد تصديقه

بقوة (ربما ينتظرك شيء جميل بينما أنت هنا تبينن الحواجز) واستخذى عنادها، واحتلت وجهها بشائر الأمل فأشرق بشعاع مهبت للعقول وهكذا اندمجت العوامل التي تبيح لها التسرية عن نفسها. فقد بعثت بوجه الخطيئة البشع إلى المجهول، وخطفت من كلمات سميحة عبر الجراة، ومن رسائل خليلها المصمم التأييد المطلق المتناغم مع رغبتها الشبيهة، ومن قصة ابن شقيقة راضية استمدت النظرية التي تغلب المنطق. لطالما أيدت أثيل مقولة أن الندم على السكوت خير من الندم على الكلام و لكن لا، كانت ستلوى ندما طوال حياتها لو أنها سكتت، من الرائع كثيرا أنها أفضت وتكلمت وانتهت سميحة إلى انشراح السحنة العابسة وتمدد الجلد المتقلص، وفهمت أن أفكارها السارحة في عقلها تضحك وترقص وتحلق فاستمرت مشجعة

_ "إذا يا أثيل، هل اقتنعت أن ما ينتجه عقلك مجرد هراء، قابليه يا عزيزتي" وربتت على يدها بحنان، غير أن أثيل خلدت إلى الصمت، إذ أخذت رغبتها الناضجة ترتفع إلى عقلها العنيد أعلى وأعلى ونضبت مقاومته، فحالت دون اعتناق ما يصنف في منطق عقلها جنونا بحثا

ولم يعد وجهها ينقبض في تمنع واعتراض، وبدا لسميحة أنها أقنعتها أخيرا، فالسكوت علامة الموافقة والوجه البشوش المضاء بابتسامة رضية يؤيد ذلك، ولهذا حان وقت إسداء النصائح للفتيات الساذجات أمثالها

_ "و الآن يا أثيل سنسلط الضوء على زاوية أخرى" قالت عبارتها مسندة ظهرها إلى ظهر الكرسي، مشدودة الصدر بغرور المرأة المحيطة بشؤون الحياة وتقلباتها، المرأة الحذرة الحكيمة الصارمة كأنها مديرة مدرسة، وهكذا استيقظت الفيلسوفة النائمة

_ "يتعين علينا تقليب جميع الاحتمالات على وجوهها حتى لا يخذعنا أحد، كما أن الحب قد يودي أحيانا بالمرء إلى تكبد بعض الخسائر إن لم يرافقه وعي و فطنة " فتغضن جبين أثيل بفعل المفاجأة وقلة الفهم، منذ قليل قالت إنه يصنع المعجزات فما باله الآن يكبد الخسائر، أي فلسفة متناطحة هذه. فعلا إنها متقلبة المزاج، ورغم ذلك استنفرت حواسها خاشعة في طيات الفلسفة الواعدة

_ "ماذا نعرف عن الرجل؟" سألت وقبل أن تجيبها أثيل أجابت نفسها.

_ "نعرف صفاته الجسدية، وسيم جدا، شعره أسود فاحم، وعيناه بنيتان فاتحتان " على الأرجح أن سميحة معجبة به أيضا قالت أثيل في نفسها "اه، هناك صفة تعجبني، إنه عدو لدود للحكومة البائسة. يذكرها بحسناها في كل مرة" وضحكت ضحكة صفراء "ولكن،

ولكن" ورفعت حاجبها وزمّت شفيتها لكونها حاذقة نبيهة، وتابعت أثيل حركة فمها محملقة بلهفة

_ "لا نعرف سلوكه مع النساء يا حمقائي، و إلى أن يثبت لنا أنه رجل مؤدب مع النساء، عليك اتباع التعليمات تحسبا لأي تصرف حقيق من طرفه، سأشرح لك، لا تفتحي فمك مثل سمكة، فأنا لا أتهم فتاك الشجاع بأي ندالة إلى الآن، إنني فقط أخمن، ألم تكتبي له عددا كبيرا من الرسائل؟ والله وحده يعلم ما يدور برأسه الآن؟"

فأومات أثيل برأسها تستعجل النتيجة، وغلبت الدهشة على ملامح وجهها بينما الحيرة تختبئ وتبرز "لربما اعتقد عديم الخير أنك فتاة متاحة، سهلة المنال وأنت تركضين خلفه، ولم يكن حضوره إلى الحديقة كل سبت إلا استجابة ذكورية خبيثة لدعوة أنثى ساذجة خرقاء، ربما يفكر على ذلك النحو ويودّ استغلالك" وغمزت "تفهمين قصدي"

لا، إن خليلها لا ينتهي إلى ذلك الصنف الرديء من الرجال، إنه مهذب محترم، ولقد حرصت والدته على تنشئته تنشئة صالحة، ولهذا كشرت محتجة

_ "إن ما رأيته تكشّرين مرة أخرى، سيسعدني أن أسكب سطل ماء بارد على رأسك" زمجرت مهدة "إنه مجرد احتمال، و يتعين إدراجه و دراسته أيضا على نحو جدي، لست أرمي إلى إصااق تهمة الاستغلال به، ربما يبيّت لك هذه النيّة و يستدرجك إلى شقة معزولة بحجة ما، أو بفعل تأثير كلامه المعسول، الرجال مصنع ذائع الصيت في إنتاج ذلك النوع من الكلام المعسول. و بمجرد أن ينفرد بك يوجّه لك الضربة القاضية و يقضي عليك" و فرقت أصابعها يا للإبداع النسوي النائح، يا للتفكير الفلسفي الغريب .

"لا تدافعي عنه، نادر و مميز ومختلف عن غيره، الذئب لا يتوه عن القطيع، قد يشارك الرجال في أشرف المواقف وأكثرها نزاهة بضمير حي صادق، و يبدوون بأسا و شجاعة وأدبا قلّ مثيله ويشاد بخصالهم الحميدة، ولكن هذا أبدا لا يمنعهم من استغلال النساء، إنهم شياطين في ذلك، ماذا نفعل إنها غريزة الرجل يا حبيبي، لا تستثني إلا العجائز و الفتيات الصغيرات، حتى القبيحة لا تسلّم، عندها يرسلون ضمائرهم إلى غرف النوم. علاوة على ذلك، إنك فاتنة وقد يفقد الرجل عقله إذا رآك، ألا تذكرين رحلة القطار، كيف وافق ذينك الغبيان على التحاور معي لأجل عيونك السوداء. إن أحسنهم قد يصمد في وجه سحرك نصف ساعة على أكثر تقدير حتى تثور عواطفه المفتونة، و على هذا الأساس ينبغي أن نجهز لإجراءات تحفظك من الاستغلال"

_ "ولكن خليل... غمغمت أثيل ثم سكتت فأدنت سميحة أذنها قليلا وقد تحفّز الشر في

عينها "ماذا قلت، هل تحاولين الدفاع عنه؟"

_"إنه ليس خسيس، إنني أعرفه من رسائله، لقد قرأتها جميعها."

_"لا تصدّقي ما يقوله الرجال، إنهم يكذبون في الدقيقة ستين مرة، أرى أنك ستستسلمين

بسهولة وتذهبين معه إلى جهنم إن طلب منك ذلك."

_"لن يطلب" أبدت أثيل دفاعا قويا .

_"و كيف عرفت، أ قلبك من يدر عليك بهذه الثقة؟ لن نتناقش بهذا، إنني أضع قرطا في

أذنيك حتى يذكرك إن ما أبدع فتاك حقارة و نذاله، ولهذا، إن حاول الاقتراب منك أو عرض

عرضا سافلا فأريه."

_"أريه؟ كيف ذلك؟" استفهمت أثيل مشدوهة

_"أصفعيه، هكذا" و رفعت يدها في الهواء ثم هوت على حافة الطاولة "أثبتي له أنك فتاة

محترمة شريفة و أنك لا تسمحين أن يداس على كبريائك، لأنه خط أحمر."

و انفتحت مقلتا أثيل من الدهشة حتى بدت عيناها مفرطتي الاتساع و أقنعت نفسها أن لا

داعي للضحك، ما أوسع خيال سميحة، وانتصبت بين عينها صورة خليل بوجهه المصفوع

، فابتسمت و هي تراقب جدية الوجه النحيل الساذج و استرساله في الأمر كأنه قضية محسومة

"أصفعه؟ لكن، لكن"

_"إن لم يعجبك اقتراحي فقدمي له وجنتيك المورّدتين ليقبلهما أو ربما..." و زحفت عيناها

قليلا مبتعدتين عن وجنتيها، على أنها لم تتمّ العبارة خوفا على طهارة أذني الفتاة " أما إن

عرض الذهاب إلى شقة مرة واحدة، فينبغي أن تتصرّفي بشكل آخر."

_"كيف؟" سألت أثيل بصوت يتصنّع الاكثرات ليس لأنها تصدق تنبؤات السيّدة، فهي أبدا

تؤمن بشهامته و نبل أخلاقه، و لكن سميحة تقحمها دائما في حوارات من هذا النوع فتضطرّ

كارهة إلى التفاعل بل والتجاوب.

_"سؤال جيد، ستفعلين التالي، أولا هناك مجموعة من الشتائم التي تقتضي منك حفظها،

اختراري اثنين أو ثلاثة و اقدفها في وجهه و غد، حقير، سافل، نذل، وضيع، قدر، منحط. مرفوقة

بانتفاضة من جسّدك. ثم بنبرة من بوغت بعرض دنيء كهذا، تصنّعي الغضب و أظهري تجهمًا،

صائحة في وجهه: لأنني حاولت مساعدتك؟، حاولت تشجيعك لإخراجك من حالة الحزن والألم

التي كنت تتردّي فيها؟ اه ما أقدر تفكيرك!، ماذا تظنني! فتاة رخيصة؟ لست أبدا من ذاك

الصف.

هنا سيستدرك خطأه و يحاول استرجاع ثقتك فيقف متوسلا: أرجوك يا أثيل كنت فقط

أريد أن نبقى لوحدها بعيدا عن الضجيج و التطفل، لست قدرا" وظهرت كممثل بارع في مسرحية وذابت في الدور: بل إنها راحت تلعب كل الأدوار تسأل و تجيب، توجد العقدة وتفكها، تقترح وتتوسل، تتجهّم و تنشرح، تنتقل من فعل وردة فعله بلمح البصر" إياك أن ترضي بالبقاء، ادفعي المقعد بقوة، لا نسيت إنه مثبت في الأرض ولا تستطيعين دفعه، انسحي منه بعنف وجسدك يرتجف من الضيق "كيف وصلت سميحة إلى هنا، ما هذه السخافات! "للدلالة على حالتك العصبية، عندها سيحاول استعطافك بالحالة التي كان عليها، كما أنه سيقحم أمه في عباراته ليستدرّ بعض الشفقة، كلهم أوغاد يستثمرون في أمهاتهم وقت الحاجة، ولن يعتذر لأنه يشعر بالذنب، بل ليخفّف من حدة حنقك و يحاول التهدئة من روعك، لا تبقي حتى لو شيدت توسلاته أبراجا عاجية. اقبضي على حقيبتك و انصرفي، وسوف لن يلحق بك، لأن الأعين ستكون عليكما، وحيث أنك قد نلت احترامه، و جذبت انتباهه، وتحقّق أنك فتاة شريفة سيفعل المحال لأجل كسب رضاك، سيبعث رسائل و رسائل، لن تجيبي بادئ الأمر كي تظهرني أنك مستاءة مع أن قلبك لن يطاوعك، فيما بعد من الممكن أن تعفي عنه شريطة عدم تكرار تلك الدناءة. بهذه الحكمة تخضعينه لك "

_ "إن خيالك واسع يا سيّدة سميحة "قالت أثيل بفتور و عندما لمحت أنها يتجعّد أسرعَت تصحّح "لكن معك حق، على المرء أن يحتاط".

_ "هذا يعني أنك ستذهبين "علقت سميحة و قبل أن تجيبها أثيل، وقفت ابنتاها على عتبة باب المطبخ تنشجان نشيجا متقطعا، تسند كل واحدة رأس الأخرى، لا تتوافقان إلا عندما تشرعان في شتم الحكم المشرف "أمي لقد خسرنا، سجّلوا علينا هدفين، مال الحكم إلى الفريق الآخر. لقد اشترروا نزاهته. "

بسرعة نقلت سميحة بصرها بين أغراض المطبخ، السكين الحاد، الدلو الأحمر الفاقع، ملعقة كبيرة حتى استقرتا على كوب معدني فقدفتها به، ولحسن الحظ اختفيتا قبل الاصطدام، فارتطم على الحائط المقابل وسقط على الأرض محدثا قرعة مزعجة " سأعرضكما للبيع".

الفصل الرابع

أشرقت الشمس، بعد أن أمطرت طوال الليل مصحوبة برياح عاتية هزّت النوافذ والأبواب مصدرة صوتا كثيبا باعثا على الكدر وامتدّت طوال النهار، وأضحت الأرض رطبة، على أنّها كانت شمسا باهتة شحيحة الدفء، تظهر من وقت لآخر بين السحب الرمادية.

قاربت الساعة العاشرة عندما كان خليل كالمعتاد كل يوم سبت يجلس إلى أحد المناضد منكبا يقرأ كتابا. كان قد فقد كل أمل في مجيء أثيل لمقابلته، ورغم أنّها كانت حقيقة واضحة ومسألة جلية إلا أنه رفض التسليم بها، ولم يؤمن إلا بما يملبه قلبه: ستأتي ذات يوم، ربما ليس اليوم أو غدا، ربما ليس الشهر القادم أو الذي يليه، وكذلك ليس السنة القادمة، لكنها ذات يوم ستأتي، وينبغي عليه أن يكون حاضرا هنا موجودا عندما تأتي، كان هذا إيما ناسخا تماما كالإيمان بوجوده هو.

كانت بعض الهواجس قد أرهقت عقله وأرهبتة وأفزعتة، هواجس تقول بلسان ساخر: ربما ليست حقيقية، أو أنّها وهم من صنع خياله، أو من الممكن أن تكون أحد المقربين منه، قد تكون ابنة عمته في محاولة منها لاستدراجه خارج عزلته الكسيحة، فخلقت تلك الشخصية الوهمية والتزمت الصمت فيما بعد تحاشيا لصراخه في وجهها وتوبيخها على الاستهتار بمشاعره، أو ربما يجعل من نفسه أضحوكة لخطّة منتقمة مرتبة بتخطيط دقيق من طرف بعض الحقودين كما أوعز له عمر. ربما يجازف بسمعته وكرامته من أجل لا شيء.

وحيث أن الشهور أدبرت دون أن ترسل حتى رسالة أسفر ذلك عن غارات من الشكّ، الشكّ الذي صدّه بثقة صامدة وتجاهل ماهر، ليست أحد المقربين ولا أحد الأصدقاء، إن قلبه مثل الخريطة يطمئنّه أنه على المسار الصحيح و أنّها موجودة حقا، مصنوعة من لحم و دم اسمها كما ذكرته وسنها كما دونته، وكل الأماكن والأشخاص والروايات التي استعلمت بعناية لغرض تشجيعه وتقوية إرادته حقيقة لا تنتسب لأحد سواها، هي تعيش تحت سقف إحدى هذه البيوت، ربما قريبا من هنا أو بعيدا، ربما في قرية من القرى الواقعة على حافة الطريق أو على أميال منها، وإن كان لا يراها ككائن حيّ نابض القلب، فإنها تسكن قلبه المشوّش المتعطش لرؤيتها.

ولما كان عمر صريحا لا يتردّد في وصفه بالأحمق والمتوهّم، وسؤاله هازئا إن ما كان الشبح المجهول قد تنازل متكرّما لمقابلته، فقد انفجر غاضبا السبت الماضي عندما عاد بخيبة مفحمة

وأما مشوّهة، ولم يكن غضبه كنتيجة للنوع التي مُني بها، لا، لقد تسرّب خوف متمكّن إلى قلبه، خوف من عدم وجودها كإنسان ملموس، خوف تبرّأ منه بسرعة لارتباطه بانهييار عالم بأكمله. وما فتىء أن هدأ من روعه و هجر انفعاله ثم خاطبه معتذرا أن غضبه كان نتيجة إحاطته بزمرة من الكادحين الخمولين، وحيث أن عمر كان يجد المسألة مجرد فتحٍ لجعل صديقه مهزلة مضحكة أو ربما إيقاعه في شرك خبيث، نصّب نفسه ناصحا متخفيا صبورا تجنبا لإثارة عصبية خليل التي لا تخفى نتائجها على أحد.

و ساوره إحساس بالألم مرة على مرة، وكانت المرارة تنقضّ عليه عندما يخلد إلى الفراش فيبقى يقظا متفطنا، محدقا بعينين مفتوحتين إلى سقف الغرفة، باحثا عن تفسير يمكن أن يعلّل امتناعها مقابلته، فلم يجلب لرأسه إلا صداعا، بيد أنه لم يوجّه لها أي لائمة، ولم يحدث أن كتب في رسائله عتابا أو توبيخا أو خانه ضيقه في ردع الوداعة من الظهور، رغم ما يتكبّده من أحزان و يشعر به من إرهاق نفسي وخيبة مريرة، حرص حرصا أرييا على التزام الهدوء في رسائله تحاشيا لتكديدها أو إخافتها، وحرص كذلك على إخراس نوبات الغضب من تجاهلها، ولم يتحاش عقله تنبيهه إلى حجم الإهانات التي يتعرض لها، على أن شعوره الرقيق نحوها شعوره بالشكر الخالص والامتنان الباسل و شعور آخر كان يصعب تحديده، كانوا يسدّون كل ثغرة يوجدها عقله أو يحددها عمر صديقه.

كان الوضع مخيبا للأمال أكثر مما رغب في الاعتراف، وكلّما يأتي السبب تصطدم الشجون بالمخاوف، لتنعّص عليه عيشه، عازفة على أوتار عقله نغمة عدم قدومها، إنها مجرد بدعة لعدم مقدرة قلبه على تصديقها، وكل ما لا يؤمن به لا يسجّل في ذهنه إلا بدعة . وكان بوسع اليوم هذا أن يستثمر في عمل مفيد باعتباره يوم العطلة الوحيد بالإضافة إلى الجمعة، كإعادة طلاء غرفة الضيوف، أو الاعتناء بحديقة أمّه الراحلة التي خنقت الأعشاب الضارة نباتاتها الزاهية و استوجبت تغيير أحواض الزهور، وليس مقرّ الجريدة بالمشرق أو الباعث على الارتياح بصورة مرضية، حيث لا يحتاج إلى تكثيف الجهود وإعادة تهيئة. وزيارة الأقارب ، غير أنه مرهون لشخص عزيز، شخص مهم محيّر، شخص موجود ولكنه يختبئ منه لأسباب مجهولة.

ولولا أن عادة الكذب غير مستحبة في قاموسه لهيأ بعض الأكاذيب التي من شأنها إثارة الرعب في قلبها و استدراجها من خندقها، ماذا عن كذبة أنه طرح فراش، يعاني من وعكة غامضة التفاصيل؟ أو كذبة إصابته في كتفه برصاصة طائشة من أحد الحقودين عليه و ما أكثرهم هذه الأيام؟، أو تدهور حالته النفسية من جديد، بعد انهيار أعصابه على نحو غير

مسيبوق لسبب غير معروف. ولكن لا، ليست تلك بأخلاق رجل شهيم محترم، وليس اختلاق الكذب لأجل تحقيق الغايات بطباع حميدة، إنه يكره الكذب. و طالما لم يكسبها بالحقيقة فلن يرضى أن يكسبها بكذبة.

لقد خابت توقعاته وتوقّضت كل فرضياته، تلك القائمة على نقطة محدّدة، حيث أنه توقّع قدومها خلال الشهر الأول، لو أنها لم تكن له أي مشاعر خاصة، لماذا خصّته بتلك الرعاية الجيدة والاهتمام الحريص؟! لماذا كرّست وقتها لتبعث له بذاك الكمّ من الرسائل؟! فباستثناء اليومين اللذين قضتهما في الريف والأسبوع الذي أدخلت فيه إلى المشفى، لم تكن تخلّ عبادة الرسائل تلك. لا أقلّ من ثلاث رسائل في اليوم و وصل العدد ذات يوم ربيعي مشمس دافئ إلى ستة.

وافته خاطرة لثيمة ذات ليلة، فأحسّ بالاختناق إلى الحد الذي أراد فيه ضرب جبينه بالحائط: على الأرجح هي من تلك النوعية التي ترسل الرسائل لأي وحيد حزين مكتئب، هذا يعني أنها لم تعنّ به بصفة خاصة كما كان يتوهّم، فقد سمع مرة أن رجلا افريقيا أصيب بالسرطان، وبعد معاناة وتعب، تعافى تدريجيا فكّرّس حياته لأجل المصابين بذاك المرض الخبيث، وهكذا بدأ بمنح كل أيامه التي لم يطمع في عيشها لأجلهم، يتجوّل بين المستشفيات ومراكز العلاج يخفّف من وطأة العبء ويواسي الجراح والآلام ويجفّف الدموع المتسائلة من العيون الحزينة، ويقدمّ الدعم والنصائح ويرفع المعنويات ويشجّع إدراكا منه أن الأحزان إنما تهيّج همّة المرض، وترفع هامته، وعندئذ جزع قلبه و التهب ذعره، هل تعلق بفتاة تواسي الجميع؟، ماذا لو أنها طيبة نفسية وقد كذبت عليه بشأن وظيفتها؟ فلو أنها أحبته كما أراد أن يصدق لجاءته ركضا، وما لبث أن ركل الخاطرة المقيتة من ذهنه. كان يبدو في الرسائل أنها واقعة في غرامه، كان خليلها وعزيزها وملاكها وكنزها، فما بالها لا تأتي اذا !!!

"هل تعرّضت لحادث أودى بجسدها إلى كرسي متحرك كما حدث معه "داربخلده في الليلة التالية، والشكّ يغالبه و ينازله و يستبدّ به كهاجس شرس "و انتهى نشاطها و حيوتها إلى كآبة بين جدران أربع، فرهنت أيامها لمواساة أحزان غيرها، هل اختلقت كل تلك القصص بوجي من خيالها الخصب، فقط لجزءه خارج المأساة بينما لا تزال هي،،،" و تخدّر تفكيره و تابع النقاش "تجلس على كرسي متحرك، وما إن بلغها خبر تعافيه حتى انتقلت إلى حالة أخرى".

أثيل على كرسي متحرك! وترقرقت الدموع في عينيه، و غزته الحيرة ثم أحسّ بأنه تائه في صحراء أو غابة شاسعة، تائه دون مخرج أو أنه حبيس في قفص من الهواجس النامية؟، كيف وصل إلى هذا القفص! و ماذا إن كانت مقعدة؟ بوسعها الحضور، و بوسعه أن يتفهّم، وسرعان

ما ضاع في سراديب أخرى، ورغم هذا وذاك احتفظ بخوفه لنفسه.

في الوقت الذي قلب الصفحة المئة من الكتاب، مزّ إزاءه شيخ قصير طاعن في السن يضع عمامة بيضاء فوق رأسه، ويلفّ نفسه بزّي تقليدي يقيه من البرد، وكان البرد شديدا رغم بزوغ الشمس، وكانت الرياح هزيزها تولول قوية عاوية. ويتوقع أن ينقلب الجو إلى راعد ممطر كالليلة الفارطة ويتوقع أن تثلج الأسبوع المقبل، اقترب العجوز منه مصوّبا نحوه نظرة مستهمة عابسة ويدها ترتعشان: اسمع يا عادل، إن ما جاءت أمك فدلّها على مكاني، أنا في المقعد الأخير هناك في الزاوية، سأنتظرها حتى تأتي ولن أتحرّك من هناك.

_ "مسكين هذا الرجل "هجس خليل متأثرا "ليس من السهل إقناعه أنه ليس ابنه، وأن زوجته لن تأتي مطلقا، حيث أنها ماتت منذ ثلاث سنوات " هكذا وضّح ابنه عادل المسألة الشائكة عندما قدم لأخذه، ينتفض من الخوف فوجدهما معا يتبادلان حديثا.

وشعر خليل بالخلج من نفسه لإحساسه هذا الصباح بقليل من الملل والإرهاق، وكذلك خالجه شعور بالنذالة، ماذا فعل لأجلها؟، لاشيء، غير الجلوس كل سبت فلما التذمّر، أما هذا العجوز فرغم أن ذاكرته قد تلفت ورغم أنه قد نسي حتى أبناءه إلا أنه لم ينسها، ما أعظم وفاءه حتى بذاكرة تالفة، إن الحب الصادق أبدا لا ينس، ما أشدّ ما أعجب بهذا الهرم الخرف وما أشدّ ما أحسّ بالعار، لأنه تقاعس عن إيفاء جميلها هذا الصباح.

_ "لقد أتت السبب الفاتت، هل رأيتها؟ " فأطرق خليل رأسه موافقا "إن أمك امرأة دقيقة المواعيد، لا تشغلها بالأحاديث الفارغة يا عادل ثم لا تكدرها بمشاكلك، تعرف كم هي حساسة سريعة التأثير، دلّها على مكاني فورا، لا لست عازما على الجلوس هنا فلدي أنا وأمك حديثا خاصا".

_ "حسنا لن أشغلها " وافق خليل مبتسما واستأنف العجوز خطواته المتثاقلة، يتوكأ على العصا ثم أرسل نظره إلى الباب، وارتدّ نظره خائبا، ونظر حوله، كانت الحديقة ساكنة كسكون القبور، ليس إلا الحارس الناعس والشيخ الوقور يحتلّ كل واحد مكان، و سرعان ما أحنى رأسه ليستأنف القراءة بفواصل من الشرود، ولم يرفعه لنصف الساعة.

فيما هو يقرأ، اجتاحت عظامه حزمة من الرياح الباردة، فقبض على طرفي ياقة معطفه بيده وثبتّ اليد الأخرى على الصفحة كيلا تضيع، وب نظرة جانبية تبين أن شخصا ما يقف على بعد بضع خطوات من المنضدة، فرفع بصره عن الكتاب ورأى طرف ثوب أسود يخفق بفعل الرياح كعلم مرفرف، ويدها قابضة عليه، و زحفت عيناه ببطء صعودا إلى المعطف القصير الأسود المزرّر الذي يبرز قواما أهيفا، واستقرتا هناك قليلا، ثم استأنفتا الرحلة متسلقتين إلى

الوجه الأبيض كالثلج وانطبع في عقله أنه جميل ساحر، تزيّنه عينان سوداوان بديعتان مغريتان ، يعلوهما حاجبان أسودان متناسقان وأنف صغير، ووجنتان مورّدتان، وفم أحمر بلون الكرز ، و ذقن مدبب أضفى على الوجه جاذبية مضاعفة. واستمرّ يحدّق بها بعيون مستوضحة لوهلة طويلة تكتنفه الحيرة، فيما بادلته الفتاة التحديق محرّجة مضطربة، وقبل أن يوجّه لها سؤالاً عن الذي تريده و عن سبب وقوفها أمامه، وما قضيتها ، اتّسعت مقلته من هول المفاجأة، وتيبّس لسانه في حلقة، وتقهقر السؤال دون أن يلفظ، بينما أنفاسه ما تنفك تتسارع وتتسارع، ولم يعرف بماذا ينبغي له أن يفكر أو بماذا يجب عليه أن يشعر.

كان كل شيء خليطاً مربكاً في قلبه و عقله، طبقات من المشاعر المتباينة تباينا طفيفاً، ولكنه نهض عن كرسيه كأنه منومّ مشدوداً بحبل غير مرئي لا يراه كلاهما، حبل ينتهي إليها ودار حول المنضدة تاركاً الكتاب مفتوحاً و الرياح تهز صفحاته ، ثم خطا نحوها مصدوماً كأنه قد عرفها، غير أن التصديق بعيد عن متناوله، كان قد انتظر طويلاً إلى أن استحوذ عليه اليأس، ولم يستطع أن يعترف أنه فقد الأمل من مجيئها إلا في هذه اللحظة هذه التي وقفت فيها أمامه. وقفا متقابلين يعلوها بقامته، يحملقان إلى بعضهما كأنهما تمثالان جامدان من الرخام أو ممثلان في مسرحية مأساوية يمثلان لقاءً أولاً أو وداعاً أخيراً ، بحيث تصبح هذه النظرة أثنى ما لديهما، يمثلان دون جمهور أو تصفيق أو مشاهدة.

كما لو أن الزمن قد توقّف، كما لو أنه ليس على الأرض سواهما، كما لو أنه يراها لأول مرة، كما لو أنه يعرفها منذ سنين، كما لو أن مجيئها أمر بديهي مسلّم به، كما لو أن صدمة شلت كل كيانه. هل هي حقيقية؟! أو أن عينيه تخدعانه و ترسمان له فتاة حسناء جميلة لم ير لوجها الفتان مثيلاً، ترسمانها بإتقان ماهر و موهبة خارقة، ما بال عينها سرقت من الليل كحله، ما بال وجنتها خطفت من الزهر لونه، ما بال وجهها اقتبس من القمر ضياءه، ما بال خجلها يزلزل كيانه.

وغرق في أعماق عينها دون أن يستجدي نجاة ، بل إن الغرق فيهما يهبه غبطة لم يتفق له أن ظفر بمثلهما، سوف لن ينسى هذه اللحظة إلى آخر العمر، وسوف يدسّها في عقله أمانة سالمة، وسوف ينظر إليها أبداً كما ينظر إليها الآن مشدوها مأخوذاً ببريق عينها، ضائعاً في لونهما الحالِك.

كان صوت الرياح أشدّ من أن يهمل، على أن الصوت الوحيد الذي يعانق أذنيه هو صوت دقات قلبه المتسارعة وكافح كي يبعد ناظره عن وجهها ، ولكنه لم يستطع كأنّ قوة تشدّه إليه، لكانه سيضيع إذا ما خرج من تقاطيعه كأنه وطنه منذ الأزل وإلى الأبد، وقرأ فيه كل كلمة

أرسلتها عندما كان مهوكا مهزوما معزولا وحيدا تتقاذفه الأحزان ككرة مستديرة، ليست ضبابا، وليست وهما وإنما هي الحقيقة والحقيقة فقط.

و أحسنَ بعاطفة هوجاء متفجّرة مفعمة بالامتنان ليس لما أبدته من دعم و مواساة فيما مضى. لا، بل لأنها قد أتت، من أجل ماذا قضى كل تلك الأشهر ينتظرها؟ الأجل أن يشكرها؟ لا، بل من أجل أن يراها و يحبها و يخبرها كم أنه يحتاجها، و أنها قوته و أمانه، سنده و سلامه، و أنها رابطته الوحيد مع الحياة، و راودته فكرة عمياء، ليت بوسعه اختطافها إلى حيث لا يراها أحد، إلى حيث يسعه التصديق أنها حقيقة.

استمر الجو تحت وطأة الصمت الساحر، و مضى ينظر إليها دون أن يعبأ، كان صامتا لكن عينيه قالتا كل شيء و كان بوسعه أن يرهف السمع إلى خفقات قلبها، فهزمه غروره هاتفا: لا يخفق قلب الفتاة على هذه الصورة إلا لأجل رجل تهواه و تحبه و لا تتورّد وجنتها إلا عندما ينظر إليها رجل أسرق قلبها.

ليس عازما على توجيه أي سؤال عن الذي أعاقها عن المجيء بوقت أسبق، عن الذي ساقها لتغيير رأيها، كان قد طرح تفسيراً آخر مفاده أنها ليست فتاة جميلة، و حيث أن الرجال يعلقون أهمية على هذه النقطة و حيث أن النساء لا يجهلن هذه الحقيقة، فقد لمح بين السطور أنه لا يبالي، و أن قضية الجمال تلك ثانوية ، و توضّح الآن أن الفتاة حسناء بشكل يخطف الأنفاس و يبهت الأبصار و يجعل الرجل يحسد نفسه لأن هذه الفتاة خصّته باهتمامها و منحتة وقتها، لقد أتت و هذا كل ما يهمه.

كانت عيناه لحوحتين مضطربتين بحى غامضة وهما تحدقان إليها، فاختلّ ميزانها و ارتعشت فرائصها و اختلجت أهدابها السوداء و سرت فيها رعشة مجنونة لم تستطع كبحها، و كانت نظرتة دافئة حنونة تنطوي على عاطفة غريبة رقيقة لم تألفها، تختلف عن نظرة رجال عرفتهم و ضاجعتهم، نظرة أبوية رحيمة، نظرة من يريد أن يهب لها الدنيا، نظرة لا تشوبها شهوة ذكورية قدرة، لا تتضمن رغبة مرضية، نظرة مسحت كل شقائها من عقلها. هاتان العينان اللتان أحبتهما من النظرة الأولى والتي لا تستطيع أن تصدق أنهما ينظران إليها، هما ملجؤها بعد أن عاشت ردحا بلا ملجأ، و سدّت أذنيها عن ما سوى أنفاسه واضطراب قلبه. وما عتم أن تناوب الارتباك و الانفعال على وجهها مصبغانه بحمرة الدم.

واستدقّ ضيق خليل من هواجس الشهور الثلاث، و غابت نكبات الأيام الماضية، تجرّ معها الشكوك والحيرة والخوف والغضب، و أحس أن السعادة كلمة لا يسعها وصف شعوره، ففي شعور عابر، أما الإحساس الذي يجري في جسده، فأكبر من السعادة، أقوى من التفاؤل، شعور

غريب غامض، كل ما تزوّد به أنه يسوقه إلى الراحة و الرضا بكل شيء.
ولم يدر بخلده أن يطرح عليها السؤال المتوقع(هل أنت أثيل)، إن قلبه لا يخطئ و قد سارع
ينبئه أنّها هي أثيل، الفتاة التي ينتظرها واعترف لنفسه أنّها كانت تستحق أكثر من مجرد
انتظارها، لقد تحمّل حرّ الشمس و برودة الرياح وزخات المطر، ورغم ذلك لا تعتبر تضحيات
ذات قيمة، لن يسألها إن ما كانت هي، بل يتعين عليه قول أشياء أخرى، ولم يسبق له أن فكّر
في أمور يقولها و ازدحمت الخواطر في عقله تنافس بعضها بعضا.

وأحسّت أثيل أن كل شيء جامد راكد من حولها، كانت تنظر إليه و لا تصدّق أنّها تراه. اذ
كانت رؤيته جزءا من أحلامها فقط، ترى عينيه ، حقيقتين، ليستا جزءا من صورة صامتة في
ورقة جريدة جامدة، إن الصورة اختلست من جمالهما الكثير، و وجهه يبدو أنحف وأنفه
أصغر، السمة الوحيدة المطابقة هي ابتسامته الساحرة. هي سعيدة إلى درجة الخوف، إلى درجة
الضياع، إلى درجة الرغبة في الهروب.

كانت عينها تشيان بها كعميل متنكّر مقبوض عليه، وحيث أن التأتّر طفا إلى السطح،
ساورتها رغبة في البكاء وشعرت بالاستياء من نفسها لشعورها هذا الشعور، هاهو بصحة
وعافية واقف على قدميه، وعندما نظرت إلى الوراء شعرت بالفخر به و الرضا على أدائها الذي
طلما وجدته ساذجا .

لم يكن يراودها حلم ممتع سخّي كهذا الحلم، ولم تكن قد عرفت رجلا يملك تينك العينين
إلا والدها المتوفّي، هاتان العينان اللتان أوقعتاها في الحيرة من أول مرة قابلتهما ثم خطفتا قلبها
وانطبعتا في عقلها ثم أضحيتا تلاحقانه و تطاردانه أينما حلّت أو ذهبت، ولم تشعر أنّها في قلب
الشتاء رغم أن يديها باردتان متخشبتان قرمزيّتان ، بل إنّها في أحضان مساء صيفي دافئ.

هل أصيبت بالكسح؟ إنه ذاته الرجل الذي أحبته، دونما أسباب دونما أهداف، عندما
عادت ذات مساء خريفي مكتئبة محزونة من بحث عقيم عن عمل شريف مناسب، تملأها
مشاعر مُرّة، ثم خطر لها شراء جريدة، فالجرائد وسيلة جيدة لإيجاد وظيفة، و عوضا عن عروض
العمل عثرت عليه، عندما عانقت صورته عينها و داعبت كلمات مقالته قلبها، تذكر يومها أنه
خصّص المقالة من أجل الإحباط و اليأس ويومها تصورت أن المقالة كتبت من أجلها، وتذكر أن
حزنها تبدّد وأعباءها نزلت عن كاهلها و بدأ الشعور بالإحباط يزول تدريجيا .كانت تحيط به
هالة غامضة من المواساة و قوة الإقناع ، كأنه سلّم لها مفتاح باب مغلق عليها، لم تستوعب
كنه انجذابها إليه بيد أنه حصل في الوقت المناسب.

واستطاب النظر إلى وجهها فأربكها الخجل و غصّت طرفها قليلا

- "إلهي ، ما أجملها "هجس ثم رفع صوته و عيناه تبرقان سرورا "كنت أعتقد أنك لن تأتِ أبدا لأنتك غير موجودة، مجرد شبح من عالم آخر يكتب الرسائل، ولكنك حقيقة و حقيقة جميلة أيضا" وازدادت حدة خجلها وتفاجأت بيده ممدودة لمصافحتها ، فترددت ثم مدت له يدا مرتجفة ،مدتها بجهد و ثقاقل كأنها تخشى أن تفضح ارتباكها و عندما لامست يده يدها أحست بقشعريرة دافئة .

- "خليل، أنا خليل، و أنت بالطبع فتاة الرسائل أثيل ألسنت مصيبا؟" وظهرت أسنانه البيضاء من وراء ابتسامته المشرقة .

غير أنها لم تنبس بكلمة ثم هزّت رأسها إيجابا متحاشية النظر إلى وجهه، كانت مذهولة تقريبا .

- "أنجلس؟" قال و انحنى قليلا، و سحبت يدها ثم مشت نحو الكرسي محرجة المحيا، و ساد صمت طويل بينهما، و كأن دهرا قد مرّ منذ أن اتّخذت مكانها على ذلك الكرسي الذي تبين أنه فعلا يصدر صوتا مزعجا كصيرير الأسنان، و حاولت السيطرة على أعصابها و رجفاتها و نالت نصيبا من النجاح عندما شعرت بطرفه يرفع عنها و نظرت إلى نقاط أخرى، عندئذ كانت تختلس النظر إليه خفية

- "أليس الجو باردا جدا؟" إنه يعدّ سؤالا استهلاكيا للتخلص من الجو المثقل بالصمت والتوتر، كما يعدّ حلا سريعا لمسألة عدم إيجاد شيء ليقال، وكذلك نوع من المقدمات لأحاديث يستحسن تأجيل الخوض المباشر فيها وحيث أن الفتاة الجريئة الشجاعة قد اختفت، الفتاة التي كانت تعامله كأنها صديقه منذ أيام الطفولة، و لم يبق منها إلا عينين مطرقتين ووجنتين محمرّتين و يدين مطمورتين في حجرها. فمن المستحيل مفاتها بأي موضوع يرغب في فتحه بأسلوب مباشر، يتعين عليه أن يبحث عن نقاط يعبرها إلى ذلك.

- "أشرقت الشمس صباحا، وهاهي الآن تغيم من جديد" ثم رفع رأسه و نظر إلى السماء كانت أثيل قد خططت بالليلة الماضية لأمر ينبغي أن تقولها و أخرى تتجنب قولها و حركات وأفعال لا ينبغي الإتيان بها، ولكنها ضيعت كل شيء، كأن كل ما خططت له أضحي لغزا محيرا، إن التخطيط و التنفيذ أمران مختلفان، بالطبع إنها لم تتبلغ مواعظ المرشدة سميحة، و منذ البداية لم تأخذ كلامها على محمل الجد، بل مجرد مسامرة لغورها، فهي صعبة المراس متشددة في آرائها كأنها متطرّف ديني، و يصعب تحمل زيقها عندما يتنكر المرء لنصائحها، وحيث أنها لا تشعر شعورها و نظرتها نحوها مختلفة فليس بوسعها فهمه. وقد أطلقت أحكام جاهلة بشعة عليه، إنّه مختلف عن أي رجل آخر، هي تدرك أنه مختلف، رجل شريف نزيه

مهذب، رجل لا ينزل إلى مثل تلك المنزلة ولا ينزلق إلى تلك المستويات، وحيث أنه اعترم عدم توجيهه أي أسئلة من شأنها إرباكها فقد وجه لها سؤالاً عادياً

ـ "غريب كيف لم ترافقك السيدة سميحة، إنكما لا تفتقران حسب ما أعرف، ألم تصرّ على مرافقتك؟" قال ذلك وابتسم، مثل صديقين قديمين متناغمين يتشاركان الأصدقاء والمواقف والذكريات، لقد صنعت الرسائل رابطاً متيناً لم يعتقد كلاهما بوجوده، وعندما ذكر الاسم المتصل بالمشاكل والفكاهة، ابتسمت بدورها و بفعل الابتسامة برز على الجانبين غمازتين جذّابتين، و بصوت خافت هادئ أجابت

ـ "رافقتني إلى المحطة ثم انصرفت".

ـ "هل لها يد في قرار مجيئك؟، هل هي من أقنعتك بمقابلتي" و فجأة أحسّ أنه ارتكب خطأ عندما استعجل طرح هذا الاستفسار وقبل أن تجيب، تكلم ثانية

ـ "أسأل عن وجهة السيدة سميحة، كان الله في عون من ستنضمّ إليهم الآن، هل تعرفين إلى أين ذهبت؟".

لقد كان سؤالاً مضحكاً على أية حال واستوعبت المغزى، فمعظم الرسائل تضمنت في فحواها مغامرات طريفة لسميحة. ولهذا من الصعب عليها خنق ضحكها

ـ "قالت أنّها ستصطحب إحدى السيدات إلى مكتب أحد المحامين ثم تعود لتنتظرنني".

ـ "تقصدين محام طلاق جيد، على الأرجح أن السيدة سميحة تعرف زمرة مهمم، فقد اتفق وعرضت هذه الخدمة على زوج السيدة... ما كان اسمها؟".

ـ "السيدة حسناء" وتخلّت عن حالة التوتر العام، بعد أن تحاشت النظر إليه لفترة من الزمن، أصبح بمقدورها الجلوس بارتياح، ورفع رأسها.

ـ "أجل، أجل، ذلك هو، مديرة مركز علاج الإدمان، كانت تودّ أن تسدي لزوجها تلك الخدمة، أخبريني هل من مغامرات أخرى، أقصد هل اصطحبتك إلى أي مكان آخر؟، أفكر دائماً أن الأماكن التي تقصدها السيدة المحترمة غريبة بالنسبة إلى كونها امرأة، إلهي، ما أغربها" فابتسمت، لم يكن مهتماً إلى ذلك الحد بمعرفة هذه التفاصيل، أو أن يتعاطى حواراً تكون سميحة مداره أو طرفاً فيه، ولكن الحاجة ألجأتها إليها.

ـ "ذهبتنا آخر مرة إلى مركز المسنين"

ـ "وأحدثت شجاراً مهولاً مع مدير أو مديرة المركز" تكهّن بالنهاية منتبهاً إلى أن اضطرابها الأول أخذ بالتلاشي تدريجياً، و اندفعت في موجة من الضحك متألفة غير مكترثة

ـ "أجل، أجل، تشاجرت ووصفته بالغوريلاً"

"أحقا، لماذا انتقت له هذا الوصف؟".

_"كان ضخما جدا، كما أنه تسبّب في إغضابها عندما أبدى ندمه لاستدعائها، قال أنها سيّدة طائشة، وطبعاً لا توافق السيدة على مثل هذه النعوت" كان يراقبها دون أن يفصح تعبير وجهه شيء من العاطفة المختلجة في صدره .

_"كما جعلتني أشرك في احتجاجات لإقالة رئيس البلدية من منصبه طبعاً، وضّحت لي الوجهة عندما تغلغلنا في وسط الحشد، هناك شرحت لي في آن واحد الوجهة و الظروف المتعلقة بالاحتجاج" تابعت بتلقائية وبطء

_" لا شك أن الشرطة تدخلت و حاولت فضّ الاحتجاج "قال متصنعاً الاهتمام .

_" هذا ما حدث بالضبط، لقد تدخلت الشرطة سلمياً وعندما ابتعدنا كانت قد شرعت في استعمال العصي والقوة " لقد سلك المسار السليم عندما افتتح الجلسة بمسائل تتعلّق بهذه المرأة، فلقد برقت عينا أثيل بريق عاطفة خالصة، عاطفة حب واحترام.

_"لم يقبض عليكما على الأقل، كنتما ستهيبان إلى السجن بتهمة إحداث الفوضى والتجمهر غير المرخّص" وعند ذكر كلمة السجن تأرجحت تعابير وجهها ما بين الخوف الضنين والدهشة الواهنة .

_"هل تخافين من السجن؟" سأل بخليط من الجد والهزل .

_"إنه مكان مخيف ومعتم "عبّرت بسداجة" إنه يقع تحت الأرض، ويشاع أن المعاملة رديئة وهو بارد جدا في الشتاء، والطعام سيء والرعاية الصحية متردية، والهواء فاسد، كما أنني قرأت أموراً مفزعة "وصممت لشعورها بأنها تكلمت أكثر مما هو مطلوب .

_" وفيه جردان من الصنف التي تلتهم البشر أثناء النوم "عقّب بصوت قريب إلى الهمس مميلاً جسده إلى الأمام، رافعا حاجبيه في تعبير فكاهي "وصراصير ليست مسالمة، ذات حجم كبير يقال أنها تميل إلى مهاجمة العيون، وأرواح شريرة لأشخاص وافتهم المنية قبل انقضاء العقوبة، إنهم ينتقمون من السجناء الذين يحتلّون أماكنهم، لهذا يصدرون ضجة، ويعملون على إفزاعهم "و عندما قرأ نظرة الاستغراب في وجهها أطلق ضحكة قصيرة .

_"إنني أمزح معك فقط مثلما تمزحين أنت ، يدور بخلدني أن أستوضح كيف تسمح والدتك العظيمة للسيدة باصطحابك إلى هذه الأماكن التي من شأنها تعريضك للخطر، لست واثقا من استحسانها هذه المغامرات ."

_"إنها لا تدر، فالسيّدة سميحة تسمي كل عمل بالمهمة السامية، والأعمال الخيرية".

_"أنا متأكد أنها تسألك عن ماهية المهام السامية بعد عودتك، الأمهات أبداً يعيشن الشرح

الدقيق و التفاصيل الصغيرة، أشك أنها تنتظرك لتلتقطي أنفاسك، وتبدأ التحقيق معك بمجرد دخولك من باب البيت ."

- "أجل، إنها تحقق" أجابت و مسحة من تأنيب الضمير تطغى على صوتها "غير أنني لا أخبرها الحقيقة، لأنها لن تسمح لي برؤية السيدة سميحة مرة أخرى، في الواقع، أنا أوضح لها أننا كنا نؤدي عملا جيدا يصبّ في صالح بعض الناس المساكين، و بهذا أتجنّب الكذب عليها، وهذا صحيح بنسبة معينة، إن أمي تقلق باستمرار أكثر من أي أمّ أخرى. كما أنني مقتنعة أن السيّد سميحة لن تعرض حياتي لأي خطر، إنها تحبني كثيرا مثل ابنتها و تفعل أي شيء لأجلي"

- "وهي مكمّن الأسرار" عقّب بنبرة مآكرة

- "ليس لدي أي أسرار"

- "ألست سرا؟، هل تعرف والدتك بوجودي؟ و شقيقتك هل تعلمان؟".

- "لا أستطيع إخبارها، ولكن السيدة سميحة تعلم" وابتلعت ريقها بصعوبة، بينما اصطبغت وجنتاها بلون الاضطراب الوردى الطفيف.

- "إذا فلديك أسرار تخفيها، لم تنل شرف معرفتها إلا السيّد سميحة" و على نحو غير مخطّط له، تذكّرت سرها الخطير المقزّز و أغمّتها الذكرى فشحب وجهها قليلا و تغيرت سحنتها و أريدت شفاتها و حملقت إليه نظرة تشي بتأنيب الضمير.

- "هل أزعجتك؟ استفسر بلهجة معذرة" إنني أعتذر إن كنت قد فعلت"

- "لا، لم تزعجني" و صدر عنها صوت واهن تعب، لقد توصّل إلى بعض النتائج المحيرة، و كنتيجة أولى استنتج أن في أعماق عينها يكمن حزن جلي على أنه لم يكن سر هذا الحزن.

- "لست مضطّرة إلى التنازل عن صداقة السيّد سميحة، فرغم تهوّر أحسبها امرأة لطيفة طيبة، ولا يعدّ كذبا إن ما أخفيت بعض الحقائق كيلا تثيري قلق والدتك، هناك أمور ينبغي أن نحتفظ بها مطمورة، ليس لأننا كاذبون، بل لحرصنا الشديد على مشاعر من نحبهم، أحسّ أنك تشعرين بوخز الضمير جراء اعتقادك أنك تسيئين إلى والدتك. لا لست كذلك، لا تخبري أمك أبدا بما يجرحها و يجعلها تخاف، فأنت لن تكسبي إلا مزيدا من قلقها عليك".

لقد كان مصيبا، فهي تشعر بوخز الضمير ليس بسبب إخفائها مغامراتها الخفية عن أمها، بل بسبب إخفائها أهوالا أخرى، و عنه هو بالذات، وخالجها شعور بالارتياح بفعل كلماته، فاسترخت تقاطيع وجهها

- "سأفشي لك سرا صغيرا، سرا أخفيته عن والدتي، ليس لرغبتني في الكذب عليها، بل تفاديا لجرح قلبها" نظر بعيدا ثم تابع "كان لي شقيقة صغيرة"

_ "كيف؟ ليس لديك أي أشقاء يا سيّد خليل "قاطعته بسرعة، ولم يجفله إلا لفظ السيد المباغت فقوّس حاجبيه في امتعاض صريح وإن كان قد انزعج فلم يعمد إلى إظهاره .

_ "سيّد؟ عزيز من كنت إذا ! كنت أعتقد أنني خليلك و عزيزك " و تحوّل وجهها إلى كتلة قرمزية مجددا، ماذا قالت أيضا في غمرة الاندفاع عندما كانت تكتب أي شيء غبي يخطر على رأسها كأنها كانت تحاور نفسها ؟، و نقّبت في مواطن ذاكرتها السحيقة و أسفر البحث عن بعض الارتياح: الحمد لله أنها لم تقل حبيبي.

_ "سأظهاره بعدم سماعك يا عزيزتي الرقيقة الآنسة أثيل " علق بهزل وعاد مسرعا إلى موضوع شقيقته "ليس لدي أشقاء هذا صحيح، لكن منذ سنوات خلت كان لدي شقيقة، توفيت عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، كانت تصغرنى بخمس سنوات، وإلى الآن محفورة بذاكرتي ملامح وجهها، أتذكّر عينها الخضراوين بلون العشب، وشعرها الكستنائي القصير، الذي كانت تبكي عندما تقصّه أُمي، أتذكّر أنفها الذي كنت أجده كبيرا بحيث أطلق حملة تحرّش واسعة بأعصابها الحساسة جدا، لم أكن أتركها إلا باكية شاهقة ".

_ "كيف ماتت؟ "

_ "عندما كنا عائدين من المدرسة رفقة أبي، حدث أن شعر بالملل أو ربما كان سعيدا جدا، لا أعرف مالذي أصابه يومها فتحدّاهما قطع الطريق بدوننا، و إن ما فازت سيشتري لها فستانا أصفر مطرزا، كانت فورتها قد ألحّت على شرائه، طبعا اندفعت دون تفكير لتثبت له أنها جديرة بالجائزة. وكانت تلك آخر أمنية في حياتها. دهستها سيارة مسرعة و ماتت فورا، لو أن أُمي علمت برهان أبي لما سامحته أبدا، لقد أخبرتني كذبة صغيرة عندما قلت أن أختي البريئة قطعت الطريق لتنقذ هرة صغيرة من العجلات ".

وارتعشت دمعة على الأهداب السوداء و تغلغل الألم إلى صدرها، ولو أن شخصا آخر روى لها هذه القصة الحزينة لبكت فورا، على أنها كبحت عواطفها وهدأت من نزعة البكاء التي ما انفكت سميحة تؤنّبها لأجلها: إنك تبكين أكثر من الأطفال الرضع يا أثيل، تبكين أي قصة وأي موقف مؤثّر، تخلصي من هذه العادة البغيضة. حسنا، إنها لن تذرف دمعة واحدة .

_ " لا شك أن والدتك حزنت لفراقها " علقبت بنبرة متأثرة

_ "لم تتمكن من نسيانها، و ما عمت تقحمها في أي حديث، قبل وفاتها بأيام، قالت لي إنني اشتاق لأحتك يا خليل، و إنها تتردّد على أحلامها في الآونة الأخيرة، لم أعلم أنها ستلحق بها " وأطلق تنهيدة فيها شيء من المرارة ثم تبادلنا نظرة صامتة حزينة .

_ " حافظي على أمك يا أثيل، اعطني بها جيدا فعندما تذهب الأم يتحطّم جزء كبير من حياة

الإنسان، ويغدو العالم جافاً خالياً من أي عاطفة حقيقية، لن تعرفي شعور مجوّفاً أسوأ من ذلك".

- "إنني أحبها وأفعل أي شيء لأجلها، لقد تولت رعايتها بعد وفاة والدي ولم تنقطع عن ذلك العمل إلا عندما ألمّ بها المرض وأجرت عملية جراحية، أعاقتها عن العودة لأي نشاط من شأنه إرهاقها".

- "متى كان ذلك؟"

- "منذ سبع سنوات تقريباً"

- "ومن تولّى المسؤولية بدلا عنها، هل لديك أقرباء؟"

- "لا، ليس لدينا أحد، لقد توليت أنا مسؤولية المنزل" وفكر قليلاً ثم قال بحيرة

- "يفترض أنك كنت تدرسين، كيف استطعت أن تأخذي على عاتقك كل ذلك العباء؟".

هذا السؤال جيد، لو كانت علاقتهما متوطّدة لكن الوقت مبكّر جداً لإعطائه جواباً صادقاً

- "بالإضافة إلى الدراسة، أمّنت لي إحدى رفيقاتي عملاً"

- "أي نوع من الأعمال؟"

صدرت عنها شهقة مكتومة وانكفاً لونها وجهها، ليس هذا ما تريد الحديث عنه "إنني أسأل كثيراً على ما أعتقد، ولكنني مهتمّة بمعرفة أكبر قدر ممكن من الأشياء عنك" وتحقّز انفعالها وكأن حبلاً يلفّ عنقها وأحسّت أنها تجلب الكلمات من بئر سحيق، ستضطرّ للبدء بالكذب بوقت مبكر وهو رجل يكره الكذب، غير أن خطابه الأخير عن إخفاء بعض الأمور من أجل الحاجة شجّعها على تلفيق كذبة مناسبة وعندما شرعت بإلقائها، أبعدت عينها عن وجهه لشعورها بالإثم ونظرت إلى شجرة الصنوبر خلفه .

- "عملت ذات مرة بمطعم، ومرة في محلّ لبيع الثياب، في الواقع "ابتسمت ابتسامة حزينة"

اشتغلت في مهن عدة، كنت أتنقل من واحدة لأخرى، كان الوضع صعباً، كما أن أمي كانت بحاجة إلى أدوية بعد إجراء العملية".

- "وماذا عن مصاريف العملية، من أين وفرت المال؟" ليتها يكفّ عن طرح الأسئلة الصعبة

كي لا تضطرّ للكذب عليه أكثر

- "أجرتها في مشفى حكومي" كانت الكذبة جاهزة على رأس لسانها لذلك قالت العبارة بسرعة

فردّ ساخراً "لم أعرف أنهم يجرون عمليات مجانية كتلك في المشافي الحكومية، هل نعيش

في بلدين مختلفين" وتابع فيما غمره شعور بالشفقة

_ "لقد تحمّلت مسؤولية كبيرة جدا، بوسعي الشعور بما عانيته".
وفجأة عنّ لها إخباره الحقيقة كما هي، لولا أن قلبها حدّرها أن الوقت غير مناسب، ستخبره ذات يوم عندما تتحقّق أنه يحبها حقا إلى الحد الذي يستطيع فيه ابتلاعها و إلى ذلك الوقت يتعيّن عليها التزام الصمت و ابتداع بعض الأكاذيب البيضاء . أجل انها أكاذيب صغيرة، لأنها تطمح إلى عدم جرح قلبه تنسجم و الذي كان يقوله .

_ "إنك مدعاة للفخر" قال مطريا فخورا، فيما أشاحت بوجهها ،عندما ومض في عينها بريق حزين غامض، على أنه قرأه قبل أن يمكنها إخفاؤه "لا تحزني، لقد مضت تلك الأيام، وها قد نعمت بوظيفة محترمة،، لم يكن بوسعك الاختيار، كنت مجبرة على امتحان تلك الأعمال، ثم إنها ليست مدعاة للخجل. دعي رأسك دائما شامخا، إنني سعيد بالتعرّف عليك، و أراهن أن أمك وشقيقتيك فخورات بك".

وقفزت إلى عقلها صورة شقيقتها ميرنا بنظراتها المشمّزة المدجّجة بالكراهية، بكلمات حاقدة تنبعث من بين شفيتها، بحركات متوعّدة وقحة نكدة تتهدّد سلامها، و حيث أنها لن تعترف حتى لنفسها بتلك المشاعر الراكدة أجابت باطمئنان أن نعم، إنهن يفتخرن بها ثلاثهن، يحرصن على عدم إزعاجها، وكنّ على الدوام يقدرنّ ما فعلته لأجلهن، و يكبرن تضحياتها، وخاصة شقيقتها الوسطى. كانت هذه الكذبة ثقيلة على كاهلها، ووجدت نفسها محاطة بصورها في جميع حالاتها الثائرة، المتقززة، المستشيطة غضبا، الحاقدة، و كلما حاول المرء إخفاء ألم ما، ارتفع صراخه المكتوم أكثر فينعكس على العينين وواضحا.

_ " يبدو أنني أثرت جراحا صامتة، هل كانت بذلك السوء؟"
_ "نوعا ما " قالتها بصوت خافت متألم كشخص ينزف " كانت واجبا وليس خيارا، هناك أمور لا تختارها بل هي من تختارك، وهناك أبواب تتمنى لو أنها فتحت في وجهك بينما لا ينالك إلا الأبواب التي طالما فكرت أنها الجحيم بحد ذاته و أنك لن تقابلها أبدا في لقاء حتمي".

_ "حدثيني عنها يا أثيل" قال و وجهه ينمّ عن حرارة المواساة "أودّ مشاركتك كل اللحظات الماضية الصعبة التي لم أكن جزءا منها وأشارك أيامك القادمة وكل ثانية من حياتك،، شاركييني متاعبك، حدثيني عن أي شيء يجثم على قلبك و يؤرق راحتك، أذكر أنك حدثتني في رسالة مقتضبة عن ذلك، و لكنك لم تسترسلني، دعنا نتذكّرها الآن للمرة الأخيرة ثم امنحها النسيان إلى الأبد، ستخفّف عنك هذه الطريقة، أفضي إلي يا أثيل " و بفعل تعاطفه الداعم تتوّجت أثيل بتاج من العزاء و ظفر قلبها بشعور سار. و أدركت لأول مرة بعد وفاة والدها معنى ما قالته السيّدة صفية، معنى أن يكون رجل شجاع بجانبك رجل يواسيك و لو بالكلمات

ويرفع من معنوياتك ويسندك ويؤازرك دافعا لتقلبات الحياة، لأنه خلق قويا من أجل صدها، و يحاول أن يخفف من وطأة الأحمال، وأن يمحو كل ذكرى سيئة تشبثت بعقلك، ويقذف بها إلى جحر غائر ثم يغلقه بإحكام، رجلا تستطيعين الاعتماد عليه وهي التي لم تذق طعم وجود رجل منذ أن قضى والدها، ويسوقك إلى بر الأمان حيث لا يتهدّدك شر ولا فاقة ولا جوع ولا تطمع فيك عيون جائعة ولا تجرّك أياد قاسية إلى سرير الخطيئة، ولا تشتهيك النفوس الفاسقة، رجل تقفين خلفه دون أن ينتابك خوف وهلع من الغد ومن المستقبل الغامض، يرداك ويربّت على ذراعك ويطمئنك أن الدنيا بخير وأن أحضانه هي الوطن وبيته هو الملجأ، صادق لا يقول فحسب، بل ينقذ أيضا، وأحست بدافع من الارتياح ونوع غريب من الشعور الرضي _ "لا أودّ إزعاجك، لديك ما يكفيك".

_ "لا تكوني حمقاء يا أثيل، ليس لدي شيء، لن ينفعلك التهرّب، ستسردين علي" وخلا وجهه من هالة المزاح التي ظهرت عليه عندما بدأ الحديث وحلّت محلها صرامة واهتمام .
_ "حسنا، كان أبي عامل بناء بسيط، و نتيجة استهتار ربّ العمل و نتيجة أن وسائله كانت بدائية غير آمنة تعرّض لحادث أثناء العمل، و لفظ روحه قبل أن يبلغ المستشفى و تدخل أيادي الأطباء في محاولة لإنقاذه، فضلا عن أن المكان كان نائيا يقع خارج المدينة. ولم يخلف لنا إلا البيت القديم، وكانت حالته مدعاة للشفقة، و حيث أننا لم نملك أقارب ازداد الوضع سوءا. فاضطرتّ أمي للعمل، لم يكن سهلا عليها أن تجده، تمسّكت به رغم الظروف المغالية في السوء" و تهنّدت عندما أمضتّها ذكريات أمها، و استرعى انتباهه التهنّشّم في صوتها _ "أكملي يا أثيل".

_ "و ما لبثت أن مرضت هي الأخرى" استطردت "و كان وضعها معقدا بحيث احتاجت إلى إجراء عملية مستعجلة و إلا خسرتها، و هكذا فقدت وظيفتها و ألزمتها المرض الفراش، وفي سبيل أن يصبح الوضع أسوأ انهالت علينا بعض المشاكل التي اختارت وقتا سيئا جدا لتحضر، فعمدت إلى البحث عن عمل من أجل توفير الدواء لها، و الطعام لشقيقي، و حاجيات المنزل التي لا تنتهي" و احتشدت الذكريات المريرة مصفوفة كأجمة الأشجار "وجدت عملا، حسنا" و سرعان ما تهنّدت نبرتها "عملا،،،،، محترما" و بلعت ريقها بصعوبة مطرقة رأسها، عاصرة عينها، إن الكذبة التي أطلقتها منذ قليل علقت في حلقها فأحسّت بمرارة كمرارة العلقم تجتاح خيالها، وفي سبيل أن يتصلّب وجهها عادت إليها صورة الرجل ذي العينين المخيفتين الشيريتين والوجه النحيل المهم، وأحسّت أنها مبعثرة، أنها كتلة ضخمة من الخجل والخوف و الرجفان، وأنّها في تلك الشقة قليلة الأثاث ثانية تتلوّى ذعرا، تترنّج كغصن عار أمام ريح عاتية و تذكّرت رائحة

أنفاسه الرديئة ويديه عليها كيديّ كافر سامد، ونظرته الفاسقة وسلوكه المبتذل وكيف حطّم عقّتها، لقد اشتهاها وحصل عليها، بينما كانت تتلوى لتفلت جسدها من ذراعيه المطبقتين المصممتين على نيلها وإخضاعها، والرجال الذين أتوا من بعده ليسوا أوفر منه شهامة، كانوا جميعا يتقاسمون الأوصاف ذاتها، سلوك حقير ونظرات قدرة، طريقة عدائية همجية عنيفة في المعاملة .

_ "ساعدتني إحدى صديقاتي في العثور على عمل سبق وأخبرتك بطبيعته، كنت أتحمّل ما استطعت"

_ "هل أساءوا معاملتك" قاطعها مغتمًا محملقا إلى وجهها

_ "أحيانا، لكنني أستطيع التحمل" صرحت ببؤس وأضحت لهجتها خاسفة واهنة" طالما هناك ما ينتظرنني ويتوقّع مني، كانت صور أُمي وشقيقي تدفعني إلى تحمّل أي مهانة أو إذلال أو أي معاملة من أي نوع، ذلك لم يكن مهمًا، لقد تحمّلت ما كان يجب أن أتحمّله وفعلت ما كان يتعين علي فعله والحمد لله أننا تجاوزنا الأزمة، وانتهى عهد تلك الأيام" وفي فترة من السكون تأملها بعناية معتلّ النفس، مشفقا، وفكر أن قصائد الغزل العفيف والأغاني الشاعرية وأبيات الشعر البارعة إنما استوحت كلماتها بإلهام من وجهها الحزين الحسن.

إن هذه الصبية الفاتنة الرقيقة اللطيفة خلقت لتكون أميرة، لتعامل بعدوبة كأنها نسمة هواء عليلة، لتخاطب برفق وحنر لئلا تخدش مشاعرها وتُقبّل أيادها كلما أتت عملا أو منحت شيئا، ويغالي في تدليلها وتصطحب إلى التزهات والجولات وتجوب العالم لتعانق عينيها جمالا ناصعا مثل جمالها، وترتدي أفخم الحلل العصرية، والثياب المنسقة ذات الألوان الفاتحة التي تنسجم وبشرتها البيضاء كالقطن، متلائمة مع قوامها الأهيف، وتُلبّي طلباتها دون نقاش، ويحني عليها كما يحني على طفل صغير مدلّل مرهف الإحساس، وليُبشّ في وجهها، وممنوع الصراخ عليها أو جرح قلبها النبيل الرحيم الصادق.

إن هذه الصبية خلقت لتمنح الحب وتكرّم كالمملكات ويُضعى في سبيلها بالوقت والمال وحتى النفس إذا اقتضت الضرورة، خلقت لتضحك وتبتسم، لا لتحزن وتكتئب، إن لها شفتين جميلتين يستصعب المرء أن يلمحهما تعبسان، وعينين رائعتين لا ينبغي أن تسفحا دمعة واحدة، هذه التي تنعم بأكبر قدر من الكبرياء ومهابة الروح، الشجاعة التي تصدّت لنكبات الدنيا وسلخت صباحها في أعمال لا تليق بيدين كيديها، فقط لتحفظ أهلها من الموت والفاقة والجوع، فتاة يتجاوز عقلها الخمسين بينما سنّها لم يبلغ الثامنة والعشرين وهذا ما يرفع مقامها في قلبه.

لقد عانت من فقر لم يعرفه و من جوع لم يَخْبُرُه.و بينما كانت حياته تتلَوّن بألوان زاهية مبهجة بين أحضان والدين مقتدرين ميسوري الحال، ثرين تقريبا إذا ما قيس بفقرها.كانت حياتها قاتمة مملوءة بالأعباء، تنوء كتفاها بالأحمال الثقيلة،و بدا له جليا أن عينها سكبنا دموعا لا حصر لها، وأنها سهرت ليال كسيرة القلب كليمة الروح مثخنة بالجراح التي تحرص على مداراتها. وانتصب بين عينيه مشهد الفتاة المكافحة التي تستيقظ كل صباح لكسب القوت، وتبعد شبح المرض والجوع الطارقين بعنف على الباب وتحارب بيدين ضعيفتين واهنتين مفتقرتين إلى القوة والمقدرة. تصارعان في دنيا شرسة.

إنها كائن هادئ رزين يستدعي الجرأة و الشجاعة فقط من أجل الآخرين العاجزين، وصفات أخرى لا تمت لطبيعتها بأي صلة، فتتغير لأجلهم و تضي على نفسها مظاهر البأس و الشدة بينما هي هشّة ضعيفة، تماما كما فعلت معه، يوم احتضنته جدران الغرفة الموحشة القاتمة بستائرها المسدلة وضوئها المنطفئ، هذا فضلا عن كونها خجولة حيية مطرقة الرأس، محمّرة الخدين، تبلّل شفثها اليابستين من حين لآخر وتتنقّس تنفسا شاقا و يكاد جسدها ينتفض من فرط الارتباك.

كانت تتكلم بهدوء مفرط و صوت بطيء مع مدد من الصمت واختفاء تامّ ليديها، إنه لم يرها بعد تلك المصافحة الحازة، تجيب على الأسئلة بالحد الأدنى من الكلمات، كما أنها لا تتكلم دون أن توجه إليها الأسئلة، و لو أنه عرف أنها تشعر بسعادة عظيمة لوجودها معه وأنها في جوف حلم سار بهيج زاه، لكان من دواعي ابتهاجه ،ولكنه لا يعلم عن حجمها إلا شيئا يسيرا. وما حزّ في نفسه و كدّر متعته بلقائها و أشعره بالأسف المنغص أنها حرمت من متعة الصبا واللهو و الضحك كقرباناتها عندما فرضت عليها سلطة أكثر نفوذا منها، و عوضا أن تمدّ يديها لتستقبل مالا وهدايا، كانت هي من تمنحهم راضية قانعة، وأنه بدل أن يُشتغل لأجلها، اشتغلت هي لأجل غيرها، وهي لا تزال فتاة فتية غريبة.

وبدا جليا أنها فتاة متحفظة قليلة الشكوى منكرة لذاتها تترفع بميزة الإيثار، تقنع بكتف أتعابها و طمر آلامها دون حاجة إلى التخفيف أو البوح بها، حتى سميحة هو واثق من عدم علمها بهذه القصص إلا بالقدر الذي حصلت عليه بالتحايل المثابر، والإلحاح المتواصل و الإصرار الفعال، أما أفراد العائلة و شأنها كالبؤساء جميعا، فقد حجبت عنهم همومها لئلا تهزّ طمأنينتهم و تثير قلقهم ،والله وحده يعلم كم تظاهرت أنها بخير بينما لم تكن كذلك، تقابلهم بابتسامة عريضة تسوقهم إلى الاعتقاد أنها على ما يرام، و أنها سعيدة بالأحمال و الأعباء فيما هي متييسة من التعب، خائرة القوى، عليلة الجسد، منخعلة القلب، سحقت نفسها كلمات نائية ومسبات

وشتائم وسوء معاملة تتخلّص من تأثيرها عند عتبة الباب.

وما قصة سوء المعاملة تلك؟ من غير المجدي أن يتنكّر للحوادث التي تدار حول استخدام العمال، لقد تعرّضت للزجر والتأنيب والتوبيخ، كما تعرّضت للتهمكّم والصراخ المتواصل في وجهها والإذلال والإهانات والمعاملة الجافة وإلقاء الأوامر بعجرفة وغطرسة، ليته عرفها قبل الآن بوقت طويل، عندما كانت بحاجة إلى كتف تسند عليه رأسها وإنسان تبوح له بما يختلج صدرها ويؤلم روحها، عندما كانت الدنيا وصعابها تتكالب عليها بأصدأ أنواع النكبات واستحوذ عليه شعور بالضيق وتجدّدت تعابير وجهه و طفر من عينيه حزن ضار ولوعة شارخة، حيث برز لها عدم الاسترسال بغية تجنّب نفسها وإياه إحياءً للمعاناة القديمة؛ لأن ما يؤلمه، يؤلمها أضعافاً.

وودّ بقوة أن يفتح لها قلبه ويثني على جمالها ويصارعها أنه معجب بها، معجب بعينيها الساحرتين ووجهها صاحب الجمال، وشفقتها المغربيتين، على أن في مسحة وجهها الخجول ما يمنعه من الإفصاح، وودّ أن يخبرها كم هو عظيم شأنها، كم رحيم هو قلبها، كم ناعمة هي رسائلها وأنه تصوّر أن أمه هي السيدة العظيمة الوحيدة إلى أن قابلها فعرف أنها تضاهيها قدراً.

وبفكرة خاطفة رسم خططا للمسار الذي سيسيران عليه، سيصرّ عليها لتبادله كتابة الرسائل، ومقابلته كل أيام السبت من الآن فصاعداً، ويتحدثا عن كل وقائع الماضي لاهتمامه بمعرفتها جملة وتفصيلاً، مهتم بمعرفة الأمور التي تحبها وأمانى قلبها وأحلامها، يريد أن يستمع إلى مشاكلها ويبادر إلى حلّها ومشاركتها عن طيب خاطر في حمل المسؤوليات، ويقتسم معها مسائل حياته الرئيسية دون أن يقلقها بمشاكله ويستشيرها ويعطيها الأولوية والمكانة الأولى ويبوح لها بأسراره ويسوقها إلى التعافي من جروح الماضي، من الذكريات السقيمة التي تدور في رأسها كما تدور عقارب الساعة، لأنها غالية عليه، يؤلمه أن يراها تتألم ويزعجه ضيقها.

وسأل نفسه للحظة إن ما كان يحبها؟ لم يتّفق له أن تحمّل عناء طرح هذا السؤال، لأنه كان متلهفاً للقاءها فقط وحيث أنه انشغل بالخاطرة غفل عن ما سواها، هل أحبها؟ سأل نفسه، وأجاب أنه لا يعرف على وجه التحديد ما يسى شعوره نحوها، وإن الوقت لا يزال مبكراً لإعطاء جواب محدد، لكن الآن لكونها موجودة، بحسن أخاذ وحياء مرن وبراعة خلقية تتغذى من منبع أخلاقي رفيع وتحمل الصعاب وتأخذ الواجبات دونما تذمّر، وإنها جوهرة نفيسة بأدب جم وعزة نفس وكبرياء ورجاحة عقل تماماً كالنوع الذي يفضّله من النساء، فإنه واثق من قرار واحد لن يتنازل عنها مطلقاً مهما حصل.

سيبدأ من هنا من هذه النقطة سيثبت لها بالدليل الملموس أنه جدير بثقتها وكما أزرته في محنته سيؤازرها بدوره

_ " لقد ولّيت تلك الأيام، وبوسعك من الآن فصاعدا الاعتماد علي "قال بعطف ورقة واثقة، مرنا ، بعد فترة من الصمت "هل تصغين أنا موجود، ليس عليك أن تتحملي لوحديك " _ "أشكرك "قالت باقتضاب.

_ "أنا من ينبغي عليه شكرك "قال بامتنان "لقد فعلت الكثير لأجلي، يعلم الله أنه لولا مبادرتك، ربما لا أزال رهين تلك الحالة الصعبة، لقد دعمتني عندما تخلّى عني الكثيرون ممن اعتقدت أنهم أصدقاء مخلصون وإخوة أوفياء، ووهبتني وقتك وجهدك، واهتمامك وطاقتك، وطرقت عني شبح العزلة وعمدت بروحك الطيبة وقلبك النبيل إلى تقديم يد المواساة، انظري إلي يا أثيل "فرفعت طرفها وقابلت عيناه عينها، عينان سوداوان منفعلتان و عينان بنيتان فاتحتان مطمئنتان " كنت أعتقد أنها النهاية، نهاية الطريق، ويا لها من نهاية موحشة غير منصفة، إلهي ،كم كانت قاسية، وعندما كنت أتفقّد أثاث غرفتي، كنت أتساءل إن ما كان مصيري أن أراها ما بقي من عمري وأنظر إلى ذاك الكرسي "وواصل بغصّة "لو أنني أرهن حياتي بطولها لأجلك لما استطعت إيفاءك دينك، وأتساءل دائما أي عمل صالح ذاك الذي أتية حتى جاءني الجزء على هذه الصورة؟! وأتساءل أحيانا بماذا كانت تفكر هذه الفتاة عندما أقدمت على هذه الخطوة؟ ماذا أكون بالنسبة لها لتمنحي كل هذا الاهتمام "

وتردّدت قبل أن تجيب، ولم يكن في نيتها التصريح بمشاعرها، فقالت بسرعة لأنها إن تكلمت ببطء سيفضح حقيقة شعورها .

_ "لا شيء،كنت فقط أريد مساعدتك، إنك تستحق كما أن الجميع يحبك، كل الناس يحبونك ، أنت أيضا قدمت يد العون للكثيرين دون غاية "

_ "الجميع! "قال بخيبة أمل، إنه لا يعبا بالجميع وليس هذا هو الرّدّ المتوقع، انتظر أن تقول شيء مغايرا. إنها تهتم لأمره و فعلت الذي فعلته، لأنها تكنّ له شعورا خاصا كالإعجاب مثلا "كل الناس يحبونني؟، وماذا عنك؟"

_ "أنا أيضا أقدرك كثيرا" اضطربت معالم وجهها و قلبت يديها تحت المنضدة، بينما فرّزت عينها من مواجهة نظرتة، ورغبة منها في إضفاء المصادقية أضافت "كذلك السيّدة سميحة إنها تحبك و دعت الله لأجلك "

_ "حسنا السيّدة سميحة تحبني" قال بلؤم حميد " سرور عظيم أن تحبني سيّدة مثلها، ينبغي على المرء أن يحتفل لمعرفته أن تلك المرأة تحبه "أضاف باستياء خفي، وحزك لسانه في فمه

ممتعضا "وأنت تقدريني كذلك، منذ متى تعرفيني؟"

_"منذ أربع سنوات"

_"كيف ذلك."

_"قرأت لك مقالاً في الجريدة."

_"عن ماذا، أقصد ما كان موضوعها؟" سأل

_"عن الإحباط" أجابت فوراً دون تفكير

_"إنك تذكرين الموضوع جيداً، ذاك جزء من تقديرك لي، أليس كذلك؟ إلهي، كم تقدريني"

وانفجرت فمه عن ابتسامة مدهشة رافعا حاجبيه .

و فهمت أنه يستدرجها وأنه يلّمح إلى مسألة معينة، فالتهمت وجنتاها بحى فضح مشاعرها،

ما أغباها إذ صرحت و إذ أجابت دون تفكير، كان ينبغي أن تتظاهر بعدم التذّكر.

_"و أذكر أنك تعرفين عيد ميلادي، لقد هنأتني؟ ااه، حسنا الجميع يعرفه، حتى السيدة

سميحة أشكّ أنها تجهله، إنها تعرف عني الكثير"

ولم تقل شيء، بل صوّبت نظرها نحو الغصن الذي تنشبه الرياح ثم عاد إلى وجهه المترقب،

كان يتربح أن تنطق لكنها لم تفعل، الأمر الذي فرض عليه تغيير الموضوع، إن استنطاقها بالذي

يريده يعادل استنطاق جاسوس مدرب وفيّ مخلص لوطنه من حيث الصعوبة، فليترث إذا،

رغم أنه في عجلة من أمره، ومن التجاج الأمواج المضطربة استلهم سؤاله القادم

"حسنا يا شجاعتي، ماذا عن البحر، هل استطعت الانتصار على مخاوفك؟"

ابتسمت أثيل نصف ابتسامة

_"لا، ليس بعد، إنه الأمر الذي لم يرضخ لإرادتي، لازلت أجري المفاوضات، قصده أربع مرات

رفقة السيدة سميحة، أنا لا أقترّب منه حتى، ولكنني مصممة."

_"عزيزتي أثيل. أنا واثق أنك ستبلين حسنا، أنت التي لا تعترفين بالهزيمة، إن إرادتك

فولاذية، ولأكون صريحا إنها تعجبني كثيرا، فقط واطبي على مشروعك وستنجحين."

_"ذات يوم" امتدّ نظرها الى البعيد "دون مقدمات، دون تمهيد، سأفعلها دفعة واحدة، رغم

أن الله وحده يعلم كيف سأفعلها!؟ لأن هذه الأمور تحصل نتيجة قرار فوري حاسم، عندما

تخاف جدا، أو تفقد الشعور بالخوف تماما. أما التخلي عن الخوف تدريجيا فذلك لا ينفع معي

على ما يبدو، إنه يثمر مع أناس آخرين غيري."

_"كلام بديع يا أثيل، سأنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر، وكذلك أشعر بمتعة عظيمة وأنا

أسمعك تتحدثين عنها، وربما أراك تنفذنها بأمر عيني، أتساءل إن كنت سأكون جزءا من تلك

اللحظة الثمينة؟".

ابتسمت أثيل مستمدة شجاعة ورباطة جأش من تعليقه اهتماما على شؤونها

_ "هل تعملين بالغد؟" سأل عشوائيا

_ "أجل" أجابت باختصار كما هو عهدا

_ "ذاك العجوز إبراهيم لا يسمح بالإجازات" كانت ذاكرته قوية فيما يتعلق بالرسائل الأمر

الذي أدهشها، رغم أنها من كتبها فقد غاب عن عقلها مضمون معظمها، مما يعني أنها ستراوغ بالمزيد ما لم يراع خجلها بالطبع " ألا يزعجك نظامه المتزمت؟".

_ "لا، إنه رجل طيب رغم كل عيوبه، حسنا، أحيانا يبالغ في تزمته و يغدو بغيبضا جدا، بيد أنني لسبب ما أنسى ما يقوله ويفعله بسرعة".

_ "إنك ملاك يا أثيل" قال مطريا "لا تذكرين أي إنسان بسوء، كل الناس طيبون ورائعون، أعتقد أن السيد إبراهيم رجل قاس و متشدد"

_ "أعتقد أنه تعرض للخيانة من طرف بعض الأصدقاء الذين وثق بهم، أو ربما تم التخلي عنه وقت الحاجة" كانت أثيل تجيد موهبة اختلاق الأعذار لأي سلوك صادر عن الآخرين.

_ "هل سرد على مسامعك قصص الخيانات التي تعرض عليها".

_ "لا، أعرف أنه تأثر للغاية بموت زوجته، أضحي رجالا تعسا بعد موتها، فهو لا ينفك يتذكرها، ليس شريرا أبدا يا خليل، إن قلبه رقيق رغم تشدده، يكره العطل، ماذا نفعل؟"

إلهي، ما أجمل شفقتها وهما تنطقان اسمه دون لفظ السيّد، وابتسم مسرورا.

_ "أجيبيني، أحقا سيقدم على طردك، إن ما تغيبت عن العمل؟ أجد ذلك غير منطقي"

_ "أجل" أجابت أسفة "فعلها ثلاث مرات".

تجاوز عن هذه النقطة

_ "أثيل، ستأتين السبب المقبل" قال بلهجة أمرة "لا أريد أعذارا، لقد قررت أن تأتي وكفى"

_ "لست واثقة من ذلك، لا أستطيع أن أجزم فربما لا تسنح لي الظروف، وكنت سأطلب إليك أن لا تأتي أيضا، إن الجو بارد جدا ومتقلب على نحو مفاجئ، وأخشى أن تصاب بالزكام، أو تصاب بوعكة برد طارئة"

_ "هل تهتمين إن ما توعّكت صحي؟"

علقت عيناه بشفتيها يترقبّ جوابها، ولكنها ارتعشت قليلا

_ "ستقصر على المكوث بالبيت، وذكرت أن الجريدة بحاجتك ثم إن الزكام يتعب الجسد"
ورفع حاجبيه مستنكرا، وطفق يطرق بأصابعه على المنضدة بنفاذ صبر

_ "سأذهب في رحلة الى الريف وأتسلق الجبال مثلما فعلت أنت، ولا بأس بإصابتي بالزكام فأنا ليس لدي من يقلق بشأني مثل والدتك وشقيقتيك والسيدة سميحة، ها أحتاج إلى استعارتها وابنتيها، هل أستطيع؟ خالتي رفيداء لا تجلب أي متعة، فهي جدية، صارمة كقائد عسكري، مغرمة بالنظام ووضع الأمور في نصابها ولهذا أفترض عدم ملاءمتها، كما أنك لست أفضل منها فأنت بالكاد تتكلمين" وأبعد عيناه عن وجهها الساكن وطرفها الساجي "أفضل سالي الصغيرة أو البنات الكبرى، أضيع اسمها على الدوام، فهما تثرثران على ما أعتقد إلى درجة إحداث صداع رهيب في الرأس، كما أن أهمهما ستتولى مهمة إثارة المتاعب والمشاكل مما يعني عروضاً هزلية وعواصف من الضحك، والآن سأعلمك بقراري سواء أتيت أم لا، سأحضر كل سبت كما هي العادة وأنتظرك من شروق الشمس إلى غروبها" وهمت بالاحتجاج ولكنه أوقفها بحركة من يده بنبرة لطيفة .

_ "أما الرسائل فليس لك عذر، ستكتبين لي كما كنت تفعلين، و سأكتب لك بدوري، ولا سيما وأنا أعلم الآن إلى أي درجة تقدريني، أفترض أن أمك تمنع خروجك يوم السبت لكنها لن تمنع كتابتك الرسائل، فهي تجهل أنك تكتبينها،،ألست مصيبا؟" فأطرقت رأسها موافقة .

_ "ممتاز، نحن متفقان على هاتين النقطتين "ومال بكتفيه نحوها ثم أخفض صوته "تصبحين أجمل عندما تقولين نعم،إلهي،كم تبدين" ثم اتجهت عينها المتألفتان ببريق السعادة نحو ساعاته، إنها الواحدة وربع، لقد مرّ الوقت سريعا ولم تشعر وهي في غمرة الحديث بمروره، ما أسرع ما يمرّ وقت العشاق وكانت سميحة قد شددت عليها بعدم التأخر بسبب معاناتها من التهاب في المفاصل منذ بعض الوقت، وقدمها تتجمدان بسرعة البرق، لا شك أنها حانقة ترتجف من الغضب والبرد، و لولا أن دمدماتها المرتفعة المعبرة تخفف جزءا من غضبها لوجدتها عند رأسها الآن توبّخ وتصرخ، وإن لم تسرع بالانصراف وتنتقل مثل السهم لتنبت أمامها فلن تسلم من لسانها اذا.

_ "سأذهب الآن "

سحبت يديها من تحت المنضدة ثم التقطت الحقيبة، ووقفت على قدميها ونهض هو أيضا

_ " لماذا؟ لا يزال الوقت مبكرا، لم نتحدث بعد "

_ "إن السيدة سميحة تنتظرني في المحطة، اتفقنا أن أوافيها عند الساعة الواحدة، أراهن أن وجهها قاتم من الغضب "

_ " لن أصرّ عليك" وظهر في وجهه تعبير انزعاجه من الافتراق عنها"حاوي أن تأتي السبت القادم".

_ "سأحاول" استدارت على عقبها ثم أغمضت عينها، وشعرت أنها تركت قلبها الخائر في مكانها وما إن خطت خطوات قليلة حتى سمعت صوته يناديها .

_ "أثيل، شكرا لأنك أتيت" قال هذا بصوت يقطر حنوا، ووجه منقبض يستصعب فراقها.

الفصل الخامس

"عزيزتي الجميلة أثيل

كان يوما رائعا، إلهي كم كان رائعا ، إن كلمة رائع لا تكفي للتعبير عن شعوري، و أكاد أجزم أنه من أروع الأيام التي مرّت علي، لأنني تمكنت أخيرا من مقابلتك، و قد أبدت خالتي ملاحظة حول ذلك، و قالت أنني أبدو أسعد مخلوق على وجه الأرض و تحفّزت ظنونها أنني ربما استقبلت خبرا جيدا أو حصلت على ترقية في العمل، ولم تشعر بالغرور أبدا وهي تفترض شرائي الجريدة من السيد مالك.

قلّما استطعت ردع معالم خيبة أملي من الظهور، بينما أنا عائد إلى البيت كل يوم سبت، وقلّما فشلت خالتي في ملاحظة حزني الذي أحاول كتمه، على أن عيني المسرورتين برؤيتك باحتا بالكثير، وفجأة أصبح لون ستائر البيت الزيتي يعجبني . و فستانها الأزرق الجديد يروق لي ومدحت ذوقها العذب، فضحكت قائلة أنها ارتدته ثلاث مرات في الشهر و مرتين في الشهر الماضي وأني نظرت من خلال النافذة أكثر من مناسبة و رغم ذلك لم ألحظ أن الستائر كانت مسدلة منذ أسبوعين، لأكون صريحا لم أكن أعبأ بما يدور حولي.

لطالما أخافتني خاطرة عدم مقابلتك. فخلال الليالي الأخيرة وعند منتصف الليل لأكون دقيقا، كانت توافيني أفكار كافرة خائنة تقول بلسان رسمي و قح أنك ربما أحد أقربائي، أو على الأرجح أنت تكيلين الدعم لجميع المعزولين المهزومين الذين أوجدتهم الحوادث السيئة، و رغم أنها فكرة طيبة مفعمة بالعطاء و الخير، إلا أنها أزعجتني حيث أنني إنسان متملك، أريد الانفراد باهتمامك دون غيري، ولا أنكر أن كونك فتاة مقعدة لم تمرّ على ذهني المشتّت. إلهي كم كنت سخيفا ، وحيث أنك تأخّرت في القدوم، أفسحت المجال لعدد من الخواطر الخبيثة، وها قد نبذت جميعها و تقهقرت مخذولة بمجرد أن رأيتك أمامي كإنسان حقيقي من لحم ودم، ولقد تعرّفت عليك مباشرة وأنا أجهل السبب، و لولا خجلك و استمرار احمرار وجنتيك حتى تغدو مثل زهرة شقائق النعمان لأسرّتي الاعتراف لك أنك فتاة غاية في الجمال، لم أتصور أنك على هذه الصورة الفاتنة، إن لك عينين سوداوين بريئتين تخبلان عقل الإنسان، إلهي ما أجملهما ولك وجه أبيض يأسر عينيه، فلا يسعه رفعهما عنه. أجل إنك فاتنة يا أثيل وجمالك يحبس الأنفاس، كل شيء فيك من حريز: بشرتك، صوتك، نظرتك، تحميك طبيعتك الملساء الخجولة جدا من إطرانك، على أن ذاك البريق الحزين الذي يغشي عينيك الجميلتين لا يزال يراود عقلي

فأتساءل حائرا: أكانت معاناة الأيام السالفة فقط من تكدرها، إنني أشعر أن ذاك الحزن نابع من موطن لم ترفعي الستار عنه، ولم تميطي اللثام عن جزء تخفينه، جزء أميل إلى الاعتقاد أنه يؤرقك ويخطف الراحة والهناء من حياتك، طوال الطريق وأنا أفكر بخصوصك. أرجوك يا أثيل بوسعك الوثوق بي ونقل أعبائك إلي، وإخباري دونما تردد عن الذي يحزنك، أرجو أن أتلقى رسالة في غضون ساعة واحدة، لأنني لن أتحرّك من مكاني حتى أقرأها، إنك لا تمانعين جعلي أنتظرك، ولكنك لا تفضّلين ذلك الآن حسب المعطيات الجديد

السعيد جدا خليل "

"عزيزي خليل

يسرّني أنك قد وصلت سالما إلى المنزل، ويسرّني أكثر أنك سعيد بمقابلتي. في الواقع، إن سرورك يعادل سروري، لقد تأخرت قليلا عن الالتحاق بالسيدة سميحة والحمد لله أنها نعمت برفقة طيبة دفعت إلى إلهائها عن تجاوزي للوقت المتفق عليه، وأخالها لن تبالي إن اتفق ولاحظت. فإخلاصها المسعور للمشاريع و تفانها في حبها يخدّر عقلها ويحملها بعيدا عن دنيا الواقع ، هذا هو طبق السيدة سميحة المفضّل، كانت المرأة ذات الضفيريّتين الثخينتين تقترح عليها فتح متجر لبيع الأعشاب الطبية واصفة المشروع بالصفقة المربحة، وقد أجرى عقل جارتى الحالم عمليات حسابية سريعة خلصت إلى نتائج خاطئة تؤمّن لها ثروة بأصفار مضافة وراء الواحد والاثنين مما أثار زوبعة من السعادة، وقبل أن تنتقل إلى دنيا الأغنياء والمشاهير والطبقة المخملية، سددت عليها الطريق بعرض المشاكل المرفقة بذاك الصنف من التجارة فانكمش حماسها وتلاشى بريق الدولارات والدراهم من عينها و عاداتها باهتتين بخيبة الأمل، وسرعان ما انتقدت تأخري المخلف مقسمة أن رجلها مخشبتان من البرد، طبعا لم تكونا كذلك عندما سافرت إلى عالم المال والثروة، أما وقد ضاع حلمها قبل إكماله نصف دورة، فلن يخفى عليك أنها ستستجلب التهم من مثلك برمودا بما يحفّ ذلك من مخاطر، لم أستطع إخبارك هذا الصباح حجم سعادتني، لأنك تعافيت وعادت إليك صحتك، و انتابني الفرح لأن معنوياتك ارتفعت من جديد

أثيل ."

"فاتنتي المراوغة أثيل

إن السيدة سميحة امرأة مجنونة ليس لدي شكّ في ذلك، فضلا على أن نزواتها العابرة بخصوص المشاريع تحير عقلي أحيانا ، وتجعلني أتمرّغ من الضحك، ولكن يا عزيزتي لقد وجّهت إليك سؤالاً مختلفا ولم أتلّق جوابا عليه بينما منحتني أجوبة على أسئلة لم أطرحها. مما يعزّز

ثقتي بصدق ما أفكر فيه، ولست ألوّمك فربما تعتقدن أنني لست أهلاً لثقتك أو أننا في بداية الطريق، وعندما نتقدم بضع خطوات ستبوحين لي بما يختلج قلبك وإلى ذلك الوقت سألتزم بالتريث، كما أنني أمتنع عن الضغط عليك طالما لست مستعدة لإطلاعي على أسرارك الخاصة. أما أنا يا عزيزتي سأزعجك بكل التفاصيل التي تتعلق بي ولنرى إن كنت ستحتجين بحكم الصداقة التي بيننا ونظراً لأنك تقدرينني كثيراً، أجل تقدرينني رغم أن الله يعلم أنني لن أبتلع تلك الكلمة مع صهريج من الماء. سيكون من واجبك الاستماع دون تدمير والآن اذهبي إلى النوم فقد تأخر الوقت وغداً لديك عمل، اكتب لي رسالة في الصباح، لا بأس إن كانت مؤلفة من خمسين سطر.

خليل "

"عزيزي خليل"

صباحك سعيد أيضاً، وشكراً على الورد رغم أنها في صورة صمّاء ولا أستطيع شمّ عطرها، لقد استيقظت متأخرة، وأراهن أنني سأصل إلى المكتبة بعد أن يتجاوز العقرب الكبير الثامنة بخمس دقائق، عندها ربما تنفجر حواس السيد إبراهيم، لذلك سأختصر قدر المستطاع، إنها تمطر والجو بارد في الخارج، وأشكر الله لأنها لم تمطر بالأمس، أتمنى لك يوماً موفقاً في العمل، لن يسعني قراءة ردك على رسالتي، لأنني سأطير إلى العمل

أثيل المتأخرة "

"زهرتي الجميلة أثيل"

أقرأ رسالتك على الساعة الثانية ونصف زوالاً، عدت إلى البيت لأخذ أوراق نسيتهما، وبسبب أن اجتماعاً طارئاً قد عُقد عند الساعة السادسة ونصف من أجل تحسين جودة العدد القادم وإثرائه بالمفيد، خرجت قبل ذلك بربع ساعة، وبدووري ينبغي أن أعود إلى مقر الجريدة فوراً، أعتقد أن عقرب الساعة الكبير قد وضعك في موقف محرج كما أنه أضرّ بسلامة السيد العجوز. أتمنى أن الحظ حالفك فتوقّف المعتوه عن الدوران.

المُقدّر خليل "

"ملاكي الهادئ أثيل"

منذ صغري هيأت نفسي لإعلان الكراهية على يوم الأربعاء، ولست أستطيع تهذيب هذه الكراهية مهما فعلت، مع أن معظم الناس اعتادوا بفعل العادة والعدوى على كراهية يوم الأحد، لأنه بداية الأسبوع ويوم العودة إلى العمل أو الدراسة، أما أنا، فأشكّل اختلافاً شاذاً عن باقي البشر الطبيعيين، وها قد حلّ هذا اليوم المنبوذ من قبلي، أتعرفين السبب؟ لقد رحلت

جدتي التي أحبها بهذا اليوم، و أقيمت لها جنازة كنيية، وكذلك وقعت وتمزق جلد صدغي الأيمن تمزقا عميقا ،مما جعلهم يعقدون سبع عقد هناك، لقد لاحظت الندبة العريضة فيه؟و ما لم أكن مقيدا بواسطة يدي والدي الحازمتين، فلم أكن لأرضى بكل ذلك العذاب. مؤلم أن تقسر على شيء ليس بمقدورك تحمله، حتى ولو كان في صالحك، ولأنه يعرف أنني متيم بحبه جاءني اليوم بكل فخامة مآزقه، فقد تغيبت الفتيات الثلاث دفعة واحدة كأنهن اتفقن على ذلك، ولست أصدق روايات أي امرأة باستثنائك ،فأنت لا تكذبين، تعدت إحداهن بالمرض والثانية بمرافقة أمها إلى طبيب العيون والثالثة بمرافقة والدها إلى طبيب الأذن والحنجرة، أفترض أن لهن طبيبا مشتركا وهو أحد المراكز التجارية، هناك يتم شفاؤهن وهن الآن يتسكنن في أحد المحلات يتبادلن عبارات الإطراء بين بعضهن، ألسن مصيبا؟، كما أن أجهزة الطباعة قد تعطلت فجأة دون سابق إنذار، ربما لن أتمكن من إتمام العمل وتجهيز العدد ليوم غد، رغم أن فريد والشابين الفتاة الرابعة بذلوا مجهودا فائقا يعوض غياب اللثيمات الثلاث. على الأرجح ،لن يصدر عدد الغد، يحدث هذا لأول مرة. بالمناسبة أشكر لك رسالة الأمس المشحونة بعبارات التشجيع، جاءت في الوقت المناسب، لأنني كنت محببا تقريبا، ليس كثيرا،و مرة أخرى أشكر لك جواب يوم الإثنين عند الساعة السابعة و الربع مساءً عندما أكدت للمرة الثانية أنك تقدريني، لا اعرف لماذا أعلق اهتماما على جواب ذلك السؤال أيضا؟ ولست واثقا أنك ستغيرين كلمة التقدير تلك، إن ما كنت مصرّة عليها، فأرجوك أبلغيني بالمدة التي سأقسر فيها على تحمّل سماعها، و إن استطعت أن تعيدي النظر سيكون أفضل بكثير، فلا تبالغي في تقديري يا فاتنتي، بوسعك الشعور بأشياء أخرى فهناك عدد لا حصر له من المشاعر التي تفي بالغرض دون أن تقدريني، فأنا عندما أسمعك تقوليها لفظا أو تكتبيها كلمة تتحفّز لدي هرمونات الشيخوخة، أجل يا عزيزتي أشعر أنني عجوز تجاوز الثمانين برتبة مُقدّر، و أمل أن نصيحتي برسالة الأمس قد أفادتك ،و أعتز أن الكتاب الذي اقترحتة مفيد حقا رغم أن غلافه ينقص من قيمته ،صدق من قال لا تحكم على الأمور من مظاهرها ،و ضحكت من الدعابات الموجودة فيه ،سعيد لحصولي على دليل بارع لاختيار الكتب .

المحكوم عليه بالتقدير خليل "

"عزيزي خليل

ردا على سؤالك الصباحي سأبذل جهدي لآتي بالغد، غير أنني لا أستطيع الجزم، فالسيدة سميحة أصيبت بوعكة صحية مباغتة رغم أنها بالأمس مساءً عادت متأخرة من حفل زفاف ابنة إحدى صديقاتها بكامل أهبتها و حيوتها و نشاطها ،سادة أذنيها عن كل ما يعكّر صفوها،

وأثناء تقطيع الكعكة الكبيرة التي تعادلها طولاً اتَّخذت مكاناً بجانبها بكل كياسة ثم حظيت بتناول أول قطعة على مسرة منها، و في سبيل أن تهجر غريزتها المشتهية للمشاكل و تدفعنا للانهيار، تصرّفت كأمراة مسؤولة عاقلة و رزينة. أجل، لم تثر أي مشكلة، هل كان ذلك علامة مباشرة لبداية أعراض المرض؟ لست متأكّدة من الجواب. خليل، لقد أكّدت على حضوري خمس مرات إلى الآن في خمس رسائل منفصلة متتالية منذ الصباح، كيف يخطر لك أنني لا أريد رؤيتك؟ بماذا كنت تفكّر عندما أقحمت هذه الجملة البغيضة في المحتوى، قطعت الرسالة عند هذه النقطة للاستفسار عن صحة السيّدة العليّة، وأخبرتني ابنتها الصغرى سالي أنها مضطجعة تعاني من آلام حادة في معدتها، هل وضعوا مكونات سيئة في تلك الكعكة الضخمة بحيث أساءوا إلى صحة جارتي الغالية؟ لست أدري، أنبأتني سالي بضحكة مخنوقة أن أمها ترتاب أن هذا مفعول حسد متأخّر وقع عليها، ليحفظنا الله، أنا متيقنة من إرسالك رسالة بعد خمس دقائق تسألني تأكيد اللقاء، سأردّ عليها مسبقاً، كل شيء يعتمد على صحة السيدة سميحة، وسأرد على سؤال أراهن أنه يجول في رأسك في هذه اللحظة، أليس بمقدورك الخروج دون السيدة سميحة؟ لا أقدر، لأنّ أمي العظيمة ستصرّ على مرافقتي إلى أي مكان وإن ما كانت يداها غارقتين في إحدى الأعمال المنزلية ستنادي بأعلى صوتها: ياسي رافقي أختك ولا تتأخّر، ألا زلت ترغب في التخلي عن خدمات جارتي الحبيبة؟

أثيل التي لا تملك رداً "

" أميرتي الأخاذة أثيل "

سارت الأمور على النحو الذي أشتهي، ففي اللحظة التي فاجأتني وجلست أمامي تعذرين عن التأخّر أزهرت معنوياتي، وعادلت سعادتني خيبة أمني قبل أن أراك، لم أستطيع إلا أن ألاحظ اختلافاً جذرياً عن المرة السابقة، يبدو واضحاً أنك بدأت بالتعوّد عليّ. تعجّبتني دعابات جارتك الطريفة التي تبلّ من المرض دون أدوية أو طبيب، أكانت بكامل قواها العقلية عندما أخذت في جولة بما أسمته تذوّق الفن؟ إلى الآن أهدّ من الضحك عندما أتذكّرها، تلك الساعة التي بدأت عند التاسعة وانتهت عند العاشرة تحت ذريعة أن معرض الألواح الفنية يغلق باكراً كانت من حقي أنا، ويا ليتها تذوّقت الفن كما أوعزت، لقد كفّنته بكفن استخفافها، تشاجرت مع الفنانين الذين أفنوا وقتهم و جهدهم في إخراج اللوحة على أحسن وجه لتأتي الناقدة الموهوبة فتصفها بخريشات الأطفال أو هل هذه لوحة مقلوبة؟، عدّل وضعيتها حتى أفهمها، تبدو مثل جدار حيّنا الذي خرّب واجهته يزن المخبول يروح بخط و يرجع بأخر بواسطة الطباشير الملون، ااه لو بوسعي الإمساك به متلبساً و هو يخرب جدار منزلي، لن يسلم من تلوين

وجهه بالكدمات ، أستطيع تخيّل وجه الفنّان الأحمر المنتفخ مثل حبة الطماطم وهو يستعر غضبا من وقاحتها، والأُنكى أنكما طردتما كلاكما، ااه يا طفلي الهادئة الساكنة كيف تدفعين ثمن نزعها المائلة إلى إثارة المشاكل ؟على أني أحبّها وأود التعرف عليها ذات يوم رغم تصنيفها الرديء في قوائم المنبوذين والمطرودين من كل مكان تحل به."

"عزيزتي ذاك الفستان الأخضر المنقّط بالأسود، لقد لاءمك و بدوت غاية في الجمال، لم أستطع إبعاد عيني عن وجهك، وتينك الغمازتين المرافقتين لابتسامتك، أقسم أنهما تطلقان الرصاص علي، لست أمانع، سأموت شهيد جمالك الفتان، لسوء الحظ قطع علينا المطر حديثنا الممتع حتى قبل أن أنبئك بكل الأمور المستجدة في ليلة الجمعة الفارطة، وهكذا اضطررنا للافتراق باكرا، كم أكره لحظة الفراق تلك، أمقت تلك الكلمة المسماة وداعا.

ولكن يا أثيل إن تلك اللمعة الحزينة لا تفارق عينيك أبدا، ورغم وعدي بعدم التطرّق إلى الأمر إلا أن الفضول يزهر في عقلي كأزهار الربيع كلما رأيتها فيهما، لست أستوعب ماهية ذلك الألم، هل هو سرّيتبعك أو ألم هائل عالق في أعماق روحك أو شعور بالإثم وتقريع الضمير من قضية أجهلها، أنا أدفن الاحتمال الثاني فأنت لست من النوع الذي يرتكب آثاما، ولست كذلك من النوع المؤذي للناس، أود أن أعتقله ثم ألق له أبشع التهم ،حيث يترتّب عن ذلك عقاب قاسي كالحكم بالإعدام رميا برصاص الاحتواء، يستحق أن يموت وتستحقين أن تعيشي حياة سعيدة ،سأزيله من عقلك ذات يوم ،أنا أعدك وعد رجل، سأمحيه من الوجود بحيث لن يتسبّب في قهرك أبدا،أعلنه عدوا ثالثا بعد الكرسي والأربعاء

خليك العدو اللدود للبريق الحزين"

ملاحظة، طريقتك في سرد الوقائع مذهلة، ينتظرك مستقبل مشرق في الكتابة و التأليف، وأنت أيضا تعجبيني كثيرا، لا أقدر على منع نفسي من التصريح بذلك "

"عزيزي خليل

كتبت الرسالة ومحتوها مرتين كذلك، لقد تردّدت في كتابتها، أود أن أوجّه لك سؤالاً وأرجو أن لا تسيء فهمي فأنا لا أدشّن نية التدخّل في حياتك، ولكن هل تعجبك تلك الفتاة الشقراء؟ استنتجت من المدد والمساحات من الأحاديث التي تخصصها لها، لقد تكلمت عنها مطولا يوم السبت بل إنك بالكاد انحرفت عن موضوعها، وذكرت اسمها مرتين في الموضوع الآخر، وفي الرسائل أنت تخصصها باهتمام هائل، تبدو كما لو أنك منجذب إليها فهي لا تبارح لسانك ويدك، أوّكد لك أني لا أضمر نيّة حشر نفسي في أمورك الخاصة، كنت سأمسح الرسالة وأعدل عن إرسالها، ولكن فكرة مباغته احتلّت رأسي تسدي لي موعظة إرسالها. لا تفهمني خطأ، مجرد

فضول ، فمع أننا أصدقاء لا أظن أن لي الحق في سؤالك عن مثل هذه المسائل، أنت رجل حر، لست مضطرا لتقديم أي تبرير لتصرفاتك
أثيل الفضولية ."

ملاحظة، أؤكد لك للمرة الخامسة أنه مجرد سؤال صديقة فضولية لا أكثر ولا أقل. وإن كان لا يعجبك فتجاهله و حسب وسأستنتج أنني كنت فظة متطفلة .
"صديقتي الفضولية أثيل"

عندما وصلتني رسالتك كنت أستعد لزيارة حديقة أُمي الراحلة، فأنا لا أجد إلا يوم الجمعة لأراعي مشاعرها، ستحلّ علي لعنتها لإهمالي لها، كررت ملاحظتك الرئانة عن عدم تدخلك في حياتي أكثر من عدد كتابتك للرسالة و محوك لها، هل ذلك سؤال بريء أو علامة من علامات الغيرة الأنثوية؟ اه، لا، فأنت صديقتي فقط، اسمحي لي أن أشدد على كلمة صديقتي التي تقدرني، لا أمانع الإجابة عليه. إن كنت تسألين بدافع الفضول كما ذكرت فأقسم أنها لا تطاق، إنها من أسخف العقول النسائية التي قابلتها، توتر أعصابي و تهدد طمأنينتي النفسية كلما تشنّ حملة النحيب تلك خشية اقتيادها الظالم إلى السجن بسبب مقالة أو اثنتين عن وزير فاشل أو مسؤول لص، ليست سوى مصدر إزعاج للأطفال الصغار، تنوح خوفا من العقاب المترتب، وجدت تشبيها مناسباً لها تشبه ضرس العقل لا فائدة ترجى منه يظهر متأخر ثم يتسوس بسرعة، و يسبب ألما فتاكا تقريبا كفاجعة مختارة ليلية مفتوحة العينين يشقّ سكونها الصراخ والأين، كما أنها ليست أفضل عندما توكل إليها عملا محددا، إنها تحطّ من عزمي ولما ما أنجزت المهام على الشاكلة المطلوبة، أنا أشك في عدم كفاءتها طول السنة، أما إن كنت تسألين لأن شعور الغيرة تحرك في قلبك، فلا بأس أن أصرّح ببعض ميزاتها، إن عيونها اللوزية الخضراء الشبيهة بالفاصولياء بأهدابها الصفراء الطويلة تدعوك بصراحة إلى تأملها كأنها عالم آخر يستحق الغوص فيه، إلهي ما أجمل لونهما ، وشعرها الذهبي الطويل الأسيل المتموج كأنه حقول القمح الصفراء الناضجة ، اه يا أثيل يجعلك تتلّيف لتمرّ يداك بين خصلاته، و قوامها منحوت مثل حورية البحر، إلهي ما أهيّف قوامها ، أسمع دمدمات من بعيد، من غرفتك، و بمقدوري رؤية دموع رقيقة تهادى بين أهدابك السوداء و أرى حاجبيك تتغصّنان من الغضب. لا تغضبي، إن هذه الصورة لا تغريني يا فتاتي، هذا وصف فريد الكتوم المولع بالشقراوات وليس اجتهادي الخاص، فأنا لم يعد لي عقل أميّز به لا الشقراوات ولا الحمراوات، لقد رهنته بكامل إرادتي لعيون سوداء مغرية، ووجه وضّاء كالقمر، إن كنت تعرفين الفتاة فأخبريها أن ترأف بي و تعيده إلي خليل "

ملاحظة، أميل إلى الرأي الثاني يا صديقتي الغيورة

"عزيزي خليل

من فضلك، توقّف عن التحرّش بذلك الوزير المدعو مرزوق ، إن صمته المتجاهل عن المقالات التي تطلقها بشأنه يخيفني أكثر من إقدامه على إبداء ملاحظات أو تحذيرات علنية، إنك لا تكتفي بالتلميح إلى أعماله، بل تذكرها مع ذكر اسمه، ينتابني الفزع عندما أفكّر بنفوذه الواسع، ربما استغلّه من أجل إلحاق الأذى بك أو إرسالك إلى السجن. أستلقي في سريري كل ليلة مفتوحة العينين من شدة قلقي عليك، كن عقلانيا يا خليل، وقبل أن تخلق وجه شبه بيبي و بين فتاتك الشقراء تلك، فكّر أنني خائفة على مصلحتك، وقبل أن تنتقدي لكوني أتدخّل في مهنتك، حاول أن تتفهّم وجهة نظري، لست أنتكّر لشجاعتك في عرض الحقائق وتنبيه الناس عن التجاوزات التي يرتكبها و السرقات غير المشروعة التي يقوم بها وصفقاته المشبوهة، ولكن يا خليل، لو أن غيرك من الصحفيين يحذون حدوك وينتقدون أسلوبه المستهتر في استغلال قطاعه ونفوذه لمصلحته الشخصية لما وجدت سببا لأقلق، فلن يمكنه محاسبتهم كلهم على كشف حقيقته، على أنك وحدك من تكتب و تكشف وتزعم الأقنعة وهكذا سيجد نفسه مضطرا لحماية نفسه منك. قد يلقّ لك تهمة، ليس بوسعي التنبؤ بما سيفعله لك، أرجوك يا خليل تخلّي عن هذا العناد، منذ أشهر وأنت تحوم حوله، و مرة أخرى أوكد أن صمته مخيف ويجلب الرعب إلى نفسي.

أثيل "

" جميلتي المدعورة

إنه سرور عظيم أن تقلقي بشأنني، ولست في صدد توجيه أي تهمة لك، فأنت لست بمنزلة الفتاة الشقراء أو غيرها . أنت لك الحق في إبداء النصائح والأوامر إن شئت، وأنا رهن طاعتك وإشارتك، على أنني لا أستطيع التوقّف بعدما بلغت هذا المبلغ، ينبغي أن أعمل عملي بمصداقية، مكانه هو السجن وليس منصبه الحالي، منذ أن تولّى وهو يختلس ويستولي على الأراضي بغير حق، وفضلا عن هذا أجد خطاباته المدعية للزاهة و الشرف سببا للجنون ،إنه لا يخجل، حتى لو استعمل نفوذه من أجل إرسالني إلى السجن فلن أتوقف، سأواصل، أتعلمين لماذا؟ لأن هناك أناسا يتوسلونك أن لا تستسلم، حيث أن حياتهم ومستقبلهم مرهون باستمرارك في الكفاح، وليس السجن ما يخيفني، أنا فقط قطعت وعدا على نفسي من أجلك أنت، و أخشى أن لا أستطيع البر به، لست بحاجة إلى أن تقلقي علي، فلن يتجاوز نفوذه إرادة الله، فنحن كلنا بشر نعيش تحت سمائه، ماضون في رحمته الواسعة، وإن صمتنا جميعا

وخوفنا منهم إنما هو انتصار لهم، وشحن لطغيانهم، وضعفنا يغذيهم، وسكوتنا على ظلمهم يزيد من احتقارهم لنا، واستهتارهم بمستقبلنا كأننا فئران.

المخلص خليل "

" جوهرتي الثمينة أثيل "

طوال الطريق وأنا ألوم نفسي، لأنني جرحت مشاعرك، إن لقب الوغد جدير بي، لم يفتني ملاحظة تغيير ملامح وجهك، لا أستحق معرفتك ولا صداقتك ولا عطفك علي، أول شيء فعلته بعد أن ولجت إلى الغرفة هو كتابة هذه الرسالة لأجل الاعتذار إليك، كنت ستبكين يا ملاكي، كيف تجرأت على قهرك على تلك الصورة الحقيرة، لست سوى حقير عديم الرحمة تعوزه دماثة الأخلاق، أحيانا تفلت الكلمات من فمي، ذاك التعبير المتألم في وجهك يتنافى وتفاعلك البارد بعدم الاكتراث، ولم تخدعني تلك الابتسامة الباهتة. قد تخدعين بها أي إنسان سواي أنا، أنا الذي يعرفك ويشعر بألمك، أنا الذي ينخلع قلبه عندما تحزينين، وأنا بلساني سببت لك كمًا هائلًا منه، أرجوك يا أثيل لا تتظاهري بعدم الاكتراث وأن عبارتي تلك لم تغرس في قلبك مثل سكين حاد. فأهون علي أن تقولي الحقيقة على أن تتظاهري بالتماسك والبرود، لأن التظاهر بعدم حدوث شيء يقتضي مجهودًا جبّارًا لا أريدك أن تبدليه، وبوسعك نعتي بما تشائين، لن أحاول الدفاع عن نفسي، لقد تفوّتت بعبارة جارحة أستحقّ عليها الإعدام

خليل النادم "

ملاحظة إن لم يصلني أي رد على رسالتي سأفهم أنك غاضبة مني وهو ردّ فعل متوقّع، لكن إن صفحت عن جريمتي اللفظية، سأعرف أن مكانتي في قلبك تتجاوز التقدير

"عزيمي خليل "

كن على يقين تامّ أنني لست غاضبة منك، وليس هناك داع لإبداء اعتذار آخر بالإضافة إلى أنني أبرئك من تهمة تذكري بأمر تؤلّمني، أنت لست مسؤولًا عن شيء، أنت إنسان رائع ذو قلب كبير يا خليل، تتّصف بجميع الصفات النبيلة التي أحبها وتبدو مذهلاً بكل حالاتك باستثناء حالة الغضب والعصبية، فأنت عندما تغضب تغدو مخيفًا وباعثًا على الهلع منك، كأنك لست خليل الذي أعرفه.

سريعو الغضب مخطئون في أعين الناس، وإن كانوا على حق، اه يا خليل لقد كدت تتورّط في شجار مع ذاك الرجل لولا أنك راعيت وجودي، وعندما تغضب يا خليل تتفوّه بأمر غريبة لا تعتبر حكرا على شخصيتك وتتحوّل إلى رجل مختلف غير الذي أعرفه، لا أعمد إلى انتقاداتك بالطبع. طابت ليلتك الوافية لك بكل حالاتك أثيل "

"قصيدتي الجميلة أنيل"

انظري إننا في منتصف كانون الثاني، شهر مناسب لرحلة إلى الريف، أشك في كون والدتك قد غيّرت رأيها بخصوص السماح لك بزيارة تدوم يومين إلى منزل قريبة السيدة سميحة؟ لا شك أن منظر المروج المكسوة بالبياض والتربة الرطبة البليلة ، وصفير القطار يحرك فيك إغراءً وحيننا يصعب مقاومتهما، ربما عندما تتخلصين من سلطهما، و تنتقل مسؤوليتك إلى رجل جيد يمحك الحرية المطلقة لفعل أي شيء يخطر ببالك دون تعريض نفسك للخطر، ربما تتمكنين حينها من زيارة أي مكان تشتهين . فأنا مثلا ،لو حظيت بشرف الزواج بفتاة جميلة مثلك سأخذها إلى الريف بكل سرور فقط لأطالع شعاع السعادة ينبثق من عينها، و كوني واثقة باستحالة السماح لها بتسلق الجبال مع زمرة من الأطفال الصغار الذين لا يجيدون حتى الدفاع عن أنفسهم في حال تعرضهم لخطر محقق كهجوم إنسان أو حيوان بري متوحش، مطلقا لن أسمح بذلك.

علاوة على أن احتمال إصابتك بالزكام و إشرافك على الموت فكرة مريعة لا تتناسب وميولاتي القلقة، أنا وأمك متوافقان في هذه النقطة الحساسة جدا، وسأخذها في رحلة الى البلد الذي تودّ زيارته، أنت مثلا أمنيته أن تصبحي غنية، كيما تتمكني من زيارة سنغافورة، سأحقق أمنية زوجتي أيا كانت وسأقتل نفسي في سبيل توفير المال لأخذها إلى حيث تشاء، أتكهن أنك تحسدينها من الآن لنيلها إياي كزوج. سأذكر لك أمورا كثيرة تجعلك تغارين منها وتنتابك أمنية أن تكوني بدلها: أنا أجيد الطبخ، أقصد عندما أقلد الوصفة بحذافيرها وعندما ترافق خالتي علبة التوابل باسمها المناسب وأرتب أغراضي بنفسي، وأمقت الفوضى التي تمقتها النساء فهن يعشن الترتيب والنظام، فضلا على أنني لطيف ونجيب ومهدّب وأعامل السيدات بلباقة وأصبر على هفواتهن، ولست رجلا منغلقا ولا متشدّد، وأسمح لها بالخروج مع صديقاتها للتسوّق و شرب القهوة و اللغو السائغ الذي تجترّه على مسامعي بتفاصيله الدقيقة عندما نتحلّق على طاولة العشاء، لا أدخن ،لا أشرب الكحول ،لا تغريني العلاقات النسائية المتعددة كباقي الرجال ،سمة الوفاء تمنع الخيانة ، كما أسمح لها بإنجاب خمسة أطفال فقط حتى لا يفسد خصرها النحيل، وليس يخفى عليك أنني صحفي وسيم بهي الطلعة، ذكي، وأيضا طولي مناسب وعيناى هادئتان رائعتان ،صفات تفضي إلى إنجاب أطفال رائعين مثلي .

خليل ذو المزاييا المغربية "

ملاحظة هل ترشّحين لي عروسا مناسبة، أشعر أنني سأظلّ أعزبا إلى الأبد، إن لم تتدخل حكمتك و تنقذني من برائن العزوف عن الزواج، أحب صاحبات الشعر الأسود، والبشرة البيضاء، وأريد فتاة هادئة لا تثرثر، كما أنني أحب فتاة يتجاوز طولها المتر وخمس وستين، لا بأس إن كان طولها أقل، إن ما كانت أوصافها تطابق أوصافك، مع أنني أستبعد أن لك شبيهة. فأنت لا شك قادمة من كوكب مختلف حيث النساء جميلات لا يثرثرن لطيفات ناعمات أصواتهن خفيضة إلى حد الهمس، وقلوبهن مفعمة بالرحمة والحب، مكافحات ضد مآزق الدنيا "صديقي الذي أقدره أكثر من أي وقت مضى خليل

يؤسفني أن أمتنع عن قبول التماسك، و أرى أن توكل مهمة إيجاد عروس مناسبة إلى خالتك الغالية بدل أن تعتمد على ذوق فتاة غريبة مثلي، لست أتمتع بالخبرة الفائقة لأجل تنفيذ المهمة دون توريطك في زواج فاشل مع فتاة لا تحثك إلا على الندم كل ثانية، لم أعرف من قبل أنك تنعم بكل المزايا كما سبق وزعمت، فعلى حد علمي أنت لا تجيد حتى تقشير حبة البطاطا، وأذكر على قدر ما تسعفني الذاكرة أن غياب خالتك عن البيت قد جرّه إلى حالة مزرية من الفوضى وقلة الرعاية، وإن كنت في عجلة من أمرك، فقد يفيدك أن تختار فتاة من المكان الذي تقطن فيه، أو ربما تحل فتاتك الشقراء ذات الشعر الذهبي مثل حقول القمح الناضج والعيون الخضراء بلون الفاصولياء، أزمة عزوبتك المعقدة، إلهي، ما أجمل لون عينيها. صديقتك المقدرة أثيل "

ملاحظة تستطيع وضع بحث في جريدتك عن عروس مناسبة، وأرفقها بالمواصفات التي تريدها دون ذكر أن البحث لأجل حضرتك "مفضّلتى العزيزة أثيل

أقرأ رسالتك على الساعة الخامسة صباحا وأنا أهترّ من الضحك. وأتساءل إن كنت نفسك والفتاة التي أقابلها كل سبت بالحديقة، فتلك المخلوقة لا ترفع عينيها عن الأرض إلى درجة أود فيها أن أكون النقطة التي تنظر إليها ولا تتجرأ علي كما تفعلين أنت، لا تجيب دون سؤال، ولا تطلق العنان للسامها إلا إذا ابتعدنا في الحديث عن وصف وجهها وعينيها، وإن أنا أشحت ببصري عنها طبعاً. إذا فأنت تعذرين عن تنفيذ التماسي بالبحث عن عروس وترشّحين خالتي بدلا عنك. حسنا يا من تقدريني أكثر من أي وقت مضى، سأختار فتاة جميلة جدا، تقضي على فرصك في حيازة المرتبة الأولى في قلبي، وتنافسك في وقتي واهتمامي، فتاة هادئة مطيعة، لست تمانعين مرافقتي إلى منزلها من أجل طلب يدها، أليس كذلك؟، اجلبي معك السيّد سميحة من أجل إفساد حياتي من أول يوم، فهي تملك طاقة لأجل تدمير العالم بأسره بشجار واحد

خليل

ملاحظة. لم أعد خليلك من الآن فصاعداً، فأنا سأكون خليل امرأة أخرى، لن تحبّ زوجتي أن يناديني أحد بذلك الاسم سواها.

"فراشتي المزركشة أثيل"

إنك تستغربين لماذا أرسلت لك ذلك البريد الإلكتروني و من يكون صاحبه، ستبدد رسالتي هذه كل الغموض الدائر في رأسك، فقط تحلي ببعض الصبر

عند الساعة التاسعة وبينما أنا غارق في حوار مليّد مع فتياي وفتياتي الكادحين المثابرين في سبيل صعود الدم إلى رأسي، فاجأتني ابنة عمتي سمراء بزيارة منعشة ساّرة تحمل في إحدى يديها هدية متواضعة متأخرة لهنّثي بعلمي الجديد الذي استلمته منذ أشهر خلت، إنّ لأفراد عائلتي طباع غريبة، عندئذ أعلنت عن نهاية الجدل و صرفتهم كل إلى عمله، وبينما كانت ترتشف قهوتها المفضّلة بثلاث قطع من السكر حدثتها عنك، يبدو أن عيني لمعتا ببريق غامض مما أثار ريبتها، وساقها إلى إقحام بعض التلميحات المثلجة، والتي تفاعلت معها بالتنديد، شارحا أنه لا شيء بيننا غير التقدير الذي تكنينه لي و دورك المستقبلي في إيجاد عروس ملائمة، والصدّاقة التي وثّقتها من طرفي. طبعاً لم يكن اقتناعها أكثر من شكليات رسمية. لم أنبئها الكثير، فقط بعض الأمور السطحية التي يراها الجميع و يعرفونها عنك، فتاة جميلة بأخلاق طيبة و جارة مجنونة تشردّك في الأماكن الخطرة، ومدير عمل يقيدّ حريتك و يهدد بطردك، وأمّ قلقة و شقيقات فخورات، بالإضافة إلى بعض الهوايات التي تمارسها كالقراءة، وفورا جمعت عنك رأياً عاماً وصرحت على نحو مريح أنها أحببتك قبل أن تتعرّف عليك، وقد أسعدني ذلك بحيث ابتسمت ابتسامة صارخة عزّزت ظنونها تلك التي توحى بأننا نعيش قصة حب عظيمة، ومرة أخرى قاطعت يدي في حركة حازمة، موضحاً أن لا شيء بيننا من ذاك القبيل، وبفعل مراوغتها، تظاهرت بتصديقي كي تتحاشى جدالاً عقيماً لا يفضي إلا بتبديد وقتها الثمين، وهكذا أوصيتها بك، وأردفت أنني أريد جمعكما ذات يوم في تعارف مخطّط له، ستذهل عندما تراك، حسناً يا قطي الهادئة، ينبغي أن تأتي في زيارة إلى مقر عملي أنت أيضاً رفقة جارتك المماحكة، فلدي لها ثلاث رؤوس ملوّنة لتتساجر معهن، وأستدعي بدوري ابنة عمتي لتتعارفا، وقد أرسلت لك بريدها الخاص لتتواصل معها في حال تشاجرنا وأردت شخصاً من عائلتي تشوهين صورتي أمامه، أو في حال كنت بحاجة إلى دعم نسوي، إن سمراء من تلك الفئة التي تدعم القضايا النسوية، وهي أعجوبة في الخطابات الرنانة حول حقوق المرأة، وإن كنت تبحثين عن رفيقة جيدة تجيد انتقاء الثياب أو تبحثين عن مواعظ جيدة لتعاقبي رجلاً أزعجك، فهي شخصية

موقفة كذلك، احتفظي به وإياك أن تضيعيه، فلا أعرف متى ستحتاجين إليه، سجّليه في دفتر خاص

خليلك العزيز إلى الأبد."

_عزيزي العصبي الغامض خليل

لقد تم الاحتفاظ به كما طلبت، خامرني شعور غير مريح بينما أنا أفعل ذلك، هل تسعى لإخفاء بعض الأمور عني، أو أنك تغلفها بتلك الدعابات خفيفة الروح، أنت لن تتعرض لأي سوء، وعندما أرغب في شكايتك إلى أحد سأشتكك لنفسك، لأنك صديقي الوحيد، ما هذه السياسة الملتوية الجديدة في التعامل مع أعصابي؟ لن أجادل طويلاً فأنت عندما تقرّر أن تكون إنساناً غامضاً تجمع كل مواهب العالم وتكرسها لغايتك.

هناك ما ينبغي أن تعرفه، ليس بالأمر الجلل، لم أكن لأطلعك، لولا أنك ستراني هذا السبب أعرج قليلاً وعلى وجهي بعض الكدمات البسيطة، أركز على كلمة بسيطة فتوظيفها نموذجي. أجل بالكاد تستطيع رؤية اختلاف طفيف على وجهي، لقد تعثرت قدمي بينما أنا أنزل الدرج و سقطت، وأصببت ببعض الجروح الخفيفة على مستوى الوجه والركبتين واليدين، وإن امتنعت عن تدقيق النظر في وجهي لن تراها إلا كبقع صغيرة عديمة الأهمية. أما عن السبب، فقد كنت متوجهة إلى بيت جرتي العزيزة ناهية الممر نهباً، لمساعدة ابنتها سالي في حل مسألة الكيمياء الصعبة، تكرر الفتاة هذه المادة، و بدل أن أصل إليها عند الساعة السابعة و خمس دقائق، وافيتها عند الثامنة ونصف، ليس بسبب أي متألمة أو عاجزة عن المشي. لا، لكن أُمي أَلقت خطاباً مرتجلاً بهذه المناسبة المتعثرة، رغم ما أبديته من شكر و حمد حول سلامة ذراعي و ساقِي من وضع جيبة بيضاء مقيدة للحركة. و بقدر ما كانت دعاباتي مضحكة ليا سي الصغيرة، بقدر ما ألهمت نار الامتعاض في العينين القلقتين. أسبق لقاءنا بإعلامك حتى لا تدهش عندما تراني، فكرت بإلغاء الموعد المعتاد، و قبل أن أصوّت لصالح خطتي المتفادية لمقابلتك، نبذتها فأنت ستحتفظ بحقك في المعجى. و لست راغبة في أن تقضي اليوم لوحدك، و كنت سأصف بقاءك في الحديقة بعد انصرافي بالمؤلم لي، لا جدوى من تعريض نفسك للبرد و الشمس، والأمطار الغزيرة. فأنت مدين لجسديك بالعناية، و مدين لي أنا بتكريس الرعاية له، إنه واجب الصداقة بيننا الذي يحتم علي تنبيهك.

المهتمة إلى الأبد أثيل "

ملاحظة سيكون قلقك كقطرات مطر على زجاج لأن الكدمات طفيفة جداً .

" غنيمتي النموذجية أثيل "

إنك دَرّة خرافية في تهوين الأضرار، ولست مسرفا في إطراء تواضعك المملّف للحقائق، كدمات بسيطة في السادس من فبراير على الساعة السابعة و دقيقتين بينما كنت تتزّهين في السلم، أليس كذلك؟، لقد أحدثت كدماتك البسيطة ارتجاجا في وظائف الدماغية إن كان يهّمك أن تعرفي، كما أن الهيستيريا التي أظهرتها لم تكن ذات قيمة إذا ما قيست بالغليان داخل جوفي، وإلى هذه اللحظة لازالت يداي ترتجفان من خطواتك المتعّرة، أيتها الموظفة النموذجية، لقد وظفت كلمة لا تنسجم وطنيا وحالة وجهك الكارثية المملوء بجزر متقاربة قرمزية وبنفسجية وزرقاء فاتحة، لولا أنك تمتعت ببعض الحذر، لكانت أسنانك حطاما و لكشفت ابتسامتك المستخفة عن مغارة علي بابا. أتساءل أين توظفين كلمة كارثية، في رسالة من القبر أو من مصلحة الإنعاش وأنت في غيبوبة مريحة على شراشف الموت. أعيد فأقول إنك لدَرّة خالصة يا طفلي، لم أشعر أنني تخلصت من كل العتاب و اللوم تعليقا على طيشك المستفز، لم يشف غليلي بعد، هل تعاني قدماك من متلازمة السقوط؟ أرى أن تعريضهما على طبيب ماهر في المهنة ينعم ببعض الخبرة الحصيفة، تسقطين في الجبال ومن أعلى السلالم، ثم تواجهيني قائلة بوجه منقّط بالتورّمات: نحمد الله أن الأسوأ لم يحدث، أستوضح منك يا أنستي ما الأسوأ في نظرك؟ كان عقلك المصون شاردا في عوالم أخرى، ربما سبقك إلى كتاب الكيمياء الخاص بالفتاة المدلّلة سالي فأنت مولعة بأمها رغم مثالها المتفوقة على عدد سكان الهند، تخلي عن تهوّرِك في المشي فلست مستعدا لسماعك تروين لي بسرورك المثير للأعصاب قصة عن شاحنة دهستك، بينما أنت ملفوفة بلفائف بيضاء على سرير أبيض ثم تجسين نبض حنقي بقولك كدمات بسيطة يا خليل

خليل المستاء"

ملاحظة، أنا لا أمطر على الزجاج يا حلوتي، أنا أمطر على رأسك المتفوق في البساطة، ما هذه الكلمة المثلجة!"

"المستاء مني خليل

يبدو أن تمهيدي المراوغ، لم يلق ترحيبا من طرفك شأنك كوالدي، فلقد جارت غاضبا بمجرد أن وقعت عينك على وجهي، و ليس لي الحق في الانزعاج من لهجتك الحادة، لكونك تقلق علي، أعدك أنني سأراعي موضع قدمي في المرة القادمة، وأكون متيقظة بصورة مريثة توافق رغبتك. أتساءل إن ما كان منظر وجهي القبيح قد أزعجك، فلقد كنت تتأملني بطريقة لم أكنه معناها، هل ستسرك صدائتي إن ما تشوّهت تعابير وجهي ولم أعد الفتاة الجميلة التي يسعدك النظر إليها؟ أو حسنا لو أنك تعرف عني أمورا مخيبة أخرى؟ لا نستطيع عرقلة بعض

الوقائع من الحدوث، أتساءل بفضول بينما أستمع إلى صوت الأطفال الصاخب يلعبون في الشارع ويفعلون عبارة (مرر لي الكرة) بينهم
أثيل الممتنة لقلقك عليها "

"حمقائي الغريرة أثيل

أعتذر فلم أجد وصفا يلائم تفكيرك غير هذا، كم يؤسفني أن تكوّنني عني انطبعا ضنيننا سيئا، كذاك الذي ملأت به سطور رسالتك، هل تتحرّب سخافاتك لأجل إثارة حنقي؟ كنت أشعر كما لو أن تلك الكدمات المؤلمة احتلّت وجهي أنا، وبينما كنت تتظاهرين بأنك لا تشتكين من أي ألم، كنت ألاحظ حركة قدمك اليسرى، كان وجهك ينكمش حينما تجربين نفسك على الوقوف عليها كأن شيئا لم يحدث، ولم أشأ خصّها بملاحظاتك كيلا تقتلي نفسك في إثبات النقيض لي، ففتعلّي تظاهرك المثابر لتسيئي إليها أكثر من ذلك، هل قمت بزيارة طبيب لأجلها؟ ثم هلا تفضلين وتحافظين على نفسك قليلا، فأنا لست متحمّسا لخسارتك؟ أما بخصوص وجهك، فهو يبهرنني حتى مع خريطة متكاملة من الحبوب و البقع الحمراء أو الداكنة، إنني أعشق روحك وليس وجهك الذي لو حدث أن اكتشفت أنه ليس جميلا منذ النظرة الأولى لما تطرّف موقفي عن سابقه، وبدل عيوب كان يتعيّن عليك توظيف كلمة أسرار. أدرك أنك تطمرين سرا في مؤخرة عقلك بحيث تجرّنيني إلى عدم ملاحظته، لكن لا يا ذكيتي الجميلة لن تنطلي علي حيلتك

خليك الذي لن يتخلّى عنك حتى مع عيوب تفوق سكان الصين "

"عزيزي خليل

اليوم هو الجمعة السادس عشر من فبراير و غدا هو السابع عشر، عيد ميلاد سعيد يا خليل، هل من خطط جاهزة للاحتفال؟ لا أستطيع إقناع نفسي أنك ستحيط نفسك بأوراق العمل وتنغمس بالتفكير في طاقمك الكادح، ربما هم في هذه اللحظة جزء من حفلة مبهجة ممتعة لعيد ميلاد قائدهم اللامع، و تحتلّ أسماؤهم المراتب الأولى في لائحة طويلة، لن يُسمح لي بحضورها حتى لو كان بيتك ملتصقا ببيتنا، فأمي مع تفكيرها العصري لا تميل إلى فكرة السماح لابنتها بحضور حفلة شاب أعزب و لو أن خالته تسكن الغرفة المجاورة لغرفته، أتمنى لك عيد ميلاد سعيد مليون مرة يا عزيزي

أثيل المهنتّة "

_ "خطّي الوحيدة أثيل

قبل أن أفتح لك أبواب خططي لعيد ميلادي، يسعدني أن أمك العصرية لا تسمح لابنتها

الفاطنة جدا بحضور حفلة ميلاد شاب أعزب يعيش رفقة خالته، إنني متيم بحب هذا النوع من الأمهات التقليديات الحريصات، سأضع في رصيدك المعرفي أن عيد ميلادي يمرّ كسائر الأيام في حياتي، حيث أن أمي رحمها الله تضع الاحتفال به في رف البدع من وجهة نظرها الحريصة ولست أخرج عن مدى حرصها ،كانت تكتفي بالتهنئة فحسب، ولهذا سأجيب فضولك أنه لا خطط جاهزة أو غير ذلك للاحتفال به، ماذا عن خططك أنت بشأنه. فرفض الهدايا من الأشخاص المقربين الأعماء على قلبي مفقود من شخصيتي، لا تخبريني أن مليون المرة تلك لعيد ميلاد سعيد هي ما تغلفينه كهدية الآن، لن أقبل بها على أية حال، أقول هذا لأوفر عليك عناء الاكتفاء بها،لم أنل منك السنة الفائتة إلا دعابات عن صديقاتي ،كأنك كنت تقولين ،علي أن أزهد و أصمد في وجه المغازلة و أتصرف كرجل متزوج وفي لزوجة غير موجودة ، و أظهر بمظهر السافل بتجاهلهم و عدم الاكتراث لهم. إنك تصنعين مني أعزبا جانا مشكوكا في ذكوريته، أشكر الله أن عيد ميلادي سيكون غدا يوم السبت الموافق للقائك، وبما أنك تحرميني من الاستمتاع بفتح المجال لصديقاتي، فأنت بالتأكيد تحضرين البديل. أجل يا مهددتي يستحسن أن تجهزي هدية جميلة لصديقك الغالي على قلبك الذي تقدّرته تقدير العجزة المشرفين على القبر، و إلا حرّكتني رباح المعجبات بعيدا عنك، فأذناي المرهفتان ستنعمان بكلمات سارة تثلج معنوياتي المنخفضة، لن أدسّ أي اقتراح في رأسك، تولّي المهمة كاملة، ولن أنتزع منك أي شيء لا تريدين إعطائه لي، وسأرضى بأي هدية شريطة أن لا تشتريها من محلّ و تدفعي مقابلها نقودا، لنقل أن كلمة معينة من ذلك الصنف الذي يهزّ العواطف كقيلة بإرضائي، ليست من فئة التقدير و الاحترام، فلم أفقد بصري بعد يا طفلي كي تقدّريني، أو على سبيل أن تثيري دهشتي، اقترحي أن نقضي اليوم بطوله سويا، أو نتجوّل في أنحاء المدينة إن كان رجائي لا يشين سمعتك. كما أن فكرة جلب باقة من الزهور الحمراء لخليلك ليست بالفكرة الهيّنة، أما إن كنت تتراشقين الأفكار بينك و بين جارتك المجنونة الآن، فذلك أمر آخر لا يعني، ربما تقترح هدية تجعل عيني تتسعان من الدهول، فهي أعجوبة في تعكير مزاج الدماغ البشري المحب للهدايا البسيطة، أوظّف كلمة بسيطة

خليل "

ملاحظة: عقلي الآن مثل سوق الأسهم ترتفع فيه التوقّعات وتنخفض، هلا تسعديني بهدية

جيدة "

"كتابي المفتوح أثيل

أخشى إن قلت أنه ينبغي أن تختاري بين صداقتي و بين كتبك الكريمة، أن تخدمك عبارة

أجائنا كريستي الشهيرة القائلة: قال لي ذات مرة، إما أنا أو الكتب، لازلت أتذكّره عندما أقوم بشراء كتب جديدة.

وهكذا أكون صفحة مطوية انتهت صلاحيتها في حياتك، لنقل أن هديتك أعجبتني و عنوان الكتاب يبدو مثيرا، وأنا متشوّق لمعرفة القاتل التعيس، ولكن ألا تشعرين أنه ينبغي تهذيب حسّك الأنثوي قليلا؟، هل تجهّزين لارتكاب جريمة يا أثيل، إنك تبالغين في حب كتب هذه المرأة، ومضت فكرة وثنية في رأسي منذ قليل، فهرولت لأقسم لك أنه ليس لي صديقات، وأنني مسرور بقضبان قفصك الصلدة، فلا تفكّري في قتلي عن طريق وضع الزرنخ في كوب القهوة، بينما أنا أراقب وفود المركز التجاري أو أغيب لبعض الوقت. فأنا لن أقبل ذهابك إلى السجن حتى لو كانت صفتي الضحية، حبّذا لو وقع اختيارك على هدية أخرى كمنديل أبيض مطرّز عليه اسمينا بلون زهري فاتح، وهكذا يثمر حسّك الأنثوي

خليلك المسرور بكتاب المجرمين والقتلة

ملاحظة: أحضري كتابا عن طريقة معاملة النساء في السنة القادمة، وإن كنت واثقا أنه مكونا من مليون صفحة، على الأقل سيفيدني في التعامل مع زوجتي المستقبلية "عزيزتي أثيل

أليست الذكريات الفائز دوما في حربنا ضد النسيان، إنها ترشق بصرها في كل مكان مألوف نذهب إليه أو نمرّ بجانبه و خاصة تلك المقيمة التي تصرّ على الالتصاق برؤوسنا، ما أشقى أصحاب الذاكرة القوية النشيطة، فمن بين جميع أنواع الشقاء لست أشفق إلا عليهم، هل لديك ذكرى فائزة تسبب لك ذاك الوميض الحزين الذي يعض عينيك؟ إنه لا يزول يا فراشتي رغم أن بريقه قد خفّ على نحو ملحوظ، لمعرفة الحل ينبغي التعرّف على المشكل في لقاء صريح واضح، هل تتكرّمين فتوضّحين؟ عزيزتي أليست تثقين بي؟، سأفهم أي شيء، أعدك أنني سأدعمك و أؤازرك و أخذ بيدك إلى شاطئ النسيان، أخضعيني للتجربة و ستبهرك النتيجة خليلك إلى الأبد مهما حصل "

" عزيزي خليل

ذهبت إلى الحديقة فلم أجدك هناك، إنها المرة الأولى التي تتغيّب فيها عن الموعد دون أن تعلمني بذلك ، هل حصل شيء؟ كما أنني لم أتلّق منك رسالة هذه الصباح، هل أنت مريض؟ هل أصابك مكروه؟ إنني أرتجف من الخوف يا خليل، أخشى أن تفد إلي أخبار سيئة، عندما عدت إلى البيت أول شيء فعلته هو كتابة هذه الرسالة، أرجوك أرسل لي ولو كلمة واحدة تطمئنني على صحتك

أثيل "

"خليل

إن الساعة تقارب الساعة، هل تلعب معي لعبة قائمة على فحوى رسالة الخميس الأخيرة، حيث قلت أنك حرّ في فعل ما تشاء حتى الغياب، كانت تلك لحظة عابرة تفوّت فيها بحماقة، إن ما عقدت العزم على إفزاعي فلن تنال مني المصالحة إلا على إلحاح منك، وقد تستمر مخاصمتي لك، لست أمزح يا خليل "

" خليل..

لا تستهن أبدا بفتاة هادئة مثلي عندما تفقد أعصابها، وقد أوصلتني إلى نقطة أكاد أنفجر فيها من القلق، فمنذ أيام لم أتلّق منك أي رسالة، حسنا لا تفعل ما تشاء لست حر كما أنني لست حرة أيضا ، أليست تلك العبارة التي قضيت أسبوعا تريد فرضها؟ لنقل أنني أقبلها، كل ذلك بسبب حديث عابر مع رجل من معارف السيّدة سميحة، لا تجمعني به أي معرفة يا خليل، إن لم تفد إلي رسالة خلال ساعتين سأضطرّ إلى التواصل مع قريبتك وأخبرها أي الأنايين القساة هو أنت، لست أمزح يا خليل "

"آنسة سمراء....

إنني أعتذر لتطفلي عليك بهذا الوقت المتأخّر من الليل، أنا أثيل، لقد سبق و حدّثك خليل بخصوصي، كنت أتمنى لو أن لقاء مناسباً جمعنا قبل أن تفد إليك رسالة من قبل فتاة غامضة لا تعرفينها، على أنني وجدت نفسي مضطّرة إلى ذلك، إنني لا أستقبل أي رد من خليل على رسائلي وانتابني القلق عليه، أخشى أنه لم يكن حريصاً على نفسه، فتوعّكت صحته نتيجة إجهاد نفسه في العمل، هل أطمع أن تطمئنني عليه وأكون شاكرة لك

أثيل "

"عزيزتي أثيل ... أعتذر لأنني أرّد عليك بعد يوم من ورود رسالتك إلي.لدي أخبار سيئة لا أعرف كيف أنقلها إليك، و باعتبار خليل كان يشعر أن مأزقا سيحلّ به،أوكل إلي مهمّة الاعتناء بك، يؤسفني إبلاغك أنه تم اعتقاله ، يوم الجمعة العاشر من آذار عند الساعة العاشرة صباحا "

الفصل السادس

"تم اعتقاله" عجزت أثيل عن إشاحة عينها عن العبارة المؤلفة من لفظين، كانت قبرا ضيقا دفنت فيه نظرها، وقبل أن يستبجح الإدراك السخين عقلها و يجتازه الفهم الرهيب، دبّت فيها قشعريرة ناجمة عن صدمة عنيفة "تم اعتقاله"، تم اعتقاله" دوى الصدى المتكزّر المفزع في رأسها، من الذي اعتقله ولأي سبب؟، وقع عليها النبا كالصاعقة المزلزلة، كان قلبها مصدوما جامدا كأنّ قناعا من الجليد التفّ حوله في ظرف الثانية، ووجهها صلب كالجرانيت، يداها ضاغطين بحركة لا شعورية على سروالها المنزلي في منطقة الركبتين، وعلى الأرض بجانبها علبة نحاسية مربعة مقلوبة انفلتت من حجرها فتناثر محتواها، كرات من الخيوط الملونة، وإبر الخياطة ودبابيس ذات لون فضي و أزرار ملونة بأحجام كبيرة وصغيرة، مقص صغير، التي كانت تختار من بينها زرا مناسبة يعوّض الزرّ المفقود المستدير من كمّ الفستان، و تدلّى إلى الأرض الفستان الأزرق الداكن المتملّص المزّين بأزهار صغيرة بلون الخردل، فسقط في طيات قريبا من العلبة النحاسية .

لم يسبق لها أن تخيلت أنه سيُقبض عليه، لأي سبب تم اعتقاله ؟، سألت مرة تلو الأخرى، إنه إنسان مسالم محبوب رغم عصبيته الثائرة أحيانا التي قلّما اهتمّ بهذيتها وتهويتها، وتابعت شاخصة ببصرها إلى شاشة الحاسوب فترة غير محدودة فاترة الروح و الهمة، تنقل صدرها غمامة من الجزع الكاسح، تنتقل عينها في حيز ضيق مثل حفرة، (من اعتقاله إلى تم) ثم تعود عكسيا من (تم إلى اعتقاله) تنظر إليها و كأنها لا تراها أمامها؛ بل إنها كانت شاردة الذهن ضائعة الطريق وقد غُمس فؤادها في هول مصيبة هائلة.

كانت الأفكار تارة مثل أمواج البحر العاتية تتخادل في حركة إيقاعية منخفضة بعد أن تصطدم بعقلها "ما الخطب، لماذا قُبض عليه"، وتارة أخرى كانت مثل الجمر الأحمر يتقد بخوف لاهب، وحرارت أثيل ماذا تفعل؟ إن ما استمرت تتساءل عن الأسباب بين عظام رأسها فلن تحظى بجواب واحد، ينبغي عليها أن تطرحه ضمن زمرة من الأسئلة الأخرى في رساله استفسارية توجهها إلى ابنة العمّة فوحدها من تملك جوابا، لكنها بطيئة كسلحفاة و إن ما تلقت الرسالة الآن فلن ترد عليها إلا بعد يومين أو ثلاث، فماذا هي فاعلة إذا؟ و رفعت نظرتها الشاخصة عن الحاسوب ثم حركت عينها أليا بشكل مقوّس في جميع الاتجاهات انطلاقا من زاوية الغرفة مرورا بشقوق الحائط و النافذة وصولا إلى الزاوية الأخرى ومع كل حركة كانت

تصطدم بفكرة مروعة، وقطع حبل الأفكار المشوّشة نصيحة أريبة من عقلها المملّخ ببقع الاضطراب: ابعتي رسالة فوراً ليس واحدة فقط؛ بل واحدة و اثنتين و ثلاثة و عشرة بإصرار لا يذوي، واطلبي رقم هاتف بيتها ثم اخرجي في هذا الوقت المتأخّر من النهار بينما الشمس الناعسة تنهي دوامها وتودّع السماء، رغم اعتراضات أمك المحتجّة واقصدي دكان الهاتف الثابت في نهاية الطريق العام وإن حالفك الحظ و لم يكن معطّلاً ستستوضحين منها سبب اعتقاله بتفاصيل دقيقة و بصوت مفسّر، فهذه الأنسة على ما يبدو تكره كتابة الرسائل كابن خالها. ولذلك جاءت رسالتها ضئيلة التفاصيل، مهمة المحتوى.

وبينما هي تحرّر الرسالة الأولى بيدين متعزّتين كقدمين ضمن زوج من الأحذية متصلبيّ الخيوط، معيدة الكلمة الواحدة مرة و مرتين لاحتوائها أخطاءً تحرّف معناها وقلبيها يقرع كطبل بينما غلّفها الذعر من أعلى رأسها إلى قدمها، وعلى نحو مبالغت، لدغت ذاكرتها خاطرة مُرّة "الوزير مرزوق"، لقد نسيت أمره، لأنهما لم يتطرّقا إليه منذ مدة ليست بالقصيرة، فخليل ما انفك يحوم حول فساده، وما عتم يحرّض الرأي العام عليه و يميّط اللثام عن تجاوزاته ولصوصيته، فتبيست يدها مثل خرسانة متماسكة وترملت حيرتها بين سواد الإدراك و راحت الكلمات التي كتبها تتراقص أمام عينها، ثم توقّفت عند كلمة لماذا؟ لا داعي لها الآن، ليس من شك أن الوزير مرزوق هو من كان خلف واقعة اعتقاله وسرعان ما ضغطت يديها على صدغها داعمة مرفقيها بحافة المكتب متمهّدة تهيدة الرعب، وعيناها توّرعان النظرات على الحروف كأنها جالسة على كومة من الحطب المتوقّد تحترق في صمت: لماذا ورطت نفسك في هذا المأزق المهلك يا حبيبي؟.

وتصدّت خاطرة أخرى بضاورة لسابقتها، لأن هذه مرعبة و رعبها أكثر من أن تحتمله أعصابها: شجار عنيف، شكوى من أحد الحاقدين الحاسدين، اتهامات باطلة، سوء فهم، أجل سوء فهم وسرعان ما سيحلّ ويعود إلى البيت ثم يكتب لها رسالة مُطمئنة تسكّن فزعها وتطفئ نار قلقها، مقوّضة جدار خوفها. فأقسمت أنها ستخبره أنها تحبه، و أن الحياة دونه جسيم، وأنها مستعدة لفعل أي شيء في سبيل أن يهنأ، تحبه بعصبيتها وهفواته و كلماته القارصة الناقمة على طاقم عمله، تحبه بنديته الواضحة على صدغه الأيمن الناجمة عن سقوطه، تحبه بمساوئه ومزاياه، واستهتاره ولؤمه ووداعته ودماثة خلقه، تحبه حتى عندما كان مقعداً على كرسي متحرك، ولو عُرض عليها أن تقضي ما تبقى من عمرها تدفع كرسيه لما وجدت في ذلك إلا تشريفاً لها وغبطة فارة من المنطق، تحب كل ما فيه من شعره الأسود الكثيف إلى قدميه، من ابتسامته العذبة إلى عبوسه المستطرد، من عناده المتصلّب إلى ليونته

المرنة، تحبه من أربع سنوات خلت، وكل يوم كان حبه يتضاعف في قلبها حتى غدا لا يسعه قلب واحد.

ليته فقط يعود إلى البيت، وستخبره بكل شيء، نعم ستكاشفه بكل شيء، بعارها وجسدها المدنس، وماضيها المخزي، وستجثو على ركبتيها باكية ناشجة معترفة متوسدة الأسباب مستندة على الظروف الحالكة، تتوسله مسامحتها وأن يرضى بها على حالها، لأنه وطنها وليس لها من وطن غيره، وطيلة تلك السنوات كانت تعيش في منفى صدئ شاقّ قصيم لحيط بالموت، أسوأ من الجحيم بلهيبه المستعر، ليته فقط يعود، ليته يساهم الآن برسالته في فكّ نسيج هواجس ملعونة سيطرت عليها كشيطان، ورفعت عينها إلى السماء: يا الله أنقذه، امنحه رعايتك، اجعله لا يقضي ليلة أخرى في السجن، سأبرّ بأي وعد أقطعه الآن، فقط أخرجه من ذلك المكان المعتم المغلق البغيض فاسد الهواء، يا الله.

وظفقت تردّد الدعوات، وجاهدت كي لا تبكي، ليس وقتاً مناسباً للبكاء، كما أنه ليس مرتعاً ملائماً للإغماء، ينبغي أن تتماسك وتضبط أعصابها في وجه العاصفة، وإن لم تتحلّ بالصبر، ستجنّ.

لكن الخوف رفع هامته شامخاً ساخراً يهدوء عقلها ينسج لها توقعات مخيفة فتشجّت يداها ونزف صبرها ، فتابعت من حيث توقّفت عن ما يهون فاجعتها

"لماذا تم اعتقاله؟ ، إنك لم توضّحي السبب في رسالتك، هل تشاجر مع أحد "إن اقتراح الفرضيات المرنة للآخرين، ربما لا يحدوهم إلى إدراج ذلك السبب الرهيب المخيف، شبيهة بفكرة: عدم التنبؤ بالشر يبعده، واعتقدت لغباؤها أن حيل الطفولة قد تنطلي على الواقع فتغيّره.

"هل تورّط في مشكلة مع أحد، هل هو سوء فهم، أجل ربما هو سوء فهم"
وأثناء دقيقة الانتظار تلك، فقدت رباطة جأشها المتصنّعة فأعقبتها برسالة وجيزة أخرى، غير عابئة بما قد تظنّه بها، ربما تفهم من خلال منظار اللهفة أنها تحبه، فلتجزم، لن تعباً ولن تبالي _ "أرجوك يا أنسة سمراء أن تطمئني عليه، فأنا في حيرة هائلة منذ وردتني رسالتك، لا أعثر على تفسير مقنع، مهما بذلت من جهد، إنه أحد الأسباب التي ذكرتها في رسالتي الأولى، أليس كذلك؟ "

و نتيجة عدم حصولها على جواب قاطع، وطّدت العزم على غايتها، فتجلجلت يداها نحو تحرير رسالة ثالثة لاعنة بطء سمراء الممرض في الرد

_ "انسة سمراء

هل أنت خارج البيت، أحاول تسكين روعي لكن من دون جدوى، أرجوك

وكفت عن متابعة الكتابة؛ فلقد جاءها الرد منها بعد دقيقة

ـ "عزيزتي أثيل

ليس أيا من تلك الأسباب التي ذكرتها هي من كانت وراء إلقاء القبض عليه، لقد حاولت أنا ووالدتي إثناؤه عن ذلك الطريق على أنه لم يزد على تجاهلنا و القول أنه يعرف ما يفعل، لقد ألقى عليه القبض بسبب إهانته الوزير مرزوق عدة مرات في مقالات جريئة مع ذكر اسمه وأعماله الفاسدة علانية دون الاكتفاء بالتلميح كأنه لا يعرف أن تلك مجازفة بتّارة، ولقد قمنا هذا الصباح بوضع محام جيد تحت تصرفه، وأشك أن ذلك سيفيده يا عزيزتي، يؤسفني أن أصف لك الوضع بالخطير، قد لا يخرج من السجن في هذه الفترة الراهنة، على الأقل هذا الشهر، كما أنه لم يُسمح لنا بزيارته هذا الصباح. أجل، لم نتمكن من مقابلته، سأوافيك بالأخبار الجديدة عندما توجد سمراء"

وضغط خوف مميت على عقلها، ونهشها الألم كمخالب نسر جائع، لم ينفعها عزل الوزير مرزوق من الفرضيات وراء القبض عليه، ولن ينفعها أن تخفّف من العواقب الناتجة عن تصرفه الأرعن إن ما هي أقدمت بتفاوض على ذلك، سيدفع الثمن غالبا إذا، دائما ما كان هناك ثمن غال بانتظار الحمقى الذين يقولون الحقيقة في وجه الفاسدين والصوص. فالفاسدون لا يعاقبون على شيء بقسوة كما يعاقبون على قول الحقيقة، وسيطبّق عليه الوزير أسوأ العقوبات بعد أن لاذ بالصمت الكاره المرعد زمتنا محدودا. أو لو لم يكن له نفوذ واسع أوسع من مدينتها مئة مرة؟ أكان ليستمر في فساده دون أن يحاسب أو يقال من منصبه؟، نفسه ذلك النفوذ سيمرّغ رأس خليل في السعير والويلات، نفسه من سيقضي على مستقبله وحياته، نفسه من سيبتّر حرّيته ربما إلى الأبد، الى الأبد، حيث لن تتمكن من رؤيته مرة أخرى. ربما سيقتلونه بعد سنة أو اثنتين، بعد أن ينسى الناس أنه كان موجودا، و بعد أن يسلموا بأبديّة حكمه، مؤبد اذا! حكم مؤبد. وفي هذه اللحظة لا يعلم الحكم إلا الوزير وزوجته و بعض من أصدقائه المتملقين، المتحلّقين حوله في حفلة سخية متباهية ظافرة. من المؤكد أنه جهّز من أجله زمتنا من التهم الملفقة، تعاون مع أعداء الخارج، جاسوس لصالح دولة معادية، خطر على الأمن العام، العمالة والخيانة و التشهير دون دليل و بيع الضمير و الوطن، بينما لا يعني الوطن للوزير إلا ثروة تغدّي مصارفه و تحسن جودة حياته. أما القاضي فإن علمه بالحكم كجهلها هي بالذات حيث أنه غارق في حوار عالم رفقة زوجته عن الأماكن التي ستتم زيارتها والتي يتحمل تكاليفها الوزير الحاقد، و أرسلت هذه الضربة غصّة إلى قلبها و عزفت أوتار ألمها لحنا كئيبا حزينا.

وراحت المخاوف تترنح يمينا وشمالا، بينما كانت تطلأ أرضية الغرفة بقدمين مضطربتين مرتجتين فاركة يديها بقوة، لقد حاولت أن تثنيه أيضا، وتوسلته أن يعدل عن هجوماته الصريحة، وقابلها بالبرود الذي قابل به قريبته. وتمثلته بين عينها معزولا مهزوما متورما في سجن انفرادي يقود إلى الجنون أو مع جماعة مختارة بعناية من القتلة والمجرمين والمغتصبين المتوحشين، جماعة حقيرة قدرة مجهزة بمباركة الوزير لدفعه إلى الرضوخ و طحن كبريائه وتمريغ كرامته، زمرة من صنف آل كابوني، جوزيف مينجل، وفريتز هارمان وآيد جين وغيرهم. رجال ضخام الجثة قساة التعابير، بطباع حادة. وجوههم شريرة. رجال لا يتورعون عن كسر ضلع أو ضلعين، ساق أو ساقين للتخلص من الضجر والحصول على بعض التسلية، لم يتم إرسالهم إلى السجن إلا لارتكابهم أفظع الجرائم.

"ااا" تأوهت، لقد دار حوار بينها وبين رفيقتها في العمل، وروت لها تلك الفتاة عن وسائل مريعة لتعذيب ذاك الصنف من المساجين السياسيين "الذي يقولون الحقيقة"، سواءً الجسدي أو النفسي، سردها شقيقها الذي دفعت به شجاعته الحمقاء إلى برائن السجن، ألم تسمعها وهي مرتعدة ملتاعة عن الطرق التي يعاملون بها!!! سجن انفرادي، تعذيب متواصل، صعقات كهربائية، ونوم بدون ثياب في غرفة متجمدة بالساعات، ضرب على القفا، حرمان من الوجبات، إذلال وإهانات، ومعاملة كمعاملة الحيوانات، ثم أحكام ظالمة عشوائية لا تقدر قيمة الإنسان أكثر من قيمة الهائم، ربما سبع أو عشر سنوات، أو عشرون. ليس من فرق، إن كان عليها ستنتظره إلى الأبد، وإن سُمح لها بالانتقال للعيش معه في السجن فليس لها إلا أن تشكرهم ممتنة لكرمهم. ولكن ماذا عنه؟، ستبسط به عنجهية الوزير، ستحطمه بحيث لن يعرف وجهه إذا رآه في المرأة، ولن يعرف نفسه إذا قابلها في الطريق، وفحّت الهواجس في روحها كفحيح أفعى سامّة وفزعت فزعا لم تعرف له مثل أكبر من فزعها ذلك اليوم عندما تلقت نبأ حادثه.

والله لن تسمح لهم بإلحاق الأذى به، ستحميه منهم، تستطيع حمايته إن ما تكالبوا عليه مثل الوحوش الضارية النباشة، وبرز عزم و تصميم في عينها الهائمتين. وعلى نحو واقعي سخرت من نفسها سخرية لاذعة: أحقا، كيف تحمينه؟، ولم تستطيعي حتى حماية جسدك من التدنيس في ما مضى، إنها لا تستطيع إنقاذه إلا بقتله، من أين لها بقوة تتحدّى بها قوة الوزير بنفوذه وأمواله وسلطته وجبروته، سخيفة هي وحمقاء، المشهد مضحك بدجاجة ضائعة تصارع الضباع في غابة موحشة، أتصارعهم بجناحها الخاملين؟ و وقفت بمحاذاة النافذة بذراعين متصلبين تحت صدرها و قلب مهزوم عاجز؛ حبيبي خليل، يا حبيبي الغالي، يا قطعة

من روحي، يا أجمل حلم، أول رجل أحببته و آخر رجل سأحبه، يا كل شيء جميل بحياتي، أنا من دونك لا شيء، أنا رماد متطاير، أنا ورقة يابسة تلعب بها الريح وتنقلها من مكان إلى آخر، أنت وطني وأنفاسي وملجئي، لماذا تُنتزع مني في الوقت الذي تسير فيه الأمور بيننا عل ما يرام !! وزفرت عندما غرّز دبوس حاد في قدمها الحافي رافقه جريان الدموع، وتدحرجت بخفة على الوجنتين الشاحبتين، وما لبثت أن رفعت قدمها بيديها ثم قلبتها؛ فظهرت نقطة حمراء عصرتها، ثم تحركت نحو الخزانة تخطو حذرة و سحبت مندبلا و سرعان ما مسحته عاصرة عينها تهجس بغلّ، كازة على أسنانها؛ لبتك تموت أيها الفاسد، لبتك تختنق ولا تستيقظ أبدا، قبل أن تطاله يدك الخبيثة.

ونجحت في كبح مجرى دموعها، دموع سخينة رقراقة، عاجزة، و بينما كان عجزها يتأرجح في أرجوحة الخواء سمعت نداء أمها تلاه فترة من السكون فأسرعت تجمع الأغراض المبعثرة، ثم فتحت الباب وعبرت الممر حافية القدمين، وأطلت من فوق الدرابزين فرأت الوجه النحيل النير، الوجه الذي تحتاجه الآن لتقابله في حوار يحزرها من ثقل المصيبة، رأت سميحة بجانب أمها وخلفهما و ميرنا متصلبة كأفعى متدلّية الشدقين تراقب وتصيت، رافعة ذقنها مرسله نظرات حاقدة، هي أيضا لا تكثرث لها فليديها ما يكفيها

_ "سيّدة سميحة" هتفت أثيل مسندة يديها على الدرابزين و شيء من الارتياح يلمع من عينها كأنها الإنسان الذي كانت تبحث عنه و بإشارة من يدها دعته للصعود .

_ "لا شيء يدفعك إلى هذا الكمّ من الحماس سوى السيدة سميحة" قالت مليكة مبتسمة ابتسامة متكلفة و شعورها بالغيرة ينتفض "تفضلي يا سيّدة سميحة، تفضلي، اصعدي و تبادلنا الأسرار" كانت هذه نتيجة متوقعة لتحريض ميرنا المتواصل.

_ "ليس لدينا أسرار سوى الشكوى من قطّتي الموءاتين" أجابت ساخرة " تعرفن أنهما تثيران أعصابي و تليقان موضوعا ثريا ، ميرنا هلا تجلبين لي كوب ماء؟ "

_ "حسنا" قالت بتلكؤ و استياؤها مسطرّ على وجهها، فهممت سميحة بصوت ساخط "ليقطع الله نسلك، بومة "

و بعد أن تجرّعت الماء، غصّت ضاحكة "ميرنا ألم تسامحيني في جرعة الماء هذه، أكاد أموت، قادمة يا حبيبي أثيل، أليس الجو خانقا اليوم يا سيّدة مليكة؟! أكاد أشعر أننا في آخر ليلة من الخريف" ثم أدارت رأسها "أثيل هل جلبت لي الوصفة التي طلبتها" و غمزتها و نجحت في حجب غمزتها عن الأم ولكن عيني ميرنا المراقبتين تصيّدتاها "شعري يا سيّدة مليكة، يفقد لمعانه كل يوم، انظري" وأمسكت خصلة باهتة من شعرها المصبوغ "كأن حفلة شواء قد

أقيمت عليه، مع أنني أحافظ عليه قدر ما أستطيع"

_ "ارحميه من استعمال صبغة الشعر، إنه يستنجد برحمة الله، دعيه يتنفس، يبدو كأنه سيختنق" قالت الأم ذلك بسعادة مكبوحة واستدارت على عقبها إلى مركز أعمالها: المطبخ بينما شمخت سميحة برأسها زافرة كثور ثم صعدت الدرج وفي إثرها ميرنا التي اصطدمت بها
_ "ميرنا، على مهلك أكاد أقع"

_ "اعذريني يا سيدة سميحة، ولكن تذكرت عملا مهما" قالت وهي تصعد الدرج مستعجلة وعندما اقتربت من أثيل رمقتها بنظرة مقتضبة مألوفة زاجرة.

"أثيل، هل من أخبار؟" استفسرت سميحة وهي تغلق الباب خلفها بينما كانت أثيل تتهالك

على حافة السرير، مطلقة زفرة أسي وحسرة "هل من جديد؟ ألم يظهر فتاك الشهم بعد؟"
بلى، لقد ظهر أخيرا، بعد أيام من الانقطاع، حامت غريان الشؤم حول الجنة المفقودة، لقد ظهر ولكنه للأسف مقبوض عليه بتهمة ثقيلة، إهانة وزير مغلّفة بغلاف ارتكابه خيانة عظمى أو جوسسة لصالح دولة معادية، أو ربما نشره الأكاذيب وتمويه الحقيقة. لقد ظهر و بظهوره تقلبت معدتها خوفا، وامتلاً صدرها بفرع متقيح. و ليس إلا ظهوره جثة هامدة ينافس على المركز الأول ظهوره سجيناً بتهمة ثقيلة تفضي إلى أحكام قاسية، لقد نكبت بظهوره أكثر مما سعدت، لقد ظهر مكبلاً بسلاسل من حديد مقتادا كمجرم خطير.

"إذا فرجلك الشهم في السجن؟" ووضعت يدها على صدرها متنقّسة الصعداء، متمهّدة تهيدة الارتياح، تحوم حول فمها ابتسامة طمأنينة منعشة، و لولا أن أثيل تدرك بفطنتها ومعرفتها عظم حب سميحة لخليل و تقديرها له لاعتقدت أنها من أنصار الوزير مرزوق، ولكن الدهشة سبقت الاستيعاب في مسابقة محيرة، وخانتها المرادفات فحملت إليها مشدوهة

_ "ماذا؟" صاحت سميحة في وجهها و تلاشت ابتسامتها "هل كنت تفضّلين أن يتخلّى عنك بعد أن تسكعتما طيلة الشتاء في الحديقة، أفضّل أن يكون في السجن على أن يكون ضمن حلقة من أصدقائه الساخرين يروي متفاخرا كيف أنه تجوّل معك في الحدائق، مبديا أسفه لأنك لا تزالين عذراء".

وكان الجواب الساذج، الجاهز قد تسلّق إلى لسان أثيل .

_ "نعم أفضّل ذلك".

فزفرت سميحة بلهجة هازئة

_ "صدق من قال إن الحبّ جريمة بدون سلاح، معروف القاتل و معروف المقتول المغفل، إن المرأة الساذجة تفعل أي شيء للتمسك بالرجل الذي تحب، إنه يتهدد سلامة عقلها،

وسيطرتها على نفسها وارتانها، ما أحرق النساء حينما يقعن في الحب، اه ليرحم الله أيام ارتانك، عندما تحبين يسقط كل شيء من عينيك إلا الرجل الذي تحبين وأولهم المنطق، وانظري إلى نفسك، فخورة أنت بجوابك، أفضل ذلك "وردت عبارتها، مجمدة وجهها ومكومة فمها بغية تقليدها، ثم وجهت الحوار إلى نقطة أخرى قابضة بلطف على اليدين المنقبضتين

_ "كيف عرفت"

_ "أنبأتني ابنة عمته"

_ "لقد حدثني عنها، متى عرفت؟"

_ "ساعة قبل أن تأتي" وبدا صوتها محطما، وأجهشت بالبكاء "أخشى أن تطول مدة حبسه، بل أخشى أن لا يخرج من السجن أبدا، لقد حذرتني يا سيّدة سميحة، على أنه تجاهل نصائحي، وآلآن ماذا سيحلّ به؟ ماذا سيكون مصيره؟" وتعلقت بسميحة متوسّلة

_ "لا تكوني متشائمة يا أثيل، تحلي بالإيمان، هل أضافت قريبتك شيء آخر؟"

_ "ليس شيء ذا فائدة باستثناء أنها أرعبتني أكثر، لقد وصفت الوضع بالخطير وذكرت أنهم وكلوا له محاميا جيدا وقبل أن أتفاهل بالخطوة سحقتها بقولها: إنه لن يستطيع فعل شيء، وإني قد حذرتاه كذلك" لم تترجح النغمة المرتعبة في صوتها، بدا صوت إنسان يحتضر ثم انفجرت بالبكاء ووضعت رأسها على الكتف المرتخي "إنني خائفة عليه، أجل لقد زادت من مخاوفي عندما واجهتني بالحقائق، كانت واضحة معي، ماذا لو حكم عليه عشر سنوات؟ أو أكثر، أسمع أنهم يشددون العقوبات على هذا النوع من المساجين"

وعندما رأت سميحة النظرة اليائسة، خطت بسياستها الرشيدة الموسمية ترانيم من تخفيف المصاب وتزلزلت لهجتها اللطيفة بمهارة

_ "أشكّ في ذلك، أراهن أن الوزير الفاسد يحاول تلقينه درسا فقط، إنه يودّ أن يربعه كيما يتوقف عن التحرشّ به" وفجأة سمعت صوتا عند الباب

_ "ما هذا" فهزّت أثيل رأسها متسائلة و صوت بكائها يتردّد في صدرها "ألا تسمعين؟! هناك صوت عند الباب"

_ "ربما هي قطعة ياسي" أجابت أثيل، ونهضت سميحة ثم فتحت الباب، وبينما هي تتوقّع جاسوسا متلصّصا، عثرت على القطعة البيضاء المرقطة بالأسود تحتكّ على الباب.

_ "قطعة جميلة، كيف سمحت أمك لياسي بالاحتفاظ بها؟ إنها لا تحب الحيوانات" وانحنى تناغي القطعة "ما أجملك، هل تريدان حليبا؟ أثيل أفضل رفقة هذه القطعة الأليفة على رفقة بغلتي، لا يرحّب بهما حتى في حديقة الحيوانات، بماذا سيفيد عرضهما على الجمهور؟" في

محاولة لإبهاج الوجه المهموم، وفي غمرة النواح والدموع الباردة المتساقطة ابتسمت أثيل.
- "إن لم ترض أمك بوجودها، أعلمي ياسي أنني جاهزة لاستقبالها، وأنه مرحّب بها أي وقت
لترها، ما أجملك!! لن تطول إقامتك هنا يا حلوة، ثم ستنتقلين للعيش معي" وعندئذ رفعت
ياسمين القطة بيديها إلى صدرها "أنت هنا إذا، بينما أنا أبحث عنك في الخارج".
وتناولت من الأرض دبّوس شعر برتقالي اللون "إنه لميرنا، سأقضي حياتي أجمع أغراضها،
منذ قليل فقط التقطت واحدا من أمام غرفتي، هل أحببت قطتي يا سيّدة سميحة؟ اسمها
ثيلا"

- "أحببتها" ومرّرت يدها على شعر القطة "إنها لطيفة مثلك، ثيلا مشتق من أثيل لتعلقك
بشقيقتك، كنت انقل إلى أثيل رغبتني في استقبالها إن ما ندّدت أمك بوجودها"
- "أثيل" صاح الصوت الناعم "لن تسمعي بذلك، أليس صحيح؟"
- "لن أسمع" قالت أثيل باقتضاب مولية ظهرها لياسمين التي لو حدث ورأت عينيها
المحمرتين لهرعت إلى أمها تغرقها في آفاق من القلق.

- "حسنا يا ياسي، اعتني بها جيدا، وأحضرها من حين لآخر إلى زيارتي".
- "حسنا، ثيلا قولي وداعا للسيّدة سميحة" ورفعت إحدى القائمتين الأماميتين للقطة لتقول
وداعا، وعندئذ قفلت سميحة عائدة مغلقة الباب، وعندما أصبحت بجانب أثيل خاطبها
مشجّعة

- "حسبك ما بكيت يا أثيل، كما سبق وقلت، لن يحدث له شيء، أظعن في وجهة نظرك،
أتوقّع أن تكون العقوبة ستة أشهر على الأكثر، أجل، كفكفي دموعك، هكذا تماما، وعندما
يعلنون الحكم النهائي سنذهب لزيارته" واسترعت العبارة الأخيرة انتباه أثيل وجمعت شتاها،
ممتصة منها كل اللوعة والألم اللذين كانت تتخبط فيهما. لقد طرقت الفكرة رأسها وكانت
ستتحين الوقت المناسب لتقترحها على سميحة، وهاهي تسبقها مخلصّة إياها من عناء الطلب
و تلعثم اللسان، لقد ذهبت إلى المشفى عندما لم يكن يعلم بوجودها حتى، أو لا تذهب إلى
السجن وهو يحياها؟

ليست واثقة من رواية الحب هذه، فلم يحدث أن كاشفها بحبه، حتى وهو ينظر إليها نظرات
ممهدة للإعلان، ولكن عينيها الودودتين قالتا صامتتين كل شيء، ولم تكن تصرّفاته الحنونة و
سلوكه الدمث وغيرته المجنونة وقلقة المرابي إلا اعترافا صامتا بالحب، إن لسانه لم ينطق
ولكن مواقفه كانت تصرخ معترفة، ألم يستشط غضبا لأن أحد معارف سميحة أطراها قائلا
أنها تزداد جمالا يوما بعد يوم عندما بلغ الثناء مسامعه؟ ألم يصمد في الحديقة أشهر دون

انقطاع فقط ليراها؟ ألا يشاركها كل تفاصيل حياته اليومية؟ ألم يستشرها بكل كبيرة وصغيرة، ألا يستولي عليه الخوف بطريقة هستيرية إذا ظن أن مكروها أصابها؟.

"أجل، سنتسكع حول السجون الآن" أضافت سميحة مسرورة" بعدما تسكعنا حول المشافي والحدائق، أحفظ ما يدور بعقلك قبل أن تفكري به، فخواطرك الكلاسيكية التاريخية تليق بمتحف مرموق لحفظها من الزوال، أو يُؤلف منها كتاب بألفي صفحة بعنوان: كيف تصبحين غبية في الحب، أو الطريق إلى السذاجة، أو دعي عنك الاتزان و أقبلي على الطيش، أو ربما نتائج مضمونة لتكوني غبية أو كيف تركضين من أجل رجل تحبينه، أو طرق مضمونة لصيد الرجل، كلها عناوين تليق بمجهوداتك الجبارة من أجله، إن إقناع غراب بتغيير ريشه أسهل من إثرائك يا زنبقتي البيضاء فلماذا أعاكسك؟ "صرحت باستسلام، فيما كانت ملامح أثيل تنفرج شيئا فشيئا " سيتلوّى وجه ذاك العجوز المتوحّش إبراهيم، وسأعمل على اختلاق أكبر كذبة عرفها التاريخ. أما أمك، فدعها علي، ستموت إحدى قريباتي قريبا على أية حال، أتمنى فقط أن لا تموت قبل الوقت المناسب، وإن ما عاشت فلا فرق عندي سأوظّفها حجة لذهابنا إلى المكان الذي يسجن فيه لا قدر الله طبعاً. إن صهرنا العزيز يستحق منا كل المجازفات، طبعاً سيحمل معه عندما يبارح السجن شهادة خريج السجون، ولكنني لا أمانع فهو لم يقتل أو يسرق بل دخل في سبيل قضية عادلة، إنه رائع، لكن إن ساءت أخلاقه و امتنع عن الزواج مدعياً أن الظروف لا تسمح، أو تحجّج بفقدان الوظيفة وقرينات حجج الرجال للتهرب من الواجب، فأقسم أنني سأحشد ضده مسيرة أولها أمام منزله وآخرها في حيننا، وأجبره على الزواج منك، لا أحد يحقّ له تحطيم قلبك "

وعندئذ تطلّعت إليها أثيل بعينين ممتنتين شاكرتين، يختلج صدرها شعور بالاحترام والتبجيل وسرعان ما عانقتها

بالرغم من سلوكها الصبباني الطائش الذي تبديه غالباً إلا أن سميحة في مواقف حاسمة مشابهة تتحوّل إلى كائن عملي جدي حساس، وخلال السنتين الماضيتين تغيرت تقريبا باستثناء عادة الشجار والمشاريع التي كانت تتحمّس كلما وجدت مرتعاً خصباً لها.

لم تكن تجمعهما أي قرابة دم، ولم يكن فارق السن بينهما إلا نوعاً من الإبهام لدى الكثيرين،

لقد عانتا كلاتهما من الفقر والعوز والحاجة، قبل أن تتحسن الأحوال. حتى في حياة زوجها، لم تكن سميحة أفضل حالاً من جيرانها، قبل أن يتزحزح حظّها منذ أربع سنوات ونصف وترث عن عمها البخيل معظم ثروته المتواضعة باعتبارها وقريبة أخرى وريثيته

الوحيدتين، أما زوجها؛ فلم ترث منه إلا معاشا، يحلّ قضية صغيرة كسراء زوج من الأودية أو ثوب أنيق مع حقيبة جلدية رخيصة.

وعندما زُفّت إلى زوجها في موكب تقليدي متواضع، مناقض لموكب حافل بثوب أبيض ملكي تردّد على أمانى طفولتها، كانت أثيل بعمر صغير، و منذ النظرة الأولى للوجه الأبيض الجميل، انجذبت إليها بجاذبية لم تفسر كنهها، وتعلّقت بها، وكلما كانت تقابلها تستوقفها في حديث طفولي بريء وأدركت بفطرتها التي لا تخطئ أن الفتاة نقيضة أختها من جميع النواحي، بقلب طيب ورحمة واسعة، ولم تعقها نظرية" إنهم مجرد أطفال" عن التمييز بين بواعثها الفطرية أثيل بكياسة خلقها، بنعومتها، برقة صوتها بأناملها العطوفة، وميرنا بروحها السوداء، وتصرفاتها النزقة وأنانيتها العابثة، وقسوتها المتطرفة، فأحبت هذه ونفرت من تلك.

وحيث أن الحبّ فاق التصور، خشيت أثيل أن يهدم سرها المخزي ما ربطته السنوات بإحكام، ويشوّه الصورة المثالية البريئة السامية، وإن كانت مخاوفها ترتعش من كشف إنسان لأغوار عارها بعد أمها، فذاك الإنسان هو سميحة.

إنها عزيزة عليها، وتستمدّ منها قوتها و شجاعتهما، المرأة الوحيدة التي تظهر أمامها على سجيتهما، دون أن تتكلف الراحة أو الهناء، بدون وضع أقنعة "أنا بخير، أنا على ما يرام" كانت تنزع أقنعتها جميعا بمجرد أن تجتمع بها عدا قناع واحد، فمهما بلغ إيمانها بحب السيدة ذروته لم تتجرأ على رفعه بموجب حرصها الدامغ على الاحتفاظ بها صديقة و أما و شقيقة.

_ "هل ذكرت لك ابنة عمته تلك شيء عن المحاكمة" استفسرت سميحة "متى ستتم"

_ "إنها تجهل، لم يسمح لهم بزيارته"

_ "أتوقّع أن تكون قريبة، حافظي على علاقة طيبة معها، لأننا سنستند على جهودها لنحظى بزيارته، و أيضا لا تكثري من إرسال الرسائل حتى وإن كان القلق ينهشك "وعظمتها محذرة" أنا من تلك المدينة أيضا، وأعرف طباع سكانها، ينفرون من الإنسان الملحاح و حتى لا تظهر بمظهر من تركض خلف الرجل، لن تُسرّ أي عائلة بانتماء فتاة من هذا الصنف إليهم" فهزت أثيل رأسها مستجيبة للنصيحة بكيفية ساخرة، أين يدور تفكير سميحة المسكينة، إن الرجل قد يكمل أيامه الباقية بين جدران السجن بينما هي تلقّنها آداب التعامل مع عائلة الزوج المستقبلية، ربما لن يكون هناك رجل، ليكون هناك زواج "ينبغي أن تتحلي بأكبر قدر من الصبر، ومهما حصل، اسبقي اسمها دائما بلفظ أنسة أو سيّدة لا ترفعي الكلفة مطلقا".

الفصل السابع

استلقت أثيل متوترة الأعصاب في سريرها بعينين مفتوحتين، تنقل بصرها في السقف، ومن حين لآخر كانت تتقلب و تتكؤم لعجزها عن تثبيت نفسها في وضعية واحدة أو تسترخي وتمدّ يديها في اتجاهات مختلفة لتخمد عزيمة الاضطراب المتأجج في صدرها، وعندما خاطبت نفسها أخيرا بلهجة مهدئة، استطاعت أن تشبك يديها على قلبها تصغي بغير استحسان إلى التكتكات المتواليّة الصادرة عن الساعة القديمة المعلقة بجانب صورة العائلة في جدار الممر، التي لو قيّض لها أن تتمنى أمنية ما بشأنها لتمنت أن تكون معطّلة مع أن أمها ستفقد صوابها إذا حصل ذلك، لقد كان يثيرها أي صوت، خافتا أو قاصفا، هامسا أو مرتفعا، ويفزع تفكيرها كفزع سرب من الحمام يلتقط حبات القمح عن الأرض، كانت أذناها تترصدان بلهفة صوت الحاسوب، يخبرها بورود الرسالة الموعودة، تلك اللهفة التي كانت دروبا من التظاهر ببرودة الأعصاب، والسيطرة الذاتية على نفسها.

"كم الساعة الآن" سألت، لقد لجأت إلى السير عند الساعة الثامنة والنصف، و بدأ أن فرسخا طويلا مرّ منذ ذلك الحين، لا شك أنها التاسعة والنصف أو ربما العاشرة، لقد تأخر الوقت، لماذا لم ترسل سمراء لها أي خبر عن المحاكمة إذا؟ من المفترض أن تصلها رسالتها بوقت أبكر، و من المفترض أن تنتهي المحاكمة عند الساعة السابعة أو الثامنة باعتبارها انطلقت حامية عند الساعة الرابعة. وما لم يكن القاضي بطيء الحركة أو ثقيلًا بأدائه يستمتع بترك الجماعة تنتظر، أو أن خطبا تقنيا قد استهان بحظ رجلها، فإن حكما ثقيلًا ظالما قد صدر بحقه، و تنفست عميقا عندما ساورتها الفكرة اللعينة، أحكموا عليه بالمؤبد؟ على الأرجح أن السنوات لم تقل عن عشر، إن لعنة الوزير مثل لعنة الأرواح الشريرة الهندية، لن تفارقك قبل أن تفارق الدنيا بثوان معدودة. أجل، أجل، ليس الحكم بالهين. حيث أن سمراء بعد ظهر اليوم و بينما هي تنطلق نحو المحكمة، طمأنتها أنها ستنقل الحكم فورا من فم القاضي إليها مباشرة، أنطق القاضي كفرا؟، أكفر بعدالة القانون إلى حد عجزت فيه النزعة الإنسانية عن ابتلاع الحكم؟ أكان الحكم جالدا متحجرا طاغيا أعى البصيرة؟ بحيث أغمي على العمة فنقلت من فورها إلى المشفى، و ابنتها العليلة مفطورة القلب على قريبتها بجانبها تقبض على يديها في محاولة يائسة لهدئة جزعها وكفكفة دموعها المنهمرة ورفع معنوياتها، أو أن ردهة البيت الآن تحتضن صرخاتها المنقبضة كصرخ امرأة ثكلى، وليس مستبعدا أن تشاركهما الخالة الوقورة النواح

المتقطع بالنشيج، وليس للنساء صبر كصبر الرجال، ولا تعتبر إلا السكينة الأنيسة والصمت المزعوم والكلام القليل ثم التثبث بعدم البكاء حالة غير طبيعية لهن. إنهن ضعيفات بقلوب رهيبة وعيون ندية بالدموع تتجرد من دثار التعقل و سعة البال عند أول إعلان لخبر محزن، وازدردت أثيل ريقها بصعوبة و الهلع الفتاك يتوغّل عميقا في باطن روحها عندما تسلّقت صورة ثلاث نساء نائحات إلى ذهنها المتقلّص: كان حريا بها أن تعلمني بالحكم، لا توجد محاكمة تستمر إلى هذا الوقت المتأخّر، أ كان سفاحا بجرائم جنكيز خان ليحاكم على هذا النحو؟ ربما نسيتي في غمرة السعادة أو النعاسة، فمنذ أن جمعتهما المعرفة بعد رسالتها الأولى، وهي تنتقد بطئها وأعصابها الممدودة إلى اليابان. إن ثقافتها يدعو إلى الجنون، علاوة على أنها قليلة الرسائل، مقتضبة الكلمات، كأنها لا تستحسن أن تتعمّق علاقتهما أكثر مما هي عليه، ولولا أن خليل أكّد على قربتهما لاعتقدت أنه لا تمت له بأي صلة، إنه نشيط حيوي سريع الاستجابة، بينما هي لا يوجد وصف يكافئها قدر بطئها.

حسنا إن هذا ليس مهم، إنها قربيته وكفى، لكن أين هي؟ متى تنوي إبلاغها؟ إنها لن تكون مستهترة جدا بحيث تؤجل الأمر إلى غاية انقضاء محكوميته، أتراها لم تعد إلى البيت؟ أتبقى خارجه إلى هذا الوقت؟.

ووسط دوامة التساؤلات شقّت خاطرة جميلة طريقها، ربما خرج الآن واجتمع المهنيون حوله أمام بوابة السجن، بحيث عرفلوا عودته السريعة إلى البيت، يقبلونه ويحيونه و يطرون شجاعته النارية التي لو رحّبوا بامتلاك نتفة منها لكّرّسوها لنفس الغرض، ربما لن تكون الرسالة الموعودة قادمة من بريد البطيئة سمراء، بل من فارسها الوسيم خليل، وشقّت ابتهامة شجيّة طريقا موازيا إلى شفّتها، إننا نصبح سعداء جدا عندما نلفّ أنفسنا بأفكار جميلة، قد لا يذهب مدى تحقّقها على أرض الواقع أبعد من عظام رؤوسنا.

إذا اتّفق وأن تلقت منه رسالة الآن، ماذا لو أن نصف هذه الجملة الشرطية تحقّق: سأخبر خبزا و أوزّعه على كل فقراء الحي، أيعقل أن هذا فقط هو جزاء خروجه من هذه المصيبة البئيسة!!، إن هذا جزاء وافر القلّة، ونتيجة استخفاف ذاتها بالمنحة أوت إلى وعد آخر: سأترّع بكل راتي القادم إلى دور الأيتام، رغم أن الله يشهد أن يدها لا تملك أي حق لتضعها على الراتب القادم ولا على الذي بعده، فالديون المتراكمة تتحرّق بشوق لتنهش منه كل قطعة، لا يا عزيزتي ليست بالفكرة المصيبة، ابحتي عن غيرها: سأقيم مأدبة عشاء متواضعة على شرف السيدتين المتخاصمتين جميلة وسميحة اللتين بزغ فجر نزاعهما بعد ليلة الزفاف الأولى، ونتيجة عدم استسلام كلا منهما تفاقم الصراع واتّسعت هوة الخصومة، إن الله لا يستحسن عملا

كالإصلاح بين جارين لا يطبق أيا منهما الآخر. وحيث أن هذه المسألة صعبة التحقق، فالعجائز كفيلا بتحقيق مأرب البرّ بوعدها: تنفيذ طلب أو اثنين من طلباتهن اللوححة ويبرّ بكل الوعود، إن مطلع فجر هذه الفرضية البديعة، جعلها تعد بأي شيء.

"لكن أين هي، هذه السلحفاة البطيئة" و شرع قلبها يتمدّد و يتقلّص، يئن في صبيحات مكتومة متقطّعة، و ثانية تنهّدت و قلّما استطاعت تجنّب التنهّد منذ أن زحفت إلى السرير، ليتمها لم تستغي بتلك النزعة الفولاذية عن اقتراح سميحة بالموث معها، فإنسان تحدّثه بما يدور بخلفها وتنقل إليه مخاوفها وتخبره متمدّرة أي الممتلكات هي تلك المرأة سمراء، أفضل مليون مرة من هذا الجحيم الأبكم، و من هذا الفتور الهيمي و السكون الراكد، ولولا أن أمها أضحت في الآونة الأخيرة تدمدم ساخطة عن وقوع عينها عليهما مقترنتين مثل قرني الماعز، وأن الحوارات الهامسة في الغرفة المغلقة تشعّب شكوكها، لأسعدها رفقة سميحة في هذه الدقائق الفاترة.

لقد مرّ شهران منذ أن قبض عليه، وكانت المحاكمة قد أجلت أكثر من تأجيل واحد، لخشوع القاضي في تنفيذ الأوامر و انشغاله بعدّ فلساته، و تقرير وجهة الرحلة القادمة . وبقدر ما كانت أعصابها ووقتها يسمحان، كانت سمراء ابنة العمة المترية، المثقلة بالأعمال الغامضة ترسل رسالتين أو ثلاث في الأسبوع الواحد، رسائل خالية من أي مضمون قد يهمها، على أنها كانت تبتدع بعض الاطمئنان المزيف لتقاتل به فزع أثيل المستحكم، و كل رسالة تختتم بخاتمة لطيفة: إن ما كنت بحاجة إلى شيء فأرجوك لا تتردّدي في طلبه، لقد كانت وصية خليل صارمة بخصوص الاعتناء بك. إنها ليست بحاجة إلى شيء ما عدا الاطمئنان عليه و أن تصافح أذناها خبر مبارحته ذاك السجن المعتم، و بينما كانت عينها ملتصقتين بتلك العبارة، كانت تشعر بالامتنان لاهتمامه بها و إحاطتها بعنايته البعيدة، لتصنيفها نقطة مهمة ضمن الوصايا الحازمة. و بسرعة كانت تردّ على تلك الرسالة بقولها: لا شكرا، إن ما تمكنت من زيارته فانقلي له سلامي، وأخبريه أن صديقته أثيل تقدّره كثيرا.

وحيث أن التقدير كان في قاموسهما مرادفا آخر للحب، فإنه سيفهم مباشرة قصدها بينما لن يصافح الفهم الرأس البطيء كصاحبته المترية.

بالنسبة إلى أثيل لم تكن قضية رجل تحبه فحسب، و تميل إليه وتخلص له المشاعر، إن الأمر يتجاوز هذه العتبة، بل كانت قضية رجل صادق نازل الوزير في نزال غير عادل و انتهى به الأمر معاقبا. ولو أن رجلا آخر غير رجلها أقدم على هذه الشجاعة الباسلة لما أحسّت بغير التعاطف والإجلال والفخر، لأن السماء التي تظللها واحدة، وهكذا كانت تذرف مزيجا من

دموع الفخر والألم في آخر ساعة من الليل أو أول ساعات السحر، مزيجاً قد لا يتلاءم، لولا أن المسألة برمتها قضية قول كلمة الحق وليس إلا الحق.

إن الإخلاص الوطني الذي يصبّ في نهر شخصيتها أرغمها على الافتخار به رغم صعوبة وضعه ورغم أنه فُصل عنها و انتزعت منها لقاءتهما و أحاديثهما الشيقة و رسائلهما المتبادلة العذبة، إنها فخورة به تعزّز بنفسها؛ لكونها أحبت رجلا من تلك الطينة الأصيلة بضمير حي ونزاهة رفيعة، وكبرياء صقيل، و إباء مترفع، ولولا أنه كان على غير هذه الصورة النبيلة لما أحبته، طبعاً إن خصالها ترجم أن تحب وغدا عديم الضمير، أو رجلا من هؤلاء الذين شاركهم سرير الخزي، لا توجد فتاة ترفض منحة مثله، ما أسعد حظها به! وما أشدّ ما ستكون الحياة جميلة برفقته! و منعت نفسها عن التفكير بغير رفقته الى أن يموت إحداهما، ذلك أن حقيقتها الملوثة طُمرت بتراب الحبّ الحقيقي المخلص، الذي يحوّل المستحيل إلى مقبول.

وكانت ذكرياتهما معا تنبض في عقلها و تستوفي حقها الكامل في خيالها و تجرّ كل ذكرى شقيقاتها بفعالية قصوى، ذكريات دافنة مليئة بالمحبّة الصامتة، مفعمة بابتساماته اللطيفة والساخرة حول كل شيء، التي من شأنها أن تدفعها إلى الضحك أو الانفعال أو الخجل القرمزي، مفعمة بأحاديثه العذبة المجنونة. عن كلمات الإطراء المباغثة الباعثة على الخجل: من الصعب أن أرفع بصري عنك، تبدين فاتنة جدا، لن أقولها مرة أخرى، مرة فقط، أشعر كما لو أنني سألتهمك دفعة واحدة. عن مواساته لألامها التي لم يستسلم مطلقا في التنقيب عن موطئها، لقد نجح جزئيا في دحر الحزن المتأصل في أعماقها، العالق في مقلتها.و إن لم ينجح بالإجمال؛ فذلك ليس ناجما عن عدم إلحاحه، أو لضعف في مهارته، إن ذلك ناجم عن وخز ضميرها بفعل كذبها الوقح عليه، واستمرارها في الكذب بعد الكذبة الأولى كنتيجة حتمية لاتباع الأثر الأول، وليس في نيتها أن تكذب إلى الأبد، فقط أوان الحقيقة لم يحن بعد.

ولأن مغامرات خالته المغرمة بالنظام كانت تتنافى والفوضى التي يصنعها، كان اقصاؤها من أحاديثه شبه مستحيل، أما الموظفون الذين تُوجّ لزعامتهم؛ فإنه يقهقه و هو يشك أنهم سيتغيرون رغم مجهوداته: أي فائدة ترجى من رئاسة حمقى بطيئي الاستجابة، خاصة الفتيات الثلاث، وجوه جميلة تصلح للزينة، أما العمل؛ فأفضّل فتاة مثلك يا عزيزتي، جميلة نعم ولكنها نشيطة وتلفّ نفسها بخيوط الالتزام المهني. إنها تفتقده، أكثر مما كانت تتوقع أن يحصل لها إذا ما افترقت عنه، حيث يسهل عليها الآن القول باعتراف واثق أنها لن تستطيع العيش من دونه.

للمرة الأولى في حياتها قابلت رجلا يضمّر لها نوايا حسنة، يفكر في مصالحتها، يخاف عليها، مهز مضجعه عدم راحتها، يسأل عن أمها و شقيقاتها و عن الأحوال داخل المنزل المتهالك الفقير، ثم

يتردد في عرض المساعدة عندما يدرك أن ذلك سيخرجها، ويكسر كبرياءها، كان يراعي مشاعرها كمراعاة طفل صغير و يبذل ما بوسعه لاستعادتها من عالم الأهوال الذي يجهل عنه أكثر مما يعرف، وكان يؤمله أن يراها متألمة حزينة، أليس هذا حظا عظيما..

وحتى إن فشلت بعض وسائله في خفض درجة البرودة في القلب الحزين، كان يتمسك بالتصميم على كتم الأصوات الهدامة، أصوات الصور الحية في عقلها، صور رجال لم يعمدوا إلى هتك جسدها فقط بل وإلى تدمير روحها بإهاناتهم اللاذعة، وحتى إن تظاهرت نسيانهم ولكن أطياهم في الحقيقة بارعة في البقاء بحيث فشلت في طردها، كصفحات كتاب تحفظها عن ظهر قلب، لا ينفع تمزيقها قطعا صغيرة أكثر مما يضر، لكون ذاكرتك الخائنة تمردت عليك وأصبحت عدوا لدودا، وفيه لذكريات تزيد في عمرها وتحافظ على فتوتها.

باستيعابها أن الثورة وهز الأعصاب والانفعال لن يفيدوا إلا في استفزاز القلق الخامد لأمتها، واستنفار الطبيعة الإنسانية المتطقلة، وتجمهر الأسئلة أمام أبواب أذنها: ما بك يا حبيبي هل بدر أي تصرف أخرج من أحد، هل تعانيين من مشكلة؟، هل أنت مريضة؟، أحتاجين إلى مساعدة؟، استعانت ببرود غريب، كأن لا شيء كان يهمها، نزل عدم الاكتراث ضيفا غير متوقع، وفي الواقع لم تكن تحرص نفسها أو تجبرها على استقطاب هذا الإحساس الغريب، كانت تقدّر أن الذعر والهلع والخوف العلني لن يفرزوا لها إلا إثارة الانتباه وتشتتا في التركيز وإزعاجا غير مبرر لابنة عمته التي من المرجح أن تكون هي وأمها أكثر ذعرا، ليس لها إلا التصرف بعقلانية وهدوء الأعصاب إلى حين مرور العاصفة والكابوس الأسود، وتقريبا لم تكن تبتسم مطلقا إلا ابتسامات متكلفة مزيفة تراوغ بها حظوظ الشك بالرقى في رؤوس المحيطين بها.

ولكن مهما جرّدت نفسها من مظاهر توتر الأعصاب أو فقدان عنصر الاكتراث ولسبب ما تنقضّ عليها صورته في زلزلة قدرة وضيقة لا تنسل إليها رماح الشمس الذهبية، حيث لن يسعه تمييز الليل عن النهار، حجرة لا يتغير هواؤها والجرذان تتجول حوله حيث أن تلك الأماكن مواطنها الطبيعية، وما لم يخلصها النوم من شناعة الصور فلم يكن إلا الأنين والتمزق يغرزان في قلبها كرماح حادة.

إن الدنيا قد تبدلت أحوالها، لقد استولى عليها ضباب رمادي كثيف وغلفت سماءها سحابة قاتمة واستباحتها كوابيس ليلية مفاجعة، وانتقلت الحياة من الهناء إلى الضياع الذي لا ينجم عنه أي تفكير بالمستقبل، ولولا أن طيفه المتفائل يدفعها للمقاومة لخارت قواها واستسلمت للطابع الجديد المنكر لنعيم الأيام الماضية.

وأي حزن تأوي إليه عندما تمدّ المخاوف رجلها، و تجدف الأحزان على شواطئ قلبها، أي حزن أفضل من سميحة، كانت تأوي إليها كلما تعرّضت لغارات شرسة، كلما تأخرت وسائل الدفاع عن إقناعها، تستمد منها رباطة الجأش وتستخلص مواساة عبقة برائحة السكينة، وإن ما كزرت سميحة العبارة ذاتها لأكثر من مرة فليس لأن أثيل لا تصدقها، بل تفاديا لإفساح المجال لأي خاطرة عابثة أخرى

"ستين، أن ما يدور في رأسك مجرد نتائج مسبقة لا تمت للواقع بصلة، ستة أشهر أو البراءة التامة، وعندما يتزوجك، سأشتري ذاك الثوب الأخضر الضيق عند الخصر، أليس بديعا؟ ولن أقبل إلا بتنسيق قائمة المدعويين، سأستثني تلك الحقيبة جميلة كما استثنتني من حفل زفاف ابنتها، أتذكرين يا أثيل كيف كانت وقحة؟"

"هل ينطق حدسي كذبا، هل فشل يوما في التنبؤ" في الواقع لم ينطق يوما بغير الهذيان والبدع، ولم يفشل يوما في إضافة خيبة جديدة إلى سجلها الحافل، على أنها سريعة النسيان تماما كسرعتها في اتّخاذ القرارات.

وكان يمكن لأي عجز من العجائز الهرمات التي أكرمتها بعنايتها على مدى سنوات وفسحت لهن مجال الحوار مع إنسان آخر غير أنفسهن أن يخبرنها أنها لا تبدو بخير لولا أنها أخفت آثار الأوجاع بما يناسبها من مراهم، أخفتها بإتقان ودهاء، فأثناء زيارتها المعتادة لهن كانت تجارهن في أحادثهن الهرمة التقليدية التي أكل عليها الدهر وشرب و تفتح فمها مبتسمة و تضحك بغير شغف و طيبة نفس لدعابتهن الظريفة، كلامهن عن أيام ذهب و لن تعود، وللأسف أن ليس في وسعهن استنساخ تلك الأيام الجميلة المسقّفة بالعطاء والمحبة، الخالدة بالتواصل والمؤازرة، وكانت تبدي دهشتها و انهارها عندما تقتضي ضرورتها، و تختتم جلستها التي يتضايقن متأسفات لانقضائها بسرعة بالتماسها المتأثر منهن الدعاء لرجل مسكين، لو كان يعرفهن معرفة جيدة لاعتبرهن بمقام الأم التي فقدها "من هو يا أثيل، أ نفسه الرجل الذي طلبت إلي الدعاء لأجله السنة الفائتة؟"

_ "أجل إنه هو" كانت تردّ لكل واحدة منهن، كون السؤال كان يطرح على وتيرة ثابتة متكررة

_ "ما به هذه المرة، أهو حادث آخر؟"

_ "لا ليس حادثا، ولكنه في السجن"

_ "السجن" كنّ يندهشن و يضطرين من الكلمة، ما أجبن العجائز "ماذا فعل؟"

_ "لم يفعل شيء، إنه سوء فهم، لُفقت له تهمة باطلة"

_ "ما أكثر المظلومين في السجون" كانت جميعهن متفقات على هذا الجواب والأسف والشفقة يظللان وجوههن المنكشمة "مسكين، سادعوله بكل سرور"

وسرعان ما تضمّ الأيدي الواهنة المعروقة وترفع عاليا إلى مستوى الوجه، وتغمض الأعين لاستجلاب جو ملائم من الخشوع ثم تتحرك الشفاه المكومة في دعاء صادق، لأجل رجل يرينه مظلوما من نافذة الفتاة الصالحة الرزينة، الظافرة بمحبتهم من أعماق قلوبهن، ويجزغن من رؤيتها مجفلة حزينة، وكانت أثيل واثقة أن الله سيستجيب لهن وتعليل هذه الثقة المبسوطة أطاعها على أفعالهن الحميدة في الماضي، نساء صالحات طاهرات، قابلن أزواجهن في لقاء حي لأول مرة في ليلة الزفاف، على الأقل إنهن لم يخلقن الروايات، وليس لها أن تثق أن الله يخصها بالحظوة ذاتها بعد ما ارتكبتة من آثام.

اليوم عند الساعة الرابعة بعد شهرين من مكوثه في السجن تقرّرت محاكمته. إنّ نار الوزير مرزوق الناقم تطالب بحطب تشديد العقوبات، ونفوذه يتلذذ بمأساة الشاب المسكين، فالعالم الخارجي لا يتسع لطاغية و مناقض، على قضبان السجن أن تحتضن جسد أحدهما، وهكذا رُشِح الوزير الفاسد ليبقى حرا طليقا يضيف إلى سجله الحافل بالفضائح مهازل واختلاسات أخرى، بينما يلقي بخليلها النزيه صاحب الضمير الحي بين مخالف السجن، ليتعلم لغة جديدة بحروف غير تلك التي كان يستعملها، لغة السكوت، الخنوع والطاعة العمياء وربما التملق مستقبلا.

"أين هي" سألت مجددا بنفاذ صبر عندما خانها التماسك الطويل وهذتها الحيرة المحمومة وتساقطت آخر أوراق الصبر " لماذا لم تظهر بعد، متى ستوصل الرسالة، أكاد أصرخ"، إن الترقب المهشّم لم يسفر عن جديد، إلا إذا اعتبر تفاقم القلق وارتفاع لهيب الحيرة جديدا ذا قيمة، وظلّت عينها يقظتين جامدتين حائرتين وأذناها مرهفتين، وقلها ينشج و هي تضمّ ركبتيها إلى صدرها وتلفّ ذراعها حولهما وتلاصقهما بوجهها، وعندما نفذ صبرها كليا طفقت تبكي.

ومرّت نصف ساعة أخرى وتقدمت عقارب الساعة، و يبدو أن عقارب القربة العزيرة قد تعطلت، وفجأة صافح مسامعها الصوت الموعود المرغوب

_ "عزيزتي أثيل

بودي بادئ الأمر أن أعتذر لك، فلقد تأخّرت في إبلاغك، مع أنني قطعت لك وعدا بعدم التأخّر، لقد مررت بسلسلة متكاملة من العقد والحوادث التي لا أستحسن إشغالك بها، لقد أطلق القاضي حكمه أخيرا، وحكم على خليل بسنة كاملة بتهمة التشهير وتلفيق الأكاذيب، سيطلق سراحه في العاشر من آذار من السنة القادمة، نشكر الله أن التهمة لم تكن خيانة الوطن أو التخابرو أن الحكم لم يكن أقسى وأشد ظلما، كما أن السجن لا يبعد عنا إلا أميالا قليلة، وهكذا بوسعنا زيارته في فترات متقاربة، إنه يبلغك سلامه الحار، ويخبرك أن لا تقلقي

بشأنه لأنه سيكون بخير، وأوصاني أيضا بإبلاغك الاعتناء بنفسك. أتصوّر أن علاقتكما تفوق بعمقها مجرد الصداقة، حيث أنه يتحدث عنك بحماس مفرد غافلا عن وورطته، وصرح أنه ليس حزيننا بسبب سجنه إلا لصيرورتك وحيدة خارجه، و مرة أخرى أنا في خدمتك إذا ما كنت بحاجة إلى أي شيء فقط دعيني أعرف، سأقطع رسالتي؛ لأن لدي بعض الأمور التي تقتضي إشرافي الشخصي عليها، ف....."

لم تتمّ أئيل قراءة الرسالة لأن شعورا هائلا بالغبطة و السرور قد تولّاهما و تصبّب الى عقلها المائج بعض السكينة واستطاع قلبها أن يزهر وتهدأ ثوره رعبه و انكسرت شوكة الخوف، الخوف من حكم جائر بشع بربري، الخوف من جنون العظمة، و موائد الغطرسة و بواعت النفس الطاغية. وما لم تكن يد الله الرحيمة قد تدخلت فلطّفت العقوبة لربما كانت الرسالة الآن تحمل أرقاما مهولة. إنها سعيدة بالحكم المخفف بالسنة الواحدة، بالفصول الأربع المتتابعة والشهور الاثني عشر والأيام الثلاث مئة وخمس وستون، سعيدة بكونها ليست عشرا أو عشرين، ولأن المؤبد لم يراود عقل الوزير الناقم في لحظة جنون عمياء .

إنها سعيدة؛ لأن الأيام ستمرّ سريعا والسنة ستنتقضي أسرع، كلمح البرق بين فتحة عين وغمضتها، وعندها ستمكن من رؤيته كالمعتاد، طبعاً ما لم يتهور و يشتم وزيرا آخر، لن تسمح له بإهانة مسؤول آخر وليذهب الحق والضمير والتزاهة وحقوق الشعب إلى جهنم، ليستولي الوزير على كل قطعة أرض، ليات الغزاة، ليحرقوا و يجوعوا و يهبوا و يغتصبوا، ليباع الوطن، ليحكم الأوغاد و ليعثوا في الأرض فسادا ، و لتذهب قضايا الوطن إلى السجن بدلا عنه، فلماذا ينبغي عليه أن يدفع ثمن الدفاع عن حقوق أناس جنباء خامدين لا يستحقون، أناس يعيشون حياتهم التعسة بكل رضا وقناعة، أناس لا يضربهم أن يهانوا أو يحفلوا بأي شيء سوى البقاء آمنين. وفجأة انذهل عقلها؛ فهي لم تفكر يوما على هذا النحو المخزي، ولو قدّر له أن يقرأ أفكارها في هذه اللحظة السعيدة، لن يوقّر لها إلا الخطاب المؤنب، وربما لن يحترمها أو يقدرها أو يحبها، لكن من أين سيعلم؟، ستحرص على كبح لسانها وتخزين أفكارها الأنانية في مكان حيث لا يسعه مطالعتها فيه. ليست غبية جدا لتدعه يكشف أغوارها و ينسحق من خستها حديثة الولادة المستشرية في كل خلية من خلايا جسدها، المستمدة من خوفها الهبي من فقدانه و عذاب الأيام الفارطة الذي لا تصفه مجرد كلمات. نعم فلتكن قضية الجميع أو لا تكن أبدا؛ لأن قضية الواحد تفوده وحيدا متروكا عاجزا إلى قضبان السجن، ليس عليه أن يقاتل من أجل شخص تخلى عن القتال لأجل نفسه و ينتظر من الوزير أن يتحرك ضميره و يحسن سلوكه، مع أنه يعلم أن ضمير الوزير قد مات، وهل يستيقظ الموتى؟.

ما يهمها الآن أن تجده أمامها أيام السبت واقفا بهيئته الهية شامخا بكبريائه الوقور، ضاحكا على حكايات جارتها الجريئة الطائشة، مناورا في سبيل إبهاجها، مطريا بشيء من التحفظ

جمالها ولون عينيها، مشدداً عليها كما يشدد على الأطفال الصغار بعدم الركض والقفز على السلم، يشدد عليها بمعالجة الموطئ قبل وضع القدم عليه، بعدم الانضمام إلى الأماكن الخطرة، ليست تهتم سوى برسائله التي تفد إليها أربع مرات وخمس في اليوم الواحد، تحمل في أسطرها أخباره ومغامراته وروايته عن العمل والعائلة والإيعاز بمشاعر الحب والعاطفة الصادقة.

عندما يخرج من ذلك المكان القدر الموحش ستنقل إليه بالتفصيل الممل كيف عاشت هذه الأيام البالية، المثقلة بشعور الخوف وكيف ارتاعت هلعا عليه، وكيف أن تجربة أخرى كتلك قد تقتلها، ونبأ كذاك قد يسوقها إلى الجنون، وبفعل حرصه على مشاعرها ولأنه يحبها ويعطف عليها سوف تفشل جرأته في إيلاهما و سيؤول خوضه في تلك الأمور الخطيرة إلى مجرد أحاديث عابرة حبيسة الجدران مع جمع من الأصدقاء الحقيقيين، بينما يحتسون فناجين قهوة.

إنها سعيدة حقاً، لقد انخفض الرقم المهول من الكارثة إلى المعقول، وزال الصفر من خلف الواحد، وأصبح الواحد هذا وحيداً في الساحة ومع أنه ليس هينا يسيرا، فكذلك ليس عسيرا فتأكا. وربما سيكون محظوظا ويطاله العفو في الشهور القادمة، وارتفعت السعادة إلى أعلى مستوياتها، بينما نزلت درجة الخوف والهلع والقلق النهاش إلى أدناها، سنه واحدة، وتهادت الكلمة إلى عقلها رنانة وثيدة خفيفة مرنة، ووقفت على قدميها المزهوتين وراحت تدور وتدور في أرجاء الغرفة، كأنها تؤدي رقصة صوفية، وبينما هي تدور اصطدمت بحافة السرير فأوجعتها الضربة وتأهت وكادت أن تفقد توازنها وتسقط قبل إتمام الدورة الأخيرة، عندئذ استيقظت من نشوة الظفر الزائفة، لأي شيء هي سعيدة هذه السعادة الساذجة الحمقاء؟ وبينما هي تسأل نفسها هذا السؤال الجدّي عوى صوت الحقيقة في ذهنها، عوى عواءً ممزوجاً بمرارة الجراح المجتحة. الحقيقة التي تجاهلتها دائخة في دوار الوهم الغابر.

أتفرح لأن إنسانا بريئا حكم عليه بسنة؟، إنسانا لم يأت جريمة ولم يسرق أو يكذب أو يأتي ما يستحق عليه العقاب.

أتفرح بتخفيف وطأة الظلم؟ أتفرح بحكم الجلاد العادل الرحيم، بسنة بدل عشر وعشرين، وكانت لثانية حماسية قد شكرت الوزير أيضا على لطفه وكرام أخلاقه، لأي شيء كانت تشكره؟ لأنه كان منصفاً رؤوفاً بظلمه، وأن عصاه ضربت خفيفاً بدل ضرب مكسر، بينما هو من كان يجب أن تكسر على ظهره العصا، بينما هو من ينبغي أن يرسل إلى السجن. أجل لقد ظلمه بإنصاف مغشوش وقهره برأفة خادعة وأعاق مستقبله بكرم كاذب، شكرا لأن المصير لم يكن أحلك من هذا، شكرا لأنك ظلمته بضمير عابث وعجرفة سامدة .

كان مفعول النشوة الهائنة والفرح الدائخ قد زالا الآن، زالا كما يزول الضباب تاركا محله نوعا من السخرية والجلد الذاتيين، وشيء آخر، لقد توغلّ الجليد بأرجل نشيطة ثانية إلى

قلبيها، عندما تتوقع الأسوأ و يأتي السيء فقط يصبح مدعاة للسعادة والشكر وحتى وإن كان المنطق ينتقد وجودك في ذلك المكان من أصله، ومن تراه يعترف بالمنطق!

كيف نسيت أن السنة تمرّ كعشر بالنسبة إلى من هم محتجزون ظلما داخل قبر، وليست كرمشة عين بالنسبة إلى من هم خارجه، تمر بطيئة قاهرة برعاية صحية معدمة و طعام رديء، أو ربما التضور جوعا هو الاحتمال المرتقب، واستحمام نادر، وشجارات عنيفة بين المساجين تنتهي بعقوبات انفرادية لأيام، ولما لا، لأسابيع أيضا وحرمان من الطعام، أو ممارسة أي نشاط، وألبسة مهترئة. خفيفة لا تتلاءم و برد الشتاء القارس والأوامر الفظة و الإهانات بدون سبب واذلال حاقد.

كيف نسيت نحول الأجساد وانتشار الأمراض والقمل والحشرات والمعاملة التي تليق بالحيوانات والأغطية البالية و النفسية المحطمة والأسرة القذرة، إنه ليس فندق خمس نجوم لتغيبط بالسنة الواحدة، ورغم كونه لا يمنع من الحياة على أنها تجد صعوبة في وصفها حياة طبيعية، هل هناك أسوأ من سلب حرية الإنسان مع عدم إتيانه جرما يستحق ذلك؟، إنه مكان موحش قبيح يسرق من الإنسان لمعته و من قلبه عنفوانه و من عقله حماسه ونشاطه ويلفظه إلى خارج جوفه شاردا بليدا ميتا بروح حية، مجوّفا كالقصب، أو يحوّله إلى كائن قاس صلب كالصخور عنيفا كالمجانين، تحرمه كل الذكريات من العيش بسلام، تنقضّ عليه عندما يجتمع بالآخرين. وعاودها الشعور بالمرارة و استحال وجهها شاحبا كلون الشمع الأصفر وشرع الحزن يعتصر قلبها و يضغط عليه بشعور جنائزي نائح، لأي شيء هي سعيدة؟

ونقلت بصرها بعصبية بين أثاث الغرفة المتآكل المخلّع هنا و هناك بينما يداها تقبضان بتشنّج على شراشف السرير الزرقاء الفاتحة. وناقت برغبة مجنونة إلى رؤيته و العطف عليه ومواساته بدفء كلماتها، وأن تخبره كم هي موحشة الدنيا بدونه، وأنها مستعدة لانتظاره عشرا وعشرين وخمسين، وأن طول السنوات لن يخطف من خيالها صورته الرقيقة وابتسامته العذبة. أجل ينبغي أن تقابله في أسرع وقت وإن كانت ابنة عمته توّد خدمتها والاعتناء بها، فههي تفتح لها المجال لتفي بوعدا الذي قطعته، وتحركت مبتعدة عن السرير وهاهي تشد جسدها و تهيء يديها استعدادا منها لكتابة أول التماس منها، وتولّد فيها إصرار عنيد، ومن مواطن سحيقة استخرجت تفاصيل رحلتها إلى المشفى كي تطمئن عليه: إن ما رفضت سمراء مساعدتي، سأعتمد على جهود السيّدة سميحة، إن حلولها دوما ناجعة، و حيلها لا تخيب، كما أنها من تلك المدينة و لا شك أن لها معارف يكافئون الحاجة، سأقابله، مهما كلفني الأمر"

الفصل الثامن

لم تتوقع أثيل أنها ستشعر بهذا الشعور العاق الكافر، بينما هي جالسة بانتظار إحصار خليل من الزنزانة رقم ١٣١ لمقابلتها، ويعزى هذا الإحساس إلى أنها لم تزر سجيننا طيلة حياتها و لم تطأ قدماها مكانا مماثلا، و لم يدر بخلدها من قبل أن حدوث هذا الأمر ممكن لأن أفراد العائلة المكونة من أربع نساء متجنّبات للمشاكل لم يرتكبن أي إثم أو أي جرم يستحقن عليه عقابا مشابها و شملتها رحمة الله عندما لم يقبض عليها في إحدى المناسبات البائسة تمارس جنحة الزنى تحت الأسقف الصماء والشقق المغلقة، تضطجع بجانب رجال لا تنس نتفة من ملامح وجوههم القاسية الزاخرة بالاستهتار والجبروت والاشمئزاز الذكوري من أي أنثى تعرض جسدها كسلعة رخيصة للبيع.

ولو أن أمها العظيمة يخطر على بالها أن ابنتها الرزينة المطيعة، تركّز عينها بلهفة في هذه الدقيقة على باب يدلف منه المساجين لرؤية أهاليهم وأقربائهم والتنهّد ينبعث من باطن رثتها وتلتهب في عروقها نار الانفعال، وقلها يخفق فتضع يدها من حين لآخر عليه لتكبح توترها الظاهر، ضمن زمرة من السيّدات والسادة الذين اكتسبوا عادة جديدة وغدت عادة طبيعية في نظام الحياة الرتيب (عادة زيارة أقربائهم السجناء)، لو عرفت لذهلت و أغمي عليها من هول الصدمة، معتبرة المسألة شائنة عظمى وفضيحة مجلجلة و عارا مبتذلا ثم لراحت تلطم وتنوح في أرجاء البيت الطاهر: تزورين سجيننا!! رجلا غريبا!!! لا تربطنا به أي صلة قرابة، تحبينه!!.

إنّ الحب من الممكن أن يُهمل وزنه ويغدو طبقا جانبيا يُلتهم في حال لم يحقّق الطبق الرئيسي فعاليته في إقناع تعاليم أمها أو بعد ساعة أو ساعتين عندما تزقزق عصافيرها الثائرة. و بعد أن تفرغ من جعبتها كل التأنيب و العتاب و تنتهك نظرات الخذلان و الخيبة الوجه الخجول، ومن المحتمل أن لا تُصنّف قضية الحب في مستوى واحد مع الزنى، أما زيارة رجل سجين غريب، فإن احتمال أن تتلقّى الأمر ببعض الحكمة والتفهّم والاستغناء عن النحيب النابع من قلب الصدمة أشبه بتفهّم الغزلان لنوايا الأسود.

ولم تكن سميحة تجاربيها و ترافقها و تساعدها، لكونها تؤيد قصص الحب التافهة أو تميل إليها أو تشجّع عليها، ليس ذلك ما كان يحدوها إلى السماح بجّرّرجليها إلى أي مكان ترغبه الفتاة العاقلة الرشيدة، بل لأنها قطعة ثمينة من روحها، غالية عليها كإحدى ابنتيها، كان مما يحزّي نفسها أن ينفطر القلب الطيب، و تُخذل أمنيات لزجة طرية لفتاة أفنت سنوات صباها

المشرفة لخدمة عائلتها و سلخت نفسها في سبيلهم، وحيث أن إدخال السرور على قلبها من خلال تنفيذ هذه الزوات العاطفية الصغيرة _حسنا إنها ليست صغيرة جدا_ لن يضرها بقدر ما يمكن أن ينفعها.

و لم تعلم أثيل أن سميحة لم تكن تبتعد عنها أكثر مما يمنع عنها مراقبتها بعد إيداعها الحديقة بمسافة خطوات، حيث تتيقن أنها ستكون آمنة سالمة ثم تكرر على مسامعها أن تتوخي الحذر و تطبق نصائحها بحذافيرها، وهكذا اكتشفت أن عادة القلق المتأصلة في مليكة لم تعد منحصرة فيها، بل إنها كانت تتفوق عليها إذا ما تعلقت القضية بحبيبة قلبها أثيل، تلك الفتاة التي كان عهدها القديم طفلة حبية ساذجة، والتي قابلتها لأول مرة في الشارع الضيق أمام بيتها ترتدي ثوبا أخضر بلون التفاح يصل إلى ركبتها و خفين فضيين يلائمان قدميها الصغيرتين، تتوسط حلقة من العرائس المصنوعة من القماش، فتاة حلوة جميلة، وجهها أبيض بلون الزنبق الأبيض وعيناها واسعتان ساحرتان تخطفان قلب الإنسان _ "ما اسمك يا حلوة" سألتها سميحة في ذلك اليوم، بينما رفعت الفتاة الجميلة بصرها ونظرت إليها نظرة ساذجة بريئة .

_ "أثيل "

"إن اسمك جميل، هل تقيمين في هذا البيت؟ "

_ "أجل، هل تلعبين معي؟ إن بناتي نائمات الآن، عندما يستيقظن سأعرفك بهن"

إن تلك العبارة الطفولية أجمل عبارة صافحت سمعها، و منذ ذلك الوقت وحب الفتاة ينمو في قلبها، وكانت تطرق على باب العائلة تستأذن رب الأسرة مرافقة الطفلة في إحدى نزهاتها إلى الحديقة أو لاقتناء أغراض البيت، كونها غريبة عن المكان و بسبب طباعها الغريبة التي لا تبيح لها كسب أصدقاء جدد بينما توفّر لها كسب ناقلين كثير، و بفعل عدم إجبار نفسها يوما على اعتناق سلوك اجتماعي لائق يرفعها في أعين من حولها، علاوة على هذا كان زوجها دائم الانشغال، منهمكا طول النهار في عمله اليومي، وهكذا ملأت الطفلة غريبتها، ورافقتها إلى جلساتها المسالمة قبل أن يغربها عالم الشجارات و النزاعات إلى الانخراط فيه.

وكان مما ساعد على توطيد الرابط بينهما صداقة متينة بين والدها وزوج سميحة، ثم أتى انشغال الأبوين بمرض طفليهما الثانية، فعُهد بأثيل إلى الأيادي المتحرقة للاعتناء بها، وتدليلها، وإطعامها والغناء لها قبل النوم، وعندما أُخبرت سميحة أنها حامل، لم ينعشها الخبر إلا لحلمها أن ترزق طفلة مثل أثيل ، أما زوجها كاد يحلق من السعادة، ولم تستطع إلا أن تبسم ابتسامة حاملة في وجه زوجها المسرور جدا، وحيث أن أثيل الصغيرة كانت تُشاهد رفقة سميحة أكثر من

أي إنسان آخر، كان الغرباء عن الشارع والعائلتين يعتقدون أن الطفلة طفلتها بينما لم تكن كذلك، ولأن اعتقادهم كان يبهجها، كانت تبتمس قائلة إنهما صديقتان. وستظلان صديقتين إلى الأبد.

لم تستطع أثيل أن تشعر بالارتياح لقاعة الزيارات هذه، ولم تستطع تحاشي تشبيهها بإسطبل الحيوانات، كان قلبها ينقبض بينما عيناها تنتقلان من نقطة إلى أخرى: الأسقف المرتفعة، الأضواء الباهتة، المناضد الهشة والغبار المتراكم، رائحة الرطوبة الكريهة، الوجوه الفظة القاسية والنظرات الباردة، البدلة بلونها المدهام الضارب إلى السواد، لطالما كرهت أثيل هذه البدلة و العصا الغليظة .

هذا المكان موحش للغاية، وتساءلت: إن كانت لا تستطيع أن تتحمل وجودها هنا لفترة وجيزة، فكيف سيتحمل خليل سنة كاملة؟! وإن كانت قاعة الزيارة بهذه الحالة الرديئة، فكيف حال الزنزانة إذا؟ كانت حزينة وسعيدة في وقت واحد، حزينة من الأحوال، سعيدة لأنها ستراه بعد قليل. واختلطت الأصوات بالضحكات والهمهمات الخفيضة وبكاء الأطفال، غريب كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يضحكوا، ربما تضحك هي أيضا بعد قليل مع أن الله وحده يعلم أن عينها تتحفزان للبكاء عند أول فرصة سانحة.

فهمت أثيل من قسّمات الوجه المتعب النحيل أنه تفاجأ بزيارتها غير المتوقّعة، وفهمت كذلك أن رؤيتها لم تثلج صدره كثيرا، وبينما هو يتقدّم نحوها ركّز بصره عليها وابتسم لها ابتسامة ودودة باهتة، فسرت رعدة في أوصالها و طفق قلبها يخفق كأنها تراه للمرة الأولى في حياتها، كان يشبه رجلا عاش في مكان ناءٍ زريّ لردح طويل، و عندما أصبح على مسافة يسيرة وقفت على قدميها تبادلته التبتسم، ولم تبعد عينها عنه رغم لغط الأصوات من حولها وارتفاع بعضها مما يسترعي الانتباه إلى أن بلغها ووقف قبالتها فتلاشت ابتسامته و قال بلهجة فاترة لم تألفها:

_"ماذا تفعلين هنا يا أثيل؟، ظننت أنك عمتي أو سمراء" بقلب كليم نظرت إليه، وبينما هي تتفرّس في وجهه النحيل الشاحب الجاف غارت ابتسامتها و انقبض وجهها وتحرك فيها شعور هائل من الألم، وعزّ عليها رؤيته على هذه الصورة الزرية، عيناها مرهقتان تحتها انتفاخ داكن، و لحية مهملة وشعر غير مرتّب ووجنتان خاسفتان و جسد نحيف للغاية نتيجة فقدانه الكثير من وزنه، و لم يفشل في ملاحظة ردة فعلها على هيئته

_"أأبدوا وسيما إلى هذه الدرجة؟" قال مازحا و استعاد مزاجه المعتاد بينما ارتسمت ابتسامته عريضة على شفّتيه "إنك تقوديني إلى الخجل يا أنستي الحلوة، اجلسي" وسحب كرسيه وجلس

بسرعة ودون وعي منها جلست كأنها منومة مغناطيسيا، كان يتصرف مثل من ينعم بإقامة ممتازة، تماما كرجل متواجد في فندق خمس نجوم، كما لو أن جدران السجن لم تغيره أو تؤثر فيه، ولكن لسان هيئته يقول خلاف هذا، وودت أن تبكي ولكنها كبحت جماح دموعها وحاولت أن تبتمس لهذه الفكاهة على أن عجزها حال دون ذلك

_ "كيف حالك، وأمك كيف حالها و شقيقتاك؟" سألها بينما كانت شاردة ووجهها جامد كقطعة شمع أبيض ، و لولا أن الحزن تغلب عليها لأبدت استحسانا و امتنانا لسؤاله عن عائلتها في مثل هذه الظروف، وأخلدت إلى الصمت فأضاف مبتسما

_ "أجئت هنا لتسكتي؟ ألسنت سعيدة برؤيتي؟"

_ "بلى" قالت دون تردد، كانت تخشى أن يظن أنها تسمئز من حالته الكارثية، إنها تحبه بجميع حالاته، وإن كان على هيئة أسوأ فالأمر عندها سيان، ولن تفلح أي حالة زرية في إخماد حبه الدامي في قلبها .

_ "إذا ما الخطب يا عزيزتي؟، تتبلور فكرة جميلة الآن في رأسي، هل ستقبليني؟ افترضت هذا من الطريقة التي تحديقين بها إلي،إلهي كم سيكون هذا رائعا"،وحيث أنها تعلم أنه يخفف من هول الورطة التي أوقع نفسه فيها، لم تتورّد وجنتاها، بل أجشبت بالبكاء، ينبغي أن تتماسك ولا تسمح لنفسها بذلك .

_ "إلهي ،كم تبدووسيمًا!" قالت بلطف "ولهذا يصعب علي أن أبعد عيني عنك".

_ "إنها جمليتي أيتها اللصة "و أمال جسده إلى الأمام ثم خفض صوته مغضنا ما بين حاجبيه في تعبيرهزلي "تبدين تحسنا أنثويا ملحوظا، أمل أنك لا تغازلين كل رجل أثناء غيابي؟".

_ "لا أستطيع أن أفعل "و أجبرت نفسها على التبسم و اصطنعت مظهر السرور بالدعابات المراوغة لحقيقة الظروف.

_ "طبعًا لن تفعلي، إنني لا أسمح لك، وسأقتل أي رجل يحاول مغازلتك "كيف يمكن له أن يكون بهذا البرود و عدم الاكتراث: قالت أثيل في نفسها، وهو يقبع في هذا المكان المقيت،كيف يسعه أن يبتسم ويطلق الدعابات ويتظاهر بالشدة،كيف أنه يخفي تلك المرارة الموشومة في عينيه.

_ "كنت أخطط لسؤالك عن الذي رافقك إلى هنا، بيد أنني أعرف الجواب، هل السيّد سميحة بالخارج؟"

_ "أجل، إنها تنتظرني رفقة ابنة عمك "

_ "أنا شاكر لها لمرافقتها لك إلى أي مكان، من الجيد وجودها في حياتك، كيف وجدت ابنة

عمتي، أليست بدينة؟ إنها تلتهم البيض المسلوق ثلاث مرات في اليوم "سأل و التفت إلى سيّدة غاضبة ثم عاد بصره إليها .

_ "إنها امرأة لطيفة. كيف لا!! وهي تطمئنني عليك و تنقل إلي أخبارك "

_ "أنا بخير كما ترين " وفتح كفيه إلى أعلى ليُظهر لها كم أنه بخير "ننعم بوقت فراغ أكبر مما نحظى به خارجا، و تغذية جيدة، و رعاية صحية من النوع الممتاز، أنا بخير تماما، و عندما أغادر هذا المكان سأتوجّه مباشرة إلى قصر الوزير لأسأله عن سبب كرمه الخاص معي، سنة واحدة!!؟ بينما كان يمكن أن يزرعني هنا إلى الأبد، إن عمتي مبدعة عندما تقرّر أن تشكر أحدا، يزرعني!! هكذا قالت، أليست كلمة مناسبة؟ " و صدرت عنه ضحكة مرتفعة لفتت بعض الأنظار من حوله وخاصة السيدة القصيرة المكتنزة التي تضع طبقة سميكة من المساحيق وتلفّ رأسها بغطاء بنفسجي معقود أسفل ذقنها، كم أنه مغتبط و مرح !! و عندئذ خرجت الأمور عن السيطرة و انهارت المقاومة الحجرية، ثم فاضت العينان المتلاعتان بالدموع فتخلّى خليل عن حالة الاستمتاع و المزاح الثقيل و اعتدل في جلسته ثم تحسّس جيوب القميص و السرّوَال، فلم يعثر على منديل و سرعان ما تلالأت عيناه بهريق المرارة .

_ "لا تبكي، لا تبكي أرجوك" قال متوسّلا بلهجة تنمّ عن الحنو و العطف و طففت الهشاشة إلى السطح "أستطيع احتمال هذا السجن، و لكن ليس دموعك أنت بالذات، لا تبكي " و لكنها لم تستطع إلا أن تبكي، و كافحت كي تكفكف الدموع الرقراقة على أن العجز سدّ عليها الطريق

_ " خذي " قالت السيّدة القصيرة محتدة و هي تمدّ لها منديلا بينما يتطاير من عينها انزعاج كتطاير الحمم "ستعودين، إنك جديدة في الميدان، ربما أنت عروس جديدة، تبدين كذلك" لم يبد أن زوجها قد رحّب بتصرفها المتطّقل المتمثل في حشر أنفها في أمور الآخرين، إذ راح يمسّد جبينه بيده و هو يزرع زفرات متلاحقة " اسكتي يا امرأة، اجلسي مكانك " و مدّت أثيل يدها شاكرة لتتناول المنديل .

_ " ستعودين لأنهم تعودوا قبلنا "أضافت غير عابئة بأوامر زوجها الناصّة على عودتها إلى مكانها فورا "لن يتوبوا أبدا، منذ أن تزوجت و زوجي يقضي معي أسبوعا في المنزل و باقي السنة في السجن، و كما ترين أنا أبتسم رغم كل شيء، لاحظي" تقمصت ابتسامة مضحكة، كاشفة عن فراغات بين أسنانها الكبيرة .

_ "ستعودين، إن من علامات عدم وجود نيّة في التوبة " و رمت خليل بنظرة نزقة تشي بالآتهام "أنهم يضحكون و يطلقون الدعابات، لذلك انسي أن تبحتي معه مسألة الإقلاع، حظا موفقا " و رفعت ذقنها و حاجبها ملوية شففتها ثم استدارت و خطت نحو كرسيها، و سمعت أثيل

زوجها يرغي ويزيد وسمعتها تحته على تغيير الموضوع.

_ " لن أتوب "علّق خليل بمرح ، هازنا بالورطة التي وقع فيها، وكون منظر المرأة كان مغربا على الضحك لم يؤثر في هيجان الدموع الجارية، فتهدّ خليل لأن كلماته المهذّبة لم تجد نفعا _ "بمقدوري التحمّل، إن كان ذلك ما يبكيك، أتحمّل ما يتحمّله غيري من المساجين المذنبين وغير المذنبين، بل هناك من يتحمّل أكثر من هذا" وحمل صوته الثابت بعض الجدية، الأمر الذي جلب بعض السلام إليها، إنها تفضّل أن يكون جديا بخصوص المسألة التي أزعجتها وكادت توقف قلبها عن النبض.

_ "ولكن لماذا أنت؟ لا ينبغي أن تكون هنا، إن وجودك في هذا المكان خطأ" قالت عندما انقطع سيل الدموع والمنديل مبلّل الأطراف في يديها .

_ "لأنني أتيت عملا صالحا " قال ببساطة مهوّنا عليها "لأنني لا أباغ وأشترى، عندما لا يستطيعون شراءنا ،يزجون بنا في السجون ، هناك دائما نقطة بداية جديدة ويجب أن ينطلق منها رجل ما، لست الأول يا أثيل ولن أكون الأخير، الحياة أقصر من عيشها مجرد حيوان ناطق يأكل ويشرب وينام، لا ،لسنا كذلك، لست نادما على ما فعلت، و إن ما عاد بي الزمن إلى الوراء سأفعل الشيء ذاته بالطريقة ذاتها، الضمير أن يتاح لك الخطأ فتفعل الصواب، أن يتاح لك الكذب فتختار الصدق، أن تتاح لك السرقة بسهولة فتختار الرضا بما تملك، أن يتاح لك الصمت فتختار الاستنكار بأعلى صوت، ليس السجن بذى أهمية، لقد سجن ملايين الأبرياء قبلي وسيسجن الملايين بعدي، فهناك على الدوام أوغاد أعمتهم السلطة، وعلى الدوام هناك شرفاء يقدمون حريتهم وأرواحهم في سبيل الحق، ذاك الوزير الجبان مرزوق ليس إلا واحدا من المرتزقة لا وطن لهم ولا شرف، ما يقلقني فقط أنني نكثت بوعد قطعته على نفسي، وعد بالاعتناء بك وتعويضك عن الأيام الصعبة التي عشتها، أنت فقط من يهمني خارج هذه الأسوار، لأن خالتي لديها من يعتني بها وعمتي كذلك، أما أنت؛ فليس لديك أحد، وأردت أن أسندك وأدعمك، وعوضا عن ذلك،ها أنا أجرك خلفي، أشعر بالخزي لوجودك هنا، لو أن سمراء أطلعتني لما وافقت على وجودك هنا".

وثانية أجهشت بالبكاء و شقّت التعاسة طريقها إلى قلبها .

"أنت لا تعرف كيف كنت أشعر، ليس بمقدوري وصف العذاب الذي عشته، وكيف أحسست عندما عرفت بأنهم زجّوا بك في السجن، كدت أموت من الفزع والخوف ، خشيت أن يصيبك مكروه، سأموت إن حدث لك شيء " و قبل أن تتم عبارتها، تسالت دموعها على وجنتها.

- "لا تتفوّهي بهذه الأقوال" اجتاحه الضيق من صدى الكلمة "لا تتحدّثي عن الموت أمامي، كيف يسعني العيش من دونك، لا شيء في الدنيا بوسعه تحطيمي طالما أنت موجودة، أنت من تشفين جراحي، إنه أنت التي تقوّي من عزمتي وتدفعني إلى عدم الاستسلام، وكل ثانية تقفز صورتك إلى خيالي بتفاصيلها وأرى العينين الجميلتين أمامي، ووجهك الجميل فتندحر كل متاعبي، كأن بهما سحرا ناجعا. لو أنك تتخلين عني، فتلك هي نهاية العالم".

وحمل صوته جزعا وإحباطا "لقد خسرت الأجزاء على قلبي ولن أتحمّل خسارة المزيد منهم، لذلك لا تخافي علي فأنا سأكون دائما بخير، وفضلا عن ذلك إنني أحبك، لا أستطيع أن أحدّد منذ متى ولكنني أحبك، أعتقد أنني أحببتك منذ أن فرغت لاختفائك تلك المرة عندما دخلت المستشفى نتيجة إصابتك بالزكام، وعندما رأيتك أول مرة، خبلت عقلي وسلبت فؤادي". ونظرت إليه نظرة هائمة وقلها يخفق خفقانا مجنوناً، كأن سماع الكلمة في الواقع ليس كتخيله يقولها، لقد عرفت منذ وقت أنه يحبها، ولم تكن بحاجة إلى سماعها، ولكن وقعها أصابها بالذهول والغبطة في آن واحد، إنها للحظة سرمدية.

- "و أنا أيضا أحبك" اعترفت دون تردّد أو اكتراث بشيء و اعترت صوتها رعشة، كانت جزءا من رعشة سيطرت على كل جسدها بفعل صوته الذي تلفظ بتلك الكلمة" منذ سنوات، عندما رأيت صورتك لأول مرة، و قرأت مقالتك، هناك خفق قلبي، قلبي الذي كان يعيش في عزلة مقفرة، ثم دأبت على شراء الجريدة لأجلك، و قراءة كل ما تكتبه، لقد غيرت حياتي يا خليل وأزلت منها كل التعب والشقاء، أحبك كثيرا".

ورانت فترة من السكون تبادلها خلالها نظرات الهيام الخالص والابتسامات الودودة، كان من دواعي سروره أن يعلم، بكونه سببا في زوال شقائها وتعها، يا له من اعتراف بديع.

- "إنني سعيد لسماعك تقولينها" قال باستحسان "وهكذا يسهل علي أن أسالك انتظاري، هل تنتظريني يا حبيبتي؟ بقي ثمانية أشهر فقط "

- " أنتظرك إلى الأبد " أجابت دون تفكير "إلى الأبد "

- " إذا أنا أطلب يدك للزواج " .

أشرق وجهها و انبعث من قلبها موجات من السعادة الصاخبة، سعادة فائقة لم تذق مثلها، ولم تعرف لها مثيل، لم تعتقد بعد الذي حصل، أنها ستسعد لطلب رجل يدها للزواج، وأي رجل؟ إنه الرجل الذي تهيم في حبه" وحالما أخرج من هنا، سأتي لطلب يدك من أمك، طبعاً لن يكون لدي ما أقدمه لك، فأنا سأكون خريج سجون، وعاطلا عن العمل، كما أنني مهتّد بالسجن مرة أخرى لأنهم لن يدعوني و شأني، و فكرة أن أتغير لا تروق لي، وربما سيؤول

مصيرك_ ما تفوهت به المرأة منذ قليل_تعودي، كانت على حق، فهل أمل في موافقتك بعد قائمة المآزق التي ستنعين بها".

_ "أعيش معك تحت أي ظرف " أجابت بثقة "لا أعبأ بأي شيء، أنت من هممني و لا شيء سواك، أركب أي قطار لا أعرف وجهته طالما أنت على متنه".

وفجأة داهمتها غصّة مريرة، لأنها لم تكاشفه بعد عن المسألة التي يفزعها الإفصاح عنها، وتساءلت إن ما كان يستطيع أن يتفهم، وتساءلت إن كان بوسع الحب أن يرمّم تلك العاهة المشينة، وأن يحطّم الحواجز بينهما، وإن ما كان سيتصرّف مثل ابن شقيقة العجوز راضية، ليت القطار لا يتوقّف بأي محطة، ليته يتحرّك إلى الأبد.

_ "هل أنت بخير"سأل قلقا، لأن ملامح وجهها سرحت على نحو ملحوظ، واكتست بانزعاج

لم يدرك كنهه و الذي لم يسبق له أن فهمه ثم أردف مفسّرا كأنه قد استوعب سبب ضيقها
_ "أعرف ما يقلقك، إنها أمك أليس كذلك؟، لن توافق على زواج ابنتها من رجل مثلي، عندما تعلم أنني قضيت سنة في السجن، لعلها ستستاء و تحتجّ على زواجنا. لا تقلقي، ستتولّى عمتي وخالتي أمر إقناعها، من المؤكد أنها ستلقي محاضرة عن وجوب توقّف بعض الشروط في الرجل المتقدم لطلب يدك خاصة أن لا يكون رجل مشاكل ومآزق دائمة، وذلك من حقها، فابنتها جميلة جدا وجميع الرجال يحلمون بالزواج منها . أنا أحسد نفسي لأنك تحبينني أنا واخترتني أنا من بين كل الرجال . هذا إن تجاهلت حقيقة أنك ركيزة البيت و المسؤولة عنه، سنبحث حلولا لهذه العقد فيما بعد، أما إن رفضتي أمك من المرة الأولى سأطرق الباب مرة ثانية و ثالثة وخامسة ومئة، ولن يصدّني عن الزواج بك إلا رفضك الشخصي، و إذا ما اعتمدنا على تأييد السيدة سميحة لي، و لجأنا إلى موهبتها الفذة في إقناع أمك كما تقنعها في إخراجك من البيت فالأمر محسوم النتيجة، وأنت من الآن ستصبحين زوجتي، و لهذا يا حبيبتي لا أريد لعقلك الجميل أن يتعب بالتفكير".

لماذا لا تكون الحواجز بهذا الانخفاض؟، أمها و مسؤولة شقيقتها، لماذا تكون الأمور معقدة على تلك الشاكلة، إن القضية تتعلق بالشرف، الأمر الذي يقتل لأجله الرجال، الشرف الذي يحمل لأجله السلاح، و تُقطع لأجله الأعناق، و تقضي الأرواح، الشرف الذي هو أهم من الحياة في نظرهم، وحيث أنه لم يتفق لها أن بحثت معه هذه الموضوع الرهيب من قبل، فلا تستطيع التنبؤ بردة فعله، على أنها واثقة أنه يحبها و حبه يعادل حبها أو يتفوق عليه، و أنها تعني العالم له كما يعني العالم لها. إن الذي يكدرها و يمضّها و يعكس الغصّة الدامية في قلبها على وجهها، ليس خليل الحنون ذو العينين الدافئتين والقلب الرحيم، والوجه المسالم، رغم أن وداعته تتوارى إذا ما سيطر عليه الغضب والعصبية، ليس خليل الرجل الذي يحبها، الشاكر لجميلها،

المفدّر لمعروفها، بل خليل الرجل العادي بغيريته التي فطر عليها، الرجل الذي ينتهي لمجتمع يستعظم فكرة الزواج من عاهرة، الرجل الذي تلازمه نزعة ضرورة طهارة المرأة للتزّوج منها من أيام الصغر، الرجل الذي يشمئز من امرأة باعت جسدها وإن كان هو مشتريه، ذلك ما يخنق رغبتها في الإفصاح ويدفعها إلى الذعر من تغلّب الغريزة على الحب.

"لست واثقة من ليونتها أليس كذلك؟" استأنف قائلاً، لأنها لم تحر جواباً "أعدك أننا سنتجاوز هذه النقطة، ستلين عندما أثبت لها أنني أحبك بصدق، وأني سأحافظ عليك كما لو كنت بين يديها، ثم سأعدها أنني سأحقق أمنيتك بزيارة سنغافورة، طبعاً عندما أصبح غنياً" وابتسم وأشرق عيناه بشعاع السرور .

_ "ألزمت تتذكر؟" أجابت بنغمة عاطفية؛ لأنه لا ينس أمنياتها .

_ "من المؤكّد أنني لا أنسى حرفاً مما كتبتّه، أو تحلمين به، سنعدّد اتّفاقيّة إذا، تنتظريني وبدوري، لا شيء سيثني عن نيلك " وفتح عينيه في تعبير حازم وكأنه يعلن نهاية النقاش
_ "لا شيء؟" استوضحت محدّقة إليه ، موعزة أنه ربما توجد أشياء لتثنيه، شاعرة بالذنب.
_ "لا شيء " أجاب واثقاً وبرزت من عينيه ومضة التحدي والتصميم، عندئذ سرت في عروقها المستنفرة دافق من الارتياح .

_ "خليل، أصدقني القول "حوّلت الحديث إلى نقطة كانت ستعود إليها فيما بعد" كيف تسير الأمور هنا؟ "

_ "سيئة" قال بصراحة ثم أضاف بسرعة عندما رأى الخوف في عينها "لكن لا تبكي، ولا تجزعي، إنه سجن يا أثيل، وليس فندقاً، ثم إنني وأمثالي ممن حكم علينا بسبب قضايا معينة، يمارس معنا نوعاً من الخصوصية في التعامل، على أنني بخير الآن " _ "وفيما مضى؟" سألت مشفقة .

_ "لن نتحدث عن ذلك "أجاب حازماً "ستنقضي الزيارة بعد قليل، ولا أخطّط لإهدار الوقت في الجدل حول ما مضى، ألا يسرك أنني أفضل الآن؟".

_ "بلى "

_ "وإذا؟"

_ "حسنًا لن أسأل ثانية "وأطرقت رأسها مستجيبة لأسلوبه الخشن الجديد في إلقاء الأوامر، وأحسّ أنه خاطبها بفظاظة وكان مقيتاً معها، فحاول أن يصلح ما أفسده منذ قليل وحوّل نبرته إلى لطيفة لزجة

_ "بوسعي أن أصمد، كما اتّفق وأخبرتكَ، الرجال دائماً يصمدون، و بوسعهم إبداء روح مكافحة عندما تقتضي الضرورة ذلك، والآن هل أخبرتك أنك تبدين في غاية الجمال، ماذا فعلت بي؟ يشرفني أن تسكني قلبي، أعطيك إياه، افعلي به ما تشائين ولكن لا تكسريه، إنني

سعيد جدا لوجودك بحياتي .

_ " لا أتمنى إلا أن تكون سعيدا، أن تكون آمنة "أجابت و عيناها تنطقان فرحا .

_ "هل افتقدتني كثيرا؟"سأل بأسلوب لطيف يوفره لسؤال أطفال الحي .

_ "أجل، كثيرا "

_ "أثيل، إنه آخر لقاء لنا في السجن، لن تأتي لزيارتي مرة أخرى "و همّت أن تحتجّ ولكنه أوعز لها بحركة حازمة من يده أن تدعه يتم عبارته فتراجعت " لم أكن لأقبل وجودك هنا لو تمت استشارتي، ولكن الأمر فُرض علي، ولقد سررت بزيارتك بالطبع، على أنها ستكون الأخيرة، و قراري نهائي، ليس هذا المكان المناسب لك، وأرفض أن تقطعي تلك المسافة الطويلة لتقابليني بهذا المنظر الزري ."

_ "أقبل أن أقابلك بأي منظر" أعلنت باندفاع، وملامح وجهها المبتهلة توجي بالاعتراض.

_ "أنا شاكر لوفائك يا حبيبتي، ولكن لا، لن تأتي إلى هنا ثانية" و كسا وجهه تعبير جازم "سأقابلك المرة القادمة في الحديقة، وستكفل سمراء بنقل كل أخباري إليك، لأنها ستزورني بانتظام رفقة خالتي وعمتي، و إن أردت إبلاغي شيء فأرسلني لها رسالة، قدّريني كثيرا يا أثيل في الرسائل، هذا ما أحتاجه " وابتسم مستمتعا

_ " كما تشاء " قالت مستسلمة

_ "تبدين أجمل عندما تطيعين الأوامر"و تحرك الشرطي بين الطاوات يعلن نهاية الزيارة، وتظاهر البعض بعدم الاكتراث، فتابعوا الأحاديث الشيقة و الضحكات الراجعة، و عندئذ كّرر الرجل الطويل أوامره صارما، مؤكّدا، ضاربا على الطاوات بكفّ يده ونهض الاثنان كارهين، يتبادلان نظرات جريحة. من الصنف الذي تبادلاه مرارا مودعين في الحديقة، و كانت تتوسّل إليه صامته أن يتراجع عن قراره، وأمّلت أن تحدوه عاطفة أكبر منه إلى إلغاء ما عزم عليه، ووثب قلبها من مكانه، و أحسّت أنها تتألّم ألما مبرحا، و أرادت أن تنظر إليه أطول فترة ممكنة كيما ترسخ صورته الأخيرة في عقلها حتى و إن كانت الصورة منحرفة عن المؤلف، فلم يبدر منه إلا كلام قليل.

_ "سأشتاق إليك، وداعا "و كان في صوته ما ينمّ عن بؤس و مرارة .

_ "سأشتاق لك أيضا"قالت واستدارت ببطء، و أحسّت أن قوتها لن تلتها لمبارحة هذا المكان

رغم رداءته.

الفصل التاسع

"عزيزي خليل

إنني أجعل من نفسي شخصا غريب الأطوار في الأيام الأخيرة، و ستلاحظ أنت ذلك أكثر من الجميع إن ما سنع لك وقتك الضيق و فتحت حاسوبك وقرأت الرسائل العشر الأخيرة الواردة من قبلي، ستلاحظ أنها أرسلت بفواصل لا تزيد عن عشر دقائق، ستفاجأ حتما، لأن الحماس استولى علي لعلمي أنه سيطلق سراحك غدا، و قد عدته العائلة اللطيفة أكثر من غريب، ينبغي عليك أن تنوّه بجهودي الاحترافية في سبيل إرضائك واستقبالك .حاولت أن لا أحزن ووجدت صعوبة هائلة في ذلك، لم أكن أملك من أمري إلا أن أصبر على فراقك الطويل رغم أن السيّد سميحة وضعت خططا ممتازة لإسعادي وإشغالي .

وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل استيقظت على وقع شجار حام في آخر الشارع بين رجلين، ثم فهمت أنه دار حول ديون لم تستوفي، وتساءلت كما هو شأنّي دائما إن ما كان خليل سيخصني بالرسالة الأولى أو أن الأصدقاء المتلهّفين والأقرباء وأفراد الأسرة المتشوقين سيبرّون مني الحظ الأول في الطابور الطويل.

من الطبيعي أن تتسمّر خالتك و عمّتك أمام باب السجن قبل بزوغ الفجر، ودموع الفرح تترقق في كل زوج من العيون المتلهفة بقلة صبر لرؤيتك، ستحظيان بالقبلات الأولى وستتنافس منزلتك الرفيعة في قلبيهما من أجل اصطحابك إلى بيتها، أما أنا؛ فسأزرع أمام الحاسوب غدا بدل أن أزرع أمام باب السجن امثالاً لأوامرك القمعية لاستقبال رسالتك الأولى فور ورودها.

انتزعت السيّد سميحة بمهارة موافقة ابن السيد إبراهيم لأجل يوم عطلة لصبيّة تعاني من الحنين المتعطّش و التوتّر العصبي لأن خليلها سيطلق سراحه غدا، ويرجع الفضل في ذلك أنّ الابن أكثر ليونة من أبيه المتزمت المتعصب، هل تستطيع كلمة بسيطة كالحنين الثائر أن تصف مدى شوقي إليك؟؟ لا، لا، تستطيع كل كلمات العالم بجميع اللغات أن تصف شيئا مما يختلج قلبي، ولولا أن عباراتك الأخيرة في السجن منذ ثمانية أشهر أزرت فؤادي ببعض الصبر والأمل لما خدمت نيران القلق والحيرة والشوق والألم، وأنا شاكرة لابنة عمّتك الغالية، لأنها لم تحرمني من أختبارك طوال هذه الفترة.

أكاد لا أستطيع تحمّل ليلة أخرى و ساعات نهار قادمة، بينما وسعني أن أنوء بعبء الأشهر المنصرمة الجوفاء من دونك، و وجدت عزاءً مريحاً في كتابة الرسائل رغم معرفتي أنها لن تُقرأ

من طرفك، دونت لك فيها كل تفاصيل الأيام التي انقضت بلا لون دون وجودك، ستستقبلك ألف رسالة ويتردد صوت ورودها المزعج بحيث تصمّ أذنيك بيديك.

أنا متلهفة ليوم غد، وكأني سأحلّق في الفضاء كعصفور حر مغرد سعيد، وأتساءل كل ليلة قبل أن ينسل النوم إلى عيني الضائعتين في عالم يفتقدك، أتساءل بشيء من الحيرة الساذجة، إن ما كان الحب الذي اعترفت به لا يزال حيا في قلبك، فحي أنا خالد لا يموت، أحبّك كثيرا يا بطلي. وحيث أن الانزواء في ركن محدّد يوترني، أخذت أتجوّل في أنحاء البيت مثل شبح البيت المسكون، وأسبّب الفوضى وأحدث ضجّة، وتساءلت أُمي بينما أنا أضحك بصخب إن ما كنت أعاني من متلازمة السيدة سميحة المطلقة للدعابات، وكان يمكن أن أواجهها أن الذي يسعدني أكبر من مجرد دعابة سخيطة لولا أنها ستجد اعترافي مدعاة للزعيق والتوبيخ المتواصل، كذلك تجوّلت مضطربة في بيت السيدة سميحة، أعيد على مسامعها أنك ستكون حرا غدا، فتقسم بأغلظ الأيمان وبجهود عديمة الجدوى أنها حفظت المعلومة أكثر من حفظ عبارة زوجها الراحل: هل تعلمين أن أُمي كان يُشار إليها بأمرأة بألف رجل. أجل إنني فخور بها، لا يزال طعمها الحار عالقا في لسانها ولا تنفك ترددها كيبغاء.

و الآن يا أثيل إن عقلي غدا تعب، ولن يسعني أن أدسّ فيه عبارة أخرى، لقد فهمنا أن السيّد المحترم خليل سيطلق سراحه غدا، إن هذا نبأ خرافي، حفظه الله إنه مثل الملاك، عبّرت كمن سئم من مضع نفس اللبان، لشدّ ما أسعدني وصفها لك بالملاك، ولم يعقني ردّها المتألق من ترسيخه في ذهنها مجددا، أجل لقد ذكرت أمامها للمرة الخامسة عشر أنك ستكون حرا غدا

أثيل المتلهفة إليك "

ملاحظة. سأفشي لك لأول مرة بعد اعترافي الأول في السجن أنني أحبك وسأفعل إلى الأبد لأنني لا أستطيع إلا أن أحبك.

"عزيزي خليل

مرّت خمس دقائق على رسالتي الأخيرة، ووجدت أنني بحاجة ملحّة إلى تسليط الضوء على بعض المسائل المهمة، ليست بتلك الأهمية، حسنا، أنا منفعة وأحتاج إلى تبديد الوقت، فبالكاد تخلّصت مني جارتني العزيزة زاعمة أن رأسها سينفجر من الصداع، ولا أملك الجرأة لأدقّ بابها، أشك أنها ستفتحه؛ لأن الطارق سيكون شخصا مزعجا كطفل متطّقل يروي لها مغامرته الطافحة شجاعة للمرة السادسة عشر، سئمت منه و من رواياته، فليس لدي سواك لأزعجه بالحديث عنك، أخشى يا خليل أن لك مؤيدين ومحبين كثير، أكثر من عدد الحاقدين

المبغضين أو اللامبالين، لا أستطيع إلا أن أتذمّر منهم، فإنهم بتحلّقهم حولك لإبداء إعجابهم الرصين و تجديد إخلاصهم الورع سيكونون حاجزا منيعا لإعاقتك عن الرجوع إلى البيت باكرا، وهكذا لن أحظى بفرصة لمحدثتك إلا بعد أن يزعج أهلكهم من طول غيابهم عن المنزل. كم أكره تلك العادة في الاكتظاظ أمام باب السجن للاستقبال، وكنت سأرحّب بسعة صدر بحنين العمّة والخالة الغاليتين المدلهتين بك، حيث أنهما تشتاقان إليك وأستطيع أن أتخيّل أي اجتماع عائلي بهيج يُعقد الآن في الحديقة الخلفية للمنزل وسط أحواض الزهور العطرة والاقتراحات المتبادلة والترحيب بفكرة إعداد هذا الطبق و صرف النظر بعبوس عن آخر.

إن التجهيزات قائمة لغرض إبهاجك، كنت سأرحّب لولا أن ذلك يعني استلاءهما عليك كليا بينما، لن ينالني أنا إلا الانتظار المفضي إلى مزيد منه، وطبيعة السيّدات بمقام الأم الثانية لا تخفى، فهما ستسألان أسئلة لا حصر لها حتى كيف كان جفناك يتحركان، و إبداء الملاحظات الدقيقة حول جسدك وشعرك و بروز عظام وجهك وعاداتك الجديدة المكتسبة، ثم ستقولان بينما تحتلّ كل منهما يمينك و يسارك متعلقتين بذراعيك كأنك ستفلت منهما: اه يا خليل ما أجوف ما كانت الدنيا من دونك، إن ضحككتك كانت تملأ البيت و الآن غدا كئيبا ليس فيه أي روح؛ خليل لقد تشاورت مع خالتك و أجمعنا رأينا على قضائك الليلة و التي يلها و الثالثة في بيتي، ثم بوسعك مرافقتها إلى المنزل، لن يكفي أسبوع لأشبع منك، ثم انظر كم تبدو هزيلا شاحبا، سأتولّى عملية الإشراف بنفسي على تغذيتك وإعداد الأطباق المناسبة لاسترجاع صحتك موجّهة كل رعايتي الحريصة إليك، أعي أنهم في السجن لا يقدّمون إلا عدسا عديم الطعم، و مرقا تجري فيه حبات الحمص النّيء و غذاء رديئا، و عندئذ تعترض الخالة الغالية : متى أتفقنا على مثل هذا الهراء، طبعا ينبغي أن يذهب صوبا إلى منزله ليرتاح، ثم بوسعه أن يذهب إلى الزيارات بعد أسبوع، أنا خالته التي أفهم ما يريد قبل أن ينطق به، و أنا بنفسي سأشرف على تغذيته و الاعتناء به كما سبق و فعلت، أشكّ أنه يرحّب بفكرة أن يأكل من غير يد خالته، و بينما المنافسة تبلغ أشدها يوحى إليّ حدسي المتواضع أن السيّد الوديع، اللطيف للغاية خليل سيعلم متحديا أن الوجهة الأولى هي البيت؛ لأنه متلهّف أكثر مني للتحدث مع غاليتيه أثيل، ألسنت على صواب؟، خليل أكاد أفقد صوابي، وليس بوسعي البقاء هنا و الانتظار، يبدو الغد

بعيدا كأنه في السنة القادمة

المخلصة لك دوما أثيل

ملاحظة.ستصلك رسالة بعد خمس دقائق إن لم تفتح السيّد سميحة الباب، سأقول

مجدّدا أنك ستكون حرا غدا ."

"حبيبي التي أحبها أكثر من أي إنسان أثيل، الفتاة الوفية المخلصة التي يجري عشقها في دمي ويسكن عقلي و قلبي وكل ركن من جسدي:

اشتقت إليك، وتكاد كلمة شوق لا تفي بغرض التعبير عن مدى اشتياقي إليك. بالكاد تخلصت من سيطرة خالتي وعمتي وزيتهما النكدة، و بالكاد انتزعت تسريح الانفراد بنفسي لأكتب رسالة إلى أميرتي الجميلة، سرّني أن عيني لم تقعا عليك عندما اجتزت بوابة السجن، رغم تحرّقي ولهفتي لرؤيتك، بيد أن منظرِك ترتجفين تحت أمطار آذار الغزيرة لا يغريني، كما أن ما يضايقني هو أن تقطعي مسافة كيلومترات طويلة من أجل أن تكثُر الأسئلة حولك: من هذه؟، سيسأل الجميع، وبالخصوص لأنك فتاة جدّابة أكثر مما أستطيع حجه عن الأعين الفضولية وسأعترف لك قبل أي شيء أنني أحبك حبا عظيما كما لم يحبّ رجل امرأة، وكنت فقط أحلم باللحظة التي أخرج فيها من ذلك المكان القبيح، لأقرأ رسائلِك فأنسى كل متاعبي وهمومي .

لقد حرصت ابنة عمتي على مط شفتيها وجعل حاجبيها يرقصان بطريقة ماكرة للغاية وهي تنقل إليّ رسائلِك المشفرة، وتخبرني بابتسامة أشدّ مكرًا عن تقديرِك الخالص لي. حسنا يا عزيزتي إنني حرطليق متنعم بكامل صحتي الجسدية والعقلية، وأشعر بدافق حازّ من الحيوية والطاقة للعودة إلى الحياة الطبيعية، قرأت الرسائل الأربع الأخيرة فحسب، وسيتمّ تأجيل قراءة البقية إلى أن تقرّر السيّدتان تركي و شأني فقد اكتسبتنا أفكارا جديدة تستدعي الملاحظة وتستصرخ الإصغاء، اكتشفت أن طابع النظام الدقيق قد تأصّل في خالتي أكثر عن ذي قبل، وبدورها عمتي لم تتأخّر لتثبّت لي أنها قد طوّرت مواهبها في ميدان الثرثرة حول الأزمت الاقتصادية، كم أنه لطف منها أن تستقبل سجيننا بهكذا مواضع، فضلا على أنني حلّلت طويلا: ما الغرابة في وضع إحدى صديقاتها شعرا مستعارا، لست متأكدا إن ما كانت قد فرغت من عرضها الأزمت الاقتصادية العالمية، ولكنني واثق أن الأزمت الأخلاقية ستكون حاضرة بقوة على طاولة العشاء وسأضطرّ لإبداء عظم دهشتي وسخطي لانحلال أخلاق المجتمع العزيز.

إنك تسألين أين أنا؟، لماذا تأخرت؟ وتخشين أن يلصقوا بي تهمة أخرى ثم يضيفوا إلى الحكم سنة أو سنتين غير متوقّعتين. لا يا حبيبي لم يكرّموني بإضافة سنة أخرى، فالوزير يستمتع بعطلة ربيعية هادئة في أحد الجزر، وليس له وقت ليستخفّ أكثر بحياتي المقدّرة لديه بحياة فأر، كل ما في الأمر أن المعجبين والمعجبات وطاقم العمل المكون من شايبين وأربع فتيات زاعقات وعلى رأسهم السيّد مالك بالإضافة إلى خالتي وعمتي وبعض أفراد العائلة التقّوا حولي

مثل السرب، تلقيت قبلا وأحضانا تكفي لإخراج الكأبة من كل الدنيا، وقرأت فرحة حقيقية في الوجوه المنشرفة، مما دفع معنوياتي إلى التحليق عاليا .

حبيبك خليل الذي يحبك كثيرا، أكثر مما تحبينه أنت .

ملاحظة، قبل أن تنهي قراءة هذه الرسالة ستصلك الثانية، لن أبارح مكاني ما لم أتحقق أنك سئمت مني، وسأقابل إلحاحهم بالتجاهل، أنت تأتين في المقام الأول قبل الجميع."

"حبيبتي أثيل

كيف يخطر لك أن تستوضحي مني إن ما كان حبك حيّا في قلبي؟ لا أملك خيارا إلا أن أحبك، وأحبك بامتنان، لأنك برزت إلى حياتي مثل النور في الوقت المناسب، لست نصفي أو ظليّ يا أثيل، أنت كلّي، ولست شاطئي أو رملي أنت عمقي، أنت زرقة لوني. و أكرّر أنني أحبك كما لم يحبّ رجل امرأة، وأشعر أنه لا يوجد حبيبان مثلنا في العالم بأسره بوفائنا، بصدقنا، بصفاء قلوبنا، بتمسّكنا ببعضنا بعضا، ولا أنفك أحسد نفسي عليك.

طيلة أشهر السجن، ظلّت صورتك تدفعني إلى التماسك، وتبعدني عن الإحباط واليأس، كنت أنظر من نافذة السجن والضوء المنساب الباهت يبدّد شيء من الظلمة، بينما المكان يضيق على رحبه وكنت أستحضر ملامح وجهك في خيالي و يتردّد صوتك الرقيق في أذني فيتلاشي كل الغضب والمرارة والقهر ويتسع الضيق، ويا أثيل، غالبا ما كنت أخاف، أنا الذي لم يخف في حياته من فقدان شيء سوى أمه، أنا الرجل العنيد المتماسك. أجل أصارحك بأني خفت أن أخرج من السجن فلا أجدك، رغم أن ابنة عمتي كانت تفد إلي بأخبارك وتطمئنني أنك بخير، لكن لا، صوت خسيس عميق يصرخ في داخلي يسوقني إلى الجنون، أخشى خسارتك، وإن ما خسرتك سأخسر صفاء حياتي وجمالها وينهار العالم من حولي . أجل أحبك إلى الحد الذي أتخاذل فيه عن العيش بدونك، ومن بين جميع الظروف الحالكة خشيت أن تتأثري بسلطة الأم المتعطشة لتأمين مكانة لابنتها المثالية ضمن عائلة محترمة باسم التقاليد النزقة أو الواجب الحياتي المحتم، أن تزوّجي رجلا آخر سواي، شيئا فشيئا أحكمت الفكرة قبضتها وبات الصوت مسموعا رغم غارات التجاهل والقمع الفعّال، كأنها قادمة من عقل الشيطان، فقادتني إلى الاضطجاع ساهدا، وتساءلت مدعورا حانقا "ماذا لو أنها تزوّجت، ماذا لو أنها ملك رجل آخر الآن، بينما أنا عاجز عديم الحيلة، وعندما أتخيّلك بين أحضان رجل ساقك إليه الواجب الزوجي، أضرب الحائط بكف يدي حتى تتورّم، فيعتقد الحراس أنني فقدت عقلي، لأن صياحي أحيانا كان يملأ المكان، وربما مالوا إلى الاعتقاد منتشين جدلا أن الوزير بلغ غايته بإذلاله، كم أنهم أغبياء إذا ما ساور رؤوسهم الكسيحة هذا الاعتقاد، لا يُدلّني خسارة حياتي أو قهر الرجال،

بل قهر الحب و خسارة الفتاة التي أهواها، الفتاة التي تقلدت منصب المسير و الأمر، و وضعت الأمور في مسارها الصحيح، ثم سرعان ما أقبض على صدغيّ بكتلتا يدي عاجزا مثل حيوان جريح في فخ، ما حيلتي إزاء فوز رجل آخر بجسدها لا بقلبيها، فأنا واثق من ملكيته، ما حيلتي بفوزه بها بعقد مبارك بالشرع والقانون يبيح له أن يتصرّف بها كيفما يشاء، ثم ما تلبث أن تثير هذه المصيبة عاصفة من الغضب الذي لا قبل لي بالتحكّم بهيجانه، فتاتي أنا يمتلكها غيري!! لن أسمح مطلقا بذلك، ولذا سأدخل في صلب الموضوع الذي بحثناه سويا قبل أشهر. أوّد أن أتزوجك في أقرب الآجال، وإن كنت لا تبالين بالمظاهر النسوية التافهة و تقاليد المجتمع الغيبية، والهذيان حول طوافك في محلات الألبسة وإظهار نفسك في عرض بدائي تافه أمام الأعين و حرق خصلات شعرك و لقمها عند مصففة الشعر، وإهدار طاقتك في ما لا يفيد، وإن أنت لا تمانعين أن تشاركوني أيام فقري القادمة إلى أن أثبت نفسي في وظيفة جيدة، فأنا أخطّط لمفاتحة السيدتين في موضوعنا هذا المساء على طاولة العشاء التي لم أستطع تجنّب الانضمام إليها. حسنا، إن عادة إفشاء الأسرار عند النساء مفيدة غالبا، قبل أن أبدي رفاضي لأنني متعب رفعت عمي حاجبيها في تعبير مستنكر قائلة أنها تدرك ما نوع التعب الذي أعانيه وفورا أخذت سمراء تداري عنقها بسرعة خاطفة مثل السلحفاة، متظاهرة بنفض الغبار عن فستان خالتي، إنها لم تستطع حفظ لسانها صامتا في حلقها، ولأكون صريحا، عوض أن أستاذ بفعل إفسادها فرصتي في مفاجأتهم، سررت من ثرثرتها، إذ ترتّب عنها تسهيل مهمتي، وهذه الليلة وقبل أن أفتح فمي لأشرح لهم كيف وقعت في الحب مثل الأحمق وأنني أنوي الزواج، أنا الذي كنت أشارك عمر رأيه أن الزواج مزال وقته، وأعلّق بعيدا عن مسامع والدتي أن النساء يعكّرن صفو الحياة الطليقة، والزواج عبارة عن أغلال تحدّ من حرية الرجل، أوّد متلهفا الآن أن توضع حول رقبتي و يدي أطواق من حديد.

قبل هذا سيقع على رأسي سؤالها كالفرج العظيم: خليل، علمت من سمراء، "طبعاً ستسقط سمراء الشوكة عامدة على الأرض داسّة رأسها تحت الطاولة متظاهرة بالبحث عنها تفاديا لنظرتي المؤنبية: علمت أن الفتاة جميلة جدا، تقول إنها لم تر فتاة أجمل منها، وأنها هادئة و مؤدبة، و ثياها محترمة و من هيئتها تبدو من عائلة أصيلة.

وماذا قالت سمراء أيضا؟ سأستفهم

"قالت إنها تبدو مناسبة لك، و جديرة بالانضمام إلى عائلتنا، هل نعتبر أننا حصلنا على زوجة ابن صالحة؟ أقصد هل أنت جدي بخصوص الفتاة؟ سأجيب واثقا و الحماس يقطر من وجهي: أجل ستحصلان على زوجة ابن ناعمة و جميلة و أكثر فتيات الدنيا كبرياء و أديبا.

أثيل، يبدو أنهم لن يتركنني وشأني، سأتعرّض إلى تحقيق و استجواب دقيقين و أثناء نزولي درجات السلم سأقوم ببعض التمارين اللاتقة لأجل إحراز الأجوبة: هل صحيح أنهم يضعونكم في الماء المغلي؟ هل تم إيجاباركم على أكل الحشرات؟ أحقا ينام خمسون رجل في زنزانة واحدة؟ أيعقدون مباريات للشجار من أجل التسلية، تتلف النساء لمعرفة كيف هي الأماكن الغامضة مثل السجن، الذي لو أتاحت لهن الفرصة لإشباع فضولهن حوله لما تردّدن في ارتكاب جريمة تفضي إلى اكتشافه.

هلا تطلبين من السيّدة سميحة مفاتحة أمك بموضوعنا؟ أو ربما تفضلين والدتيّ الجليلتين لتأدية المهمة بدلا عنها

خليل الذي يحبك إلى الأبد

ملاحظة: كانت الرسالة طويلة، أمل عندما أعود أن تحزمني قرارك أيا من الثلاثة تريدنيها أن تجلس في غرفة الضيوف مقابل أمك العظيمة.

ملاحظة ثانية: إن كنت ترغبين ببعض الوقت لغرض التفكير، فلن أحرمك من حقل الطبيعي، فكل الفتيات يجدن بمهارة فائقة إخراج الرجل عن صوابه، بينما هو ينتظر الرد، وأنا لست استثناءً، أخرجيني عن طوري إذا شئت.

ملاحظة ثالثة: سأراك هذا السبت كما هي العادة، لن أقبل بأي عذر، قلت لن أقبل بأي عذر.

"عزيزي خليل

لقد قرأت رسالتك بوافر من السرور، يسعدني أنك بمثل هذا الحماس، ويسعدني أن وجدت رسائلي بصحة جسدية جيدة، وبينما أنا أقرأ نما في داخلي ارتياح شديد لعدم تأترك بظروف السجن القاسية، ما أجمل أن أمس مسحة الاستهتار القديم في شخصك، تشعرني بالطمأنينة، هذا هو خليلي الرائع القوي الذي لا يؤثر فيه شيء، دم ساخرا إلى الأبد يا خليل، دم ساخرا لأعرف أنك بخير.

لا تفترض أنني أرغب في إثارة عصبيتك، ولكن يا خليل أرى أن مفاتحة العائلة بالموضوع هذه الليلة ليس بالفكرة السديدة، لقد أبدت فعليا في وقت سابق موقفي الصارم من الفقر والحفلات والطواف في المحلات، لست أعيا بها أكثر مما تعبا بها أنت، وإنني جاهزة للعيش معك في عززال خشبي فوق الشجر، لتثريث قليلا، فلم يمض ساعات على خروجك من السجن، أنت بحاجة إلى بعض الراحة كما أحتاج أنا أيضا لإفشاء بعض الأمور الجدية أمامك، ولست بحاجة إلا للوقت، وحيث أننا في البيت نمزّ بضائقة عائلية عابرة، أشك بجاهزيتي للزواج منك

يا خليل، حتما لست أرفض، كما أنني لا أحتاج وقتا للتفكير شأني كالفتيات اللاتي يملن إلى إخراج الرجل عن صوابه، وليس إلا بقاءك آمنا سالما طليقا كما أنت الآن أمنية عزيزة على قلبي على المستوى ذاته مع الزواج منك، أرجو أن تتفهم موقفي كما كنت دائما، في سبيل أن أسعدك سأتي هذا السبت وسنقضي اليوم بطوله سوية

سيكون الجوّ الأسريّ المتلاحم مفيدا لك يا عزيزي، بوجود السيدتين الرائعتين خالتك وعمتك، أرجوا لك عشاءً طيبا

أثيل المحبة

ملاحظة: أحبك أكثر مما تحبني، لا تنس، تذكر هذا إلى الأبد، إلى الأبد، أحبك حبا بلا حد".

_فتاتي المترتبة أثيل

إنك تدفعيني إلى الحيرة، هل أصدّق حقا أنك تحبيني؟ أغوص في قرارة نفسك فأغرق يا أثيل، أضيع عندما لا أحصل على تفسير مقنع لسلوكك معي، ما كل هذا التناقض يا أثيل؟

بينما كنت أنا مندفع للإعراب عن رغبتني المحمومة في الارتباط بك، ووضع الخطط رفقة عمتي وخالتي، تعريبن أنت عن رفضك بسياسة مراوغة مستعملة مصطلح (نتريث)، لقد رفضتني بطريقة لبقة جدا كما يبدو ثم تحاولين طلاء الرفض بدهان زاه، كم هو أنيق رفضك لي !! كم أنك فاتنة مستبدة يعذبني صدها لي !!!.

لا يا أثيل، هناك ما تخفينه عني، و طالما تيقنت من إخفائك بعض الأسرار، وليس هذا في صالحنا، أستغرب لماذا تنزل هذه الضائقة العائلية فجأة دون سابق إنذار، هل تحبكين مؤامرات خلف ظهري أو ماذا يحصل بالضبط؟، لست مرتاحا لأعدارك المزعومة، لقد عدت مرتاحا بعدما ظفرت بدعم السيدتين، و بعدما أبديتا بحماس رغبتهما المحمومة في التعرف عليك وعلى عائلتك، وتم التفاهم على التجهيزات اللازمة والعرس البسيط الذي حدّدنا موعده نهاية الشهر القادم إن وافقت عائلتك، تسدين علي الطريق قائلة إنك لست جاهزة !!أهو خوف من الزواج؟ أو خوف من رفض والدتك لي؟ أو ربما فاتحتها بالموضوع و لم تنتزعي منها إلا الاحتجاج الصريح؟ لقد صدمتني وخذشت حماسي، هذا ما يسعني الشعور به في الوقت الراهن: الصدمة، وثبّطت همتي، وأخشى القول أن عذرك الزاهي المدلل لم يتجاوز قشرة رأسي الخارجية

المستاء منك خليل

ملاحظة: أنا مستاء يا فراشتي، و لست تملكين إلا مصارحتي بالحقيقة التي تخفينها عني".

"عزيزي المستاء خليل

اااا يا حبيبي، كيف يسعك أن تشكّ في حبي وإخلاصي لك؟؟، منذ أن قرأت رسالتك و أنا أشعر بانقباض في قلبي، كل هذه الفرضيات لا مبرّر لها، عمدت إلى عدم الرد الفوري عليك تجنّباً لتفاقم غضبك، أشعر بالذنب؛ لأنني آمتك وجرحت شعورك وخيبت رجاءك، إن الموضوع برمته سوء فهم لظروفي، لم أصرّح أبدا أنني أرفضك، وكيف أقدم على رفضك، وأنا أحبك كل هذا الحب، هل تصدقني إن ما أقسمت لك أنني لم أفتح أمني بأي موضوع؟ إنها لم تعلم وكن على يقين يا خليل أنها لن تمانع زواجنا بعد أن أصرّ أنا عليه، إنها تحبني وتوافق على أي شيء يسعدني، أنها فقط بحاجة إلى الوقت من أجل حلّ بعض الأمور العائلية، أ لا تزال مستاءً مني؟ إن لم أتلّق منك رسالة سأفهم أنك لا تزال غاضبا وسيؤلمني أن تظللّ كذلك

المحبة الهائمة أثيل "

"عزيزي خليل

لا تفعل بي هذا، لا تحبيني في زنازة واحدة مع الخوف والحزن والارتباك. انتظرت رسالتك ولكنها لم تردني. إن النوم مستاءً مني مثلك تماما.

هل أطمع أن تبذل جهدا ولو ضئيلا لأجل أن تتفهمني، إنك تشعر شعورا مفعما أنني خيبت أملك و خذلتك وكسرت قلبك في الوقت الذي تحتاج مني الوقوف إلى جانبك. كن واثقا أنني أفعل أي شيء لإسعادك، لأن سعادتك تعني سعادتني أنا أيضا، هل التمسيت الكثير عندما طلبت إليك منحي بعض الوقت لأجل ترتيب بعض المسائل الطارئة في البيت؟ إن صمتك مخيف أكثر من تأنيبك، أخاف منك عندما تصمت يا خليل، أخاف منك عندما تغضب، سأبوح لك بسر، خسارتك تعني الموت بالنسبة لي، سأموت إن خسرتك، لأنك روحي وأنفاسي، أنت حياتي وأملي ومصدر قوتي. سأظلّ مستيقظة إلى أن تردني رسالة من طرفك. تثبت من خلالها أنك لست غاضبا مني، أنا جديّة بهذا الخصوص ولا نية لي بالمزاح معك، سوف لن أنام

المحبة المخلصة التي لن تنام أثيل "

"لغزي المحير أثيل

إنك تحاولين تحريك قاع القدر وهذا لن يجدي، كونه خاليا إلا من المرق، ليس بمقدوري أن أقول أنني أفهمك على النحو الذي تشائين، كما لا أستطيع أن أنفي امتلاء صدري بحزن قائم ممزوج بالحيرة في اللحظة الراهنة. بوسعي فقط أن أنظاها بتفهّمك، إن كان ذلك يرضيك ويحسنّ حالتك المرتبكة. و فضلا عن كل هذا أنت لا تسمحين لي بمعرفة مشاكلك، وأنا على يقين تامّ أن مساهمتي في حلّها تُصنّف لديك أزمة عالمية و تدخّلا صفيقا في شؤونك العائلية الخاصّة. إنها تعتبر في دستورك المتعصّب قضية شائكة معقدة تذوي كبرياءك الرفيع، تنتابني

رغبة جامحة في تفكيك رأسك ومعرفة الأسرار الغامضة التي تنفر ميولاتك من إطلاعي عليها، ثم أتساءل تائها، أتراها السيِّدة سميحة توصلت إلى معرفتها؟ فبي صديقتك الحميمة رغم أن هذه الصداقة توقعني في الحيرة كما تحيرني أمور أخرى، وأجيب نفسي أنها ستعرف في حالة واحدة إذا كان السر مشتركا بينكما، سر عجيب كالقبض عليكما ووضعكما في السجن، أهذا ما تخفيينه؟ سوابق عدلية؟ هل تدرجت إلى السجن من قبل، أقضيت سنة مثلي بين جدرانها؟ أشك أنك والسيدة العظيمة تملكان ذلك الحظ البديع لتسلما كل مرة، هل تعثر الحظ ذات مرة؟ ثم أتهم نفسي بالغباء، أكانت أمها لتسمح باستمرار الصداقة العابثة لو اتفق وحدثت هذه الكارثة لابنتها!!، اذهبي إلى النوم يا منجم الأسرار وكهف الغموض لقد تأخر الوقت، إذ لا يظهر أن مزاجي يحفل بمحاولاتك لتلطيفه، و سأخلد بدوري إلى النوم، و لست في حالة حسنة لاستقبال أي رسالة منك، فأرجو عدم معارضة رغبتني، لا تبعثي بأي رسالة أخرى

تصبحين على خير

ملاحظة، لست غاضبا، أنا مزعج فقط من المزاج المتقلب الذي أعامل به، وليس لدي أدنى رغبة في النقاش معك، عندما أكون جاهزا سأكتب لك بنفسني إلى ذلك الوقت لا ترسلي شيء "حبيبتني غريبة الأطوار أثيل"

قمت بنزهة قصيرة إلى خارج البيت بمفردي، يكتف فريد رغبتني في اجتماع ودي كذلك الذي كنا نعقده قبل دخولي السجن، فصارحته أنني أفضل البقاء وحدي إلى أن أكون قادرا على زعزعة رأسي في أمور العمل، فذاك ما استدعاني لأجله.

وبعد فترة قصيرة تلبسني الندم وشعرت بالذنب؛ لأنني عاملتك بأسلوب عدائي شرس غير مبرر فعدت إلى البيت بسرعة البرق، وبالكاد تحركت شفاتي لمبادلة تحية خالتي التي كانت تنزل لوحات الحائط لغرض تنظيفها. عدت لأسلم نفسي لك من أجل الثأر لكرامتك المهانة وشعورك الجريح، يركلني ضميري، لأنني هاجمتك بفظاظة عجيبة منذ يومين، وزدت الطين بلة عندما قطعت رسائلني عنك، أما ما جعلني ألعن نفسي، فكوني جردتلك من حق إرسال أي رسالة، الأمر الذي أطمعته دون نقاش أو عصيان.

كنت مزعجا، لكونك غير واضحة وصريحة، يندر أن أستطيع تجنّب وصفك بالمتناقضة وقلما أتخاشى إنشاء جدول بالأمور التي تعمل لمصلحتي والتي تعمل ضدي، تكتبين رسائل طيلة أشهر لتخرجيني من الحالة البائسة التي كنت عليها، تقطعين مسافة طويلة لتريني في السجن ثم تبكين لأجلي، وتصارحينني أنك تحبينني منذ سنين خلت حبا صامتا متحفظا، تنتظريني بلهفة، تفعلين المستحيل لأجلي، ثم عندما أعرض الزواج عليك تمتنعين، أليس لدي الحق في اعتبارك

فتاة غامضة؟، أُلست لغزا محيرا؟ أبحلو لك تشريدي يا فتاتي؟ يسهل عليك إقناعي لو أنك تَعْتقِن نفسك من شكليات الغموض، و تجربين وسائل عملية غير أن تكوني سرا مهما، فسري لي بالله عليك، فسري لي كي أفهم.

هذه أول مرة أصطدم معك فيها، أنزعج من نفسي، لأنني تركتك يومين دون السؤال عنك وها أنا قد راجعت نفسي، وأعترف نادما بقسوتي الفظة، هل خلدت إلى النوم باكية لأنني صرخت في وجهك؟ فأنت تتأثرين بسرعة وتبكين أسرع، وليس إلا الحزم يكبح نازلة البكاء تلك، كم أنني كنت وغدا لعينا عديم القلب!! ولكن يا أثيل ما بيدي حيلة، فأنا أغدو مجنوننا عندما لا أستطيع فهمك، إلهي، كم أغدو مجنوننا، ولست أفضل عندما لا تتنازلين مقدار ذرة لإزالة الغموض واللبس، كيف أغرس في روحك الحزينة الثقة بشخصي؟ كيف أجعلك تفهمين أن بوسعك وضع رأسك المثقل بالهموم على كتفي؟ ونقل أعبائك إلي، فأنا رجل، وبمقدوري أن أتحمّل، سأحرص من الآن فصاعدا على تنفيذ رغبتك فلا أضغط عليك إلى أن تطلي أنت يدي للزواج، انتظري لثري كيف سأردّ لك الصاع صاعين، جهّزي قدميك الطريفتين لغرض الجري خلفي، بقدر ما أتعبتني سأتعبك، ماذا تقترحين علي؟ فأنت صاحبة خبرة في رفض عروض الزواج، الله فقط يعلم عدد الرجال الذين حطّمت قلوبهم بينما أنت تنطقين مزهوه كلمة لا، الله يعلم كم رجلا خيبت رجاءه وأرجعته من عتبة الباب يجرّ أذيال الخيبة، أراهن أن جميع رجال مدينة س.ب تقدّموا إلى السيدة والدتك لطلب يدك، وأراهن أنهم جميعا قوبلوا بتقطيب الحاجبين، و هز الرأس بالرفض، كم أنك قاسية القلب!!، ولولا أن تلك القسوة أبعدهم عن البيت لما كنت الآن أطربها و أنغزل بها، رائعة أنت عندما تصبحين قاسية، إلهي، كم أحب قسوتك، على أنها لن تفيدك إذا ما أوقعتني فتاة حسناء أخرى في حبها، فتاة تقدّر عظم خسارتها إن ما أهملت كنزا ثمينا مثلي ورفضت، حينها ستكون قسوتك ملعونة.

دعنا لا نتطرّق إلى هذا الموضوع فترة غير محدودة إلى أن تجمعي أشلاء جاهزيتك تماما للهمة الخطيرة (الزواج)، و بالمناسبة أنا مهتم بمعرفة طبيعة الضائقة، طبعاً إن كنت لا تشكين أنني أهل للانسجام المطلق وظروف حياتك الغامضة.

تقرير اليومين السابقين هو كالآتي، تلقيت عرض العمل القديم من السيّد مالك، ولا أعتقد أن بوسعي أن أدير ظهري لعرضه، رغم أن شعوري بالإثم يتغلّب على رغبتني في الانضمام الى فريقة، لقد كدت أتسبّب في تشميع جريدته إلى الأبد، أخشى أن كرمه هذا سيودي به في النهاية إلى مرافقتي إلى السجن في المرة القادمة و في أعقابنا طاقمة الفاشل، تلقيت عرض عمل آخر أنا في صدد التفكير بخصوصه، فسجّل الجريدة إلى الآن خال من أي علامة سوداء، أما سجل

السيد مالك، فالعلامة الثانية القادمة ستوقف قلبه.

وعن خالتي فأفترض أن البريق الذي يشع في عينها لحلمها بملاعبة أطفالا قريبا وحملهم والاعتناء بهم وإطعامهم، سيزول تلقائيا بعد أن أنبأها أسفا أن العروس صاحبة العينين السوداوين الساحرتين والغمازتين المغربيتين ليست جاهزة بعد لتتجاوز عتبة باب منزلي، هل أخبرها أنك لن تكوني عروس البيت بعد شهر كما أملت، أو أدع الأمور تسير على ما هي عليه؟ ربما ليس من الحكمة أن انقل إليها عدوى خيبة الأمل وإثارة الأعصاب كما حصل معي. ملاحظة: إنك ماهرة من جميع النواحي ما عدا غموضك المهم كقاع البحر.

ملاحظة ثانية: لم أكن لأحبك إلى هذا الحد لولا أنك تجعليني أنتظر كدائما، في حديقة كئيبة أمام باب عقلك المتعالي، والله يعلم كم المدة التي حكمت بها علي لأتمكّن من نيلك كزوجة، أتذكرين يا أثيل عندما كنت أقول أن الاستسلام غير وارد في قاموسي، كذلك أقول الآن، سأناك يعني سأناك، ستكبرين معي وتشارك الأوقات السعيدة والحزينة وأراقب شعرك الأسود يستحيل رماديا، وأشهد على التجاعيد تنال من وجهك الجميل، عندئذ سأهمس في أذنك همسا يتطفل عليه الفضوليون، وسيرتفع فضولهم عندما تضحكين ويهتز قلبي ولعا بك، كأنني أسمع ضحكك للمرة الأولى".

"عزيزي خليل

لقد أسأت إليك، وفي الواقع أنا من يجب عليها الشعور بالذنب، إن ضميري يلسعني، نفّدت طلبك على مضض مني، وعمدت إلى احترام رغبتك فيما يتعلق بتركك و شأناك إلى أن تخمد نار غضبك، ما حدث بيننا لم يكن اصطداما، مجرد سوء تفاهم عرضي لن يتكرّر، ففي حين تحسب أنت أنني أرفض الزواج منك، أوكد لك أنني أحتاج بعض الوقت، ذات يوم سيكون بوسعي أن أكشف لك عن خبايا الحياة التي نعيشها أنا وأسرتي، وحتى تشعر بالراحة لم تضطرّ أمني يوما حتى في أصعب الأوقات إلى إرغامنا على فعل شيء لا نرغب فيه، تخونها النزعة الأمومية لتفعل، مما يعني أنها لن تقدم على تزويجي لأي رجل لا يستميله قلبي، هل تشعر ببعض السكينة الآن؟

المحبة دوما أثيل "

"عزيزي خليل

قفزت إلى مخيلتي بالأمس بعد الظهر، صورة لامرأة التقيتها صدفة على متن الحافلة التي

كانت تنقلنا إلى العاصمة لزيارة إحدى قريبات السيّدة سميحة بسبب مرضها، وأجهل السبب الذي يدفعني إلى تذكّرها، ومهما أبدل من طاقة لا تستطيع صورتها إلا أن ترتفع إلى رأسي، يومها قالت عبارة التصقت بذهني "إن الله يعرف ويريد أن يعرف ويريد أن يغفر، أما البشر فإنهم لا يعرفون ولا يريدون أن يعرفوا ولا يريدون أن يغفروا" كانت امرأة بدينة متجهمة القسّات كئيبة المنظر، تحمل حزنا عميقا في عينيها، أليس قاتلا عندما لا يفهمك المحيطون بك؟، لقد قرأت ذلك في عينيها المغتمتين، من الواضح أنه لم يتم فهمها، ولهذا أصبحت تحكي للغرباء قصتها، علّها تعثر على بعض التجاوب والفهم، مسكينة تلك المخلوقة، تدفعني أمنية غامضة ملحة للاجتماع بها قبل نهاية هذا الشهر، قبل نهاية هذا الشهر، لم يغير مقدار نتفة أنني أود طردها من عقلي، إنها صامدة، أنا غبية لأنني أروي هذه السخافات، خليل أليس من العسير أن يقف المرء في منتصف الطريق فلا يستطيع التراجع إلى الوراء بقدر ما يعجز عن التقدّم إلى الأمام، لا تتعب نفسك بوصفي بالمجنونة ، فأنا قد سبقتك وكتبت النعت على كف يدي، ألسنت عاطفية جدا؟ خليل أرغب أن أختتم هذه الرسالة بسؤال أرجو منك الإجابة عليه، أيصنع الحب المعجزات كما روت قصص التاريخ، والأساطير وكما يروي العاشقون الهائمون؟؟ أخشى أن يكون واضح هذه النظرية مجرد أحقق مستهتر لم يقع في الحب يوما، فالذين يكتبون القصص ليسوا أصحابها، أخشى أنه يصنع الوهم، أخشى أن سلطته تترمّل أحيانا في سواد الأقدار، أحبك و أخشى أن لا تكتمل قصتنا

أثيل السخيفة "

"مجنونتي عديمة العقل أثيل

يبدو أن السيّدة المبجلة اصطحبتك إلى مشاهدة مسرحية رومنسية مأساوية، بينما ظننت أنك تمزحين، أستطيع أن أتخيّل دموعك وهي تنزل جارية على وجنتيك الموردين، بالله عليك يا أثيل، إن أمثالك لا يصلحون لمشاهدة مناظر حزينة مبكية فسرعة تأثرك أسرع من سرعة الضوء، ماذا أتوقّع بعد ساعة من الألم والأحزان والدموع والفراق؟!!! من السيّدة سميحة وأفكارها الغربية، إن منظرا كئيبا يستفز الذكريات الحزينة الخامدة، ولهذا أعتبر قفز صورة المرأة الكئيبة إلى عقلك شيئا بديهيا طبيعيا، وما أنت تصرّين على مقابلة امرأة مجهولة قبل نهاية الشهر، وإن فانك أن تلاحظي، فقد كرّرت العبارة مرتين، مما يسوقني إلى الاقتناع بأن عزلك عن جارتك سيكون في صالحك، ستموتين إن افتقرت عنها، أعلم جوابك، و ليكن في علمك أنني لا أنوي تفريقك عنها في المستقبل، سأعتبر أنني أخاطب بنتا صغيرة و أجيها على

سؤالها، سأقَدِّم إلى الأمام، فأنا عالم بما يوجد خلفي، بيد أن الأمام مجهول غامض ولن يكون أسوأ على أية حال من الورا الذي لو كان مناسباً لما انطلقت منه. أما فيما يتعلق بالحب، فهو لا يصنع المعجزات فحسب، بل يفتت كل العقبات، لأن الحب سيّد علينا جميعاً وماذا يكون للعبد إلا إطاعة أوامر سيده، وإلا فالشقاء بانتظاره وكيف يستطيع الإنسان أن يشقى بينما لديه خيار آخر مريح ومبهج في الناحية الأخرى؟

خليلك رغم جنونك إلى ما لانهاية "

"عزيزي خليل

ليس أسوأ من لقاء عاطفي لحبيبين لم يتقابلا منذ ثمانية أشهر تحت زخات المطر، أتوسل الآن لأجل أن يتوقّف حبل المطر ونواح الرياح، يمتدّ الشتاء دونما إذن كل سنة، ليقضي على حق الربيع في الظهور، لا أخطّط لتأجيل الموعد حتى ولو قرّرت السماء أن تمطر حجارة، لن أشعر بها وأنا أنعم بنظرة من عينيك الهادئتين الوديعتين، أتراك تشاطرنى الرأي؟، أكاد أجزم أنك تجهّز نفسك متحمّساً لرؤيتي، سأنزل لتناول العشاء لأن أمي التي أحبها أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا تستدعيني من الأسفل، ثم أخلد للنوم باكراً، أشعر بإرهاق شامل في جسدي، أراك غداً يا أعز الناس على قلبي

أثيل "

"عزيزتي أثيل

إن الساعة تشير إلى التاسعة، وهي تمطر هنا أيضاً، لن تقرّئي رسالتي على أية الحال فأنت نائمة كما سبق و ذكرت، يتعين علي الخروج، وسأعود إلى البيت عند الساعة الحادية عشرة، لن أنام قبل أن أتفقد صندوق الرسائل فربما اشتقت إلي وقرّرت أن تعترفي بذلك، سأكون جاهزاً للترحيب بحنين الساعة العاشرة، يقولون إنه رومنسي للغاية، أحلام سعيدة يا طفلي.

خليل المتلهف بصورة لا توصف لرؤيتك "

الفصل العاشر

عندما اجتازت أثيل باب الحديقة بقدمين تشتعلان حماسا، و السرور ينبض وهاجا في وجهها مع خفقات سريعة مجنحة من الشوق، رأت خليل يروح ويعيء على قدمية متوترا على طول المنضدة داسا كلتا يديه في أعماق جيبي سرواله الأسود، حانيا رأسه بحيث لم تتبين الارتباك إلا من حركة ساقيه، فاستولت عليها دفعة قيمة من الانفعال المحموم، كأنها ستقبله للمرة الأولى "إنه متلهّف لرؤيتي أكثر من لهفتي عليه، إن قلبي يكاد ينفجر من السعادة"، بالكاد استطاعت تحمّل الشهور الثمانية لتجتمع به، كم أنها مرت بطيئة مريثة وكل دقيقة منها شبيهة بالموت حافلة بالكدر والخوف والفرع والألم.

كانت قد هندمت نفسها أمام المرأة استعدادا لهذا اللقاء المنتظر، ووقع اختيارها على ارتداء الفستان الأزرق ذي الياقة والكمين العريضين الذي يفضّله خليل، ورغم أنه غدا قديما جدا ليحظى باختيارها إلا أنها كوته بصورة جيدة مما جعله يبدو أحسن قليلا، وقامت بتغيير تسريحة شعرها، ولم تترك شيء لم تجربيه كيما تبدو جميلة. كل هذا كلّفها الوقوف ساعة كاملة أمام المرأة و بينما هي تتأمّل نفسها، تحسّست وجنتها المتضرجتين بفعل انخراطها في مشهد خيالي حالم، ماذا لو كان خليل خطيبها بصفة رسمية؟، كان حتما سيقبلها على وجنتها قبلتين رقيقتين، ويقرص ذقنها كفتاة صغيرة مدلّلة، ليته كان مسموحا لها بتقبله قبلتين على وجنتيه، ليت الصفة الرسمية كانت موجودة، كيف سيكون طعمها!! بالطبع كانت ستشعر بغبطة عظيمة يخالجهما خجل مهذب خال من التصنّع، ما أجمل هذا الشعور!! وتزامن المشهد الحالم مع توطيدها العزم على مصارحته بوضعها بعد أسابيع قلائل، بعد أن تفارقه ذكريات السجن المريرة و يتجاوز الظلم الفادح الذي وقع عليه، سوف تستجمع شجاعته لهذا الحدث هائل الأهمية، ومما لا يختلف فيه اثنان أنه سيسامحها لعظم حبه وشدة تعلّقه بها.

كان الجو صحوا، و السماء زرقاء صافية، و الشمس تتبختر في السماء كأنها عروس، وكانت قد شكرت الله لنعمة الطقس المشرق الدافئ الربيعي المشمس، وبدأت الأزهار تتبرعم والأوراق الخضراء تتموقع على نحو غير ملحوظ، و بينما هي تخطو خطوات خفيفة واثقة باتجاهه، رفع رأسه فرأها وخطا بدوره نحوها لمقابلتها في منتصف الطريق، ولأنه استحث الخطى بدا كأنه يركض لا يمشي، وعندئذ همّ فمها أن يفتّر عن ابتسامة الفرح الذي يضحّ في صدرها، ولكن تعبيراً غريبا متجهما مختنقا في وجهه النحيل المتعب منعها من التبسم، و عندما أصبح بجانبها

رنا إليها بنظرة مستفهمة مذعورة ، ودون أن يقول شيء شدّ قبضته على معصم يدها، مما جعلها تصدر تأوهات متألّمة مكتومة، وأسرع مما يمكنها، جذبها ومشى بها الخطوات المتبقية إلى المنضدة، وكان بمقدورها أن تحلّل النظرة الخاطفة التي رمقها بها، لم تكن نظرة رجل متلّيف يقتله الحنين لرؤية فتاته التي لم يرها قرابة السنة، ولا نظرة رجل هازئ ساخر بالورطة التي وقع فيها سابقا كتلك التي أبرزها في السجن، وأيضا لم يبد أنه ينوي إجلاسها بالسرعة الفائقة على المقعد بغية تأمل ملامح وجهها، لم تكن أيا من تلك، كانت مجرد نظرة استفهام ممزوجة بالرعب، لكن رعب من أي شيء؟ وبدا عليه أنه في عجلة من أمره ليسأل عن شيء خطير، وأن وقته ضيق، هل سيقبض عليه؟ أهو فازّ من مطاردة الشرطة؟ هل أقدم على إهانة مسؤول آخر؟، لا ليس هذا ولا ذاك، باعتبار أنه لم يلتحق بالعمل من جديد.

استوضحت بينما كان يجرّها من يدها متألّمة من قبضة يده "خليل ما الأمر؟".
_ "اجلسي" قال بصوت آمر، بعد أن أصبحت عند المنضدة و عيناه تلتهبان بغضب ساطع "بسرعة، اجلسي".

فأذعنت للأمر وجلست والأفكار تتشابك في رأسها كخيوط متشابكة
"هناك أمر ينبغي أن تنفيه بسرعة، وإلا فإنني سأفقد عقلي".
استطاعت أثيل أن تلاحظ الآن أن عينيه كانتا حمراوين، محشورتين ضمن دائرتين داكنتين، دلالة على أنه لم ينم طوال الليل، كانت نظرتيه مظلمة كأنها سحابة قاتمة ووجهه شاحب كوجوه المصدومين، وشفته مبيضّتين من الخوف وأنفاسه لاهثة مختنقة، لكن ما الذي أصابه؟ قال أنه سيفقد عقله.

_ "لقد وصلتني رسالة لعينة عند الساعة العاشرة عندما عدت إلى البيت ظننتها أنت، ولكن المرسل الحقيق كان شخصا آخر، تخرّصت الرسالة بأمر خسيصة عنك، أمورا أصابتي بالجنون المسعور عندما قرأتها، لو أنه تجرّأ وواجهني وقالها أمامي لكنت قتلته دون تفكير"
وعندئذ تخثر الدم في عروقها حتى أحست بانفجار قادم، وفتحت عينها فتحة واسعة، وأحسّت أنها في جوف كتلة من الجليد القارس البارد، وخافت حتى الموت، كأن وعكة صحية عنيفة ألمّت بها: لقد عرف الحقيقة على ما يبدو، أجل هناك من تطوّع لإخباره، لقد عرف وهي التي أجلّت إفشاء السر الشائن إلى أن يستقرّ وضعه خارج السجن، وتلتئم جراحه الناجمة عن مكوثه ظلما بين جدران سنة كاملة، عرف عن طريق شخص آخر سواها، ولقد أتت تلك اللحظة القبيحة التي كانت تخاف منها وتزامنت مع أول لقاء لهما بعد خروجه من السجن، ليس قدومها بالمستحسن أبدا. لم تعرف من قبل أن معرفته ستخلف هذا الجحيم في فؤادها.

ما بهذه الطريقة تخيلت معرفته لسرها الأثم، كانت في عقلها قد رسمت طريقا آمنا سالكا تمهيدا في البداية يصف تضاريس الفقر و تجاعيد المعاناة وإفلاس حيلة الفقراء . كانت ستنتقل به إلى عالمها البسيط وتجعله ينخرط في يؤسها اليائس العليل، ثم بكيفية ذكية صادقة بليلة ، تستدر تعاطفه المشروع، وبينما هي تشاهد لمعة الألم على متاعها القديمة وأحزانها المطمورة ، هناك بالذات ستحدثه عن فاتورة الفقر الغالية و عن قمعه المستبد ، و عن الأجساد التي عرضت للبيع و عن الثياب المنزعة و العفاف المهذور و الحرب الخاسرة ضد الرذيلة وكيف أن العفة والحاجة تصارعتا على أرض وعة في حرب غير متكافئة الأسلحة وانتهت العفة أسيرة ذليلة في سجن العار .

_ "ماذا ذكر" سألت متلعثمة وقلها يرتعش كأثاث في زلزال بدرجات عالية أما وجهها، فكان متصّلبا كقطعة خشب من الزان .

_ "أمورا بغیضة، الذي حيرني أنه يعرف عنك كل شيء من الكنية إلى أسماء شقيقتيك وأمك ويحيط علما بحالتك الاجتماعية و مغامراتك والسيدة سمیحة،،،،و السيد الذي تعملين في مكتبته،،،،" وحرك رأسه برما من استعراض التفاصيل بينما عيناه مثقلتان بذعره القانط . كان في عينيه بريق عنيف ، مشتعل ، مخيف، و لأول مرة خافت منه حد الموت، أكثر من خوفها من أي إنسان حتى والدتها، و أصبح مصدر رعب هائل و تأملت ملامحه الشرسة، و أملت أن لا يختار الله هذه اللحظة بالذات ليعاقبها على هتك حدوده إن كان لم يغفر لها، و إن كان قد قرّر أن يجازيها، لبت الله يعاقبها بيوم آخر، ليس الآن، ليس بالرجل الذي تموت حبا فيه، ليس أسوأ من هذه اللحظة إلا حادث جسدها الموشك على الغرق وسط تلاطم أمواج البحر عندما كانت طفلة .

"حقير" أردف ناقما "حقير، أو ربما كانت حقيرة، لم أكن لأحفل بكلامه لولا أنه أنبأني بأمور عميقة عنك، ولهذا تسرّب الشكّ المعتوه إلى عقلي،،،، يقول أنك اقدمت على،،،، بيع" و صمت مطبقا على أسنانه، وقد احتقن وجهه من الغضب الملتهب في صدره، كان مذعورا من احتمال صدق فحوى الرسالة السامة، و فجأة نال اصفرار ووهن من وجه أثيل كأن أوردتها فصدت مرة واحدة، وأحسّت بنوبة من الدوار و ليس لديها ما تتحدّى به هذه الحقيقة المرة البائسة كحالتها الحالية بشكل متطابق .

_ "هل أنت بخير، لقد اصفرّ لون وجهك" و وثب على قدمية و عندما أصبح بجانبها انحنى فوقها، بينما تسمّرت عينها لاشعوريا في نقطة ضبابية خلف القضبان الحديدية كأن الحديدية باتت سجنا ، تنظر دون تمييز لماهية الأشياء أمامها و قد جمد كل شيء فيها لكأنها تمثال

منحوت، لكأنها في غيبوبة عاجزة، إنها لحظة وحشية في حياتها. وتراقصت الأشياء أمام عينيها، أكانت امرأة التي تنظر إليها أو رجلاً، أو أنه موقف الحافلة!! ماذا يكون ذلك؟ وفيما يهيمها الفرق بين الثلاثة؟ ألا تزال حية أو أنها ماتت الآن و هي تقابل مناظر العالم الآخر!! احتما لم تمت، كانت يداها الآن باردتين كالثلج. وعندما كان ينادي باسمها بصوت قلق متسائل عن الذي حلّ بها، تسرّب الإدراك إلى عقله بطيئاً متختلاً كالسم بطيء المفعول، وبحركة واحدة استقام في وقفته كأنه تلقى طعنة في الظهر وعاد إلى مكانه منفعلاً مرتعداً، ليقابل عينيها في نظرة مبتهلة متضرّعة، متوسّلاً إياها نفي المحتوى، وسرعان ما حملقت إليه بنظرة بانسة معتذرة شرحت كل شيء فنطق بصوت ضعيف متوسّل لرجل مصيره معلق بكلماتها

_ "ليس صحيحاً" لو لم يكن رجلاً لبيكى "أليس كذلك؟، إنه يتخرّص الأكاذيب عليك ".
و أحست بحرق في قلبها، ليتها ماتت قبل أن رأتها على هذه الحالة، ليتها لم تأت إليه أبداً، ليتها تركته ينتظر إلى الأبد معتقداً أنّها كائن وهي غير موجود، ليتها لم تعرفه، ليتها لم تشفق عليه ذات يوم، فقد توضّح لها أن منظره مقعداً وحيداً بين جدران الغرفة المعتمة لن يكون أكثر بؤساً من منظره الآن، وهو يرنو إليها بعينين ناطقتين بالشقاء والألم والرجاء والخيبة والخذلان الضليل، عينان تتخاطران ضد الافتراء والكذب والاتهام، وحطّم قلبها مشهده اليائس، فنكست رأسها ساكية الدموع ضاغطة بيدها على فمها كيما تكبح صوت نشيجها
"ماذا يعني هذا؟" سألت بانسا ، مسترشداً بعلامات الفهم المتقدمة نحو عقله .
واعترفت بصوت خفيض غير واضح، كأنها تهمس لنفسها وشوارد الذعر تتدافع كجيش زاحف، لم تتخيّل يوماً أن مصارحته بالحقيقة صعبة كمصارحة مريض بمصير الموت المحتّم
_ "كنت مضطّرة، مضطّرة "

_ "ماذا قلت؟، أعيدي الذي قلته، ماذا قلت؟"، كرر العبارة بنبرة ثابتة تلامس البرود تقريباً، ثم أمسك عن الكلام.

فلم تقل شيء، فهو لم يسألها ليتأكد من جوابها ،لقد فهم قبل أن تبلغه إجابتها، و ارتفع صوت بكائها يبتلع السكون اللاسع من حولهما، ولم يخطر في ذهنها أن تبحث هوية الشخص أو تسأل نفسها عن هذا اللئيم، الحقيير الذي يعرف عنها كل صغيرة وكبيرة و شغل نفسه بصورة كريمة حقودة بتدمير صورتها ، ورفع الستار عن أثامها، هذا الشخص القبيء الوضع متحجّر القلب ذو النية الغادرة، الآن ينبغي لها أن تبذل كل طاقتها و تكرّس الوسائل والأساليب لتخفّف من هول الصدمة عن حبيبها، وبكل ما أوتيت من قوة ستدافع عن نفسها، وتشرح له

مستميتة مبرراتها الفعلية، لن تخسره مهما حصل، أجل أجل، ستمرّ الصدمة البتارة و عندئذ سيتاح لها المجال الخصب لتوضّح و تبرّر و تشرح و تزاوّل مهمتها كخطيبة مقنعة، لكنها الآن عاجزة عن شيء آخر إلا البكاء العاجز، و عندما لم يعد يصدر عنه أي سؤال أو صوت، رفعت بصرها الذليل الخجل ببطء متردّد و زحف متهاديا متراخيا حذرا، فوقع على وجهه تلاشى منه أثر الدم الأحمر فأصبح شاحبا كوجوه الموتى، و فمّ فاغرٍ دائرية من الصدمة، و عينين معذبتين مسلوختين من الألم توزعان النظرات عشوائيا خلف جسدها المرتعش دون أن تحطأ مرة واحدة على وجهها الباكي ، مفكرا في كل شيء و أي شيء و لا شيء.

عاهرة ماجنة رخيصة: هذه الألفاظ التي تخلّلت السطور الاثني عشر، باعت شرف عائلتها و شانتهم بالعار، ليس مرة أو اثنتين و لم تضاجع رجلا أو اثنين فحسب. لا، رجال بعدد شعر رأسها تنتقل من أحضان واحد لثرتي في أحضان آخر، و بينما هي تخطو خارج شقة الفسق و المجون و الرجل يطري مفاتها، شفتاه تودعان شفتمها بقبلة مفعمة باللذّة و الحنين الرومنسي، تفكر مغرورة بجمالها في شقة أوسع، و أفخم أثاثا، و رجلا أرفع مقاما، متعذرة بمرض أمها، الفتاة التي أوهمته أنها أكثر فتيات الدنيا عقّة و طهارة، أبدعت بنفاقها العذري لعب الدور، التي كانت و جنتها تتخضبان بلون الدم الأحمر كلما قبضت عليه يمعن النظر فيها، كلما أطراها بكلام لطيف عذب. عاهرة مجرد عاهرة مغناج تصطنع مظاهر الشرف و الطهارة.

وكان قد بحث في عقله عن مسوغات مقنعة لرفضها الزواج منه، فلم يتعدّ فهمه لبواعثها إلا دينا ثقيلًا يقتضي إيفاءه، أو المسؤولية المقدسة نحو العائلة المكونة من نساء و حيدات عاجزات، متلاحمة مع خوف من الزواج و الارتباط، أو الفارق الاجتماعي الغبي الذي تعلق عليه الفتيات أهمية كبيرة، ما أشدّ ما كان أحمقا و هو يسوّغ رفضها بالحجج القائمة على نبل قلبها و حسن تقديرها للناس من حولها، ما أشدّ ما كان غبيا و هو يثبت الأشرعة في نصايها الدقيق كيلا تتحطّم السفينة إلى أن تبلغها، ما أسوأ ما نكلت به و هو الذي أمضى الليالي اليقظة يخطّط لحياتها القادمة مع لاسم أول طفلة يرزقها، كان يحلم أن تتحلّى بجمال أمها الفتان و تملك وجهها أبيض كالرخام كوجهها، و عينين سوداوين كعينها، ما أفضع الأسلوب القدر المستهتر الذي تبنته سعيا منها لتسخر منه. ولم يعرف السبب، ولكن خطر على باله بيدق على رقعة شطرنج و لعبة الدحاحل، و زهر الترد أثناء قذفه في الهواء ، و تذكر الطائرة الورقية، و فئران التجارب. أمور كثيرة لم يعرف لماذا تذكرها الآن .

كأنه كان مقتولا مترنحا و في الدورة الأخيرة قبل السقوط الحاسم، يكتشف اكتشافا صادما. القاتل هو حبيبه، صانع البهجة في قلبه، الشخص الذي وعده بالإخلاص الأبدي و الحب الوفي،

حَفَز فيه حب الحياة وابتسم له ابتسامات التقدير والمحبة والعشق المجنون، علّمه أن كل حب وفقد سيعوض، اكتشف مر قاتل كاكثشاف يوليوس قيصر لخيانة بروتوس، واكتشاف شمشون لخيانة دليّة.

تلك النظرة المخمورة في عينيه حطّمت قلبها، وجعلته كالخرقة الممزّقة وحوّلته إلى مدينة خاوية مهجورة قاتمة الأسوار مخربة البنيان، تلك النظرة تذيبها، تشعل جوفها، تكسر جوارحها. وتمنّت مكلومة لو يسعها ضغط رأسه على صدرها وأن تمسح بيدها الأنسية على شعره مخبرة إياه أنها تشعر بالألم الذي يحرق قلبه، وأنه على مستوى متكافئ مع ألمها، إن لم ينلها أبلغ وأفثك منه، بماذا يشعر الآن؟ هل يكرهها، هل يتقرّز منها، هل سيفهمها؟ وفتحت فمها لتتكلم وبنبرة ضعيفة كنبرة المشرف على الموت قالت:

"خليل".

وطرق صوتها البهيّ الفاتر أذنيه فعاد بصره الشارد إلى وجهها الشاحب، فدقق النظر فيها متسائلا، إلهي كيف يمكن لهذا الوجه البريء أن يخفي ساقطة، إلهي كيف لهذه الملامح الرقيقة أن تخون وتخدع وتتلاعب، إلهي كيف لذاك الفم الجميل أن يكذب؟، وانساق لهنيهة طويلة إلى الغوص في تاريخ معرفته بها، إلى رسائلها و لقاءاتهما ونظراتها وأساليها ومزاعمها الشريفة فطاش عقله و ثارت غرائزه و رأى في وجهها رجلا أحمقا و فتاة لعوبا و حطام أحلامه ونهاية كل شيء. كيف استطاعت؟ كيف تجرّأت؟.

وما عتم أن ضغط على عينيه بقوة كأنما يود طرد الصورة المسخ من عقله، كمن استيقظ من أعماق حلم رهيب مفزع بمجرد أن هزّته يد رحيمة حنونة، وكانت تعابير وجهه صفحة بيضاء، فاستعصى عليها التنبؤ بما يدور في عقله، ولأنها اعتبرت الخيبة و الخذلان شعورين طبيعيين، فإنهما لا يخطّان أي سطور من شأنها أن تسوّد البياض الناصع.

"لا تبكي" أمرها بصوت تكتسيه برودة فولاذية وعيناه نصف مغمضتين، "لا تتكلمي"

"دعني أشرح لك كل شيء...،" قاطعها في منتصف الجملة ضاربا بعنف على المنضدة بقبضة يده المشدودة، كانت أوداجه منتفخة مرعبة. وعاد الدم يتجمّع هائجا في صدغيه وصوته ترتفع حدّته في نبّرة شرسة عدوانية قصفت أذنيها فارتعشت رعشة شاملة، بينما عيناه غنمتا بنظرة دموية وحشية "ألا تفهمين؟! قلت لا تتكلمي، اصمتي و إن لم تخرسي صوت البكاء ذاك فأقسم أني سأخرسه بطريقة تتذكّرينها ما تبقى من عمرك" و ثانية ضربت يده الخشنة العصبية على المنضدة، اليد التي أنجى أنيل من بطشها وترك كدمات و جروح عميقة على جلدها أنها فتاة. فخنقت بكاءها بسرعة محاولة السيطرة على رعشان جسدها تحاشيا لزعيقه الثائر" ولا

كلمة واحدة دون أن أطلب إليك الكلام، ستشرحين لاحقا عندما يحين الوقت، لا أستطيع تحمّل سماع صوتك اللعين، لم تشتغلي في مطعم أو محل، لقد كذبت علي بينما كنت تنظرين في عيني، ورغم علمك أن الكذب أكثر صفة أمقتها وأستهجنها، إلا أن معرفتك لم تشكّل أي فرق، كانت خالتي على حق عندما سألتني ماذا تعرف عن الفتاة؟ كم كنت أحمقا عندما أجبته متباهيا أنني أحيط علما بكل صغيرة وكبيرة بحياتها، لا تهزّي رأسك استنكار "و كزّ على أسنانه مهلا، هل تعتبرين قضيتك الوضيعة خطأ بسيطا يجوز إخفاؤه، لا تحاولي أن تتكلمي، أحذرك لست في مزاج مريح لأسمعك، اخربي " الخيبة تخرج أسوأ ما في الإنسان وتجعله مجنوناً غير مكترث لما يقول أو يفعل،

لم يكن هذا خليلها الرجل المسالم الهادئ، الذي يثيره ألمها فيتراجع عن كلمة قالها أو حركة مكدرّة تجرأ عليها دون وعي منه، الذي يحرص على عدم جرح شعورها المرهف أو تكدير صفو مزاجها، الذي يبني لمسامعها أطرب الكلمات وأقواها عدوية متطلّعا إليها كجوهرة متألّقة وماسة غالية، لقد كان مثالا مقاربا للرجل المطعون في شرفه الذي قبض على زوجته مضطجعة في سرير بيته مع رجل آخر، وبينما هي تشرح موقفها لم تجد ما تبرّر به فعلتها إلا خسرتها وقلة شرفها. الرجل الذي يريد أن ينتقم لغرور الذكر الغريزي فيه، وكبرائه المشروخ. وبعد دقيقتين بعد أن تخلّى عن هيئته المصدومة الحانقة، واستولى عليه هدوء زائف وحقد مستور، دسّ يده في جيب معطفه وأخرج علبة سجائر وقداحة، ومن العلبة سحب سيجارة بينما كان يراقبها من تحت أهدابه ووضعها في فمه ثم أشعلها، الأمر الذي جعل فمها يفتّر من الدهشة، فهي لم تعلم مسبقا أنه يدخن، وبينما هو ينفث ذبلا أفقيا من الدخان نحوها بحيث جعلها تسعل علّق بنبرة يشوبها التهمك .

"هيا يا أثيل، ليس أخطر من شرك الساقط "فصّعت وأطبق ألم مميت على قلبها إلا أنها تجاهلت، ساقط!! ساقط!! ماذا يريد أن يثبت الآن ماذا ينوي؟ سمينها إذا، إنها منهجية باردة جافّة يختارها الرجال بغية الثأر لكبريائهم الذبيح، تعمل لصالح تخفيف وطأة الألم عن كاهلهم، الإهانة والإذلال والإساءة والتجريح. فليكن له ذلك، إن ما كان يريحه ويترد الغضب من عقله، كان عليها أن تتحمّل ذات يوم، وكون اليوم استعجل القدوم، لا يعني أن ردة الفعل ستتغيّر، على أنها تثق بنظرية واحدة، الحب يصنع المعجزات،، الحب يفتت العقبات، الحب سيّد ونحن عبيده، وما هي إلا إهانة أو إهانتان ويشفق عليها ثم يقسم متألّما نادما أنه لم يعن حرفا مما قال، وأنه يحبها إلى الحد الذي فقد عنده السيطرة على أفكاره وكلماته وأعصابه، ستتخلّى بالصبر إلى أن يطلب إليها التبرير، وعندما تبرّر سينقشع كل الضباب، ثم صائحا بأعلى صوته

سيعترف أنه فضل أن يتخلى عن حياته ولكن ليس عنها.

ورغم أنها بدت خاضعة مهورة، إلا أن تلك الحركة قرعت قلبها كالسهم وأعدت إلى عقلها ذكريات مريرة، لقد كان يدرك أنها شهدت هذا الموقف من قبل فعمد إلى تذكيرها إن كانت قد نسيت، حركة تفتعل لإهانة الساقطات.

وفجأة صفر تصفيرا طويلا كأنه لا يعبا أو يهتم وكان افتضاح حقيقتها لم تزد عن حد أنها أيقظته من غفلته، على أنها لم تتسبب في إيلامه، كان يبدو كرجل بارد الأعصاب عديم التأثير، حيث أن المعرفة ليست إلا إضافة عادية متوقعة، وأن الفتاة التي كان مستميتا للزواج منها لا تشكّل أي فرق ولن تشكّل حقيقتها الماجنة أي فرق مثلها، صفير يسرد قصة الحب الخائبة الخائنة بلحن ساخر مستهتر، إن صوت صفيره ينفذ إلى أذنيها كصوت المدفع، وناجته عينها كما تناجي المهمة المظلومة قاضيا، وودت أن تضغط يديها على أذنيها ورجته بلهجة دمثة مؤدبة:

_ "أرجوك يا خليل " أملت لأول مرة أن ينصرف ويتركها لوحدها، أملت أن يكون أي شخص إلا خليل، لا يبدو مطلقا أنه سيتزحج من مكانه حتى لوركعت عند قدمية.

_ "هل أزعجك صوت صفيري؟" سأل هازئا ووجهه تعلوه مسحة من الاستخفاف بها "إنني آسف، لأنني جرحت شعورك، متى كنت تنوين إطلاعي على النبا السعيد، بعد الزواج؟ خطة محكمة، هكذا تضعيني أمام الأمر الواقع، ولن أستطيع تقبل الحقيقة المشوهة كما هي، وإن ما أنا منحتك الطلاق فذاك يوم حظك، ستمحين من سجلك المغامرات الآثمة على شراشف سرير غرفتي، وتخرجين من منزلي الفتاة المطلقة الشريفة، ثم تنطلقين في رحلة زواج آمن ساترا للمخازي القديمة، لن يفسر أحد أني طلقتك نتيجة اكتشافي بدعتك الشائنة "فاتسعت مقلتاها غير مصدقة، وبدأت أسوار نظرية الحب الصانع للمعجزات في الانهيار، غير أنها لم تلتفت لتشاهد المشهد المهول، بل فسرت أنه مجرد ضجيج حزنه المكبوت، بمقدورها أن تقاوم لأجله، لقد تحملت من المعاناة مالا يصدق عقل، ومرت على رأسها مأس لا يستوعبها إنسان، ونالت من الإذلال والإهانات خلف الأبواب الموصدة حيث تبدو إهاناته نوعا من الإطراء الحاقد فقط، وظلت تحدق إليه بعينين مستسلمتين هامدتين دون أن تنبس ببنت شفة، وبعد أن نفث دخان السيجارة بشكل لولبي استأنف

_ "كنت خيارا ملائما، حيث أن استدراجي إلى الفخ المنصوب سهل كاستدراج فأر بواسطة قطعة جبن عفنة، كنت مقعدا بانسا عاجزا. إن الأشقياء يستسلمون لأول بادرة عاطفية تواسيهم، وأنت كنت مذهلة عندما صمدت سنة بطولها ترسلين رسائل تتضمن أرقى أنواع

العاطفة البشرية وأفضل أصناف المواساة، وعندما كنت أنتظر هنا خطرت لك فكرة عظيمة، دعيه ينتظر كالأبله شهرين أو ثلاث وهكذا سيقدّر أنني لست فتاة متاحة سهلة المنال، بل فتاة صعبة، وكان أداؤك مذهلاً مدعاة للتصفيق الحارّ، أفتعتني أنك أكثر فتيات الدنيا عفة وطهارة، ولكونك استعملت وجهك الفتان، سهّلت المهمة على نفسك، أما عندما دخلت إلى السجن أفسدت خططك، ملعون ذلك السجن!! قال على لسانها "واضطرت للانتظار سنة كاملة وعندما خرجت، قلت لا،، ينبغي أن أجعله مجنوناً بي، وليس إلا الرفض المتواصل يخضع كبرياء الرجل بحيث تسيطرين علي كلياً" ثم استحال الاستخفاف تهديداً "أحمدى الله أنني لم أتزوجك بعد يا عزيزتي، لأنني في اللحظة التي أميط فيها اللثام عن عارك كنت سأقتلك مباشرة" لم يكن واثقاً من روايته الجديدة، ولكنها تعزل الألم المضطرب في زاوية محدّدة بحيث يسهل القضاء عليه، أما عبارته الأخيرة عن القتل، فهي إنهاء للأحلام الشريرة التي كانت ترسمها في خيالها، وانتقام آخر يتردد أملها خائباً بواسطة رسم الصورة الكاملة لمستقبلها المظلم .

_ "كنت سأخبرك" أسرع عاجزة تدافع عن موقفها تكبح دموعها لئلا تثير عصبيته، فأمرها أن تصمت بحركة مهينة من يده فالتزمت الصمت كارهاة .

_ "حان أوان الاستجواب" وازداد العنف في صوته، يحمل في عينيه شراً وكراهية وشيئاً يشبه الرغبة في قتلها وتمزيقها إرباً إرباً، شيئاً مثل الغضب القائم "لا تحاولي أن تكذبي لأنني سأدرك أنك تكذبين وحينها،،،، دعيني لا أحدثك عن جانبي السيء، ربما توذّين اكتشافه بنفسك" وقذف عقب السجّارة على الأرض على نسق مبتذل ثم صوّب نحوها نظرة عصبية

_ "لا أعرف إن ما كانت الحقيقة أو كنت تكذبين كما كذبت في نواح أخرى، كانت أمك في روايتك المزيفة امرأة مستقيمة وعظيمة، ولم تكن تسمح بانفلات بناتها. حسناً، قلت إنّها تنزعج من سلوك السيّدة سميحة، كيف سمحت لك بذلك العبث؟".

_ "لا تعرف" ومجدداً غصّت طرفها، وتنازلت رجفة يديها لصالح شفيتها .

_ "ممتاز" قال بجرارة "ألم تكن مهتمة بمعرفة أين تقضي ابنتها الليلي التي تغيب فيها عن المنزل، أو أن الكذب كان ينجز المهمة مثلما فعل معي؟؟"

رغم أن كلماته طعننها إلا أنها تجاهلت الإهانة، كانت تعرف أنه يتألم، ولكن لا يزال هناك إمكانية لمراجعة نفسه، سيندم لاحقاً عندما تبرّر له، سيحلّ الحب كل العقد.

_ "لم أقابل أي رجل بالليل" أجابت بصوت متقطّع بينما تحاشت النظر إليه، لم تشعر بالعار في حياتها مثلما شعرت به الآن، ولم يكن موضوعاً قابلاً للبحث معه على أية حال، لكنها

مضطرة إلى الإجابة .

ـ "متى قابلتهم إذا؟"

ـ "باليوم العادي، أقصد النهار" وشعرت بإذلال مميت

ـ "اوه النهار" سخر منها بضحكة انفجارية، بينما تصدّع وجهها و بينما قال بغير يقين " إن ممارسة الجنس بالنهار مفيدة، توصلك إلى ذروة المتعة ، و يقال أنها تقلّل من إمكانية حدوث الحمل، أقصد أنها لا تنتج اللقطاء، معلومة علمية غير مثبتة، ربما أتأكد منك إذا كانت المعلومة صحيحة أو خاطئة، أنت لم تحملي من قبل نتيجة ممارسة الجنس بينما ضوء النهار يغمر الغرفة ."

تحولّ وجهها من متصدّع حزين إلى منقبض مشدود، أي هراء هذا !؟، أية ألفاظ شنيعة هذه التي تجلس لتسمعها، ممارسة جنس!! لذة!! حمل !!والله لن تبقى ثانية أخرى وتسمع ألفاظا مقذعة كهذه و استعدت للمغادرة، فالتقطت حقيبتها و تحرّكت في مجال المقعد لتخرج منه غير أن قبضة شديدة أجلستها مكانها، فقد كان أسرع منها بالتقاط الحقيبة ونقلها إلى جانبه .

ـ " إن ما تحرّكت من مكانك مرة ثانية،،، "هدّد محدّرا "سأقول ما أريد، وستسمعين ما أرغب في إسماعك إياه، ستبقين هنا إلى أن أفرغ من حديثي ."

عندها شهقت و خافت خوفا مميتا، ليس بمقدورها أن تسمعه يذلّها وتحفظ بأعصابها هادئة، ثم إنها لا تسمح لنفسها بالبكاء، بينما هي لا تحتاج شيئا أكثر من سفح الدموع، كانت عيناه حقودتين ، تلتهبان بنظرة حمراء بلون الغسق و منظره كمنظر حيوان مفترس و لكن جريح يهاجم عشوائيا ليدافع عن نفسه و ينفس عن عجز كامن:

ـ " أما الأب فمن نعيم حظه أنه مات، قبل أن تلتخّ ابنته العفيفة شرفه، و تجعله مضغّة في الأسرة، إذ كيف كان رجل محترم ليشعر عندما يبلغ مسامعه صنيع ابنته المصونة، سينهار، أما إن كتب له عمر جديد سيقتلك حتما، لا تحاولي أن تشرحي، كوني على يقين أنني أعرف ما تودّين قوله، فقط أبقى فمك مغلقا، السؤال التالي "و زالت أمارات الغضب من وجهه و حلّت محلّها سخريته الأولى

ـ "السيدة العزيزة سميحة، هل تعرف؟"

ـ "لا " أجابت دون تردّد "لا تعرف".

ـ "لماذا لم تخبريها؟" سأل وابتسم مستخفا بها

ابتلعت أثيل ريقها بمشقة، وتمدّدت ثم أغلقت عينها و سرعان ما أعادت فتحهما كدائرتين

يطوف بهما شيخ الخوف، لم يكن يسأل ليحصل على جواب بعينه، كان فقط يسأل ليهيئها ويدهس على كرامتها، من المستحيل أن تخبرها لأنها خافت خسارتها، خشيت عدم تفهّمها

_"هلا تدعني أشرح لك، أتوسل إليك" إنه يسدّ الطريق أمامها لتشرح موقفها

"ألم تكن تحبك أكثر من أي شخص في الدنيا؟ مثل ابنتها من دمها ولحمها؟ ليست أمك كي تموت من عارك، بل جارتك فقط، بماذا كنت تفكرين عندما أعرضت عن إفشاء شرك أمامها؟ سأجيبك" وانبعث منه صوت هازيء "إنك واثقة من أمر واحد، لن تتقبل حقيقتك القذرة مهما حاولت أن تشرحي، تلك الحقيقة التي لا يقبلها أحد، و اللحظة التي تعلم فيها ستترامن مع طردك من حياتها وسوف تتخذ إجراءً تلقائياً لا تناقشه في عقلها مرتين، ببساطة ستبعدك عنها و عن بناتها، لست تثقين بقدرتك على إقناعها بأن فعلتك يوجد لها مبررات، أحتار فقط لماذا وثقت في حيي أنا، وثقت أنه سيدفعني إلى فهمك و تقبّل بحالتك بينما لم تثقي في حب السيدة سميحة، بالله عليك كيف خطر لك إمكانية زواجي منك بهذه الخطيئة التي تحمليها، كيف ظننت أنني سأغسل عارك. لو أنك قرّرت من البداية أن تسأليني لاختصرنا الطريق، أخبريني "سأل عازما" من الذي أوعز لك أن الحبّ بوسعه تجاوز هذه العقبة؟، هل أكون أنا من بين هؤلاء السفلة الذين دسّوا في رأسك هذا الوهم؟ ما أحمقني!! "و ضحك على نفسه، لأنه جعل منها أضحوكة لفتاة لعوب "أنا زرعت ذلك في رأسك، لأنني ظننت القضية أبسط من هذا بكثير، كأن تتعلّق بديون متراكمة، أو مسؤولية عائلية تقف حائلاً بينك و بين الزواج، وكذلك مال اعتقادي أنك تخافين من ترك بيت والدك الذي نشأت و ترعرعت و كبرت فيه، ذلك ما حثني على تلقينك نظرية الحب الذي يصنع المعجزات، على أن عارك ليس عقبة فحسب، لا بل حاجزا مرتفعاً لا يقفز عليه أعتى أنواع الحب، وأرقاها على الإطلاق".

وجلب إليها عناده مثل الجصّ اليابس ، نوعاً من اليأس و التعب النفسي، و إذا فتلك نظرية فاشلة تساقطت أغصانها عند أول عاصفة رياح، ولكن، لا، لن تستسلم بهذه السهولة، لن تعدم الفرص، و يُنتظر منها الآن أن تتصيّد فرصة مواتية لتغزو مبرراتها كل خلية من عقله، دوافعها التي ساقطها إلى برائن الزنى و الخطيئة الرهيبة، و أن الحافز كان الخوف من المصير المؤلم لثلاث فتيات وحيدات دون والده ترعاهنّ و تشرف على حياتهنّ بعد أن قضى الأب في حادث باغ، لم يكن بمقدورها تحاشي ذلك المصير إلا عن طريق المسلك المنحرف، لن تستسلم، ستكافح من أجل كسب تفهّمه .

_"ربما تفهمني إن ما أنا وضّحت لك " قالت و صوتها يحمل توسّلاً و رجاء.

فأجابها ساخطا و لاح له إصرارها على الشرح وقاحة أخرى ، كأنها تعتمد إلى الاستهتار به

أكثر مما فعلت و تعتبره مجرد مغفل، ضعيف الشخصية ، مجرد عجيب في يدها تشكله كيف تشاء ، فاشتد حقه عليها . لا بد أن يصفع هذه الوقاحة .

_ "لنفرض أنني فهمتك، ما الذي ينتظر أن يتغير، لقد حطمت كل شيء وحطمتني أنا بالدرجة الأولى، لن تفهمني مطلقاً الألم المमित الذي يهشني في هذه الثانية "وأعقب جملته بابتسامة تهكمية، وجد فيها متنفساً لأحقادها "تشرحين لأجل إقناعي بالزواج منك؟، هذا الذي يشغل تفكيرك إذا، لطالما ملت إلى تصديق أن العاهرات عديمات الرحمة والحياء، لا يملكن ذرة إشفاق على الآخرين، المهم عندهن أن تمتلئ جيوبهن بالمال، أو تتحقق مصالهن" بمجرد أن خرجت كلمة العاهرة من فمه انخلع قلبها، وتلون وجهها بلون المرارة، واجهها إنسان ما بهذه الكلمة بكل ما أوتي من حقد، لكن لا الوقت ولا الزمان ملائمان لتذكر من كان، وكان تحليله لسبب تغير وجهها بدهيا كقراءة صفحة من جريدة

_ "اعذري وقاحتي، لم أجد لك صفة أخرى تفي عملك السابق، طالما بعث وقبضت فأنت عاهرة".

قبضت أثيل على فستانها بقبضة جامدة كأن يديها صخرتان فانقتا التصلب، إنها ليست حقيقته، هو يعمد إلى وضع قناع عدم الاكتراث تجنبا لهتك ستر ضعفه وحبه الكبير لها، ومع ذلك اعترفت جزئيا أنها عاجزة عن مجابهة القسوة العنيفة المنبعثة من قلبه المفجوع وسياسة الانتقام الحاقدة، مثل من تجابه إعصارا قويا بيديها الواهنتين، أو تطرق على باب منزل مهجور لن يفتح لها مهما وقفت صامدة، أو بابا موصدا مرفوض الطارق عليه مرفوضا كلك خطير أو مرتكب لذنوب شنيع، كان يحاورها بلغة خشنة باردة مهينة، لغة متوحشة كلفة كائنات الأدغال التي لا تجيد التحاور، تنقض على الفريسة بعد نظرة تفحصية سريعة، كان يعلق غير آبه، يستلذ تجريحها وإهانتها، إنه فقط يتألم وهذه السياسة ناتجة عن ألم فائق قاهر، ستزله كما أزالته ألما أشد فتكا، إنه صامت هذه اللحظة، ينتظر أن تشرح له، مما لا شك فيه أنه يخلق لها فرصة لتدافع عن نفسها، لن تعدم الحيلة فاندفعت مصممة إلى الحلبة الفارغة لتصارع العناد والغضب والهزيمة وكبرياءه الطريح المهان .

_ "خليل، أقسم لك أنني لم أكذب عليك، وكنت أنوي إخبارك في الوقت المناسب، ليس بعد الزواج بل قبله، لو تعرف يا خليل كيف كانت تلك الأيام، لو تعرف حجم العذاب الذي نلته".

_ "لا أعرف، ولا أريد أن أعرف" قاطعها بجفاء هازا كتفيه بغير اكتراث.

_ "لا بأس، يا أثيل" نصحت نفسها، وراحت تشجعها "واصلي"، إنه الآن لا يقاطعها بسخرية على الأقل، وفضلا عن هذا إن الغضب المغلف بالبرود قد شرع في التبدد .

- "كان المبلغ المطلوب لعملية أمي كبيرا" أردفت متغاضية عن جفائه وبرودة تعامله " أكبر مما تستطيع طالبة معدمة فقيرة أن تؤمنه، وقالت يومها موظفة الاستقبال: عليك أن تودعي المبلغ في حساب المشفى وإلا أنهم سيخرجونها، أين كنت سأذهب بها؟! " وأجهشت بالبكاء، وقطع هذا صوتها، وبدا وكأنها إنسان بائس تعب، حكم عليه بالهزيمة والخسارة، ولكنه يبذل ما يستطيع لينهض ويقف على قدميه، وعندما فعل و مشى قليلا عاد فتعثر وتلا ذلك سقوط وانبطاح، وخانتة قدماه فزحف على بطنه ليصل إلى الهدف المنشود، كذلك رأت هي نفسها في وجهه الساخر.

- "وفرت جزءا بسيطا من المبلغ لإجراء العملية في اليوم التالي، ووعدت بدفع الباقي قبل أن تغادر أمي المشفى".

- "بعد أن بعث جسديك على دفعتين!!" ولاح على وجهه تعبير شبه حزين، بينما سخرت شفتاه بابتسامة ناقمة .

- "ثم تلا العملية مستلزما كالأدوية والأشعة والتحاليل " الآن هي مثل التلميذ الغبي المراد منه إعادة الواجب المنزلي قبل انقضاء ساعة الدرس، وزملاؤه يضحكون عليه، والمدرس يسخر منه كلما وجد لذلك سبيلا، على أنه مصمم عازم "ثمناها يقصم الظهر، كان الحال المرمل يستلزم أقرباء ميسوري الحال، وهم غير متوفرين، كنا محاطين بجيران فقراء، أحوالهم المادية يرثى لها، لم تغط حتى ربع نفقات مستلزماتهم الحياتية، قدموا لنا الدعم والكلام المواسي والتربيت على الأكتاف والزيارات للبيت من أجل الاطمئنان على أحوال ثلاث بنات وحيدات، أجل يا خليل وجدت نفسي في مأزق مزر لا أتمناه لأحد. أنت لا تعرف شعور أن تصرخ أمك من الألم ويتباطأ نفسها فتظن أنها ماتت "لم يكن ينظر إليها بل راح ينقل بصره في الحديقة غير مكترث، بل مالت إلى أنه لم يكن يستمع لها، وفجأة لَوَّح بيده مبتسما لفتاة صغيرة قائلا بصوت ناعم: كيف حالك، تبدين جميلة اليوم، وردت الفتاة بصوت طفولي ظريف: أشكرك، كدلالة حاسمة على عدم اكتراثه وسحقت الحركة قلبها، وغمرها إحساس بالإذلال الشديد وانحطاط الكرامة، وانعدام القيمة، شعور ماكر قاتل مألوف، ثم سرعان ما أخرج سيجارة ثانية وأشعلها وفورا لازمتها رغبة صارخة في البكاء، و اشتعلت فيها غصبة بالإشفاق الذاتي كأنها متسولة تستدر العطف عليها .

إنه يضعها في مرتبة متدنية ويتعمد زرع الشعور بالمذلة، يعاملها كما عاملها رجال سبقوه بمعرفتها، وينكّل بكبريائها، إنه يصفع روحها المحطّمة بشيء من التعجرف والغطرسة، وما لم يشبع هذا الغرور النهم للتجريح، لن يقدر على فهم بواعثها العاجزة.

ـ "استمري، فكلي آذان صاغية" و نظّر إليها نظرة استصغار وزود نبرته بكل ما يستطيع من تهكم و فظاظة "أحرّك من واجب إطاعة أوامري بعدم الكلام دون إذن صريح مني".

ـ "و كانت شقيقتاي صغيرتين، معدمتين مثلي، تبكيان بشكل مستمر على الوضع الذي آلت إليه أمتنا، ترتعشان من فكرة موتها، تلجآن إلي متوسلات بعمل شيء من شأنه أن ينقدها من براثن الموت خاصة ياسي، كانت طفلة تحنّ إلى أحضان أمها. و لولا ذلك يا خليل أقسم أنني أفضل الموت على إلصاق ذاك العار بنفسي إلى الأبد، ثم هبّت ربح العواصف، وطفّت إلى السطح نواب أشد ضراوة، و مرضت شقيقي أيضا بعد أن أخذت أمني تتعافى،، و بانقطاع أمني عن العمل انتقلت المسؤوليات من كتفها إلى كتفي، كان من واجبي أن أوقّر، دواءً و طعاما و لباسا و تدفئة، و واجبات لا تنتهي تقتضي نقودا، و أقسم أنني حاولت العثور على عمل لأخرج نفسي من ذاك الطريق الرديء، و باءت كل محاولاتي في إيجاده بالفشل".

كانت كمن يقرأ كتابا مملا لإنسان يتحرّق للمغادرة لولا أنه يتحلّى بالمجاملة الاجتماعية، و تجلّى في عينيه ألق ساخر، لو أنها أغبى إنسان على وجه الأرض لم يكن ليفوتها ملاحظته و أحسّت بالتعب و المرض و الخذلان في مزيج تطفو فوقه المرارة و استقطبت عينها مسحةً من الذل و الانكسار، و همّت أن تتمّ رواية قصة معاناتها الطويلة مع المرض و الفاقة و الحاجة، و قبل أن تفتح فمها اعترضها غير متأثر البتة بسؤال تمتّ لو أنه لم يُطرح، لأنه يؤيد لجوءها المتكرّر إلى أسوأ الصفات التي يبغضها: الكذب

"سؤال صغيريا أثيل، كيف برّرت لأمك مصدر المال؟ لا بد أنها سألت و حتى الجيران انتابهم الفضول لمعرفة المصدر، فهو حتما لم يسقط عليك من السماء بين ليلة و ضحاها، بماذا برّرت؟، لدي فضول لمعرفة الكذبة التي ابتدعتها لتنقذي نفسك من ورطة الجواب، إنك بارعة في الكذب".

نكست رأسها و بلّلت شفاهها الجاقّة مرتبكة متوترة، إنها تخاطب حائطا لا يعي ولا يلين ولا يسمع.

ـ "أنا أتحرّق شوقا لمعرفة الجواب" أضاف بلهجة فظة، يشوبها الضيق مراقبا وجهها الغائر في دوامة من الارتباك.

ـ "كذبت عليها" همهمت متراخية بصوت غير واضح دون أن تقابل عينيه "و كذبت عليهم"

ـ "أي كذبة؟" سأل بعدائية، و عيناه تنطقان بالازدراء.

"دعنا منها، أرجوك".

ـ "أي كذبة" كرز السؤال و هو يتميّز غيظا

– " إن إحدى صديقاتي بالجامعة تنخرط في جمعية خيرية" أجابت بنبرة متقطعة مهشمة" وعندما أعلمتها بمرض والدتي وحاجتنا إلى المال، عقد والدها اجتماعا طارئا و طلب من جميع الأعضاء بذل قصارى جهدهم لجمع المبلغ خلال فترة وجيزة، و قلت إن والد صديقة أخرى تبرع لدفع نفقات الدواء والأشعة و التحاليل اللازمة ."

– "و طبعا كما هو متوقَّع صدقك الجيران السدَّج و الأم المسكينة، كونهم غير عالمين بحال الجمعيات، غير عالمين بغشَّهم و سرقاتهم لمال المتبرعين، إنك تذهلينني يا عزيزتي الكاذبة، ترغب يداي في التصفيق" و غدا صوته مزيجا من التأثر المزيف و المداهنة و الغموض بوجهة صعبة التحديد مما أرق أعصابها.

"جلست هنا أمامي ثلاث أشهر، نظرت في عيني، أطرقت رأسك خجلا، جعلت وجنتيك تتضرجان كأنك لم تقابلي رجلا يوما، كأنني الرجل الأول الذي نظر إليك، أتاحت لك ألف فرصة لتخبريني الحقيقة، ولكن، لا، أردت أن أحبك، أن أجنَّ بك، أن أتحوَّل إلى مدمن عليك ليسهل ابتلاعي لذنبك، رسمت، خططت، اسمعي إذا، الكذب لا يولد من رحم النبل والشرف، الكذب يولد من خاصرة الخطيئة و الخسة، و الكذبة تنجب نسختها، الكذبة الأولى تنجب الثانية و الثانية تنجب الثالثة وهكذا دواليك.. إنك تلونين كل كذبة باللون الأبيض ظنا منك أن الناس مجبرون على رؤيتها بيضاء لكونك فتاة طيبة و مضحكة و تنشئين من كذبتك مقالات فلسفية تضربين فيها المفاهيم و المقاييس بعضها بعضا، ثم سرعان ما تلفظين نتيجة وقحة تضعين هذا وذاك في كفة واحدة مستغلة ضياع العقل في زحمة المتاهة الفلسفية، كذبتك ليست بيضاء و لا زرقاء و لا حمراء، كذبتك سوداء ملعونة والأمر الذي لا تدركينه أن كذبتك مثل أطفال الزنى بوسعك اختيار أجمل الأسماء لهم، لكن دون كنية ."

وعلى نحو مفاجئ صاحت في وجهه بعد أن نالها التعب والعجز وأنهكها الشرح العقيم، والفهم المستحيل، وكذلك تملكها اليأس.

– "ماذا كنت تتوقَّع مني أن أفعل، ها، أخبرني أنت " و سرعان ما خفضت صوتها قليلا متحاشية دفعه إلى حالة العصبية، ليس أظن من عودته الى سياسته الساخرة الهازئة بألمها، وتحولت إلى كائن واهن بالكاد يستطيع الكلام

– "ضع نفسك مكاني يا خليل، ماذا كنت لتفعل؟".

– "أن تقتلي نفسك، بدل أن تدخلني حياتي لتفسدها، إنك تتمسكين بالحياة لمقدرتك على الغفران لنفسك، بينما لم ينبغي أن تغفري لها، من منحك الحق لتغفري لنفسك؟ لو لم تفعلني لما تجرأت على تأمل غفراني، كيف تجرأت؟ أين عزة نفسك؟" قال ببساطة بينما جحظت عيناها

من هول الصدمة، أيعقل أن يتفوّه بمثل هذا الهراء، أيعقل؟؟ لم يبد عليه أنه رجل أحبها من قبل، بدا رجلا قاسيا عديم الضمير، عديم القلب، رجلا لا يأبه لها.

_ "لا ألوّمك لما فعلته، لا يهمني، فحتى النقطة التي قرّرت فيها أن تقتحمي حياتي، لم أكن لأكثر إن أنت بعثت جسدك أو تصدقت به، ألوّمك لأنك جعلتني أحبك و أتعلّق بك، ألوّمك لأنك لعنت حياتي دونما إشفاق أو رحمة، ألوّمك لهذا".

_ "صدقني يا خليل، لم أكن أنوي ذلك، لولا أنك كنت في خطر، لقد أحببتك حبا عظيما كتمته لسنوات، و عندما علمت بأمر الحادث اكتسختني الموت، وشعرت أنني سأموت إن أنت غادرت الدنيا، و لاحقا علمت أن والدتك توفيت و أنك غدوت وحيدا مهزوما بين جدران البيت، فوطّدت العزم على إخراجك من تلك الحالة، و بمجرد أن علمت بشفانك انسحبت، و غمرني شعور خرافي من السعادة، لأنك عدت كما كنت، و فيما بعد عندما مرّت السحابة القاتمة من حياتك، أبديت إصرارا على مقابلي، و كنت أتألّم لجلوسك هنا دون طائل و حاولت أن أتملّص من رغبتني الشديدة لمقابلتك ورؤية وجهك، الوجه الذي أحبه، ولكن،،،،"

فقاطعها متما عبارتها

_ "ولكن شخصا ما أقنعك أن الحب الكبير يصنع المعجزات و يغفر الأخطاء مهما عظم شأنها، لم يكن ذلك من صنع رأسك، هل هي السيدة سميحة من أقنعتك أو شخصا آخر؟، أو ربّما استنتجت من قصة محفّزة رويت على مسامعك الحاملة، بوسعي أن أتخيّلك تنتقلين من اليأس القاتل إلى البهجة العارمة بمنتهى السذاجة" إن تفكيره صائب، ولا يسعها الإنكار فعيناها توافقان دونما نقاش.

_ "لا، ليس ذلك صحيحا" و حدجها بنظرة مشمّزة "لقد تم تلقيحك أوهاما لا أساس لها من الصحة، وكان ينبغي أن تعلني بفطرتك أنه لا يوجد رجل طبيعي محترم يرضى بهكذا وضع مهما بلغ حبه للمرأة، و علاوة على هذا سأضع في معلومك أن حبي العظيم قد تراجع دون الصفر، شكرا لصاحب الرسالة، لن أسميها ملعونة الآن، فهي من فتحت عيني على الحقيقة، ينبغي أن أعيد للمرسل رسالته مع باقة من الورود، لاهتمامه الأمين بمصلحتي، لا تومئي برأسك، ألا تصدقين أنني لم أعد أحبك، كما تشائين".

سلوكه الساخر العصبي كان جزءا لا ينفصل عن الصدمة الأولى، أما الآن، فإنه يتكلّم كإنسان واع، مدرك، واثق، بارد الأعصاب، يبوح بالحقيقة كما هي، دون تزييف أو تجميل، ولكن يبقى في عقلها أن الحب العظيم لا يموت بين يوم وآخر، إنه فقط يتألّم.

_ "إنك متألّم فقط يا خليل" أجابت بوهن و قلبها يخور على نسق بانس بينما صوتها شبه

شائخ.

_"متألم!!، سيحتاج الأمر إنسانا طيبا رحيمًا، ليفهم ألمي" قال ببؤس، دون أن يسدل ستار السخرية و عدم الاكتراث و دون التنكّر لأحاسيسه، دون أن يضحك أو يغلف نفسه بالاستهتار "ليس أنت الإنسان الذي ينتظر منه أن يفهمني، لست أنت، لم يؤذني حتى ألد أعدائي بالقدر الذي أذيتني به أنت، كنت أرى سهامهم وهي تنطلق نحوي، بينما السهم الخادع كان من طرفك أنت التي أتق بها ثقة عمياء، لقد حطمتني، أنت التي بنيتني، دفعتي للسقوط، أنت التي أنهضتني بيدك اللعوبتين وقناعك البريء الخادع".

_"إنني أسفة يا خليل، أسفة لأنني صنعت لك هذا الحزن العميق" شاب صوتها إشفاق وعطف "إنني أفهمك".

_"لا" احتجّ وعادت الكآبة إلى صوته و تغلّب ضعفه على عدم اكترائه، رامقا إياها بنظرة طويلة ثابتة تحمل عذابا مرقّ قلبها، و جعل روحها تنّ وتستعر كعدا " إنك مجرد جزّار يعتذر إلى الشاة التي ذبحها، بينما هو يراقبها تسيح في دمها كأنه يسخر منها، أو نارا تواسي الحطب بعد أن تحوّل رمادا، أو عنكبوتا يعني الحشرة التي أسرها نسيجه معتذرا عن تطبيقه قانون الطبيعة. لن تفهمي، أن العالم من حولي قد انهار و أن الدنيا غدت بدون طعم، بدون لون، غدت ثقيلة جدا، أنت التي سخرت بمشاعري، ولم تعتبرها إلا فطورا صباحيا خفيفا، هل تتوقعين أن كلمة أسف ستخلصني من شعور القهر و البؤس؟، لا يا أثيل، ليس بهذه البساطة، هل تفهمين أنك دنتس قلبي عندما سكنته، دنسته، و حطمته "ظهر هادئا رزينا، متحليا بهذيبه المعتاد، مغلوبا على أمره، وهكذا سيفتح لها المجال لتواسيه و تقمع حزنه، منذ برهة قصيرة كانت فاقدة للأمل بصورة لا توصف، خائرة القوى، عاجزة كطير مصاب، أما الآن، فقد تخلّى عن عصبيته وانقلب إلى رجل بئس مقهور، تحوّل إلى نسخته الحقيقية العاجزة عن ستر الكآبة والألم .

_"عندما توفيت أُمي "أردف" لم أعد أنا، واعتقدت أن دنياي لن تعود إلى سابقتها، لم تعد رائحة قهوة الصباح تعني أن أُمي استيقظت و روحها المرحّة الحنونّة تملأ البيت، أصبح لها معنى مختلفا، معنا أشبه برمّح يستقر في قلبي كلما قفزت الحقيقة المرة إلى عقلي، ثم أتيت أنت الهدية الإلهية التي أعادت إلي كينونتي، تغيّرت نظرتي إلى كل شيء، فأثاث الغرفة لم يعد يلتحم بذكرى الراحلين الغالين على قلبي، لا، إنه لم يعد يرمز إلى شيء معين، إنه لا يحيي ذكريات أناس اجتمعوا مبتهجين ليختاروه، و الستائر لم تعد مجرد قماش يريحني من ضوء الشمس، والغرفة بوجودك لم تعد سجنا ضيقا، بك أنت كنت أواجه قدرتي المقعد العاجز، كنت قويا بك، بك

كنت أواجه فقداني لأغلى إنسان على قلبي، بك أنت يا أثيل، أنت من سقتني إلى احتضان الدنيا من جديد و استقبال الأقرباء و الأصدقاء في ردهة البيت، كان وجودك يمدني بنوع من الشجاعة و القوة، و يحثني على الوقوف، لم أع حينها أنني أحبك، كل ما خلص إليه عقلي أنك ضرورة كالهواء، و الماء، أنك الضوء الذي أهتدي به لأجد طريقي، أما الآن، فلا أستطيع القول إلا أنني تائه من جديد، محطّم ، هل ما زالت بك حاجة للقول أنك تفهمين؟، إنني أشبه إنسانا ميتا. لقد قتلتني ببساطة، بضمير بارد، بروح مستخفة كأني صرصور، أو نملة. أشعر أنني بحجم النملة، سحقتني تماما ككائن عديم القيمة، لا أعرف إن ما كنت أرغب في رؤية الناس من الآن فصاعدا، الناس والأشياء الذين رأيتم بعينيك، انهار العالم يا أثيل، انهار كل شيء، ثم "وفجأة استيقظ من غيبوبة الاعتراف بالعجز، ما هذا؟ ماذا يفعل؟ جلد نفسه، إنه يبدو ضعيفا مهزوزا أمامها، إنه يعرّي مشاعره في الوقت الذي ينبغي عليه إبداء الفظاظلة والقسوة، وبينما هو ينتهي من نشره خرق مشاعره المغتصبة، رأى دمعة مشفقة حارة تسيل من عينها، ثم تلتها دموع أخرى تترنح على وجنتها المخادعتين تماما ككل عضو فيها، مستغلة لحظة ضليلة ضعيفة، إلهي ما أوقحها، وعندئذ حاول أن يستدعي غضبه عليها بقدر ما يستطيع،

_ "هل تحبيني يا أثيل؟" سأل بلهجة لطيفة

_ "أجل، أحبك، أحبك" أجابت وهي تنسج، "أحبك يا حبيبي، إنني آسفة لأنني جعلتك تتألم،

إنه ذنبي أنا، كان ينبغي أن أخبرك و لا أدعك تصل إلى هذا الحد من الشقاء ."

_ "أصدقك، أنا أصدقك، أتفعلين أي شيء لأجل أن أسامحك يا أثيل؟ هناك ما ينتظر منك

فعله لأجلي" قال بصوت حنون هادئ. و ابتسم ابتسامة ودودة، و عاد الأمل يخفق في قلبها، وابتسمت هي أيضا، شكرا لك يا الله، لقد نجحت. هذا ما كان يُتوقع منه، أن يسامحها، لقد كان ادعاؤه لموت الحب الكبير مجرد مسرحية كاذبة ، معدمة الحظ بالنجاح ليبرهن لنفسه أنه ليس إنسانا عاجزا في وجه سلطة الحب، ليس صخرة أو حجرا، بل كائنا من لحم و دم و أجابته بصوت يتفرق حنوا و عيناها السوداءوان تضحجان بالأمل.

_ "أي شيء، أي شيء".

_ "إذا ، فلن نختلف في السعر" قال، و ابتسم ابتسامة خبيثة وفاض حقه المسرور من

وجهه، أما هي فقد تحجّر وجهها في ثانية واحدة وهي تتبادل معه نظرة مصدومة، في حين تشنّج فمها المبتسم المحنّط بلفائف السرور الغافر، وذبلت أزهار العفو المغرم ثم تماهكت سيقانها متسلسلة على أرض يابسة تنتحب بدمع فياض رعونة الإنسان الجائر، عندما أدركت ما تنطوي عليه عبارته، لجمت الصدمة لسانها فانطفا صوتها كما تنطفئ المصابيح المضئية .

- "هيا يا أثيل" علق بخبث مبتسما بطريقته التي تبعث الذعر فيها، لقد استيقظ الوحش الشرس ثانية، إذ لم يتفق لإنسان أن أشهر شففته الصريحة أمامه يوما. الشفقة: الشعور الذي يبغضه أكثر من الكذب ودون أن يزرعها أو يصرخ في وجهها أرجع إليها شفقتها على شكل إهانة قاصفة .

- "أراهن أنك تفتحين شهية الرجال بمجرد أن يروك، ولن أنكر أنني كنت أشتهيك أيضا، لن أكذب عليك " .

وبحركة استقرت في رأسها كالرصاصة، زحفت عيناه بطريقة منحرفة من عينها نزولا إلى شفقتها ثم إلى رقبته وأخيرا إلى صدرها الناهد ، واستقرتا هناك لوهلة يسيرة .

- " لا تخبريني أنك لست للبيع، إنك جميلة جدا وأنا أيضا أريدك، وكنت أكتب رغبتني إلى أن أتزوجك، وأظفر بما أشاء، أما الآن ولم تعد إمكانية الزواج محتملة، هل أطمع الحصول عليك بمقابل نتفق عليه كلانا أنا وأنت؟ اعذريني يا أثيل فأنا لا أعرف أسعار العاهرات، ولم يسبق لي أن خبرت سوقهن" وشعر بلذة خرافية أطفأت نار إحساسه بالإهانة ، بل راح ينشر طيات لذته بنشوة لم يسبق أن شعر بها " ولم أتمكن سابقا من الاهتمام بالمسألة ، فلم يتفق أن تعاملت مع عاهرة أو رغبت فيها، هل أفهم من صمتك أنك سترفعين السعر، ألسنت تحبينني؟ سنقضي وقتا ممتعا باعتبار أنك تحبينني " .

وعلى نحو غير متوقع كرهته، وتقهقر حياها العظيم كأنها لم تحبه يوما، ورأته بعين مختلفة نزقة مستهجنة، وبدا أمام ناظرها كالرجال المنحرفين الذين قاموا بإذلالها وإهانتها وسرقة لمعة حياتها ، وأخفقت تعويذة الحب في جعلها تتأمل أن يغفر لها، الآن توضّح لها استحالة عفوه عنها، الآن أقصت النواز الذكورية كل نشاط مزعوم للحب وجهد خارق للعواطف المقدسة، الآن خسرت الحرب بعدما خسرت معارك التبرير والشرح والتفسير والإذلال الشخصي، الآن ضاع كل شيء وغدت مطمورة تحت طبقات يتيمة من القهر والخذلان والبؤس والعار، الآن انطفت شمعة الحب العظيم بنفخة من الأعراف العفيفة المناهضة للذليلة والآثام.

كان على حق، لقد تمّ تلقين الوهم لها، لقد خدعها، عندما قالوا أن الحب يصنع المعجزات ويزيل الحواجز وأنه قوة جبارة لا يستخف بها، عبثا تحاول، لم يكن ليفهمها لا اليوم ولا غدا ولا بعد عشرين سنة ، ولن يفهمها أحد. وفجأة نالت الدموع منها فبكت

- "لا تبكي أرجوك، لست أبترك" علق باستخفاف مشبكا يديه خلف رأسه بينما كان صمتها مأهولا بالحسرة "ربما أحبيت جروحا قديمة، هل أفهم أنك ترفضين عرضي؟، ألسنت تريدان النوم في أحضاننا أيضا؟، سأريحك إذا، ليس لدي سلوك منحرف، كنت أمزح معك، لن أقترّب

من عاهرة، لدي قناعة أن اقتناء الأشياء المستعملة التالفة لا تجلب أي متعة للرجل، لا أحب الأشياء المستعملة، اطمئني لن ألمسك حتى لو قدمت لي نفسك مجاناً، أنا أشمئز من جميع المستخدمين، ومنك أنت على وجه التحديد، أشمئز منك وأتقرّف "

كانت عيناه تقطران ازدراءً وشمئزازاً، هذه النظرة البشعة التي وقّعت لأجلها قرارها الحازم بعدم الزواج، مستعدة لدفع عمرها ثمن أن لا ينظر إليها بهذه الصورة.
أردف متوعداً، ووجهه يتغمّد الكمد الذليل ويسدل الغلّ المسعور .

" لن يمنعي إنسان على وجه الأرض من جعلك تدفعين ثمن استهتارك بمشاعري "ووثب على قدميه بينما تحاشت هي النظر إليه و سيطر عليها شعور مرّ جارف باليأس، وعندما تحرك مبتعداً عن المنضدة، دسّ يده في سرواله و أخرج قطعة نقدية ثم كذف بها على الأرض وراقبتها، وهي تتدحرج إلى أن استقرت على مسافة قريبة من إحدى قدميها .
_ "إنها قيمتك، احتفظي به لتذكرك برأي الصريح في شخصك، ستذكرك دائماً أنني أحتقرك وأشمئز منك".

جلبت إليها الحركة جحيماً لا يطاق، و ملأها شعور بالعدم وكأنها جارية في سوق النخاسة تباع وتشترى وتيقنت أنها خسرتة فعلاً و أنها من البداية خاضت حرباً خاسرة ،يا ليتها لم تكن بتلك السذاجة ،يا ليتها صدقت عقلها ،يا ليتها تتفتت وتذوب وتختفي ،يا ليتها لم يكن ،يا ليتها لم تكن، يا ليت الأب لم يمت، ورغم أنها لم تقابل عينيه البنيتين الفاتحين المحترتين في الوداع الأخير الكسيح ، إلا أنها رفعتهما بسرعة عندما استدار ليذهب، و شيّعتة بنظرها إلى أن اختفى نهائياً.

لقد ذهب ولن تراه مجدداً، اللهم إلا إذا اقتضت ضرورة جعلها تدفع الثمن، لقاءهما المدير، وتفوّقت نميمة غرور الرجل المخدوع المُستخف بكبريائه الرفيع، و ما لم يتحوّل إلى وحش مرة ثانية. وما لم توقظه دسيمة الإهانة في وقت من أوقات الليل أو تحفّزه في فراغات النهار، أو تلعب بعقله ذكرياتهما معا و تخطر له صورته يحبها و يغازلها و يفكرّ فيها بسذاجة بينما كانت تستر إثمها الخليع و تنشر عطر عفتها، وما لم تستصرخه كرامته المهانة طلباً للثأر، فلن تنعم برؤيته مرة ثانية ولن تتلقى منه رسالة يهينها فيها و يذلّها لاعنا اليوم الذي عرفها فيه، و الساعة التي أرسلت له ترفع من معنوياته و تشد من أزره.

لقد ذهب، حاملاً معه صورة وجهها الجزع، و عينها المفجوعتين النديتين بدموع جامدة، حرصت على عدم تساقطها، حاملاً معه السحنة المصدومة بعرضه الأخير، حاملاً معه صورتها المهانة الذليلة، وقلبها المفطور منعكس على وجهها الشاحب.

لقد ذهب متلذذاً بقرها، متغطرساً بطحن كرامتها، واثقا بمقدرته على النيل لكرامة الرجل المخدوع، دم ساخرا يا خليل حتى أعرف أنك بخير، كان يسخر، لكن أكان فعلا بخير!! أتراه كان يعني كل كلمة قالها!! أو أنها كانت وليدة الغضب والبؤس والخيبة والخذلان، هل يمعى الحب بهذه السهولة و تنخفض درجاته بهذه البساطة؟، وأسرعت تجيب نفسها مستندة إلى مؤشرات تعابير الوجه التي لا تخطئ، "لم يعد يحبني، لقد كان صادقا عندما قالها، لم يعد يحبني، لن يحبني بعد افتضاح عاري، وكشف حقيقي، ليس لأي رجل المقدره على حب امرأة ملوثة غير شريفة، لقد خسرت"، ما من شك أنها خسرت دون أمل في استعادته، فنظرة الاحتقار لا تكذب حتى لو ادعى اللسان عكس ذلك. ليته كفّ عن حمها فحسب، هناك شعور مرير أسوأ من التوقّف عن الحب، الاشمئزاز والنفور والاحتقار.

لقد ذهب، بعد أن سحق قلبها و صنع فيه ندبة لا تزول، و بعد أن أفحم شعورها وحطّم كيائها وأهانها بوصفها عاهرة، تلك التي لا تحفل إلا بملء جيوبها بالمال، والاهتمام بمصالحها، والجري خلف الرجال لتمنح عشا دافئا، بينما هي لا تستحق إلا الازدراء والاحتقار. ذهب بعد أن قذف بوجهها عرضا حقيرا شلّ حركة جسدها.

لقد ذهب، بعد أن انتزع منها دماء الحب، وقتل أملها في الحياة. و بتريدها بحيث لن توجد لتمدها طلبا العون و التفهم من إنسان آخر، و زرع فيها رعبا كاسحا مميتا من اطلاع الناس على شناعة ما أتت.

لقد ذهب بعد أن سلب منها احترامها المتبقي لنفسها، الاحترام الذي احتفظت به رغم الألم والمعاناة والشدائد مجتثا إيمان الفتاة المضحية في سبيل أمها و شقيقتها، مهشما المرأة التي كانت تُجَمّل آثامها، والتي تواسمها دوما بقولها: إنك عظيمة إذ ضحيت بنفسك في سبيل أمك، وشقيقتيك، وأحسنت أن الشظايا المكسرة مغروسة في قلبها كتكفير عن كل لحظة وهم خادع انخرطت فيها.

لقد ذهب ضالاً تائها بنفس الصورة التي قادتها إليه أول مرة، مخذولا سكرانا بخمر الخيانة والمرارة والظلم في الظهر، في عينيه كراهية واحتقار، وفي وجهه المصدوم اشمئزاز و تقرف، صانعا لها جحيما لن يبرد، موقدا لها نارا لن تخبث، محوّلًا النور الذي اهدت بواسطته إلى ظلمة حالكة السواد.

لم يكن وغدا عندما رفض التزوّج بها، فقد سلّمت الآن بصدر واسع وعقل منفتح بنظرية جديدة: الحب لا يصنع المستحيل، ولا يسوق الرجل إلى غفران الخزي ولا يحوّل الجدران إلى ضباب يسهل اختراقه.

ولم يكن عندما استدرجها إلى الاعتقاد أنه صفح عنها ثم عرض عليها النقود مقابل أن يحصل عليها، وعاد فقال إنه لن يلمس عاهرة، و لا كان عندما صرخ و صاح في وجهها، و لا عندما وصف سزها بالساقط، و لا عندما أجرى ذاك الاستجواب المذل.

لم يكن وغدا عندما ضغط على جراحها بيدين عديمتي الرحمة، عندما شتمها و أهانها متعمدا قاصدا، لا ، لم يكن وغدا في أي من تلك النقاط الناقمة، لقد كان وغدا حقيرا عندما استهتر بآلامها وذكرياتها الثكلى، سخر من حالتها الهائمة على وجهها، بينما كانت روح أمها معلقة بين الموت والحياة، كانت حركة البنت الصغيرة و نفث دخان السجائر في وجهها أشد فتكا من ابتلاع حفنة من الأشواك الحادة، وحيث أنها لم تستطع إلا أن تقاوم غرورا مستبدا، خسرت عزة نفسها، و أنزلتها إلى أحقر المنازل.

ولو أنه نظر إليها من نافذة الإنسانية كما توقعت، بدل نافذة الرجل المخدوع الخائب لأحسن بالخجل والعار من نفسه، لأنه لم يكن يضحك فقط على معاناة فتاة وحيدة عاجزة، أجبرتها الحياة والظروف على احتمال ما لا يطيقه هو وأمثاله، ساقتها إلى التمرد على الدين والعادات والتقاليد، بل كان يسخر من المعاناة الإنسانية، سخرية إنسان لم يواجه الخطر، لم يذق المر والبؤس، بينما يسهل أن يحكم، إنسان لم يعيش المأساة بينما يستطيع أن يعطي المواعظ ويسدي النصائح. سخرية إنسان متفرج بين حشد من الجمهور على استعراض إنسان مريض.

لو أنه أعتق نفسه من غريزة الرجل لمدة وجيزة و استطاع تصوّرها مضروبة مهانة، تطرق على الأبواب طرقا ضعيفا متألما، و عندما تفتح لها، تدخل ليغتال جزء إضافي من براءتها ثم تُشتم وتُعامل بعنف، وتقبّل بوحشية و تقلّب بانحراف مهووس، لتجنّب بقدر ما يستطيع أن يوجّه إليها مجرد تلميح أو خدش كلامي غير مقصود، لم يحطمها لأنه لم يقبلها، بل لأنه لم يفهمها.

هل حلمت بالكثير؟ هل ارتكبت مخالفة شنيعة نتيجة حبّها له، و طمعها بالزواج منه؟ كان حبها ساذجا بريئا، صادقا، حب طفلة تعتقد أن ذنبها قابل للمغفرة طالما أنه لها عذرا مقنعا وأعلنت توبتها وبارحت قدماها ذاك العالم القذر، و أن دافعها كان أصفى من ماء البحر، أهدى من ضوء القمر، وأن كذبها عليه خوفا من خسارته كان سيشفع لها تماما مثل قولها الحقيقة. وسقى كل خلية فيها، شعورها باليتم مرة ثانية، و استعادت في عقلها هيئة الرجل الذي أنبأهم بوفاة والدها، و عند عتبة باب الحديقة رأته يغيب، وأحست بوالدها يموت للمرة الثانية. وانحنى ببطء لتلتقط القطعة النقدية عن الأرض و سرعان ما قبضت عليها، كأنها تقبض على عقرب سام: ستذكرك برأيي الصريح بك، ستذكرك أنني أشمئز منك و أحتقرك، هذا ما

ختم به قصة حيهما المستحكمة العظيمة حصينة الأسوار، واستحثت دموعها فخذلتها وأدركت أنها في جوف بؤس شديد، الذي لا يمنحك دموعا لترتاح بها، ما أسوأ أن يكون المرء بئسا، وانقلب شعورها بالمرارة والألم إلى عدم الشعور بأي شيء، واكتشفت بفطرتها السديدة، أنها تحاول حماية نفسها من ألم آخر ناجم عن تراجيديا وداعه الأخير.

أهي تعسة؟ أو بئسة؟ أو متألمة، أهي منهارة، مستنزفة؟ لقد استولى عليها فعليا برود تام، لا، ليست تستطيع تحديد طبيعة شعورها، تملكها شعور من الصعب تحليله أو تعريفه، شعور لم تخبره في حياتها أسمى من أسوأ شعور ملأها من قبل، إنها فقط تحس بالرغبة الجامحة في البقاء هنا إلى الأبد، ماذا يسعى هذا غباء؟! وفاء، جنون؟ أي شيء إلا أن يسعى تعاسة، فهي إما أنها تجاوزتها وابتعدت عنها كثيرا أو أن قلبها مات في جنازة صامتة كونه السبب الأول في فاجعتها.

ما له صامت؟ هذا القلب المخادع الغشاش الكاذب، المارق، منيع الأوهام والكذب، مبعث الأحلام والخيال، لقد كانت الثانية التي صدقته فيها متعالية متغترسة، ولم تع ذلك إلى أن وافتها لحظة دفع الثمن، ما له لا يحزّر لها دموعا تكون متنفسا لغيظها المكبوت!! ما له لا يواسيها ولا يشجّعها الآن بعد أن شهد مراسم رفضها الأخيرة!!..

ولفترة زمنية غير محدودة جلست على المقعد الخشبي في الحديقة، ركبناها الواهنتان الخاملتان لا تقويان على الوقوف، وجسدها مشلول، وعيناها ثملتان من الصدمة ووجهها كأنه وجه مجنون تحت تأثير المهدئات.

سكنت، ليس ذلك النوع من السكون الذي طالما غلّفت نفسها به، لا، بل سكون جديد غريب عنها، يشبه سكون من خسر جميع معارك الحياة، ولم يعد في جعبته ما يقاوم به أو ما يصمد لأجله، حتى لو تعرّض لهجوم مباغت، مثل من أصبح لا يهيمه الدفاع الغريزي عن نفسه. كل ما حولها يعزف موسيقى الفراق الأبدي لحبيين أذكي الحب في قلبيهما نارا مستعرة، وهاهي تحرقهما كحطب يابس.

و أغمضت عينيها تستعرض أول لقاء بينهما، هنا على هذه المنضدة، عندما عجز عن رفع عينيها عنها، واصفا إياها بالجميلة، مبتسما، رقيقا في معاملتها، عذبا في محاورتها، حذرا كيلا يجرح شعورها، مؤكدا لها أنه موجود الآن و أنها لم تعد وحيدة، سيساعدها و يفعل أي شيء لأجلها، سيزيل البريق الحزين من عينيها، سيكون ملجأها، و سيفهمها، نعم، سيفهمها، سيفهم أي مسألة مهما كان حجمها خطيرا، على أنه في نهاية المطاف لم يتمكن من الفهم بينما تمكن من إيذاء شعورها وإهانتها واستطاب احتقارها.

واعترفت بصوت خافت محطّم "أحبه، أحبه" لا أستطيع أن أكرهه، كانت تلك لحظة هشة توهّمت فيها أن الحب الكبير يمكن أن يتحوّل إلى بغض وكرهية، وأقرت مستسلمة أن الحب الذي اعترفت به ذاك اليوم البعيد بين جدران السجن لم يكن إلا قطرة من بحر حبها العظيم الذي يضحّ في قلبها، تحبه حبا مختلفا عن حب النظرة الأولى و الثانية والعاشرة، تحبه حب النظرة الأخيرة التي تضاعفه وتمزجه مع ألم الفراق.

الآن و قد ذهب تساءلت مؤنبة نفسها، كيف وسعها أن تكرهه ولو لثانية واحدة، لقد خدعها الغضب و الطيش و الألم، لأنه ما انفك يهينها ويشتتها و يذلها و يصفها بالعاهرة ووجدت الإيمان بالكرهية تنفيسا ملائما لألمها الكبير.

و بينما هي تهتمّ كارهة بالوقوف على قدميها، طرقت عقلها كمطرقة كلمة العاهرة تلك. كان هناك في ذاكرتها العاطلة تقريبا شخص آخر غير خليل نعتها بهذا اللفظ: ميرنا، وفجأة لم يعد هذا الاسم يعني لها مجرد اسم شقيقتها، بل يقود إلى معان خائنة مرعبة، فجلست مرتعدة الفرائص مشوّهة المعالم، وأحدثت الفكرة في جسدها ارتعاشا مدويا محرّكة فيها شعورا بالصدمة القاضية، وطفق الألم الضليع و البؤس الخاسف يموجان في قلبها مجددا إثر هذا الإدراك المباغت.

ميرنا التي ما انفكت تهددها صامته بإفشاء سرها، وإخبار جميع محبيها ومقربيها بحقيقتها، ميرنا التي تبتزها بطريقة بشعة و تلعب بأعصابها، وتغير عليها بغارات مفاجئة بطريقة مباشرة أو عن طريق تسميم عقل أمهما.

ميرنا الفتاة الأنانية القاسية النكدة التي لو استحقت في الحياة شيئا كما يفكر الجيران والأصدقاء، لاستحقت أن تبقى وحيدة كما كانت دائما.

ميرنا التي لو اتّفق أن أحست بعاطفة الحب نحو أحد، فسيكون ذلك الأحد هو نفسها ونفسها فقط، و التي لم يستلطفها إنسان من المعارف والجيران لطبعها النزق و سلوكها المنفر، ولولا أن أمها مجبولة فطريا على حبها تجبرها عاطفة أمومية على استيعاب صفاتها الشريرة، لما استطاعت أن تتحمّلها.

ميرنا التي تعتبر مساعدة إنسان بحاجة دون أن تحصل على منفعة، إجهادا لنفسها وهدرا لوقتها واستغلالا لأنانيا لطاقتها، التي لم تواس قلبا مفطورا و لم تخفّف شعورا حزينا، والتي قال عنها العجوز صالح، وهو مالك البيت الأخير في ناصية الشارع: كان السيد نعيم رجلا طيبا ومحترما، كما أن زوجته امرأة أصيلة رحيمة، كيف حدث و أن رزقا بهذا الشيطان القبيح، وعندما بلغها ما قاله تعمدت جعله يتعثر ويقع عقابا له على نعتها بالشيطان القبيح.

ميرنا التي تدمّر وتشتكي من ظروف الحياة، التي تخجل من آلة خياطة والدتها، المنزعجة أبدا من صوتها، الخجلة بعملها السابق كمنظفة، مدعية متباهية أمام أصدقاء المعهد أنها معلمة متقاعدة. ميرنا الفتاة القبيحة ذات الشعر العكش والعينين الجاحظتين الحقودتين الباعثتين على النفور، ذات الفم الكبير والأنف البارز العريض بجيوب شبيهة بالأنفاق في وجهها قلبي الشكل،، المحدد بوجنتين بارزتين بروزا بشعا، ولا تعتبر هذه مجتمعة صفاتها البشعة فحسب، بل إن روحها سوداء، وأفعالها قادمة من عقل الشيطان.

ميرنا التي لم يرغب فيها أي رجل، التي تُحمّل الآخرين سبب فشلها وخيباتها، المهووسة بانخراطها في صفوف الطبقة الأرستقراطية، الساخطة على الناس والحياة الفقيرة، وعلى أثيل بصورة خاصة، الفتاة الحقودة ذات الروح السوداء كما تنعتها سميحة، والتي ترجع دوافع نفورها منها لأن أخلاق أثيل المترفعة تعوزها.

التي تعزف لحن تلطيفها لشرف العائلة كلما أحسّت بالاكثئاب أو الضيق من مشاكلها وحياتها، كانت تجد متنفسا لغضبها وخيباتها في ذاك الوجه الأبيض الجميل، الذي لو وسعها امتلاكه بحيلة ماكرة أو سرقة ممكنة لما فكرت مرتين: لا تعتقدي أنني أغار منك لأنك جميلة "قالت لها ذات مرة "فالجَمال لعنة و بلاء، والمهم هو جمال الروح، أنا راضية بقسمة الله "يا للفكاهة، لو علم الرضا بأنه غدا أحد صفاتها لتبرأ من نفسه قبل أن يتبرأ منها.

"أجل هي" هجست مسحوقة "أجل من غيرها، هي من أرسلت الرسالة لخليل، إنها تعرف سري، من المؤكد أنها كانت تتجسس خلف الأبواب، لم تكن السيدة سميحة تتوهم، لقد كانت هي". ليس إلا حقدتها الرجراج يقدم على عمل شنيع كهذا، ليس إلا هوسها بالانتقام ينزل بها إلى مستوى حقير متدن كإرسالها رسالة تفضح فيها أختها أمام رجل غريب عنهما، ليست إلا كراهيتها العمياء تسوقها إلى إهانة فتاة مثلها حتى ولو كانت هذه أختها من دمها ولحمها، من سواها، إنها هي، إنها تحقد عليها وتكرهها، لم تكن سميحة إلا مصيبة عندما قالت أنها ستؤذيها ذات يوم عندما أجرت مقارنة حالتهما وحالة الأخوين هابيل وقابيل، وها قد فعلتها، واستعادت حالتها في ذهنها عندما فتحت باب غرفتها ذات يوم فقبضت عليها تتسلل خارجة على رؤوس أقدامها مثل اللص،، وإذا ما فرضت حقيقة بغضها ومقتها، نفسها في الميدان، فإن ذلك يقلل من فرص نعيمها بانتظارها لتتشارك حديثا أخويا طيبا.

أما الجواب على نظرات الدهشة لوجودها في غرفتها

"إنني أبحث عن قطة ياسي" وابتسمت يومها ابتسامة ظريفة، أبرزتها بمظهر غريب كأنها تغطّي على عمل مشين ارتكبته "لقد تعلقت بها، ليست بغرفتك".

وتذكرت أثيل والدم الساخط يغزو عروقها، صندوق صور خليل المصنوع من خشب الورد، هدية والدها المتوفى، لم تعثر عليه في موضعه، كان يفترض أنه موضوع تحت الفساتين وليس مدسوسا بينها، وكذلك تذكرت أن صورة خليل يقبل جبين أمه المقصوفة من الجريدة كانت أعلى الترتيب بينما قابلت عينها صورتها فاتحا كفيه نحو السماء عند شاطئ البحر، ويومها كذلك اتهمت عقلها بضعف الذاكرة "أجل يا أثيل كنت مستعجلة، وعشوائيا دسسته بين الفساتين".

كيف تفعل بها هذا؟، صرخت صرخة صامتة، وثار فيها غضب مشؤوم، وضيق فؤار فاستجمعت شتاتها المبعثر، واستعادت رباطة جأشها، وشمخت برأسها كما تشمخ ميرنا كرمز على عفتها المصون وشرفها الكامل، ستواجهها، لن تخاف منها بعد الآن، ستعطيها أسباب فعلية ميدانية لتكرهها،، وليس أوهاما من إنتاج حقدتها الراشد.

الفصل الحادي عشر

كان البيت فارغاً، والسكون الجاثم عليه يجعل أصوات الأطفال في نهاية الشارع مسموعة مرتفعة، إذ انضمت ياسمين الصغيرة إلى فتيات سميحة، سالي وريحان بهدف قضاء النهار معهما، وربما استدعى خوفهما بقاءها ليلاً، ذلك أن والدتهما اضطرت للسفر إلى مدينتها، بسبب نوبة مرض مفاجئة لإحدى القريبات التي كان يفترض بها الموت قبل سنة ونصف حسب تفكير الجارة الغربية، فقد كانت العجوز مريضة بشكل لا يدعو إلى التفاؤل "اه، لم تمت مرة أخرى، وهاهي تطلبني على عجاله، ربما ستضع اسمي ضمن قائمة الورثة، على أنني أطعن في فرضية ملكيتها شيئاً ذا قيمة، أخشى ما أخشى أن تهربي خاتماً من خواتمها الفضية لأجل البركة، يحتر المرء كيف تفكر العجائز، أحتاج المال، ماذا أصنع بالبركة؟"

أما ضربة الحظ التي خدمت أثيل، فهو غياب أمها عن البيت، فبعد ليلة شاقة من البكاء والتأثر على وفاة إحدى الجارات القديمات الطيبات، غادرت في الصباح الباكر لتشارك في التحضير لجنائزها، مؤكدة أنها لن تعود إلا بعد العشاء موصية بناتها بعدم نسيان إغلاق الباب، وتناول العشاء المعد مسبقاً في الثلاجة، ما أشد ما بكت، ما أقسى ما تألمت، إنها تتأثر بسرعة عندما تسمع بوفاة أحد، ويعود ذلك إلى أن مصائب الموت تثير فيها ذكرى وفاة زوجها "إن أمي إنسان رقيق القلب لا يتحمل، رغم ما تبديه من صلابة وحزم، ولكنها تتأثر بسهولة كما يتأثر طفل صغير".

إذا فميرنا اللئيمة وحيدة في البيت، فليس من مكان يستقبلها لكونها لا تحب أحد وكل أحد يبادلها الشعور، واتجهت عينا أثيل المفؤودتان إلى السلم، عينان حمراوان متعبتان، حاربتا ضد البكاء والعذاب، فلم تظفرا إلا بالخيبة، وصعدت الدرج بتثاقل تجرجر قدميها وترنح مثل بندول الساعة، شاعرة بألم كسير وخيبة ناضجة مكتملة، وكان حلقها جافاً وبحاجة ماسة إلى كوب ماء، وحاجتها إلى النظر في عيني ميرنا الحقودتين أعظم، لهذا تجاهلت جفاف حلقها، واكتشفت أن ميرنا بغرفتها بعد أن سمعتها تدفع كرسيها إلى الخلف، وما إن فتحت الباب حتى التفت إليها مغتاضة.

_ "كان يجدر بك طرق الباب" قالت ميرنا حانقة، وهي تجفّف طلاء الأظافر الأسود الذي صبغت به أظافرها "إنني مشغولة كما ترين و ليس بي رغبة للتحدث معك".

فخطت أثيل بتصميم داخل الغرفة مغلقة الباب خلفها، معيرة وقاحة أختها أذنا متجاهلة

- "ما هذا التصرف الوقح، اخرجني من غرفتي" طردتها مرتعشة بإشارة من السبابة.
- "لماذا ترتعشين يا شقيقي؟" كان وجه أثيل هادئا وصوتها خافت كما هو المؤلف "هل أتيت عملا سيئا يدفعك إلى الخوف من مواجعتي؟".

فتملكها الذعر وأسرت تنازل ذراعها، وأسرت كذلك تنسّق تعابير وجهها بحيث تتجّنب انكشاف فعلتها، وفهمت أن الأمور سارت على حسب خطتها من خلال مطالعتها للوجه المتصدّع والعينين الخائبتين، فاستولت عليها سعادة دستها بين الجدية والتظاهر، وانتعشت أسارير وجهها، إن قلبها يحتفل بهذه المناسبة السارة.

- "ماذا تقصدين؟، لا أفهم الغازك، إنك لا تبدين على طبيعتك"

- "بل تفهمين" احدثت أثيل، وصوتها يهتّم "تعرفين ما أقصد، أنت من أرسل له الرسالة"
- "أي رسالة؟" أنكرت برزانة، مشيخة بوجهها متظاهرة بإغلاق زجاجة الطلاء، وبينما هي تحكم إغلاقها لتتجّنب النظر إلى أثيل، تقدّمت نحوها وعندما أصبحت بجانبها ضغطت بقوة على ذراعها النحيل

- "لماذا؟" سألت ساخطة "كفي عن التظاهر، أنت تعرفين ماذا أقصد"

- "أجل، كنت أنا التي أرسلتها" اعترفت بغلّ، قاذفة إياها بنظرة مهتاجة، وبريق الحقد الرهيب يضيء عينيها "أنا من أرسلت الرسالة إلى خليك الغالي" وران الصمت بينهما لدقيقة، كانتا تتبادلان النظرات، حاقدة متأججة بالكراهية والاحتقار من طرف ميرنا، مصدومة، غير مصدّقة من طرف أثيل.

- "أجل أنت، من غيرك" وأفلتت ذراعها مبتعدة عنها، مشرعة يديها في حركة تعبيرية عن الخيبة والصدمة الجديدة باعترافها.

- "هل أفهم من حالتك العصبية أنه رفضك؟" وشابكت ميرنا ذراعها النحيلين تحت صدرها الضامر، يتخلّل صوتها حقد مسرور "ألم يتفهّم حبه الكبير، قصص نضالك ضد المرض والفاقة؟، دعيني أفكّر، هل كان الأشمئزاز والاحتقار هو رد الفعل الذي سبّب لك هذه الحالة النفسية الرديئة؟"

"ما هذا الحقد؟" قالت أثيل في نفسها، مختنقة النفس، مذهولة من الغلّ الرهيب المتجذّر في صميم هذه الفتاة، وأرادت بلهفة أن تضع نقطة عند هذا الحد، وتخطو خارج هذه الغرفة الخالية من روح الإنسانية، لكن، لا، ستقاومها، ستواجهها .

- "كان سيعرف على أية حال يا أثيل، كانت نهاية حتمية مؤكدة، ولكنك خدعت نفسك، لم يكن الرجل لك يوما، ألا تستطيعين أن تدرك أنك أتيت شناعة عظيمة، ليس ذنبا بسيطا يسهل

غفرانه، زنى، زنى أتفهين!! زنى"أضافت متغطرسة نافثة سمّها كالأفاعي، كانت تشعر أنها في موضع أقوى يمكنها من إهانتها حتى و هي مخطئة بخصوص عبثها اللاأخلاقي بأغراض غيرها، تلك العادة كم هي مقبولة؟ كم هي منفرة؟ كم تدل على رداءة الأخلاق؟ كم تدلّ على انهيار القيم والمبادئ؟.ولكن الغاية تبرّر الوسيلة، ولن يشع جوع ذاك الحقد إلا الانحطاط إلى مثل هذه المستويات، إنها مكروهة منبوذة على أية حال، ولن يضيرها أن تضيف إلى رصيدها المزري المملوء بنوازع الشر، لن تضيرها خسة وحقارة أخرى.

_ " طالما أصررت على انتقاد تأثير السيدة سميحة الطائش عليك، وكذلك تأثير العجائز الخرفات، اعتمدت على الحب و العواطف الغبية، و طبعاً قامرت بأوراق جمالك الفتان الذي يبهريون أي رجل، أي رجل تقع عيناه عليك، من أجل أن تكسبي حريك ضد الشرف المثلوم، هل أدركت الآن أن جمالك بعرضه و طوله و فتنته الساحرة ليس قويا كفاية ليصحح المسار الخاطئ الذي سرت عليه، لماذا تنظرين إلي هذه النظرة الجافة المؤنبة؟، إنني فقط تكزمت وفتحت عينيه على الحقيقة، لن تخدي الرجل إلى الأبد يا أثيل "

_ "عندما يتعلّق الأمر بالشر و الأعمال الرديئة تصبحين أكرم الناس " أجابت أثيل بعناء تعلق شفتها ابتسامة تعب سخرة "كنت أرتاب في أمرك يا ميرنا، أرتاب أنك تتجسسين خلف الأبواب، كيف تفتشين في أغراضي؟ كيف حصل أن نزلت إلى الحضيض بهذه الصورة؟ كيف تتجربين يا ميرنا؟ كان علي أن أصدق كل من قال أنك تحقدين علي إلى الدرجة التي قد تسببين بإيذائي".

وارتعشت وجنتا ميرنا من الغضب، ثم استدارت و خطت نحو النافذة، صاحبة الستائر بعنف، ونظرت خارجا و الغلّ يستولي على صوتها

_ "تلك تحذيرات السيّدة سميحة بلا ريب، فهي تكرهني، شريكك في مغامراتك الغرامية العابثة، هي المخطّط والمدبّر للقاءات الحداثق المثيرة، أجل تجسّست " و استدارت بسرعة رافعة صوتها دون خجل، لتقابل عيني أثيل بخبث، كانت عيناها مثقلتين بحقد شرير" منذ ذاك اليوم عندما حضرت إلى البيت وغمزتك، ارتبت في أمركما، كنتما تخططان لشيء ما، ولولا أنني خشيت على سمعة العائلة، خشيت أن تحطّميها أكثر مما فعلت، لما أقلقني اصطحابها لك حتى إلى بيت البغاء، موطنك الأصلي، ولكن الأمر يتعلّق بسمعنا أنا و ياسي، نحن سندفع ثمن أغلاطك أيضا، إن ما أشيع خبر إحدى بدعك الخليفة، عندها لن يهتم أحد بالزواج بنا أي عائلة تقبل بنا؟، لا توجد، تجسّست " و صرخت في وجهها بينما كانت أثيل تصغي منهوكة، وعيناها تتابعان حركة الفم القبيح الكبير، الفم الوقح الكاذب "وعندما ارتبت صعدت قبلكما،

واضطرتت كارهة إلى التنازل عن مبادئى، وقفت وأرهفت السمع و خلف الباب المغلق كنتما تهماسان عن رجل دخل إلى السجن، و كنت تبكين من أجله، فاستنتجت أن لك حبيباً خفياً، أما الصدمة الحقيقية، فعندما سئحت لي الفرصة لدخول غرفتك و تفتيش أغراضك، كان ذاك الصحفي المدعو خليل الذي أهان الوزير، إنه لا يعجبني بالمناسبة، فهو متعجرف ومدلل".

_ "لا يعجبك!!" قاطعتها أثيل بسخرية، لقد تجرأت على وصف خليلها الغالي بالمتعجرف والمدلل، وحيث أنها تعرضت للإهانة من قبله، وحيث أنه صاح في وجهها، وصرخ، فهذا لا يعني استغناءها عن حبه و واجبها الأبدى في الدفاع عنه.

_ "إذا ظننت أن هناك نسبة واحد بالمئة لتحصلي عليه، لذهبت إليه عارية".

دهشت ميرنا، لم تسمع أثيل يوماً تطلق لفظاً كهذا، حتى مع كونها عاهرة غير شريفة، إنها مؤدبة ومهذّبة و لكنها خرجت عن طورها. لا يهمّ، ستصفع أذنيها في الوقت المناسب، فبجعبتها الكثير من الكلام الجارح، الكتاب مملوء بالخزي و العار، ستمزّق كل صفحة و تقرؤها على مسامعها، انتظري يا أثيل، خططت و هي مستشيطة غضباً في سرها، ستسفعين الدموع حتى تفقدي البصر.

_ "لن تصدقي أنه لا يعجبني! تلك مشكلتك، إنك ترينه من زاوية عشقك المقرف، سأكمل لك، فتحت حاسوبك و برزت مشكلة صغيرة إلى السطح، كلمة سر بريدك الإلكتروني " عندئذ قطّبت أثيل حاجبها كتعبير مندهش من وقاحة أختها في عرض انحطاطها و انهيار أخلاقها، كأنها تبجّج بصنيع ممتاز. أجل، لقد كانت تبجّج "جربت تواريخ مناسبات عائلتنا المهمة كتاريخ ميلاد أبي. لا، تاريخ ميلاد أمي، كذلك لا، ماذا عن تاريخ اجتماعهما معاً، ذلك ما وضع نهاية لبحثي القصير، ثم سرعان ما ظفرت بحقائق دسمة، حب خالد، من نوع خرافي، كحب الأساطير و الملكات، دعم باسل و وعود مقنعة و وفاء خالص، تقارير عن يوميات العشاق الهائمين، غرام تحت ظل شجرة الصنوبر في الحديقة، عدم فهم للوميض الحزين في العينين السوداوين، ثم استغنيت عن دخول الغرف خلسة مثل اللصوص، و أصبحت أقرأ ما تكتبينه من غرفتي، و كل يوم عندما أقابلك على طاولة الإفطار، أتساءل حائرة، كيف تستطيع شقيقتي أن تظفر بما تريد بهذه السهولة؟، كيف استطاعت الوصول إلى رجل كذاك الرجل المشهور المرغوب من كل النساء؟ باستثنائي أنا بالطبع، إنها تجرّ في أعقابها أي رجل تقع عليها عيناه، حتى ذاك تمكنت من نيله ببساطة، و تساءلت كذلك، كيف بوسع أختي أن تتزّره و تضحك و تغرم، تأكل و تشرب؟" تخلّت عن مظاهر الحقد و الكراهية، و تحوّل صوتها إلى ناغم بانس "تحدث، تذهب إلى الرحلات، تحتفل، بعد أن دنست نفسها، و دنستنا معها، كيف تستطيعين؟"

سرعان ما عادت القسوة والصلابة إليها وتمدّدت تعابير وجهها المتقلّصة من التأثر بانتهيار سمعة العائلة "يوم عدت من السجن مثلا، السجن لاحظني أنني قلت السجن، تشاركت أنت والسيدة السميحة في خداع أمي، سمحت لتلك المرأة الوضيعة بخداع أمانا، و تعذرت بحجة مراجعتها طبيبا مشهورا لأجل داء المفاصل الذي أصابها، وترجو رفقتك، وكان على الأرجح طبيب قلبك الكليل المتعب من عدم رؤيته، عندما عدت كتبت في رسالة سيقراها لاحقا، حبيبي "و ضغطت يدها على قلبها في تقليد ساخر مستصغر لشعور أثيل التي تنقّست بعمق ذاهلة من أثر جرأة أختها وعجرفتها، ليس لديها شيء تفعله إلا الإصغاء أو الانصراف.

_ "حبيبي، كنت سعيدة اليوم و حزينة في الوقت ذاته، سعيدة لاعتراك أنك تحبني، وحزينة لأنك كنت تبدو تعباً مريضاً، بدوت تعباً يا خليل، لقد تمزّق قلبي عندما رأيتك على تلك الحالة، إنك فقط قوي وبوسعك أن تتحمّل، هذا ما واسيت به نفسي بينما أنا أقف مقابل السجن المقيت مطبق الهدوء كأنه مغارة مظلمة، يا حبيبي كيف سأقضي الأشهر القادمة من دونك، إن حياتي عديمة القيمة، عديمة الروح، سأنتظرك إلى الأبد، أحبك أحبك...لست أنكر أنك كنت وفية مخلصه له "وضحكت هازئة" قلّما كنت تضحكين، وكنت تبتمسين كأنه واجب رسني تؤدينه بشق النفس، ورأيتك أكثر من مرة منتفخة العينين من البكاء و مقلتاك حمراوان، ووجنتاك شاحبتان، تجيين بمهارة مذهلة على استفسار أمك عن الذي أصابك، أنا بخير يا أمي، ولكن السيد إبراهيم يضغط علينا بقوانينه، مسكين ذاك العجوز، يعوزه الحظ كي لا تُلقَى عليه اللوائم الغرامية، ولم تتخلصي من مظاهر الحداد إلا عندما اقترب موعد خروجه من السجن، عندها عادت الحياة إليك، وعدت تنتقلين في البيت سعيدة مغتبطة، تفيض الحيوية من جسدك، وكنت أنا أجهز لانتقامي منك، لإهانة شرف عائلتنا وهكذا اخترت الساعة العاشرة، أين توقّع السيد المحترم تلقي رسالة شوق و حنين، فأسدبت له خدمة أكبر من رسالة عاطفية غبية، رفعت له الستار ليشاهد الحقيقة المرة و يرى حبيبته عارية بين أحضان الرجال، فانفطر قلبه وغادر القاعة مسرعا ليسمعها بصوتك، فربما لم يصدقني كفاية، النتيجة يا أثيل، أن من يريد كل شيء، لا يظفر بأى شيء "

_ "هل أنت مرتاحة الآن "سألت أثيل خامدة الروح، و صوتها ضعيف كليم،، أما قلبها فإنه قاوم ما يكفيه حتى غدا الآن مستسلما خائرا، وعقلها منذهل يستوعب بوعي كل ما يدور، على أنه مخدّر من الألم، ليس يفكر بأى شيء، إنه صامد فحسب كيلا تفقد هي صوابها

_ "مرتاحة، أجل مرتاحة "كرّرت ميرنا كأنها تؤكد على عظم سرورها "الآن انتقمتم منك لاغتصابك كل رجل من يدي، هل تحسّين بما كنت أحسه؟ الآن انتقمتم منك لإهانة شرف

عائلتنا، وهناك عقاب لن ينتهي بنهاية قصتك الغرامية، هناك عقاب أشد فتكا ينتظرك، ذاك الفزع والخوف والذعر الذي يرافقتك كل ثانية من حياتك، خوف من معرفه والدتنا، سيمشي معك كل خطوة إلى الأبد، وأينما تلفت سيقابلك "و ضغطت على أسنانها بشماتة و الغلّ يرتعش في عينيها الجاحظتين، أما تعابير وجهها، فهي مجعّدة تتلوى غيظا مما ضاعف حظوظ القبح في اعتلاء عرش جميع صفاتها.

_ "كما علمت أنا من مصدر خاص، وكما علم خليلك المحترم، ستعلم أنا أيضا".

_ "وستحتفلين أنت!! "علقت أثيل أليا "كما تحتفلين الآن".

_ "ستعرف ذات يوم، ولا أستطيع القول أنني سأحتفل "تهدت ميرنا أسفة، فليس بوسعها الاحتفال كما هي الآن "لأن ذلك سيحطمها، ستموت عندما تعرف، ومن الآن أحملك المسؤولية كاملة، وعندها يا أثيل لن ينالك إلا بغضي أنا و ياسي، سنطردك من حياتنا نهائيا".

_ "ستخبرينها، حتى لو كلّفك ذلك خسارتها، فقط من أجل تحطيمي وإثقالتي بعذاب الضمير، أثق الآن أن حقدك سيفلت من عقاله، ويفضح أمامها الحقيقة كاملة".

فصمتت ميرنا، لأنها ما انفكت تشكّ في مقدرتها على كتم السر، وما انفكت ترغب مهووسة في تحطيم أختها نهائيا، ما انفكت تودّ الصراخ بأعلى صوتها لتفضحها أمام الجميع، ربما ليس اليوم أو الغد، ربما إن هي لم تتزوج خلال السنة القادمة، ربما هناك ستخبر أمها، ليست متأكّدة من مقدرتها على الإفصاح كذلك، لقد انقضّت عليها فكرة مجنونة عندما اطّلت على سر أثيل، أن ترسل رسالة ورقية إلى والدتها و تفضح كل شيء دفعة واحدة، لكنها خشيت أن تموت و تبقى دون معيل، خشيت من العواقب المترتبة عن ذلك، خافت على نفسها من الشعور بالندم.

إن الحقد عدو لدود يحطم الحاقد قبل المحقود عليه، يحطمه بحيث لا يرى سواه في مدى بصره، يسرق من عقله حتى الاهتمام بنفسه، مستعد لإهلاك نفسه بيده إذا ما كان الهلاك سيضمن غريمه، أجل إنها تحقد عليها منذ أن دنّست شرف العائلة، منذ أن سرقت منها أول رجل، هل هي متأكّدة أن الحقد انطلق في ذاك الموكب، أو أنه انطلق قبل ذلك بكثير؟

_ "لن أخبرها، ليس لأجلك، فقط لأجلها لأنني أحبها، وأراعي مصالحتها، لكن يا أثيل ستعلم أوكد لك، إن حقيقتك لن تبقى مستورة إلى الأبد، تستحقين أسوأ العقوبات لما فعلته". أصرت ميرنا على ضرورة نيل العقاب، وكذلك استعرضت كرمها الفياض لعدم تبييتها نية إخبار أمها، على أثيل أن تنحني جزاءً لمعروفها

_ "ألم تستفيدي مما فعلته؟" وخطت خطوة نحوها ثم نظرت في عينيها مباشرة، نظرة

متسائلة عميقة، تحمل عدم الاكتراث، الانهيار، الألم، العذاب، الخيبة، برود الأعصاب.
_ "ألم تستفيدي من بيعي لجسدي؟ لقد عشت على ذلك إن كانت ذاكرتك قد خانتك، درست منه، أكلت و شربت "واحمرّ وجه ميرنا وتراجعت خطوة إلى الوراء مجيبة بارتباك
_ "لم أكن أعرف حينها أن ذلك هو مصدر المال، لقد قلت أنك تعملين عملا جيدا، وأن صديقاتك تكفلن بعملية أمني".

_ " لا أعتقد أنك كنت تحبيني خلال تلك الفترة أيضا، ورغم ذلك قبلت أن تأخذي نقودا مني وأن تعيشي على إحساني".
_ "غير صحيح" أنكرت ميرنا مبعدة وجهها عن نظر أثيل الممعن "كنت أحبك لأنك شقيقي، لكن عندما فضح عارك أمامي كرهتك واحتقرتك".

_ "من تخدعين يا ميرنا؟" سخرت أثيل بابتسامة تخدم الغرض "إنك لم تأبهي يوما لقضايا الشرف تلك، لو أنه يجبر رجلا ما على التزّوج بك لحطمته دون تفكير، أنت يا مدعية الشرف والمبادئ، لا تتفوهي بأي كلمة، إن الحقيقة لن تعجبك على أية حال، و لكنني المرأة التي ستنظرين من خلالها الآن، المرأة التي لن تخدعك، بينما قضيت حياتك بطولها ترين الحقائق من خلال مرآة نفسك الحقودة، المريضة بالكراهية، ليس الشرف و الفضيلة بتلك الأهمية في قاموسك، حتى أنا نفسي خدعت بورعهما، لكنها ذريعة جيدة من أجل الانتقام مني، لأنني كنت دائما فتاة جميلة محبوبة، منذ كنا أطفالا صغارا، يوما ما عندما كنت طفلة في الثامنة أو التاسعة، لاحظت كم أنني محبوبة من طرف الجميع، لأن سلوكي كان جيدا، و كنت مهذبة أجيد التعامل مع الجميع، وخاصة السيّدة سميحة، خاصة هي، فاختيارها في الزهات والهدايا والحب كان يقع دوما علي، بينما لم يقع عليك مرة، ولتنتقي من تلك الطفلة المحبوبة، سرقت أغراض صديقتك في المدرسة ودسستها بين أغراض كي أتهم بالسرقة، أتذكرين يا ميرنا؟"
راحت تدور حولها كأنها وتد خشبي مثبت، بينما ميرنا عاجزة عن التكلّم "أنت أيتها الشريفة، من فعلت ذلك، ثم أتذكرين يا ميرنا؟ عندما كنا نعود إلى البيت، كيف كنت تختلقين الأكاذيب، وتبتدعين القصص ابتداء من دفعي الكاذب لك على الطريق إلى بعثرة أشيائك، ثم إلى جرك من شعرك. حسنا، كنت تكذابين بلا حد "

_ "هيا يا أثيل، كنا أطفالا " بررت ممتعضة من نبش صندوق أفعالها الماضية الخسيسة.
_ "لم تكوني يوما طفلة يا ميرنا" قالت أثيل بمرارة" وقد اكتشف الجميع ذلك ما عداي، كنت كائنا حقودا حسودا، أنانيا، وقد كبرت معك تلك الصفات وتوسّع نفوذها كلما ازدادت أرقام عمرك، إنك تكهينني منذ الصغر، وتلوميني على تجاهل الآخرين لك، ماذا فعلت ليحباك

الأخرين؟، لا شيء، اعتقادا منك أن حبهم لن يفيد أي مصلحة لك"

- "اخرجني من غرفتي" أمرتها حانقة

- "لماذا يا ميرنا، هل أزعجتك الحقيقة؟"

- "إنك فقط تتألمين، وتبحثين عن أحد تعلقين عليه خيبتك" صاحت ميرنا ساخطة

- "أنا أتألم، إن كان في ذلك تسرية لروحك السوداء، أتمزق من الألم، لا أشعر أنني قادرة على تحمّل الحياة من دونه، كان روحي و النفس الذي أتنقّسه، كان كل شيء، كان النعيم، لقد أحبني يا ميرنا، أجل، أجل، أحبني شأنه كجميع الناس، أحبني وأحبته حبا صادقا حقيقيا، عشت شعورا رطيبا حلو، نعم أتألم، لأنه عرف عن طريقك، بينما كانت توجد طرق أخرى ليعرف بها، أتألم لأنني اكتشفت اليوم أنك تحقدين علي إلى حد الهوس، و لم تحبيني يوما" وترقرقت الدموع في عينيها "الحقد الذي حرمتك من اكتشاف الحب، الذي منعك من تبادل الحب مع الآخرين، الحب الذي لم تجربيه من قبل، لأنه لم يحبك أحد باستثناء أنا وأمّي وأبي، وربما ياسي، أحبني إلى درجة رغب فيها بالتزوّج مني، لكن ماذا عنك، من رغب يوما في ذلك؟، لا أحد" كانت ميرنا تغلي من الغيظ، وكانت عيناها ترمقان أثيل شزرا .

- "تقول معلوماتي أنهم غير مطلعين على عاري، إذا ما خطبهم؟ تتهدّل أكتافهم بمجرد رؤيتك، ما بالهم لا يحبونك، حتى أولئك الذين جمعتك بهم مغامرات صغيرة" أضافت مداهنة، بتلميح أجفل ميرنا "أجل، أعلم أنك خضت غمار مغامرة أو مغامرتين ظريفتين، و عدت خائبة، أتعرفين العلة؟ إنهم يفضحونك بسرعة، فأناانيتك وقسوتك و حبك العظيم لنفسك لا يخفي على أحد، وهذا ما يحول بينك وبين الحب، لن يحبك حتى أطفالك في المستقبل يا شقيقتي. أجل، إنني أتألم يا أختي، لقد سحقتني اليوم وإنني أهنتك، سحقتني إلى حد أنني شعرت بشعور قاتل مميت خبرته مرة واحدة، في تلك المرة و خلف غرفة مغلقة، طلب إلي رجل حقيير من تلك الزمرة أن أنقذ له رغبة وضيعة فرفضت، و عندئذ صفعني حتى سال الدم من أنفي وفي، لم تؤلني الصفعة، بل ألمني ذاك الشعور، لقد نزلت من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان، واليوم كذلك أنزلني خليل إلى تلك المرتبة، اليوم أهانني دون أن يصفعني على وجه بيده. يا ليته فعل، يا ليته لم يصفع قلبي بكلماته، إنني أتألم يا شقيقتي، أتألم، و ليس جحيمة أقلّ من الجحيم الذي صنعه لي بمجرد أن عرفت، الجحيم الذي ستصيرين دائما على إلقائي في جوفه، ماذا تعرفين عن الذي عشته أنا، إن خليل رجل وليس من غير الطبيعي أن لا يفهمني، ولكن ماذا عنك؟ أنت شقيقتي التي عايشت معها المآسي والفقر والجوع و الخوف، ماذا عنك أنت، على الأقل كان بوسعك أن تفهميني" انفجرت في البكاء "تعرضت للإهانة و المعاملة السيئة، لم أبع

جسدي فحسب، بل روحي أيضا فنيته معه، تحطمت إلى شظايا صغيرة، و من أجلكن جمعت شتات نفسي، قاومت لأجلكن، وقفت من أجلكن، ضحيت بجسدي بدلا عنكما".

_ "لا أهتم " أجابت ميرنا ببرود، و بداخلها إنما كان ينمو غلّ حديث لتذكرها بحقيقة أنها ليست محبوبه من أحد، لقد ختم الحديث عند هذه النقطة، ليس بها حاجة لإضافة شيء آخر. و أحسّت أثيل أنها مستنزفة القوى و أنها تخاطب فراغا سحيقا كما أحسّت بإعياء شديد يجتاح جسدها، فانحنى بتناقل، مثقلة الأنفاس لتلتقط حقيبتها الملقاة على الأرض ثم خرجت متهادية الخطى مخلّفة ميرنا لوحدها يتناثر من وجهها المحمّر، غضب و ازدراء.

خلف باب الغرفة المرتبة، انزلت أثيل ببطء حتى لامست الأرض، كانت تعبته من كل شيء، من العالم بأسره، كانت تشعر بالدوار و الرهبة اللذين عرفتهما عندما عادت من بيت الرجل الأول الذي هتك عفافها ذا الساقين الطويلتين و العينين الحمراوين المهيبتين، باجتياح أقوى و أفتك، وأكثر إيلا، و بدا كأن العالم موحش مخيف، و الغرفة قاتمة كجحر حيوان. و بدا كأن خطبا مهولا سحق الدنيا القديمة و حوّلها إلى قاتمة ليلية مرعبة. و أحسّت بالوحدة المضنية كأنها تزحف في أنبوب ضيق طويل خانق.

كل شيء كان كالكابوس، مشهدها الصباحي الجائش مع خليل، منظره الساخر، نظراته التي تشبه محاكمة غير عادلة، و وجهه الموبوء، المشهد الذي خُتم بعرض سفيه غير محترم، عرض يُجلمها بمظهر العاهرة المتاحة، ثم عودتها إلى البيت خائبة منهارة، مواجعتها لحقد أختها، كانت العجرفة ترفع رأسها و الحقد يدفعها إلى إهانتها، تتبجح بانهيار أخلاقها، تتبجح بخسها وحقارتها، تستنكر بإباء مزيف التهم الموجهة إليها.

_ لا تهتم_ أجل إن سهولة نطق تلك العبارة المقتضبة بديهي، طالما لم تدفع ثمننا كالذي دفعته هي، طالما لم تجردها الحياة من ملامح البراءة اللطيفة، ولم تسرق منها لمعان الصبا البديع.

ما كانت قيمة تلك التضحية؟ أن تصرخ أختها بوقاحة في وجهها قائلة أنها لا تهتم. انتهى بها المطاف تجلدها كما تجلد بقرة هرمة عديمة النفع من أجل دفعها للتحرك أسرع متجهين بها نحو المسلخ لذبحها، ااه من العبارة ووقعها، "لا تهتم" ببساطة متكبرة، لقد دفعت ثمننا غاليا لتسمع أحدهم يحطّ من قيمة تضحيتهما، ثمننا لو أنها دفعته لأجل مصلحة شخصية لما أفزعها أن تُغرس في أذنها كسكين حاد، وإن أمها قبل أن تجلدها هي أيضا و توّبخها و تضرها و تطردها من البيت ستكون يداها باردتين متهللتين في تابوت يناسب طولها الفارع ملفوفة برداء أبيض يشير إلى حالة الموت.

ودست يدها لتخرج قطعة النقود المعدنية من الجيب الصغير في الحقيبة، وعندما صارت في متناول يدها رفعتها عاليا فوق مستوى رأسها وتاملتها كقطعة أثرية نادرة، كضربة حظ لعالم الآثار، وسرعان ما هبت على عقلها الفاتر عبارته الأخيرة "ستذكرك برأيي الصريح بك، ستذكرك كيف أني أحتقرك وأشمئز منك".

لن يفيدها إلقاءها بعيدا عن بصرها، أو قذفها من النافذة، ولا التبرع بها لأحد المتسولين على الرصيف، الذين يرتفع عددهم كل سنة، ارتفاعا يقابله حيرة الناس الطيبين في منح أحد وترك آخر، ولا دسها في مكان ما، في الخزانة أو درج المكتب السفلي قليل الاستعمال، ولا تحت الأغطية الشتوية التي تحتل رف الخزانة السفلي أو بين طبقات السرير، أو صوف الوسادة، فلا اليوم ولا غدا ولا بعد عشرين سنة ستمحى من عقلها عبارته الجارحة تلك، لن تكون أقل شأنا من عبارة أختها المقتضبة "لا أهتم" ستستمران بتعذيبها والتكيل بها، إضافة إلى الفزع والخوف خشية معرفة أمها.

و بينما هي تقبض عليه كان يراودها إحساس مرعب كأنها تقبض على الجمر الأحمر، وليس يدها من تحترق، على أن قلبها كان يعاني من ذاك الشعور بقوة، وكان مفروضا عليها أن تحسّ ذاك الإحساس النهاش بعد يوم حافل بالإهانات والصددمات والعذاب.

لم تكن بحاجة إلى منحها شيء يذكرها بموقفه منها، فعيناه الباردتان نطقتا بالاشمئزاز قبل فمه، ووجهه المفجوع أذناها وسخر منها و من معاناتها، ستحتفظ بالعبارة في عقلها ما كان في العمر بقية، إلى أن تموت لن تنس كيف حطّم فؤادها و اشمأز منها.

ولو أن المنطق هزها كيما تستفيق من غفوة حبها المخلص لطرده بعيدا عن قلبها، إنها لا تملك خيارا إلا أن تحبه، وهذا ما سيتسبب في إيذائها وجلب التعاسة لها ليلا و نهارا، سترى أسوأ الكوابيس، وهي مستيقظة كما وهي نائمة، سواء شاءت أم لا، ستظل تحبه حتى مع أدائه المبتذل الأخير في الحديقة، وستفتقد كل شيء فيه.

كيف هو الآن؟ ماذا يفعل؟ أترأه كثيبا مثلها محطم الفؤاد، خائر القلب، معذب الروح؟ مبتئسا حزينا بنظرة سوداء لكل شيء كما هي حالها؟ هل توقّف العالم عن اعتناق المعنى الجميل المعتاد، هل انهار و غدا كومة من الحطام، هل يخترقه الألم كقطعنات السكين، هل يشعر أن الدنيا كئيبه كأصيل شتوي؟.

حتما لا، لن يشعر مثلها أبدا، لقد توقّف عن حبها بعد صدمته الأولى، وقبل أن يخرج من جوفها كان كارها ناقما عليها، ولن يؤذيه شيء، ربما عاد إلى الحياة الطبيعية أسرع مما تظن، بينما هي ينتظرها جحيم لا يطاق، مشوار غير محدود من الشوق والحنين واسترجاع الذكريات البيضاء والسوداء والوردية، الألم والانهيار والعزلة والوحدة، الاعتزال في غرفتها المظلمة بستائر مسدلة، ونور شمس محجوب، ستنتزع من الشمس قلبها في الزحف إلى غرفتها، أجل هذا ما ينتظرها، أما الرجال فلا يؤثر فيهم مثل هذه الحوادث الصغيرة، إنهم أصلب من الحديد، أقوى من الظروف بوجوهها جميعا، أكبر من الفراق، أقسى من الألم، يتعافون بسرعة ويعتبرون كل حادث في حياتهم سخافة أو دعاية مضحكة، باستثناء وفاة أمهاتهم، فليس من الغرابة التخمين أن موت زوجاتهم ربما لا يثبّت من همّتهم.

ااه، لقد استيقظ هذا العذاب الآن، استيقظ كالوحش الكاسر وسرعان ما سينهش لحمها وقلبها ويجعلها تذوي وتذوب وتهار وتبكي بطريقة لا شعورية، إلى أن تَلْفَها الأذرع الطيبة وترى دموعها على الأصابع الماسحة، وتنهبها أمها بأثثة أنها ستفعل أي شيء كي لا تراها تبكي، ما هذا الألم!! إنه يتجاوز حد التحمّل كأنها نار تتلظى في قلبها، إذا كان بهذا الجور بعد ساعات من الفراق!! فكيف به إذا بعد شهر أو شهرين، كيف بألم السنة والسنتين؟؟.

في كل صباح قادم من حياتها، سيتريص بها حتى يشاهد فتحة عينها السوداوين، وينتهي فراغ عقلها في اللحظات الأولى، خاليا من أي ذكرى، وما إن تزحف الصور والوقائع، عندئذ ينقض عليها ساحقا فؤادها، مسيلا عينها بدموع اللوعة، خاطفا راحة قلبها، مانحا إياه بردا قارسا كالجليد تقريبا.

ولم يكن الملجأ الذي يرّن في رأسها الآن فكرة مجنونة أو خطيرة إلا لرابطته الوطيدة بمعاناة أمها وألمها، إن هذه لا تقدر بأي وجه من الوجوه على فراق ابنتها يوما واحدا، وستغدو بانتقالها للعيش في ذلك المكان الجديد مفصولة عنها، وستتبادلان الرسائل بدل الخطاب المباشر، ولا تنعمان برؤية بعضهما البعض، وكلما حلّت على رأسها ستضمّ أشياءها وتبكي بكاءً مرا ثم تصرّ على زيارتها زيارة فورية، لتعيدها قسرا إلى البيت، وهي مجنونة من الحزن

"لن أقبل بأي عذر، هيا لا تمزحي الآن ستعودين معي" ستقول بصوتها الحازم "هيا يا أثيل، إن هذه المكان لا يناسب إلا عجائز الثمانين والمرضى والذين لا يحتاجهم أحد، أما أنا فبحاجة ماسة إليك، لا أحتاج نقودا، أحتاج رؤيتك أمامي على طاولة الوجبات، أحتاج صوتك الهادئ ينادي علي، أحتاجك لتأتي بعد أن ينام البيت وتخبريني أنك تفعلين أي شيء لأجلي، هيا يا أثيل، أحتاج أن أستقبلك عند الباب وأويّحك لتأخّرك، وأيضا إن تلك السيدة المدعوة سميحة

قد وهنت عزيمتها بعد مغادرتك المنزل، وأصبحت مثل الشيخ، حسنا أنا أستهجن تصرفاتها الطائشة، على أن اقتحامها البيت و خداعها لي لاصطحابك، الله أعلم إلى أين؟ كان أحسن من الآن، إنها لا تطرق بابنا مطلقا، وإني لا أسمعها تنادي ابنتها بالبعثتين، كما كانت تفعل، يبدو كأنها ماتت من دونك، ويبدو كذلك كأنها لا تحفل بأي شيء".

ستهجس أنيل _ "لا أستطيع يا أمي، فأنا لا يسعني مواجهتك عندما تعلمين بالخزي الذي ارتكبته، إنك حريصة على الشرف متعصبة للفضيلة، لن تصمدي إلى أن ينطلق لساني في رحلة شاقة من أجل شرح موقفي، ستموتين حتما وأعيش أنا مثقلة بعذاب الضمير إلى الأبد سيعذبني ضميري، إنك تفضلين الموت على أن تبيع ماستك الغالية جسدها من أجل إنقاذك، لن يفيدني أن أعلل فعلي بترميم صحتك المريضة، لن تفهمي أنت أيضا، كما لم يفهمي حبيبي، ولم تفهمني شقيقتي... كنت كلما أشم رائحة الخبز في الصباح و أسمع صوتك يدمدم موبّخا و صوت ماكينة الخياطة يملأ البيت يخرس ضميري، وأقنع نفسي أنني صببت تضحيتي في المجرى المناسب، وأحتضن ذنبي في كل مرة أحتضنك فيها و أنسى وجعي عندما أستنشق رائحتك. على أنك لن تفهمي، إن لك فتاتين تحتاجان وجودك و رعايتك، و أنت أيضا بحاجة إليهما، اهتني بهما كثيرا، فهما عزيزتان على قلبك كما أنا، أما السيدة سميحة. فبوسعها زيارتي هنا، سأواسيها قائلة أنني لم أحب مخلوقا كما أحببتها باستثناءك أنت، وإنها تؤلني عندما تبكي".

إنه الملجأ الوحيد الذي لن تمنع أمها ذهابها إليه، بل إنها لن تستطيع منعها، بسلطتها ونفوذ الأم القلقة، بحزمها وقلقها، حتى وإن تمسكت بأطراف ثوبها وعبثت بضميرها وتوسلتها، لن يفيدها مطلقا، لأنها ستنتقل إلى ذاك الملجأ.

وأخيرا عندما استطاعت أن تكفكف دموعها زحفت إلى سريرها وانكلمت على نفسها محاولة أن تغمض عينيها، جارة الغطاء على جسدها وسرعان ما استسلمت لنوم متقطع، لأنها كانت تعب و منهكة .

الفصل الثاني عشر

راقبت ميرنا قطعة السكر تذوب في فنجان الحليب، كأنها تراقب ظاهرة فلكية عجيبة، في الواقع كانت شاردة وهي متكئة بمرفقها على الطاولة ويدها على صدغها، مثل من تحمل الدنيا على أكتافها، كانت تنتهد كمن يُزيل همًا ثقيلا عن صدره، ولما كانت فترة بحثها عن عمل قد امتدت أطول مما أملت فإنّه من السهل الاعتقاد أنها مستاءة من الوضع، وإن له يدا قوية في الوضع الساهم الذي تحلّقت به على الطاولة رفقة والدتها وشقيقتها الصغرى ياسمين.

ولو أن هاتين الاثنتين كانتا حاضرتين في المنزل بعد ظهر الأمس، لما حدث ذلك النوع من الشجار المحتدم المزدحم بالاعترافات والاتهامات الصريحة. النقاش الذي أمضت ميرنا ليلتها مكدرًا بسببه، يكتظّها الغيظ لعدم خروجها منه منتصرة فائزة، لقد خسرت هي وفازت أختها وكان مما يغيظها غيظا مكبوتا أن تعترف بخسارتها.

على أن الاعتراف لن يكون سيّدا عليها إن ما أبقت رأسها شامخا وفمها متحركا بكلام نزق مناسب، وقلها مشحونا بالحقد الملتب، ستظلّ أثيل تلك المدنسة سيئة السمعة، العاهرة التي لوّثت شرف العائلة وكفى، وسيظلّ إيغاضها والإساءة إليهما وصنع جحيم جاهلي لها، أولوية مهمة من أولويات حياتها.

ولكن كان يعتمل في قلبها شعور غريب غامض المعالم، مثل حساء لزج متناثر على الأرض أو سحابة دخان عنيفة، كانت هناك فكرة مهمة مجهولة في الجزء الباطني من عقلها كأنها في بئر عميقة استعصى عليها إخراجها لتتبين ماهيتها، شعور صعب التفسير والتعريف، إحساس دخيل احتلّها دون أن يحمل اسما محددًا شأنه كالمشاعر المعتادة.

وكان صدى صوت ما غير واضح يعبث براحتها، غير قادرة على الوصول إلى مصدره، إنها تجهل مبعثه، وتجهل كلماته أيضا، أجل إنه مكوّن من كلمات غامضة كأنها مكتوبة من ضباب، هناك ما يصدها، هناك ما يقاومها، ولو أنها عرفت المنبع لربما استطاعت التقاط الكلمات من موطنها.

وبينما هي تمعن النظر في الحليب الأبيض، أحسّت فعليا أنها كئيبة، كئيبة كما لم تكن يوما، حتى عندما تم رفضها كزوجة، وتم انتزاع الرجال منها واحدا تلو الآخر، كئيبة أكثر من ذلك اليوم عندما خاطبتها موظفة استقبال إحدى الفنادق التي أملت أن تقبلها كموظفة جديدة، خاطبتها باستصغار وقلّة تهذيب وبلهجة فيها شيء من الازدراء، فشلت في إجبار نفسها

على أن تكون في غاية الفرح، يجدر بها أن تكون سعيدة، لقد وصلت إلى غايتها، وفرقت العاشقين المولعين ببعضها، وفوق هذا وذلك نالت مبتغاها في تحطيم كبرياء شقيقتها وتبديد أحلامها، فما بالها ليست سعيدة؟!.

وواجهت نفسها، فهرعت تنبذ أي فكرة لا تخدم غايتها الحاقدة، وأسرعت كذلك توضّح غير مقتنعة أنها مستشيطة غيظا من حوارها منزوع الأقنعة مع أثيل، هذا ما يفسّر كونها كئيبة، مغتظة من الطريقة المهينة التي أشارت إلى أنها لم تكن طفلة يوما، إلى أنها شيطان بروح سوداء، إلى تذكيرها بنزواتها الصبانية البريئة وليدة عناد طفولي ساذج، إلى ظفرها بموقع المنبوذة، وغير المرغوبة من طرف الجميع، إلى أن عديمة العقل سميحة لم تحبها كذلك، إلى أمور كثيرة لم يفترض بأثيل طرقها والتحريك فيها، أمور ليست حقيقية، بل مجرد أسلحة تقليدية للدفاع عن حطّتها.

ولم تدرك في تلك اللحظات أنها كانت تعيش صراعا جادا، و تخوض معركة ليس ضد المنطق والحقائق والنظريات السليمة فحسب، بل ضد مشاعرها السلبية أيضا، كانت تخوض معركة ضد نفسها، ولكن أتى لها أن تدرك وهي مغرورة عنيدة، ربما لن تدرك في الوقت الراهن، بيد أن الوقت المناسب سيأتي، سيأتي حتما فلا غموض يخيم إلى الأبد.

راحت أمها المتصدرة لطاولة الفطور، توظّف أسلوبا نسويا احترافيا لغرض النحيب على الجارة القديمة المتوفاة، وكان يعوز مشهدها الحزين، الدموع التي سكبتها مرة واحدة، عندما انحنت لتقبّل جبين السيّدة تودعها وداعا أخيرا والأهل من خلفها يتباكون ويلطمون ويصرخون أما ياسمين المتثائبة والتي سئمت من مراقبة شرود ميرنا الغريب، فقد ركّزت عينها على باب الحجرة المفتوح تترقّب بنفاد صبر انضمام أثيل إليهن لتقصّ عليهما أحداث الليلة الفائتة مع بنات محبوبتها التي سافرت على عجل، منبهة الفتاتين إلى ضرورة إحكام إغلاق الباب، وجلي الصحون مهذّدة إياهما بالعقاب العسير إن ما عادت ووجدت البيت في حالة صداقة وطيدة مع فوضى عارمة.

– "أين هي، لماذا لا تنزل؟" قاطعت ياسمين أمها بغير احترام، غير أن هذه وفي غمرة اجترار محاسن الأموات، لم يسترع انتباهها أن الساعة قد جاوزت السابعة والنصف، وأن فتاتها الكبرى قد تأخّرت عن عملها، ولولا أن القلق المباغت طرق عقلها، لعنّفت ياسمين لمقاطعة حديثها بهذا الأسلوب الوقح.

– "أجل أين هي؟، إنها السابعة والنصف، هل نسيت أن تضبط المنبه؟ لا أتصوّر أن السيد إبراهيم منحها إجازة".

"ربما لن يسعها الذهاب إلى العمل اليوم" تدخلت ميرنا بينما عيناها شاردتان وتكسو وجهها أمارات العبوس، و لم تع حقيقة الذي تلفظت به حتى أيقظتها نبرة والدتها المرتفعة المدعورة تقريبا

_ "لماذا لن يسعها ذلك، أهي مريضة؟".

تلعثت ميرنا، أي مأزق هذا الذي ورطت فيه نفسها !!، بماذا ستبرّر كرمها المتطرّف في الاهتمام بشؤون أختها وتقرير عدم ذهابها إلى العمل.

_ " من هذا المريض؟" كانت أثيل تقف عند الباب تزين وجهها الجميل ابتهامة مشرقة وتتضوّع منها رائحة عطر خفيف ناعم، كانت ترتدي فستانا أسود تتخلّله أزهار أرجوانية ذات أوراق خضراء متجهة إلى الأسفل و تنتعل حذاءً أسود كذلك ذا شرائط عقدتها عند كاحليها، مسدلة شعرها الأسود الناعم على كتفيها، كانت تبدو جميلة حقا كما لم يتّفق لها أن كانت، ذلك أنها وضعت طلاءً أبيض على وجهها و أحمر شفاه ناعم خفيف على شفتيها مع استعمال مسحوق زهري فاتح لإخفاء شحوب وجنتيها دون أن يكون مبتذلا، وكذلك فعلت بعينيها شيئا ما، فقد بدتا بارعتي الجمال، واسعتين جذابتين مظللّتين بألوان ترابية بنية فاتحة، و حيث أن السيّدّة سميحة غير موجودة، فهذا لا يعني أنها ستحرم من الإطراء الجزل والثناء السخي، وهاهي ثلاثة أزواج من الأعين تنعم النظر فيها مهورة، متفحصة، وفيما كانت سيدة البيت وابنتها الصغيرة تبادلا لها التبسّم، كانت ميرنا فاغرة فاها من الدهشة كسمكة خارج البحر، محتبسة الأنفاس و قد جفّ الدم من وجهها بشكل سريع، تملكّتها الحيرة و الفضول لمعرفة الذي يجري، و استطاعت أن تعترف شأنها كالموجودتين معها، أن أختها تبدو حسناء جدا، ترى ماذا يكمن خلف هذا القناع الزاهي، ماذا يكمن خلف هذه ابتهامة الوديعة؟؟.

يستحيل التكهنّ بما يدور بخلدها، أي حالة هذه التي برزت بها من الباب؟ بينما يُنتظر منها أن تمرّ بحالة مأساوية خشبية تبكي الحجر، و تدمي أكثر القلوب تحجّرا و قسوة، أهو ألم باطني تحاول أن تحسن إخفاءه؟؟ أو هو عدم اكتراث أو تعاف سريع أو أنها لم تكن تحبه قط؟ ربما تخدّرت أعصابها من الحزن، أعوذ بالله منها إنها تتجدّد كطائر الفينيق الأسطوري، تبدو تماما كمن عرض عليها حبيبها الزواج.

وبمجرد أن استوطن هذا الاحتمال عقلها عنوة حتى خسف لونها تماما، و لظيت عيناها بنار الحسد "ذاك إذا، إنه لم يصبر على فراقها، فعاد إليها عجولا يعتذر على وقاحته و إهانتته لها، إذا فلقد عاد مهزوما هزيمة نكراء بعد خوضه معركة ضارية ضد المبادئ والتقاليد والشرف، ما هذا الحظ المزهر كحظ شجرة الدر في صيد المحبين و الرجال!!، لقد عاد إليها، ااه ما أشقى

حظي، حتما هناك طرق أنجع للانتقام غير تلك، كان ينبغي أن أفكر مرتين قبل أن أقدم على إخباره فأنا لم أستفد إلا تذليل الصعوبات أمام قدميها، ليلعنه الله عديم الرجولة، ليلعنه الله".

"أثيل، ألن تذهبي إلى العمل؟، تبدين كمن ستذهب إلى نزهة، تبدين جميلة جدا يا حبيبي" سألت ياسمين المولعة بالنزهات و الفسح و التجوّل في الحدائق، و الفضول يسطع من وجهها أما ميرنا، فكادت أن تزقق مستجدية توضيحا للذي يدور أمامها، كان قلبها يلتهب بنار الغيرة. _ "أثيل، إنها السابعة و النصف، لقد تأخرت" سألت الأم شبه منزعة، فلم يُأخذ برأيها قبل الذهاب إلى النزهات، و كان جليا أنها تستعد للذهاب إلى مكان ما غير عملها المعتاد.

و بينما كانت تسحب كرسيا لتجلس، قدّمت إجابتها _ "طبعاً سأذهب" وابتسمت باستخفاف عندما خطر لها وجه السيد العجوز إذا لم تذهب إلى العمل "هل تردن أن يموت السيد إبراهيم بسكتة قلبية، وأمي أعطني بعض الزبدة، أين الحليب؟ أرجوك لا تضعي الكثير من السكر، متى عدت الليلة الفارطة؟". _ "عندما عدت كنت نائمة" أجابت الأم و هي تمرّر لها صحن الزبدة و تملأ كوبها بالحليب " دخلت غرفتك و ناديت مرارا فلم تجيبي، لم أرد إزعاجك، هل عدت فور ركوب السيدة سميحة الحافلة، أو أنك انتظرت إلى حين انطلاقها و التلويح لها بكلتا يديك؟ " ثم زمت شفرتها و مطّت لهجتها في تعبير غيور ساخر.

_ "لم أعد فوراً، انتظرت إلى حين انطلاق الحافلة، كان ينبغي أن تؤمنني على ابنتيها، ليس ابنتيها، قالت كلمتها المعهودة".

كانت مرحلة حيوية، سعيدة جدا، ولم تسمح لعينيها أن تقعا مرة على ميرنا كأنها غير موجودة، بل تتجاوزانها سريعا إلى ياسمين ثم تقفلان عائدتين إلى أمها "وتعيد على مسامعي ضرورة الإشراف الشخصي على قيامهما بالواجبات البيتية" وختمت عبارتها مطلقة ضحكة رزينة .

_ "لو تعرفين الذي حصل يا أثيل" تحمّست ياسمين ضاحكة مبعدة كوهها جانبا، لأنها ستحتاج إلى استخدام بعض الحركات و تخشى أن تكسره أثناء تأديتها.

_ "ستؤخّرين شقيقتك" قالت الأم بحزم "تروين لها الأحداث في المساء". _ "دعها تخبرني يا أمي" قالت أثيل بليوننة " فنحن لن نعمل كالمعتاد، سنجمع الكتب في علب من أجل إبعادها عن الغبار، لقد حصلنا على أسبوع إجازة، إلى أن تنتهي الإصلاحات" _ "أي إصلاحات؟" استفسرت بنبرة تنم عن استغراب

ـ "سيتم ترميم المكتبة، أخبرتك عن نيّة السيد إبراهيم في تحسين وضعها وقد تم تأجيل المسألة أكثر من مرة نظرا لظروفه، إنها تعاني من بعض التصدعات و لهذا منحنا عطلة لمدة أسبوع كامل، سأستغلها في مسألتين مهمتين "حلق حماس في عينها و ابتسمت مدهانة، ابتسامه تشي بالغموض والتشويق " ليس الآن، إلى حين انتهاء ياسمين من إطلاعنا على تفاصيل الليلة الفائتة".

ولأنها أعطتها الكلمة من جديد، وعاملتها باحترام مثل فتاة كبيرة، أحسّت ياسمين بعاطفة امتنان نحو شقيقتها الكبرى، و أنشأت تتلو على مسامعهنّ بصوت تبعّضه الضحكات العالية عن استيقاظهن فزعات نتيجة صراخ سالي المتوهّمة سماعها ضوضاء مريبة في الطابق السفلي والتي قفزت إلى جانب أختها، ثم التصقت بها "لصوص في البيت، لصوص أخشى أن يقوموا بقتلنا " وحيث أن ربحان كانت في غاية التعب، فقد دفعت أختها بكلتا يديها متهمّة إياها في عقلها "إنك مجنونة عودي إلى النوم"،،،،"ها يا ربحان احبسي أنفاسك قليلا وأنصتي جيدا، إنه يتحرك في الطابق السفلي، أخشى أنه ليس مجرد لص عادي، على الأرجح إنه شبح، قالت إحدى صديقاتي أن الأشباح يتجولون في البيت عندما يغيب الإنسان الراشد" وحدث أن فزعت ربحان بقدر يفوق فزع سالي عندما بلغها صليل الأواني المعدنية" إن ما صرخنا سيعلمون أننا هنا، وربما كان عددهم أكثر من واحد، إنهم يهجمون على البيت أنا أريد أُمي" فقالت ياسمين في نفسها: يا لهما من جبانتيين ليس من احتمال أقوى من كونها هرة جائعة، ثم رفعت صوتها بشجاعة، مزهوة بنفسها"انتظرا هنا سأنزل إلى الطابق السفلي لأتحقق بنفسي عن مصدر هذه الأصوات"..

ـ "لا لن تذهبي، لن نقبل بانفتاح هذا الباب، إن كان لصا سيستعملك كورقة ضغط علينا لنكشف مكان إخفائنا أغراضنا الثمينة".

ـ "ليس لصا" قالت ياسمين واثقة، و صدرها ينتفخ لكونها فتاة شجاعة.

و هكذا فتحت الباب مخلّفة إياهما في عناق مذعور يتصدّ العرق منهما، تبادلان مواساة المصلحة والتربيت على الأكتاف، و تبين أن اللص المتطّقل لم يكن إلا هرة متشرّدة جائعة، دخلت عن طريق النافذة المفتوحة، وعندئذ استدعتهما من الطابق السفلي "تعاليا، لا تخافا، إنها هرة فقط " وما إن أحستا بالأمان حتى طفقت كل واحدة منهما تنظر بعين الاتّهام إلى أختها وتحملها مسؤولية ترك النافذة مفتوحة، و بالكاد استطاعت فض الشجار المحتدم .

ـ "إنهما كالسيدة سميحة، تحبان الشجارات" غرقت في نوبة من الضحك ثانية وكذلك كانت أثيل تضحك، حتى أحست بألم في فكها وغصّة في حلقها"ورقة ضغط!!، إن هذا مضحك

للغاية، إن هذا أحق ما سمعت، وماذا تملكان؟؟، حقا إنهما نسخة عن أمهما "فيما كانت ميرنا تفسر وتحلل وتتلوى غيظا وجزعا، تنطوي نظراتها على الدهشة والحقد القانظ، ما المثير للضحك في رواية غبية سخيفة مثل هذه؟ إنها لا تحرض طفلا على الضحك، وعندما ارتسمت ابتسامة خفيفة على فم أمها العابس المفؤود، الفم الذي قلما يشاهد ضاحكا أو مبتسما، أدركت أن في الواقعة ما يجلب الضحك، وراحت تجبر عينها على الابتعاد عن وجه أثيل، لكنهما تعودان آليا، تعودان لتتوسّما حزنا خفيا أو جزعا، أو تنتزعا من وجهها اعترافا خرج عن السيطرة بتمزق قلبها أو تحطّم فؤادها، على أنها لم تظفر إلا بالخيبة، إنها فعلا سعيدة، منبسطة الأسارير، وقذفها بنظرة حادة كرأس الرمح لأنها كذلك، ماذا يحطّمها؟ في منى منذ أن كانت طفلة قوية متينة متماسكة شجاعة، لا يؤثر فيها انهزام أو انكسار، تجدد نفسها كأنها مخلوق أسطوري، ولو لم يكن لها جسد كجسدها، وذراعان ضعيفان كذراعها، لارتابت في طبيعتها البشرية.

إنها تسقط وتهض بسرعة حتى مع عدم وجود يد تسندها لتقف، تتحدّى بعزيمة فجأة وإرادة حديدية كل أزمة ورزية، وكذلك أرغمت نفسها على الإقرار بفسلها الذريع، أجل لقد فشلت في إذلالها، وتنكيس رأسها.

_ "تنتظرهما وظيفة جيدة هذا الأسبوع" قالت أثيل ببهجة "وكذلك أنت يا ياسمين، سأستعين بهما، وكذلك بالسيدة سميحة من أجل تجديد دهان البيت، انظري يا أمي، لقد تدهورت حالة الجدران، وغدت شاحبة مقشّرة "

تابعت بحماس "ما رأيكن في اللون الأزرق الفاتح، إني أحبه، أما إن كان هناك من يعارض ويريد أن يقترح لونا آخر ، فأنا مواطن يعرّز مبدأ الديمقراطية، سنجري انتخابات نزيهة "وضحكت

_ "إذا فالسيد المحترم قادم ليطلب يدها، لذلك تريد إبراز البيت بصورة حسنة ثلاثم طبقته الراقية "هجست ميرنا وأطلقت زفرة طويلة واضحة رؤوس أصابع يديها على صدغها، لافتة انتباه الثلاثة واسترسلت أثيل بالحماس ذاته شاغلة أمها

_ "كذلك لونا الأثاث، إنه باهت مما يوئد انطباع لدى الرائي المتفحص أنه رث قديم، ومكب النفائات أولى به من بيتنا، انظرن إنه يدعو إلى الرثاء "أظهرت تعبيراً منفرا" سنشتري طلاء غامقا، وبهذه اللمسات البسيطة، سيصبح البيت مختلفا".

_ "مرحى "صاحت ياسمين مبتهجة وصققت "أحب مثل هذه الأعمال، لطالما حلمت أن أكون دهانا، وسنحظى بمحادثات ممتعة، ومسلية، إن انضمام السيدة وابنتها مجلبة للسرور، لكن

هل ستوافق؟"

_"ستوافق" أجابت الأم بجفاء مطبقة شفيتها "ستوافق على أي شيء تطلبه منها أثيل، وإن طلبت روحها فلن تمانع."

_"حسنا إذا فأنت موافقة يا أمي؟" سألت أثيل بحرارة

_"ولكن يا حبيبتي، إنها فرصة مواتية لتنعمي ببعض الراحة، لماذا ترهقين نفسك؟ لا تحصيلين على إجازة كل يوم، سنحصل على بعض المال بطريقة ما، ونؤجّر دهانا يقوم بالمهمة."

_"ليدهن نصف البيت في السنة الأولى والنصف الآخر بعد عشر سنوات" سخرت أثيل وضحكت ياسمين وأمها، فخمول تلك الفئة مكشوف عند الجميع "لن أستطيع المجيء اليوم" قلدت أثيل أعذار الدهان "فأنا مريض، وغدا سأخذ زوجتي للطبيب، مات أحد أقربائي، ماتت زوجتي مع أنها حية ترزق تتذمّر من سلوكه في إحدى الحلقات النسوية"

_"أصبحت مثل السيدة سميحة" قالت أمها مبتسمة وضربتها ضربة خفيفة على ذراعها.

_"بل أصبحت نسخة ثانية منها، إنها العشرة الطويلة تفعل الأفاعيل" أكدت ميرنا بتهكم، رامقة أثيل بنظرها المألوفة عندما تقرّر أن تستفزّها.

_"والآن، لدي مفاجأة سارة، سأطلعكن عليها وأحتاج دعمكن" قالت أثيل بسرعة متجاهلة لسعة ميرنا التي أصابها الجنون والغمّ من الأسلوب البارد الجاف الذي تعاملها به شقيقتها.

واختنقت لأن المفاجأة السارة هي إعلان رغبة ذاك الحقير في عرض الزواج عليها، لا شك أنهما اتّفقا على كل التفاصيل بالليله الفائتة، وكذلك حدّدا يوما لزيارة السيدتين المهمتين في حياته، ليلعنه الله مليون مرة وليقطع نسله الجبان المفتقد إلى عنصر الكرامة، أما أمها، فقد مالت نحو أثيل، وكذلك اتكأت ياسمين على مرفقها لتجيد الإصغاء.

_"سأشارك في مسابقة لأحسن قصة قصيرة" أعلنت أثيل بسرور" أعلنوا عنها في الجريدة الأسبوع الفائت، في البداية لم أتحمّس كثيرا، لأن لغتي ضعيفة نوعا ما، لكنني سرعان ما غيرت رأيي، فلست أخسر شيء إن أنا شاركت، أما الجوائز، فهي قيمة جدا بالنسبة إلى الثلاثة الأوائل الفائزين، جهّزت بعد المحاولات على أنها ليست جيدة، أحتاج إلى مكان هادئ أستطيع أن أجمع فيه أفكارتي."

_"وأين ذاك المكان؟" استفسرت الأم، وقد نطقت عيناها بالقلق.

_"البحر طبعاً يا أمي، البحر، من غيره يصلح مصدرا للإلهام، خاصة بهذا الطقس البارد، ستكون الحركة قليلة، هناك سأجلس، وأكتب باطمئنان."

إذا؛ فلم تكن المفاجأة خطوبة قريبة وزيارة أهل الوقح خليل إلى بيتهم، الحمد لله: فكرت

ميرنا بانشرح داخلي، ولم يكن وجهها المسترخي بعد انكماش إلا علامة على ذلك، ولكن يبقى احتمال عودتهما الى بعضهما قائما كما تقوم أعمدة هذا البيت، فلا ينتظر أن تسعد فتاة إلى هذه الدرجة المغالية لمجرد أنها ستكتب قصة غبية على شاطئ البحر أو تجمع قطيعا من الأغبياء لدهن جدران البيت، ليتمها تستطيع استعارة عقلها لثوان، ليتبدد الغموض الثائر في عقلها هي، كم أنها منفعة تأكلها الحيرة ويربكها الستار المسدل.

_ "أثيل إنك تخافين البحر يا عزيزتي" وتذكرت مليكة مشهد ابنتها وسط الأمواج المتلاطمة، فشعرت بانقباض شديد ودهمها قلق عنيف "منذ أن أوشتك على الغرق وأنت ترفضين حتى الوقوف على مسافة أقدام منه "

_ "ذلك عندما كنت طفلة يا أمي، انتهى زمن الخوف، أنا اليوم لا أخاف من شيء "وأخيرا نظرت إلى ميرنا نظرة قويّة متحدية، تكتنفها معاني الشجاعة والصمود و اللامبالاة، ولبثنا دقيقة تحدّقان إلى بعضهما، تتحاوران صامتتين، وكل منهما تفهم صمت الأخرى، كان هناك وميض مهم في العينين السوداوين، وميض محارب شجاع، ضمّي بنفسه وبعائلته وماله لأجل وطنه، وعندما عاد مبتور الساق مغتبطا، كوفئ بتهمة الخيانة العظمى، ونظرات الاحتقار، وأصابع الابتذال وغمزات السخرية

وميض إنسان فقد القدرة والشهية في أن واحد ليشرح ويفسر، و يعلل، و يقنع، وميض إنسان لم يعد يهيمه أي شيء لأنه خسر كل شيء، وفجأة انسلت خاطرة عودته إليها خلسة من عقل ميرنا التائه، مخلفة فيه علامة استفهام ضخمة، وأحسّت أن العينين المواجهتين لها متقدتان كنار هائلة تحرقانها وتهمانها، عينان لا تشيحان ولا تستسلمان، شجاعتان شامختان، وشعرت لوهلة بالشعور الدخيل الغامض يتسلق ببطء وتريث نحو النور لتتمكّن من فهمه، شيء ما يطبخ في قلبها شيء ما بدون رائحة أو ذوق.

كانت أثيل كمن توجه الخطاب لها بشكل خاص قائلة "لست أخافك يا ميرنا، افعلي ما تشائين، اصرخي وأخبري العالم كله أنني داعرة رخيصة، وحتى أننا أخبرها فأنا لا أتأثر أبدا، ولست أبالي بهم ولست أبالي بك كذلك، لقد فقدت خليبي بالأمس وأنا مهياة لخسارة العالم بأسره، حدث أن بلغت نقطة حاسمة في حياتي وأدركت أن الخوف نصيب أولئك الذين يملكون شيء قيما ليخسروه، أما أنا، فلست أملك شيئا لأخاف من خسارته، فقد خسرت بالأمس أعظم الخسائر في حياتي".

_ "لا البحر ولا المرتفعات" أردفت أثيل واثقة "أستطيع وضع قدمي فيه دون أن أخاف منه، البشر هم المخيفون يا أمي، أما البحر، فإنه وديع مسالم لا يغرقك إلا إذا أصررت على ذلك"

- "ما هذه الفلسفة الغريبة؟" علقت الأم متضايقة مقطبة حاجبها.
فلم تجب أثيل على استفسارها بل حوّلت الحديث إلى مجرى مختلف
- "هل تحضرين لنا طبق القرنبيط في الفرن؟ لم نتذوّقه منذ ستة أشهر، أتذكرين؟ عندما
احترق الطبق".

- "لا تذكريني يا أثيل، تلازم رائحته أنفي من حينها" وجعّدت أنفها زافرة "وأففر من مظهره
حتى وهو نبيء لاقترانه بها".

- "ودعنا نحضر حساء الدجاج و طبق الفاصولياء بالثوم والتوابل، وسلطة الأرز مع الخضر
كوجبة غداء، وكذلك فطيرة التفاح عندما تأتي السيدة سميحة وابنتها لمساعدتنا في طلاء
البيت".

- "أجل من الواجب علينا تجهيز وليمة من أجل السيدة الميجلة و فتياتها" قالت ياسمين
متحفزة، تحذو حذو حماس شقيقتها "سأساعد أيضا في التحضيرات".
- "سأشتري فستانا جديدا هذا المساء" أخبرت أثيل "أريده بألوان فاتحة زاهية ليرفع
معنوياتي عندما أبدأ الكتابة".

- "إنك متحمّسة جدا، وهذا يسرني" رفرفت دموع السعادة و انطلقت عاطفة الأم الحنون
من عقالها "أتمنى لك التوفيق دائما و أنتما أيضا، أود القول أنكن عزيزات على قلبي، أنتن كل
حياتي، لا أستطيع أن أتحمّل فقدان إحداكن".

- "هيا يا أمي، إنها مناسبة سعيدة بينما أنت توشكين على البكاء" خاطبتها ياسمين بصوت
عاطفي رقيق "ستبكين أثيل، إنها الآن تكبح دموعها بشقّ النفس".
وعندما تُركت أثيل وميرنا لوحدهما، لم يعد يسع الأخيرة أن تصمد أمام الفضول الشامس،
فقالته بنبرة ساخرة، وهي تدلي الدلول لتستفزّ مياه البئر الراكدة العميقة .
- "ماذا حلّ بخليتك الغالي؟، هل استطعت نسيانه بهذه البساطة؟".

سرعان ما جاءها الجواب كأنه كان يتصدّر رأس اللسان ببرود
- "من خليل؟ إني لا أعرفه" ردّت أثيل ببرود قارس و سدّ الجواب كل طريق لطرح المزيد من
الأسئلة، لأن أثيل استقامت في وقفها، وخرجت دون أي توضيح.

بعد أن أغلقت الباب خلفها، و رفعت بصرها المثبّت على صفحة جديدة مزروعة عالقة،
لمحت أثيل جميلة: العدّوة اللدودة لسميحة تدير المفتاح في الباب ثلاث دورات لإحكام غلقه،
كان وزنها يتضاعف بشكل ملفت محولا جسمها إلى كتلة بيضوية من اللحم، أثقلت حركتها
فغدت تمثي مثل بطريق، ووجهها يشبه فطيرة منتفخة مطلية بالمساحيق المبهرجة، وخطواتها

بطينة كسلحفاة، وجسدها يتهادى عندما تنقل ثقله من قدم إلى أخرى أثناء المشي، وقفت تلوح لها بإحدى يديها، فمع أنها وسميحة تتنافران و تتشاجران، و تتبادلان المسبات و الشتائم، مع أنها كذلك لا تظهر حبا إلا للذين يخدمون مصلحتها و مصلحة زوجها، فهي لا تتورّع عن إخبار أثيل في كل مناسبة تجمعها بها أنها تحبها و تعزو هذا الحب إلى سبب مهم لا تعرفه، على أن تعبيراً من التذمّر يرافق ذلك الاعتراف، لعدم ميلها إلى حب الناس، و على وجه التحديد أحياء البغيضة سميحة.

_ "صباح الخير يا بياض الثلج" حيثما عندما أصبحت أثيل مقابلها، متفحّصة إياها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها كأنها جهاز أشعة "لو أن تلك البغيضة تسمعي ستحتجّ قائلة: إن هذا اللقب يسيء إليك، فتلك الشيطانة بياض الثلج كما يقدر عقلها البليد عاشت مع سبعة رجال، واستيقظت على قبلة رجل غريب، كيف تحتلمين أسلوبها السوقي وجهلها الشنيع، في مناسبات نادرة تمتنع إظهاره".

إن ذلك سبب مغر لإطلاق ضحكة عالية، و لذلك أعادت أثيل رأسها إلى الخلف و ضحكت، وكانت ميرنا قد صعدت بسرعة البرق إلى غرفتها كيما تسترق النظر إليها خلف الستائر المسحوبة جزئياً، على ما تضحك؟ ماذا تخبرها تلك السيدة البدينة كي تقهقه في منتصف الشارع على تلك الشاكلة؟ ثم لماذا عليها أن تقلق عليها؟ إنها ليست قلقة، هي فقط نوبة فضول لم تشيع.

"إنها سيدة طيبة" دافعت أثيل عن محبوبتها و تأبطت ذراع جميلة ثم مشتا بترث شديد "أنتما فقط لا تتناغمان، شجاركما أصبح عادة رسمية مثل الأعياد و المناسبات الوطنية".

_ "ربما تقصدين أن العلة في أنا يا أثيل" استنكرت جميلة مغضّنة جبينها، ماطة شفيتها. "لم أقصد ذلك يا سيدة جميلة" صحّحت أثيل فكرة السيدة المستاءة " أنت أيضا سيدة طيبة، وربما تحبان بعضكما و لا تعرفان، فالعداوة دائمة تُنتج الحب".

_ "أعوذ بالله " استدارت ثم بصقت على الحائط "هل إحدانا رجل لينتج عن العداوة حب و هيام، لا يا حبيبي، أفضل أن أحب كلباً، أنا أبغضها" شدّدت" وهذا شعوري من أول لقاء جمعنا، شعرت بكرهية بديهية، كأننا التقينا قبل ذلك، و كنت سأسدي لك نصيحة جيدة بخصوصها" اتخذت هيئة مناسبة لتنصحها ثم قربت شفيتها السميكتين و صدر عنها صوت انخفضت نغمته

_ "هل سألت نفسك يوماً يا أثيل عن السبب الذي يبقيك عزباء إلى الآن؟، من غيرها السيدة سميحة، أجل أجل، إنها نذير شؤم و تشوّه سمعتك بأفعالها، يدهشني أنك لم تتوصّلي لهذه النتيجة إلى الآن، فتاة بمثل جمالك و أدبك، يحبها الجميع، وأنا على رأسهم، رغم أن عدد الذين

أحيم لا يتجاوز الستة، نفسي وزوجي وأبنائي الثلاث وأنت أيضا ضمن القائمة، إن من مصلحتك الابتعاد عنها".

_ "لقد صنعت أيامي الجميلة" اعترضت أثيل بنبرة عاطفية ساذجة و شاب عينيها بريق دافئ، أحفظ جميلة قليلا" وإنني ممتنة لها، هل سبق لك و أحببت شخصا مثل أحد من أبنائك، لا، أما السيدة سميحة، فتحبني كأنني ابنتها".
_ "لست سوى ساذجة غبية يا أثيل "زأرت جميلة" لا تعرفين مصلحتك، لقد نصحتك، ورفضت نصيحتي".

_ "أشكرك عليها، هل سمعت أنني سأشارك في مسابقة أحسن قصة قصيرة "فهرت جميلة رأسها غير آبهة أن لا " أجرتها جريدة النور و تقديم المخطوط قبل منتصف الشهر القادم"

_ "إنك متحمسة من أجل أمور غير ذات بال"قالت جميلة بخيبة أمل "يا أثيل، تحمسي عندما تظفرين برجل و ليس كتابة قصة قصيرة، لم يقدم لك عملك في المكتبات إلا سلوك المثقفين المنحرف الشبيه بالبدعة، إنهم زمرة من المجانين كثيفي الشعر غربي الأطوار بينما يحسبون أنفسهم أصحاب عقول منفتحة، تخلي عن عادة قراءة الكتب واستعملي خصائصك هنا و هناك لتصطادي رجلا جيدا".

_ "هناك رجل في الحقيقة"قالت أثيل محقرة فضول السيّدة.

_ "هذا رائع، أيتها المخادعة " ظهرت نواجذها، فقد ابتسمت بحبور " لهذا تبدين بهذه السعادة والجمال، هل أخبرتك أنك تبدين جميلة اليوم!"

_ "هل يبقى سر بيننا يا سيدة جميلة؟" همست أثيل بصوت خافت

_ "أقسم أنني لن أخبر أحدا"

_ "أعتقد أنك ستكونين مدعوة قريبا لحفل زفاف".

_ "تقصدين زفافك؟ رائع، أين يقيم؟، أرجو أن لا يكون بعيدا عن هنا "

"لا يقيم هنا، على الأقل ليس من منطقتنا، أرجوك يا سيدة جميلة على الأمر أن يبقى سرا إلى أن يتقدم لطلب يدي".

_ "ألا تثقين في كلمتي يا أثيل، احذري من السيدة سميحة، إن ما أطلعته و ليس مني أنا" عبّرت متشدقة

_ "لم أخبرها إلى الآن، إنه يستعجل الزواج مني " قالت أثيل

_ "ما اسمه؟" وعندئذ تلاشى البريق المسرور من عيون أثيل، واكتسحها عذاب حالك واضطرم حزن مشفر لم يسترع انتباه جميلة لانشغال حواسها بإشباع فضولها .

_ "ليس مهما أن تعرفي اسمه يا سيدة جميلة ."

_ "و ماذا يشتغل؟" فرمقتها أثيل بنظرة تدل على ضجرها ولكنها ابتسمت "لست أسالك إلا حفاظا على مصلحتك، فبنات هذا الجيل يملن إلى الحب قبل الزواج وما شابه، وإن كان بدون عمل، فإنها ليست قضية مقلقة بالنسبة لعقولهن المهووسة بقصص الحب، تزوجي من تتوسمين فيه خصال الأب الجيد لأطفالك، من يستطيع أن يتحمل المسؤولية، أن يكون لديه عمل، تذكري ذلك، وليس مهما مصدر المال، المهم أن لا تجوعي وتعري وتبردي وتمشي حافية القدمين، المهم أن يغادر البيت من الصباح، ولا يعود إلا المساء محملا بما يفيد راحتك، وليس عاطلا يجلس معك في البيت، المال مهم يا أثيل، لا سعادة ولا توافق دون مال " كانت جميلة تدافع عن زوجها المنخرط في جميع المناسبات الانتخابية لأي نوع من المناصب.

_ "إذا فليس مهما أن يرتكب جرما ليأتيني بالمال؟" سألت أثيل و رفعت حاجبيها

_ "ليس القصد يا أثيل، ليس القصد، ألمح إلى أن الرجل بماله وليس بوسامته أو مظهره ."

الفصل الثالث عشر

وضعت أثيل حجرا ذا وزن معتبر بحجم اليد على رزمة من الأوراق المدوّن عليها محاولات لإنشاء قصة قصيرة لا تزيد أسطرها عن سبع تحاشيا لبعثرتها بفعل الرياح المتناوحة، كانت عبارة عن مسودات مخففة، غير موقّعة، محكوم عليها بالفشل تحتاج إلى تمزيق أكثر من حاجتها إلى تصحيح و مراجعة وتحسين وتشجيع، وكانت سميحة قد صرّحت متشائمة أنها تتمنى لو تعطيها العلامة الكاملة لو أنها استوعبت من المعارض عليها ما يجعلها تلعن أساتذة اللغة؛ لأنهم كانوا دوما يوهنون عزيمةا بعلامات ضعيفة.

ولم تكن غاية أثيل في الواقع استجداءً للعلامات الممتازة، أو أخذًا بالأراء أو تقييما للعمل؛ فهي لا تجهل أن سميحة غير مخولة لمثل هذه المهمة الصعبة على نفسها، ورغم أن هذه الأخيرة استمرت في التبجح لسنوات بقدراتها العلمية والأدبية، فقد توضّح على لسان إحسان صديقتها أنها كانت تتكىء على جدار الغشّ و التحايل كيما تكسب معركتها ضد الطرد من صفوف الثانوية. وإن ما أخذت بعين الاعتبار عملياتها الحسابية الخائبة و ثقافتها الضئيلة ولغتها الركيكة؛ فلن يسحب منها المرء إلا الغرور و الادّعاء المتبجح، بيد أنها كانت صريحة عندما نصحتها باستشارة فارسها المغوار خليل؛ فهو حتما سيقوم عملها بتدقيق ناضج ونصيحة قائمة على الثراء الفكري السليم .

ولكن القضية بمجملها تميّزت بطابع معين، كترسيخ فكرة بعينها في عقول أفراد العائلة والجيران وأصدقاء العمل وعجائز الرفقة، لقد كان لها هدف حصيد أحاطته بحذقها ودججته بتخطيطها البارع وحقنته بألم قلبها الكئيب الكسير جدا، الألم الذي أدركت مزوّدة بالمعطيات المحيطة أنه لن يتوارى إلا خلف ساعات النوم القليلة.

إذ و بعد تلك الأمسية التي قضتها نائمة استيقظت في ساعة متأخرة من الليل، يرافق كل خفقة قلب ألم مدمر، و أسى موجه و تنبعث كل دمعة من مكان سحيق من قلبها المعذب، وكانت في الحقيقة مستيقظة عندما فتحت أمها باب غرفتها لتتفقّدها، غير أنها تظاهرت بالنوم العميق كيما تنصرف سريعا وتتركها لوحدها.

وهكذا طفقت تحضر نفسها تحضيرا لا يتسلل إلى ذهن مخلوق يعرفها أو لا يعرفها، أنه محض تمثيل أريب متناهي الجودة، فائق الإتقان، كامل الأركان، مكوّن من عناصر رئيسية لا تتقبل الخطأ و لا تتحمّل هفوة صغيرة، و إلا فإن العواقب لن تكون مدمرة لأمها فحسب؛ بل

لكل محبها العزيرة على قلوبهم.

و ارتكزت تلك الخطة بالدرجة الأولى على تجاهل تلميحات أختها الوقحة المستفزة؛ بل تجاهلها هي كليا من أعلى نقطة فيها إلى أسفلها، من ظاهرها النكد إلى باطنها الحاقد، من قلبها الممتلئ بالكراهية إلى عينها المتلظتين غلا، من فمها الناطق تجريحا وإهانة إلى حنجرتها المنقبضة، إلى عقلها موطن الدسائس والخداع ومصنع المكائد والمؤامرات.

ثم التظاهر أمام الجميع بمن فيهم ميرنا أنها فتاة سعيدة، أجل سعيدة، وفرحة فرحا مزخرفا بالطموح والتحليق، واثقة بمهاراتها المكتسبة وتجارها الفعالة في ترويض الآلام والأحزان العنيدة، لقد قطعت أول الأشواط المستعصية، ذاك الصباح عندما استيقظت ونظرت إلى المرأة مليا فلم تر إلا فتاة شاحبة منتفخة العينين تحتها هالة حمراء بلون الدم دلالة على تورّم عينها من شدة البكاء، واهنة العزيمة، متهدلة الكتفين، كانت هذه الأمارات جلية على جسدها، فحتى عودة الأم من عزاء حزين لن يفلتها من الاستجواب، ولم تكن ميرنا تستطيع التحكّم في طباعها القاسية هذه الأيام، ولأنها تجرأت على العبث بأغراض ليست خاصتها والتنصّت خلف الأبواب، وإرسال رسالة محرّضة مسمومة إلى رجل تدعي أنه لا يعجبها، فلن يضيرها أن تزيد وزرا آخر على حملها الثقيل من الأوزار.

وهكذا استعانت بالمساحيق، والطلاء الأبيض، وأحمر الشفاه الناعم؛ لتطمّر مظاهر الجنائز والثكل في وجهها، وشكرت مخلصه مبتكرها، كم أنها مفيدة في تغطية الأزمت النفسية والانكسار الروحي، أما ارتداء فستان أسود أنيق، فإنه الللمسة الأخيرة الملحة لإظهار السيدات الكئيبيات بالصورة القوية المتماسكة، كان هذا موضع تبني من النساء اللاتي تعرضن للخيانة الزوجية ففي الوقت الذي توجي فيه ثيابهن بعدم الاكتراث، تجرّ قلوبهن الوجد البئيس فقط من أجل أن يثبتن نظريا أنهن غير عاجزات، وأنها قد دفنت رجلها مع آخر دمعة تدحرجت على وجنتها، وبالنسبة لأثيل؛ فليس لها من فائدة في توثيق أي نظرية لرجل، كل ما في الأمر أنها تحتاج بإلحاح محموم لتوثيقه في عقول مجموعة من الأعداء والأصدقاء.

ولم تدر أمها وشقيقاتها أنها تمرّنت على الأداء، كأنها ممثل مبتدئ يقف على خشبة المسرح لأول مرة، وأنه كان يرتجف خلف الستارة خوفا من انكشاف ضعفه، وأن التوتر الذي طاف بركبتيه والارتجاف الذي نال منهما كاد ينسيه الألفاظ التي سهر يحفظها عن ظهر قلب.

وأنها شجّعت نفسها بقدر ما تقتضيه الدواعي المستقبلية، فليس لها وهي الممثل الرئيسي في المسرحية أن تصمت فحسب، لا، فذلك لن يرفع الكفة، إن من واجبها مشاركتهم الأحاديث وتوجيهها مثل القوس من نقطة إلى أخرى، وتقهقه حتى تظهر نواجذها وتبتسم أليا حتى مع

خلو الساحة من دوافع ومباعث، وتحرص على نشر مشاريعها المستقبلية بحماس يافع وحرارة عزيمة، مشددة التعليمات إلى نفسها أن تتجنب البكاء فإن ما هي بكت لمرة واحدة لن تفي دموعها قبل انقضاء اليوم.

وساعدتها ياسمين جاهلة بحجم صنيعها، عندما شرعت تقص حكاية ليلة ساهرة مع اللصوص والجبن والهرر الجائعة والفتاتين المدعورتين، ولو أنها استطاعت لما ضحكت؛ بل إن البكاء كان أكثر من مطلب ضروري، لو استطاعت لما تحلقت معهن على طاولة الإفطار، لو استطاعت لما تحمّلت أن تنظر إلى العينين السوداوين النديةتين بدموع الفخر والقلق والحزن الظاهر لموت جارة قديمة راحلة عن دنيهاها، بل وللأمانة وفي اللحظة التي لاحت فيها العبرات المتأثرة شعرت أنها لا تتحمل بقاءً، ولولا أن أمها أسرع فاجتمها قبل نزولها لما وسعها أن تضبط نفسها، كانت كمن يجلس على الجمر، كمن يرتدي حذاءً ضيقاً ينتظر بفارغ الصبر انتزاعه لترتاح قدماه، واتفق أن انتعلت أثيل واحداً في طفولتها، وارتأت أن تنزعه وتمشي حافية ومنعها منظر قدميها المتورمتين فأعادته إليهما بسرعة، خوفاً من رواية بترهما وبقائها من دونهما التي ألفتها أمها، ما أصعب أن تنتعل حذاءً ضيقاً !! والأصعب منه عدم انتعاله البتة.

ومن ناحية ميرنا فتفادها لم يكن بالجلل العسير، لقد جعلتها تعاني وأذت شعورها ولم تخرج من غرفتها قاتمة المعالم المفعمة بالسوء الراضحة تحت رحمة صاحبها عديمة القلب، لم تخرج ذاك المساء وإلا قد خرج من قلبها كل ذرة حب لها، لقد مات الإيمان القوي بالأخوة والروابط العائلية المتينة وانخرطت الأواصر في منظمة مفككة، منتهية الصلاحية، إغلاقها قضية وقت وتوقيت.

لم تكن الكراهية بالشعور المتوقع من قلب رحيم كقلب أثيل، قادر على الحب والتسامح والغفران، قلب مفعم بالحنان والعاطفة، قلب سريع التأثر، بيد أن عدم التقدير والجفاء العاطفي والتجاهل يعتبر أسوأ من الحقد والاحتقار والكراهية بالنسبة إليها، في الوقت الذي عجزت ميرنا طيلة ذلك الأسبوع عن تفسير الشعور النامي في الاتجاه المعاكس لطبيعتها الضالة في أغوار الحقد والمشاعر السلبية.

ولم يكن مرد مراقبتها الدقيقة لأثيل وفاءً صادقاً لطبيعة قديمة أو نزعة خبيثة كما دنت الفكرة لرأسها، ورغم أنها حاولت أن تزعجها وتكدر صفوها بتدبير من عقلها، إلا أنها لم تزد على اعتزالها كارهة لخطط العهد المنصرم بأمر حازم من قوة متمكنة.

_ "ليست إلا هدنة" أسرت في نفسها، عندما ترتفع معنوياتها قليلاً ستنقض عليها كما ينقض

صقر على صوص منسل من قن، و حيث أن ما يحرضها ليس شيطانا من نوع عادي، فقد تجرأت على قلب المواجه مرتين أو ثلاث بالإضافة إلى تلميحها الخسيس الدائم عن فتيات خليعات أنتجن بفجور زرافات من أطفال السفاح بمصير مجهول، وهكذا تبعّضت موثيق الهدنة لعدم مقدرتها على رؤيتها مبتهجة وسط جمع من الدهانين المخفقين المقهقين على قصص الأيام الخوالي، وبقيت مكتوفة الأيدي في وجه هذا البرود المستحدث و الفتور المستفز، ليبتها تبدي ردة فعل، لماذا ليست تخاف وينكفىء لونها كسابق عهدها؟.

أحيانا كان الشعور المتسلق يومض خاطفا جليا، و قبل تمكثها من استجلاء المعرفة كان يختفي، ولولا أنها تعرف نفسها معرفة جيدة، لاعتقدت أنه قلق على شقيقتها، و تألم لألمها ولكن ميرنا هي ميرنا، الأخت الأنايية التي لا تهتم.

لا تعتبر ميرنا مصيبة إلا في قضية واحدة إذ أن الجواب الصامت الذي كان يترأى لعقلها ينبعث من عقل أثيل لم يكن وهما أو خطأ، كانت مصيبة عندما تخيلت أختها تخاطبها قائلة "لقد خسرت كل شيء، وليس لدي ما أخاف خسارته الآن".

وكانت مخطئة أيضا عندما فكرت أن أختها كائن سعيد الحظ، سعيد الروح، لأنها في الحقيقة لم يكن أتعس منها في العالم بأسره إلا من هم بمثل أزمتهما العاطفية، أولئك الذي سبقوها بالاستسلام للكآبة أسرع مما كان ينتظر منهم أن يفعلوا.

وعندما أنهت أثيل فصل مخططها الأول ظافرة بالإطراء الذاتي على الأداء المحمود والموهبة المصقولة، و بينما كانت قدمها تطأ أرض الشارع لمحت جميلة تقفل الباب، فاستوعبت أن فرصة ذهبية أتت عند قدمها، سيدة ثرثرة تمسك السر في جعبتها أسبوعا على الأكثر، قبل أن تنفجر مفضية إياه في عاصفة من الأحاديث النسوية المثيرة، سيدة يميل هواها إلى تقديم أخبار دسمة "هل علمتم أنها ستتزوج شابا محترما"، "ها حقا، من يكون؟".."للأمانة لست أعرف قابلتها ذاك الصباح واعترفت لي قبل الجميع حتى قبل من يدعون صداقتها..." "لا ليست تواعده، ما هذا الكلام أعوذ بالله، إنها فتاة محترمة، استنتجت عن طريق استدراجها أنه شاب مناسب من منطقة أخرى، و كذلك فهمت أنه جنّ على الزواج منها بعد أن زار المكتبة ليشتري كتابا، و ما إن رآها حتى خطفت لبه، وجعلته كالمخبول، و بدا كأنه أعجبها كذلك، فلقد بدت في غاية السعادة والحيوية، للصرحة لم يسبق لي أن رأيتهما على تلك الصورة المسرورة من قبل، وقالت إنها ستشارك في مسابقة سخيفة لا أعرف ما ذاك، قصة قصيرة، لست أتذكر،"

"لقد بدت سعيدة" أجل ذلك ما سعت أثيل لترسيخه في كل الأذهان، وعلى وجه التحديد أولئك الذي يملكون أفواها تتحرّك و تتكلم بإسهاب ودون فواصل، و تذكر و تخترع و تبالغ، لقد

بدت سعيدة جدا مع أن الله وحده يعلم أنها كانت تحمل قلبها في يدها و تشاهده وهو ينزف مثل الجريح.

"تبدين سعيدة" كذلك قال إبراهيم متجهما حازما ، وهو يعد بخصم الأسبوع من الراتب، أو إضافة ساعات عمل كتعويض منصف عن الخسارة التي تعرّض لها، وبينما وقفت الفتاتان على مسافة مناسبة تكتمان ضحكتهما لهذا الطبع الكزّ، ضحكت أثيل بصوت واضح، إنها سعيدة حقا، فليس من احتمال أقل من هذا، فالضحك دلالة حاسمة على سعادة الإنسان، هل كانت تدعو في الصلاة من أجل أن يتصدّع الحائط ويتشقق السقف؟ سألهما إبراهيم مرتابا، فأجابت: لا، فهي تحب عملها.

_ "وتحبين أكثر مرافقة السيدة سميحة" علّق جانبه القاسي الجارح " سامحها الله، و التغيب عن العمل، وتأخرت مرات "

_ "إنك رجل طيب يا سيد إبراهيم "

_ "و المناسبة؟" أجاب بغير اهتمام

_ "أشعر برغبة في مصارحة كل إنسان بالصفة المميزة فيه ."

_ "ربما لن يشاركك البعض رأيك، أنا رجل مستقيم عملي ،أفضل فصل العواطف عن العمل

."

وشعرت أثيل، و هي تودّعه لأجل الإجازة، أنها ترغب بإخباره المزيد، إنها مثلا تمنحه منزلة الأب، وأنها لم تزعج يوما من أسلوبه الصارم و تحوله المفاجيء و صراخه في وجهها عندما أسقطت الكتب و تأخرت ، و أنها تتمنى لو بوسعها طبع قبلة على جبينه الوضيء. لا ،ستشرع بالبكاء بينما لا ينبغي للسعداء أن يبكوا، ينبغي فقط أن تزرع في رأسه بذور سعادتها وابتسامتها العريضة و هي تخترق عتبة الباب رفقة رفيقتها.

وابتسمت لكل إنسان: بركة، حميد، بائع الثياب وتأمّلت الجدران والوجوه بأصنافها وأشكالها وأحوالها، وقبل أن تنفصل عن الفتاتين أخبرتتهما عن مشروعها الصغير في كتابة قصة قصيرة ناجحة، متذمّرة من انفلات الأفكار وضياعها قبل تثبيتها على الورقة، ولم تكونا لتشجعها لولا أنهما تتمنيان أن تحظيا بمثل هذه الغنيمة

_ "ربما ستصبحين مشهورة، وتتخلّصين من لعنة السيد إبراهيم" وانخرطت الثلاثة في

الضحك

_ "إنه رجل حريص على ممتلكاته فقط" أجابت أثيل الجواب المعتاد

_ "حريص !إنه لثيم، ليتنا نراه كما ترينه أنت يا أثيل، إذا ما وجدت عملا آخر يعطيني ربع

الراتب سأتركه وحرصه للشياطين" وارتفعت القهقهات الصادرة عن ثلاث أفواه ثم افترقتا عنها معتقدات أن أثيل سعيدة مثلهما أو يزيد.

و في صباح يوم الإثنين عادت سميحة قبل صباح الديك حتى، بأمل خائب وأسف مسطور على وجهها تندد ببواعث السيدة الخرفة لاستدعائها بينما هي امرأة مشغولة، ذات برنامج مزدحم

_ "اشتاقت إلي" تدمرت وهي تزرع أرض الغرفة وتطوح بيديها في الهواء "ولم تمت في الأخير، على الأقل كنت سأضرب عصفورين بحجر، ولا أضطرّ للسفر مرة ثانية لحضور جنازتها" ثم انتحبت "أهذا سبب أستدعي لأجله يا أثيل؟ وبينما كنت هناك أتميز غيظا كادت بغلتاي تحرقان المنزل، أجل ألم تعرفي لقد تركتا الغاز مفتوح، ولولا أن أعمال الخيرية شفعت لي وسبقت القدر، لكان بيتا بنصف جدار أسودا كالفحم، و كانتا انتقلتا إلى دنيا الحق وارتحت منهما".

_ "سيدة سميحة" قاطعتها أثيل بهدوء الحمام "تعالى اجلسي، لدي خبر لأنبئك به"

_ "تبدين في غاية السرور، هل من أخبار سعيدة" سألت سميحة متحمسة

_ "أجل" وقبضت أثيل على يديها

_ "هل تساعديني في طلاء المنزل رفقة ابنتيك" فأفلتت سميحة يديها متجهمّة

_ "أهذا هو الخبر السعيد؟"

_ "لا، ليس هذا" و لمعت عيناها و ابتسمت ثم أطرقت بطرفها خجلة "إن خليل يريد زواجا

سريعا، وبسيطا عائليا، مما يعني أن علينا التعجّل، ليس بوسعي توظيف دهان "

وتلاشت سمة الغضب من وجه سميحة وسرعان ما عانقتها .

_ "إذا، فالسيد خليل عرض الزواج أخيرا، يا له من خبر مفرح! متى حددتما موعد الزيارة

الأولى "

_ "على الأرجح ستكون منتصف الشهر القادم والزواج بعده بأسبوعين"

_ "ها إنه موعد قريب" انفعلت سميحة بفعل ضيق الوقت "هل اشتريت فستانا مناسبا؟

ماذا عن التجهيزات الأخرى، ما،،"

_ "ستساعديني، أليس كذلك؟ لم أخبر أمي بعد، و لست متأكّدة أن فكرة إخبارها الآن

سديدة، أخطط لإعلامها أسبوعا قبل الموعد و أخطط لتترك المهمة لك، سأقول أنه رأني للمرة

الأولى رفقتك في تغطية إعلامية للجمعيات الخيرية، تعرفين طبع أمي"

"أعرفه" أجابت بنزق "لو تعلم أنك تحبينه لطبقت عليك قوانين الجاهلية التي تنصّ على

عدم الزواج عن حب".

و عندما قلبت المسألة على جميع وجوهها، تحوّل حماسها إلى دموع جارية
 _ " سيدة سميحة، لماذا تبكين؟ " اضطربت أثيل و اشتعل عقلها حيرة .
 _ "إنني سعيدة لأجلك، كنت أتمنى أن أرى هذا اليوم، ولكنني سأجبر على فراقك يا أثيل،
 الأمر الذي سيؤلمني "
 _ "لن نفترق مطلقا، بوسعك زيارتي متى شئت "
 _ "لكنه لن يسمح لك بالتسكّع معي كما كنا نفعل."
 _ "إذا فأنت تقرّين أن ما كنا نفعله مجرد تسكّع " و ابتسمت مازحة محاول التهذئة من روع
 سميحة التي ضحكت من خلال دموعها
 _ "أتذكرين" قالت سميحة بلهجة عاطفية متأثرة "عندما كنت طفلة، عندما رأيتك أول مرة
 تحيطين بنفسك بتلك الدمى، هناك استوليت على قلبي يا أثيل "
 _ "و أتى لي أن أنسى؟ "اغرورقت عيناها بالدموع " ستسببين بكائي يا سيدة سميحة، إن
 خليل يحبك كثيرا، و سوف يسمح لنا بالتسكّع إن كان ذاك ما يبكيك "
 _ "لن أراك كل يوم ."
 _ "لكننا سنبادل الرسائل، و ربما نستطيع الحديث عن طريق الهاتف العمومي إن لم تكسر
 الفاتورة ظهرك "
 _ "سأستغني عن المشاريع لأجل أن أكلمك " صرّحت سميحة بإباء "و لكن دعينا لا نبكي الآن،
 اعتمدي علي وعلى ابنتي في طلاء البيت، سأكسر ظهرهما إن أبديتا أدنى شعور بالتذمر "
 _ "سيدة سميحة، هل أسالك معروفا آخر؟ "
 _ " أي شيء "
 _ "هل تعتنين بالسيدات العجائز بدلا عني، لقد زرت السيدة راضية وصفية بالأمس على
 أنني لم أطلعهما عن نبأ زواجي القريب، فذلك سيؤلمهما كما تعرفين، أرجوك " رجتها عندما
 أبدت بعض النفور و الخمول .
 _ "السيدة صفية تبحث فقط عن مصغ لأحاديثها حول زوجها، ساعة في الأسبوع، والسيدة
 راضية تخلى عنها أشقاؤها، و زياراتهم تكاد تكون منعدمة "
 قبل أن تتم إعلان القائمة، مطّت سميحة شفيتها في استنكار واضح
 _ "أعرفهن جميعا، صفية ذات العيون الشبيهة بعيون البقر، و راضية التي تحدّثك عن أقدم
 أسلافها كأنها عاشت معهم و أمنية التي لا أعرف مناسبة تسميتها بهذا الاسم، تنام و تشخر
 بينما تحدّثك، و أسماء تشعرك أنه غير مرغوب فيك، و جلييلة تسألك قهوة أو شاي و تنتظر أن

ترفضي كلمهما كأنك ترفضين شتيمة؛ لأنها مقتررة، ااه يا أثيل، على الأقل كنت اخترت لنا جماعة جيدة، لا تحزني، سأهتم بهم".

_"حقاً؟"

_"وهل لدي خيار، ضعي لي جدولاً للزيارات و الرغبات كي أتقيد به، سأعلقه على جدار المطبخ".

_"إنك رائعة يا سيدة سميحة".

_"والآن هلمي أخبريني عن كل التفاصيل، كيف حدث أن عرض عليك الزواج، هل عرض برسالة أو في آخر لقاء لكما بالحديقة؟"

التهمت أثيل طبق القرنبيط بشهية مزيفة، وبنفس الشهية التهمت أفخاذ الدجاج مع الأرز وأحسنت الأم تحضير بعض أنواع الكعك لإرضاء نهم ابنتها المفاجئ و أثني الجميع على مهارتها عندما شاركتهم سميحة و بناتها وجبة الغداء و العشاء بعد أن سلخن يومهن في دهن جدران البيت بلون أزرق فاتح سار للعيون، و كانت ياسمين أكثر أهل البيت حماساً و ابتهاجاً لهذا التحديث البيتي الطارئ، و كانت أثيل تتردد على غرفتها في أوقات الغسق، تغنيان أغاني الطفولة الأثيرة، و كان يقطع صوتهما ضحكات ساخرة إثر نشاز اللحن و اخشيشان الأصوات، وفضلاً عن ذلك كانتا تفقدان الكلمات؛ فتتريثان قبل استئناف الغناء. و كانت ميرنا تنصت من خلال باب غرفتها المفتوح إلى قهقهات ياسمين السعيدة بهذه الأغنيات السخيفة والأفكار الصببانية برفقة أثيل، بينما معها فإلنسخة مختلفة، إنها تتصلب مثل صنم أبكم لا تفتح فمها إلا لتنتقدها أو تضايقها، ولا تذكر ميرنا وهي تبعث ذكرياتهما سويًا في عقلها، أنهما تعاطتا حديثاً تزيد دقائقه عن الخمس، و كانت عبارة عن وقت جاف بارد المشاعر، و كان النفور السمة الواضحة الجلدية، إنها للصراحة لم تفعل أي شيء لتكسب ودها، و كانت تعتبر ذلك أمراً ثانوياً لا يخدمها، شأنها مع الآخرين.

وعندما يجفّ حلقهما يلي ذلك سأم و ضجر من الغناء تلجأن إلى المحادثات العشوائية التي لا تنقطع إلا لنداء من الطابق السفلي من أجل الاجتماع على طاولة العشاء

_"حسناً يا ياسي الحلوة، ستكونين محامية في ظرف أربع سنوات، ما الذي حفرك لتغيير رأيك حيث كان حلمك أن تصبحي معلمة؟"

_"إن مهنة المحاماة أفضل؛ فهي ستفتح لي المجال للدفاع عن حقوق المظلومين، و إلحاق الهزيمة بالظالمين، ألا يروق لك خيارى يا أثيل؟"

_"لا يهم، فكلتا المهنتين نبيلتان، لا يهم أن تكوني معلمة أو طبيبة أو محامية، المهم أن تكوني

قوية، أن تثقي بما تفعلينه، أن يكون لك عمل يؤمن لك قوت يومك، ولا تسوقك الحاجة إلى مد يدك إلى أحد ."

_ "كنت أتمنى لو أنني جميلة مثلك يا أثيل" وأحنت رأسها في حركة آسفة.

_ "لست بحاجة إليه، إنه لعنة" أجابت أثيل بلوعة.

_ "ليس صحيحا، فلديك الكثير من المعجبين، و بوسعك صيد أي رجل يعجبك" و ترددت

قبل أن تنطق الكلمة الأخيرة.

_ "ولم أظفر بأي واحد منهم" نطقت متنهدة وتشكلت غيمة من الحزن في كلتا عينيها و ما

إن انتهت إلى وجه ياسمين المشكك المحلل لسحتها حتى ضحكت

_ "لم أتزوج إلى الآن، كما ترين فكلهم مجانين بلا عقل، عديمو الفائدة" ثم أردفت بحرارة

"المهم يا عزيزتي أن تملكي حظا جميلا، لا وجهها جميلا، فكثير من الجميلات لم يظفرن بزواج

موفق، تسمعين عنهن بالطبع، كوني قوية فقط، لا تسمعي لأحد أن يجرح شعورك، لا تتنازلي،

وأحبي، فالحب شعور جميل يلون الحياة بأزهى الألوان، ويشيد حياتك حتى لو كانت دمارا، إن

الحب إحساس مدهش رغم أن أسبابه مجهولة ورغم افتقارنا إلى قيادته و التحكم فيه"

وأبعدت عينيها عن وجهها وركزت بنقطة ما في الوسادة "إنه ينسج نفسه دون أن ينتبه أحد منا

لما يحدث، يكون نفسه من قشرة رقيقة ضعيفة ثم يصبح أصلب فأصلب، إلى أن يتحوّل إلى

كتلة متماسكة، لم يكن الحب شعورا يبدأ وينتهي عندما نرغب في ذلك، لم يكن زرا نضغط

عليه فنختار قانعين لحظة البداية والنهاية، كان الحب على مر الأزمان يختار لنا أشخاصا غير

متوافقين معنا فكريا أو جسديا، مختلفين عنا في الشكل واللون والثقافة والمستوى الاجتماعي

والسلوك الشخصي، أشخاصا قد تتنافر ميولاتنا و صفاتهم، يختار لنا الحب ما يريد ولو كنا لا

نريد ، أن تحببه يعني أن تتمني له الأحسن حتى بعيدا عنك، أن تحببه يعني أن لا تؤذيه" وكانت

شاردة تخرج الكلمات أليا من مكان سحيق من عقلها، إلى درجة أنها خرجت عن نطاق الموضوع.

_ "هل أحببت من قبل يا أثيل؟" سألت ياسمين باهتمام، فأجابت عن السؤال بنظرة طويلة

حزينة ولكن لسانها نفى قاتلا

_ "لا، لو أنني أحببت لكنت تزوجت" ثم ابتسمت محركة رأسها حركة مضحكة "لكنني أجيد

تقديم النصائح، لأنني أحسن أن أختي معجبة برجل ما" فاحمرت وجنتا ياسمين وتلعثمت نبرتها

_ "لا، ليس كما تظنين،،،"

_ "هوني عليك، ارتاحي، ليس هديني أن تبوح لي" كان صوتها مطمئنا ولهجتها رقيقة

_ "في الواقع يوجد" تشجعت ياسمين الكتومة، التي لم يسبق أن باحت بعاطفتها لأحد،

واحتملها إحساس عنيف بضرورة البوح، بقصد الظفر بنصيحة

ـ "بمقدورك أن تتفهمني يا أثيل، كنت محرجة منك وخشيت أن تضحكي علي "

ـ "كيف خطر لك ذلك؟" ربتت على وجنتها "لماذا عساني أضحك عليك، لم تعودى طفلة يا

ياسي، لقد كبرت الآن ."

ـ "اه يا أثيل، إنه لا يبالي بي مطلقا، أحبه منذ ثلاث سنوات، للصرحة يميل إلى الفتيات

الأنبيقات و الجميلات، كما أن وضعه الاجتماعي يبدو ممتازا "

و اضطرم ألم متفوق في قلب أثيل، ولعبت العبارة "أحبه منذ سنوات، أحبه منذ سنوات

"على أعصابها غير أنها كتمت شهقتها

ـ "لديك أهم من الجمال، و الطبقة الاجتماعية، تلك الأمور تبدو تافهة مقارنة بأمر أخرى

أشد ضرورة "

ـ "ماذا لدي؟" استفسرت حائرة

ـ "اعتزازك بنفسك، الثقة، وأمر آخر ليس من المستحسن ذكره الآن، افعلي شيئا ما للفت

انتباهه، ولكن لا تصرّحي أنك تحبينه، وإياك أن يرتاب أنك تجرين خلفه، لأنه لن يقبل بك،

تقول السيدة سميحة أن الرجال لا يحبون الفتاة التي تجري خلفهم، لا تعترفي له قبل أن يعترف

لك "

ـ " أثيل، هل من اقتراحات جيدة، من السيدة سميحة، فهي قلما تقترح شيئا معقولا، هل

شجعتك على أمر من قبل وثبتت فعاليتها؟"

لقد دفعتها إلى أمر، وثبت أنه خاطئ، فسميحة مفيدة، تمنح نصائح جيدة للمحيطين

ومتعاطي الكحول، ولكن في مشاريع الحب، نصائحها لا تجلب إلا الخيبة.

وما إن تختلي أثيل بنفسها عندما يخلد أهل البيت الى النوم، حتى تكف عن التظاهر وإرغام

نفسها على أن تكون إنسانا مختلف غير حقيقتها الكئيبة المعذبة، منتزعة الحذاء الضيق

الخانق، وعندئذ تتجمد تعابير وجهها وتبخر الابتسامة الوردية من على شفرتها مخلفة فما

أحمرا مفوودا، ثم تهمر الدموع من عينيها بمقاومة ضئيلة ميللة الوسادة، ثابتة إلى حالتها

الممزقة، مسمرة عينيها على نقطة ما في الغرفة، وكانت تتفقد حاسوبها من حين لآخر عليها

تستقبل معجزة أبدة، كرسالة مطمئنة تنطوي على الود القديم، وسرعان ما تتحقق أن

المعجزات ليست من حظها.

لقد كان الثمن الذي أجبرها على دفعه مرًا لا يوصف، أعلى بكثير من ذلك الذي توعدّها به،

لقد توهمت أنه سيقوم بتهديدها، بتدميرها، بإزعاجها، وإن هو طرح عرضه ذاك مرة ثانية فلم

يكن ليؤلمها، لقد توهمت أنه سيعترض طريقها و تراه بينما تذهب إلى العمل، بوجهه المتغضّن وعينيه الشرسيتين، لم يكن الثمن أيا من ذلك ،لم يكن العقاب بتلك الرحمة ، تلك الأثمان كانت ستسرها وتدلّها على أنه لا يزال يحفل بها، و يحبها، بينما الثمن الذي كانت تدفعه الآن: تجاهله وحرمانها من رؤيته و سماع أخباره، كان الثمن غاليا جدا، أن لا يهينها ،فتلك وجدها كثيرة عليها ، أن لا يزعجها، أن لا يهددها، ما من مجال أنه نسيمها و طوى صفحتها بصفة نهائية مقررة. بالرغم من تبوئها منزلة الاهتمام و التبجيل من المحيطين بها، كانت تعيش عزلة فاحمة، لا يستطيع إلا وجهها المرغم أن يبدل التعابير، أما داخلها؛ فقد تصلّب ، و تضرّر جزء كبير من قلبها إن لم يكن كله، و لم يعد ممكنا ترميمه أو إصلاحه، حيث أنه تحوّل إلى رماد يحتلّ موقدا داكنا مهجورا.

وكانت صورته تبعثر هنا وهناك على السرير، و يمعن النظر إلى كل واحدة على حدى، مبتسما ، ساخرا، برفقة أحد أفراد العائلة، برفقة أحد المشوّهين، أو المفتقدين إلى إحدى الأعضاء الجسدية، يقرأ كتابا، يحمل قلما و يدوّن، ثم سرعان ما تُمرّر أطراف أصابعها على الوجه المسالم الشفوق، على الابتسامة اللطيفة الدمثة، على العينين الفاتحتين الوديعتين، وعلى نحو مفاجئ تُجمّع عشوائيا بحيث تجعد أطراف بعضها أو تتلف جزئيا و تدرّس في الصندوق الخشبي بطريقة سريعة، ثم توضع على الرف العلوي للخزانة منزلها القريب، و عندما أعلنت الساعة الخامسة من يوم الجمعة، تمّ تمزيقها إلى قطع صغيرة بقرار حازم من اليد التي جمعتها ورعتها من الإتلاف و قلة الحرص، ثم وُضعت في كيس جنبا إلى جنب مع المسودات بغرض نثرها في مياه البحر الزرقاء يوم غد: السبت.

و فكّرت أن رسالة مؤنسة أو عناقا عطوفا أو تفهّما لمشاعرها من طرف اثنين سبّبا لها أقسى أنواع البؤس: خليل و ميرنا ،خليق بإنقاذها من قرارها، ورفع معنوياتها و إعادة الأمل إلى نفسها، ولكن أتى لميرنا التي تفتقر إلى الشفقة والرحمة أن تنقذ مهمة جلييلة كهذه و هي التي تخطّط لإفشاء سرها و إخبار أمها، ستخبرها يوما عندما تنفجر كراهيتها و يخرج حقدها عن السيطرة، و بالنسبة لخليل فأملها بعودته إليها كأمل إبليس بدخول الجنة.

تحتاج إلى عطف خاص، و صدر تبكي عليه، و كتف يسند رأسها،تحتاج إلى إنسان شفوق يطمئنّها أن كل شيء سيكون على ما يرام و أنها ستتحسّن، و أن الألم الذي ينوح بقلبها الآن سينضب ويتلاشى، و أن الدموع ستستحيل بسمات مشرقة و السواد الذي يهرب عينها سيؤول إلى بياض ناصع، تحتاج إلى يد تربت عليها و تكفكف دمعها و تهتك نسيج أحزانها، و قبل أي شيء تفتقد إلى التفهّم، إلى عين تنظر إلى تضحيتها بإنصاف، تفتقر إلى يد القسط والمواساة، قد

يكون هذا الكائن موجودا في بقعة ما على وجه الأرض، ولكنه لن يفيدنا طالما هو ليس ميرنا أو خليل.

وفي هذا الصباح البارد من صباحات إبريل شاركتهم الفطور مستعرضة فستانها الأخضر ذا الياقة المرتفعة و الكمين العريضين المزينين بأشرطة فيروزية ، و الذي رافقته كنزة سوداء تصل إلى نهاية الخصر، تقمها البرد و أبدعت في أداء بعض الدورات البطيئة تتقد حماسة، بينما تلقي على مسامعهم إمكانية فوزها بالمركز الأول أو الثاني إن ما وُظفت لجنة عادلة لغرض التحكيم، وعندما حلت دقيقة انصرافها تمننت لها ياسمين و أمها حظا طيبا و أوصتها بعدم التلكؤ في العودة إلى البيت "لا تنسي نفسك، لا تجلسي قريبا من إحدى تلك المرتفعات الشاهقة، ففي أقل من أسبوع بُغ عن خمس حوادث سقوط، وغرق ثلاثة متهورين على مسافة آمنة من الشاطئ، كيف يسبح الناس في هذا الطقس المتجمد، اه إنه انتحار أن يلقوا بأجسادهم في الماء البارد"، وشرعت أثيل تنظر حولها إلى الجدران و الأواني ، إلى الكوب المرسوم عليه وردة حمراء، إلى الموقد الأبيض ذي الثلاث مصادر، و صحن والدها الأثير العميق الرخامي المزين بورود زرقاء، و التقت عينها بعيني ميرنا التي ما انفكت تراقبها، و تشكّ أن هناك شيء مهشما غامضا واضحا بسلوكها هذا الصباح، ولكنها أشاحتها عنها بسرعة، وبسرعة حطتها على وجه أمها ثم انحنت مقبلة يدها مغتبطة "إنني أحبك يا أمي و أفعل أي شيء لأجلك، سأكون هنا قبل العصر" لقد اتفق و أن سمعت ميرنا عبارة "أفعل أي شيء لأجلك" تلفظ أمامها في مناسبات متكررة، وكانت تضايقها و يغمرها إحساس بالاشمئزاز كمن يتعرض إلى وخز لاسع، و تفسير ذلك، إيمانها المتجذّر أن أثيل تنطق بها كتكفير متستر عن ذنوبها، لكن عندما سمعتها في تلك اللحظة المشككة، أوحى لها بدلالة لحالة متناقضة عن السابق و استوحش قلبها، تلك النظرة تحمل رسالة مهمة تشبه؟؟تشبه ماذا؟.

وعندما دقت الساعة التي تشبه الصندوق الخشي المستطيل ذات المينا الصفراء، الثانية بعد الظهر و خلف باب غرفتها و بعد أن اشتغل عقلها بسرعة خيالية في التحليل والتفكير، جاءتها النتيجة تتخطر مثل صبيّة فتية سريعة الخطى، بعدما كانت تتناقل مثل عجوز هرمة، وفككت الألغاز انطلاقا من شعورها الغامض إلى سلوك أثيل و عندئذ، عندئذ أصابها بما يشبه الصدمة المرتعدة، فشهقت وهزتها عاطفة عنيفة وأحست بالاختناق، أجل إن حالتها تقترب من حالة إنسان مذعور لناحية رفع عنها الشمس و أزيل عنها اللبس، كانت تشبه وداعا أخيرا؟ أجابت نفسها بينما تغلغل إلى أحشائها شعور قوي بالخوف، وما عتم حدوث شيء غير قابل للتصديق، شبه مستحيل، سألت دموع حقيقية من عينها تجرّ بعضها بعضا و بللت أصابعها، وسرعان ما

تلفتت يمينا و يسارا مرتعشة، ووجدانها يستصرخ و قلبها يقرع "لم تكن سعيدة أبدا "حدثت نفسها يائسة "كانت تتظاهر كي لا يشك أحد في طبيعة موتها، كي يُظنَّ أن إنهاء حياتها مجرد حادث عرضي، ما أغباني إذ لم أفهم ذلك، لقد أصيبت بالكآبة منذ عودتها، لم تكن تضحك ولا تبتسم، كانت تمثّل، تمثل، لا تموتي أرجوك، لا تموتي يا أثيل، إن ما أصابها مكروه لن أسامح نفسي ما حييت " و أنشأت تلوي يديها ببعضهما البعض و تتجول مدعورة في زوايا الغرفة، ثم تجلس لغاية تهدئة روعها "لن تتحمّل أمي موتها، ولن تتحمّل ياسي، بل كل أهل الحي لن يتحمّلوا، وليست السيدة سميحة بمن تحبها حبا ضئيلا لتتمكّن من التحمّل هي الأخرى، إن ما ماتت فأنت قاتلها، ما عتمت أهددها وأهينها وأخيفها".

وتذكّرت كيف كان يتيبّس وجهها عندما تفتح لها أهمها الباب مهتاجة نتيجة تحريضها المتفنن، ودس السموم في رأسها، و تذكّرت كذلك كيف كانت تقف متلذذة بهلعها، تتنعم بالرهبة السابحة في عينيها، تبتسم ساخرة "لقد أرسلتها إلى الموت، هي،،،" و تحرّكت شفاهها في تضرع مستعطف وتوسّل خاشع "لا تجعلها تموت يا الله، أرجعها إلى البيت وأقسم أنني سأضمرها وأتفهمها، وأرعها، فقط أرجعها سالمة " و اندفعت الدموع مثل الوديان نادمة معترفة "إنها قد فعلت ما فعلت لأجلنا، كي لا تموت أمنا ونبقى أيتاما، تلك العبارة المقبّية التي تلفظت بها: لم تؤلني الصفعة ولكنني نزلت من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان، هي من أعادتني إلى رشدي، هي من أيقظت ضميري، لقد أشفقت عليها، وأدركت أنها جزء مني، إنها أختي، الآن أدرك ماهية الشعور الغامض الذي كان يتردّد علي".

الآن استوعبت حقيقة ذلك الشعور الذي نما خلسة، لم يكن إلا الشفقة والاعتراف بأغلاطها، وكانت أثيل مصيبة بكل ما نطقت به؛ فهي تمقتها ردحا قبل معرفتها بسرها، لقد دوّت تلك العبارة في رأسها مثل القنبلة الصامتة، فأيقظت ضميرها النائم ولكن الغضب سترها والبغض طمسها، وطوال الأسبوع كانت تستفزّها و تتحرّش بها ليس لإهانتها؛ بل لتيقن أنها لا تزال حية الروح، وفورا حركت قدمها نحو النافذة، ليست أثيل ضمن الطائفة التي تروج وتجيء في الشارع. لقد اعتادت مراقبتها من هذه الناحية من النافذة خلف الستائر بينما قلبها يبدع حقدا و عقلها يئن بغضا، و راودتها حمى القلق و كادت تفقد صوابها بينما أصابها وهن شامل في جسدها، كأن قلبها كتلة من الألم المتجمع في بقعة واحدة، و قبل أن تستطيع تعديل سحتها القاتمة ألقت نفسها تهزّ ياسمين مثل طفل صغير

_ "دعنا نذهب إلى البحر"

التفتت إليها ياسمين بنظرة نزقة

_ "لدي امتحان الأسبوع القادم"

فألحّت عليها

_ "أرجوك، سأختنق من المكوث بالبيت، لن نتأخّر، ساعة فقط"

فحسمت باسمين قرارها

_ "قلت لا، اذهبي لوحدك، سأنتظر أثيل إلى أن تعود إلى البيت، وأقرأ ما كتبت"

كانت تغيظها وتستفزّها لكن ميرنا هجست يائسة

_ "ربما لن تعود، ربما لن نراها ثانية".

وبالعودة إلى أثيل، فبعد أن التقطت حجرا معتبر الحجم لتثبت به رزمة الأوراق على يمينها وخصّصت مكانا على يسارها لحقيبتيها، ربّبت فستانها وجلست على مرتفع شاهق عن البحر في مكان يشبه جزيرة نائية، ثم راحت تصيخ السمع إلى اصطخاب أمواج البحر، وإلى التجاجها المضطرب واصطفاقها القاصف، كانت الرياح قوية تتناوح بصورة غير مألوفة، وكانت الشمس تنبثق في لحظات قليلة بدفء كليم وحرارة ضئيلة، وخفقت الأوراق الراضحة تحت كتلة الحجر مصدرة حفيفا صائتا، حتى كادت تتمرّق لتعتق نفسها، وقبل أن تجري يدها على الورقة البيضاء الفارغة أرسلت أثيل بصرها إلى الأفق الغائم البعيد بلونه الرمادي وإلى مياه البحر الداكنة الممتدة، ومرتفعات الجهة المحاذية، وكان بوسعها مشاهدة الأمواج المتلاطمة مع الصخور، ولم تجد سببا لتلقي نظرة أسفل المرتفع الذي تجلس عليه من الآن، هناك متسع من الوقت، ورأت بغير وضوح عائلة مكونة من زوجين وثلاثة أطفال على مرتفع شبه بعيد، ودار بخلدها لو أن الزوجين كانا على مقربة لحدّراها متخوفين من الاستمرار في الجلوس في مثل هذا الطقس البارد، ولوصفا موقعها القريب من الحافة بالخطر على حياتها، وعلى الأرجح يستطيعان الضحك مازحين، بينما يقولان أن ذلك يشبه الانتحار، وسرعان ما اختلست النصيحة خطواتها إليها، كما لو أن أحدا قرأ أفكارها من عجوز صغير الجثة لا يُستدلّ على لون عينيه لصغر حجمهما، ودلّت ثيابه الأنيقة المنسّقة على تلقيه عناية جيدة، ولكن تقاطيع وجهه التعسة عكست ألما قريرا وحرزا دفيئا، وعلى الأرجح كان عائدا من مَهمة بعثرة بعض الذكريات المريرة في أرجاء البحر، قال محدّرا بعد أن أصبح على مسافة تمنع الرياح من تكسير صوته

_ "توخي الحذر، وأبقي نفسك بعيدة عن الحافة، فربما غلبتك الرياح ودفعتك إلى الأسفل،

إنها قوية كما ترين، ثم يا ابنتي ما الذي أخرجك في هذا الطقس البارد؟ أشعر كما لو أننا في

نهاية كانون الثاني، وليس بداية إبريل "ونظر إلى السماء" يتقلّب الجو بسرعة"

استدارت بجسدها كاملا لتمنحه الجواب الملائم، وكان وجهها ويداها قرمزيتين بينما افتّر

ثغرها عن ابتسامه ودية

_"سامكث فترة قصيرة، كنت أحتاج إلى مكان ساكن أكتب فيه قصة قصيرة لأشارك في مسابقة"

_"حظا موفقا يا ابنتي، تبدين متحمسة وهذا جيد، لست أنوي تثبيط عزيمةك، على أن اختيارك للمكان لم يكن موفقا، ولا أودّ إخافتك، ولكن" وخفض رأسه أسفا " لقد وقع ابني من هذا المكان وتوفي، أنا آتي إلى هنا كل يوم تقريبا، لا أريد تكرار المأساة مجددا مع شاب أو فتاة"

فخاطبته بنبرة مواسية يتخللها الأسف والحزن

_"أنا أسفة من أجلك، ذلك محزن، ليتغمده الله برحمته الواسعة، كم مضى على وفاته؟"
_"أربعة أشهر، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم و أنا أحضر هنا يوميا، لست أطيق الحياة من دونه، خسارة الأبناء تقصم الظهر وتسرق السعادة من حياة الإنسان وتجعله أجوف الروح، إنها مدمرة، لماذا يتهوّر الشباب بهذه الصورة المستهترة؟لماذا لا يقدرّون أن حياتهم ليست ملكهم فحسب؛ بل ملكنا نحن أيضا، وأن أرواحنا تموت معهم وقلوبنا تحترق من اللوعة؟ انظري كيف تركي رهانه السخيف بالوقوف على الحافة و غلق عينيه لمجرد إشباع نزوات غبية، هنا أشعر بالارتياح، أشعر أنه مزال هنا، أما بالبيت؛ فأعجز عن منع نفسي من البكاء وأخشى أن تخونني صحي فلا أستطيع القدوم إلى حيث أشعر بوجوده وأصاب بالبؤس، لا تجعلني والديك يأتيان إلى هنا ولا تجعلهما يبكيان في البيت، لا تجعلهما بائسين، لو تعلمون حجم الأسى الذي تخلفونه برحيلكم لما استهترتم بحياتكم على هذا الشكل، لأنكم لا تموتون لوحدكم نحن نموت معكم، يحترق قلبي يا ابنتي لا أنسى، لا تجعلهم مثلي ابتعدي"

استطاعت أثيل أن تستشفّ العناء المبدول من الرجل كيما يتحاشى البكاء، كانت نبرة صوته منكسرة مثل غصن جاف ضعيف تشوبها فراغات عاوية، وتكوّن في خيالها مشهد حزين لأمها تحضر يوميا مثل هذا العجوز على مدى الفصول الأربع طلبا للارتياح، وأثارت الفكرة في عقلها نوعا من الاطمئنان، الحمد لله؛ فعلى الأقل ستهدأ دموعها ويخفّ حزنها وتشعر بالعزاء في هذا المكان، كما يشعر هذا العجوز، وسرى في جسدها تيار سريع من التأثر، فارتسمت على وجهها ابتسامه حزينة، لن تدع أحزانه تتغلّب على قرارها

_"أعدك أنني سأكون حذرة، لن تتكرر المأساة، طاب يومك،وأجدد أسفي لفقدانك عزيزك"
كتبت أثيل بخط جميل منسق واضح، و بكلمات صغيرة لأن القصة التي هي في صدد كتابتها ليست قصيرة كما اشترطت الجريدة، معاناتها حكاية طويلة، وليست تعتقد أن ورقة واحدة

ستفي بغرض تدوينها، قصة فتاة لم تعد تخاف الموت، بل تخاف الحياة، أضحّت مرتاعة من وجوه الناس من حولها، من أصواتهم تقاضيتها و حركاتهم تزجرها و تتقرّف منها، وردود أفعالهم تحكّم عليها، من ديبب أقدامهم تتحرّك مبتعدة عنها، تتحاشى الاقتراب منها أو الاصطدام العرضي بها، كأنهم يخشون أن يلتصق بهم ما التصق بها، ذلك عندما يكتشفون الجزء الخفي القاتم من حياتها، الجانب المظلم المفضل عليه في صندوق الأسرار، سيعرفون، كما عرفت ميرنا و خليل، و قبل الجميع ستعلم أمها، ولن تجد لها داعما أو مدافعا؛ بل ستجد منتقدين و قضاة و نافرين مكشّرين عن أنيابهم جاهزين لإهانتها و ذمّها:

"يحكى أنه كان هناك فتاة صغيرة جميلة بريئة تدعى أثيل، كان والدها الذي أمل أن يرزق بصبي فخورا بها سعيدا بولادتها، وذلك عندما قابل وجهها الجميل للمرة الأولى يضيئ مثل نجمة متألّثة في السماء الصافية، فتلاشت خيبته واستحالت سرورا جزيلا، وتعلقا لفت الانتباه و آثار الدهشة، كان يعود من العمل مكدودا متعجلا لينعم بوقت لطيف رفقتها و يلاعبها و يتابع كل حركة جديدة تطرأ على سلوكها: لقد حرّكت أصابعها، إنها تنادي أبي، تحاول الجلوس، تحاول الوقوف، إنها ذكية، و كلما اصطحها في نزهة قصيرة لم يكن أحد المارين ليقاوم جمالها و غمازتها البديعتين عندما تبتسم، و بفعل جاذبية مثيرة، يدنون إليها و يقبلون و جنتها و يقرصون برقه ذقنها المدبب الجذاب ثم يخبرون والدها أن ابنته ستغدو أميرة ساحرة، ها ،يا للسخرية، لقد غدت ابنته داعرة ساقطة، و عندما بلغت الرابعة نقل لها الوالدان السعيدين خبرا مشرقا، أنها سترزق أختا صغيرة، فطفر قلبها سرور ، ولم يخامر عقلها حينئذ أنها سترزق بلائاً مزمنا، و مصيبة لعينة، و إن استطاعت الفتاة المحافظة على مكانتها المرموقة في قلب الأبوين فلائها المولود الأول، وهذا لا يحطّ من حظ شقيقتيها في نيل المكانة ذاتها، لكن بمحبة مختلفة، و كبرت الفتاة و غدت جميلة بصورة واضحة، وكذلك كانت مهذبة و مؤدبة و مطيعة، فأحّتها كل من رآها، و كان يحلو لهم تسميتها "بياض الثلج، الزنبق الأبيض، الأميرة الصغيرة"، آملين أن تحذو بناتهم حذوها في السلوك الرزين، و التصرف الرصين ، و كانت النسوة يضربن بها المثل كلما تبنت بناتهنّ سلوكا رديئا: إنها مثل النسمة الخفيفة، إنها مثل العصفور، تصرفن مثلها، لا أسمع أمها توجهها بأي نداء، ليس مثلي أكاد أفقد صوتي من الصراخ"، و حيث أنها كسبت قلوب الجميع، و نالت محبتهم، كانت تدفع ثمننا غاليا في الجهة الأخرى ، تنامي أحقاد أختها، و تضاعف غيرتها يوما بعد يوم، ثم سرعان ما تعمّقت المسافة بينهما، و غدت الأذية و الافتراء و ابتداء القصص الكاذبة سلاحا لمعاقبتها على سرقتها الاهتمام منها على حد تفكيرها، و كانت أثيل تعتقد أن الوعي يعوز أختها لتفهم أنها تحبها، و تريد التودّد إليها؛ لأنها لا تزال طفلة،

وعندما تغدو كبيرة ستبتد غيرتها العليلة، ولكن آتَى للنقاء والصفاء القلبي أن يستطيع فهم نوازع الشر والسواد.

ذات يوم قضى الأب الفقير المكافح في حادث عمل مأساوي، وبقيت زوجته وبناته الثلاث وحيدات دون رجل يعيلهن، فاضطرت الزوجة لتكثيف جهودها من أجل أن تتصدى لنوائب الحياة، فعملت منظفة في إحدى المكاتب والذي منحها راتباً رديناً لا يغطي مصاريف أسبوع واحد، وكانت تعود إلى البيت مرهقة لتعتكف خلف آلة الخياطة، وكانت أثيل تذهل للقوة الجبارة التي ينطوي عليها الجسد المنهوك، وكانت تعدها وهي تقبل راحتها يديها المتورمتين بالتناوب أنها ستعوّضها يوماً ما عندما تتحصل على شهادتها و يصبح بمقدورها العمل، يومها لن تسمح لها بإنهاك نفسها، ولن تسمح لها بالخروج صباحاً قبل شروق الشمس لتعمل بأجرة ضئيلة التي لو كان لها خياراً آخر لاستغنت عنها.

لقد عوضتها، هذا الذي حدث عندما تدهورت صحة الأم وألزمها المرض الفراش وذكر الأطباء أن قلبها بحاجة إلى عملية عاجلة وإلا فإن احتمال فقدان حياتها تفوق نسبتته التسعين بالمئة، عوضتها ليس عن طريق الشهادات الجامعية، ولا عن طريق العمل الشريف، لقد عوضتها بشهادة مزاولة العهر في شقق الفجور، ببيع جسدها ومنحها اللذة للرجال، عوضتها قبل أن يحين أوان منح الشهادات، وهكذا وقفت الفتاة الفقيرة في مفترق الطرق مدعورة من موت أمها، ترتجف من خاطرة خسارتها، حيث لم يبق سواها ليعتني بهم، وتضاءلت خياراتها بعد أن قلبت كل حجر وطرقت كل باب، وسألت المعونة من كل إنسان تعرفه، وكان كل إنسان يقابلها ببدين عاجزين ووجه أسف، فتعود خائبة، وكانت لا تجهد أنهم على مستوى متكافئ مع فقرها، وإن كانت تملك سقفاً يأويها حتى مع تهالكه، فلم يرتفع حظ بعضهم مثلها فظلّ يتخبّط حائراً كيف يدبر نقود الإيجار للشهر التالي، وبينما كانت تسند صدغها مجفلة متخبطة، فتح لها باب يفضي إلى الجحيم، عندما نصحتها إحدى الزميلات أن تستثمر جمالها في تحصيل المال، ولو أنها فهمت المقصد لما طرحت السؤال متلهفة

ـ "كيف ذلك، أخبريني ماذا علي أن أفعل؟"

ـ "إنك جميلة، أعرف سيدة تدعى كارمن توفّر زبائن من النوع الجيد، رجالاً أغنياء يقدرّون الجمال، ويدفعون جيداً، في الواقع المبلغ الذي ذكرته يصرفونه على عشاء أو حفلة صغيرة " و لدعها الاقتراح كما لو أنها تلقت صفقة على وجهها، وسرعان ما وبختها لهذه الإهانة السليطة والنصيحة الوضيعة، ولولا أنها زارت أمها في المستشفى لتجدها تن مثل المحتضرين لما اضطرت إلى الاعتذار في اليوم التالي على تصرفها الأرعن، إذ طالما كانت الدعارة المهنة

المخلصة للنساء اللاتي لا يملكن ما يسدّن به ثغرات الفاقة و الجوع و المرض، كان الواجب الأسري يملئ عليها بيع شيء ما، و لم يكن إلا جسدها ذا قيمة لبيع، فحتى البيت الذي عرضته للبيع لم يرحب أحد بشرائه.

_ "أنا أعتذر إليك، لقد باغتني العرض، هلا تعرفيني على السيدة كارمن؟، سأفعل أي شيء لأحصل على المال"

_ "ها، الآن تريد أن تعتذري مني، بينما كدت تغرزين أظافرك في وجهي، سأغاضي عن إهانتك لي؛ لأن أمك مريضة، تعالي غدا، وسأخذك إليها"

ولم تفصح كارمن عن تفاؤلها بهيئتها الحبية الخجولة بوضوح شديد، الهيئة التي تنفر منها أهواء الرجال، ولكن أمرين لعبا لصالحها جمالها الأخاذ وكونها صبية عذراء، إنها لا تستطيع نسيانه وصورته لا تغيب عن عقلها: الرجل الأول بعينه الحمرابين المخيفتين وساقيه الطويلتين. وشبهه الشهواني المسعور المسطور على وجهه" وانبعثت آهة من فم أثيل رافعة يدها عن الورقة يجترّ خيالها صورته المقززة وخامرها إحساس رهيب بالشفقة على نفسها؛ لأنها تحملت ما لا يطيقه إنسان، و بينما لا يستطيعون أن يعيشوا وضعها، يملكون الجرأة كي يحكموا عليها، بينما احتفظت عيناها بجفافهما من أي دمع، و مجددا جرت يدها على الورقة كما لو أنها تريد أن تنتهي من كتابة الحكاية الحزينة بسرعة

_ "وعندما تسأل أثيل نفسها، هل أنت نادمة؟، تجيب أن، لا، و لو عاد بها الزمن إلى الوراء ولم تجد حلا بديلا ستبيع جسدها مجددا، و ليس لأحد لومها أو محاكمتها، لقد كانت مضطرة كبائعة، بينما لم يكن هؤلاء الرجال الأوغاد مضطرين كمشتريين، كان بوسعهم مساعدتها دون أن يسرقوا شرفها و يمزقوه تحت أجسادهم القذرة، كانوا يدفعون ثمنها كأنهم يدفعون ثمن وجبة، يعاملونها بالشوكة و السكين و التقطيع و الفرم و الابتلاع كما تعامل هي.

وعندما تعود إلى البيت كان ينتظرها عبء آخر: أن تحتفظ ببرودة أعصابها وتظاهر بالهدوء و السعادة كما لو أنها كانت بحفلة صبايا مرحات لم يخبرن نوائب الحياة بعد، وتطوي صفحة الجحيم الذي عاشته بعد ظهر اليوم، و أن لا تمنحهم مجالا ليستنتجوا أنها ماتت. أجل، ماتت، و قلبها ينبض نبضا و وظائفها بحتا، و لم تعد تملك أملا أكبر مما تملك أرض هادرة جرداء، و تلونت حياتها بألوان صدئة، شاحبة، باهتة، إلى أن قابلته عيناها عند ساعة من العصر، فهز قلبها و ذاب الصقيع عنه، كانت عيناها مثل سر عميق من أسرار البحر، عيانان فاتحتان مسالمتان، ابتسامته مشرقة مثل الشمس، سرقت قلبها، و إن كانت لا تدرك كنهه تعلقها به، فليست تنكر أنه خلب لها من النظرة الأولى، و منذ تلك اللحظة أصبح كل حياتها،

يسرها كسرور الطفل باستقبال الهدايا، أن تجمع صوره في صندوق خشبي، ويطرد الغم عنها عندما تقرأ الذي يكتبه وينشره كل أسبوع، كان يكفي أن يكون بخير وأن تراه سعيدا، وليست تطلب من الحياة أكثر، فلقد حدثت معجزة عظيمة لم تحلم بحدوثها وأحياها ونعمت بمقابلة وجهه السموح، وقلق علمها، و نظر إليها النظرة الأبوية الرحيمة، وغمرها بعطفه و مودته، ووصل به الحد أن عرض عليها الزواج، و إن لم تكتمل قصة الحب تلك، فليس له ذنب في ذلك، إنه رجل محترم شريف، ومن حقه أن يرفضها، لديه كل الحق، على أن حياتها من دونه مستحيلة، أن تحيا عالمة بازدرائه واحتقاره أكبر مما تحتمله روحها، و كما قالت السيدة في الحافلة، كان ثمن الحلم باهظا جدا، باهظا بصورة لا توصف "وقلّبت الورقة

"ليست حزينة؛ لأنها ستموت، فالموت يعني الحرية، الخلاص، بينما الحياة تعني الخوف والذعر الدائمين، لن تخاف الآن، كلما رأّت سحنة أمها متغضّنة، ولن تعود إلى البيت من الآن فصاعدا فترتجف ركبناها عندما تستقبلها بوجه منقبض و لون منكفئ و عينين مؤنبتين، لن تعود إلى البيت، إنها الحرية المطلقة ، و عندما ربّبت خطتها و أصرّت على تنفيذها، ارتاحت وأحسّت بالهناء، وكانت تحرشات ميرنا ترتد خائبة، فطالما ستموت لم تعد تهتم لشيء، وكذلك استوحت فكرة سخيفة لم تفهم لماذا ألحت على تجسيدها، من المحكوم عليهم بالإعدام الذين يُدعن لاختيارهم الوجبة الأخيرة و يسمح لهم بارتداء أحسن الثياب، فوق اختيارها على تناول طبق القرنبيط و اشتراء ثوب أخضر أنيق، كم أن ذلك سخيف!، ماذا يفيد المرء تناوله طبقه المفضل و ارتداؤه ثيابا جيدة طالما سيموت، و بالنسبة لها، إضافة إلى تثبيت فكرة أنها سعيدة للغاية، كانت جزءا من مخطّط استوحته من حادثة ابن السيدة أسماء، إنها تذكر بوضوح كيف استطاعت العجوز راضية أن تقنع أمه بكذبة حسنة النية، رؤيته سعيدا ساعات قبل تبليغها نبأ وفاته كي تستبعد فكرة انتحاره، فالنسبة للأم المسكينة إنها تفضّل ابنا مات بحادث على ابن منتحربسبب الكآبة أو العار، ولقد وُفقت بقدر إجادتها طرح الكذبة سليمة الهدف .

وهكذا و بعد أن تحمّلت و تجلّدت بالصبر، وتشجّعت لتبقى حية، ظنا منها كالأخريين أن بقاءها حية أطول فترة ممكنة إنجاز عظيم، لم يبق لها ما تناضل لأجله، لقد فقدت خليلها الغالي إلى الأبد وذكر أنه كان ينبغي أن تموت بدل أن تدخل حياته لتفسدها، و كذلك أعلنت أختها بصفاقة أنها لا تهتم لتضحيتها، لا ترى ضوءاً و لا أملا، ترى الظلام و السواد، هي كائن فارغ يائس جدا فقد كل شيء، إنها محبطة و مكتئبة جدا، لم تعد تتحمل، نفذت منها كل الطاقة، تحمّلت أكثر مما ينبغي، كانت تتمنى لو أنه هنا كما تمنى ليراها شجاعة مقدامة، أن يراها تتحدّى خوفها من المرتفعات والبحر، شامخة أمام الأمواج العاتية، ولكنه للأسف ليس

هنا كما تمنى، ليته هنا.

ستتعدّب أمّها لسنين قادمة عذابا أقل من عذابها لو أنها اكتشفت السر الخطير الذي تخفيه ابنتها الصالحة، ولكن سيضمحل وجعها شيئا فشيئا وستنساها ذات يوم، وربما يأتي التعويض الكريم على شكل حفيدات جميلات يمرحن حولها، إحداهن اسمها أثيل الصغيرة، فميرنا ستحول دون أن تسمى إحدى فتياتها على اسم داعرة وضيعة، بينما ياسمين رقيقة القلب ستشاجر مع زوجها ووالدته لتنتزع حق منح ابنتها الأولى اسم شقيقتها الراحلة، وكذلك سيتزوج خليل امرأة شريفة، ابنة عائلة محترمة، بعد أن يتجاوز كراهيته للنساء، الكراهية التي زرعها فيه بيديها، لا شك أنه فقد الثقة في جنس النساء، ولكن لا، إن الرجال كما كانت تؤمن على الدوام يتعافون سريعا، سينجب طفلة، على أن صورته الأخيرة المحفورة في عقلها لا تحفزها على الاعتقاد أنه سيمنحها اسمها، الذي يذكره بالخيبة والألم والخداع والاشمئزاز، ولأن السيدة سميحة كانت متعلقة بها ستصيها الكآبة، وليست تشك في أنها ستلتصق بقبرها في السنة الأولى والثانية، وقد يمتدّ حزنها إلى سنة ثالثة، وكذلك سيشملها التعويض السخي عندما تتزوج ربحان وسالي.

إنها تمنى الحظ لكل أثيل ستولد، حظا ليس كحظها العائر، وتتمنى أن لا تبتلى إحداهن بمصيرها فتلجأ بنظرة مظلمة سوداء و عزيمة خائفة إلى مرتفع شاهق طالما كانت تخشى الوقوف عليه لترمي نفسها وتموت، وتتمنى أن لا يسوق الفقر والجوع والمرض أي فتاة لتعيش على ثمن جسدها، هذه كانت قصة أثيل الحزينة التي لن يعرفها أحد، أثيل التي لا ترى نقطة نور؛ لأنها صرفت كل النور على أحبائها، التي قُبرت أحلامها تحت شجرة الصنوبر في الحديقة، هناك واجهت روحها الميتة، هناك سُئلت كيف استطاعت أن تغفر لنفسها، هناك حكم عليها بالموت، الدنيا شرسة جدا، وهي تعبئة جدا جدا لتواصل وتشرح، وهكذا اختارت أن تكون نهايتها، إنها تثق أن الله يعرف ويريد أن يعرف ويريد ان يغفر، وهي تتضرّع إليه الآن ليغفر لها ولكل الأشقياء أمثالها "

وصنعت من الورقة طائرة ثم أرسلتها وراقبتها مودعة ، تترنّح في الرياح القوية إلى أن طفت على سطح البحر مثل كيس فارغ ثم أدركتها موجة هائلة، ولم تعد تظهر في مدى بصر أثيل، وما لبثت أن أخرجت من حقيبتها القطع الممزقة لصوره ونثرتها مثل الرماد، وكذلك دسّت يدها في الجيب الصغير وأخرجت القطعة المعدنية وتأمّلتها للمرة الأخيرة "ستذكرك دائما برأيي فيك، ستذكرك كم أحتقرك وأشمئز منك " وبحركة رشيقة قذفتها في البحر، كأنما أرادت أن تسبقها قصتها وذكراياتها وآلامها إلى قاعه.

الفصل الأخير

أي شخص يرى الحالة المأساوية التي كانت عليها سميحة لا يستطيع إلا أن يستنتج آلياً أن الفتاة المقبورة تحت الثرى هي ابنتها الوحيدة العزيزة على قلبها، وكان لا يمرّ إزاءها إنسان رجل كان أو امرأة إلا و يضطره نحيبها المفجوع ليقف دقائق يتبادل معها حديثاً قصيراً ويواسيها بعبارات متداولة مألوفة ويعزّيها كأن ذلك واجباً مفروضاً، راجياً من الله منحها الصبر و يلهمها القوة الضارعة لتتجاوز محنتها الأليمة، حتى وإن لم يكن يجمعها بهم إلا الظروف الواحدة والفقد المشترك.

كان قد مرّ خمسة أيام على وفاة أثيل إثر فقدانها توازنها، عندما نهضت على قدميها لتعود إلى البيت في حدود الساعة الثانية والنصف ثم سقطها من على ارتفاع شاهق حثها الفضول على استجلاء منظر البحر (الرواية التي فسّرت بها الشرطة وقوع الحادث وهي تنقل النبا للعائلة) و جزم عجوز صغير الجثة أنه حدّرها من الاقتراب من الحافة خوفاً عليه من تكرار تجربة ابنه الميرة الذي توفي منذ أربعة شهور بظروف مطابقة، فتأسّفت من أجله ثم شكرته مبتسمة مؤكدة له أنها ستوخي الحذر، مطلعة إياه والحماس يستعر في وجهها اللطيف، أنها تنوي كتابة قصة قصيرة، وأنه انتقد اختيارها لهذا المكان نظراً لبرودة الطقس وشدة هبوب الرياح.

و كانت سميحة قد سدّدت رأياً خاطئاً عندما التجأت إليها والدة أثيل مضطربة متقطعة الصوت من شدة الخوف، تتكلّم على نحو غير مريح بعد أن تجاوزت الساعة الرابعة، ولم تعد ابنتها إلى البيت، تخبرها أنه قد ألمّ بها شعور مشؤوم غير معروفة موارده، وسرت في جسدها رعشة منبهة وأنبأتها غريزة الأم أن مكروها حلّ بابنتها، فاستخفت سميحة بقلقها واصفة إياها بالقيود المستحكمة والوفاء القبلي لعادة التوتر، وإنها منذ انتقلت للعيش في بيت زوجها وأصبحت جارتهم، وهي تعرفها، أما قلقة على نحو مبالغ فيه، ترتعد فرائصها إن تأخرت بناتها خمس دقائق.

ـ "عزيزتي مليكة، إنك تبالغين كعهديك، ستعود بعد قليل، لم يسقط الظلام بعد، إنها في بيت إحدى العجائز، أراهن أنها في بيت السيدة صفية أو السيدة راضية ترتشف كأساً من الشاي، لم ترض أن أرافقها هذا الصباح كي لا أزعجها وأشوش أفكارها، اجلسي هنا و هوني عليك، وأرجو أن لا تنفجري في وجهها مثل المدفع عندما تعود".

ولكن ميرنا التي عجزت عن التزام الهدوء وعجزت عن التحكّم بأعصابها، والتي خشيت أن يفتضح خوفها فتتورّط في استجاب غير مسبوق، وضعت قناعها القديم على وجهها ودعمت قلق أمها أمام سميحة، متهمة أختها بالاستهتار وقلة المسؤولية، وأن من واجبها أن تعود إلى البيت في الوقت المحدد، إذ أنها عالمة بعادة أمهما في القلق والتوتر، بينما كان قلبها يتقلّب من الخوف مثل تقلّب الماء المغلي في القدر.

ومرت ساعة والسيدات تترقبان رفقة ميرنا عودة أثيل تطلّان من الباب بالتناوب، وكانت سميحة تصل إلى نهاية الشارع ثم ترتد خائبة "ليس من أثر لها"، ولم تهتم إحداهن بالاستفسار عن المكان الذي ستتحّذه للجلوس من أجل الكتابة، فهي منذ أن أوشت على الغرق وهي طفلة صغيرة لم تذهب إلى هنالك إلا مرات قليلة بصحبة سميحة بعد إصرار وإلحاح محمود، حسنا لم يبق إلا إبلاغ الشرطة عندما برز الأفق بلونه القرمزي الداكن، وسرعان ما انطلقت دورية للبحث رغم أن المسؤول أخبر ببلاهة باردة، أنه ينبغي مرور أربع وعشرين ساعة على غياب المفقود عن البيت .

_ "هل تظنّ أننا نبلغ عن ضياع قطة" صاحت سميحة حانقة "إنها فتاة لم تتأخّر يوماً في العودة فوق الساعة الخامسة".

وتجمّع الجيران عندما بلغوا بالنبا العاجل أن أثيل مفقودة وأنها لم تعد إلى البيت منذ غادرته صباحاً وسرت همهمات بينهم، ودبّ القلق في نفوس الجميع، واضطربت الوجوه بينما النساء يتربصن من الشرفات مؤنسات مطمئنات، وكادت الأم أن يغى عليها و صمّمت سميحة تصميماً حروناً على الانضمام إلى فرقة البحث، فرفضوا بالإجماع قائلين أنهم سيجدونها ويعودون بها إلى البيت، والاحتمال الأوفر حظاً أن ساقها كسرت أو كاحلها التوى أو أنها رافقت إحدى العجائز المريضات إلى المشفى. تنفّست ياسمين الصعداء عندما سمعت هذه الفرضيات تطرح هنا وهناك، ولكن ميرنا أدركت بعد الاستعانة بكل الدلائل الأسبوعية المبنية على معطيات دقيقة أن أختها لن تعود أبداً، والنتيجة التي وصلت إليها بعد ظهر اليوم كانت صحيحة قائمة على تحليل صائب، بيد أنها تمسّكت بالأمل، وأجبرت نفسها على التماسك من أجل أمها المنهارة: أثيل فتاة قوية، إنها تهض بعد كل سقوط بسرعة، كما لو أنها لم تسقط، وكانت وهي تنظر إلى المرأتين المذعورتين تشعر بعذاب الضمير يدقّ رأسها كالمطرقة.

"أشعر أن ابنتي أصابها مكروه" صاحت الأم باكياً، عندما تجاوزت الساعة الثامنة، وهي تضغط على صدرها متنفساً بعمق رغبة منها في انتزاع الشعور المعتم "لقد تعرّضت لخطب ما، سيدة سميحة إني مذعورة حتى الموت، لا يعقل أن تبقى أثيل خارج المنزل إلى هذه الساعة إلا

إذا،،،"

_ "لا تفكري على هذا النحو المشؤوم" قاطعتها سميحة متكلفة الهدوء، ولكن وجهها كان يرتجف والذعر يبرق من عينها "لن يحدث شيء لها" أضافت بغير اقتناع "لنأمل خيرا، ستعود حبيبتنا أثيل إلى البيت، وهذه المرة أعدك أنني لن أدافع عنها عندما توبّخينا" استدافع عنها، ولن تسمح لمخلوق بمعاتبها، المهم أن تعود إلى البيت، يا ليتها ذهبت خلفها وراقبتها من بعيد، يا ليتها تعود سالمة فقط.

وأسفرت نتائج البحث المشترك الخائبة بعد انقضاء أربع ساعات عن عثورهم على أغراضها: أوراق وحقيبة ولكنهم للأسف لم يعثروا عليها في الأرجاء، وليسوا يستبقون الأحداث، ولكنهم يفترضون أنها سقطت من المرتفع، مجرد فرضية أولية لم تطرح على مسامع الأم الملتاعة، وانقضى الليل الأسود الرهيب كجنح غراب أسود، ولم يستطع احد أن ينام تلك الليلة من صغيرهم إلى كبيرهم، وقد اجتمعت النسوة في بيت أثيل يتحرقن إلى الأخبار، ويواسين السيدة وابنتها، وربّبت جميلة على كتف سميحة، ولم تكن هذه تتمتع بوعي كامل لتدفعها بعيدا عنها؛ بل إنها رحبت بدعمها عاجزة وأسندت رأسها على ذراعها متجمّدة من الخوف.

وبعد ظهر اليوم التالي جاء النبأ القاصم، لقد لفظ البحر جثتها بعد ساعات، وتحوّلت الفرضية إلى أمر واقع حتمي، غير قابل للشك، لقد انزلت ووقعت في البحر مباشرة وليس على جسدها كدمات أو جروح.

ولم تستطع أمها أن تصدّق و صاحت بهم أنهم يكذبون وأن تلك الجثة ليست جثة ابنتها؛ بل جثة فتاة أخرى وتوسّلتهم نفي أن الغريقة هي ابنتها، ونكسوا رؤوسهم متأسفين عاجزين عن تنفيذ الكارثة المرة، كلما قبضت على يد أحدهم ترجوه بصوت مكسر كالزجاج أن يكذب عليها، أن يخدعها، أن يمنحها أمل . وعندما رافقتهم للتعرف على ابنتها سقطت خائفة قبل أن يسعها الصراخ، فقد كانت هذه ابنتها العزيزة، فتاتها الرزينة، المحبوبة، الصبية التي حملت المسؤولية عنها، فتاتها المطيعة العاقلة، رقيقة الطباع، ابنتها البكر وسعادتها الأولى.

ولم يكن بمقدور سميحة أن تتحمّل النبأ، كان قد مثل أمامها جدار من الظلام بلمح البصر وعظامها تفتتت كالطين الهش فغدت كائنا رخويا، وكذلك لم تستطع أن تذرف دمعة في اللحظات الأولى، إن الإنكار هو ملاذها، ليس من القابل للتصديق أن فتاة حيوية رائعة مثل أثيل، والتي ستتزوج بعد أسابيع قليلة تموت بهذه الكيفية الرهيبة، صديقها الصغيرة المدهشة، وأحسّت أن صوتها الرقيق وضحكتها البديعة يخترقان أذنيها من كل صوب، وألفت نفسها بتبسم فوق رأسها واستيقظت من المتاهة الحلزونية على نغمة مواسية لتنظر إلى الوجه

الأبيض والعينين المغمضتين، فدوّ صوت صياحها مثل صوت أم تكلّى.
كانت تأتي إلى المقبرة بصفة يومية منتظمة لتبقى ساعتين، تكلّم القبر الساكن، كأنها تكلّم إنسانا حيا يصغي إليها و يحاورها و يحير لها جوابا، وفي الصباح الباكر من اليوم الخامس قبل أن تدق الساعة السابعة، جلست على الأرض بجانب القبر و راحت تكيل العتاب لصاحبه على نحو مؤثر، وكانت تسكب الدموع كأنها طوفان إلى أن يعصر النشيج صوتها، فتمهل، ثم تستأنف مجددا

_ "كيف استطعت يا أثيل، أن تغادري الدنيا، و تركيني لوحدي، اه يا حبيبي، إنني لا أحتمل الحياة من دونك، كل شيء غدا بلا طعم، بلا لون، لقد كنت أنت من تحركين حياتي، أنت من كنت تلونينها وتزينينها مثل المصابيح الملونة، لست أستطيع أن أتأقلم مع الحياة الجديدة، بل لست راغبة في التأقلم، يواسونني قائلين أنني سوف أشفى، ماذا يقصدون بالشفاء؟، عدم البكاء، عدم الصراخ، عدم الكلام عنك، إذا سأشفى إن كان ذلك هو مفهوم الشفاء لديهم، ولكن يا أثيل هناك شفاء لن يحدث أبدا وهو النسيان، ليس لأنه غير قابل للحدوث؛ بل لأنني لا أريده، لا أريد الشفاء، لا أريد نسيانك يا أثيل وسوف لن أنساك، إلى أن ألتحق بك، لن يمكنني نسيانك دقيقة واحدة. لقد أحرقت قلب أمك وقلبي وقلوبنا جميعا، لماذا لم تكوني حذرة؟ إن قلبي يتفتت كلما أتخيلك تتخبطين في الماء البارد دون يد تمدّ إليك لتساعدك، لتنقذك من الموت، أعرف كيف كنت تصارعين لتعيشي، أعرف كيف كنت تشعرين، والماء يملأ رئتيك ويخنق أنفاسك، وذلك ما أدمى قلب أمك كذلك، اه يا أثيل لو أنك قضيت بكيفية مختلفة؛ لاستطعنا أن نواسي أنفسنا بطريقة ما، لقد عشت طوال حياتك تخافين من الماء و البحر وتصايين بالغثيان عندما تقترين منه، عشت حياتك تهريين من صوته ورائحته و لونه و أمواجه، فكيف استطعت الاقتراب من الحافة دون خوف، كيف استطاع البحر اللعين أن يغرقك و يزهق روحك الجميلة، و أنت لا تزالين صبية يافعة، كان ينبغي أن لا أدع خداعك ينطلي علي، كيف صدقتك عندما ادعيت الشجاعة وانعدام الخوف؟، عندما تظاهرت أنك لا تهابين شيء، حتى مياه البحر، أنا من ينبغي ان تلام؛ لأنني أذعنت لرغبتك، بالذهاب لوحديك، ما كان ينبغي أن أسمح بذلك، و ليس ينفع الندم بعد فوات الأوان، هل نفع الندم يوما يا أثيل؟ لا،، كنت سعيدة جدا، تحلقين من الفرح، لأن حلمك اكتمل، الحلم الذي سخرت منه أول مرة، إنني لم أخبرك أنني ضحككت، ليلعني الله لأنني سخرت من أحلام صبية بريئة صافية الروح مثل الماء، إصرارك و طيبة قلبك هي من ساهمت في جعله حقيقة، ولكنه لم يكتمل.

إنني لا أنام هذه الليالي، أدعو الله أن لا يحرمك من جنانه؛ لأنك كنت مخلوقا طيبا كالملاك، إنك لم تسيئي لأحد، ولم تجرح مشاعر أي إنسان، وأدخلت السرور لحياتنا و خففت الآلام، وكننت غاية في الرقة والهدوء واللطف، هل أستطيع أن أتأقلم من دونك؟، ما أغباهم عندما يعدونني بأنني سأتحسّن، ما أغباهم عندما يعدونني بالشفاء، من يشفي منك يا أثيل؟، من يريد أن يشفى منك؟؟ من يريد أن يخرجك من قلبه وعقله؟، ينهرونني عن البكاء؛ لأن بكائي سيعذبك، لأنه يسيئ إليك و لا يفيدك، هل كنت لأسيء إليك لو بمقدوري كبح دموعي، لو أن الأمر بيدي لما بكيت، لما حضرت إلى القبر لأزعجك، لما احتضنت أمك و سمعتها تعترف لي أنها كانت تشعر بالغيرة مني لأنك كنت تحبينني، إنني أعذب أمك المسكينة يا أثيل، أنا التي أهرع إليها لأواسيها من أجلك، فأجدها متجلدة صابرة راضية بقضاء الله، أجدها تحاول أن تتماسك من أجل ابنتها الصغيرة، فالمسكينة لا تفارق غرفتك تقول إنك سوف تعودين و يجب أن تكون بانتظارك، ما أشقاها؛ لأنها لا تستطيع البكاء، إنها متخشبة مثل تمثال، و صديقاتك العجائز يقدّمن أحسن ما عندهن، إهن يقسمن بسداجة على منحك حسناتهن جميعا يوم الحساب، لأنك كنت عطفة شفوفة عليهن في الحياة الدنيا، بينما أنا كنت أتهرب من زيارتهن معك، أتذكرين، عندما قلت أنني أشعر بصداع في رأسي عندما طلبت إلي مرافقتك لزيارة إحداهن ،كنت أكذب يا حبيبتي، كنت أتهرب مما أسميه ثثرة العجائز الفارغة، بينما كان قلبك كبيرا جدا لتصغي وتساعدني و تهوني، لهذا أحببتك و تعلّقن بك و جئن إلى أمك فور بلوغهن النبأ، لا أنسى وصيتك النبيلة بالاعتناء بهن، بعد أن تزوجي و تنتقلي إلى بيت زوجك، ولكنك انتقلت إلى بيت آخر غير بيته، لقد وعدتكم و سأفي بوعدي لك، ربما هذا الشيء الوحيد الذي سيخفف الألم عني، على الأقل لقد تركت لي شيء أعطني به من أجلك، ذلك هو مشروع القادم والوحيد إلى أن أفارق الحياة، سأكرّس ما تبقى من حياتي لخدمتهن، بل سأبحث عن المخلوقات الوحيدة التي تحتاج عناية، عجائزك الغاليات إلى أي حد سأعتني بهن؟ إلى الحد الذي يجعلك سعيدة هانئة في قبرك، إلى الحد الذي يحفّزهن لمنحك مزيدا من الحسنات، إلى الحد الذي يهون علي فراقك " وأخيرا أبكم النشيح صوتها، و أسندت رأسها إلى القبر ماسحة عبراتها بباطن كفها ، بينما شعرت بيد قوية خشنة تحطّ على كتفها، فخطر لها أنه أحد المارين بها، ولكنها سمعت صوت إنسان يعرفها لأنه نطق اسمها مسبقا إياه بسيدة، فاستدارت إليه ببطء واهن ثم دقت النظر إليه ، لقد عرفته حتى مع التغيّر الهائل الطارئ على وجهه، كانت عيناه حمراوين مثل جمرتين متقدتين؛ لأنه قضى الليل بطوله يبكي و لم تكن سميحة قد رأت بؤسا في عيني رجل كالبؤس الذي رآته الآن، و كان وجهه مكدودا، يقطر حزنا و شعره غير منسق منسدل على

جيينه، معذبا عذاب إنسان مجنون من الألم الأسود، وجنتاه خاسفتان شاحبتان ،مفلسطين من الدم، يرتدي سترة رمادية بدت لوهلة واسعة عليه ، مجرد رجل مغلوب على أمره، رجل تعيس منهوك القوى خال من العلامات الحيوية القديمة التي كانت تجليه بالصورة الحسنة و الطلعة البهية، وأحست بالشفقة عليه ونسيت حزنها ؛ لأنها اكتشفت أن حزنه أضعاف حزنها. لم تكن قد قابلته من قبل، و كذلك لم تتبادل معه حديثا أو تحية حتى، لكنها كانت تحبه، لأن العزيمة على قلبها أثيل كانت مغرمة به، كيف تستطيع أن تواسيه؟ أي كلمات تقول؟ أي شيء تفعل ؟، إنها مدركة أن عبارات العالم النموذجية بأسرها لن تستطيع أن تخفّف عنه هذا الألم العاصف، لا شك أنه يتألم ألما مسعورا، كيف لا وهما كان سيتزوجان بعد أسابيع قليلة، وكانا قد رسما حياتهما معا، ورتّبا الأمور جميعها ولم يبق إلا انتقالها للعيش معه في بيت واحد، ما الذي بمقدورها فعله لأجله؟ إن أثيل لو كانت حية وشاهدته على هذه الصورة لاضطربت واكتأبت و بكت بكاءً مرا ولاحظتها شعور بالتعاسة ثم لكانت الآن تكافح من أجل إسعاده وطرد همومه، كان صديقها وحبیبها، و كان ذات يوم ابنها أيضا، ما الذي ينبغي أن تفعله لأجله وهي مفلسة الحيلة، لا تستطيع منع دموعها من الانهمار؟.

كان خليل قد بُلغ بالخبر الفظيع عند التاسعة والنصف مساء أمس، عندما عاد من الطواف الفارغ في الشوارع والأماكن التي لم يرتّب لزيارتها، لم يبحث عن شيء بعينه، كان يهرب من البقاء لوحده، كان لا يخاف من عقله؛ بل يخاف من قلبه، وكان يجلس عند قبر أمه صامتا أحيانا، متحدثا ثرثارا أحيانا أخرى، ولم تغادر ذهنه صورة أثيل الأخيرة في الحديقة، والتي لو قُدر له نسيان حالتها فهذا لا يعني إلا تحوُّله إلى رجل مجنون، و عندما عاد تجنّبت خالته الجزعة سؤاله عن الأماكن التي يقضي نهاره فيها؛ لأنه غدا حاد الطباع، سريع الغضب، شرسا عدوانيا، قليل التهذيب تقريبا؛ فقد اكتسب طبعه القديم المتهوّر عندما تعرض للحادث و فقد القدرة على المشي وعندما توفيت أمه، طرأ تغير على حياته وعلى نظرتة، ووقاحة على تصرفاته، لم يخسرهما فحسب؛ بل خسر نفسه أيضا.

لفت انتباهه عند الساعة العاشرة ليلا بينما كان يتسكع في الطرقات بيتٌ مهجورٌ عديم السقف، أحد جدرانه القائمة به كوة على امتداد طوله و الباقية انتصبت إلى نصفها و تناثرت حجارته على الأرض و تكدس بعضها في الزوايا ،فدخل إليه و جلس في زاوية يتأمل أنامل الليل تلون الكون و النجوم تكسر الظلمة و القمر يتحدى العتمة، فسحلته ذاكرته مرغما و تراءت له أثيل جالسة في الزاوية المقابلة جلسة إغراء و تضحك عليه ضحكا ماجنا و تلف خصلة من شعرها الأسود حول إصبعها و تعض شفتها بغنج وضيع مثلما تفعل الساقطات، ثم رفعت ثوبها

على نوع خليع كاشفة عن فخذ غض، وفتحت أزرار فستانها عند الصدر ثم كشفت عن كتفها ورشقتها بنظرات ساخرة "كم أنك غبي يا خليل، سخرت منك ووضعتك أين أريد، حركتك مثل بيدق على رقعة شطرنج" وثنائية صدرت عنها ضحكة ماكرة، وما يلبث أن يلعن نفسه ويحتضن رأسه بكلتا يديه أملا في طرد طيفها. وبينما هو كذلك، احتل الزاوية متشرد مجنون ممزق الثياب يداري طعاما ملتقطا من حاوية القمامة، وأولاه ظهره ليسترقوته الضنين متلفتا إلى خليل بنظرة متوجسة، داسا الطعام في فمه، في تلك اللحظة حسده خليل بقوة من باطن روحه، وتمنى أن يكون مكانه "إلهي، لما لست مكانه".

كان يثابر على التدخين بصورة مفرطة، على نحو غير معقول، إلى أن تداهمه نوبة سعال قوية مصحوبة بالغثيان، كأنه كان يفتش عن طريقة ما ليقتل نفسه، رغم إدراكه أنه لن يموت بهذه الكيفية الرحيمة، فلم يسبق لإنسان أن مات بها، أضحي ساخطا يأنس جريح الكبرياء، تماما كما يمكن لإنسان مخذول أصيب بخيبة أمل فاحمة قاتلة أن يكون، لإنسان فقد أهم عناصر حياته، عنصرها تقترب أهميته للماء والهواء؛ بل فقط ركيزة حياته المنيعه، فقد أثيله الحنونة، إن الصدمة تُولد صمتا بلا حد أو ثرثرة بلا حد، أما بالنسبة لخليل؛ فقد جعلته غاصبا بلا حد، متمسكا بعشوائية في الشوارع بلاحد.

اندفع نحوه خليط متناقض من المشاعر يصارع بعضها بعضا، ينتصر ويُغلب، منذ أن تركها في الحديقة متيبسة الوجه، أحس بالغضب والشفقة عليها، أحس برغبه في قتلها ونقيضها في مواساتها، يحس كما لو أنه يريد الركض إليها وبالوقت ذاته أن يهرب منها، يفهمها ويلومها، يحبها ويكرهها، ولم يكن بوسعه تمييز أسباب الكراهية، هل لأنها عاهرة وهو الذي يمقت ذلك الصنف من النساء الوضيعات، أو لأنها أخفت عنه حقيقتها؟، أو لأن الكراهية جزء منيع من حبه المجنون بها، إنه يحتقرها و يقدرها، يريد لها وينفر منها، يتمناها قلبه و يلفظها عقله، صفوف من المشاعر المتضاربة، نوع من الصراع بين العقل والقلب. كان واثقا من مسألة واحدة، أنه لن يتزوجها ولو عاش بقية حياته شقيا، لأن شرفه سوف يشقيا، و سوف يظل يشك فيها، موجه أصابع الاتهام نحوها سواء أتت ذنبا أم لم تأت، وإن ما أنجبت أطفالا سوف ينفر منهم لطعنه في أبوته لهم، أجل، إنه سيخفق حريتها، كان كبرياؤه يخاطبه بلغة حازمة بينما قلبه يتوسله أن يرضى بها كيلا يعيش شقيا ما بقي من عمره.

إن قلبه اللعين يحاول خداعه "إنك تحبها"، فكان خليل يصرخ مثل المعتوه العاجز، يجيب مثل أسير استسلم لإرادة العدو، انتصر التعذيب على وطنيته "أجل إنني أحبها، أحبها" وحبها يتضاعف على نحو مرعب، ويخشى أن يخرج عن المعقول، لم يبد له من قبل أنه يحبها على

هذا النسق كما يبدو له الآن، إنه يحنّ إليها ويريدها كأنها مادة مخدرة تعوّد عليها عقله، ينبغي أن يتعاطاها وإلا إنه سينفجر، إن حبها اللعين مثل الأصفاد تعاقبك بوجع مهلك كلما أقدمت على محاولة التخلص منها، تسلخ موضع الجرح الخامد؛ كي تعيدك عبدا ذليلا إلى حالة الخنوع، إن حبها مثل السرطان لا يملك ترياقا شافيا، يوجعك اليوم و غدا و إلى الأبد، إن حبها مثل الحصار الناجم عن حمق سياسي يمنع عنك المؤن و الذخائر، ينهكك، يمتصك حتى تضعف ثم يتم الغزو بسهولة و سرعان ما يسلب منك، السيادة، العرش، الأرض وعندئذ تغدو مملوكا مسودا تأمر فتنفذ، تُقزّم فترضى، تهان فتبلع، وليس لك إلا البكاء على الأمجاد المدفونة تحت أنقاض الذكريات مشرّبة الأعناق، لا تعفيك إن حُزرت رقيبتها من التلصص عليك من خلال شقوق الحطام.

ولكن لا، لن يبلع، لن يتزوجها، لتذهب ظروفها إلى الجحيم، لتذهب دوافعها إلى الجحيم كذلك، لن يتزوجها مطلقا، و كان يضرب رأسه بالحائط أملا أن يزيلها الضرب من رأسه على أنها لا تختفي ولا تزول و لا تذهب، إنها كما رأها للمرة الأولى كاذبة مدعية مختلقة للقصص فيشعر بالمهانة، يحسّ أنها سخرت منه و ضحكت عليه و استغفلته، كما لو أنه رجل أخرق يسهل التمثيل عليه، و سرعان ما يحقد عليها، و سرعان ما يجد العزاء في صورتها الأخيرة، مهانة ذليلة، متألّمة فيشعر بالاستمتاع، يتلذذ لأنه انتقم منها، شكر وأعجب بنفسه لأنه أهانها بذلك العرض الوضع، لا شك أنه جرحها و ألمها، ما أجمل هذا الشعور المزهر، إنه يسري عنه، و يحثه على الفرح، شعور لذيد كطبقة المفضل، كهوايته الأثيرة، هنا يتساوى معنى الهزيمة والانتصار، و على نحو غير مسبوق، يشعر أن ذلك لم يكن كافيا للنيل منها، ليته فعل بها شيئا آخر أكثر سوءا و أشد فتكا لأن قلبها صنع من حجر و كرامتها من قذارة و ضميرها من كفن، ليته نطق بالمزيد من الإهانات، ثم يخبو هذا الوحش الكاسر، و يستيقظ خليل الملاك الرحيم، الهادئ الطيب، كيف استطاع أن يجرحها بذاك الشكل غير الإنساني؟ كيف استطاع أن يهينها ويجرح مشاعرها ويكسر قلبها و هي التي أنقذته، الحائط، يتعيّن عليه ضرب رأسه بالحائط، ربما يتمشّم هذا الرأس ويرتاح، ليتها تختفي من عقله، ليته لم يحبها، ليته لم يتعرف عليها، ليتها تركته في الحديقة ينتظر إلى الأبد، ليته يراها الآن لأنه يشواق إليها، ليته لا يراها مطلقا، ليته يبكي لينسى و فجأة يشرع في البكاء مثل الطفل الصغير، بيد أن دموعه وقفت في صفها فرفضت تجريده من ألمه الضارع .

عبثا يحاول مصادرة حياها من قلبه، إنها ثورة فاشلة على نظام ديكتاتوري دموي متأصل بانقلابات النرجسية المرضية لتحقيق المصلحة الشخصية.

أضحت أمانيه بسيطة جدا من الحياة، ليس يطلب الكثير، لو يستطيع أن يستحيل جمادا، شيء بدون إحساس، حجرا أو صخرة، شجرة، ترابا أو طينا، من الأمن له أن لا يظل إنسانا، ليس يحتاج إلا لفقدان الشعور، ليته يكون سحابا أو ضبابا، جزءا من الطبيعة الصامتة الموجودة لخدمة الإنسان. إن الإنسانية تعني الألم، تعني الشعور، تعني الشقاء، تعني العذاب. إنه أمر مسلّم به، إن هذا العذاب دائم، سوف يتنقّس معه كل نفس، يستيقظ معه كل صباح، ينام معه كل ليلة، يرتدي معه الملابس، يزدرد معه الطعام، يتجول معه في الشوارع والعمل، يحضر معه الاجتماعات واللقاءات، يتحلّق معه على طاولات العائلة، سوف يحلّ معه أينما يحلّ ويذهب معه أينما يذهب، أينما يلتفت، عندما يرفع رأسه أو يخفضه، عندما ينظر إلى الشمس، تلك التي لن يستطيع أن يمنع شروقها، عندما ينظر من خلال النافذة، عندما يفتح الحاسوب، سيكبر معه ويشيخ هو و يظل ألمه شابا يافعا ، لن يتمكن من الشفاء، هذا العذاب ليس له دواء، مثل المرض الخبيث المتفشي، لا يقتلك دفعة واحدة ولا يدعك تعيش بسلام، إنه يغزو كل ركن و طرف و عضو.

راح يعود و ينام متأخرا و يستيقظ عند العاشرة صباحا، ليس مهتما بمباشرة أي عمل، ولماذا يهمه أن يعمل؟ تركيزه مشتت، و سلوكه يشبه سلوك المنحرفين، يتصرّف على نحو غريب مثير للريبة، ليس يعبأ بمظهره، ولا بأفعاله، لحيته فوضوية، شعره مهمل، ربما تشاجر ثلاث مرات أو أربع على أقل تقدير، تشاجر مع رجال لا يعرفهم، صادفهم في شوارع المدينة القديمة والشوارع المظلمة، منعمة الأمان، التي تتجمع بها الأصناف الرديئة من البشر، لصوص محترفون ومجرمون سابقون، كان يبحث عن متنفس للغضب، يثق أن الأماكن المظلمة المهجورة تحتوي الآلام.

ترأى له أن سببا تافها كالنظر إليه كاف لإشعال حرب عالمية، ليس شجارا بسيطا فحسب "أنت لماذا تنظر إلي .." لم أكن أنظر إليك، كنت أنظر إلى ما خلفك، ليس فيك أي ميزة يتحرّق الخلق لرؤيتها"، إنه يهينه، حسنا إن لكمة أو لكمتين ستعلمه أن يضع رأسه في الأرض، وأن لا يتناول على غيره.

وماذا عن امرأة تستوقفه في الطريق تستفسره عن الساعة أو تستدلّ على مكان _ "هل تظنين أنني ساعة، احلمي معك واحدة .." ليس عملي أن أدلّك على الأماكن لست خريطة، اذهبي إلى أي مكان، المهم أن تغربي عن وجهي ."

لم يتفق له أن قلل من احترام امرأة، فوالدته نشأتها على احترامهن، والتحدّث معهن بتهذيب، على أن تجربته الأولى في التقليل من احترامهن في الحديقة و أداءه المذهل في ذلك، ساقه إلى معاودة الكرة، سمين كل امرأة من الآن فصاعداً على نحو شيّق، يطيب له إهانتهن، فداخل كل امرأة عاهرة مسترة تدعي الشرف والفضيلة.

و كذلك زار أماكن لا يعرف لماذا ذهب إليها، اللهم إلا إذا كانت تجذبه إليها بقوة أكبر من مقاومته، إن فيها جاذبية غريبة، ويجلس تحت الأشجار يتوقع أن تنزل عليه معجزة كما نزلت التفاحة على رأس نيوتن فغيرت الكون ، يقف ليتساءل عن سبب تواجده هنا، لماذا مر بهذا الطريق بينما هناك واحد مختصر، المكان الوحيد الذي زاره يحمل معه وعيه الكامل هو قبر أمه، كان يشكو إليها ما الذي فعلته الفتاة به، كيف حطمت قلبه، كيف خدعته، كيف خذلتها والخذلان قاتل وكيف جعلته يعاني، وليس بوسعه إخبار أحد، كم أن الحمل ثقيل، يتوق إلى مشاركته مع أحد، بيد أن بعض الهموم لا تقسم ولا تشارك.

ليس يعبأ بعدد السجائر التي يدخنها، وكانت خالته تعظه مرتبكة، أن استمراره على هذه الشاكلة سيودي به لقتل نفسه، فيحدّق بها حانقا، ويزجرها كيلا تتدخل في شؤونه، وأن تدعه لحاله، جلب هذه العادة الرديئة من السجن، عجيب كيف يتحمّل الرجال هذه الرائحة الكريهة، عجيب كيف يدفعون مالا ليبدّدوا صحتهم الثمينة. كانت تود مساعدته، لكنها لا تعرف الأسباب التي أودت به إلى هذه الحالة، فهو لا يكلمها، و نادرا ما يمكث بالبيت، يعود ليلا، تشعر بعودته، ولكنها لا تجرؤ على مقابلته، لا شك أنه عصبي غاضب.

عاد مبكرا في هذه الليلة عند التاسعة و الربع، تلقى رسالة جديدة عند التاسعة و النصف، ليس به رغبة ليقرا الرسائل، من المؤكد أنه السيد مالك، أو إحدى الجرائد المهتمة بتوظيفه، أو ربما هي أثيل، في محاولة وقحة منها للسؤال عنه و التودّد إليه، أعرضت عن مراسلته هذه المدة اعتقادا منها أنه يحتاج إلى عنصر الوقت لهدأ و يتلاشى غضبه، وعندئذ بوسعها أن تضيف المزيد من الإيضاحات والمبررات، و تبذل مجهودها الذي يدعو إلى الشفقة كيما تبيض فعلتها السوداء، سيسعده معرفة أنها كانت تتلوّى ألما في غيابه، و لكن أمله خاب عندما قرأ اسم المرسل، كان المجهول الذي كشف له حقيقتها، لم يخطر له أن يتحرى عن هويته الملعونة، وفتح الرسالة ليقراها جاء نصها كالتالي

_ "السيد خليل

لم أقدم نفسي في الرسالة السابقة، ربما ستصاب بالصدمة عندما تعرف من أكون كما صدمت أثيل عندما عرفت؟ أنا شقيقتها الوسطى ميرنا، كنت في رسائلها لك أمثل الشقيقة

المحبة الودودة، ولكن ذلك ليس صحيح، لقد كذبت عليك، ربما تتساءل لماذا أكتب إليك هذه الرسالة الآن، وماذا كانت دوافعي لأفصح شقيقي أمامك؟، إن ضميري قد استيقظ بعد فوات الأوان، وهو يقرعني ويعذبني ولا مفر منه، وليس لدي شخص أشاركه همومي سواك، فلا أحد غيرك مطلع على سر أختي، منذ طفولتنا وأنا أكرهها وأحقد عليها، كانت فتاة جميلة محبوبة مرغوبة من طرف الجميع، بينما لم أظفر أنا إلا بالازدراء والتجاهل وألقيت باللوم عليها، كنت أعتقد أنها تتعمد خطف الأنظار و جلب الانتباه، وهكذا استنزفت طفولتي في إلحاق الأذى بها، كنت أرثب خططا ماكرة تعطشا مرضيا مني لإظهارها بصورة سيئة أمام أبويننا، ذلك لم يكن ناجعا كثيرا، على أنه كان يمتص بعض الكراهية التي أكتها لها، ولم يبد أن شعوري إزاءها كان ليتغير، فقد كبرت و كبر معها جمالها و فتنتها، وكذلك ارتفع عدد محبيها، وكان الرجال جميعا يرغبون فيها بينما أنا لا، وعندما عرفت سرها لم أهرع إليها لأشكر لها تضحياتها من أجلنا و أخذها بين ذراعي لا؛ بل جعلت حياتها لا تطاق، أصبحت أهددها بإخبار أمي، وألعب بأعصابها و أجعلها تخاف ويمتقع لون وجهها، تلذذت بذلك الشعور، و وجدت متنفسي فيه، أرهقتها، أتعبتها، ألمها، خلعت قلبها، جعلتها تعاني وتحزن، وآخر ما بلغت كراهيتي أنني أرسلت إليك رسالة أفصحها أمامك، اخترت التوقيت المناسب لأجعلها تقابلك، رميتها بين أنيابك لتظهر لها احتقارك واشمئزك، كنت مسرورة مبهجة للغاية، وعادت إلى البيت وواجهتني و صفعتني الحقيقة على وجهي، في ذلك اليوم قالت أختي عبارة أوجعتني في الصميم، لقد نزلت من مرتبة الإنسان الى مرتبة الحيوان، و رفض عنادي الاعتراف بالوجع، وصفته بالغضب والامتعاض، رفضت أن أقرّ به، وفي الصباح الباكر استيقظت سعيدة جدا. كل الناس توهموا أنها سعيدة، في الواقع تعمّدت أن تزرع فيهم ذلك الاعتقاد، قلت لنفسي أن هناك خطبا ما، لا ينبغي أن تسعد، إنها لا تتحطم، كيف تتعافى بهذه السرعة؟، أكملت مشروعني في إيدائها، كنت ألمح إلى فعلتها، غير أنها لم تعبا بي، طننت أنني أفعل ذلك بسبب كراهيتي. لا، اكتشفت متأخرة أنني أصبحت أحبا و أقدر صنيعها أخيرا، ولكن كله حصل بعد فوات الأوان، خدعتنا عندما قالت أنها ستذهب لتكتب قصة صغيرة عند شاطئ البحر، تظاهرت أنها متحمسة، أنها بخير، ذهبت يوم السبت، قبّلت يد أمي و خاطبتها قائلة أنها ستفعل أي شيء لأجلها، قالتها كأنما كانت تودعها الوداع الأخير، لم أدرك ذلك المعنى في الوقت المناسب وإلا لكنت منعما من الذهاب، لكنت عانقتها و وعدتها أنني لن أسمح أن تعلم أمي، لكنت اعتذرت لها و رجوتها أن تغفر لي، كل الجيران والأقارب والأصدقاء يظنون أنه كان حادث، أنها وقعت في البحر و ماتت، بينما هي في الواقع قتلت نفسها، لقد انتحرت أختي بسببي، أنا من قتلتها، خشيت أن أخبر أمي

كما أخبرتك أنت، وكذلك لم تستطع أن تتحمل خسارتك ، لقد تحمّلت طويلا، كيف أستطيع الآن أن أعيش؟ لم يسعني زيارة قبرها بينما في حياتها كنت أنفر من زيارة غرفتها، لقد ماتت أختي يا سيد خليل، ماتت أثيل، لم تعد موجودة و البيت من دونها يبدو مثل البيت المهجور، إن أُمي تسلخ نهارها في المكان الذي توفيت فيه، و أختي تحجز نفسها في غرفتها تحيط نفسها بأشيائها و السيدة سميحة، تكاد تسكن في المقبرة، بينما أنا يلقيّني الخوف و الفزع، ذاك الخوف الذي وعدتها أنها ستعيش في جوفه إلى الأبد، التصق بي أنا، إنها تأتي في أحلامي وتخبرني أنها لن تسامحني، هذا هو العقاب"

وكفّ خليل عن القراءة، "ماتت أثيل" راح الصدى يتردّد في عقله، وفجأة ابتلعه الظلام الدامس، كان ينزلق إلى تجويف عميق ليس له نهاية، ليس له قاع، تجويف أسود مظلم، كأنه يوّد أن يصرخ، و لكن الصرخة لا تخرج من فمه، شعر بأسوأ شعور في العالم، إنه يستمر في السقوط إلى أسفل، كان مغيبا عن الدنيا و هاهي رحلة العودة تعيد إليه إدراكه الخامد ، وجد مستقرا أخيرا كرسيًا من الخشب يجلس عليه مثبتا، لم يبد أي استجابة، لم يتحرك لم يلتفت، لم يرفرف جفنيه، لم يحرك يديه كأنه مقيد، و شرعت نار مجنونة تشتعل في باطنه، كأنه يراها و هي تلقي بنفسها في البحر، لم تلق نفسها، كان هناك رجل خلفها يدفعها لتسقط، فشل في التعرف على هوية ذاك الوغد الذي يترصّص بها ليدفعها إلى البحر، يعلم أنها لا تجيد السباحة، يعلم أنها تخاف المرتفعات، تخاف مياه البحر، هو من أجبرها على الذهاب الى هناك، ثم دفعها بيدين خائنتين، كانت تثق به، كانت ستذهب معه إلى جهنم معتقدة أنها النعيم، ولكنه خانها ودفعها لتسقط، من يكون؟ تعرّف عليه و قلبه يحترق من الصدمة، إنه هو نفسه، خليل الوغد المنحط، هو من قتلها، لم تقتل أثيل نفسها؛ بل قتلت بيديه القاسيتين و إن كان لا بد من وجود جريمة فهو منفذها، إن لم يكن شريكا فيها بالتعاون مع شقيقتها، قتل حبيبته الغالية التي أنقذته وحمته وكانت مستعدة لتقبله بعاهته الكسيحة، أحبته مسجونًا، أحبته عصبيا و مسجونًا، كما كانت تحبه أمه، الحب الذي لا تشوبه الغايات، كم أنها شقية هذه الفتاة !!، يا لسوء طالعها، لماذا أحببت وغدا مثله وغدا قضى عليها، وكفر بمعروفها، لقد رحلت أمه عن الدنيا للمرة الثانية، و تحرز صوته المكتوم فصرخ كالمجنون، و تهيج كالحیوان المتألم، لن يستطيع أن يجنّ على أية حال؛ بل سيعاقبه الله على قتلها بأن يبقى عاقلا واعيا لكل ما يدور حوله.

"اه يا خليل "نشجت سميحة و هي تهض على قدميها "لقد ذهبت، إنها ميتة، وقعت في البحر وماتت".

لم يجيها؛ بل حدّق بلوعة فوق كتفها إلى الزلم الرخامي الأبيض ، المنقوش عليه بحروف سوداء واضحة ، اسم أثيل وكنيتها، تاريخ ميلادها ووفاتها، وعيناه الجافتان تضطربان شقاء. قالت سميحة برفق عندما برز لها مثل الطفل الصغير الذي ماتت أمه، وهو أحوج منها إلى المواساة .

_"تدرّع بالصبر، كلنا نتدرّع به، إن أمها المسكينة تحاول أن تظهر متماسكة و كذلك أنا، وشقيقتها وكل من أحبها" وحوّلت بصرها إلى قبر قريب مخبرة إياه أنه قبر والدها، لقد اجتمعا سويا، ولم يكن يستطيع أن يشيح نظره عن الزلم كأنه لا يستطيع أن يصدّق أن المدفونة هنا هي حبيبته أثيل، من غير الممكن أنها تنام هنا، وتنقّس بعمق، واستطاعت سميحة أن تثير انتباهه عندما استخدمت مسألة معينة

_"كنتما ستتزوجان، في الشهر القادم، كانت سعيدة جدا"

فجرّ نظره إليها ببطء وقال بوهن

_"أهي من أخبرتك بذلك؟"

_"أجل، ليست تخفي عني أي سر"

_"بلا؛ لقد أخفت عنك أخطر سر في حياتها لئلا تخسرك" هجس بحرقه و معالم وجهه

تتكسر، وكان بركان هائلا يثور في جوفه

ثم استطردت

_"كانت سعيدة جدا، لأنها ستتزوجك؛ بل إنني لم أرها في حياتي أكثر منها سعادة الأسبوع

الأخير، لقد جعلتها أسعد النساء على وجه الأرض، ربما يواسيك هذا قليلا".

و سرعان ما أطرق رأسه عاصرا عينيه الشقيتين، و أراد أن يعترف أنه جعلها أشقى فتاة على وجه الأرض، وأنها كانت تمثّل عليهم جميعا دور الفتاة السعيدة، وأنها كانت تتمرّق من الألم، لو أنها عاشت تعاستها بتفاصيلها الدقيقة لأحسّ ببعض العزاء، ولكنه حرم من هذا لعلمه أن التظاهر بالسعادة يزيد من تعاسة الإنسان و يجعل الألم يتفاقم، فهذا لا يواسيه؛ بل يقتله في الدقيقة ستين مرة، أراد أن يكشف لها الحقيقة دون تردد، يخبرها أنه أهانها وجرح شعورها، وقسا عليها، أنه مجرد شيطان في جسد إنسان، مجرد وغد حقير بئس عديم الرحمة، ما أقسى أن يحرم من الاعتراف بذنوبه لأحد، حيث أن هذا الاعتراف الذي يخفّف عنه، كانت قد دفعت ثمنه حياتها كي لا يعرفه أحد، لقد سبق أن استخف بجروحها، وليس له الحق أن يستخفّ بموتها، إذا عليه أن يصمت و يكمل ما بدأته، في عناء أبكم و شقاء عظيم .

_"عندما أخبرتني أول مرة أنها تحبك، ظننتها مجنونة، كان ذلك عندما تعرضت لذلك

الحادث، التمسست مني الذهاب إلى المشفى لتطمئن عليك، سخرت منها " ورفعت مندليها تضغط به على عينيها لتكبح سيل الدموع الجاهز.

_ "هل جاءت إلى المشفى؟" سأل بعناء إنسان مجرد من الوعي

_ "لا أظنها أخبرتك، أجل، اضطررت إلى مرافقتها؛ لأنها هدّدت أنها ستذهب وحدها، لقد أحببتك كثيرا يا خليل، أكثر من نفسها "

راح ضميره يركله، وكانت ألفاظها تغرز في قلبه كصفائح الحديد الساخن، وكان وجهه صفحة من العذاب والحزن وشعر في قلبه بألم جسدي حقيقي ومن بين شففتين جافتين خرج صوته متأثرا متقطعاً، كأنه يؤلمه

"أنا أيضا أحببتها، أكثر من أي شيء في الدنيا، ولست أشعر أن بمقدوري العيش دونها، هل تستطيعين التحمل أنت؟"

فوضعت سميحة يدها على ذراعه

_ "كانت فتاة رائعة طيبة، شجاعة، لقد أحبها كل من عرفها، كن قويا، إنها مشيئة الله، كلنا سنموت يوما ما، كلنا، كن قويا يا خليل "

وتهدّ تهيدة تعيسة، نظر إليها ساخرا من مواساتها، "كن قويا"، ومتى كان قويا؟ إنه جبان ضعيف، ولولاها لما قامت له قائمة، لقد استطاع نوعا ما أن يتحمّل أهوال السجن والمعاملة الفظة، والظروف السيئة؛ لأنه يعرف أن الجزء سيكون رؤيتها عندما يخرج، لماذا ينبغي أن يكون قويا؟ لأي غاية؟ إنه لا يصمد من دونها، كان قويا بها، وها قد انتهى العالم بنهايتها، كل شيء جميل ذهب معها.

"لن ننساها أبدا، لقد رحل عنا جسدها، ولكن صورتها ستظل محفورة في عقولنا" قالت سميحة ما تظنه لغوا مألوفاً لا يفيد لكن ينبغي أن يقال ، وقد وسعها أن تستجمع رباطة جأشها عندما رأت أنه في حال يرثى لها "سأذهب الآن، وأعود بالغد"

_ "سيدة سميحة" نادى عليها عندما ابتعدت عنه بضع خطوات

_ "كانت تحبك كثيرا " فأومأت برأسها موافقة، وابتسمت شبه ابتسامة حزينة و شيّعها ببصره إلى أن انعطفت عند أحد القبور، وعندما استدار استولت عليه حسرة دامية، إنه وحده الآن، وخيم سكون ثقيل، وظل صامتا لمدة دقيقة مذهولا جامدا شاعرا بضياح في كون ليس له بداية أو نهاية ، لم يعرف من أين يبدأ أو ماذا يقول لإنسان ساهم في موته، إنسان طيب تعلم منذ الصغر أن يمنح لا أن يأخذ، لقد باعت جسدها في سبيل أمها، إنها لا شك أعظم نساء الدنيا وسوف تظلّ كذلك، ليس مهما أنها لطّخت نفسها بالعار، حيث أنها فعلت ما

رأته ضروريا، وكان يستطيع أن يمحو كل معاناتها بحركة واحدة، أن يفهمها وإن لم يستسغ فكرة الزواج منها ، على أنه استهان بها و سخر من معاناتها، إنه نادم الآن ندما حقيقيا أين لا ينفعه الندم .و لو لم تمت لظل حاقدا عليها ،كان يجب أن تموت ليستريح حقه ويستطيع فهمها ، وأدرك أنها لم تخدعه مطلقا كما تصوّر ذلك اليوم في الحديقة، لقد راقبته لسنوات من بعيد كمنفي يراقب وطنه وأحبته حبا صامتا مع إمكانية تواصلها معه بسهولة، و حاربت كي لا تفعل ذلك، و لولا حاجته الماسة إلى ملهم معين لما ظهرت في حياته.

_ "لو أنني لم أختشر في اللعين" قال برنة عذاب وأسف "لو أنني اخترت أن أكون ملجأك، لما كنت ترقدين هنا، لكانت الحياة تدب في أوصالك، إنك حمقاء غبية يا أثيل؛ لأنك قتلت نفسك بسبب وغد حقير مثلي لا يساوي دمة من عينيك، كنت حقيرا معك، أهنتك و جرحت قلبك،،أ تصدقيني؟ إن قلت أنني كنت أتألم أضعاف ألمك، أردت أن أعطي ذلك الألم للإنسان آخر؛ لأنه لا يحتمل و اخترتك أنت لحمله عني، اخترتك لإيلامك،أحبك قلبي و نبذتك غريزي المغرورة ، وكنت أحبك حتى وأنا أهينك، و عندما شعرت بأنني خسرتك انهار عالمي الجميل، كانت العبارات الجارحة منبعثة من مكان مجوف مظلم من قلبي، و شعرت بغيرة مجنونة من هؤلاء الرجال" غدا يتنفس بصعوبة " كنت أنانيا؛ لأنني فكرت في نفسي و ليس فيك، فكرت كيف أشعر أنا فقط، و ليس بما تشعرين أنت، ألم أعدك أنني سأعوضك، وأخذك لتري العالم؟.لقد أرسلتك إلى القبر، هكذا عوضتك " و طفق يبكي ،عيناه مثل مزايبين في ليلة ماطرة " أحاول أن أقنع نفسي أنك لم تفعل ذلك، أنك غيرت رأيك في الدقائق الأخيرة ،و أنه كان مجرد حادث حتى لا يؤنبني ضميري، لكن ذلك لا يجدي، ليتني فهمتك، ليتني واسيتك وأخبرتني أنني أشعر بألمك ومعاناتك، كما أشعر به الآن، وماذا إن أنا تزوجتك؟، أكان العالم سينتهي؟، أ كانت الدنيا ستهار؟، أخبريني ماذا ينفعني المحافظة على الكبرياء والكرامة وأنا في غاية الشقاء والتعاسة، ماذا يفيدان؟ لقد حرمت منك و هذا هو العقاب العادل الذي أستحقه، كنت مثل طائر سجين يتخبط بين قضبان قفص بديع ليحرّر نفسه، ولم يستفد إلا إنهاك قواه واضطهاد كرامته، كان يظن لسناجته أن لطم جناحيه يخيف متوحشا دمويا مستعبدا كالإنسان، فلم يزد ذلك إلا على إضحাকে وتأمين عرض ممتع له، كنت أنا الطائر وكنت أنا الإنسان بينما لم تكون أنت إلا القفص، مات الطائر وظل القفص.

وعندما تحدّثت عن الشقاء، توهمت أنه قابل ليتحملة الإنسان؛ لأن الإنسان يستطيع أن يتحمّل، ظننت أنه كمشقاء السجن أو فقدان أمي، أو فقدان قدمي، إنه مختلف لا يطاق، لا يحتمل، لقد مت ألف مرة و أنت حية، بينما أحيأ أنا ألف مرة وأنا ميت و هذا أسوأ من

الجحيم، أحسدك؛ لأنك تنامين في هذا القبر، أما أنا؛ فتنام في داخلي قبور بعدد أعضائي، أحسدك لأنك انتهيت من كل شيء، بينما أنا انتهيت إلى لا شيء، ألأمي لا تنصفها الكلمات يا أثيل، ألأمي تؤلف كتباً تخط أسطرها من نزيف قلبي الدامي، ألأمي حكايات. ألف موت و موت و ألف جحيم و جحيم، ألأمي لا تنام لتستيقظ، لا تتوه لتعود، لا تبعثر لتجمع، ألأمي كانت قدائف تقصف مدنك الهشة، وعندما سوتها بالأرض حلت عليها لعنة مدنك، فطفقت تقذف بعضها بعضاً، ها قد ختمت رحلة شقائقك في حين بدأت رحلة شقائي، وليس لي ملجأ سواك لأهرب من هذا الشقاء الرهيب، ماذا أفعل يا أثيلي؟ إلى أين أذهب يا حبيبتي، ليس لي ملجأ، ليس لي ملجأ، كان لدي واحد فقط هو أنت، والآن وقد رحلت، رحلت معك كل ملاجئ الدنيا، تستطيع حتى أكثر الشوارع بؤساً أن تحتضن جسدي، ولكن ماذا عن روعي المعذبة، من سيحتضنها، أين تذهب؟ إنها متألمة تنتقل من ضياع لآخر، روعي مشردة يا أثيل، وقلبي يتلوى عذاباً لا يطاق، من سيفهمني بعدك؟ كنت أعتقد أنني أعاقبك بينما كنت أنت من يعاقبني، والآن بعد موتك اكتشفت أن العقاب ليس بتلك الرحمة، فعلى الأقل كنت حية تتنفسين، إن عقابي الحقيقي بدأ الآن، وأنا أقابل هذا القبر والزلم كحقيقة يستحيل الهروب منها، تعاقبني ذكرياتك، حيويتك التي أخدمتها، تعاقبني ضحككتك التي أزهقتها، تعاقبني حمرة وجنتيك التي لونتها بالشحوب، تعاقبني عيناك التي أبكيتها، تدينني قدمي التي أوقفها ووحدتي التي جمعتها وعزلتي التي فككتها ولا أدين إلا شرفي، أجل شرفي الذي منعتني من ابتلاع خطيئتك، ذلك ما أسعى لتقديمه كبرهان قوي على براءتي، لكنني تعيس جداً؛ لأنني لا أملك حضناً يحضن ألأمي، بينما أنت تخلصت من ألم الدنيا تحت هذا التراب، إنني أبكي وأبكي ولكن الدموع لا تغسل قلبي من الألم، ما أقساك يا أثيل، كيف تفعلين هذا بي؟

لم أكن لأتزوجك يا عزيزتي، مطلقاً لن أفعل، كنت سأتزوج امرأة غيرك كاملة الشرف؛ لأنتقم منك ثم أدمع أي طريق يوصل لك النبأ كي تتلوي قهراً، امرأة أشرب معها أنخاب التعاسة، أنعسها كثيراً لتتعسني أكثر. أراك فيها عندما لا أنظر إليها، و أتذكر أنها ليست أنت عندما تقع عيناى عليها، أناديا باسمك، وأكرها عندما تناديني باسمي، لم أكن لأكون خليل غيرك. أنا خليلك أنت وغاليلك أنت و كلي نصفك، ونصفي كلك"

وفجأة استحال كرجل فقد عقله ودس يده في التراب "لماذا فعلت هذا؟ أنت من كنت نافذة حياتي؟ الدنيا سوداء يا أثيل، موحشة، لا أرى شيئاً أبيض، كله سواد في سواد، ابتلعني الظلام إلى الأبد أشعر بالألم، أشعر بالألم القارس، روعي تتمزق من فرط العذاب، ذهب كل الأعزاء ولم يبق إلا الوحدة والضياع الأبدي، هذه الوحدة التي استطعت تحمّلها بوجودك، ولكن أتى لي أن

أستطيع بدونك، أحبك يا أثيل، أحبك و لم أتوقف عن حبك ثانية و سوف أحبك إلى الأبد، وإلى الأبد سأتي إليك، فأنت ملجئي الأول والأخير ولا أملك ملجأ سواك".

ولم يعلم خليل أن أثيل قد تراجع عن خطتها، وأن ملجأها الأخير كان الحياة، وليس الموت وأن كلمات العجوز حفرت عميقا في قلبها و وقعت صك مضيقا قدما في الحياة، أشفت على أمها و خافت من دموع البيت بقدر ما انتعشت بشعور الارتياح، وأشفت عليها من زيارتها المتكررة لهذا المكان وقررت أنها لن تفعل بأمها هذا، لن تسمح لهذا الوجد المكين الذي طالعته في وجه الرجل أن يكون مصير أمها. ربما لن تحدث تلك الأمور التي تجفلها، ربما يتغير قدرها .

ولم يعلم أنها عندما وقفت على حافة المرتفع ونظرت إلى مياه البحر الصافية و قد تلاشى خوفها كأنه لم يكن يوما، وأدركت بوحى غامض و على نحو غريب أنها لا تريد الموت، بل تريد الحياة، ترغب فيها كما لم ترغب فيها يوما، ستعيش توسلا لمغفرة الله، لا لمغفرة الإنسان وستبذل في سبيل مغفرته ما تستطيع، فمقابل كل باب ذنب، يفتح الله عشرة أبواب للتوبة، شريطة أن تكون صادقة، وهي صادقة في توبتها منذ انقطعت عن ذلك العمل.

ولم يعرف أنها ابتسمت ابتسامة مشرقة، واغرورقت عينها بدموع الامل إثر عزمها الجديد، وأقرت أن الحزن الشديد والكآبة العمياء والإحباط القاتم واليأس الثائر طمسوا كل أمل مشرق وتفكير رشيد، ولم يعلم أنها تهتدت تنهيدة الفرح ووضعت خططا جديدة قيد الدراسة.

لم يعلم أنها دفعت يديها إلى أعلى و فتحت كفيها باتجاه السماء، لتشكر الله على إرساله العجوز إليها في الوقت المناسب ليفتح عينها ويدل عقلها على القرار السليم، لقد أتت ذنبا كبيرا، و بإقدامها على قتل نفسها لن تصحح المسار الخاطيء، بل سترتكب جريمة أخرى أشنع وأفظع، وعندها لن يسامحها الله مطلقا على عدم إيمانها به، ليس الانتحار حلا و لولا ذلك لما كان حراما، لقد أرادها الله أن تصل إلى هنا لتفهم أنها لا تريد الموت، لقد كانت حزينة، كئيبة وكانت مهزومة، خسرت محبوبها الغالي، و لكنها اكتشفت أنها تملك أملا أعظم من كل آمال الدنيا، تملك العودة الدائمة إلى الله، و إن أغلقت جميع أبواب البشر في وجهها، فبابه مفتوح لا يغلق، أجل ستجدد توبتها و تعمل ما تستطيع في سبيل أن يغفر الله الرحيم لها.

ولم يعلم خليل أنها لامت نفسها و جلدها؛ لاستهانتها بحدود الله، كيف وسعها أن تفكر في قتل نفسها؟ و أنها قررت أنها ستحيا ولو بدونه. وأنها تذكرت شعارها في الحياة " الشمس ستشرق من جديد، لا بد لها أن تشرق " و لكن الأوان كان قد فات، و النهاية التي غيرتها إنما كانت قدرها المحتتم.